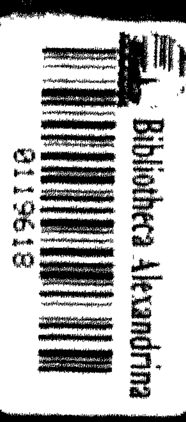

Bibliotheca Alexandrina
0119618







على اطلال المذهب المادي

﴿ الجزء الاول ﴾

« طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعد أن تطلق »
« نفسك من أسر الاغراض لئلا تنم عليك وانت واقف تطل »
« على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها »
(كتبها الدكتور شبلي شميل فوق)
(كتابه فلسفة النشوء والارتقاء)

(تأليف)

محمد فريد وجدي

الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣١



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على التوفيق والهداية ، ونستعينه على السداد والكفاية ، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ، محمد وعلى آله وأوليائه . آمين

لقد كانت للمذهب المادى في القرن الثامن والتاسع عشر دولة ، امتد سلطانها على عقول أكثر الخاصة ، وسرى منهم الي بعض العامة ، دولة جنودها العلوم الطبيعية والمعارف الكونية ، ودعاتها المكتشفات الآلية ، والمخترعات الصناعية ، وقادتها العلماء الاعلون ، والفلاسفة المقدمون ، فكان من لا يشايعها بحق الجهود الشخصية ، في بعض الفروع العلمية ، يسايرها طلبا للالمعية ، وتنزها عن العامية .

فكنت لاترى الا عالما ينظر الى الوجود نظر الواقف على صميم أسراره ، الملم بجميع أدواره ، أو متعلما داخله الكبر فردد ماسمعه من استاذه ، ترديدالببغا . لعبارات ما لقنه ، أو متعالما تشدق في المجالس بما قرأه في بعض المجلات ، أو ماسمعه من بعض الثقات . فاذا ذكر ما فرق المادة أمامهم ذاكر ، نظروا اليه نظر المشفقين عليه ، فاما قرعوه على جموده أن آنسوا منه الفهم ، أو تركوه وماهو فيه من الوهم . . . .

ماهو مؤدى هذا المذهب الذى نال كل هذا السلطان على العقول في مدي قرنين متواليين ؟

مؤداه أن الوجود قديم ، وأن المادة هى مصدر كل كائن ومرجعه ، تلازمها خصائص لاتنفك عنها ، تصلح لان ترقى بها من الجماد الذي لايعي ، الى أكبر فيلسوف المعى ، بتدرجها في أدوار متعاقبة ، مقودة بنواميس ثابتة ، عاملة على نظام آلى بحت ، لا أثر للعقل والشعور فيه . فكل مايفتنك من آثار التدبير والتعقل ، ينتهي بالتحليل العلمي الي المادة الاولية ، وخصائصها الذاتية ، وكل ماعدا هذا مما أتت به الاديان والفلاسفة ، من وجود عقل مدبر ، وروح مفكر ، وعالم وراء هذا العالم ، فزخارف كلامية

ولدها الخيال، وتمسك بها الجهال، يقوم على حفظها رجال لمصلحة ذاتية، أو بتأثير وراثة تقليدية، وقد لا يمضى عليهم قرن أو قرنان حتى يضطروا للتخلي عنها، فيصبح الناس كلهم اخوانا على المحجة المادية البيضاء، لا يضربون في متاهات الاوهام، ولا يدينون لحالم من الاحلام

هذا هو مؤدى المذهب المادى، الذى افتتن به الناس قرنين كاملين، وهم ما افتتنوا به الا لانه أعد لكل معضلة حلا خلابا، وأرصد لكل سؤال جوابا

فان قلت له كيف يعقل أن تكون المادة قديمة ؟

اجابك . وكيف يعقل حدوث شيء من لاشيء ؟

فان قلت له كيف ينشأ النظام من غير قوة منظمة ؟

أجابك بأن الكون مقود بنواميس ثابتة، فلا يمكن أن تصدر منها الا كائنات منتظمة .

فان قلت أن ثبوت النواميس في وجهة معينة يفضى الى قيام الكائنات على نظام ثابت، لا يقبل التغيير مثلما، ولكنا نراه مترقيا متدرجا، وقد يرتكس في بعض جهاته متقهقرا .

اجابك بأن هذا التحول نتيجة عوامل تابعة لتلك النواميس، افردت لها في كتب مذاهب التحول فصول كثيرة .

فان قلت له ان تلك الفصول كلها افردت لتطور الكائنات الحية، ولكني أسأل عن كيفية طروء الحياة على الجمد، ولا يخفى أن طروء الحياة حادث جلل غير وجه الطبيعة كلها .

اجابك انا ان كنا نجهل كيف نشأت الحياة، فلا يجوز لنا ان نجعل هذا الجهل منا ذريعة الى بناء الصروح والعلالي من الاوهام، فان ما يبنى على الجهل لا يجوز ان يسمى علما فان كنا نجهل ذلك، فلابد أن تكون له علة خفية سيكشفها العلم بالجرى على اسلوبنا لا بالخبط في الخيالات

فان قلت له كيف يصدر العقل من المادة التي لا عقل لها

اجابك . انك تغمط حق هذه المادة، وتحقر من شأن خصائصها ، انك تحسبها غليظة ليس لها الا صفات سلبية ، وهي في الواقع متمتعة بصفات ايجابية ، فهي من اللطف بحيث لا يمكن تصورها، ومن النشاط والحركة والحياة والعقل والفكر بحيث لا يلم اليه خيال . فهي تظهر غليظة جامدة في المواد الميتة ، ولكنها متى تركبت على شكل خاص ، وعلى نظام معين ، فيمثل ماهي عليه في مخ الانسان واعصابه ، ظهرت فيها هذه الخصائص على اكمل مايكون (انظر صفحة ١٣٠ من هذا الكتاب).

فان قلت له : الا يدل مالدى الحيوانات وخصوصا الدنيئة منها من الالهام على وجود عقل مدبر ألهمها ما به حياته وقوامها ؟

اجابك : ان ماتسميه الهاما هو عادات موروثة . ومعنى هذا ان اسلافها اضطرتها أحوال البيئة للقيام على سنة خاصة لحفظ وجودها ، فأورثت هذه العادات ذراريها ، فصارت تأتيها بغير روية كأنها ملهمة بها ، وهي ليست كذلك .

فان قلت له . فلم لم يرث الانسان عاداته ، فيولد الطفل حاذقا لصناعة أبيه ؟

اجابك : لان الانسان لسعة عقله مدفوع للترقي فهو ممن لا يقف عند حد ، فجملت وراثة الصناعات والعلوم في نوعه لافي آحاده .

* *

هذا مثال من اجوبة الماديين وهي خلابة خداعة ، توهم من يلم بها في جملتها أنه فهم أسرار الكون ، وأحاط بقواه علما ، ويغفل عن ان هذه السفسطات كلها مبنية على عقيدة ايمانية ، لا تختلف عن أي عقيدة دينية .

تلك العقيدة هي زعمهم أن المادة قديمة أزلية أبدية ، متمتعة بخصائص ، ومقودة بنواميس، تصل بالكون الي هذا الحد من الابداع والاحكام .

فهذا القول اولا ليس من العلم الطبيعي، ولا متنزل من اسلوبه ، لان العلم لم يثبت ولا يستطيع أن يثبت ان المادة قديمة ، وليس في وسعه ان يقرر بأنها متمتعة بخصائص

ذاتية ترقي بها الي أقصي درجات الكمال ، فربما كانت متنزلة من قوة ، أي أنها حركة محضة في تلك القوة (كما يقول بذلك جمهور الطبيعيين اليوم) ، وربما كانت تلك الخصائص المشاهدة في الكون ليست خصائص تلك المادة ولكنها قوة روحية مالئة لهذا الكون تنوّع كل ما تؤثر فيه ، وتذهب في ابداعه وترقيته كل مذهب .

فالقول بأبدية المادة وازاليتها وتمتعها بخصائص لا حد لها ، هو عقيدة ايمانية لا تفترق عن أية عقيدة باله قديم متصف بكل صفات الكمال ، تصدر منه جميع الموجودات علي مقتضي حكمته العالية ، وعلمه الشامل . فالمادي والديني يستويان في الايمان بالغيب ايمانا لا حد له .

وانما الفرق الوحيد بين العقيدتين هو أن الديني يطلق على الموجود الاول كلمة (اله) والمادي يطلق عليه كلمة (المادة)

وكما أن الديني كلما آنس في الموجودات أمرا جديدا نسبه الى خصائص الخالق غير المتناهية ، فكذلك المادي يعزوه الي خصائص المادة غير المتناهية .

فان عُيّر المتدين بأنه قائم علي أصل ليس له عليه دليل حسي ، لحق هذا التعيير بالمادي ، لانه قائم علي أصل ليس له عليه دليل تجريبي ، ولا عبرة بقوله أنه يرى المادة بعينيه ، ويلمسها بيديه ، لانه يُرَد عليه بان هذه المادة الملموسة ربما كانت حالا من أحوال القوة (كما يقول بذلك جمهور العلماء في هذا العصر) ، ثم هو مضطر للقول بوجود الاثير وان لم يره ولم يحس به ، وهو فوق ذلك يعزو للمادة صفات ، ولم ير ملازمة تلك الصفات لها ، واستناده علي انه لم ير قوة من قوى الكون الا ملازمة للمادة ، فهو وهم كبير لانه لما كان لا يستطيع ، وهو في حالته المادية والعادية ، أن يدرك القوي المجردة بحاسة من حواسه فهو لا يحس بها الا مؤثرة في مادة . ولكن هل قصوره هذا يمنع من أن تكون تلك القوى موجودة بذاتها على حالة مجردة محضة ؟ وهل من الالمعية أن يتخذ الانسان من قصوره علما يبني عليه مذهبا يدعي انه هو المذهب الذي ليس وراءه مرمي لطالب الحقيقة ؟

يدعي الماديون أنهم حريصون في مباحثهم علي أسلوب الفلسفة الحسية التي

لاتسلم بغير المشاهدة والتجربة ، فهل هم منه فى شيء ؟ ليحكم بيننا هذا الاسلوب نفسه.

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضم اصول الفلسفة الحسية فى كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) .

« بما اننا نجهل اصول الكائنات ومصائرها فلايجوز لنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها او لاحق لها ، كما لايجوز لنا أن نثبت ذلك . فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسئلة وجود السبب الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع المذهب الحسي يجب عليها تحترس من الحكم علي اصول الاشياء ونهاياتها ، بمعني اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلانتعرض لاثباتها الا اننا علي الحياد التام بين النفى والاثبات » .

وقال الفيلسوف (روبينيه) فى كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا كل خيال أو توهم ، وان لا يعتمدوا الا علي المشاهدة المحسوسة ، وأن يحذفوا من اقوالهم كل الافتراضات التي لايمكن تحقيقها » .

هذه هي اصول الفلسفة الحسية ، فهل الماديون منها فى شيء ؟ هل منها الحكم بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم ارفع منها ؟ وهل منها الاعتماد على الافتراضات العلمية وبناء مذهب الحادى عليها ؟

أصغ الى لاتلو عليك مايقوله العلم الحسي عن الوجود ومافيه ، وعما ندركه منه بحواسنا القاصرة ، ثم احكم بعد ذلك ان كان يحسن بنا اعتمادا على هذه الحواس المضللة ان نزهي بما نعلمه من هذه القشور المسماة بالعلم الطبيعي ، وان نبني عليها مذهبا إلحاديا نداوم عنه بحماسة اهل القرون الوسطى ، وأن نصد عن كل بحث جديد يؤتينا بحقيقة مجهولة ، مناقضة لهذه المقررات السطحية ، بحجة انها قررت ان المادة قديمة وانه ليس وراءها مرمي .

قال العلامة الكبير الرياضى الفلكى الفرنسى (كاميل فلامريون) في كتابه

(الموت وغامضته) المطبوع في اخريات السنة الماضية (١٩٢٠) صفحة ٦٥ الى ٦٩ قال :

« الانسانية تعيش في جهالة بعيدة الغور، وهي لاندرى ان تركيبنا الجثماني الطبيعي يعرفنا بحقيقة الواقع . فان حواسنا تخدعنا في كل شيء ، والتحليل العلمي وحده هو الذى يؤاتي عقولنا ببصيص من النور .

« من أمثلة ذلك اننا لانشعر بشيء من الحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه فانه يظهر ساكنا ذا اتجاهات محدودة الي فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ ومع هذا فهو يسبح في الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر في الساعة في تطوافه السنوى حول الشمس، وهي نفسها تتنقل في خلال اللانهاية السماوية بحيث ان خط سير الارض ليس خطا منحنيا مقفلا ولكن حلزونيا مفتوحا دائما ، وان كرتنا الهائمة علي وجهها لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الى اليوم .

« وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة في كل اربع وعشرين ساعة، ان مانسميه (فوق) في ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتي عشرة ساعة. واننا نجرى في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ امتار في الثانية في خط عرض باريز و ٤٦٥ مترا في خط الاستواء .

« هذا وكوكبنا الارضي تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة، فلا نشعر بواحدة منها حتى التي تمسنا من قرب كالمد والجزر للقشرة الارضية ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الارضية دفعتين في اليوم تحت ارجلنا الي علو ٣٠ سنتيمترا ، ولاتوجد أى علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الامر المباشر . ولولا وجود الشواطيء لماادركنا وجود المد والجزر في الاوقيانوس كذلك .

« وهل نشعر بالهواء الذى نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ ان سطح جسم الانساني يحمل منه ماوزنه ١٦٠٠٠ كيلو غرام معادلا بمثله من الضغط الداخلي . وما كان احد يتخيل ان الهواء ثقيل قبل (غاليليه) و (باسكال) . و (تورسلي) هذا مايشهدنا اياه العلم ، ولكن الطبيعة لاتشعرنا به ،

«وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . فالكهرباء تلعب فيه دورا لا ينقطع، ولكننا لا نشعر بها الا وقت الاعاصير، أى وقت اختلال التوازن بشدة .

«والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية، تؤثر عن بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الابرة الممغطسة مما لا نشعر نابه مشاعرنا . ولكن توجد اجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات الكهربائية والمغناطيسية .

«وعيننا لا تدرك ما نسميه نورا الا بواسطة ذبذبات الاثير المحصورة بين ٣٨٠ تر ليون ذبذبة في الثانية (أحمر متطرف) و٧٦٠ ترليون (بنفسجي متطرف) . ولكن الذبذبات البطيئة للاشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ ترليون موجودة وعاملة فى الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق الـ ٧٦٠ ترليون الاشعة الحرارية البنفسجية المعتمة غير المرئية لشبكية عيننا

«واذننا لا تدرك ما نسميه (أصواتا) الا منذ الذبذبة الثانية والثلاثين من الاثير في الثانية الاصوات التي نسميها شديدة الى ٣٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية للنغمات الحادة

وأننا لا نشعر بما نسميه (روائح) الا عن قرب شديد، وفي حالة عدد محصور من التصاعدات فقط . ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان .

«وغير ذلك فالواقع أنه لا يوجد في الطبيعة خارج حواسنا لا نور ولا صوت ولا رائحة . فنحن الذين خلقنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا . فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة . والا ففى الفضاء من النور فى وسط الليل على قدر ما يوجد منه فى وقت الظهيرة : اعني توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الاثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة ، وليس هو بذي جلبه الا بالنسبة لعصبنا السمعي . والروائح تحدث من جزيئات معلقة في الهواء تؤثر علي عصبنا الشمي

«فهذه هي الثلاثة الحواس التي تصلنا ، ونحن في تركيبنا الارضى هذا ، بالعالم

الخارجي، وأما الحاستان الاخريان الذوق واللمس فلا تؤثران الا بالملامسة، وهذا شيء قليل، وهو في كل الاحوال لا يؤتينا بشيء من العلم بحقيقة الواقع. فيوجد حولنا من الذبذبات والحركات الاثيرية أو الهوائية، ومن القوى والاشياء غير المرئية، مالانراه ولا نحس به. هذه حقيقة علمية مطلقة، وبديهية عقلية لا يمكن النزاع فيها.

«فيمكن أن يوجد حولنا أشياء، بل كائنات حية لا تري ولا تلمس، ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها، انا لا أقول أن هذه الكائنات الحيه موجودة، ولكني أقول يجوز أن تكون موجودة، وهذا التأكيد هو النتيجة العلمية المطلقة المعقولة للمشاهدات السابقة.

«فاذا تقرر وثبت بالدليل أن أعضاءنا الادراكية لا تكشف لنا كل ما هو موجود، وأنها تعطينا شعورات كاذبة أوضالة عن الكون المحيط بنا (لا تنس حركات الارض وثقل الهواء والاشعاعات والكهرباء والمغناطيس الخ) فلسنا نكون على شيء من التثبت إن فكرنا أن مانراه هو كل الحقيقة، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك.

«قلنا أن كائنات حية يجوز أن تكون موجودة حولنا، فمن الذي كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها، فها هي تتكاثر حولنا بالمليارات والدور الذي تلعبه في حياة جميع الاجسام من الخطورة بمكان.

«فالمظاهر لا تكشف لنا الواقع، ولا يوجد الا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هي فكرنا، والموجود الذي لا يمكن النزاع فيه في الانسان هو عقله. هذه هي النتيجة التي تأديت اليها في مؤلفاتي السابقة، وقد اعددت هذا المؤلف للتدليل عليها بوضوح أوفي». انتهي

كل هذه النظرات الصادقة، المبنية علي العلوم المحققة، أيقظت العقل من غفلاته وكبحت من رعوناته، وكسرت من شرة ادعائه، وفلت من حدة خيلائه، وأرته رأى العين ان ما علمه من أسرار هذا الوجود، ذرة لا تدرك في بحر لجي، أوهباءة لا قدر لها في هذا الاطلاق العالمي وأن وراء ما أدركه منه من هذا الجانب المادي عوالم لا تنتهي الي مدي تقف عنده، وكائنات لا تصادف في ترقيها تخما تلتزم حده

أدب عقلي بعيد الغور، لم يتحل به الانسان في عهد من عهوده قبل هـذا الدور الاخير، فقد كان في كل طور من أطواره شديد الاعتداد بمدركاته، عظيم الثقة بمحسوساته، الى حد انكر معه ما وراء حسه، وهو غافل عن انخداعه لقصوره، و مستهزأ بكل مالا يتفق مع علمه، وهو جاهل مبلغ غروره، حتى أن من صرح من الناس بجهله فعل ذلك اما تواضعا أو تصنعا، أما اليوم فقد أدرك الانسان جهله بدليل حسي، وفهم قصوره بدليل مادي. وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه أن غير وجهة نظره الي الوجود. فقد كان ينظر اليه من وجهة أنه مجال مادي بحت، تكفي في سبر غوره حواسه الخمس، فكان الوجود في نظره محدودا على لانهائيته، مفهوما في جملته، ولكنه اليوم ينظر اليه من وجهة أنه مجال غير محدود، تعمل فيه قوى لايحيط بها عقل، المادة وجه من وجوهها، وليست أصلا لوجودها، والقوانين التي تؤثر عليها، مظهر من مظاهر تلك القوى الكلية، تعمل في الكائنات على نظام يناسبها، لا أن تلك القوانين هي كل مافي الوجود من العوامل المؤثرة.

هذه الوجهة الجديدة من النظر، باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية، قرت في عينه هذا الوجه المحسوس للوجود، ونبهته لما وراءه من العالم غير المشهود، فمد بحثه الي ذلك العالم، ولكن لا على الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم، ولكن على الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة، فبعد أن كان يقصر علمه الطبيعي على هـذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة، ويعني بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مدركات حواسه القاصرة، أخذ يمد علمه الي ما بعد هذا العالم المحسوس، ويوسع من مدى ادراكه للطبيعة نفسها، فلم يحصرها في هذه الدائرة الضيقة.

هذا تطور بعيد المدى، أحدث من النتائج في كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة، وقضى على قصر النظر قضاء لاقيام له بعده. وقد عولنا في هذا الكتاب، على أن نقف الناطقين بالضاد على حقيقة هـذا التطور العظيم الذي يعتبر بحق أكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية، ودفعه لادراك ماوراء هذه الحجب المادية من العوالم العلوية، فلم ندخر وسعا في تصويره بكل دقائقه، مستأنسين في ذلك باقوال

ماة العلم أنفسهم، حتى اننا لانعلم اننا وضعنا بحثا حوى من آراء العلماء والفلاسفة مثل ماحواه هذا المؤلف، ولنا في ذلك واسع العذر، فان هذا التطور العقلي من الخطورة والجلالة بحيث يتطلب المطالع عليه على كل وجه من وجوهه دليلا . ونحن لم نبخل عليه بهذه الطلبة، فأكثرنا له من الادلة بحيث لا يجد في نفسه حاجة الى المزيد.

واني باعلاني لهذا العهد الجديد في حياة الانسان العقلية، أرمي ان احدث في ارواح الشرقيين وعقولهم نفس الاثر الذي أحدثه في ارواح الغربيين وعقولهم.

ولست اقصد من قولي العهد الجديد للعقل البشري، أن هذا الرقي الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول، فان في الناس بل وفي العلماء انفسهم، من لا يبالون بغير ما الفوه ولو سقطت السماء على الارض، ولهؤلاء اشباه ونظراء في كل بلاد من بلاد العالم. ولقد تحطمت نظرية الانتخاب الطبيعي الذي بني دارون عليها مذهبه، ولا يزال في الناس من يظنون انهم حلوا بها اسرار التطورات الحيوية الى درجة لم يبق معها ظل من شك، بل في الناس من يزالون يقولون بالجوهر الفرد الذي لايقبل الانقسام، وهي النظرية التي وضعها ديموكريت ولوسيب منذ اكثر من الفي سنة، ويخيل اليهم انهم ادركوا سر الوجود ادراكا لا يسمح لهم بالاطلاع على ماينفيه من المباحث الجديدة.

هذه الطائفة تقمصت من روح الجمود مالا يتفق مع روح كل باحث متثبت، وصبغت العلم صبغة الجبار المتمرد، مع انه في الواقع معترف بنقصه، ومتواضع في حكمه. واتخذت من بضعة الافتراضات التي اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت، ومن بضعة الوجوه عن القوى العاملة في الكائنات، ذريعة الى بناء فلسفة عرجاء خرقاء عمياء، لحمتها وسداها قصر النظر، والدعوى الباطلة، والكلمات المقعرة.

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب، وماذروا انهم وضعوا في اعناقهم اغلالا من الايمان بالطبيعة ينوؤن بحملها، وفي ارجلهم قيودا يرسفون في سلاسلها، وزعموا انهم ترفعوا عن العامة في القول باله خالق العالم بقدرته وارادته، وما علموا انهم تسفلوا الى القول بالهية المادة ونحلوها بخيالاتهم من القوى والقدر مالا يمكن تحقيقه بحجة ناهضة، ولا يأتي شهوده بتجربة حاسمة.

وخيل اليهم انهم بلغوا من بعد النظر ، وسعة العقل ، الى مايسمح لهم بأن يهزأوا بأصحاب العقائد الجامدة ، وما فهموا انهم بوقوفهم في دائرة ماحصلوه من هذا القدر من العلم قد وضعوا علي أعينهم حجبا من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفا من الغباوات ، لاتسمح لهم برؤية شيء غير ماتخيلوه وجمدوا عليه .

ينظر أحدهم الي السماء ثم يرمي ببصره الي الارض ، فيخيل اليه انه يري عوالم وصل الي ابعد غاية من ادراكها . فهو بناموس الجاذبية العامة وببضعة القوانين الطبيعية الكيماوية المعروفة ، وبأربع نظريات دارون المشهورة يحل جميع معضلات الخليقة ، ويدافع عنها دفاع الواضع لها ، فيصدق عليهم قول الفيلسوف (شوبنهور) حيث قال :

« كلما انحط الانسان في القوة العقلية ، قلت مساتير الوجود في نظره ، فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه » انتهي .

ومن أعجب العجب ان هؤلاء الجامدين يتبجحون بأنهم انما يستندون على العلم مدعين انهم اقرب الاقربين اليه دون الخلق .

فأى علم يعني هؤلاء ؟ العلم يصرح بأنه لا يدري بداءات الاشياء ولا مصائرها ، فمن أين جاءهم العلم بما كان وما سيكون ، ومن أي مورد استقوا عقائدهم التي بنوا عليها هذا الجمود الغريب ؟

من شاء ان يعرف الجواب على هذين السؤالين ، ويعذرنا على هذه اللهجة القارصة ، فليطالع ما كتبناه فى هذه الصحف القليلة الآتية ، والله ولى الكفاية .



وقفة بين عهدين

لم يتضح أثر العلم والفلسفة على حالتنا النفسية والعقلية مثل اتضاحه عليهما في هذا العهد الاخير . وهو دور نقابله بالبشر والترحيب لدلالته على نضج العقول لقبول أرقى المدركات، وتأهل النفوس للوصول الى ابعد الغايات . ولكنه دور خطير الشأن لقيامه على هدم بناء قديم من المدركات والموروثات، واقامة صرح جديد على انقاضه ، وعلى الانسلاخ من روابط تاريخية من الآداب والعادات، والخضوع لحوافظ حديثة صاغها العقل الجديد على الطراز الذي رآه أصلح لشأن الجماعة الناهضة .

هذا الدور من الانتقال الذي يضع فيه الانسان حدا بين الماضي والحاضر أو بين القديم والجديد، يستدعي ضربا من ضروب الفوضى الفكرية، ونوعا من أنواع التطرف والتناهي، يجد فيه ذوو القلوب الصغيرة والابصار القصيرة مجالا للتشبه بعظماء المجددين، والاتسام بوسم الزعماء والمصلحين . وما الذي يصدهم عن ذلك وهم في وسط جمهور متعطش للجديد، يفتح كل نبوق يطارق سمعه من داع الى هوى صحيحة ناصح حكيم يهيب به الى مورد عذب من موارد الاصلاح والتكمل، ويخيل اليه أن كل هادم لأصل قديم عاملا من عمال العهد الذهبي المنتظر، يرفع النقاب عن سبيل السالكين ، ويمهد الصعاب أمام المتسابقين ؟

نعم ان هذا الدور من أشد الادوار خطرا على كل مجتمع لما يختلط به الحابل بالنابل، ويشتبه فيه الحق بالباطل، ويفقد الناظرون وجوه الفرقة بين الجادين والهازلين وبين البانين والهادمين . وهو الدور الوحيد الذي يجد فيه الاباحي ممن أماتت الشهوات شعوره فرصة للتلبيس، والملحد الذي طمس القصور نوره نهزة للتدليس . ويصادف فيه المعدم من الفضائل، والعاري من الحقائق ، والعابث بالمدارك، مجالا يتمحلون فيها وظيفة قيادة العواطف والميول . هنا الطامة الكبرى على الاخلاق الضرورية، والرزية العظمى على الاصول العمرانية .

لاجرم إن معالجة هذه الحالة السوأى من الصعوبة بمكان ،فان الدهماء في تهامهم بالجديد الغض،وتقززهم من القديم الرث يحسبون كل مناضل عن أصل عريق مهما كان محله من الصواب وضرورته للمجتمع من الجامدين على الموروثات العاملين في احياء رافات وأصبح من الرفات. ويقترص هؤلاء القوم هذه الفرصة للحط من كرامته والتصغير مما يدعو اليه فيضيع صوت الحق في ضوضائهم وتعمى على الاكثرين وجوه التفرقة بين ماهو غث وما هو سمين وتجد النفوس المنحلة في وسط هذا النزاع مساغا الى الاندفاع في الفوضى الخلقية والفكرية. فتتعرض لكل ما يستتبع ذلك من قوارع عمرانية.

ليس الانسان بمحدود الادراك فيقنع بالدون من المطالب المعنوية ، ولا هو بالجسد المحض فيكتفي بالمقومات المادية ،فهو من لدن نشوئه على هذه الارض يتهالك على ادراك سر حياته ويتفانى في كشف النقاب عن وجه الكون ليقف على العلل التي عملت على ايجاده وتعمل في استمراره ،فهو مدفوع في هذا السبيل بدوافع معنوية لا تقل في قوتها عن الدوافع المادية التي تدفعه للبحث عن غذائه والعمل على بقائه. وان كانا يضحي ذاته وافلاذ كبده وهو في أشد أدوار جهالاته واشتغالاته بمقوماته في سبيل عقيدة روحية لهو كائن عريق في الروحانية ودخيل في الكائنات المادية

هل وقف اندفاع الانسان في هذا السبيل ،وهل قنع من الوجود بالحياة الصورية بعد كل ما حصله من المبدعات الصناعية والمقومات الجثمانية

تقول نابتة الماديين عندنا نعم : قد وضع العلم الطبيعي حدا بين عهد الخضوع للخيالات الفكرية بالامس وعهد الخروج عليها اليوم فلفظت العقائد بالعقل الكلي المدبر وبالروح المستقل عن الجسم وبالوحي الخارج عن نطاق الحس الى عالم التصورات الوهمية .ولا يعدم كل من هؤلاء المجيبين أن يكون قد ادخر كتابا في الفلسفة المادية كتب في عهد الغرور العلمي للقرن التاسع عشر فهو يستملي منه ماينفثه بين معاشريه بفمه ويتناثر في كتاباته من أسلة قلمه

أما نحن فنقول ان الانسان العصري أكثر تدينا اليوم منه في أي زمن حتى في عهد

جهالته الاولى. نعم انه يترفع عن التعبد للصور الذهنية والاستخذاء للمدركات الخيالية بل انه قد أملس من جميع القيود الدينية، ولكنه بما فتح له العلم من مجالات النظر وكشف له البحث عن طرف من المجهول الضخم الذي يحيط به عاد حل فيه محل الخوف الطائل من الافاعيل الطبيعية ولوع بادراك الحقيقة الكلية ليس من نوع الولوع بكشف الستائر الوجودية بل من نوع الاندفاع للحصول على المقومات الروحية التي لا حياة له بدونها . فانه اذا كان بالامس قد عبد صوراً ذهنية لنيل ثوابها والهرب من عقابها، فهو اليوم يطلب حقيقة مطلقة يشعر بأنه جزء منها يحن اليها حنين البعض الي كله ويندفع للوصول اليها اندفاع الشيء الى مقومه . فان لم يكن هذا من عاطفة التدين المعروفة فهو أرفع منها لامحالة.

هذان موقفان متضادان. وبما ان خصومنا يعتمدون علي الفلسفة الحسية والعلم الطبيعي في الدعوة الي مذهبهم فسنجعلهما عمدتنا في هذه المباحث بل لامناص لنا من الاعتماد عليهما لانهما هما اللذان أوصلا الانسان الى هذه المنصة من العهد الروحاني الجديد بكماله وكل الفرق بيننا بينهم انهم يعتمدون عليهما وهما في دور القصور والغرور ونحن نعتمد عليهما وهما في دور التكمل والنضوج

هل في الوجود حقيقة مطلقة يمكن ادراكها ؟ ان كانت فكيف يبحث عنها ؟ هل وصل اليها أحد ممن كانوا قبلنا أو من معاصرينا ؟ ماهي الفلسفة ، وماهو العلم وماهي حدودهما وغايتهما ؟ لم استهوي المذهب المادى العقول وماهي العوامل التي أسقطته من الاوج الى الحضيض ؟ العلل الاولية والمذاهب التى تصدت لبيانها . اللاماركية والدارونية وغيرهما وما آلت اليه . موقف العقل حيال المسائل الكبرى ؟ أيمكن أن يتخلص الانسان من الحيرة ؟ أهناك معقول تسكن اليه نفسه وتزول به شكوكه ؟

هذه مباحث يخفق لذكرها كل قلب ويهتم بها كل عقل وتهتز لها كل عاطفة وهي من التسلط علي تطورات الامم والتحكم في حالاتها النفسية في كل زمان ومكان بحيث يعد اغفالنا لها ونحن في هذا الدور الانتقالي من الجرائم الادبية . لهذا اجمعنا على ان

نخوض عبابها هنا في مقالات متتالية لعلنا نقوم ببعض مايجب علينا لامتنا المحبوبة من هذه الوجهة وبالله التوفيق

**

(هل من حقيقة مطلقة يجب البحث عنها ؟)

الانسان بما ركب فيه من قوى النظر والتفكير والاستقراء والاستدلال ، مضطر بحكم تركيبه المعنوي هذا لان يقف على معقول يطمئن اليه من كل مايهيج فيه تلك القوى ويثيرها . فأول شيء هاجه فيه عند مادفع به الي هذا العالم، وسائل حفظ ذاته من العطب في هذه البيئة المحفوفة بالمبيدات، فجره هذا البحث الي النظر في وجوده وعلاقته بالاشياء المحيطة به، وبالوجود العام الشامل له ولتلك الاشياء ، فأخذ يسائل نفسه : كيف احفظ وجودي بين هذه الحيوانات الضارية وكيف افترس غير الضارية منها لاجعلها من مقوماتي الغذائية ؟ وبأية وسيلة اتقي لفحات الحر المحرقة ، ونفحات القر القارسة ؟ وبأية حيلة أمنع نفسي العوادي الطارئة من طغيان الانهار وثوران البراكين وهبوب العواصف ؟

فلما حصل الانسان على بعض مايركن اليه من هذه الناحية، هاجته الامراض الجائحة، والاوباء الماحقة، فطفق يسائل نفسه ثانية : ماهذه الكوارث المتكررة ، ما هذه النوازل المتتالية ؟ هل من عامل خفي وراء هذه الظواهر يسلط علي المبيدات لغرض يريده مني ؟ هل يمكن استعطافه واسترضاؤه ؟ وما هي مراضيه ومساخطه ؟

فلما وجد الانسان حصة صالحة من الوسائل الغذائية، وذاق شيئا من لذة الاجتماع وهناءة الاسرة ، افتنظره ذلك الموت الذي يهدده ويختطف ذويه ولايستطيع دفعه فشرع يسائل نفسه ثالثة : ما الحياة وما الموت ؟ كيف يكون الانسان بالامس فارسا مغوارا تهابه الضراغم في آجامها فيصبح اليوم جثة هامدة تنوشه الكلاب بأنيابها ؟

هل كان جسمه آهلا بشيء خرج منه؟ ماهو ذلك الشيء والى أين ذهب ؟

هنا ألمت بالانسان الحيرة أمام هذا المجهول الضخم، فرفع بصره الى السماء كأنه يريد أن يسبر هذه اللانهاية، ثم اداره فيما حوله واندفع يسائل نفسه أيضا : ماهذا الوجود ؟ أين انا منه ومن دفعني اليه ؟ ماذا أنا وأي شيء كنت قبل أن اوجد هنا ؟ الى اين اذهب بعد ان اموت ؟ أأبيد كما تبيد العجماوات والنباتات ام ينتقل شيء مني الى وجود آخر ؟ ماهو ذلك الوجود الآخر واين هو ؟

هذه النظرات من الانسان كانت أصلا لأديانه المتنوعة، وينبوعاً لفلسفاته المختلفة. وهي التي دفعته للبحث عن الحقيقة المطلقة . وهذا التطلع منه كما ترى حال اضطرارية لاخيرة له فيها، اندفع اليها بحكم تركيبه المعنوي . فليس هو بالكائن الذي ينظر ولا يفكر، أو يفكر ولا يستدل، ولا بالذي يقف من هذه القوى فيه عند حد، ولكن أهنالك حقيقة مطلقة يمكن أن يدركها المتعقب لهذه المباحث، أم هي حلم يصوره له الالم ويسوغه له حب الخلاص، فيتأدى الى خيالات يتعزى بها حتى ينتهي وجوده على أى حال كان ؟

أظهر لنا النقد الفلسفي أن الانسان اطمأن الى خيالاته آلافاً من السنين، وأنه لايزال على هذه السنة يتعبد لأمور تحيلها بداهة العقل ، ويحكم عليها مجرد النظر بالبطلان ، مدعيا أنها حقائق مطلقة يجب عليه أن يأخذ بها وأن يحمل عليها غيره ولو بالقوة . ولكن هل تنفي هذه الحال وجود حقيقة مطلقة عن الوجود والحياة والموت يطمئن بها الانسان ويجرى على سنتها الى غاياته البعيدة من الكمال؟

أما الحقيقة المطلقة فلا يشك في وجودها عاقل مادام هذا العالم، حتى في مذهب الذين يقولون بان المحسوسات المرئية خيالات لا وجود لها الا في وجدان الانسان مثلها كمثل الخيالات التي تتراءى له في النوم ، فان هؤلاء مع ضنهم على الوجود بالوجود يسمحون به للانسان، وليس في العالم من يقول بأن الانسان نفسه خيال أيضاً وان الكل عدم في عدم . ومادام هنالك شيء معين فلا بد من حقيقة مطلقة تتعلق به . فهل يمكن الوصول الى هذه الحقيقة المطلقة، والخلاص من الخيالات التي يظنها

الانسان خلائق وليست بها ؟ وهل لنا مصلحة صورية او معنوية فى البحث عن الحقيقة ؟

أما السؤال عما اذا كان لنا مصلحة في البحث عن الحقيقة المطلقة فلا محل له، فاننا مضطرون بحكم تركيبنا المعنوى للبحث عنها كما قدمنا ؛ فليس فى العالم من يعيش ولا يسأل عن معنى الحياة، ولا من يموت ولا يسأل عن مصيره بعد الموت، ولا من يرى الوجود بمبانيه ولا يسأل عن علاقته به. فالبحث عن الحقيقة المطلقة حاجة معنوية للانسان لامناص له من توفيتها

نعم في الناس من لا يعنيهم أمرها وهم في بعض ادوار حياتهم، ولكنهم يلهون عن هذا الاهمال غالبا حينما يضطرهم دور آخر الي التأمل في مصائرهم. ومع هذا فلا ننسي هنا ان فريقا من الناس يولدون أنعاما ويموتون أنعاما

ثم اننا ان لم نكن مضطرين بحكم تركيبنا المعنوى للبحث عن الحقيقة المطلقة، لوجب علينا أن نبحث عنها لمصلحتنا الذاتية لاننا في اندفاعنا وراءها نثير من قوى نفوسنا ما يرفعنا عن حضيض الحيوانية، التي تنحط بنا اليها أجسادنا المادية. فاذا باتت تلك القوى العالية كامنة فينا ولم نصادف ما يبعدنا عن الرتوع في حمأة الحيوانية، من حنين سام الي مجهول، وطموح عال على مستور، وتطلع كريم لغاية بعيدة، ارتكسنا بما نتورط فيه من ضروب المطالب الجسدانية الى حال هي دون البهيمية بمراحل.

انا لا انكر أن فى كل أمة طائفة من الشباب والشيب ارتفعوا بذرو من المعارف عن طبقة العامة، وانحطوا بنقص علومهم عن درجة رجال العلم، يتخيلون انهم قد وجدوا المعنى الصحيح للحياة بالاباحة المطلقة، والانملاص من كل قيد، ولكنهم لا يجرؤون على نشر مذهبهم خشية من أهل الاعتقاد، وهم أصحاب الجمود فى نظرهم، فيموهون تعاليمهم بظواهر خداعة من الاصول التى تحترمها العامة، منتظرين حلول ذلك العهد الذهبي الذى تسقط فيه جميع المعتقدات بغلبة الاصول المادية على الناس. ويفوتهم أن الاصول العلمية اليوم بما كابدته من التحول الذريع فى الخمسين السنة الاخيرة، اكثر مناقضة لمذهبهم من الاصول الاعتقادية. وهو التطور الجالي الذي سنحاول ان نعمم

العلم به في مباحثنا فيه هنا

فالانسان العصري أكثر غراما بالحقيقة المطلقة، وأشد تعلقا بها اليوم مما كان عليه في اي عهد كان فما هي تلك الحقيقة المطلقة وبأي الوسائل تذرع للبحث عنها؟ أتكفيه تلك الوسائل لو جد اثرها، ام تبقى تلك الحقيقة المطلقة في نظر حلما من الاحلام لايزال يمني نفسه بتحقيقه ولا يصل اليه ؟

.:.

(الحقيقة المطلقة ووسائلنا لادراكها)

ماهي الحقيقة المطلقة وماهي وسائلنا لادراكها ؟ أتكفينا تلك الوسائل ام هي حلم من الاحلام نمني انفسنا بتحقيقه ولانصل اليه ؟

الحقيقة المطلقة التي يهم بادراكها الانسان، هي ماهية ذاته وماهية الوجود الذي هو جزء منه. وهو لم يندفع في هذا البحث ارضاء لشهوة عقلية، ولكن محفوزا بعوامل قهرية أساسها ما غرز فيه من عاطفة حفظ الذات، وهي الغريزة التي يشترك فيها مع الحيوان الاعجم، ولكنه لانطلاق خصائصه العقلية من القيود لم يقف منها عند الحد الذي وقف عنده الحيوان، أي في الدائرة الجثمانية، بل تخطى منها الى الدائرة الروحية وجعل همه حفظ وجوده المعنوي من الفناء، اذ كبر عليه ان يكون حظه من الحياة مقصورا على سنين قليلة يقضيها في الكد والكدح، ثم ينتهي امره الى التلاشي والعدم، وقد جرته هذه النزعة الى النظر في مجموع الكون لتحققه بأنه جزء منه، وان لا سبيل لحل مسألة الجزء مع بقاء مسألة الكل غير محلولة.

هذا الاندفاع من الانسان لادراك الحقيقة الخاصة بذاته وبالكون، لاينفك عنه مادام يتأثر بعاطفة حفظ وجوده وهو يدل على انه خلق ليعلو عن مستوى الحيوانية، ويترفع عن حضيض الحياة المادية وقد بدأ منه ذلك في جميع ادواره فضحى وجوده المادي في سبيل هذه النزعة العالية، واحتقر لاجلها كل مطالب جثمانه الا الضروري

منها، فصام نهاره وقام ليله وترهب وتبتل وكانت نفسه ما ليس وجوده "صوري" في حاجة اليه ، فلو لم يكن هذا الكائن يحمل في سويداء قلبه نفحة خاصة حرمتها الطبيعية برمتها لما مال للترفع عليها، والازراء بها، واعتبارها فتنة له تصده عن مقاماته المعنوية الرفيعة، ولما عمل على تقليل متاعه بطيباتها، وتحرير نفسه من سلطانها.

هنا يقول الماديون نعم حصل منه كل ذلك ولكنه من قبيل استنامته لاوهامه وخيالاته . ونحن نقول ليس هنا موطن مناقشتهم في هذا الامر فدعه للمحل الخاص به ولكنا نوجه نظرهم الى ان هذه النزعة السامية في الانسان ظهرت في فجر حياته الاولية، أي في الحين الذي كان يعذر لو تلهى بشهواته المادية، وانصرف عن كل عاطفة معنوية تقربه من الحيوانية . ونوجه نظرهم أيضا الى أن هذه النزعة لازمته حيث كان من سطح الكرة الارضية، وجماعاته في عزلة بعضها عن بعض، واستمرت في جميع أدوار الانسانية، وظهرت بأجلى مظاهرها في حياته العلمية، حتى أن الماديين أنفسهم لا يتجردون منها. فليس فيهم واحد يود أن ينزل الى مستوى البهيمية، أو يكره أن يكون فيه معنى يعلو به عن جميع الكائنات الارضية . وانما الفرق بينهم وبين خصومهم ينحصر في أنهم يرون أن هذه النزعة الانسانية قائمة على وهم وخيال، ويراها سواهم مرتكزة على خاصة نفسية وضعت فيه لتنزعه عن الاخلاد الى الحياة الطينية، وتدفعه للخروج من اسر الطبيعة الى حيث تعرج به روحه الى ارقى ما اعد له من المراتب المعنوية .

بماذا تذرع الانسان لادراك الحقيقة المطلقة ؟ انه لم يجد بين يديه غير هذا البصيص من النور المسمى بالعقل . ومقاومة هذا البصيص الضئيل في وسط هذا البحر اللجي من الظلمات المحيطة به ؟ لا جرم أنه تأدى به الى مدركات طفلية ساذجة لا تعدو قدره . فكان كلما ازداد هذا البصيص اشراقا ، هذب من تلك المدركات والطف منها. ولكن الى متى ؟ فهل بلغ هذا البصيص غايته في عهد من عهود الانسان، وهل يكفي وهو في كمال اشراقه لبلوغ شأو هذه الحقيقة العليا؟

مما زاد بلاء الانسان في مباحثه هذا انه ما انتهى الى درجة عالية من هذه القوة

العاقلة حتى تبين بالدليل الحسي أن أحكامها نسبية، وانها ممنوة بالضلال وعاجزة بطبيعتها عن ادراك كنه الاشياء، وانها مجموع تجارب منتزعة من المحسوسات المحيطة، وأن هذه المحسوسات لا تمثل لها حقائقها ولكن بما يناسب قواها القاصرة للتأثر بها فيدرك حسه مادة جامدة وهي ليست غير متحركة حركة سريعة للغاية، ويتأثر بحرارة وكهرباء ونور وهي ليست غير ذبذبات متكررة في بيئة مجهولة سماها الاثير. وترى عينه بياضا ناصعا وهو مركب في الواقع من ألوان متعددة عثر عليها اتفاقا، وسماها اصلية، وقد تكون مركبة هي ايضا من الوان أخرى. ووقف بالتحليل على عناصر اولية سماها بسائط، وقد تكون مركبة من عناصر ادق منها، أو هي كلها مظاهر مختلفة لعنصر واحد لا سبيل له الى ادراكه الخ الخ فتبين الاعتماد على القوة العاقلة في الوصول الى الحقيقة المطلقة من باب الاعتماد على غير معتمد.

هنا ألم به طائف من اليأس كاد يجزم معه بأن الحقيقة المطلقة فوق متناوله. وانحازت جماعة فقررت ان محاولة ادراك تلك الحقيقة ضرب من العبث، وان لا جدر بالانسان ان يعيش على اكمل ما يستطيعه من المدنية مكتفيا من العلم بما يخفف ويلات الانسانية، ومن الفلسفة بما يمكنه من الاعتدال في مطالبه الجسمية.

اذا لم تكن في الانسان تلك النفحة الخاصة التي تزعجه دائما عن الاخلاد للحياة المادية، لالقى بنفسه في حضن هذه الفلسفة بعد تلك الهزيمة الكبرى. ولكنه عاد فقلب المسألة على وجه آخر واخذ يسائل نفسه. هل قواي الادراكية قاصرة على ما تحصله لي هذه المشاعر الكليلة؟ وهل انا والحيوان الاعجم سواء في كل المواهب المعنوية الا من جهة الكمية؟

هنا مزدحم الآراء المتضاربة، ومقتل الفلسفات المتناقضة، ومعرض المذاهب التي استنفدت جهود النفوس الجادة في طريق البحث عن الحقيقة. ومجموع ذلك يجلي لك منظرا رهيبا من تهالك الانسان على رفع الستار عما وراء هذه المظاهر الشهودية من القوى العالمية ويصور جهاده العنيف المتواصل لرفع الحجب عن حقيقته الذاتية، تارة بالاستنجاد بقوى مشاعره الجسدية، وطورا بالاستمداد من بداهات خصائصه العقلية، فاذا لم تسعفه

هذه او تلك حاول أن يناجي روح الوجود نفسه لتكاشفه بأسرارها الخفية.

هـذا الهم الناصب من الانسان استثار كل مواهبه النفسية، واستجاش جميع قواه المعنوية، واستخلص من مادته زبدة طبيعته العلوية ، فلا مناص ونحن بصـدد هذا الامر الضخم من اعطاء القارىء صورة تفصيلية لما اجملناه ليكون على بينة من صحة النتيجة التي نريدأن نجعلها ثمرة لما ننشره في هذه الوريقات من الفصـول المتتابعة .

° °

(أدوار الانسانية فى البحث عن الحقيقة)

اتت على الانسان فى البحث عن الحقيقة ثلاثة أدوار لا مناص لنا من تتبع مواقفه فيها، لانها تحصر وجوه تطوراته العقلية حيال اكبر مسألة لها الأثر الاول فى رقيه الادبي وهي : دور الفطرة ودور الفلسفة، ودر العلم

فأما في دور الفطرة فقد اعتمد الانسان فى حل مسألة ذاته ومسألة الوجود على القاعدة التى هـدته اليها فطرته العقلية، وهو أن كل مصنوع لا بدله من صانع ، وبما انه هو والوجود مصنوعان وقابلان للتأثر فلا بد من القول بوجود صانع لهما موثر فيهما .
ولـكن الانسان ليس بالكائن الذى يقنع بالكليات دون الجزئيات ، ولا ممن يكتفي بالقشر دون اللباب، فأخذ يبحث في ذلك الصانع وعن مكانه من الوجود، وعن مبلغ قواه التى خلق بها الكون وكنه صفاته التي هو عليها. ولم يقف عند هذا الحد فأراد أن يعرف كيف خلق الكائنات، وعلى أى وجه يؤثر فيها، وماذا كان يعمل قبل أن يخلقها، والى أى حال تؤول هي بعد أن تؤدى دورها من الوجود الخ الخ، فتأدى من ذلك كله الى ما يناسب مداركه في ذلك الدور، فتخيله على صورته رجلا قويا له عواطف واهواء، وأسكنه في أوسع ما علمه من الغابات أو أرفع ماتصوره من الجبال، ثم رأى ان ذلك يحط من قدره فأسكنه السما ، وسلك فى تقدير طبيعته وخصائصه طريقته فى تصور شكله

فأتي بكل ما يؤثر على خياله وهو في جهالته الاولى، فخالفت الشعوب في هذه المدركات على قدر ما بينها من التخالف في بيئاتها وحالاتها الاجتماعية، وفي قواها التخيلية .

تلا هذا الدور دور الفلسفة وهو العهد الذي وضع فيه الانسان حدودا للنظر، وأصولا للمعقولات، ورسم دوائر معينة للممكنات والمستحيلات، وحاكم المدركات الى قوانين عقلية عامة، وسمى مطابقة مدركاته لتلك القوانين أدلة. وهو دور مختلط في بدايته بنهاية الدور الذي قبله، فلا يمكن تبيين حده بفاصل، فللمصريين القدماء والهنود والبابليين والصينيين منذ عدة ألوف من السنين مواقف في هذا المجال المقرر حصلوا منه على مدركات عالية، لا يمكن الوصول اليها الا بالجرى على أصول معينة في التأمل، والوقوف عند حدود مقررة في النظر، والتفرقة بين الممكنات والمستحيلات، ومايصح أن يجعل من المسلمات العقلية ومالا يصح .الا أن الفلسفة لم تعرف بهذا الاسم الا في الامة اليونانية القديمة. وان كان اليونانيون يعترفون بأنهم مدينون بمعارفهم الطبيعية والفلسفية لكهنة المصريين.

في هذا الدور تأسست الفلسفة لا على قضايا العقل فقط، ولكن على العلم أيضا، فكان للفلاسفة اليونانيين الاقدمين قدم راسخة في كثير من فروعه كالرياضيات والطبيعة والطب والفلك، أخذوها عن المصريين وأشاعوها في بلادهم وزادوها مواد بأبحاثهم وتجاربهم .

فكان أول شيء شغل بال الفلاسفة الاولين البحث في الاصل الثابت للكائنات أي الهيولى أو المادة الاولية، وفي القوى التي تعمل في تحويلها وتغييرها، ثم في اعادتها الى تلك الهيولى، وفي مصدر الحركة والابداع الفائض على الكائنات. هذه كلها ابحاث طبيعية بحتة ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا لدرس الانسان نفسه، فخاضوا من الكلام في روحه ومصدرها وارادته وعقله وأخلاقه في لجج بعيدة الغور، أدوا منها الى هذه المسائل الضخمة وهى : هل من حقيقة مطلقة فوق هذه الحقائق النسبية . وهل من خير محض قائم بنفسه وراء هذه الخيور الجزئية والشرور الوقتية؟ وأعيان الاشياء أحقيقية هي أم وهمية الخ الخ؟

هنا انقسموا الي ثلاث فرق ، فرقة رأت ان اصل الخليقة قوة أزلية أبدية حية مدبرة كلية واجبة الوجود ، أوجدت المادة بإرادتها ، وشكلت الاشياء منها بقدرتها ، وخلقت النفس الانسانية واسكنتها هذا الجسد لتبتلي فيه امدا محدودا ثم تبرحه الي عالم الارواح المجردة والنفوس الطاهرة في عالم وراء هذا العالم .

وفرقة ذهبت الى أن للوجود أصلين قديمين متلازمين ، روحا محيطا بكل شيء علما ونافذا على كل كائن حكما ، وهيولى أي مادة تنفعل لارادته ، وتقبل الصور التي يطبعها فيها . وقد نبغ في هذه الفرقة الفيلسوفان العظيمان افلاطون وتلميذه أرسطو ، فكان يرى الاول وجود عالم روحاني مثالي وعالم مادي ، وقرر بأنه ما من كائن مادي الا وله مثال يشبهه في العالم الروحاني ، وذهب أرسطو الي وجود أصلين أيضا ، لكنه سماهما الهيولى والصورة . الهيولى عنده هي الشيء القابل ، والصورة هي الروح المانح للقوة والحركة . وقرر انهما متلازمان لا ينفصلان ، فكل كائن مؤلف من هيولي وصورة أي من مادة وروح .

والفرقة الثالثة زعمت أن أصل الوجود مادة أزلية فقط ، ورأت أنه لا حاجة لفرض وجود روح قديمة بجانبها . فالمادة عندهم أصل كل كائن ، وليست القوة العقلية نفسها الا مظهرا من مظاهرها التي لا تحصي ، وقرروا بأن هذه المادة لا تقبل الفناء ، وانما تتغير صورها الى ما لا نهاية تبعا لنواميس مقررة وقوانين ثابتة . وذهبوا الي أن القول بوجود أصل روحاني أوجد المادة أو شاركها في تكوين الكائنات ، وهم باطل ليس له قيمة فلسفية .

أما الدور الثالث من أدوار الانسانية في تطلب الحقيقة وهو دور العلم فقد بدأ عند ما تقرر الاعتماد على المشاهدات والحوادث في تقرير الاصول الفلسفية ، لا على العقل وحده ولا على الظنون والنظريات التي تحسب من العلم وليست منه في شيء . وكان الفضل في ايجاد هذا العهد للعلامة بيكون الانجليزي المولود سنة (١٥٦١) والمتوفي سنة (١٦٢٦) وقد كان لهذا المذهب اليد الطولي في امداد الفلسفة المادية فوصلت به الي درجة أسقطت معها كل المذاهب المخالفة لها ، ووقر في النفوس

أن عهد القول بضرورة وجود القوة المدبرة والعالم الروحاني قد زال زوالا لارجعة بعده .

في هذا الدور الذي دام نحو ثلاثة قرون نشأت المعارف الكونية العليا ، وتقررت الاصول العلمية الكبرى ، وظهرت المذاهب في تعليل أصل الوجود وتفسير تنوعات الاحيا ، وصار للعلم سطوة على النفوس والعقول لم تكن له في عهد من عهود الانسان ، وانتقل السلطان من حفظة العقائد الى حملة المعارف ، وصغرت قيمة المعابد الدينية بجانب الجامعات العلمية ، وشعر الناس انهم قد دخلوا في دور نهائي من الحياة العقلية . ولكنهم ماعتموا ان رأوا أن هذا الدور قد كان توطئة لدور آخر انقلبت فيه اصول الماديين رأسا على عقب ، ونشأ دور جديد جمع جميع طيبات العهود السابقة وتنزه عن سيئاتها فكان هو الدور النهائي المنتظر .

وبما اننا تصدينا في هذه المقالات لاعلان هذا الدور الجديد للعلم والفلسفة ، فلا مناص لنا من الافاضة في بيان أطوار المذهب المادى ، وتتبع جميع مقرراته مع الدلالة على وجوه قوتها وضعفها وانصافه الانصاف الجدير بالغيورين على الحقيقة ليكون ذلك أكثر تجلية للدور الجديد ، واشد ادلالا على مكانته الرفيعة .

* * *

(تاريخ المذهب المادى)

يصعد الماديون بأصل مذهبهم الى نحو القرن السادس قبل المسيح ، أي الى عهد الفيلسوف طاليس المولود سنة (٦٢٨ أو ٦٣٩) ، ويعتبرون من أتوا بعده من تلاميذه الى نحو ١٥٠ سنة اسلافا يمتون اليهم بأواصر وثيقة من القرابة المذهبية ، فيعدون من مشهوريهم (اناكزيماندر) و (اناكزيمين) و (اكزينوفان) و (بارمينيد) و (هيراقليد) و (امبيدوكل) و (لوسيب) و (ديمو كريت)

أما نحن فلا نعرف وجها وجيها لانتسابهم لهؤلاء الفلاسفة لامن الوجهة الاعتقادية لانهم كانوا مؤمنين بالعالم الروحاني ولا من الوجهة المذهبية في تعليل الوجود فانها مما لايباهي بالاعتزاء اليها فقد كانت بأقاصيص العجائز أشبه . ناهيك بما تثمره التأملات في وقت كان فيه علم الطبيعة في دور السذاجة الاولي .

فأما (طاليس) فقد زعم بأن المادة الاولية هي الماء فبتكاثفه وجدت الارض وبتمدده تولد الهواء والنار . قال الاستاذ (باتجون) في كتابه تاريخ الفلسفة : ان طاليس كان يعتقد ان كل تحول مادى لايكون الا تحت تأثير عوامل روحانية

وأما (أناكيزماندر) فكان يقول ان المادة الاولية ليست الماء بل هى اللانهاية المطلقة ءأي الحالة غير المحدودة التي يخرج ويعود اليها كل كائن مقودا بحركة أزلية . وكان يري ان الكواكب آلهة سماوية الخ الخ .

واما (اناكزيمين) فكان يذهب الى أن المادة الاولي للاشياء هي الهواء وان مادة الآلهة نفسه من ذلك الهواء الخ .

واما (اكزينوفان) فكان يرى ان اصل المادة الماء والتراب والهواء والنار مجتمعة . قال الاستاذ (باتجون) المقدم ذكره . كان اكزينوفان متدينا جدا ولكنه كان خالصا من الاوهام الدينية العامية .

واما (بارمينيد) فكان ينكر العدم والفراغ ويقول باستحالة وجود شيء من لاشيء ءولكنه من الوجهة الاعتقادية كان من القائلين بوحدة الوجود ءاى أن الله هو الكل وان الكل هو الله .

واما (هيراقليد) فكان يقول انا نرى الاشياء ثابتة ولكنها في الحقيقة في حالة صيرورة مستمرة نظهر ونزول ولا تثبت في وقت ما . قال الاستاذ

(بانجون) وكان هيرا قليطس يرى أن فوق هذه الكائنات المتحولة عقلا الهيا ثابتا لا يتحول.

وأما (امبيدوكل) فمذهبه أن العناصر كانت متآلفة ومجتمعة بالشوق الذي فيها ثم تنافرت فحدث العالم من تجاذبها وتدافعها، وكان مؤمنا يعتقد بخلود الروح.

وأما (لوسيب) فلم نعلم عنه أكثر من انه واضع نظرية الجواهر الفردة وقد يكون الواضع لها تلميذه (ديموكريت) ومؤداها ان المادة تتألف من ذرات صغيرة جدا متمتعة بحركة ذاتية فيها غير مستمدة من محرك خارج عنها وهذا المذهب أداه اليه مجرد النظر في الكائنات، فلم يتكلف الا وصف ماتراه العين بدون النفوذ الى ماوراء ذلك. ولا يخفى ان في مثل هذا الزعم دعوى عريضة وجرأة مطلقة، فان الاكتفاء بالعين المجردة في تعليل الظواهر المتنوعة التي لاتقف عند حد، والاكتفاء بحكم هذا الفكر الناقص، يعتبر من التحكم الذي ليس وراءه مرمى، ويكون مثل مرتكبه كمثل رجل من متوحشي الزنوج يقف أمام ساعة صغيرة فيعللها تعليلا ماديا على حسب ما تهديه اليه معارفه الناقصة ويغفل عن [illegible] حركتها الحقيقية ووظيفتها الآلية.

الا أن ديموكريت لم يك ماديا في معتقده فقد كان يقول بوجود الروح ويزعم انها مركبة من جواهر فردة كروية غاية في اللطافة، ويرى ان الآلهة مركبة هي ايضا من جواهر فردة الا ان جواهرها أكثر حياة وأقوى.

هؤلاء هم الفلاسفة الذين يعتبرهم الماديون اسلافا لهم وقد رأيت انهم كلهم من المؤمنين. فان كان لابد من انتماء الماديين العصريين لاصل قديم فأولى الناس بهم السوفسطائيون الذين نشأوا بعد عهد ديموكريت فانهم هم الذين عمدوا الى تشكيك الناس في الآلهة وفي الاصول الاولية الاخرى للفلسفة الرسمية، منهم (بروتاغوراس) المولود سنة ٤٤٠ قبل الميلاد فهو اول من قال بأن الآلهة لا يمكن اثبات وجودها بدليل.

ثم نبغ بعده (كريتياس) فقرر بان الآلهة ليسوا سوى مخترعات خيالية دعا

اليها الدعاة من محبي القسطاليقور واليها الشعوب لاحكامهم.

وكان من تعاليم السوفسطائية انكار الخير المطلق والقول بأن العدل والظلم من الامور الاعتبارية الاصطلاحية فكان اسمهم مقرونا لدى معاصريهم بالتحقير والازدراء، ومعاملتهم بكل ضروب التشنيع. ولكن النقد الفلسفي العصري اثبت ان الطعن العام في اخلاقهم وسيرهم كان لكفرهم بالآلهة وعدم اعتدادهم بالخيالات الاعتقادية.

اما هم في الواقع فكانوا اول من وضع حكمة واصولا خلقية ولكنها مادية بحتة.

استمر الرأي المادي بالانتشار في المعارف اليونانية يناهض الفلسفة الروحانية وتناهضه حتى تغلبت عليه نهائيا قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون. وهي ما تغلبت عليه في ذلك العهد بحجة قاطعة ولا بتجربة صادقة، وانما بتشنيع العامة له وقصدهم بالسوء خصومها. والعامة في كل زمان ومكان تنفر من كل فلسفة لا تلائم خيالاتهم الاعتقادية. فخلا الجو للمذهبين الافلاطوني والارسطاطاليسي وكان الاخير اوفر حظا من الاول فانتشر في العالم النصراني محوطا بتأييد رجال الكنيسة واتخذوه عمادا للدين وتعصبوا له اشد تعصب حتى احرقوا بالنار كل من تجاوز على نقضه.

دام الحال على هذا المنوال الى القرن الخامس عشر حيث ظهرت باكورة الآراء الطبيعية المؤثرة تأثيرا جديا في المدركات الانسانية، كالرأي القائل بأن الارض كرية وبأنها ليست مركزا للعالم بل هي كوكب حقير من الكواكب الدائرة حول الشمس، وغير ذلك. وتهيأت البيئة الفكرية للرأي المادي فظهر في القرن السادس عشر باشد قوة واكثر استعدادا رافعا راية العلم وحاملا على الاديان والمعتقدات حرب الفناء. فلنتتبعه في هذا الدور باكثر امعان ولنتعقب المعارك التي نشبت بينه وبين الفلسفة الروحانية في الثلاثة القرون الاخيرة فانها كانت كمناوشات بين الطلائع انتهت بمعارك فاصلة في النصف الاول من القرن الماضي، كانت نتيجتها انتصاره ذلك الانتصار الباهر. فان الالمام بهذا كله ضروري لاظهار المذهب الفلسفي الجديد في اكمل ما هو عليه من الجلال والجمال.

(الفلسفة في القرن السادس)

هلّ القرن السادس عشر وظهرت بعض الآراء المادية في الفلاسفة والطبيعة فكان ذلك سبباً في ايقاظ الشكوك الكامنة في النفوس ، وتوليد الشبهات على الفلسفة الروحانية . وكان أول مجترىء على احياء المذهب المادى الفيلسوف الايطالي (بطرس بومبانيوس) فنشر في سنة (١٥١٦) كتاباً ثار فيه على نظرية أرسطو في خلود النفس قال فيه : ان القول بخلود النفس يقتضي اقامة الدليل على انها تحيا بدون جسد وهذا مستحيل » .

وتلاه في القرن السابع عشر (بطرس بيل) المولود سنة (١٦٧٤) فقرر بأن الالحاد أفضل من الاعتقادات الاباطيل . وقرر ان الامم تقوم وتحيا بدون الاعتقاد بالله وبخلود النفس .

وفي سنة (١٧٤٥) نشر الفيلسوف الفرنسي (دولاميتري) كتاباً اسماه (التاريخ الطبيعي للنفس) قال فيه . « ان القول بوجود روح تقوم بدون جسم ضرب من الهذيان . فالروح والجسم مرتبطان لاينفك تلازم المادة والقوة لاتنفك احداهما عن الاخرى الا في الوهم . أما في الواقع فهما شيء واحد . وكل الافكار مصدرها الحواس فلو كان العقل جوهراً مستقلا لنا بقوته الذاتية وان كان الانسان معزولا عن الخلق . وهذا لم يحصل قط »

وفي سنة (١٧٧٠) نشر البارون (هولباخ) الالماني كتابه (نظام الطبيعة) قرر فيه ان كل شيء محصور في الطبيعة ، وأن كل ما يتخيل وراءها وهم في وهم ، وان ليس الانسان الا ثمرة القوى الطبيعية ، وأن ليست طبيعته المعنوية الا مظهراً من مظاهر طبيعته المادية . وقال ان الانسان لم يذهب في رفع نفسه عن مستوى الطبيعة إلا مدفوعا بحبه لذاته وايثاره لمصلحته الشخصية . وأثبت ان العالم كله مادة وحركة وسلسلة أسباب ومسببات لاتنتهي عند حد . وأن المادة والحركة أزليتان . وقال ان ليس في

الطبيعة أمر عجيب الا للذين لم يدرسوها حق دراستها وان الحسن والقبح اعتباريان في الوجود مثل النظام والاتفاق فيه .

وقال ان الذي يزعم أن النفس تحس وتفكر بعد الموت يلزمه القول بأن الساعة المحطمة لاتزال تعين الوقت بعد تحطمها كما كانت تفعل ذلك قبله

وظهرت في سنة (١١٥١) أول دائرة معارف فرنسية وكان من أشهر كتابها (ديدرو) فكتب في مؤلفه (المادة والحركة) ان مانراه من خروج كائن حي من البيضة بواسطة الحرارة وحدها ينقض كل تعاليم اللاهوتيين ويهدم كل هياكل الارض .

نقول ان (ديدرو) قال ذلك قبل أن يكتشف باستور الجراثيم الميكروسكوبية الحية التي توجد في كل بيضة ملقحة فظن ان البيضة الميتة مع خلوها من كل جرثومة حية يخرج منها فروج حي بالحرارة ليس الا .

وقال ان الروح ليس الا ثمرة التركيب الجثماني، وعلم النفس ليس الا فزيولوجية الاعصاب .

وقد تقدم هؤلاء الماديين وتأخر عنهم جمهور في كل أمة لم نشأ سرد أسمائهم لتشابه نظرياتهم ووحدة آرائهم .

فلما جاء القرن التاسع عشر كانت العلوم الفرعية قد بلغت شأوا بعيداً من التقدم وأثمرت ثمراتها اليانعة في الصناعة والزراعة ووسائل تخفيف الويلات الانسانية، واستخدام القوى الطبيعية. وحدث من المخترعات ماأوقر في صدر الخاصة وبعض العامة ان الطريق الذي يسير فيه العلم هو الطريق الصحيح المنتج ، وأن الفلسفة التي ستنتج من أصوله هي الفلسفة الحقة التي لايجادل فيها الا جامد أو مفتون . وان كل ماكان للاقدمين من الاقوال في الروح والملأ الاعلى ان هي الا خيالات لاتعدو ماعليه الطوائف المنحطة في سلم الارتقاء منها . وأخذوا ينتظرون حلول ذلك العهد الذهبي الذي تسقط فيه كل الاحلام المذهبية التي فرقت بين اجناس النوع الانساني ألوفا من السنين فيصبح الناس اخوانا امام الطبيعة يرتعون في خيراتها الي امد محدود ثم ينزحون من هذا الوجود

خالصين من ضوضاء الحياة وتكاليفها الى أبد الآبدين

وأما أنصار الفلسفة الروحانية بين مسلمين وغيرهم فأودعوا بقايا تلك التأثيرات الموروثة عليهم ثنايا قلوبهم تساورها الشكوك والشبهات وتنقض من أطرافها الريب والاستشكالات، بعد أن استنصروا لها القضايا الدينية فأكدت، والفلسفة العقلية فما أجدت، وأين تأثير المقولات والآلات البخارية والابداعات الصناعية وبواهر سحر التلفون والتلغرافات والآلات البخارية والابداعات الصناعية وفوائد المدنية ؟

بينما الناس على هذه الحال واذا بحادث جلل ظهر في عالم المباحث الطبيعية سنة (١٨٥٩) قضى على البقية الباقية من فلول الاعتقاديين، الا وهو (مذهب داروين) في تعليل وجود الانواع الحية ونشوئها بناموس الانتخاب الطبيعي وقيام الكائنات على نظام آلى بحت ليس فيه أثر لتدبير مدبر وتنظيم منظم . فكان ظهوره نهاية المعركة القديمة بين الماديين والروحيين، فتفردت المادية بالسلطان وبلغ الغرور العلمي أقصى ما يمكن أن يصل اليه . ووقر في صدور العلماء أن مسألة الوجود الكبرى قد حلت حلا نهائيا، وان لم يكن ذلك في الاتجاه الذي يمليه الانسان عليه أمانيه الروحية ويعاشيه في أمانيه المعنوية . فقد ثبت لهم أن الانسان حيوان أراد ذلك أم لم يرده، وانه فان أرضى عن حظه أم سخط، وأن الطبيعة في ماديتها الآلية هي الأول والآخر والظاهر والباطن، وأن الكائنات مقودة بنظام آلي محض لا أثر للتدبير العقلي فيه . وأن الابداع الفائض عليها حال اقتضاه النظام العام وليس مقصودا من واضع وضعه ورمي به الي غاية معينة . وان العالم العلوي الذي تعبد له الانسان الوفا من السنين، وبذل في سبيله النفس والنفيس، وعمره بالآلهة والقديسين، والملائكة المقربين، لم يوجد الا في خياله . واما في الواقع فلا شيء غير هذه اللانهاية الآهلة بالاجرام المنثورة على حركتها، الغافلة عن وجودها .

لماذا تأدي الناظرون في الكون الي هذه النتيجة ولم يتأدوا الى نقيضها ؟ فهل من طبيعة المباحث الكونية أن تجعل للفلسفة المادية هذا السلطان العظيم، وأن تخذل

الفلسفة الروحية ؟ كيف يحدث ذلك تحت تأثير المشاهدات العلمية وتكاد تجمع عليه أرقى العقول الانسانية فى ارقي العصور الفلسفية .

..

(لماذا يتأدي الباحثون في الكون الى الالحاد)

هل من طبيعة المباحث الكونية أن تنصر الفلسفة المادية على الروحانية حتى يشيع الالحاد كما نرى في اكثر الطبقات المفكرة ؟ هذا بحث يحتاج للافاضة فنوجزه في كلمتين فنقول:

الانسان لايطيق بحكم تركيبه المعنوي أن يقف جامداً أمام أى مجهول كان فهو مضطر الي تعرف كل ما يؤثر على حسه وعقله، والى تعليله علي قدر ماتسمح له به وسائله. فلما قذف به الى هذا العالم شرع فى تعرفه مقهوراً بفطرته، فنظر الى سمائه وأرضه وتأمل فى حوادثهما معملا جميع خصائصه العقلية، فآب من هذا الجهاد بمدركات تناسب حالته من السذاجة، فنسب جميع الحوادث الى علل روحانية . الا أنه ليس بالكائن الذى يقف عند حد يصل اليه، فما زال دائبا وراء استكناه المجاهيل حتي هدى الى كثير من العلل الطبيعية المباشرة، فكان كلما أدرك علة، ربط بها معلولها ورفع العلة الروحانية عنها مع الاحتفاظ بها كعلة أولية.

فلما نشأت الفلسفة كانت العلوم الكونية قد كشفت كثيراً من العلل الطبيعية ، وأظهرت وجوه تسلسلها ، فلم يبق أمام العقل الانساني غير العلة الاولية أو علة العلل، وهو كما قلنا لايطيق بحكم تركيبه أن يقف جامداً حيال أي مجهول كان. فوقف لادراك تلك العلة الاولية جل وسائله الفكرية غير قانع بأن يعتقدها ذاتاً أزلية أبدية واجبة الوجود، عالمة بكل شيء ، وقادرة على كل شيء، فأراد أن يعرف كيف هى أزلية أبدية ، وماذا كانت تعمل قبل أن تخلق الكون، وعلي أي حال تحيط بكل شيء علما، وبأي أسلوب تطبع ارادتها في القوى الكونية الخ. فكان كلما اصطدم بهذه المسألة استعصت على

تخايله وامتنعت على الانطباق على دستوره . وأحس بوحشة لاتنطبق وسكينته المعنوية.
ولقد كان هذا العجز مما يصح أن يريده تقديساً لها، واستسلاماً لسلطانها، لو كان تركيبه المعنوي على غير ماهو، أي لو كان ممن يكبر مايجهله ويعظم مالا يعلمه . ولكن ذلك فيه يضطره الى اعتبار كل مالا ينطبق على دستوره باطلا فلا يرفع به رأساً ويندفع للبحث عن غيره مما ينطبق على ذلك الدستور ويسايره .

نعم لاقي الانسان من انخداعه بهذا الدستور العقلي أشد مايلاقي كائن من طبيعته. فكم مدرك اعتبره باطلا جريا على دستوره هذا، ثم انكشف له بعد ترقي ذلك الدستور أنه من الحقائق الساطعة . ولكنه محمول بدافع قهري للخضوع له ـ على نقصه ـ لعلمه بأنه مصباحه الوحيد في ظلمات هذا الوجود ولا مناص له من الاستهداء بنوره في قطع مفاوزه والا تردى في كل عماية تصادفه .

نعم نشأت اللا أدرية في الفلسفة اليونانية بنبوغ الفيلسوف (بيرهون) في القرن الرابع قبل المسيح ، أي بعد ان بلغ العلم شأواً بعيداً في كشف المجاهيل الطبيعية . ومؤدي هذه الفلسفة الامتناع من الحكم على الاشياء لاستحالة ادراكها على حقيقتها بهذا العقل الناقص . فلم يأبه بها العقل الانساني لانه يعتبر نفسه فاتح المساتير الكون فلا يرضيه أن يقف هذا الموقف السلبي امام المجهولات التي تعترضه .

لما تكرر نكوص العقل عاجزاً عن ادراك وجوددذات أزلية يمكن تناول العلم بها على أسلوبه حول وجهه عنها لاول مرة الى النظر في علة العالم من وجهة طبيعية بحتة، وكان ذلك في القرن الخامس قبل المسيح في عهد السوفسطائية، الا ان الدهماء لم تقبل شكوكهم في هذه المسئلة فلم تنتشر فلسفتهم . واتفق ان جاءت الديانة المسيحية ثم اعقبتها الاسلامية فقويت العاطفة الدينية قوة لم تعهدها من قبل، فخضع العقل للدين مضطراً خمسة عشر قرناً. وحدث أن اعترى اهل الدين في الغرب زهو بسلطانهم على النفوس فأسرفوا في تقييد العقل وغلوا في مصادرة العلم فكان ذلك مدعاة لان يحمل العقل من السخائم على الاديان والمتدينين مايدفعه للنهاية القصوى من منازعه ومطامعه . فلما استرد دولته في القرن الخامس عشر صرح على رؤوس الاشهاد بأنه ملئ بحل جميع معاضل الكون من غير

ان يلجأ الي فرض يتعالي عن تحليله، ويترفع عن تمحيصه. وعرض للناس جميع ما كان يرتطم به من الشبهات في وجود العقل المدبر والعالم الروحاني وصرح بأنها لا تقبل الحل. فذاع الالحاد في رجال العلم واندفعوا يتلمسون الحلول التي تنطبق على دستور العقل، فطبع العلم من ذلك الحين بهذا الطابع، ودونت كتبه بهذه الروح . والذى زاد الامر شـدة ان خصومهم وهم رجال الدين كانوا فى اثناء هـذه الدولة العقلية يزدادون جمودا على جمودهم، وتشددا في مصادرة البديهيات العلمية فوق سابق تشددهم، فكان يقابلهم العلميون بتطرف يناسب تطرفهم، حتي وقعت الطائفتان فى نوعين من الغلو يتفقان شكلا ويختلفان موضوعا . فاذا كان الدينيون خيل اليهم في إبان دولتهم انهم حملة المعارف السماوية، وخزنة الاسرار العلوية، واولوا الحل والعقد في الحظيرة القدسية، فقد خيل للعلميين في هـذا الدور بأنهم قد حلوا طلاسم الطبيعة، وفكوا معميات الخليقة، وكشفوا مساتير القوى الـكونية، وانهم بلغوا الى مكانة من العلم تمكنهم من مفاجأة النواميس التكوينية وهي تصـور الكائنات العالمية، وانتهوا الي اوج من الفهم يسمح لـهم بالحـكم علي بداآت الاشيـاء ونهاياتها، حكما لا يقبل جـدالا، ولا يحتمل قيلا ولا قالا .

فى هذا الدور بلغ غرور رجال العلم حدا زعموا معه ان الاحكام التى تصدر ها دور التشريح ومعامل الطبيعة ومراصـد الـكواكب ومستنبتات الجراثيم الميكروسكوبيـة يجب ان تحني لها الرؤس خاضعة، وان تعتبر حقائق مطلقة . وسرى هـذا الغرور من رجال العلم الي صغار طلابه والى مقلديهم من المتكبين بهم، فخيل اليهم باطلاعهم علي اثارة مما سطره زعماؤهم انهم اعرف بالكون وخوافيه، وبالعوامل التي تعمل فيه، من الدكاني بمحتويات دكانه ، ومن المستبضع بما تحت اردانه .

ولكن هيهات ان يظل العقل محجوبا وراء هذه الـكسف الـكثيفة من الغرور وهو القوة التى لا تنخدع بخيال الا ريثما تستجم قواها لتأمله، ولا تقنع بظاهر شيء الا قدر ما تجد الوسيلة لتبطنه . فهبت في النصف الاخير من القرن التاسع عشر من تحت هـذا الحشو الرث من الادعاآت الباطلة، والمزاعم العاطلة، كمن هب من نومه عقب

كابوس أخذ بخناقه، معلنة على رؤس الاشهاد أن ما خضعت له في مدى الثلاثة القرون الماضية من الآراء الفلسفية كان أدخل في عالم الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقة . وانها وهي في هذا الدور من الغرور كانت أبعد عن دستورها، وأعصى لقانونها، منها في أي دور كان قبله . وانها لاتزال تنشد الحقيقة المطلقة على ما كانت عليه اول يوم وجدت فيه على هذا الارض.

فما هي العوامل التي ايقظت هذه القوة العقلية من سباتها ودلتها على وجه غروره ؟ وماهو هذا الوهم الضخم الذي تمثل لها في صورة الحقيقة المطلقة وانجح في خدعها قرونا متوالية ؟ والى أي جهة ولت وجهها بعد هذه اليقظة النهائية

* * *

(افاقة العقل من غروره العلمي)

قلنا أن القوة العقلية كانت قد انخدعت بظاهر من العلم مدة ثلاثة قرون ثم افاقت من غرورها في النصف الاخير من القرن التاسع عشر وتبينت انها كانت متمسكة مما تسميه بالعلوم المحصة بما هو أدخل في الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقة ؛ فاذ كان هذا الانتقال الجلل يعتبر فاتحة عهد بلوغ الرشد للعقل الانساني، حيث وضحت له معالم الطرق التي لا يضل بعدها في اندفاعه وراء الحقيقة المطلقة، فقد وجب علينا ان نستشهد لكل ماقلناه في هذا الصدد بكلمة لعالم من اشهر المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهو الاستاذ (جوستاف لوبون) فقد ألم بذكر هذا الحادث الجلل في كتابه (تحول المادة) فقال :

« كان اذا اتفق ان فيلسوفا من المنصرفين الي درس الموضوعات ذات الحدود المبهمة والنتائج غير المحققة، كعلم النفس والسياسة والتاريخ قرأ منذ عدة سنين كتابا

خاصا بالعلم الطبيعي كان يدهش من وضوح التحديدات فيه وصحة البراهين وضبط التجارب . اذ كان يري كل ما في ذلك الكتاب متسلسلا بعضه يشرح بعضا بدقة. وكان يرى أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما بلغت من التركب تفسيراً يبين غامضها .

«فاذا حمل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه علي أن يبحث عن الاصول العامة لهذه العلوم المضبوطة الي هذا الحد ، لا يمالك نفسه من بساطتها المدهشة ومن عظمتها المهيبة . فيجد في قاعدة علم الكيمياء نظرية (الجوهر الفرد) الذى لا يقبل الانقسام ، ويجد فى قاعدة علم الطبيعة (القوة) التى لا تتلاشي . ويرى معادلات علمية ولدتها التجربة أو العقل المحض ، تشمل فى نظريات صارمة ، العناصر الاساسية الاربعة للاشياء وهي : الزمان والفضاء والمادة والقوة . ويعرف أن جميع الجواهر الوجودية من الكوكب العظيم الدائر في الفضاء دوراته الاولية الابدية الي ذرة الغبار الحقيرة التى يظهر ان الرياح تذورها اتفاقا ، تخضع كلها لنواميس سائدة عليها .

«كان العالم يختال بهذا العلم الذى هو ثمرة جهود بذلت فى عدة قرون . وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله في كل مكان حتي أن بعض العقول المغرمة بالنظريات كانت تعتقد امكان تبسيط العلم أكثر مما هو عليه بعدم اعتبار شيء غير العلاقات الرياضية بين الظواهر الطبيعية . فان هذه الظواهر كانت تتراآى لهم كأنها مظاهر لوجود واحد وهو القوة وكان يخيل لهم أن تكوين بعض المعادلات الفرقية تكفى لتفسير جميع الحوادث التى تقع تحت المشاهدة . وكانوا يظنون أن الغرض الاول للعلم هو كشف نظريات جديدة تعتبر علي الفور كأنها نواميس عامة يجب أن تخضع لها الطبيعة .

«فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لايسعه الا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة ، معترفا أنه إن عدم اليقين في البيئة الفلسفية التي هو فيها فمن الممكن الحصول علي ذلك اليقين في مجال العلم المحض .

« كيف يعقل أن يشك في ذلك ؟ اما كان يرى ان اكثر العلماء كانوا من الوثوق ببراهينهم بحيث لا تتطرق أخف الشكوك اليهم ؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المتحول للاشياء، وعلى فوضى الآراء المتغيرة والمتناقضة يسكنون هذا الجو الصافي من الاطلاق الذى تتلاشى فيه جميع الشكوك، وتشرق فية أنوار الحقيقة النقية الآخذة بالابصار ؟

« كل نظرياتنا العلميـة العظيمة ليست بقديمة العهد جـداً ، لان تاريخ العـلم التجريبي المحقق لا يصعـد الي أبعـد من ثلاثة قرون وفى هذا العهد القريب قريبا نسبيا حدث دوران مختلفان من أدوار التحول في أفكار العلماء .

« فالدور الاول كان دور الثقة والاعتقاد الذى تكلمت عنه آنفـاً ، فـكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية، وهي قواعد مدركاتنا القديمـة عن الوجود، تضمحل وتزول ببطء امام المكتشفات العلمية التى تتوالى يومياء ولاسيا فى النصف الاول من القرن الماضي . فما كنت تسمع من يرفع عقيرته بشكوى . وكيف يشتكى من احلال الحقائق المطلقة محل أوهام المعتقدات القديمة ؟ فكان يظن مؤسسو كل علم جديد انهم يحدون له الدوائر النهائية التي لا يعوزها غير سد مافيها من الفراغ . وكان يخيل اليهم انهم متى اتموا بناء الصرح العلمي استمر هذ الصرح قائماً على انقاض اوهام الزمان الماضي . فكانت العقيدة العلمية في هذا الدور على غاية تمامها . نعم انها كانت تمثل الطبيعة غـير مبالية بالانسان، والسماوات خالية من السكان، ولكنهم كانوا يؤملون أن يعمروها قريبا بأوثان جديدة ويقترحون على الناس عبادتها . وهي وان كانت أوثانا خشنة الا انها لا تخدعنا أبداً .

« دامت هذه العقيدة في المقررات الكبري للعلم العصرى حافظة لقوتها الي ان حدثت فى الايام الاخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى ان يكابد من الشكوك ما كان يعتقد انه قد تخلص منه أبد الآبدين . فان الصرح العلمي (تأمل) الذي كان لا يرى صدوعه الا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة

وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد ان كانت من الخفاء بحيث تكاد لاتبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما اذا كانت الاصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لايسبر له غور . فحدث اذ ذاك في المقررات العلمية مثل ماحدث قبل ذلك للعقائد الدينية عند ماشرعوا في مناقشتها الحساب . فسبقت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان .

« لامشاحة فى أن الاصول التي كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال ، بل هي ستبقي أمدا طويلا في نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ولكنها قد فقدت كل ماكان لها من الاجلال فى نظر العلماء الحقيقيين .

« تلك المكتشفات التى نوهت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة ، وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كانوا يظنون انه قد سلم منه الي الابد . وأصبحنا نرى أصولا كان يظن انها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها . وقد صدرت كتب على مثل الكتاب القيم المسمي (العلم والافتراض) لهنرى بوانكاريه تؤيدنا بالبرهان على ما نقول فى كل صفحة من صفحاتها . فلقد أرانا هذا الرياضي المشهور اننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتي في مجال العلوم الرياضية .

« وقد بين لنا زميل كبير له في مجمع العلماء وهو العالم الرياضي (أميل بيكار) في بعض مؤلفاته مقدار تنافر الاصول الحالية لعلم الميكانيكا ، وهو العلم الاساسى الذى يتطاول الى تصوير النواميس العامة للكون . واليك ماقال في هذا الموضوع (في آخر القرن الثامن عشر كانت أصول علم الميكانيكا تظهر فوق متناول كل نقد ، وكانت أعمال مؤسسي هذا العلم تؤلف كتلة ظن الناس انها تكافح الزمان . ولكن

منذ ذلك الحين أخذ التحليل العلمي الدقيق يبحث القواعد التي يقوم عليها هذا البناء بمساعدة الزجاجات المكبرة، وقد أفضي ذلك الى اننا نصادف الآن عقبات صعبة التذليل حيث كان لايتخيل أمثال العالمين (لاجرانج) و(لابلاس) الا بسائط وممهدات. ولقد شعر كل من تكلفوا تعليم بداءات الميكانيكا بمدقليل من التروي بمبلغ تنافر أصولها التقليدية اذا أريد عرضها على الناظرين)

«وقد أبدي الاستاذ (مانشي) في كتابه (تاريخ علم الميكانيكا) الذى نشره حديثا رأيا من هذا القبيل فقال :

(أن الاصول الميكانيكية التي تظهر أبسط الاصول هي في الحقيقة من طبيعة تعتبر غاية في التعقد . فانها اسست علي تجارب لم تتحقق ولا يمكن تحققها . وعليه فلا يمكن بأية وسيلة من الوسائل أن تعتبر كلها حقائق مثبتة).

« اننا نملك الآن ثلاثة مذاهب لعلم الميكانيكا يصم كل منها الآخر بالبطلان، فاذا لم يكن واحد منها يستحق هذا الوصف فيمكن أن تعتبر جميعها ناقصة للغاية، ولا يمكن أن تعطينا الا قليلا من التفسيرات المقبولة لحوادث السكون.

«وقد كتب المسيو(لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول (انه لا توجد لدينا نظريات كبري الآن يمكن قبولها قبولا تاما ويجمع عليها المجربون اجماعا، بل يسود اليوم علي عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى . وقد اتسع المجال للاجتراءات الممكنة، ولم يظهر أن ناموسا من النواميس يعتبر ضروريا ضرورة مطلقة. فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالا هى بالهدم اشبه منها باقامة بناء نهائي . فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسسا ثابتا، صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة. وقد رفض اليوم علي وجه عام الرأي القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرات ميكانيكية. فان أصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا فيها . وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التى اعتبرت أساسية الى اليوم)

انتهى كلام الاستاذ لوسيان بوانكاريه . ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) مقالته بهذه الكلمات :

«من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة للرقي العلمي من هذه الفوضى. فالوجود مفعم بمجهولات لانراها، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . فلا يمكن عمل خطوة للامام بعد تفكك عري الآراء السابقة. والاشد خطرا على تقدم العقل الانساني هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم، والتطاول لوضع تخوم للعلم ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كونت» انتهى

فما هي تلك المكتشفات غير المنتظرة التي خلصت العقل من غروره وماذا كانت تلك الآراء الضالة التي كان يخبط في دياجيرها ثلاثة قرون ؟

***

(المسائل التي فتنت العقل)

تألبت على فتنة العقل في دور الغرور العلمي بضع مسائل كان لها سلطان كبير عليه لا مناص لنا من النظر فيها لبيان وجوه اغتراره بها وما طرأ عليها فتسبب عنه خلاصه من ذلك الاغترار

أول تلك المسائل مسألة المادة . شغلت هذه المسألة عقول الباحثين في الكون من أقدم العصور فأرادوا أن يقفوا على الاصل الذى نشأت منه وعلى سر استحالاتها ونظام تفاعلاتها وعلى حقيقة القوى العاملة في تلك الاستحالات والتفاعلات التي لا تقف عند حد . فتخيل الفلاسفة الاولون ان اصلها الماء او الهواء أوالنار الخ حتى جاء لوسيب وديموكريت في القرن الخامس قبل الميلاد فوضعا نظرية الجوهر الفرد وقرروا بان المادة مؤلفة من جواهر غاية في الصغر متمتعة بحركة ذاتية فيها وانها أزلية أبدية

فكان حظ هذا المذهب أوفر من حظ غيره شايعه فلاسفة كثيرون ممن أتوا بعد ديموكريت

فلما تغلب الدين على الفلسفة بظهور المسيحية والاسلامية لبث هذا المذهب حتى عهد النهضة الاوربية، فكان هو المذهب الغالب على عقول المتكلمين ، فهذبوه على ما يناسب مداركهم، فقالوا أن الجواهر الفردة متساوية في الحجم في جميع الاجسام وأن بينها فراغاً تعمل فيه قوتا جذب ودفع وان تلك الجواهر لا تعدم ولا تتجدد ولكنها تتحول من جسم الي جسم حافظة لجميع خصائصها الذاتية، وان تخالف الاجسام مع وحدتها في الاصل ناشيء من اختلاف عددها وتباين أوضاعها في كل منها. فالموجود المطلق هو هذه الجواهر الفردة لا يشاركها في الوجود غير القوة الملازمة لها التي لا يعقل أن تنفصل عنها .

سكن العقل الي هذا المذهب لبساطته ، والعقل لا يعنيه الا أن يرتاح الى تعليل يجد فيه حاجته الماسة من فهم الكون الذى يحيط به، لانه كما قلنا يستوحش بحكم تركيبه من الجهل ولا يطيق الصبر عليه . وأى تعليل أسهل وأبسط من هذا التعليل الذى أحال عالم الشهادة كله الى المادة المحسوسة، وعالم الغيب برمته الى القوة الملازمة لها ؟ فالمادة تؤلف ظواهر الاشياء ، والقوة تعمل فيها وتذهب في ابداعها كل مذهب . فهل من حاجة بعد هذا الي خالق يضع أصول الطبيعة وعقل أولى يدبر نظام الكائنات

قال العلامة (بوخنر) الالماني في كتابه (القوة والمادة) « ان الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة خلقت العالم من ذاتها أو من العدم ، يناقضون الاصول الاساسية للعلم الطبيعي المؤسس على التجربة والواقع . »

وقال في مكان آخر من ذلك الكتاب :

« ان القول بوجود قوة مجردة عن المادة لا معني له كالقول بوجود مادة بلا قوة . فان الناس ما سلموا بوجود قوي عاملة ممتازة عن المادة إلا بتأثير الاوهام والجهالات

التي كانت سائدة في العصور المتقدمة ، ولكن العلم لا يقبل اليوم مثل هذا الرأي ».

فان قلت له ماهي تلك المادة التي تضعونها هذا الموضع الاعلى من الوجود المطلق؟ أجابك كما ورد في ذلك الكتاب :

«نحن لا نعلم ماهي المادة في ذاتها، كما لانعلم ماهي القوة في ذاتها ايضا . ولا ندرى ما اذا كانت المادة واحدة في أصلها، أومكونة من ستين أوسبعين عنصراً كيماويا معروفا . ولكننا نعلم علما يقينيا بأنه يوجد شيء يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ، وانه في الوقت الذي يزول فيه هذا الشيء تزول هذه الظواهر معه . فهذا الشيء هو الذي نسميه مادة ونسمى الظواهر المذكورة ظاهر لها وندعو سبب الظواهر القوى المشمولة في المادة».

فان قلت له فهل يعقل خروج الابداع مما لا يدري ما هو الابداع، وبروز الحياة من الجماد الميت ؟ أجابك بما ورد في كتابه المذكور بصفحتي ٤٥ و٤٦

« ان ادراك هذا السر يقتضي أن تعرف أن قوى طبيعية بل وعقلية ملازمة لجوهر المادة. هذه القوى العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيها شروط ضرورية في المخ أو في المجموع العصبي حيث تكون عناصر المادة متحدة على شكل خاص، ومتأثرة بحركة خاصة، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر، كما تنتج منها في أحوال أخرى ظواهر الجذب والدفع . ولقد قال شوبنهور :(اذ كانت المادة تستطيع أن تسقط فهي تستطيع أن تفكر). نعم هي في شكل حجر تسقط الى الارض، وفي شكل عضلات تنقبض، وفي شكل مادة عصبية حية توجد فيها خاصتا الشعور والفكر وتصير مدركة لذاتها »

لسنا هنا بصدد مناقشة الماديين في مذهبهم، ولكنا نقول أي فرق يصبح بعد هذا من الوجهة الاعتقادية بين المادى المنزه عن الاوهام، وبين المؤمن المغموس فيها في رأي بوخنر؟ فاذا كان المؤمن يعتقد أن أصل الوجود قوة عاقلة أزلية أبدية قادرة

علي كل شيء. فالمادي (يعتقد) بأن اصل الوجود مادة أزلية أبدية قادرة على كل شيء.. واذا كان المؤمن قد بت في أمر لا يعلمه ولا يستطيع أن يخضعه للتجربة والمشاهدة، فقد فعل المادي مثل ذلك، وليس له بعد اعترافه بأنه يجهل المادة وقوتها من محيص. واذا كان المادي قد عز عليه أن يعترف لاصل الوجود بالحياة والشعور، لعدم امكانه التوفيق بين هذه الخصائص وبين وجود الشر والنقص في هذا العالم وسيادة النظام الآلي فيه، فان المؤمن قد أثبت لها هذه الخصائص لانه صعب عليه أن يعلل وجود هذه الخصائص نفسها في بعض مكنوناتها مع تجردها هي منها قائلا: كيف يهب الحياة والشعور والعقل ما لا حياة له ولا شعور ولا عقل؟

وقد أدرك المؤمن مبلغ الشر والنقص في العالم وسيادة النظام الآلي فيه، ولكنه رأى أن بجانب هذا الشر خيرا، وبجانب النقص ابداعا، ومع تلك الصرامة الآلية حكمة، فقطع بأن لاقتران هذه الاضداد بعضها ببعض حكمة لا يعلمها.

نعم قد علل المادي وجود الحياة والقوى العقلية والخير الجزئي والابداع الجلي وآثار القصد والحكمة في الخليقة بعلل طبيعية محضة فنفث كثيرا من العقول، ولكنها لم تستطع ان تفتن العقول العليا، فلايزال الاعلام من حمله أسرار العلوم وخزنة كنوز المعارف ينصرون الايمان على الالحاد على رؤوس الاشهاد.

قلت لست هنا بصدد مناقشة الماديين فلاكتف بما قلت حتى يجيء موضع تلك المناقشة، ولكني بصدد بيان اغترار العقل البشري بالحلول الوقتية لمسألة المادة وذهابه في الافتتان بها الى أقصى حد. ولكن هيهات أن يسكن العقل لامثال هذه الخيالات. فلم يلبث ان شك فيها جملة ثم حمل عليها وجها لوجه، وكشف جميع نقائصها واتى نظريات سواها تناسب ما وصل اليه من المعارف الجديدة.

فلننظر لم شك فيها، وكيف حمل عليها، وما الذي بدا له من نقائصها، وما هي النظريات الجديدة التي استبدلها بها

(خلاف العلماء في أصل المادة)

لم يلبث العقل اكثر من ثلاثة قرون بعد النهضة العلمية في غروره بمذهب الجوهر الفرد حتى أفاق من غشيته فنظر في هذا المذهب نظرات انتقادية أحالته الي قيمته الحقيقية، أي قذفت به الي عالم التصورات الخيالية . وبما ان هذا الرأى هو الاساس الذي يقوم عليه المذهب المادي، وما ينتج منه من الدعاوى الطويلة العريضة ، نرى من الحكمة أن لا ندعه قبل أن نثبت للقارئين انه انهار على نفسه ولم يبق له من قيمة علمية . وأحسن أسلوب نتوخاه لذلك أن نترجم لهم ما كتب تحت كلمة « مادة » في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية وهي آخر موسوعة علمية صدرت في اعرق البلاد مدنية وأبعدها عن التأثر بالعاطفة الدينية .

جاء في تلك الدائرة بعد سرد الادوار التى تقلبت فيها الآراء الفلسفية القديمة عن المادة ما يأتي:

« المسائل الاساسية التي تشغل الفلسفة والعلم فى العصر الحاضر فيما يختص بالمادة يمكن حصرها فيما نعتقد فى مسألتين . الاولى تتعلق علي وجه خاص بالفلسفة، والثانية تتعلق بالعلم

(المسألة الاولى) ماهي الاسباب الحقة التي تحملنا على القول بأن للمادة وجوداً حقيقيا متحيزا في الخارج؟ وماهى قيمة المعرفة، والاولى أن يقال ماهى قيمة الفكرة، التى نستطيع أن نكونها لانفسنا عنها ؟

(المسألة الثانية) ماذا نعلم عن طبيعة المادة ، وعلي اى وجه نحاول ان نمثلها لانفسنا ؟

« أما عن المسألة الاولى فالوفاق تام بين المذاهب المختلفة، وذلك باجماعها على ان وجود المادة في الواقع ليس معروفا لنا من طريق مباشر، ولكننا انما نفرض وجودها فرضاً بدليل مؤسس علي العلاقة السببية، وذلك لاجل ان نفسر لانفسنا حدوث الظواهر

التي تؤثر على حواسنا . وعليه فمهما كانت الفكرة التي نكونها لانفسنا عن المادة فاننا لا ندركها أبدا على ماهي عليه في الواقع، بل على ماهي عليه بالنسبة لشعورنا وبالنسبة لعادات أو حاجات افكارنا ».

ثم أخذت دائرة المعارف فى مناقشة القائلين بالجوهر الفرد فقالت :

« ان هذا الرأى آخذ في الارتياك، اذ عليه من جهة تفسير ظواهر الضوء والحرارة والكهرباء التي تضطر الباحثين للقول بأن الجواهر الفردة نفسها يجب أن تكون مشمولة في وسط مادي ليسد ما بينها من الفراغ . وعليه ايضا من جهة أخرى أن يفسر تفسيرا ميكانيكيا قوتي الجذب والدفع اللتين تنسبان اليها ولا يمكن ان يفرض لها وجود الا فى الحركات الباطنة لاجزائها. فمذهب الجوهر الفرد ينحدر والحالة هذه على سفح دور وتسلسل لا ينتهيان، اذ يمكن ان يقال ماذا عسى ان تكون هذه الاجزاء من الجواهر الفردة ان لم تكن جواهر فردة أصغر منها ؟ وهذا الاثير الذى يتخيلون وجوده بين الجواهر الفردة ألا يكون مكونا هو ايضا من جواهر فردة اذا كان ماديا ؟ فيكون الحد الذي زعموا انهم بلغوه يتقهقر بدون انقطاع امام الفكر الانساني . اضف الي ماتقدم التناقض الذى يحدث اذا نظر الى هذه المسألة من وجهة علم العلل الاولية من فرض وجود شيء متحيز لا يقبل الانقسام وهو نفسه مع ذلك يقبل الانقسام الى مالا نهاية له . من هنا تفهم ان القول بالجوهر الفرد لا يظهر لاكثر من فيلسوف عصرى الا وسيلة أو حيلة او خيال يسهل التعبير عن نتائج التجارب ويخضعها للتعليل العلمى ولكنه لا علاقة له بحقيقة المادة .

« اذا تصورت المادة على هذا الوجه لازمها أمران لا يمكن ان يزايلاها وهما الحجم المتحيز والقوة، فوجب ابدال هذا الرأى برأى اكثر بساطة . فقد قال « فاراديه ». ماميلغ علمنا بالجوهر الفرد خارجا عن القوة ؟ انك تتخيل نواة تسميها « ب » تحيطها بقوة تدعوها « م ». اما انا فلا اعقل الا ان النواة « ب » تفنى ولا يبقي الا القوة « م » وحدها.

وفى الواقع أى فكرة نستطيع ان نكونها لانفسنا عن تلك النواة المستقلة عن القوة ؟

« في هذا الرأى الجديد الذى لا ينفرد به (فاراديه) يشاركه فيه بوسكو فتش و (كانت) و (كوشى) و (رنوفييه) وغيرهم، يكون العنصر النهائي للمادة ليس هو الجوهر الفرد ولكن مركز القوى. فيكون كل عنصر مادى نقطة لا تقبل الانقسام تشع حولها في جميع الاتجاهات خطوط من القوي تصلها بجميع النقط الاخرى الوجود وهي مع ذلك قابلة لان تنتقل من مكانها لتقرب او تبعد من اوعن تلك النقط . وهذا يفضى الى القول بأن تلك النقطة تتركب وتتجدد من مجموع الآثار التي تحدثها هى على المراكز الاخرى ثم تعود فتتأثر بها . ولكن من الذي لا يرى ان في هذا المذهب تكون الوحدة وعدم قبول الانقسام لكل مركز من القوى مما يستحيل تحديده بل ولا ادراكه ؟ أى فكرة نكونها لانفسنا عن مجموع هذه القوي التي يشملها كل مركز من تلك المراكز مع علمنا بأن اى قوي لا تتعرف الينا ميكانيكيا الا بالحركات التي تسببها او تمنعها او تغيرها ؟ الا يفضى هذا الى القول بأنه لا يوجد فى الكون غير حركات عاملة وغير عاملة متعلق بعضها ببعض تستمر وتتطور على مقتضي قوانين رياضية ؟

« من هنا نشأ رأى جديد لا يشتق من الحركة ولا من الميكانيكا يصح ان يسمي رأيا هندسيا، وهو يحاول ان يحيل المادة الي حركة محضة. اول من قال بهذا الرأى (ديكارت) ثم جدده في عصرنا هذا (وليم طومسون) الانجليزي و (لاسويز) الالماني . فتكون المادة في رأيهم سيالا مصمتا متجانسا تتحدد الحركة فيه في وحدات ظاهرة . فالجواهر الفردة في هذا المذهب ليست الازوابع او حلقات زوبعية هوائية كالحلقات التى حددت خصائصها حسابات (هولتز) وحققتها تجارب (تيت) . ولكن الحركة في سيال متجانس كل التجانس وغير قابل للانضغاط اى مصمت لا تكون حركته محسوسة كما اعترض بذلك (ستالو) ، اذ يكون كل فرق فى مثل هذا السيال تصورى محض . ورغما عن انتقال كتلة منه بتأثير كتلة اخرى فان حيزا مفروضا

يكون على الدوام شاملا مقداراً ثابتا من المادة لا يمكن تمييزه مطلقا عن المقدار الذى كان يشغله في اللحظة التي قبلها . وغير ذلك كما لاحظه (ماكسويل) فان الذرة الزوبعية لا تكون صالحة بقصورها الذاتي لقبول كل تأثير يقع عليها

« وعلى هذا فجميع الفروض التي فرضت للآن عاجزة عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث ؛ فاذا تستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلميـة في المادة، وهى تختلف في صلاحيتها كوسائل الترتيب والتحليل، لا نستطيع أن نزعم أنها الحقيقة المطلقة . وهذه الفروض باعتبار انها لا وظيفة لها الا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة، لا يمكن أن تكون حتما الا رمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها . فهى تخدم على حال من الاحوال لضبط الظواهر الوجودية بلغة أكثر وضوحا والتئاما مما تفعله مشاعرنا، ولكنها لا تنفذ بنا الى ماوراء هذه الظواهر . على أن هذه اللغة نفسها مشتقة من لغة المشاعر ومتأثرة بحالة نسبية لا يمكن معالجتها . فنحن محكوم علينا والحالة هذه بجهل ماهية المادة على الدوام »

ثم ختمت الدائرة هذا الفصل بقولها :

« وعلى هذا فلو صرفنا النظر عن الرأى اللاأدرى الذى هو عبارة عن رفض أي محـاولة لتفسير الحوادث، فيظهر ان الرأى الذى يرمي اليه حل علماء العالم الارلية هو ان المادة باعتبار اصلها تنحل كما فكر في ذلك (ليبنتز) الى وجود روحاني طبيعته كطبيعة الوجود الذى يتجلى لوجداننا . والنقطة التي تبقى بعد ذلك غير محققة هى أن نعرف ما اذا كان الوجود هو مجتمع ذرات روحية متميز بعضها عن بعض، أو انه كائن واحد لا يقبل الانقسام ومستمر على الدوام وانه العلة والمعلول العام » انتهى

هذا معرض آراء العلماء في المادة فهل يصح انه يبني على واحد منها وخاصة على القول القديم الرث بالجوهر الفرد مذهب يدعي أنه يوصل الي ادراك سر الطبيعة والتحكم في معضلات الخليقة ؟ فلننظر الآن فيما جد من الآراء في المادة أي بعد ظهور دائرة المعارف اى في العشرين السنة الاخيرة

(المباحث على المادة في القرن العشرين)

ماذا جد من المباحث عن المادة في العشرين السنة الاخيرة ؟ أمر جلل وهو القول بتحليلها وأحالتها الى قوة . المسئلة هذه المرة ليست مسألة كلامية ككل ما سبق بل عملية تجريبية ضاق معها الخناق على المذهب المادي حتى أصبح لايجد له متنفساً الا في رؤوس الذين يجمدون على النظريات التي توافق أهوائهم وان خالفت العقل والحس معاً.

قال الطبيعي (جورج بوهن) في رسالة له أسماها (تطور المادة).

«ان عقيدة عدم تلاشي المادة احدى العقائد القليلة التي اخذها العلم العصري عن العلم القديم بدون أن يغير فيها شيئاً. فمن عهد الشاعر الكبير (لوكريس) الذي جعلها اساس فلسفته الى (لافوازييه) الخالد الذكر الذي أقعدها على قواعد اعتبرت أبدية لم تكابد هذه العقيدة أي تزعزع ولم يفكر أحد في أن يجادل فيها. فاستحق الدكتور (جوستاف لوبون) لقباً من المجد لانه أول من هاجم هذه النظرية التي يسميها (عقيدة) وتوصل الى اسقاطها في سنين معدودة » انتهى

ونحن بدل أن نأخذ تاريخ هذا الاكتشاف الضخم عن العالم (جورج بوهن) نأخذه عن مكتشفه نفسه ، فنترجم لما من محاضراته التي ألقاها عن اكتشافه ذلك في سنة ١٩٠٧ ونشرها في كتاب أسماه (تولد المادة وفناؤها) قال :

« أقص عليكم حديثا عجيباً غريباً لم يكن يحلم به العلم منذ عشر سنين ، حديثاً عن قطعة من أية مادة لتكن حجراً تصدمونه في طريقكم أو ورقة موضوعة أمامكم أو قطعاً من المعادن التي تتداولونها كل يوم

«كان يعتقد العلم في الزمن الحالي، ولا يزال قوم يعتقدون أيضا ، أن المادة تتألف من عناصر جامدة لا يعتريها العدم، وجدت في أصل الاشياء وتبقى في خلال

جميع تطوراتها بقاء سرمديا . فكانت الكيمياء تقول لايفني شيء . وكانت على حق مما تقول لان المادة كانت رغما عن كل الاستحالات التي تتكبدها تظهر انها حافظة لوزنها الاول .

« ولكن العلم يعلمنا شيئا آخر اليوم ، انه يرينا المادة مركبة من مجموعات صغيرة تشبه المجموعات الشمسية ، مؤلفة من عناصر يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جدا وهي لاترى ثابتة في حسنا الا بسبب تلك السرعة المفرطة . ويقرر لنا أن الجوهر الفرد مستقر قوي ضخمة لانعد القوي التي تستخدمها صناعتنا بجانبها شيأ يذكر ، وينتظر أن ننتفع بها تلك الصنائع فى يوم من الايام ، ويعرفنا ايضا ان المادة وهي مستودع حياة مركزة لها حس يجعلها تتغير بأخف المؤثرات وألطفها . ويقول لنا أخيرا بأن المادة ليست ابدية بل هى خاضعة للناموس الحتم الذى يقضي على جميع الكائنات بالفناء .

« انا لا استطيع ان اصل الي غور بعيد من هذا الموضوع في ساعة واحدة فلا كتف في هذه المحاضرة بأن ابين لكم بعض نتائج المباحث التي أتتبعها منذ عشر سنين فى موضوع تحليل المادة وقد فصلتها في كتابين نشرتهما حديثا

« هذه المباحث التي كانت نتيجتها الاساسية غير المنتظرة منذ سنين قليلة اثبات ان الماده ليست غير قابلة لزوال ، قد انتشرت بسرعة فى جميع المعامل العلمية (تأمل) ، وبعض قضايانا عنها مما اعتبرت متطرفة عند ماقررناها لاول مرة بدأت تكون اليوم من الامور المألوفة وان كانت لاتزال بعيدة عن انتاج كل النتائج المرجوة منها . ومتي شاعت هذه النتائج فستؤدى الى بناء صرح علمي يخلد الي الابد .

فاليكم الاصول الاساسية التي اجتهدت في تجليتها معتمدا على تجاربي الخاصة :

أولا — المادة التي كان يظن انها غير قابلة للزوال تتلاشى ببطء بالتحلل المستمر للجواهر الفردة التي تكونها.

ثانيا — متحصلات تحلل المادة هي مادة وسطى بخصائصها بين الاجسام القابلة للوزن وبين الاثير غير القابل للوزن، اي بين عالمين كان العلم قد فصل بينهما فصلا نهائيا الي اليوم.

ثالثا — المادة التي كانت تعتبر قبل اليوم جامدة لا تعطينا غير القوة التي لا تأخذه من سواها هي على العكس من ذلك مستودع عظيم للقوة ـ القوة الباطنة للجواهر الفردة ـ التي يمكن أن تنفقها بدون ان تستعير شيأ من الخارج

رابعا — اكثر قوى الكون كالكهرباء والحرارة الشمسية على وجه خاص هي من القوة الباطنة للجواهر الفردة التي تخلص في اثناء تحلل المادة

خامسا — القوة والمادة شكلان مختلفان لشيء واحد فالمادة هي الشكل الثابت للقوة الباطنة للجواهر الفردة والحرارة والصوت والكهرباء الخ هي الاشكال غير الثابتة لتلك القوة

سادسا — اننا بتحليل الجواهر الفردة أي بصرف المادة عن حالتها المادية لا نعمل غير تحويل الشكل الثابت للقوة المسماة مادة الى أشكال غير ثابتة تسمى كهرباء وضوءا وحرارة الخ . فالمادة والحالة هذه تستحيل الي قوة بحالة مستمرة

سابعا — ان قانون التطورات المتعاقبة الذي يطبق على الكائنات الحية يطبق كذلك على الاجسام البسيطة فالانواع الكيماوية كالانواع الحية ليست ثابتة بل قابلة للتغير

ثامنا — القوة ليست أعصى على عوامل التلاشي من المادة التي تنتج منها

« فعلم الامس كان مؤسسا على أبدية المادة، ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها الفناء وسيكون غرضه الاول ايجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها، ووضعه بذلك تحت تصرف

الانسان قوى يكاد لا يكون لها حد » وكانت على

ثم بادر الاستاذ بحل هذه الشبهة وهى : اذا كانت المادة في ذاتها لاشيء غير القوة وما تظهر انها فكيف نحس بها جامدة ؟ فقال :

«قد عملت تجارب في المعامل الكهربائية المائية فأثبتت أن عمودا سائلا قطره سنتيمتران اذا أسقط في انبوبة من علو ٥٠٠ متر لا يمكن خدشه بضربة شديدة من سيف قاطع . اذ ترى السيف يقف على سطح السائل كما يقف اذا صادف حائطا . واذا كانت سرعة عمود السائل أكثر فلا تستطيع قذيفة مدفع أن تخترقه . فاذا قذف شريط من الماء ثخنه بضعة سنتيمترات بسرعة كبيرة يصبح أمام قذيفة المدفع في مناعة الطبقة الفولاذية لسفينة مدرعة فلا تستطيع أن تخرقه .

«فاذا أعطينا الماء المنصب شكل زوبعة كان لدينا صورة من جزيئات المادة، وتفسيرا مرجحا لصلابتها . وبذلك نفهم كيف يصير الاثير اللامادي ماديا جدا اذا استحال الي زوابع ممتعة بسرعة كافية . ونفهم من هنا كذلك أن هذه الحركات الزوبعية لو بطلت لفنيت المادة لوقتها وعادت الى أصلها في الاثير» .

هذا ما قاله الاستاذ (جوستاف لوبون) فى مقدمة محاضراته فلننظر فى المقالة التالية كيف سلك فى تحليلها وماذا رأى من اطوار استحالتها

٭٭٭

(كيفية تحليل المادة)

ذكر الاستاذ « جوستاف لوبون » كيفية تحليل المادة فى الفصل الخامس من محاضرته كما ورد فى كتابه تولد المادة وفناؤها فقال :

«علينا الآن أن ندرس كيفية تحليل المادة فنقول :

«حدثت تجارب عديدة جدا لا يمكن التشكك في قيمتها اثبتت ما كنت انا أول مقرر له من أن الجواهر الفردة المادية التي كانت تعتبر في الازمان السالفة ثابتة على حالتها

يمكن أن تزول الحال اما من ذاتها أو تحت تأثير فواعل مختلفة وان متحصلات هذا التحال متشابهة في جميع الاجسام سواء أكانت متولدة من نقطة انصراف الكهرباء من فقاعة كروكس باشعاع معدن موضوع تحت تأثير النور أم بتحال جسم اشعاعى مثل الاورانيوم والتوريوم والراديوم.

وعليه فمتى أريد بحث تحال المادة فلننتخب الاجسام التي تكون أكثر قبولا لظاهرة التحال من غيرها سواء أكانت فقاعة كروكس أواى معدن يكون في حالته بحيث تنصرف منه الكهرباء وهو تحت تأثير تيار مسلط عليه من ملف كهربائي والاسهل ان يستعمل لذلك مركبات من اجسام اشعاعية كاملاح التوريوم والراديوم. وهناك اجسام تتحال بالنور اوغيره وتعطى النتائج عينها ولكن بما ان تحالها بطأ جدا من الاجسام السابقة فتكون ملاحظة التحال فيها اشد صعوبة .

وقد شوهد أن المتحصلات المختلفة التي عرفت الي الآن من تحال المادة يمكن ان ترتب في هذه الرتب الست وهي: جزيئات متطايرة ويونات سالبة ويونات موجبة والكترونات واشعة اكس واشعاعات مشابهة لها واليون يطلق علي كل من العنصرين المتحالين من جسم واحد بتأثير الكهرباء .والالكترون هو الجزىء المنحل من المادة حاملا لكهربائية سالبة اوموجبة ».

« كمية الجزيئات المتطايرة من الاجسام في اثناء التحال تختلف تبعا لاختلاف تلك الاجسام فهي بالنسبة لغرام الاورانيوم والتوريوم ٧٠٠٠٠ في الثانية وبالنسبة للراديوم مئة مليار كما اثبته حسابات مجربين مختلفين.

« اذا قرعت الاجسام القابلة للتألق بجزيئات المادة المتحالة اضاءت . فعلي هذه الخاصة اسست «السبينتاريسكوب » وهي آلة تجعل التحال المستمر للمادة مرئيا لاعين أبعد الناس عن التصديق وهي تتركب من صفيحة من كبريتور الزنك مركب عليها ابرة صغيرة غمس طرفها محلول من جسم قابل للتحال من ذاته . فاذا نظر الي تلك الصفيحة بالعدسة المكبرة فيرى حدوث مطر من شرارات صغيرة ناتجة من تصادم الجزيئات المتحالة .عندى أنا واحدة من هذه الآلات وهي لا تزال منذ اربع سنين

تحدث امطاراً من الشرر ناتجة من تحال عشر مليغرام من برومور الراديو، على طرف الابرة .
القوة انها

« قد ذكرنا فيما قلناه هنا كلمة (مـلايين الجزئيات التي يستطيع أن يبثها في مدى عدة أجيال ميليغرام واحـد من جسم اشعاعي) ومثل هذا العدد يثير دائما نوعا من قلة الثقة لدى السامع، لاننا لم نتوصل لان نصور لانفسنا الصغر المتناهي للعناصر المادية . ولكن هذا الاستبعاد يزول متى شاهـدنا ان المواد المادية قابلة لان تمكث عدة سنين بدون أن تكابد أي تحال وهي مع ذلك عرضة لتصريف جزيئات كثيرة منها يسهل الحس بها بواسطة الشم ولكن لا يستطيع أن يقدر ذلك الفقد فيها أشد الموازين حساً .

« وقد عمل المسيو (برتلو) في هذا الموضوع مباحث مفيدة فجرب ان يحدد الفقد الذى تكابده اجسام ذات رائحة قوية جـدا من التى تقـل فيها قوة التطاير والشم اكثر احساسا بما لا يقدر من الميزان، اذ انه يستطيع كما قرر ذلك المسيو برتلو أن يشعر بالنسبة لبعض الاجسام كاليودوفورم مثـلا بوجود جزء من مئة مليون جزء من المليغرام .

« وقد توصل بتجاربه على هـذا الجسم الى هذه النتيجة وهي ان الغرام من اليودوفورم يفقد جزءاً من مئه من الميليغرم من وزنه في السنة أي انه يفقد مليغراما واحدا في مئة عام رغما عن انه يصعد منـه على الدوام تيار من الجزيئات ذات الرائحة في كل الاتجاهات . وأضاف المسيو برتلو الى هذه التجربة قوله انه اذا استعمل المسك بدل اليودوفورم كان الثقل المفقود أقل كثيراً مما مر (قد يكون ألف ضعف) فيقتضي لتصريف المليغرام منه مرور مئة الف سنة .

« السرعة التي تتطاير بها جزيئـات المادة وهي تتحال تبلغ من ثلاثين الفا الى ثلاث مئة الف كيـلو متر في الثانية الواحـدة ، وقد يظهر ان من الصعب جدا قياس سرعـة أجسام تدفع بهذه الشدة ومـع ذلك فقياسها امر سهل للغاية .

« ولبيان ذلك نقول اذا حصلنا على حزمة من الاشاعات بوسيلة ما من جسم اشعاعي ووجهناها الي صفيحة قابلة للتألق ظهرت على تلك الصفيحة بقعة مضيئة ، وبما ان هذه الحزمة من الجزيئات متكهربة فهي تحيد اذا واجهت سطحا ممغطسا. فيمكن اذن تحويلها بواسطة مغناطيس ويكون تحول البقعة المضيئة على السطح القابل للتألق مشيراً الي مقدار الانحراف الذي يكبده سطح مغناطيسي معروف الشدة للجزيئات المتصاعدة من المادة . وبما ان القوة الضرورية لتحويل كتلة مقدرة من تلك الجزيئات الي مسافة معينة تسمح بتحديد سرعة اندفاع تلك الجزيئات فيعلم انه من الممكن استنتاج درجة سرعتها من مقدار انحرافها ، فاذا احتوت حزمة من الاشعاعات على جزيئات مختلفات في السرعة فانها ترسم خطا يختلف في الطول والقصر على الصفيحة القابلة للتألق بدل ان يظهر على شكل نقطة بسيطة . بهذه الوسيلة يمكن قياس سرعة كل منهما »

هذا ماذكره الاستاذ جوستاف لوبون عن كيفية تحليل المادة في محاضرته مجملا وقد فصل تلك الكيفية في كتابين ضخمين . وبما انه يقول بأن المادة بتحللها تفني في الاثير فلننظر في ماهية هذا الاثير الذى يعلل به الطبيعيون اكثر الظواهر المجهولة .

٠٠٠

(الاثير ماهو ؟)

تتردد كلمة الاثير في أفواه العلماء عند كلامهم على النور والحرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية ، فيحلون به ما أشكل عليهم حله من معميات الكون ويفكون ما استبهم من طلاسمه .

ما الذى دعا الطبيعيين الي افتراض وجود شيء لايدرك بالحواس ولا

يخضع للتجربة ويناقض بخصائصه وصفاته كل ما يعرف من اشياء الطبيعة ؟

كان الطبيعيون الاقدمون يرون أن النور والحرارة ينتقلان من بعض الاجسام الى بعض بتأثيرهما الذاتي من بعد فلما تأملوا في ذلك في العصور الحديثة وجدوه مما لا يعقل فافترضوا أنهما يسريان من الاجسام المنيرة والحارة على صورة امواج، فأجمعوا على قبول هذا الاعتراض لانه فسر لهم كثيراً من المجهولات. ولكن اعترضهم أمر جلل وهو على أى شيء تسرى تلك الامواج من النور والحرارة اليتب من الشمس والكواكب والتي بيننا وبينها هواء ؟ فاضطروا افرض وجود حامل لتلك الامواج ولكنهم ان قالوا أن ذلك الحامل هو الهواء كذبهم الحس فان الهواء ثبت انتهاؤه عند حد محدود من سطح الارض. ثم ان وجوده يستلزم أن يكون ثقله لا يطاق وأن يكون عقبة كأداء في طريق الكواكب فيصدها بكثافته غير المتناهية كما تصدها حجب الفولاذ. وان قالوا أن ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شيء مادي ألطف منه لزمه كل ما يلزم من الافتراض الاول. فانه مادام ماديا فان لانهايته تجعله أكثف من الهوان. وانا انما نرى ما وراء هذا الهواء من الكواكب لانه عبارة عن طبقة قليلة السمك ومع ذلك فانه يلون السماء باللون الازرق ويكسر أضواء الكواكب فيخدعنا عن أماكنها ويرينا بعضها قبل أن تظهر على الافق وغير ذلك، فما ظنك لو كان ماديا لهذه اللانهاية ؟

لما آنس العلماء كل هذه الصعوبات من فرض ذلك الحامل ماديا اضطروا أن يفرضوه غير مادي لا بمعنى أنه روحاني بل بمعنى أنه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسري عليه قوانينها . وهم لاجل أن يخلصوا من كل الايرادات التي يمكن أن توجه الى ذلك الشيء فتحول بينهم وبين التعليل به اخذوا لانفسهم كل حيطة فافترضوه شيئا مالئا للوجود كله لا يخلو منه قدر ذرة في الارض ولا في السماء لا وزن له ولا مسام وغير قابل للانضغاط وغاية في اللطافة .

في عهد الشعور بالضرورة الماسة لافتراض الاثير كان العقل يجد وراءه بناء نظرية

جديدة غير نظرية الجواهر الفردة فوجد من هذا الاثير سمة، فتصورها حركة زوبعية حاصلة فيه كما قررنا ذلك في المقالة العاشرة . ولما رأى استحالة بعض قوى الطبيعة الى بعض كاستحالة الحرارة الي كهرباء أو نور الخ قرر بأن هذه القوى كلها ليست بشيء سوى ذبذبات حاصلة في ذلك الاثير ايضا .

أشعر وأنا اكتب هذا بان القارئ البعيد عن المسائل العلمية قد أخذ منه العجب كل مأخذ من تألب رجال يعتبرون أبعد الناس عقولا عن الاوهام على القول بوجود شيء خلقوه بخيالهم ونحلوه كل الصفات التي يحتاجون هم اليها في تعليلاتهم، وليس لهم علي ذلك دليل ولا شبه دليل . ثم يتساءل ذلك القاري، بعد ذلك عما اذا كان يوجد بينهم وبين غلاة الدينيين فرق من الوجهة الاعتقادية، وعما عسي أن ينفضي اليه الاغراق في تمجيد هذا الاثير .

نقول نعم انه أفضى بهم الي القول بانه الموجود المطلق الذي لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه، فهو مصدر كل كون، ومستقر كل قوة، ومستودع كل ابداع ، منه تصدر الكائنات واليه تعود، بعد أن يتم كل منها دورته التكوينية، ويؤدي وظيفته العالمية .

ما الذي بقي من الفرق بين الصفات التي يوصف بها الخالق وبين الصفات التي تنحل للاثير ؟ الفرق لا يكاد يذكر، وقد أفضي القول بالاثير الي القول بالخالق فاعتبر الاثير نفسه اله الكون . قال بهذا الرأى جمهور كبير من علماء الالمان علي رأسهم الاستاذ (ارنست هيكل) المشهور المدرس بجامعة (يينا) من المانيا فكتب في كتابه (وحدة الوجود) قوله :

« ان هذا الترقي في ادراك الاثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة . وذلك ان الآراء الضالة التي كانت تقول بوجود الفراغ وبتأثير بعضها علي بعض من بعد ، قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية وان كانت المادة لا تشغلها كلها فانها برمتها مشغولة بالاثير . ثم قال :

« نعم ان نظرية الاثير اذا أخذت كقاعدة للايمان يمكنها أن تعطينا شكلا

معقولا للدين : وذلك اذ جعلنا بازاء الكتلة الجامدة الثقيلة أى المادة ذلك الاثير الشامل المتحرك الذى هو الاله الخالق »

ثم أيد الاستاذ (هيكل) رأيه هذا برأى الاستاذ (خليسنجر) الالماني الذى أبداه فى خطابة القاها في اتنبورغ من المانيا فذكر عنه انه قال :

« ان أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية، واكبر مجلي من مجالى الحياة الآلية، يمكن ان يعلل وجودهما علي السواء بفعل قوي طبيعية واحدة . وبما انهما من جهة أخرى يشتركان في الصدور من الاصل الاصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى وهو الاثير فيمكن اعتبار هذا الاثير (الها عاما) ويكون نتيجة ذلك هذا الحكم وهو أن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » انتهى .

الي هذا الحد وصل الاعتداد بأمر الاثير لدي العلماء المعاصرين لنا . فهم وان كانوا لم يجمعوا على الهيئه الا انهم اجمعوا على ضرورته، لفهم كل صغيرة وكبيرة في الكون .

عندى ان العلماء الذين قالوا بالهيئه أكثر تحوطا اسمعتهم من الذين لم يقولوا بها . ذلك لانهم لما عجزوا عن تعليل أصغر صغيرة في الكون بدون فرض هذا الاثير ورأوا انهم بفرضهم وجوده يعتمدون على مجرد خيالاتهم وأوهامهم، ويجافون أسلوبهم الرسمى نفسه خجلوا ان تكون هذه سيرتهم فى أوليات علومهم فيغفرونها لانفسهم ويحملون على الذين عجزوا قبلهم عن تعليل وجود الكون فقالوا بوجود خالق له ، نعم اننا لنعجب من عالم يؤمن بوجود مادة مصمته لاوزن لها ولا تقبل الانضغاط، وهي مع ذلك غاية في اللطافة موجودة من ازل الآزال وباقية آبد الاباد، وهو لم يرها ولن يراها، ومع هذا كله يصيح بملء فيه ناعيا على المعتقدين بالله انهم يقولون بوجود ذات لم يروها، وباطلاق صفات عليها ليس لهم عنها من علم غير الظن وما تخيله الاهواء . الخ الخ مما شحنت به كتب الملاحدة في القرن التاسع عشر . نعم اننا نعجب من هذا التناقض، وعندى أن الاجدر بالعالم أحد أمرين فاما أن يكون لاادريا قحا فيريح نفسه ويريح غيره، واما ان يتشدد في تسرية أسلوبه العلمي فلا يحكم بوجود شيء لم يره ولا

يستطيع ان يراه منتظرا حتي يفتح عليه مالا يعلم. أما فروض الفروض والجمود عليها كما ترى في مسألة الاثير فليست من العلم ولا عمارق العلم. وجمودهم هذا على أمثال هذه الفروض ينسي تلاميذهم واتباعهم انها فروض فتشبثوا بها ويتوهمون انهم قد آووا من العلم الي ركن ركين، وما دروا انهم يطيرون على أجنحة خيالاتهم على غير هدى فيضرون باسم العلم اكثر مما ينفعون.

اما نحن وقد انتهينا الي هذا الحد فسننظر أي المواقف اجدر بالعقل في مسألة المادة، وأي الطرق يسلكها في تطلب الحقيقة المطلقة، بحيث لا تصده نظرية، ولا يخدعه خيال.

*

(نظرة انتقادية على الآراء في المادة)

رأي القارىء من عرضنا آراء العلماء في المادة قديما وحديثا انهم لم يهتدوا الي شيء من أمرها، وانها لا تزال تتعالي عن مداركهم. وان ما كان يدعيه الماديون من انها جواهر فردة جامدة وجدت من أزل الآزال وتبقى أبد الآبا د اصبح ابعد الآراء عن العقل حتى قال عنه الفيلسوف (جيو) فى كتابه (اللاتدين فى المستقبل) وهو لا يتهم بمشايعة الاديان قال في طبعته السادسة .

ان الرأى الذى مؤداه ان الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد أثبت طومسطن وهلمولتز ان الذرات في ذاتها زوبعات متشابهة ثم قال :

« اذا وسع المذهب المادى مدى نظره وجب عليه أولا نسبة الحياة الى العنصر العام بدلا من أن يفرضها مادة عمياء . قال الفيلسوف (سبنسر) كل جيل من الطبيعيين يكشف في المادة المسماة عمياء قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما من جمودها الظاهرى

بتأثير قوي لا يحصى عددها. ولما اثبتت لنا آلة التحليل الطيفي بأن الذرات الارضية تتحرك موافقة حركة الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الي ان نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصي لها عدد تخترق الفضاء في كل جهة وتحركه، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك ما قاله سبنسر من أن(الوجود ليس مؤلف من مادة ميتة بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته حي بأعم معاني هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها).

وقال الدكتور (فيلبون) في مجلة (العلم والحياة) الفرنسية صفحة ٤٥١ من مجلد سنة ١٩١٧ وهي مجلة طبيعية بحتة :

« لقد حلت كلمة (القوة) محـل كلمة المادة ، فما يدرينا ما اذا كانت كلـمة (روح) ستحل محـل كلمة (قوة) ؟ هذه المسائل المحيرة لاتزال سرآ من اسرار المستقبل.» انتهي

نعم أن مـذهـب الجوهر الفرد اصبح لا يستحق المناقشة، ولـكن اذا كان العقل قد أباه لما يرد عليـه من الاستشكالات، وقد جاءت التجربة بنفيه أيضاء فهـل يرتاح العقل الى المذهب الاخير وهو ان المادة لاشيء غير قوة متحركة حركة سريعة جداً ؟

نحن لاندرك القوة الا على صـورة حركة في جسم مادي، أما القوة المجردة عن المـادة فلا ندركها، وليس لدينا من دليل على وجودها مستقلة في الخارج . فـكيف يسوغ لنا اسناد المـادة الي مجهول، واعتبار هذا الاسناد علما أرقي مما كان لنا من قبل ؟

يقول معترض :الا تعرف بان المادة امكن احالتها الى اصلها وهو القوة ، وهذا الدكتور شبلي شميل الذى طالمـا دافع عن الجوهر الفرد وعن نظرية عـدم تلاشي المادة اعترف به كما ورد ذلك في كتابه (فلسفة النشوء والارتقا.) صفحـة ٣٤ وهو قوله :

« اتجه نظر العلما. الي هذه المسألة علي اسلوب اقرب الي العلم منه الي الفلسفة

في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . وقد ذهب (غوستاف لوبون) في مؤلف له سماه نشوء المادة الى نفي ثبوت الجوهر الفرد ثبوتاً مطلقا اذا اعتبره مخزنا القوى هائلة أو هو متجمد قوى وانطلاقها تبديد لماديته . وذهب الى أن المادة بناء على ذلك تتلاشى خلافا المقرر في العلم من أن المادة لا تتلاشي، والحقيقة أنها تتلاشي في (القوة) التي تتحول اليها . الى أن يقول :

«وسواء سميناجوهر الكون الاصلي أثيراً أو هيولى، والقوة المتحولة عنه قوة أو حركة، فالمعنى واحد وماهوالا اختلاف ألفاظ فقط، والمهم تحول هذا الجوهر وانحصاره في واحد هو(القوة أو الحركة) التي هما حقيقة ثابتة في العلم بخلاف الاثير أوالهيولى التي هي فرض لجلاء الكلام وتقريبه الي الفهم» انتهى

يقول المعترض فاذا كان القول باصالة القوة قد غلب حتي اخذ به غلاة الماديين فما وجه التشكك فيه ؟

نقول أن واجب الباحث عن الحقيقة المطلقة أن يشك في كل امر لا يقع تحت سلطان التجربة والمشاهدة، فان أخذ به فلا يجوز أن يعدو به قدره من الامور الظنية التي يتواضع عليها العلماء لتفسير الغوامض وتعليل الحوادث .فلو كانت القوة شيئا يري ويمكن ضبطه مجرداً بدون حامل مادي ورأينا بالتجربة استحالة المادة الى قوة وهذه الي تلك كان قبول هذه النظرية أمراً لا مناص منه . ولكن الواقع ان(القوة) كلمة تقال للدلالة علي آثار تقع في العالم المادى لا يمكن فهمها الا بها. فاذا ثارت عاصفة قيل تحرك الهواء بقوة، واذا سقط حجر على الارض قيل انجذب اليها بقوة، ولكن ما هي القوة مجردة عن هواء وحجر؟ لا ادري ولا أحد في العالم يدري .

فكلمة (القوة) التي جعلها العلماء المعاصرون لنا مبدأ ومعادا لجميع الكائنات المحسوسة لا تساوى أكثر من كلمة «الجوهر الفرد»، وستخول تلك ماخولت هذه من السلطان المطلق، ثم يعتريها السقوط الى الحضيض فتخلفها كلمه أخرى أصلح منها لمسايرة العلم في الدرجة التي يكون عليها اذ ذاك، ثم لا تكون تلك هي الكلمة النهائية . لانه لا ينفك الانسان ينتقل من مدركات ومصطلحات حتي يبلغ الغاية مما اعد لبلوغه

من العلم . ولا ندرى ان كان يتم له هذا العلم المطلق في عالمه هذا بحواسه القاصرة هذه ام في عالم آخر حيث تنطلق روحه من القيود المادية

فيجب على طالب الحقيقة المطلقة ان يحترس من الكلمات الفارغة وان سايرت أهواءه الراهنة، فرب انخداع بنظرية لااساس لها يقف بصاحبه عشرات السنين في دائرة محدودة من الخيال ويقف بأمم برمتها عشرات القرون في حالة محدودة من الضلال . فأسلوبنا في الوصول الي الحقيقة المطلقة هو أسلوب العلم الطبيعي العصرى ، أى المشاهدة والتجربة، فما لا يقع تحت سلطانهما من النظريات فليس من العلم في شيء، ولا يجوز ان يعتد به مهما حل من مشكلات العلوم ومعوصات الامور. فقد كان الطبيعيون الي ماقبل مئة وخمسين عاما يفكون جميع المعميات الوجودية بالعناصر الاربعة الماء والهواء والتراب والنار، وقد اتضح اليوم بالتجربة انها مركبة . و كانوا يحلون بالجوهر الفرد الذى لايقبل الانقسام ولا التلاشى كل المعضلات الطبيعية، وقد ثبت بالعمل انه قابل للانحلال والفناء. فلا يصح والحالة هذه ان يعول الباحث عن الحق الصراح الاعلي مايحس به، وتمكنه تجربته بوسائله الذاتية . وعلى هذا الاصل العلمى الصارم اسسنا مذهبنا الايماني الذى سنفضى به الى القراء. فأحسن موقف نقفه أمام مسألة المادة هي ان نعترف بأن اصلها مجهول، وان كل مايقال فيه لايخرج عن دائرة الظنون والآراء . فلننتقل بعد ان استوفينا الكلام فى المادة الى النظر فيما يسمى بالنواميس الطبيعية لنري ماهيه،

•:•

(النواميس الطبيعية)

للناس مذهبان في حدوث الحوادث احدهما ، مؤداه ان في العالم ارادة حرة مطلقة تعمل فيه على مقتضى علمها وحكمتها، وتربيه لتهيئته الى غاية بعيدة قدرتها له . هذا

مذهب جمهور الدينيين . وثانيهما ينفي هذه الارادة الحرة المطلقة ويقرر ان الكون مقود بنواميس ثابتة لاتتحول . وهذا رأى العلم الطبيعي والفلاسفة.

أفاض أصحاب الكلام في هذا الموضوع كثيراً فقال بعضهم ان النواميس لاتنفي الارادة الحرة للخالق، اذ يقال ان تلك الارادة شاءت أن يكون الوجود قائماً على هذه الحال فبرأه وسلط عليه هذه النواميس الثابتة . وقال غيرهم ان ارادة الله الحرة المطلقة العاملة في العالم لاتنافي أن يقوم الوجود على نظام ثابت بقوى ثابتة لان الله منزه عن الهوى والتردد والعبث ولا تصدر عنه الا الامور الثابتة الكاملة فما ترونه من ثبوت القوى الطبيعية هو مظهر الارادة الالهية الثابتة .

ماهي النواميس الطبيعية ؟ هي القواعد الثابتة التي تخضع لها جميع الكائنات والتي من مقتضاها ان الحوادث المتشابهة تحصل دائما في احوال متشابهة .

ادراكنا للنواميس أمر ذاتي وتجريدي وواقعي معا فهو ذاتي لانه عقلي محض ، وتجريدي لانه حاصل مجموع حوادث عامة كثيرة . وواقعي لان حقيقته لايمكن النزاع فيها كما لايمكن النزاع في تلك الحوادث ذاتها .

في العالم ظواهر وخواص ينتج من تألفها جميع ماهو كائن من الحوادث الطبيعية، هذه الظواهر ليست بشيء سوى تلك الخواص في حالة تأثير على مخنا لتحدد فيه الصور المحسوسة . وقد عرف أن في تعاقب وتجمع تلك الخواص المختلفة التي تولد الحوادث نظاما مقررا . هذا النظام نفسه هو الناموس الطبيعي . وقد اعتبرت النواميس عامة لانها هي في جميع الاحوال وجميع الامكنة . وأبدية لانها لاتتغير بتأثير أي مؤثر في اي زمن من الازمان.

هذا هو رأي العلم والفلسفة منذ دهر طويل، الا ان هذا المذهب أخذ في القرون الثلاثة الاخيرة من الاذهان مكانا اوسع مما كان له، وشاع حتي وصل الى من لاحظ لهم من فهمه

أما طالب الحقيقة فلايهمه الا أن يدرك الواقع كما هو سواء تحقق هـذا الرأي في النواميس أم لم يتحقق. فمما يجب أن يعرف في هذا المقام أن توالي انخداع العقـل بالمقررات الرسمية، ولبثه فيها قروناطويلة، ثم تبينه وهنها وخروجه منها الى سواها، قد أثر في رجال في أواخر القرن التاسع عشر وفي العشرين تأثيراً صالحاً حتى أصبح الواحد منهم أخوف ما يخاف منه أن يقف عند رأى لم تحققه التجربة، ولم تؤيده المشـاهدة، علما أن ذلك الوقوف يصده عن الوصول الى الحقيقة التي هي غرضه من البحث، حتى أنه مما يدهش له القارئ، غاية الدهش، أن يهب رجال من أرفع طبقات المفـكرين فيشكون في ثبات النواميس ويقولون بامكان تخلفها وباتباعها في سيرها تدبير مدبر . لو كان القائلون بهذا الرأى من الطراز الوسط لما عبأنا بآرائهم ولـكنهم من رتبة وضعة النواميس أنفسهم. منهم العلامة «اميل بوترو» العضـو بالمجمع العلمي الفرنسي فقـد نشر كتابا في هذا الموضوع أسماه «امكان النواميس الطبيعية»(١) جاء في طبعته الثامنة الصادرة في سنة ١٩١٥ ما يأتي :

«من الخطأ اذن أن نقول أن النواميس هي التي تدبر الحوادث الطبيعية، فهي لم تكن قبل الاشياء، ولكن الاشياء هي التي اقتضتها. فهي لا تدل على غير العلاقات المشتقة من طبائعها الموجودة قبل وجود تلك النواميس »

ثم قال . «فالعالم يرينا في كل مـكان بجانب الدوام والثبوت، وهي الحالة التي تنفي كل شك في ثبات النواميس، تغيراً وارتقاء وانحطاطا، وهو يقتضي القول بامكانها وليس هذا في النواميس التفصيلية ولكن في النواميس الجلية التي تجمع تلك النواميس التفصيلية »

ثم قال . «ولـكن أكان هذا النظام العالي (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجـد

---

(١) المراد بامـكان النواميس انهـا من قبيل الامور الممكنة لا الامور الواجبة .

اذا كان الوجوب المطلق هو الناموس السائد في الكون وكان الاصل الذي مؤداه لا يتلاشى شيء ولا يتجدد شيء ساريا بدقة على الكائنات؟ أكانت توجد في العالم قيم متفاوتة أي صفات ومزايا بعضها ارجح من بعض ؟ أكان يوجد نزق وتكمل بين ثمرات قوة واجبة واحدة ؟..

ثم قال «الانسان في علاقاته مع العالم لم يك بمتفرج ساذج ليس عليه الا أن يقنع بالاشياء كما تحدث بمقتضى القوة الواجبة، ولكنه يستطيع أن يعمل ويطبع المادة بطابعه الخاص، ويستخدم نواميس ليحدث أعمالا ارقي من اعمالها . فسموه على الكائنات ليس بالقول المجازى أو الوهمي المتولد عن الجهل، وليس هو بالشعور المقيم بقيمة عالية وهمية . فان سموه هذا يدل عليه سلطانه العقلي على غيره من الكائنات، وقدرته على احالتها على درجات متفاوتة الي ما يوافق أفكاره .

وقال أيضاً «ان وجود الانسان وهو كائن شاعر بذاته لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفزيولوجية . فان وجوده واعماله تقتضى من الطبيعة احداث تغييرات لا تستطيع احداثها» انتهي

هذه نظرات لم يصل الى العلم بها بعد الا الذين نصبوا أنفسهم لتتبع حركات العقل الانساني في عهده الاخير، بعد خروجه من دور الانخداع العلمى الذي جمد فيه نحوا من ثلاثة قرون متوالية، كما بينا ذلك . أما جمهور الناس ممن يكتفون من العلم الطبيعي بما قرأوا من بدا آتة ولم يتبعوا حركة العقل الانساني حيال المجاهيل الوجودية، يعدون مثل هذا الكلام من البدع التي لا تغتفر لكاتب كائنا من كان، لانهم ألفوا أن يسمعوا أن النواميس الطبيعية موجودة من أزل الازال، وانها مدفوعة الى افعالها المتقنة ومراميها المحكمة بمحض طبيعتها ، متغافلين عما يرد على هذه المدركات من الاشكالات التي لا تقف عند حد . فاذا حاول اليوم وضعة تلك النواميس نقض ما ابرموه بالامس ثار عليهم من لم يبلغوا أن يكونوا تلاميذ تلاميذهم فرموهم بالغباوة او بالجنوح الى الوساوس الدينية .

اما نحن حيال هذا الامر الجلل فلا يسعنا الاتوفية هذا المقام حقه بنقل آراء عدة من اقطاب العلم في هذا الموضوع لنثبت ان هذه النزعة ليست فردية اقتضاها عقل نزوع الى المخالفة، ولكنها ثمرة نظرات صادقة ونتيجة حركة من العقل للخلاص من ربقة الكلمات الفارغة التي اقتضتها ثورة عقلية في عهد سابق،

ليس غرضي من هذا ان اعلن بأن رأيي في النواميس الطبيعية هو رأي العلامة (اميل بوترو)، ورأى العلماء الذين سأذكرهم، فليس هذا موطنه، ولكن غرضي ان اصور للقارئين ان العقل العصرى بعد ما كل من حمل آصار الالفاظ الفارغة، والعبارات الخلابة، تحت اسم مقررات علمية قرونا متوالية، آب اليوم يناقش كل تلك المقررات الحساب ليميز حقها من باطلها، وهي نزعة يجب ان تقابل منه بالاجلال، لان الاستنامة الي النظريات مبهمة كانت عريقة في القدم، وحاصلة من الخلابة على حظ وافر، فليست مما يليق بشرف العقل، ولا يتفق والغرام بادراك الحقيقة المطلقة

(النواميس الطبيعية أيضا)

ليس الخروج علي ماتقرر من أمهات المدركات العلمية، الخاصة بالعلل الاولية، فردية، بل هي ثورة فكرية عامة يريد العقل الانساني بها أن يرفع عن عاتقه نيراً ثقيلا من الفاظ فارغة اعتبرت عقائد راسخة وانتظر منها حقبا طويلة أن تؤدى الي كشف مساتير الوجود، ثم تبين انها حجب كثيفة تحجب وراءها الحقيقة المطلقة في لألائها وجلالتها.

فقد رأينا ان النواميس الطبيعية التي كان يذهب العقل العلمى الى وجوب وجودها من أزال الازال، وبقائها أبد الآباد، أصبحت موضع الشك لا في وجوبها فقط بل في

وجودها ايضا . فقال الفيلسوف (ادوارلوروا) كما نقله عنه العلامة الرياضي الكبير هنري بوانكاريه في كتابه (قيمة العلم) صفحة ٢٣٤

« العلم لم يتألف الا من تواضع العلماء على أصوله، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهره من الثبوت . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست الا من مخترعات العلماء أنفسهم. فالعلم لا يستطيع وحالته هذه، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ماينتظر منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل »

كلام صريح في ان النواميس مخترعات عقلية، فرضت لفهم الحوادث الطبيعية، وليس الاستاذ أدوار لوروا وهو صاحب مذهب فلسفي خاص بأقل اطلاعا على الحوادث الوجودية من أي مبشر من مبشري المادية في الشرق .

وقال العلامة (وليم كروكس) الكيماوي العضو بالجمعية العلمية الانجليزية، وهو واحد من الافراد يعدون على الاصابع في خطبة له ، كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٣٦ :

« ان ما نسميه ناموسا طبيعيا هو في حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذي يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع ان نمثل الحركات الذرية كما نمثل حركات الاجرام السماوية، ونستطيع ان نستكشف جميع القوانين الطبيعية للحركة، ولكنا مع هذا لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل هذه المسألة وهي : أي ضرب من ضروب الارادة والفكر كائن خلف هذه الحركات الذرية، مجبرا اياها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وما هي العلة العاملة التي تؤثر من وراء حجاب ؟ (وفي الاصل من وراء ستار المسرح) . وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات، خارجة عن النواميس الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه ؟ »

هذا قول واضح بأن الناموس الطبيعي في حقيقته وجه من وجوه اتجاه قوة تعمل في التكوين، لا أنه عامل مستقل يمكن أن يسمى باسم، وينحل صفات الالوهية ، وان خلفه ارادة وفكرا هما العاملان الحقيقيان في الواقع.

وقال الاستاذ المذكور في خطبة أخرى وهو يدل على انه لا يرى في النواميس الطبيعية المعروفة لنا الا قوى تابعة لقوى أرقي منها كما ورد في صفحة ٨ من مجموعة خطبه :

«متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بادراك الى أي حد تنحصر هذه النتائج، أو كما نسيها النواميس في دائرة نواميس أخري ليس لنا بها أقل علم. اما انا فان عدم اعتمادى على رأس مالى العلمي قد بلغ حدا بعيداً جداً. فقد تقبض هذا النسيج العنكبوتي للعلم، كما عبر عنه بعض المؤلفين، حتي لم يبق منه الا كرية حقيرة تكاد لا تدرك».

انظر الي اى حد يصل اعتراف العلماء. في هذا العهد من التنبه من الغرور العلمي بجهلهم وقصر نظرهم حيال مسألة النواميس التي يظنها خفاف الاحلام ممن قشوا بعض القشور العلمية، وجمدوا عليها، من الاوليات العلمية، حالين بها كل مسألة تعترض عقولهم من مسائل الوجود، فان عزت عليهم معضلة اخترعوا لها ناموساً جديداً بخيالهم ثم دانوا له واعتبروه من الحقائق الاولية.

وقد عقد الاستاذ الاشهر (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فصلا طويلا عن النواميس في كتابه (قيمة العلم) نقتطف منه ما يدل على رأيه فيها. قال في صفحة ٢٧١ :

«اذا نظرنا في ناموس خاص أياكان فانا نستطيع أن نتأكد من انه لا يمكن أن يكون الا تقريبيا. ذلك لانه مستنتج منه تحقيقات تجريبية، وهذه التحقيقات لم تكن ولا يمكن أن تكون الا تقريبية».

وقال في صفحة ٢٧٧

«كثيراً ما يقال من ذا الذى يدرى ما اذا كانت النواميس لا تتطور، وما اذا لم تكن في العهد الفحمي على ماهي عليه اليوم؟»

ثم ذكر أن محاولة الاجابة على هذه المسئلة ليست في قدرة العلم وقال . « ان هذا الامر يتعامي على كل ضرب من ضروب المراقبة بحيث أنه اذا كانت نواميس الطبيعة ليست اليوم على ما كانت عليه في العهد الفحمي فاننا لانستطيع التحقق من ذلك ، لاننا لا نعلم شيئا عن ذلك العهد الا ما نستنتجه استنتاجا من (افتراضنا) دوام النواميس الطبيعية » :

كلام يدل على أن النواميس الطبيعية محل شك ولا يمكن البت في امرها بحكم فاصل، فالقول بثبوتها في مرتبة القول بتطورها وتحولها .

وقال الاستاذ الدكتور (ج جيليه) المدرس بجامعة السوربون بباريز في صفحة ٧١ من كتابه (من اللاشاعر بذاته الى الشاعر بها) في الطبعة الثالثة المطبوعة سنة ١٩٢٠

«النواميس التى تقود العالم المادى ليست حاصلة على ما كان يظنه الناس لها من الصرامة التامة المطلقة، ولكن قيمتها نسبية ليس الا . وعليه فيمكن أن لا توجد لا بل محدودة، وأن تتغير بعارض من العوارض، وأن يبطل عملها أيضا »

هذه طائفة من آراء بعض كبار اقطاب العلم في النواميس وهي آراء غريبة في هذه البلاد، ومنكرة في نظر الذين لم يدفعوا الى مضايق العلم وتعودوا ان يثقوا ثقة عمياء بكل ما القنوه في طفولتهم، وليس لهم من المقدرة العلمية على النظر لانفسهم، ولا يخلو الامر من رجوع بعضهم الى المؤلفات الموضوعة في (القرن التاسع عشر) حيث كان الغرور العلمي بالغا اقصى حالاته، فيجدون كلاما مناقضا لهذا الكلام ، وينسون أو يتناسون اننا انما ننقل عن اراكين العلم في عهدهم الجديد، عهد تخلص العقل الانساني من الغرور العلمي الذى ران عليه قرونا متوالية .

أما نحن وقد اتممنا الكلام على المادة الجامدة وما يتعلق بها فننتقل الى الكلام على عالم الحياة وهو المجال الذي لقيت فيه الفلسفة المادية حتفها في العهد الاخير. اللهم الا في نظر الذين يعيشون باجسادهم في القرن العشرين وبعقولهم في القرون الخالية .

﴿ ماهي الحياة ؟ ﴾

في الكائنات الارضية اجسام تتحرك وتتغذى وتتوالد، وأجسام لايطرأ عليها شيء من هذه الاحوال ، فاصطلح علي تسمية الاولى حية والثانية جامدة . فماهي هذه الحياة ؟ أهي أصل قائم بذاته تحل بالمادة الجامدة فتحييها، ثم تنفصل عنها بالموت وتذهب الي حيث أتت ، أم هي حالة نظرأ علي بعض المركبات تقتضيها النواميس الطبيعية عند ماتكون تلك الاجسام قائمة علي تركيب خاص ، فيكون لاشيء في الكون غير المادة وقواها اللازمة لها علي مايقوله الماديون ؟ اختلف الفلاسفة والعلماء في هذا منذ القدم الى اليوم، ونحن نورد للقارىء موجزاً من مذاهبهم في ذلك.

وجوه الاختلاف كلها بين العلماء تنحصر في ثلاثة مذاهب : (أولها) المذهب الآلي أي الطبيعي الكيماوى، و (ثانيها) المذهب الحيوي، و (ثالثها) المذهب الروحاني .

فأما الاول فمؤداه ان الظواهر الحيوية يمكن تفسيرها بنفس القوى الآلية الكيماوية الطبيعية العاملة في المادة الجامدة .

وأما الثاني فمغزاه ان الظواهر الحيوية لايمكن تعليلها الا بافتراض وجود قوى متميزة عن القوى الآلية، ولاتستحيل اليها تسمى بالحياة.

وأما الثالث فحواه ان تلك الظواهر لايمكن ان تحصل الا بوجود روح عامة حالة بالطبيعة كلها، تسوق كل كائن فيه الي غايته وتربيه على مقتضى الدستور الذى سنته له .

فالفلاسفة اليونيون من الاغارقة الاقدمين كانوا من المذهب الروحاني أي انهم كانوا يرون ان الكون كله مقود بروح عامة تخلق وتربي كل كائناته على السواء. فلما جاء ارسطو عارض هذه النظرية، وزعم ان الحياة وان كانت إصلا

قائما بنفسه الا انها ليست متوحدة بل متكثرة وعلي درجات شتي في الاحياء .

ولما نبغ ابيقور عزز مذهب ديمو كريت في الجواهر الفردة ، وأتبعه جم غفير من الاطباء اليونانيين والرومانيين. فكانوا يعللون جميع الظواهر الحيوية بقوي الجواهر الفردة .

فلما ظهر الرواقيون وهم اتباع الفيلسوف ذينون جمعوا بين مذهب اليوفيين الروحاني ومذهب ارسطو الحيوي فقالوا بوجود روح كلية مدبرة للكل وأرواح جزئية مدبرة للاجزاء ، ولم يشذ فلاسفة الاسكندرية عن مذهب ذينون الا في امور ثانوية .

بقيت هذه الآراء الفلسفية علي ماذكرنا حتى حدثت النهضة العلمية في أوروبا في القرن الخامس عشر ، وترقي علم التشريح وزاد علم الناس بأنواع الحيوانات والنباتات علي اثر الاستكشافات الجغرافية ، فطرأ تغيير في الآراء القديمة ، فقام العالم (باراسلز) يدافع عن المذهب الحيوى واخذ (فان هلمونت) يقرر بأن كل عضو حي من الجسم الحي له حياة خاصة به .

فلما نبغ الفيلسوف (ديكارت) في القرن السابع عشر رفض جميع الآراء السابقة وذهب الى ان جميع ظواهر الحياة تستحيل كلها بالتحليل الي حركات وتعلل بالنواميس الآلية . ولكن هذا المذهب ظهر للباحثين بأنه من السذاجة بحيث لا يفسر جميع الحوادث ، واتفق في هذا العهد ان ترقت المباحث الكيماوية ، فأخذ كثير من العلماء يعللون الحياة لا بالقوى الآلية بل النواميس الكيماوية .

فلما جاء العلامة (نيوتن) نعي على ديكارت قصور مذهبه عن تعليل جميع حوادث الحياة ، وقرر انه يجب القول بوجود قوي خاصة وسوائل بين الكواكب في الاجزاء الخالية من الفضاء تؤثر من بعد ، ولا يمكن نسبتها الي القوى الطبيعية .

فلما نشأ (ستاهل) في القرن الثامن عشر ذهب الي ان المذاهب الآلية المتقدمة

لاتعال الصفات الخاصة للحياة، وأعاد المذهب الروحاني الى الفلسفة . ولكن مذهبه لم يعش الا سنين معدودة . فتلاه مذهب جامعة مونبلييه تحت زعامة العلماء (بوردو) و(جريو) و(بارتز) وهو المذهب الحيوى بعينه . فأحدث العالمان (بيشا) و(كوفييه) تهذيبا فيه فبقي سائدا الى النصف الاول من القرن التاسع عشر

وفي سنة ١٨٣٣ نبغ (جان مولر) مؤسس الفزيولوجيا الالمانية، فأعطي للمذهب الحيوي شأنا عظيما وعال به جميع الاختلافات البيولوجية

الا انه في آخر القرن الثامن عشر كانت استكشافات العالم (لافوازييه) في الكيمياء ومباحثه في التنفس ذات تأثير كبير علي هذه المسالة . وجاء ثبوت تألف الاجساد الحيوانية من الاوكسيجين والكربون والايدروجين والازوت، مضافا الي ماعرف من قانون حفظ القوة، كدليل حسي في نظر الماديين للنظرية الآلية، اذ زعموا استنادا على هذه المعلومات أن الحياة لاتؤتي الاجسام التي تحل بها شيئا جديدا، وأن هذه الاجسام هي عبارة عن آلات مولدة للحرارة فتتحول فيها الي حركة . وجاءت تجارب (برتلو) في المواد العضوية فمحت الفرق بين الكيمياء المعدنية والكيمياء العضوية، فاستطاع الماديون اعتمادا علي هذه التجارب أن يجاهروا بان الاجساد الحية مركبة من نفس العناصر التي تتركب منها الكائنات الجامدة، وأن هذه البسائط تتحول في الاولي بتأثير القوى الطبيعية وتخضع لذات النواميس الكيماوية التي تخضع لها الثانية .

هذه الاستكشافات عينها هي التي سمحت لطائفة من اعلام الفزيولوجيا أمثال كلود برنار في فرنسا وبروك وهمولتز ولودويج في المانيا بان يعلنوا غلبة المذهب الآلي في أمر الحياة . فقال كلود برنار: ان عالم الفزيولوجيا تسود فيه نفس الدقة الآلية السائدة في الطبيعة والكيمياء . فلكل ظاهرة فيه شروط ثابتة محددة تقتضيها، يمكن الوقوف عليها من طريق التجربة والمقارنة . فلا يجوز الكلام والحالة هذه عن وجود قوة تسمي بالحياة غير محدودة ومتغيرة بل نواميس ثابتة غير قابلة للتغير ليست بنواميس

غائية بل سببية .

الا أن كلود برنار قائل هذا الكلام كان يرى أن حدوث اشخاص الاحياء في اختلافاتها وتنوعاتها التي لا تقف عند حد لا يمكن أن يعلل بغير فرض وجود عقل مدبر اوجدها على هذه الصور بارادته . فأكمل بهذا الرأي الاخير مانقصه في الرأي الاول .

الركن الاقوى اليوم للرأي الآلي هو مذهب الاستاذ (لودانتك) الذي كان مدرساً للبيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون بباريز فان الماديين يزعمون أنه دعم المذهب الآلي على أصول علمية، وعلل حدوث الحياة بالنواميس الكيماوية الطبيعية على اتم واكمل الوجوه . ونحن لامناص لنا من اعطاء مذهبه هذا عناية خصة، ولذلك فسنلخصه بحيز يناسب شهرته في الفصل التالي قبل أن نخوض في عباب هذا البحث الجليل ونتغلغل في مناحيه، حتى يكون لما نأتي عليه من أقوال العلماء المثبتين للحياة ولادلتهم وتجاربهم نفس القيمة التي لها في نظر كل باحث مستقل لا تهمه الا الحقيقة المطلقة .

**

(مذهب الاستاذ «لودانتك» في الحياة)

الاستاذ لودانتك توفي منذ بضع سنين وكان مدرسا لعلم البيولوجيا في جامعة السوربون رنسا وهو عمدة الماديين اليوم قال :

يذهب هذا البيولوجي أن كل خلية حياة اولية هي أصل الحياة العامة للجسد كله . فلاجل معرفة سر الحياة في ذاتها يجب أن تدرس حياة الخلية نفسها . فبالتأمل في الخلية نجد انها لا تفترق عن المادة الجامدة الا بخاصة التمثيل، أي باحالة المواد الجامدة الى مادة مماثلة لمادتها . والمشاهد انه لو صار جسم جامد محلا لتفاعل كيماوي فانه

ينقص وينتهي أمره بالتلاشي . ولـكن اذا صار جسم حي موضعاً لذلك التفاعل في بيئة صالحة له فانه يحفظ تركيبه ويزداد نمواً . هذا هو المعني المراد من التمثيل . وتحديده ضروري لفهم أصل الحياة . واذا بلغ جسم حي مكون من خلية واحدة حداً معيناً فانه ينقسم الي خليتين فتنموان كلاهما حتي اذا وصلت الى حـد معين انقسمتا أيضاً وهلم جرا . وهذا هو التوالد وهو الميزة الثانية للاجسام الحية . وأما الموت فهو انهـدام المادة الحية أى استحالتها الي مادة غير آلية فتصبح غير صالحة للتمثيل .

قال « لودانتك » : « فيظهر من هنا ان الاستحالات التي تحصل للخلية تأتيها من فواعل خارجة عنها طبيعية وكيماوية تابعة للبيئة لاذاتية في الخلية » .

وقال: « أما حياة الاجسام المكونة من خلايا كثيرة من اول الـكائنات الحقيرة الى الانسان نفسه فهى لاشيء غير مجموع حياة خلاياه الجسمية كلها » .

هذا مذهب « لودانتك » وهو معتمد الماديين اليوم، ولكن هذا العالم علي عراقته في البيولوجيا فليس بعميد هذا العلم ولا بصاحب الكلمة العليا فيه. فهو ليس في درجة توما هكسلي ولا أرنست هيكل ولا دارون ولا رسل والليس وغيرهم من الاقطاب الذين لايحصون كثرة، فجميعهم أثبتوا وجود الحياة وقرروا بأنها ارفع مستوى من النواميس الطبيعية الكيماوية. ولا بد لنا من ايراد طائفة من اقوالهم .

فأما « دارون » فقد قال ان الانواع مشتقة كلها من اصل واحد او اصول معدودة نفخ فيها الخالق روح الحياة. فهو يعتقد بأنها استمدت الحياة من خالق أو جدها . ثم أخذت في التنوع علي مقتضى نظريته بالانتخاب الطبيعي .

وقال العلامة المشهور « روسل ولاس » نديد دارون في كتابه عالم الحياة المطبوع سنة ١٩١٤ صفحة ٤:

« ان الظواهر القائمة بالكائنات الحية هى من العجب، وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة لنواميس الآلية طبيعية وكيماوية، بحيث انه من العبث

المحض أن يحاول البيولوجيون الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية (الحياة) بوضوح تام وبعبارات علمية .

وقال الاستاذ (كيرنر) الالماني في كتابه الحافل (التاريخ الطبيعي للنباتات) :

« الظواهر المشاهدة في البروتوبلاسما الحية في أثناء نموها وأخذها أشكالها النهائي لايمكن أن تعلل في مجموعها بوجود تركيب خاص للبروتوبلاسما لكل نوع من انواع النباتات »

ثم قال : « لذلك لاأتردد أصلا في تسمية هذا التأثير الطبيعي قوة حيوية لايجوز الخلط بينها وبين أية قوة أخرى ، وأن آلة هذه القوة البروتوبلاسما وان نتائجها الخاصة تعتبر بيننا مؤلفة لما يسمى بالحياة » .

وقال الاستاذ الاشهر (ارنست هيكل) الالماني كما رواه عنه العلامة روسل ولاس في كتابه عالم الحياة :

« ان كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لانشعر بوجودها »

وقال أكبر بيولوجي العصر الاستاذ (توماس هكسلي) في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) صفحة ١٠ عند كلامه على جماعات الحيوان المسمى (اميب) قال :

« في كل المملكة الحيوانية لايوجد مجموع يفوق هذا المجموع في تأييد هذا المذهب القوى الذى أوما اليه جون هنتر اكثر من مرة وهوان (الحياة) هي علة الاجسام لا انها نتيجة لها . لانه في هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية (يريد جماعة الاميب) لايصادفه الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أى أثر للتركب الجثماني فيها . فان هذه الاحياء لاشكل لها ومجردة من الاعضاء ومن الاجزاء المحدودة ومع ذلك فانها تملك الخصائص والمميزات الاصلية للحياة . حتى انها تستطيع ان تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحيانا وعلى غاية ماعكن من الجمال » .

وقال الاستاذ الدكتور (ج. جوليه) في كتابه (من لاشاعر الي شاعر) في طبعته الثالثة الصادرة في سنة ١٩٢٠:

«قال شوبنهور: (كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره. فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه. فهذا جسمنا لاشيء أقرب الينا من وظائفه، وكذلك لاشيء أبسط منها في نظر الرجل العامي. والواقع انه لا يوجد أعصى منها علي افهامنا. فالحياة لاتزال سراً مكنونا والحركة الحيوية ونشاط الوظائف العضوية الكبري ليست أقل منها تعاليا عن مداركنا. هذا النشاط الذي لايخضع للارادة الشاعرة لذواتنا ينشأ ويتم بدون شعور منا كما ينشأ ويتم في الفزيولوجيا المسماه بفزيولوجية ما فوق الطبيعة.

«بل أن التركيب الجثماني وكل ما يتعلق به من الميلاد والنماء والتطور الجنيني وما بعده ودوام الشخصية مدة الحياة والتجدد الذي يحدث لبعض الحيوانات في بعض اعضائها وفي بعض غددها، كل هذه الامور اسرار لاتدرك اذا اخذنا بالقول المدرسي في مسألة الشخصية (يريد به القول بان شعور الانسان بشخصيته هو مجموع الشعورات الجزئية لكل خلية من خلاياه) .

ثم قال «فلنحاول أن نفهم تحت ضوء هذه النظرية قيام هذه الشخصية التشريحية الفزيولوجية، واداءها لوظائفها. ولندع جانباً الي حين النظر اليها من الوجهة الفلسفية المحضة، بل ومن الوجهة النفسية البسيطة. ولا نواجهن الا الوجود الطبيعي، أي الشخصية الفزيولوجية باعتبار انها مجموع حياة الخلايا الجسدية. فمن أين حصل هذا المجموع من الخلايا المركبة لاي شخص من الاشخاص على صورته النوعية. وكيف تم له ذلك؟ وكيف يحفظ شكله طول مدة حياته؟ وكيف تتكون شخصيته الطبيعية وتحفظ وجودها، وتعيد تكوين بعض ما دثر من اعضائها؟

ثم قال: «من أين كل هذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ لنقل مرة أخري هذه من هذه المساتير

الطبيعية . وقد وصف (داستر) بقوله فمر لايسبر له غور ما يحدث في اثناء نمو الخلية الجرثومية من جذبها الي نفسها المواد الخارجة عنها ووصولها بذلك الى اقامة هذا البناء المدهش وهو الجسم الحيواني أو الانساني أوجسد انسان بعينه على سنة التدرج، ومع هذا كله حاول بعضهم وجد لهذه المساتير تفسيراً، ولكنه من الضعف بحيث يوجب الحيرة »

هذه حيرة العلماء في امر الحياة فننظر في حيرتهم في مسألة تنوع الانواع وما اقتضته من المذاهب الغريبة

.·.

﴿ حيرة العلماء في أصل الانواع ﴾
النباتية والحيوانية

من اين أتت هذه الصور الحية التي تعمر الارض والهواء والماء ولاتدخل تحت حصر؟ كيف خلف بعضها بعضا في مدى الزمان؟ وماهي العلل الطبيعية التي اوجبت تكوّن هذه الصور المختلفة؟ وكيف نفسر وجود هذا التشابه الاساسي الذي يربط الكائنات الحية بعضها ببعض، وهذه الخلافات الكبيرة والصغيرة التي تفصلها الى ممالك وطوائف ورتب وفصائل واجناس؟ وما هو (النوع) في حقيقته وهو الامر الذي لابد من اعتباره في التاريخ الطبيعي؟ هل هو أصلي ام مشتق، اولي ام ناتج من تسلسل حوادث طبيعية؟ والانواع الشديدة التخالف فيما بينها انشأت مستقلة على حدتها ام لجميعها أصل قديم مشترك نشأت عنه ثم تخالفت شيأفشيأ بالاسباب الطبيعية؟ ان كان كذلك فلا بد من البحث عن هذا الاصل في بطن الارض الي اعماق بعيدة حتي نصل الى السطح الذي بدأت فيه حياة هذه الصور الحية.

هذه هي المسائل التي جاشت في صدر علماء التاريخ الطبيعي من زمان بعيد

فولدت المذاهب المختلفة في أصل الانواع الحية . ونحن لامناص لنا من تلخيص هذه المذاهب ليلم القارى بتاريخ هذا البحث ولكن لاسبيل اليه الامن لدن القرن الثامن عشر، اما ماهو فوق ذلك فكان أشبه باقاصيص العجائز وفيما نقلناه من تاريخ الفلسفة اليونانية نموذج منه.

ولا تجد مؤرخا لهذه المذاهب اكبر ولا اوثق من العلامة الفزيولوجي الكبير (دوكاتروفاج)الفرنسى فسنلخص ماأورده فى هذا الباب.

﴿ مذهب بيودومابيه الفرنسى ﴾

بيودومابيه من علماء القرن الثامن عشر وضع كتابا في سنة (١٧٤٨ و١٨٥٦) أسماه (محادثة بين فيلسوف هندى ومرسل فرنسى على مسألة انحسار البحر)سردفيه آراءه في تركيب الكرة الارضية وفي أصل الكائنات الحية .

فكان يقول بوجود أعاصير تشبه أعاصير ديكارت.ويذهب الي انالشموس وهي مراكز هذه الاعاصير تفني تحت تأثير هذهالتيارات الهوائيةشيأفشيأ آخذةمن كواكبها بطريق التبخير مقادير من المواد وخصوصا الماء .وهذه المواد تحتوى جراثيم الاحياء الموجودة علي تلك الكواكب

فاذا بطل عمل شمس من الشموس وقفت اعاصيرها ، وخمدت نارها وصارت كتلة كثيفة فتلبث في الفراغ هي وما تحت سلطانها من الكواكب حتي تجذبها شمس أخرى في حالة حياة فتنجذب اليها . ولا بد قبل وصولها الى مكانها منها من أن تمر بتلك المناطق المتصاعدة بالتبخير من الكواكب فتعلق بكل منها طبقة من الماء فيها من عناصر الاحياء مايكفي لعمارتها . فمتي أخذت هذه الكواكب محالها من الشمس الجديدة التقطت الجراثيم التى اجتذبتها فى السماء فانتشرت علي سطحها بعدقليل أنواع من النباتات والحيوانات يغيرها من حال الى حال.

هذه أصول الاحياء لدي دومابيه وهو يقسمها الي قسمين أرضية ومائية ،ويرى

ان الثانية أصل للاولى . فكل نوع بحري ولد النوع الارضي المقابل له توليدا مباشرا. ويرى ان كثيراً ماحدثت استحالات شخصية تشبه استحالة الدودة الي فراشة ؛ وعنده ان هـذه الاستحالة تمكن بنقل بيض جمل ليفقس في لجـة مائية الي جهة هوائية . فاذا خرجت الصغار امكنها المعيشة في الهواء فتكون اصـلا ارضيا جديدا .

وهذه الاستحالات في رأى دومابيه تمت تحت تأثير الضرورة التي أوجبتها البيئة والعادة معاً .

وأول ماحدث منها كان بسبب انحسار الطبقة المائية التى كانت على الجبال من جراء مرور الارض من منطقة الابخرة المذكورة آنفا ، ثم مازالت المياه تنحدر من علي سطح الارض وتلك الكائنات التي كانت فيها تستقر في العراء حتي وقفت المياه في الحد الذي نشاهده الآن .

ولكن كيف امكن الحيوانات المائية ان تعيش في الهواء بعد انحسار البحر عنها ؟

يقول دومابيه امكن ذلك بحكم الضرورة ، فان هذه الحيوانات التى لايحصى لها عدد في بقعة ، اذا انحسر عنها الماء اضطربت وهاجت ومات معظمها ولكن لايعقل ان تموت كلها بل لابد ان يكون بقي منها ولو زوجان اثنان وهما يكفيان لتوايد هذا النوع في العراء .

هذا هو اصل العالم الارضى وامثاله ، وتفسير تكوّن الصور الحية عليه وعليها .

ولكن فات العلامة دومابيه اصل تكوّن هذه الجراثيم على اول كرة ارضية ، هذا هو الامر الذي حير العقول ، اما افتراض مجيئها من كوكب آخر فلا يحل هذه المسائل ولكن يزيدها تعقيدا كما رأيت .

﴿ مذهب رونيه روبينيه الفرنسي ﴾

نشر العالم رونيه روبينيه مذهبه في تكون الخليقة وقيامها في كتابه المسمي (اعتبارات فلسفية لتدرج الطبيعي لصور الكائنات) او (محاولات الطبيعة التي تتعلم كيف تخلق الانسان) الصادر في سنة ١٨٦٨ .

يذهب العلامة روبينيه الي ان الطبيعة مجموع واحد مستمر مؤلف من وجودات منوعة غير تاركة محلا لثغرة ولا لفترة فيه . ولكن الطبيعة لا تعرف الطفرة فهي سائرة في جميع مكوناتها علي سنة التدرج حتي في اقصي عوالمها . والوجود كله حي حتي أن المادة التي يراها الناس جامدة هي في نظر روبينيه حية ومؤلفة من جراثيم تصلح لتوليد كل شيء من جماد ونبات وحيوان . وتولد هذه الكائنات لا يعوزا كثر من وضع المادة في احوال تصلح معها للتوليد . ومتي نمت جرثومة من هذه الجراثيم ضمت الجراثيم المجاورة لها اليها ومتى انحلت خرجت منها تلك الجراثيم ودخلت في الحالة التي كانت عليها قبل دخولها في تكوين ذلك الجسم الجديد . وهذه الجراثيم صالحة لان تأخذ بنمائها جميع الصور الممكنة . وعليه فلا توجد في الطبيعة غير مملكة واحدة هي المملكة الحيوانية . فالارض والكواكب في رأيه كائنات حية ولكنا لاندرك ذلك لضخمها وتعاليها عن ابحاثنا . ففي هذا العالم الضخم الحي لا يمكن أن يتولد الآحاد . أما الانواع التي يصطدم فيها العلماء فهي وهم باطل لاحقيقة له نشأ من ضعف أعضائنا . ذلك اننا نعجز عن ادراك الخلافات الصغيرة التي تفصل بين أشخاص الكائنات الحية فتجمع الاشخاص التي تخالف غيرها في أمور مدركة لنا وتجعلها نوعا . ونشأت كلمات الجنس والرتبة والمملكة التي تستعمل في التاريخ الطبيعي من العلة المذكورة آنفا . وماهي الا كلمات فارغة استوجبها قصورنا ليس الا . ودليلنا علي ذلك خلاف العلماء القدماء في تحديد عدد الانواع واستكشاف أشخاص حية كل يوم تأتي فتسد فراغات بين الاحياء كانت تعتبر حدودا فاصلة بين نوعين متجاورين

فكل هذه الصور وقتية والطبيعة في تجديد مستمر لا تكرر ما عملته أولا. والترقي مستمر ايضا فيها . فالجماد يستحيل الي نبات والنبات الى حيوان والحيوان الى الانسان. ولا يصح في نظر روبينيه أن يقف الترقي عند حد الانسان بل يجب أن تكون موجودة كما يقول: صور ألطف وقوى اعظم مما للانسان من ذلك. والقوي تستطيع أن تتخلص شيأ فشيأ من كل مظهر مادى لتكوين عالم آخر غير هذا العالم » . انتهى

فرمي الطبيعة فى نظر روبينيه هو تكوين هذا الانسان ولكنها لم تتوصل الى تكوينه الا بعد محاولات كثيرة ، انتجت كائنات لا تدخل تحت حصر ، فلا تعتبر القردمن نوع الاورانغ أوتانغ انه من تلك المحاولات الطبيعية لتحقيق غرضها النهائي وهو الانسان ، ولكن اعتبر منها أيضا الحصان، وشجرة البلوط والاحافير والجمادات والدليل على ذلك انك قد تصادف أحجارا منها ما يشبه القلب ومنها ما يشبه المخ ومنها ما يشبه اليد والرجل . وكلها محاولات جزئية من الطبيعة جاءت بعد محاولاتها الجلية . وذكر روبينيه ان الطبيعة بعد ان انجحت في توليد الانسان أخذت في ترقيته وضرب مثلا بالفرق بين الانسان ذى الذنب ، وبين الايطالي واليوناني والجركسي : ثم قال وليس هذا منتهي ترقيتها للانسان بل انها ساعية فى امر اكبر من ذلك وهو محو التخالف بين الذكر والانثى. وقد ظهرت محاولتها احداث هذا الامر بتكوينها الكائنات الخنثى أى التى لها أعضاء تناسل الجنسين معا فلاشبهة في أنها ترمي بذلك الى محاولة توحيد الجنسين وسيتم ذلك على مدى الدهور .

هذا هو مذهب رونيه روبينيه وهو من النقص بحيث لايحتمل النقد. فاما ذهابه الى ان الوجود كله شيء واحد حي فهذا ماآلت اليه الفلسفية العلمية في هذا العصر، ولكن ذهابه في تحميل الطبيعة تبعة الايجاد والابداع فما لا يفهم . فهل هو يعتبر الطبيعة روحا مدبرة للوجود تفكر وتعقل وتحاول الوصول الى غايات الخ الخ ام هو يعبر بهذه الالفاظ على اسلوب التوسع والتسامح ، أما هو في الواقع فلايعتبران في الوجود قوة اعلى منه تدبره أو تفكر له ، وانما هو يصف أدوار الخليقة على ما تأدت اليه من

ذاتها لا بقصد قاصد ولا بتدبير مدبر .

يجوز أن يكون قصده هـذا أو ذاك ولكنه علي أي حالتيه لايحتمل النقد ولا يستحق المناقشة .

﴿ مذهب لامارك الفرنسي ﴾

نشر هذا العلم في سنتي (١٨٠٩ و ١٨١٥) كتابين احدهما (الفلسفة الزولوجية) أي فلسفة علم الحيوانات والآخر (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) بسط فيهما مذهبه في تكوّن الانواع فبدأ الـكلام عنها بهـذا السؤال . ماهي الانواع ، تلك الطوائف الاولية في المملكتين الآتيتين (يعني النباتية والحيوانية) ؟ وهنا بسط حيرة العلم وما يعانيه المؤرخ الطبيعي في تحديد الانواع المتجاورة . والح في بيان كثرة الانواع المشكوك فيها أي التي لايمكن ان يتبين حقيقة انواعها وتغيراتها . ثم عاد من ذلك الى لفت الابصار للتدرج الذى تترجم عنه الانواع والاصول، واستنتج من هذه المشاهدات ان الانواع ليس لها ذلك الثبات الذى يعزي اليها عادة .

ثم عقد فصلا خاصا استشهد فيه على نظريته في عدم ثبات الانواع بأمثـلة لتغيرات كثيرة مدهشة تحـدث بين حيواناتنا البيتية كالدجاج والحمام . ثم شرع في تفسير ذلك علي مقتضي مذهبه الذى نلخصه للقارىء في أسطر قليلة .

لامارك يفرق في مذهبه بين العالم والطبيعة ، فالعالم عنده هو المجموع العاطل المجرد من القوة الذاتية وهو جملة الاجسام والمواد الموجودة . وأما الطبيعة فهي القوة العاملة المنزهة عن الفساد بطبيعتها التي لاتفتر عن التأثير في المواد طرفة عين ، ولكنها مجردة عن العقل ومحكومة بقوانين . وبعبارة أوجز مما مر نقول كان لامارك يسلم بوجود مادة جامدة وبقوى مؤثرة عليها هى الاسباب الحقيقية لحـدوث جميع الظواهر الطبيعية . من بين هذه القوى واحدة تسمى (الحياة) ولكنها عند لامارك ليست بقوة خاصة لكنها نتيجة خاصة ببعض المركبات ، وجودها وقتي فيها .

على أى أسلوب تسير الطبيعة في ايجاد الكائنات ؟

قال لامارك :

« لاجل ان توجد الطبيعة كائناتها المباشرة تعمد الي تكوين منسوج خلوى من الكتل الصغيرة للمادة الجيلاتينية (الهلامية) التى تجدها تحت يدها ثم تملأ هذه الكتل الخلوية الصغيرة في الاحوال الموافقة بالسوائل المناسبة وتحييها بتحريك هذه السوائل بواسطة سوائل الطف منها طبيعتها التهييج تأتيها علي الاستمرار من البيئات المحيطة » .

فالطبيعة في رأى لامارك تولد بعض الكائنات توليدا مباشرا وهو ما يعبر عنه اليوم بالتولد الذاتي، وهي تفعل ذلك فيما يختص بالحيوانات الدنيا كالنقاعيات . وقد تولد كائنات أرقي من ذلك على هذا الاسلوب أيضا . اليس مما يرجح هذا الرأى تولد الديدان في الامعاء كما يقول ؟

هنا نقول ان عذر لامارك في هذه الجرأة ان الميكروبات لم تكن معروفة في ذلك الحين ، ولو كانت لما استطاع إمام في العلم مثل لامارك ان يقول مثل هذا الكلام الذي يضحك اصغر طلبة علم الطبيعة اليوم .

وهنا نلفت نظر القراء لهذه الحقيقة وهي ان كل المذاهب الفلسفية التى تستهويه بأصولها وتعبيراتها كلها مبنية علي الدرجة (المحدودة) التى لنا من العلم بالكون . فكلما اتسعت دائرة هذا العلم توسعت الفلسفة بقدرها وحذفت اخطاءها السابقة . وبما اننا لانزال من العلم في الدرك الاسفل ، لاهم الاعلاقات ضبطناها عن الكائنات موجودة بينها ، ففلسفتنا مهما ظهرت لنا راقية مقنعة فانها لاتمثل الحقيقة ولكنها تمثل درجتنا من العلم الناقص ليس الا . وستنتقل من دور الي دور علي مر القرون والله وحده يعلم الي اى مدى ننتهي في هذه الآماد المتعاقبة . وكل مانريد أن ننبه اليه القراء هو أن فلسفتنا التي تحني أمامها رؤسنا اليوم سيضحك منها خلفاؤنا كما نضحك

نحن من قول زعيم نظرية التولد الذاتي اكبر علماء وقته لامارك بتولد الديدان في الامعاء بفعل الطبيعة مباشرة . . . .

* *

كيف تنوعت الانواع بفعل الطبيعة في رأي لامارك وهي غير عاقلة والحياة نفسها عرض من اعراض المادة ؟

الامر في نظره سهل ، قال:

من الجلي ان الطبيعة لم تستطع أن توجد الحيوانات كلها دفعة واحدة. فان الطبيعة لا توجد شيأ الا تدريجيا وببطء عظيم، حتى قد يدرك تقدمه الي الامام . فالكائنات الدنيا من ساعة خروجها من يد الطبيعة مؤلفة من المواد المتنوعة تحت تأثير القوى المختلفة، ومتمتعة باول شرارة من الحياة أخذت في الترقي ولا تزال تترقى الى اليوم، وهي تلك الكائنات الدنيا التي ولدت كل ما نراه في المملكتين النباتية والحيوانية من الانواع التي لا تدخل تحت حصر على طريق التسلسل ، فهي لم تنشأ طفرة كما يقول دومابيه ولكن بترق تدريجي في آماد لا يمكننا حسبانها .

كيف حدث هذا الترقي في هذه الكائنات الاولية، وكيف تم النمو في التراكيب والحياة على ما نشاهده اليوم في النباتات والحيوانات العليا.

حدث كل ذلك وتم بتأثير البيئة والاحوال وفعل المادة، فالطبيعة تتصرف في المادة وفي الزمان والمكان تصرف المالك ولكنها مقيدة بقوانين لا تتعداها، أهمها اربعة:

(أولها) الحياة بقواها الذاتية تميل باستمرار الى زيادة حجم كل جسم تحل فيه، ولمد ابعاد اجزائه الي غاية محدودة. هذه الغاية هي الموت، وهو التابع الطبيعي للحياة .

(ثانيها) كل ما يحصله الجسم الحي من الصفات أو يتأثر به من التغيرات ينتقل

الي نسله ويظهر فيهم على ماكان عليه في آبائهم . وقد ابان لامارك في شرحه هـذا القانون بأن جملة التغيرات في مدى القرون توجد بين الاحياء تنوعات لاتقف عند حد ؛

(ثالثها) الجسم الحي اذا احتاج الي عضو بتأثير أحوال البيئة تطلبه وانفعل لحصول عليه، وتحرك حركات خاصة تحت فعل الحاجة اليه، فينمو ذلك، والعادة في نظر لامارك هي الوسيلة العامة التي تستخدمها الطبيعة لتغيير أعضاء الحيوانات .

(رابعها) ان نمو الاعضاء وقدرتها علي اداء وظائفها يكون دائما بنسبة استعمال هذه الاعضاء.

ومؤدي هذا القانون ان استعمال عضو من الاعضاء يقويه وينميه واهماله يضره ويلاشيه ؛

ومن هنا يتبين ان لامارك لم يقل فقط بالترقي التدريجي ولكن بالتقهقر التدريجي أيضا علي حسب الاحوال.

وبتطبيق هـذا القانون يسهل عليـك في نظر لامارك ان تفهم كيف نشأت ذوات الثدى من الزواحف أمثال التماسيح وكيف انقسمت الي ثلاث طوائف أصلية .

ظهرت ذوات الثدى أولا حاصلة على أربعة أرجل غير نامية . بعضها ككلاب البحر اعتاد التغذى بالحيوانات الحية . وهى لنشاطها في الصيد تجرأت علي التوغـل في الارض فنشأت ذوات الثدى المتمتعة بالمخالب، وهي اصول الحيوانات الضواري او القارضة.

ومنها طائفة تعودت التغـذي باوراق الاشجـار فصارت أصولا الحيوانات الحوافرة .

وعند هذه وما تقدمها ضرورة الجولان في الارض لطلب الغذاء قوت عضلاتها وشدت رابطة ارجلها بجذوعها ووسعت حوضها الخ .

واليك أمثلة اخري تبين لك مايراه لامارك من الفواعل في تغيير اشكال الحيوانات

الظاهرية والباطنية منها : الحيوان المسمى (توب) لمعيشته في الجهات المظلمة وعدم حاجته الى البصر صار فاقدا للعينين او ذا عينين اثريتين . ولحاجته الى التغذي بصيد النمل اخذ لسانه الشكل المعروف المناسب لصيد ذلك الحيوان

والحاجة الى القفز بيسط الاعضاء بشدة قوى عضلاتها الانبية، واوجد اجنحة للخفافيش وما يشاكلها .

ولم يجعل الثعابين ذوات اجسام ملساء مستطيلة مجردة عن الاعضاء الاوجودها في اماكن قضت عليها بالزحف والمرور من مسارب ضيقة .

والبط مثلا لم يوجد له ذلك الغشاء بين اصابع رجليه الا لاضطراره الى السباحة .

والهبرون الذي يكون بجوار البحار ما اكسبه هذه الارجل القوية الثابتة الا شعوره بضرورة الثبات واقفا مع شدة العوامل القاضية عليه بالسقوط . أما عنقه الطويل ومنقاره المحدد فقضت بهما عليه حاجته الى تناول الطعام خطفا .

والضرورة قضت ان تطول عنق الظرافة الى هذا الحد لانها اضطرت لتناول اغذيتها من اوراق الاشجار العالية .

لماذا حدثت للضواري مخالب ؟ يقول لامارك لانها اضطرت للتغذي بلحم الحيوانات الحية واعتادت دس اصابعها في اجساد فرائسها لتمنعها من الافلات .

وقد كان تعليل لامارك للزائدة التي في رأس الجمل سببا اضحك كثيرا من جانب خصومه وسلاحا استخدموه ضد مذهبه .

قال في تعليل تلك الزائدة ان ذلك الحيوان الضعيف متى خرج من قوقعته واراد الانتقال احتاج لان يرود الارض التي امامه قبل ان ينتقل اليها فكان يشعر بضرورة مسها برأسه على نحو كثير من الحيوانات الدنيا فكان تنتشر قوة عصبية في الجهة التي يريد الدس بها من رأسه، ويصعد اليها دم غزير . ويتكرر ذلك على طول الازمان نمت هذه الجهة وما زالت تنمو حتى تكونت تلك الزائدة التي تصلح تمام

الصلاحية لجس الارض امام ذلك الحيوان الضعيف .

فالجسم الحيواني ليس بمحض كتلة قابلة للتحول في يد البيئة ولكنه يؤثر في نفسه بقوة ارادته ايضاً .

هذا مذهب لامارك في جملته ونحن نلخص أصوله الاولية فيما يلي ليسهل مقارنتها بأصول خليفته دارون .

(١) التقاسيم المعتبرة في العلم الآن كالطوائف ، والصفوف والانواع الخ ليست طبيعية ولكن وضعية ، أى وضعها الباحثون فيها .

(٢) الانواع الحية لم تتكون الا شيأ فشيأ . ووجودها نسبي وبقاؤها محدود .

(٣) اختلاف الاحوال يؤثر في تكوين الحيوان باطنا وظاهرا .

(٤) الطبيعة في تكوينها الحيوانات بدأت من الادني فما فوقه حتي انتهت الي الاعلي ؛

(٥) لافرق بين النباتات والحيوانات الا في الحس .

(٦) الحياة عرض طبيعي وليست بأصل مستقل .

(٧) العقل منشأه الاعصاب .

(٨) الارادة الانسانية غير حرة بل مقيدة بمقتضيات الجسم .

﴿ مذهب دارون ﴾

ظهر هذا المذهب فى سنة (١٨٥٩) وضعه شارل دارون العالم الانجليزي وأطلع عليه بعض اخوانه قبل هذا التاريخ . فاتفق ان العلامة الكبير الانجليزى (الفريد روسل ولاس) كان اذ ذاك ينقب عن حياة بعض الحيوانات والنباتات وغيرها بأستراليا فهدى الى ذات مذهب التحول بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي ، وهومذهب دارون بعينه ، فأرسل بخلاصته لتنشر فى مجلة الجمعية الملكية العلمية ، فرأي أعضاء تلك الجمعية

ان العدل يقضي بنشر المذهبين في وقت واحد فتقرر ان يعزى المذهب الي داروين دون روسل ولاس لاعتباره سابقا.

هذا المذهب مؤداه ان اصل الانواع النباتية والحيوانية التي تغص بها هذه الارض جرثومة واحدة أو جراثيم قليلة تطورت من حال الى حال تحت تأثير فواعل مختلفة طبيعية محضة حتي وصلت الي ماتراه من التنوعات التي على رأسها الانسان.

فهو لا يقول ان اصل الانسان القرد الموجود الآن ولكن حيوان بين القرد والانسان لم يعثر على هيكله في الاحافير للآن. أما القرد فان داروين يعتبره نهاية ترق لفرع من أفرع الشجرة الحيوانية.

وقد بني داروين مذهبه علي اصول طبيعية مشاهدة وهي:

(١) قبول الاحياء للتغير بمزاولة الحياة.

(٢) انتقال هذه التغيرات الي النسل من طريق الوراثة.

(٣) تنازع الاحياء البقاء.

(٤) بقاء الاقوى والاكمل من المتنازعين وضمور الاضعف وتلاشيه.

هذه العوامل هي التي تولت اول جرثومة حية، ومازالت بها حتي اوجدت منها هذا التنوع الخطير الذي على رأسه الانسان.

لم يرد داروين أن يبحث في اصل الحياة ولا في كيفية وجود الجرثومة الاولي لهذه الاحياء واكتفى بأن يعزو ايجادها للخالق لصعوبة بحثها من طريق العقل والمشاهدة. فكان من هذه الوجهة أحكم من جميع من تقدموه وعقبوه، فانهم خفوا تحت تأثير الالفاظ الخلابة حتى خيل اليهم انهم أدركوا سر الخليقة، وعابوا على داروين تحفظه وتحرجه. ولكن لم يلبث سلطان هذا الانخداع أكثر من نصف قرن حتي تبين للباحثين وهن هذه الاصول فعادوا الى مذهب لامارك لا لانه يعتبرانه الحقيقة، ولكن لانه اقل مناقضة للمشاهدات. وقد استقر في روع العلماء ان هذين المذهبين وما ماثلهما لا يحلان رمز الخليقة، ولا يعللان قيام اصغر تركيب آلي في الطبيعة.

ونحن قبل ايراد آراء هؤلاء العلماء نبسط مذهب داروين على ما يقرره هو

بمثال محسوس

فاذا افترضنا وجود سرب من الابقار الوحشية في غابة تسير متحدة كعادتها في البحث عن غذائها فان لاح لها مرعى تزاحمت عليه وتنازعته وفازت بأطايبه أقواها واصبرها. فالذى يحدث من ادمانها على هذا العمل ان أقواها تزداد قوة على قوتها، واضعفها يزداد ضعفا على ضعفه . وهذا معنى ناموس تنازع البقاء وفوز الاقوى.

فان ازعج هذا السرب من موطنه واضطر للانتقال الى مدى بعيد مارا بوعور ووعوث ومجاهل لا يقوى على اختراقها الا الممتازون بالقوة والجلد، لم يبق من هذا السرب بعد أن يصل الى مأمنه الا افراد ممن امتازوا بهذه الصفات وهذا مؤدى ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح.

وهذه الطائفة الباقية لا يتولد منها الا افراد حاصلون على ارقى صفات سربهم الممتاز . فان اتفق وجودها فى بيئة جديدة فيها احوال معيشية لم تعتدها، وفواعل طبيعية لم تألفها حدث انتخاب طبيعي جديد ولم يبق على قيد الحياة الا الممتازة بصفات عليا من الجلد والضلاعة ، فاذا أدمنت الفئة الباقية المعيشة في هذه البيئة الجديدة اضطرت بحكم تغير الاحوال والفواعل الى اكتساب صفات جديدة جسدية ونفسية تناسب هذه الاحوال ، والفواعل . وهذا فحوى ناموس قبول الاحياء التغير على حسب البيئات التي توجد فيها ولا شك بأن النسل الذي يأتي منها يولد حاصلا على تلك الصفات الجديدة المكتسبة، ويورثها هو أيضا نسله، وهلم جرا، فتصبح ثابتة في النوع. وهذا مغزى ناموس الوراثة :

فالخلية الاولى التي تكونت منها هذه الاحياء كلها تكاثرت اولا بحكم طبيعتها فصارت نباتات دنيئة، وحيوانات دنيئة، فتولتها النواميس الاربعة التي ذكرناها قرونا تعد بعشرات الالوف فليثت تتنازع البقاء، فلم يبق منها الا الاصلح ، ثم تتغير عليها البيئة فتكتسب صفات جديدة تورثها ذريتها فيحدث فيها تنوع تباين به غيرها مما هى في بيئات اخرى، وهلم جرا حتى تكوّن من هذه الجرثومة الاولى كل ماتراه ماثلا أمامك من سكان هذه الارض .

﴿ الاعتراضات على مذهب دارون ﴾

لم يعترض على مذهب من المذاهب قدر مااعترض على مذهب دارون ، ولم ينشب مذهب في العقول ويؤثر على الاخلاق والميول مثل مانشب واثرمذهب دارون. وهو مبني على أصول تعتبر من المجربات اليومية لكل انسان، وكل مافي اعمال الناس ومحاولاتهم ادلة حسية على صحة تلك الاصول. لذلك انتشر هذا المذهب بين الطوائف حتى العامية، وراج في عقول اكثر العلماء في أول الامر، ولكنهم لا يسلمون برجحان نظرية حتى يعودوا اليها ليستنفدوا كل ما يسمه البحث والتنقيب. فلما جروا على عادتهم مع مذهب دارون تبين لاكثرهم وهن اصوله، وضعف ما بني عليها، ولكن كيف يفهم العامة ذلك وقد انتشرت بينهم كلمات تنازع البقاء وبقاء الاصلح وقانون الوراثة الخ الخ حتى صارت سمجة مبتذلة .

ونحن لانريد من قولنا ان اهل العلم تبينوا وهن اصول مذهب دارون انهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل، فهذا مالا يقول به الا الشاذ من أهل العلم اليوم ، ولكنهم أصبحوا يرون لتسلسل الاحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس دارون، بل اكثرهم مال اليوم الى مذهب لامارك. اما الاعتراضات على مذهب دارون فمنها قديم تبين للناقدين بالبداهة ، ومنها حديث نتج من الابحاث الجديدة ونحن نعرض القديمة أولا ثم نتبعها بالجديدة فنقول .

تنحصر الاعتراضات القديمة على مذهب دارون في ثلاثة امور كلية وهي:

(أولا) نكران الارتقاء في الاحياء، ومؤداه ان الحيوانات الدنيا هي اليوم على ما كانت عليه لم يشاهد فيها ارتقاء ما ، وان الاحياء العليا والا فلي توجد معاً في جميع الطبقات الارضية، فلو كان مذهب الارتقاء صحيحاً لاقتضى ان يوجد الادنى منها قبل الاعلى ، والذي شوهد العكس، فقد وجد بين أقدم الصور المستخرجة من باطن الارض ماهو بالغ من التركب درجة عالية .

فرد عليهم انصار مذهب داروين بقولهم : ان وجود صور ذات تكون عال في الطبقات القديمة جدا للارض لاينقض مذهب داروين بل يبعد أصل الحياة وتفرعاتها الي أزمنة أبعد وأدوار جيولوجية أقدم. واننا لم نكتشف للآن أقصى الطبقات الارضية. ثم ان الاحياء الدنيا التي نشأت منها الاحياء العليا يستحيل ان تحفظ اجسادها في باطن الارض ملايين من السنين لصغرها من جهة، وقلة مقاومتها لعوارض الطبقات الارضية من جهة أخرى .

ولكن قد ثبت بما لايدع شكا اشاك ان عالم النباتات سبق عالم الحيوانات، والحيوانات المجردة من الفقر سبقت الحيوانات الفقرية التي هي اعلى منها رتبة . وما كان من الاصل الفقرى أتم واكمل جاء بعد ما كان منه دونه . فجاءت الحشرات بعد الاسماك ، وذوات الثدى والطيور بعد الحشرات، والانسان بعد الطيور ولا يعلم انه حصل عكس ذلك البتة .

(ثانيها) نكران الصور المتوسطة بين الانواع . قال خصوم داروين لو كانت الانواع النباتية والحيوانية مشتقا بعضها من بعض لكان بين كل نوعين منها صور متوسطة .

فرد الداروينيون علي هذا الاعتراض بقولهم ان الصور المتوسطة بين الانواع الحية كثيرة، ومما يدل عليه حيرة العلماء في عد الانواع فقد عد بعضهم من نوع الهراسيون في المانيا ٣٠٠ نوع وحسبها الاستاذ فرسنل ١٠٦ وجعلها لوك ٥ وهكذا الشأن في جميع الانواع وما ذلك الا لعدم وجود حد فاصل بينها .

ثم قالوا ان الصور المتوسطة ان عدمت بين كثير من الانواع الحية فبسبب انقراضها بسرعة ، لان تنازع الحياة يشتد كلما تقاربت الصور، ويكون نتيجة ذلك ملاشاة الصور المتوسطة ، فلا تبقي الا الصور المتباعدة التي لا تظهر للرائي انها من نوع واحد .

أما الصور المتوسطة في الكائنات الاحفورية التي وجدت في باطن الارض فكثيرة جدا وكل يوم يكتشف منها عدد كبير .

(ثالثها) طول الزمان اللازم للانتقال ،قالوا اذا كان قد مضي علي العالم نحو سبعة آلاف عام منذ دون التاريخ ولم يشاهد أدني تحول في الانواع، فكم عدد السنين التي مرت على الخلية الحية الاولى حتي نشأت منها كل هذه الكائنات المختلفة التى في قمتها الانسان ؟

وقد شعر داروين نفسه بخطورة هذا الاعتراض فقال : ان السر وليم طمسون يزعم ان الارض لم تيبس قشرتها قبل اكثر من مائتي مليون سنة،وهذا الزمان غير كاف لبلوغ الحياة الي حالاتها الحالية بالنشوء والارتقاء. فان صح مذهبي فلا بد أن يكون الزمان الذى مضى قبل تكون الطبقات الكمبرية الارضية السفلي طويلا جدا وربما كان اطول منه بينها وبين اليوم .

ويرد زعماء مذهب داروين هذا الاعتراض بقولهم أن تحديد السير وليم طمسون وغيره ظني محض وليس فى وسائلنا مايمكننا من تحديد عمر الارض بالضبط.

(الاعتراضات الجديدة علي

مذاهب التحول)

مع عدم وجود عالم يعتد به يقول بالخلق المستقل الآن، فان جمهور الباحثين اليوم أدركوا أن كل النظريات التي افترضت في تفسير تسلسل الكائنات الحية بعضها من بعض لاتمثل الحقيقة، ولا تروج الا في اذهان الذين يقنعون بالالفاظ الضخمة . وهذا التوقف من اهل العلم اليوم اثر من آثار تخلص العقل من سلطان الخداع العلمي السابق، وهو الخداع الذى أوهمه بأنه ادرك سر الوجود ووقف علي جميع مساتيره بفضل الفلسفة الماديه والعلم الطبيعى .

وقد حصر العلامة الدكتور(جوستاف بوليه) من كبار علماء فرنسا الامور التي لم تحلها مذاهب التحول الرسمية سواء اكانت داروينية أولاماركية اوغيرها في

خمسة امور هامة وهي منقولة عن كتابه (من لاشاعر الى شاعر):

(١) العوامل التي فرضها العلم الرسمي تعجز عن تعليل وجود الانواع

(٢) تلك العوامل تعجز عن تعليل وجود الالهام عند الحيوان .

(٣) تلك العوامل تعجز عن تفسير تلك الاستحالات الفجائية الموجودة لانواع جديدة .

(٤) تلك العوامل تعجز عن تعليل ذلك الرسوخ المباشر النهائي للصفات الاصلية للانواع التي تتكون حديثا، وتعجز أيضا عن تعليل نشوء الالهامات الجديدة فيها (وقد ثبت أن أنواعا جديدة لا تزال تخلق الآن كما ستراه).

(٥) تلك العوامل تعجز عن حل هذه المعضلة الفلسفية الخاصة بمذاهب التحول وهي: كيف يخرج المركب من البسيط وينشأ الاكثر من الاقل؟

ثم أخذ الدكتور (جوستاف جوليه) يفيض في بيان وجوه هذا العجز في نظريات التحول عن تعليل الامور المذكورة، مما لا نستطيع إثباته هنا لان غرضنا ليس اثبات فساد مذهب دارون، ولكن التدليل على ان العقل الانساني خرج من سلطة الدعوى العلمية الباطلة فأصبح لا يستغويه شيء من الالفاظ الضخمة والتعبيرات المنمقة. وهذا الغرض يكفي فيه نقل آراء العلماء في ذلك ليس الا .

والذي نريد بيانه هنا على عجل أن مذهب دارون الذي كان انتشر هذا الانتشار المدهش عقب ظهوره، قد فقد سلطانه اليوم واصبح الناس يميلون الي مذهب لامارك، لا باعتبار انه الحقيقة المطلقة، ولكن باعتبار انه أفضل من مذهب دارون.

قال الدكتور (جوستاف جوليه) المذكور في كتابه المتقدم صفحة ٢٠ :

«قد أصبحت الغالبية العظمى من العلماء الطبيعيين يشايعون النظرية اللاماركية التي تحاول ان تحيل مذهب التحول كله الي تأثير البيئة . وما مذاهب (كوب) و(باكارد) بأمريكا و (جيارد) و (لودانتك) في فرنسا الا لاماركية الصبغة

وقال الدكتور المذكور في صفحة ١٧ من كتابه المذكور :

« يرى مما تقدم ان اللامار كية والداروينية تستويان في العجز عن اعطاء تفسير عام صالح ينطبق علي كل الاحوال عن ظهور الانواع الحية »

ثم أخذ العلامة (جوستاف جوليه) يفصل في توسع نقص (اللاماركية) فقال :

« تستطيع اللاماركية ان تفسر لنا ظهور طائفة من الجزيئات العضوية الثانوية، والتغيرات المتخالفة في القيم، كضمور عيني الحيوان المسمى (التوب)، وتضخم الوسطي من اصابع الحيوان المعروف المسمي (ايكيدى) أو التركيب الخاص لمفاصل رجله .

« ولكن هذا المذهب باطل من جهة كونه نظرية عامة ، لانه يعجز عن بيان الحوادث الاكبر قيمة . فهو لا يفسر التحولات الكبيرة التى تكلمنا عنها في نقد المذهب الداروني، فكلاهما يستوي في القصور، لان هذه التحولات تستدعي تغيرات أصلية ، وهي تغيرات مباشرة لا مجموع تغيرات تافهة بطيئة .

« فالتحول عن الحياة المائية الي الحياة الارضية ، ومن هذه الحياة الارضية الي الحياة الهوائية الجوية ، لا يجوز على الاطلاق ان يعتبر نتيجة لازمة لناموس المطابقة .

فالانواع السالفة التي تناسب البيئات الخاصة لم يكن بها من حاجة الى تغيير ما هي عليه وان كانت أحست بحاجة الى ذلك لما استطاعت ذلك .

« فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور، ان يتناسب والبيئة التي ليست له ، ولا يمكن ان تكون له الا بعد أن يتحول من صوره حيوان زاحف الي صورة عصفور. فكان لا يستطيع قبل ان تكون له أجنحة ، اجنحة نافعة لا اثرية، ان تكون له حياة هوائية وان يتناسب معها .

« ونظرة تشبه النظرة المتقدمة تنطبق على تحول السمكة الى باترسيان(الباترسيان طائفة من الحيوانات الفقرية علي رأسها الضفدعة).

« ولـكن المجال الذى يظهر فيه بوضوح استحالة التحولات بواسطة التناسب هو تطور الحشرة . اذ لاتوجد ابة علاقة من جهـة علم الحياة بين الدودة التي تمثل على حالة مّا الصورة الاولي للحشرة الاولية وبين الحشرة الكاملة . ولم يتصل احـد الى ادراك تلك السلسلة الغامضة من التناسبات التي بها أمكن حشرة تعودت الحياة الدودية تحت الارض أو في المياه ان تصل شيأ فشيأ الي ايجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة منها .

«ومتى فكر الانسان في ان هذه السلسلة الغامضة من التناسبات حصلت لامرّة واحدة على سبيل الاستثناء بنوع من الخوارق للطبيعية ولكنها حصلت بقدر عـدد أنواع الحشرات ذات الاجنحة، يدع الانسان كل أمل في تعليل ظهورها اجناسها بالفواعل اللامار كية كما يرفض فـكرة تعليلها بالفواعل الدارونية »

ثم قال :

« من هنا نري ان اللامار كية والدارونية تستويان فى العجز عن اعطاء تفسير عام يمكن تطبيقه على جميع الاحوال من ظهور الانواع »

«واذا كان اكثر القائلين بنظرية التحول لم يدركوا ذلك للآن فان قوما منهم يعترفون به ويجتهدون فى ان يجدوا في غير هذا المجال العامل العـالي في التحويل ، الصالح لتذليل كل هذه الصعوبات الملازمة للعلم الطبيعي الرسمى .

«فبعض اللامار كيين الجدد من امثال (بولي) ينسبون الي عناصر الجسم والى الجسم نفسه سواء أكان نباتيا أم معدنيا نوعا من الشعور القوى . وهذا الشعور القوي كان العامل الاصلى فى احداث كل التغيرات والتناسبات. وذهبوا الي انه يوجد في جميع درجات السلم التحولى جهد مستمر ومقصود بالذات لاحداث التناسب مع البيئة .

« أما (نايجلي) فهو اكثر تصريحا فعنده ان الاجساد تحوي نوعين من

البلاسما(اى المادة الحية) ، البلاسما الغاذية العامة لجميع الانواع لامخالفة ولا نوعيـة ، والبلاسما النوعية وسماها ايديو بلاسما

«وهذه الايديو بلاسما تحتوي لاعلى الميسليانيه التي تميزها فقط، ولكن على ميـل باطني أيضا للترقي،وعلى كل الصلاحيات والقابليات للتحول والتكمل وهذه القابليات قد وجدت منذ وجود الحياة في الصور الحية الاولية .والعوامل الخارجية والحالة هذه لا يكون عملها غيرتسهيل تناسبها مع البيئة . ولكن هذه العوامل تعجز هي في ذاتها ان توجد الترقي» انتهى

من هنا يرى القارىء أن النظريتين الداروينية واللا ماركية اللتين اغتر بهما العقل البشرى عشرات من السنين، ولايزل ينخدع بهما كثير من الذين تلقوهما أو تلقفوهما بالشهرة، فقدتا كل ما كان لهما من سلطان على العقول وسترى فيما يلي الى أي مـدى وصل العقل البشرى من خلع نيريهما . كل هذا حصل في العالم الغربي ولايزال الشرقيون الذين يدعون انهم في طليعة النهضة العلمية يجعلون الداروينية عمدتهم في كل تعليلاتهم حتى في شؤنهم الادبية .

﴿ ثبوت فساد أصول اللاماركية والداروينية ﴾

بالتجارب العملية

قال العلامة الدكتور (جوستاف جوليه) في كتابه (من لاشاعر الى شاعر) المطبوع سنة ١٩٢٠:

«اللاماركية والداروينية توجبان القول بأن تغيرات بطيئة وصغيرة لا يمكن حصرها حدثت فتولدت منها الانواع على سنة التدريج

«هذا القول الذى اعتبر من العقائد الراسخة يظهر للقائلين بهاتين النظريتين انه فوق كل جدال

« ولكن ما عتم الناس حتى جاء أخيرا (دوفري) فأعلن مشاهدات فيما سماه

الانتقالات، او الظهور الفجائي لانواع نباتية جديدة طفرة، بدون مرورها على صور تدريجية متنزلة من صور اسلافها الاولية ، فكان لهذا الاستكشاف عند المشتغلين بالفلسفة الطبيعية أثر كبير من التشويش والارتباك .

ثم نقل الدكتور (جوستاف جوايه) قول الاستاذ البيولوجي الكبير (لودانتك) وهو مدرس علم الحياة بجامعة السوربون الباريزية وهو مأخوذ من كتابه المسمى (ازمة مذهب التحول) .

« قد ظهرت منذ عدة سنين نظرية جديدة مؤسسة على تجارب ممحصة شايعها عدد عديد من عالم العلوم الطبيعية . والحال ان هذه النظرية المسماة بنظرية الانتقالات أو التحولات بالطفرة تعتبر انكارا اللامار كية بل تكاد تكون انكاراً لاصل التحول نفسه

ثم عاد الدكتور (جوستاف جوايه) الى تفصيل مذهب (دوفري) فقال :

« المسألة الوحيدة التي يجب حلها هي : أهذه الانتقالات الفجائية في التحول قاعدة أم استثناء ؟

يقول (دوفرى) بصراحة ان التحولات الفجائية هي القاعدة في عالمي الحيوانات والنباتات . وهو محق فيما يقول . فاذا امتحن الانسان جميع التاريخ الطبيعي بدقة في سلم الارتقاء ادرك أن نظرية التحول بالطفرة تصادف في كل مكان ما يؤيدها .

« فهناك حقائق ظاهرة العيان ولكنهم كانوا لا يريدون ان يروها ، أو كانوا يخفونها عن الانظار بغير شعور منهم ، قد ظهرت الآن ظهوراً بيناً وامتحنت امتحاناً مدققاً .

« وقد كان اعلن هذه الحقائق الطبيعيون الكبار من امثال جوفروا سان هيلير ولكنها لم تسد على العقول . وعليه فمذهب التحولات البطيئة لم تجد مناقضاً لها حتي ظهرت اعمال (دوفري)

« وجاء (كوب) فاعتمد علي نظرية التحول بالطفرة واعادة دراسة الصور الحفرية وبخاصة الصور الحفرية (للباتراسيان) وذوات الثدى بأمريكا ولم يجد صعوبة في ترجيح حدوث تغيراتها نحو الارتقاء من طريق الطفرات .

« ومن السهل اذا اعتمدنا على المستندات الحفرية التي تؤلف سجلات الخليقة ان نشاهد دائما الظهور الفجائي للانواع الكبيرة الرئيسية . فالباتراسيان والزواحف والطيور وذوات الثدي تظهر فجأة في الاراضي الجيولوجية . وظهر انها بمجرد ظهورها تحصل بسرعة على صفاتها وتحفظها بعد ذلك كاملة ولا تكابد بعدها تغيرات اصلية مادامت أنواعها حية .

ثم قال :

« بينما علم الحفريات يرينا كثيرا من الاعضاء الأثرية في اجساد الحيوانات الحية، وهي اعضاء بطل استعمالها وعدمت فائدتها، فلا يعطينا قط مثالا واحدا لاعضاء آخذة في التكون ولا تزال لا تصلح للاستعمال . وعليه فيظهر ان التحولات الفجائية هي القاعدة في ترقي الاحياء . ولقد اتضح الآن ان ناموس الانتخاب الطبيعي وتأثير الوسط لا يستطيعان تفسير الظهور الفجائي للانواع الجديدة » انتهى ماقاله الدكتور جوستاف جوليه .

٥٠

ان استكشاف (دوفرى) قد احدث انقلابا في نظريات علم الحياة ومذاهب التحول لم يكن يخطر علي بال احد . وهو ليس بنظرية جديدة بل هو مقررات تجريبية محسوسة وضع فيها كتابا ضخما لاسبيل الى بسطه هنا. ونقلنا اعتراف الاستاذ (لودانتك) بذلك وقد كان من اشد انصار نظرية دارون ثم انقلب الى مذهب لامارك كا كثر العلماء المعاصرين لنا . فأين الجامدون هنا على مذهب دارون من هذه الانقلابات

الذريعة ؟

ان استكشاف (دوفري) هذا لايؤدى الي القول بالتولد الذاتي أى بالخلق المستقل، ولكن مؤداه ان التحول فى الاحياء لم يحدث بطريق نظرية دارون من الانتخاب الطبيعي الآلي ولا بطريق نظرية لامارك من تأثير البيئة وحدوث التناسب التدريجي بين الكائنات والبيئات، ولكن بطريق الطفرة، أى ان القوة المديرة للكون أوجدت الانواع المختلفة بعضها من بعض على سنة الطفرة . فلأجل ايجادها للانسان مثلا حولت جرثومة القرد فى رحم القردة الي جرثومة انسانية، فجا ولدها انسانا لاقرداً، وصار نوعا قائما بذاته . لا ان الانسان نشأ بلا قصد من تأثير ناموس الانتخاب الطبيعي على القردة، اوعلى حيوانات أخري، بإبقاء الاصلح وباكتساب صفات ومميزات جديدة على سنة التدرج البطيء في الوف القرون كما يقول دارون، أو بتأثير البيئة كما يقول لامارك.

﴿ حياة الحشرات تنقض نظريات ﴾

التحول الطبيعي بالحس

قال الدكتور (جوستاف جوايه) فى كتابه (من لاشاعر الى شاعر) المذكور آنفا :

« يكفى ان يتأمل الانسان في حياة الحشرة بعناية ليدرك بطلان النظريات القديمة والحديثة في وجود الانواع وترقيها .

« فان الحشرة بظهورها من اقدم عهود الحياة الارضية وثبات انواعها في جميع الاحوال بعد بروزها، تناقض ما يُذهب اليه من التحولات المستمرة البطيئة غير المتناهية .

« وتقوم ضد نظرية الترقي بالعوامل العلمية الرسمية من الانتخاب الطبيعي والتناسب مع البيئة شهادة الحشرة بوجود الهوة التي تفصل بينها وبين ماكانت عليه من الحالة

الدودية الحقيرة، وهي هوة تضيع فيها ولا كرامة جم النظريات الداروينية واللاماركية ،

وتقيم الحشرة كذلك ضد هذه النظريات أمراً عجزت عن تفسيره وهو غرائزها الاولية العجيبة المحيرة للعقل.

« وتقوم ايضا ضد ما يذهب اليه من التطور بفعل العوامل الخارجية شهادة الحشرة بتطوراتها الهائلة ، تلك التطورات الذاتية داخل شرنقة مقفلة محمية الى حد بعيد من تأثير هذه العوامل الخارجية

« وتقيم الحشرة أيضا ضد نظرية التطور المستمر غير المنقطع بالتمثيل الوظيفى شهادتها بتطوراتها واستحالاتها وتغيراتها في الترقي او التدلي مدة حياتها الدودية وانها لتنقض خصوصا تلك النظريات وهى داخل شرنقتها بظهورها بهذا الحدث الذى لا يعقل وهو احالة اكثر أعضائها الى سيال لا شكل له قبيل دخولها في شكلها الاخير .

« هذه الشهادة المحيرة للعقل بتعليمنا بأنه لا تغيراتها الديدانية الهائلة ، ولا تلاشي انسجتها تؤثر على شكلها المستقبل كحشرة كاملة . هذه الشهادة تنقض جميع مدركاتنا على بناء الاجسام وعلى تحولات الانواع .

« فالحشرة تهبنا والحالة هذه في مجموع أدوارها الحيوية رمزا عن ماهية التطور في الحقيقة كما ستري ذلك . فانها تثبت لنا بأن سبب التطور لا يجوز ان يبحث عنه لا في تأثير البيئة ولا في التأثيرات المضادة له من المادة الآلية، ولكنه مستقر في حركة علوية مديرة مستقلة عن هذه المادة العضوية .

« والحشرة ترينا التطور حاصلا بخاصة بتأثير داخلي متميز عن تأثير البيئة المحيطة بها، وبدافع اولي محقق ولكنه مجهول عندنا ، وهو عند الطبيعي الرسمي لا يمكن تفسيره على الاطلاق .

« ليس هذا كل ما يقال فان هذه الشهادة التي لا مثيل لها من الحشرة في الحين الذى تنقض فيه النظريات الطبيعية العصرية تناقض كذلك المذهب القديم القائل بحدوث الخليقة تحت اشراف العناية الالهية

« ذلك لان الوصف المميز للحشرة من الوجهة النفسية هو ان لها غريزة تكاد تكون مجردة من كل أثر للادراك. والمشاهدة أن هذه الغريزة المحضة، والتي بقيت محضة في مدى مئات القرون، تمتاز بوحشية مموهة، ووحشية هائلة لا نظير لها في بقية العالم الحيواني، ومع ذلك فالحشرة بريئة منها كل البراءة.

« فاذا قيل بوجود خالق شاعر بنتيجة تصرفاته، فتكون هذه الوحشية من عمله، وتكون حالة الخليقة كلها مرآة لاعماله » انتهي كلام الدكتور جوليه.

نقول ان هذا العالم لا ينكر وجود قوة مدبرة خلقت الكائنات ولكنه يفرضها قوة لاشاعرة، وانما توصلت الى الشعور بذاتها في كائناتها كالانسان وغيره.

أما كلامه عن شهادة الحشرة فيشير الى تلك الظاهرة المدهشة التي تتجلى في حياة الحشرة، ولنضرب مثلا لذلك بدودة القطن، فهي تولد دودة تحيا اياما حياتها المعروفة ثم تنسج لنفسها شرنقة فتدخل فيها، وهناك لا تموت فقط بل يسيل جسمها ويستحيل الى مادة أولية لاشكل لها، ثم تتركب هذه المادة بنفسها فتكون جسما لا نسبة بين شكله وشكل الدودة، تكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخرى غير غرائز الدودة.

هذا المثال وحده ينقض كل نظريات الداروينيين واللاماركيين المؤسسة على أن اختلاف الاعضاء وتطورها وارتقاء الانواع واشتقاق بعضها من بعض لا يكون الا على مقتضى نواميس سموها بأسماء متنوعة. والحقيقة ان كل نوع نشأ كما نشأت الحشرة بفعل قوى ليست من القوى الطبيعية المعروفة. وأى شاهد اصدق من هذا الشاهد المحسوس ؟

والعقل العصري معذور في استخفافه بالنظريات العلمية المقررة، فقد طال عليه زمن الانخداع بالألفاظ الاصطلاحية الضخمة، واصبح اليوم وهو مقتنع جد الاقتناع بان كل هذه النظريات التعليلية اوهام باطلة تصد عن سبيل الحقيقة التي ينشدها، وقد دخل بهذا الادراك في دور جديد سيكون فاتحة عهد هو اكرم عهوده العقلية، واسرعها ايصالا له الى الحقائق الاولية.

﴿ مذهب دارون في نظر دارون ﴾

من الناس من يؤمن بحقية مذهب دارون ايمانا لاحد له ، يخيل اليه انه حل معضلات الخليقة حلا لامطمح بعده لطامح ، ويعذره في ذلك انه يجهل الطبيعة ، ولا يدرك قيمة النظريات من جهة تعليلها للحوادث، لانه يجهل سلسلة تلك الحوادث ولا يعرف الا مايقع تحت نظره منها . على ان دارون نفسه كان يدرك ان نظريته لاتفسر وجود الانواع تفسيرا يثلج عليه الصدر ، وتطمئن له النفس ، ويري ان لابد من وجود عوامل أخري خفية اشتركت مع ناموس الانتخاب الطبيعي في تنويع الاحيا فقد قال في صفحة ٥٦٥ من كتابه (اصل الانواع) :

« أنا مقتنع بأن ناموس الانتخاب الطبيعي كان العامل الرئيسي لحدوث التنوعات في الانواع ولكنه لم يكن العامل الوحيد في احداث ذلك التغير »

وكتب دارون الي المستر (هيات) وقد جمع هذا الكتاب مع بقية كتبه في مجموعة تدعى (كتب دارون) أى رسائله قال :

« اسمح لي أن اضيف الي هذا بأني لست من قلة العقل بحيث اتصور بأن نجاحي يتعدى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الانواع »

﴿ ماسبب انتشار الداروئية ﴾

على فسادها

من العجب ان مذهبا كمذهب لامارك أو دارون يكون فيه من وجوه النقص مايجعل صاحبه نفسه يزرى به، ينتشر هذا الانتشار الكبير ويجد له انصارا متحمسين من درجة متحمسى الاديان في العصور البعيدة.

علل ذلك الفيلسوف الكبير (ادوار هارتمان) الالماني خليفة شوبنهور في كتابه (المذهب الدروني) فقال في صفحه ١ منه .

« ماأثر في سرعة نشر المذهب الداروني اكثر من الحمية التي كافحه بها علماء اللاهوت من كل مذهب متحدين معالفلسفة الرسمية ، فاقتضى الحال اذ ذاك ان يظهر ازاء هؤلاء الخصوم الذين لايستندون الاعلي براهين وهمية وغير علمية خصوم آخرون شديدو التعصب لنظرية دارون،حملتهم غيرتهم الشديدة بأن يستنتجوا منها نتائج لم ينوه بها صاحبها الا من طرف خفي أو اخفاها عمدا . فكانت هذه الجرأة من هؤلاء دافعة لخصومهم علي الاستبسال ، وجاءت الفلسفة المادية من جهة أخرى فتقمصت روح الداروينية لفائدة مذهبها . . .

«أما فيالعالم العلمي فقد تقرر من الوجهة التى اختير السير عليها في ذاك الحين انه من المستحيل مكافحة هذه النظريات الجديدة، وانه يجب علي أى حال من الاحوال احناء الرؤس اجلالها لها ، ولم يبق الا علماء طاعنون في السن،فقدوالمرونة العقلية الكافية لاعادة بناء معارفهم،ظهروا في غاية الاستعصاء عن التأثر بالداروينية . أما العقول الراجحة التي كانت تحاول التمييز بين الحق والباطل من هذا المذهب الجديد فكانت نادرة جدا . وكانت أصواتهم تضيع بين الضوضاء المنبعثة من المعركة التي شبت نارها بين انصار الداروينية المتحمسين ، وبين خصومهم المتعصبين »

﴿ رأى فون باير في الداروينية ﴾

فون باير هو العلامة الالماني الكبير مؤسس علم الامبريولوجيا (علم الاجنة) ، وهو من اقطاب الفزيولوجيين والحفريين والبيولوجيين، قال في كتابه المسمى (دحض المذهب الداروني) في طبعته الثانية الصادرة في سنة ١٨٨٦ .

« ان الرأي القائل بأن النوع الانساني متولد من القردة السيميانية هو بلاشك أدخل رأي في الجنون قاله رجل علي تاريخ الانسان ، وجدير بأن ينقل الي اخلاقنا جميع الحماقات الانسانية مطبوعة بطابع جديد . يستحيل ان يقوم دليل علىهذا الرأي

المضحك من جهة المكتشفات الحفرية».

وقال في ختام كتابه المسمى (خطابات ومباحث علمية).

«انا لا أمالك نفسي من التصريح لرجال العلم بأن فرضا من الفروض لا تكون له قيمة ولا سبيل في البقاء الا اذا عاملناه معاملتنا لسائر الفروض، أي نجعله كنقطة يتوجه منها الي مباحث خاصة. ولكن من الشؤم والانحطاط ان نعتبر فرضا من الفروض آخر كلمة للعلم وهو مجرد كل التجرد عن الوسائل التي يثبت بهما نفسه. ان علمنا مؤلف من قطع واجزاء فتكميل هذه القطع بواسطة الافتراضات يمكن أن يؤدي الى ارتياح شخصي ولكن لا يكون هذا من العلم شيء».

﴿ رأى الاستاذ بربر في مذهب داروں ﴾

قال العلامة بربر في كتابه (طوائف الحيوان) المطبوع سنة ١٨٨١

«ان الاسباب الاولي التي احدثت الاختلافات الشخصية، والتي لا بد من أنهما كانت كثيرة جدا، لا تزال مجهولة ويجب تعينها، وتعيين سبب العقر الناتج من تصالب الانواع، وكذلك المسافات التي يلزم قطعها من النقاعيات حتي الانسان شاسعة جدا»

ان بربر كأكثر العلماء مع اعتراضهم على مذهب دارون لا يقولون بالخلق المستقل ولكنهم يرون ان مذهب دارون يقصر عن تعليل هذا التسلسل بدليل قول بربر بعد ذلك:

«ان هذه مسائل يجب اكتشافها ولا يصح أن تكون اعتراضات علي مذهب التسلسل، فأى مذهب كياوى او طبيعي لا اعتراض عليه؟

﴿ رأى العلامة فيركو في مذهب دارون ﴾

الاستاذ (فيركو) الالماني من اعلام علم الانثروبولوجيا (التاريخ الطبيعي للانسان)

نقض مذهب دارون ووافقه العلامة الانتربولوجي الفرنسي الكبير (دوكاترفاج) في كتابه (النوع الانساني) الصادر في سنة ١٨٧٧ قال :

« يجب عليّ أن اعلن بأن جميع الترقيات الحسية التى حدثت في دائرة علم الانتروبولوجيا السابقة علي التاريخ تجعل القرابة المزعومة بين الانسان والقرد تبعد عن الاحتمال شيأ فشيأ . فاذا درسنا الانسان الحفرى في العهد الرابع، وهو الذى يجب ان يكون الانسان فيه أقرب الى اسلافه، نجد انسانا مشابها لنا كل الشبه . فان جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بانهم كانوا يؤلفون مجتمعا محترما للغاية . وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبر الكثير من معاصرينا انفسهم سعداء اذا كان لهم رأس مثله . واذا قابلنا مجموع الرجال الحفريين الذين نعرفهم الآن بما نراه فى ايامنا هذه استطعنا أن نؤكد بكل جرأة بأن الاشخاص ناقصي الخلقة هم بين الرجال العصريين اكثر منهم بين الرجال الحفريين . ولا اتجاسر أن افترض بأننا في اكتشافاتنا الحفرية لم نصادف غير اصحاب القرائح السامية من اهل العهد الرابع . والعادة اننا نستنتج من تركيب هيكل عظمي حفري تركيب معاصريه الذين عاشوا معه في وقت واحد . ومهما كان الامر فيجب علي ان اقول بانه لم توجد قط جمجمة قرد تقرب حقيقة من جمجمة الانسان . . . . على انه يوجد بين الانسان والقرد خط انفصال نهائي آخر . فاننا لا نستطيع فقط ان نعلم الناس بان الانسان يتولد من القرد او من اى حيوان آخر، ولكن لا نستطيع أن نعتبر ذلك من الامور العلمية » .

﴿ رأى ايلي دوسيون ﴾

في مذهب دارون

ايلي دوسيون من كبار علماء الفزيولوجيا ذكر عن مذهب دارون فى كتابه (الله والعلم) صفحة ٢٩٥ من طبعته الثانية الصادرة في سنة ١٩١٢

ما يأتي :

« بعد أن قاوم المذهب الداروني عشرين سنة تلك المكافحات الحقة التي قصده بها خصومه قضي عليه قضاء غريبا بأن يهلك تحت ضربات أشد اشياعه غيرة عليه . الفرضان الرئيسيان اللذان يقوم عليهما هذا المذهب هما الانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة بالوراثة في مدى تنازع البقاء . فقد جاء هربرت سبنسر الميتافزيكي الكبير (الميتافزيكا علم العلل الاولية) وهو أمثل المبشرين بالمدركات العالية لدارون فتكفل بهدم الفرض الاول من أساسه واثبت استحالة تحول الاجسام العليا بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي استحالة تامة (انظر ما كتبه تحت عنوان عدم كفاية ناموس الانتخاب الطبيعي في مجلة (كونتامبوراري رفيو لسنة ١٨٩٠) ثم تبعه نصير آخر للمذهب الداروني لايقل عنه حماسة وهو الامبريولوجي ويسمان (الامبريولوجيا علم الاجنة) فحلل المشاهدات الاصلية التي يقوم عليها هذا المذهب للدلالة علي امكان انتقال الصفات والخصائص المكتسبة في مدى حياة الاجسام بطريق الوراثة تحليلا انتقاديا مفصلا وبرهن على ان هذه المشاهدات المزعومة لاتقوم الا على حكايات مخترعة في جميع أجزائها ولا تعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكايات المرضعات » .

سقوط ناموس الانتخاب الطبيعي في نظر العلماء

ذكرنا ان مذهب دارون يقوم على ناموس الانتخاب الطبيعي ووراثة الصفات المكتسبة، وقد فتلهما العلماء بحثا فوجدوهما لا يغنيان فتيلا فيما نسب اليهما ونحن ننقل هنا بعض ماقاله فيهما العارفون الاخصائيون.

نشر الاستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا بالمقابلة في جامعة باريس كتابا خصصه لعلم البسيكولوجيا الحيوانية الجديد ، اجازه المجمع العلمي للعلوم الادبية والسياسية ، ثار فيه على نظرية الانتخاب الطبيعي ، قال فيه

صفحة (١٢٥) :

« ان التركيب الجسمي ليس بتركيب وجد لغاية محدودة، ولكنه مجتمع صفات وراثية يختلف بعضها عن بعض في درجات الاستقلال ، بعضها نافع وبعضها غير نافع بل ضار ، والتركيب الجسمي كثيرا ما يوجد لهذا السبب قليل التناسب مع البيئة التي هو فيها .

« فان كان الانتخاب الطبيعي للصفات النافعة يلعب دورها ما في الواقع لم يكن أثر التركيب الجسمي على هذه الحال . وعليه فان البيولوجيين الذين لا يزالون يعتقدون بالقدرة المطلقة لناموس الانتخاب الطبيعي ليسوا بمحقين في هذه النقطة . فان رأى كثيرين من البيولوجيين العصريين انه لا يوجد انتخاب طبيعي بين الصفات المختلفات ولكنه يوجد بين الانواع التي تم تكونها من قبل ».

ثم قال الاستاذ المذكور في صفحة ١٩٦ من كتابه ذلك :

« الى هنا نرى ان نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التي كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعي . ويكفي في ذلك ان يقرأ الانسان الكتابات الاخيرة التي نشرها (ج لويب) وكتابات (دولاج) و (جولدسميث) ليدرك مبلغ نقص الثقة في هذه النظرية (أي نظرية الانتخاب الطبيعي) .

﴿ رأي العلامة ادمون برييه ﴾
في ناموس الانتخاب

كتب العلامة (ادمون برييه) مدير دار الآثار الحيوانية في باريز في مجلة (العالم الحي) الصادرة في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٢ عن كتاب نشره الاستاذ (جينو) المدرس بجامعة نانسي اسمه (الاصول التكوينية للانواع) ونال عليه احدى الجوائز التي يشتد تطلع العلماء اليها وهي الجائزة الخاصة بعلماء التاريخ الطبيعي أو جائزة كوفييه قال :

«ان ثقة الاستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجي) ضعيفة جداً . فان هذه البيئات على مايقول لا تصلح لايجاد أي تغيير وراثي ثابت . وعلى ذلك فان البط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن أن هذه الاغشية قد أوجدها نوع معيشتها ، ولكن الامر على العكس من ذلك في مذهب المسيو (جينو) فانه يقول بانها قد وجدت لها مقدما بدون تأثير من الخارج . واخذ البط يعوم لانه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم . فهذه الحيوانات قد اعدت من قبل العوم اى انها خلقت لتعوم قبل ان تستفيد من تركيب أرجلها في العوم» .

﴿ عدم ثقة العلماء بناموس الوراثة في نقل الصفات ﴾

﴿ وهو الركن الثاني لمذهب دارون ﴾

قال العلامة الالماني الكبير ويسمان وهو من اعلام (علم الامبرولوجيا) كما نقله عنه الفزيولوجي (ايلي دوسيون) في كتابه (الله والعلم) صفحة ٥٠ ما يأتي :

«لا يوجد مشاهدة واحدة تثبت وراثة الصفات المكتسبة» .

وقال (بلوجر) العلامة الفزيولوجي الالماني الشهير في كتابه (الاغراض الآلية في الطبيعة الحية)

قد بحثت من قرب جميع المشاهدات التي قيل انها تثبت انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة أي الصفات التي لا تشتق من التركيب الاولى للبيضة وللجرثومة المنوية ، بل الصفات التي اكتسبها الجسم بعد تكونه بتأثير الاسباب الخارجية ، فلم اجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال هذه الصفات بالوراثة »

وقال الفزيولوجي الكبير (دوبوا ريموند) الفرنسي كما نقله عنه العلامة (ايلي دوسيون) في كتابه المتقدم ذكره :

« اذا اردنا ان نكون مخلصين وجب علينا ان نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها، وانها هي نفسها من الافتراضات الناقضة »

﴿ رأى دائرة المعارف الفرنسية الكبري ﴾

في مذهب دارون

دائرة المعارف الفرنسية الكبرى المسماة بدائرة معارف القرن العشرين هي احدث دوائر المعارف ظهوراً، وادقها تصويراً للرأى العلمي الحديث، قالت عن مذهب دارون في الصفحة ٢٩٩ من مجلدها الحادي والثلاثين بعد تفصيلها اصول مذهب دارون :

« لقد رأيت مبلغ استهواء هذه النظرية الدارونية للعقول، ومبلغ اجابتها بظرف على الاعتراضات التي توجه اليها، ولكنها اسوء الحظ مختلة من اساسها لانها تفرض ان جميع الصفات النافعة، أعني كل صفات الانواع الحية، قد حدثت في بداءتها اتفاقا (أي بالصدفة) فلا بد من وجود قوة تسليم عظيمة لاجل قبول مثل هذا الاصل . ويجرى هذا المجري عينه تسليمنا بأن جميع الحيوانات قد حدثت على ماهي عليه اتفاقا (أي بالصدفة) وهو افتراض يلاشي المسئلة نفسها »

﴿ ماهو رأى العلم الرسمي اليوم ﴾

في أصل الانواع

قد رأيت مما مر رأى العلماء في وهن اصول مذاهب التحول الرسمية سواء اكانت لاماركية أو دارونية، فما هو موقف العلم اليوم حيال مسئلة وجود الاحياء وتنوعها؟ أحسن ما نعمله للاجابة على هذا السؤال هو ان ننقل قول العلم نفسه في شخص اكبر ممثليه، ومن احدث ماوصلنا منهم .

قال الاستاذان (ايف دورج) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي والدكتور (م.جولد سميث) في كتابيهما المسمى (نظريات التحول) المطبوع سنة ١٩١٦ صفحة ٣٤٥ .

« ماذا نستطيع ان نستنتج من كل مامر ؟ نستنتج منه ما يأتي وهو : انه وان لم يكن مذهب من المذاهب التي امتحناها هنا يعطينا حلا عاما مطلقا يثلج عليه الصدر عن مسألة التحول، فان العوامل التي يعتمدون عليها تعمل في الحقيقة عملا ما في احداث ذلك التحول . ولكن اعمال هذه العوامل من التركب الشديد، والتداخل المعقد، بحيث يصعب أن يعرف لكل منها قسطه في العمل، والي هذا يرجع بلاشك السبب في محاولة الواضعين لهذه المذاهب المختلفة نسبة التأثير الرئيسي لبعض هذه العوامل دون البعض الآخر مع اغفال اشتراك العوامل الاخرى . وهذا الموقف الاطلاقي الغاية هو سبب النقص في مدركاتهم .

« ويمكن الانسان الآن ان يتساءل علي أي صورة سيكون الحل النهائي لهذه المسئلة ؟ اينبغ لمذهب التحول رجل مثل (نيوتن) فيأتينا طفرة برأى عبقري فيحل لنا المسئلة باكتشاف عامل جديد غير منتظر يكون من الوضاحة التامة بحيث يتغلب علي جميع المعتقدات، ويترك الناس يتساءلون كيف بقوا كل هذه المدة الطويلة دون ان يحلوا بهذا الحل الحاسم ؟

« لما اتي داروين بناموس الانتخاب الطبيعي (تأمل) خيل للناس انه هو نيوتن المنتظر ، ولكننا نأسف من ان نظريته لم تقاوم النقد الذي وجه اليها ، فنأمل ان يأتي من هو اسعد حظا منه » انتهي .

هذا هو موقف العلم اليوم ، ومنه يتضح ان العقل الانساني خامر نير الانخداع بالكليات الفارغة ، وتجرد من رين تلك الدعوي الطويلة العريضة ، بادراك جميع مساتير الكون، مما اوقعه في الغرور الذي حوله وصده عن بحث كل ما يناقض المقررات الموضوعة ، ورمي بالجهل والغباوة كل من يقول بوجود عالم وراء هذه المادة فاعل فيها

ومؤثر عليها فوق النواميس المعروفة. فأين من هذا الادب العالي أولئك الذين رشفوا رشفات لاتبلغ بهم حد الري من الفلسفة والعلم فهبوا في الشرق ينشرون من سموم الغرور العلمي مالفظته بقية العالم الغربي، واصبح الظهور به دليلا على الحماقة وعلى الجهل في وقت معا.

﴿ الشبهات الخطيرة من مذهب ﴾
دارون

اتي دارون بمذهبه فاستهوى السواد الاعظم من الباحثين عند الصدمة الاولى، وذلك بلطف مداخله، وحسن تعليلاته، ووضوح تفسيراته، حتى يمكن ان يقال ان تاريخ العلم لم يسجل مذهبا كان له مثل هذا التأثير علي النفوس في عصر من العصور. ولقد تهدمت اركان هذا المذهب، وتقوضت اصوله تحت معاول النقد العلمى الصارم ولاتزال تعليلاته آخذة بهوى كثير من الناس، وبخاصة أولئك الذين ليس لهم من العلم الا مايحفظونه من مسائله العامة وما يتأثرون به من شبهاته وشكوكه.

فمن الاصول التي قام عليها مذهب دارون اصلان لايزالان عالقين بكثير من الاذهان احدهما ان التكوين الطبيعي جاء عن غير قصد، وحدث لغير غاية معينة؛ فصدر علي نظام آلي محض، مقودا بنواميس ميكانيكية تعمل فيه بغير شعور، وتنوعه بغير اختيار. فاعيننا لم توهب لناهبة من قوة مدبرة لننظر بها، بل حدثت فينا اتفاقا في أدوار التكون، فاستخدمناها في النظر، وانتفعنا بها لهذه الغاية غير المقصودة. قس على ذلك سائر الاعضاء.

والاصل الثاني هو ان الغرائز العجيبة التي فطرت عليها الحيوانات من التحايل على استجلاب اغذيتها والعمل علي بقاء ذواتها وتنمية أنواعها ليست بالهامات من قوة مدبرة، ولكنها عادات موروثة ألهمتها اياها الضرورات الطبيعية، وطبعتها فيها الحاجات الحيوية.

ونحن لانجد مناصا من ان نعقد لهذين الاصلين فصلين:

﴿ شبهة النظام الآلي في الطبيعة ﴾

ونفي القصد والغاية منها

يقول عمدة الملحدين ، وشيخ شيوخ الماديين بوخنر في كتابه (المـ مانصه:

« كل الاجرام السماوية كبيرة أو صغيرة تخضع صاغرة بغير استثنا. ولاانحراف الى الناموس الملازم لكل مادة ولكل جزء من ماة كما تدلنا عليه التجربة من آن لآخر ، وان جميع حركاتها تبدوا لنا وتتحدد أمامنا وتنبئنا عن حدوثها بضبط رياضى لا يتطارق اليه الخلل » انتهي كلامه .

فياليت شعري اذا كانت الاجرام السماوية وهي على ما نعلم من العظم والجلالة تتحرك في مداراتها خاضعة صاغرة لناموس مقرر ملازم لاصغر ذرات المادة، فهل يعد هذا دليل على وجود القصد ؟ ألا يقال هنا لماذا كان الناموس المدبر المنظم ملازما للمادة لا يفارقها ؟ هل قرره الاتفاق المحض والعدم الصرف ، أم قضى على الكون بالنظام منذ الابد ؟ من قضى بذلك ولماذا لم يكن مكانه الخبط والفوضي والانحلال ؟ لماذا تقولون ان هذا الناموس المدبر الملازم للمادة ،وجود بلا قصد ولا تقولون انه اثر قدرة عالية وتدبير حكيم ؟ اذا كانت بداهة العقل تشعر بأن النظام لا يصدر من العدم ، والضبط لا ينشأ من ضابط ، فلماذا تنسبون الناموس المنظم الملازم للمادة الي العدم الصرف ولا تنسبونه الي عقل مدبر ؟

قال الدكتور شبلي شميل وهو من زعماء المذهب المادي في الشرق في كتابه مذهب النشوء والارتقاء صحيفة ٢٤٤ :

« اما الماعه (يريد مجادلا له) الي الغاية والقصد فمنقوض بما في الحيوانات والنباتات من الاعضاء الزائدة التي يسمونها أثرية والتي لا فائدة لها وفيما يسمونه حكم الضرورة

فمثال الاعضاء التي لا فائدة لها الاسنان القواطع في أجنة كثير من الحيوانات المجترة فهذه تكون في سمك عظم ما بين الفكين ولا تبرز أبداً ولذلك لا فائدة لها فما الغاية من وجودها؟ والانسان في غني عن تحريك أذنيه فما الفائدة من العضلات المرتبطة بهما، وربما اكتسب الانسان بالمزاولة والتمرين القدرة علي تحريكهما ؟ وأما فائدتهما فظاهرة في بعض الحيوان . ومن هذا القبيل أيضا العيون الاثرية التي لا تبصر في بعض الحيوانات التي تقطن الكهوف وتقيم تحت الارض، وفي أكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج أمامي وزوج خلفي ويكون أحد هذين الزوجين ضامراً غالباً وفي النادر يكون الاثنان ضامرين كما في الحيات علي ان بعض الافاعي (كالبوا يثون) له زائدتان عظميتان في القسم الخلفي لا فائدة لهما وانما هما أثران لطرفين كانا موجودين في اجداده، وأمثلة ذلك كثيرة جدا في الحيوان والنبات كما لا يخفى على علماء هذين الفنين وفي هذا القدر كفاية لغرضنا . فلو كانت الغاية موجودة لما وجب أن يكون في هذه الكائنات شيء لا فائدة له وربما كان مضراً أيضا . وكم دار علماء طبائع الحيوان والنبات بهذه الاعضاء الاثرية قبل دارون وذهبوا فيها مذاهب شتي حتي ظهر مذهب دارون فقطعت جهيزة قول كل خطيب لان كل عضو لازم نما بالاستعمال فعرف ان الاعضاء الاثرية كانت اعضاء نامية في اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم يبق لها لزوم وفي البعض زالت بالكلية فلا دخل للغاية وانما الدخل للضرورة، وما نراه من النظام فهو كذلك ضروري لا مقصود لان التغير الحاصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء علي حكم الضرورة كنتيجة لسبب فاذا كانت العوالم موجودة على النظام الذي نراها فيه فلانها هي من الارتباط بعضها مع بعض بحيث لا يمكن أن تكون علي خلاف ذلك . فلو تغير نظام أحدها لوجب أن يكون التغير شاملا لعموم النظام ولذلك لم يكن الكون بعضه بالنسبة الى بعض ولا هو كائن ولن يكن الا منتظما، وان اختلف في الازمنة الثلاثة لارتباطه بعضه ببعض وجريه علي سنن شاملة لجميعه . وكذلك يقال في الارتقاء فان العالم لا يسير الا متقدما لضرورة تغلب الانسب في منازعة هذا الوجود كما هو

مقرر في مذهب داروين » انتهي كلام الدكتور شبلي شميل .

*

نقول اننا لاجل دحض هذه الشبهة نعمد أولا الى النظر في مجموع الكون ثم نتنزل منه الي كائناته لان الحكم علي المجموع بالنظر الى بعض جزئياته يفضي الى ضلال بعيد وخطأ عظيم .

فهل مجرد النظر الي الكون جملة يشعرنا بأنه وجد بالضرورة بلا قصد ؟ اللهم لا .

ان هذه الكواكب السابحة في الفضاء علي مدارات منتظمة تشعر بتجاذبها المتبادل وجريها الي غاياتها ، وانتهائها الي نهاياتها بأنها مقودة بنظام دقيق ، ينبيء عن قصد حكيم ، وتدبير سديد أريد به قيامها علىهذا الترتيب البديع،لانتاج اغراض بعيدة من عمارية الكون وتحليته بكل الابداعات الممكنة .

ان قال الماديون ان هذا النظام لا يدل علي قصد وانما هي الضرورةالتي تقيمه علي هذا النمط وتعليلهم ذلك بأن التغيير الذي يحصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء علي حكم الضرورة كنتيجة لسبب الخ ، ان قال الماديون هذا أجبناهم بأن كلامنا في مبدأ هذا النظام لافي أطواره،فلماذا كان الكون في مبدأهمنتظما حتي اقتضي الحال ان يجر كل تغير في جزء من أجزائه الي تغير في مجموعه علي حكم الضرورة ، ولم لم يكن في مبدأه خبطا وخلطا وفوضي مستحكمة حتي يؤدي كل كل تغير في جزء من أجزائه الى اضطرابات لاتتناهي وارتباكات لاتقف عند حد ؟

يقولون الكون منتظم بحكم الضرورة وهي كلمة فارغة فما هي هذهالضرورةالقاضية بالنظام ، المنزهة عن الخبط والفوضى ؟

الضرورة ان لم تكن كلمة فارغة فهي حالة عميا صماء بكما ،فلماذاتتجه دائما الي الوجهة المنتجة للابداع ، المثمرة للعمران ، ولا تتجه الي خطة خسف ، ووجهة عسف،فتنتج

الدمار والفناء وتثمر الانحلال والتلاشي ؟

خل السكون جانبا وهلم ننظر الى بعض عوالمه وهي الكرة الارضية فهل لا يرى الرائي اذا ألقى عليها نظرة تأملية بأن آثار القصد بادية على كلياتها وجزئياتها ؟

ألا يرى أولا انها بما متعت به من عوامل الحياة ووسائل العيش قد اعدت بقصد لان تكون مأهولة بالنباتات والحيوانات والانسان ؟

ثم ألا يرى انها بما أودعت من المرافق والقوى المختلفة قد أُعدت لان تكون مجالا للمبدعات التكوينية والترقيات الانسانية ؟

دع السكون في جملته وتأمل عالم النباتات وقل لي ألا ترى معي ان آثار القصد ظاهرة فيها ظهور الشمس في رائعة النهار ؟ انظر الى أعضاء شجرة وسرح فكرك في اجزائها المختلفة من اول جذورها الضاربة في بطن الارض الى قمم أعضائها المشرئبة الى عنان السماء ، وأجل الروية فيما أودعته أوراقها من الاعصاب الدقيقة والخزانات التنفسية والمادة الخضراء ، وما متعت به تلك الاوراق من الخواص لامتصاص الغازات المختلفة من الجو ثم اعادة بعضها اليه بعد تحويله الى مركبات جديدة وما حليت به أزهارها من الالوان البديعة والروائح الشذية والهيئات الجميلة ، وما وضع في باطنها من اعضاء الذكورة والانوثة ، وما هديت اليه تلك الاعضاء من التقارب في حين التلقيح لاداء تلك الوظيفة . وانتقل من ذلك الى الثمرة وتأمل في هيئة غلافها ولونها وطعمها ورائحتها وبزورها وما أودعته من الاجنة لانتاج شجرة مماثلة للتي خرجت منها وما أحيط ذلك الجنين به من المواد الحافظة لحيويته الخ الخ تأمل في ذلك كله ثم قل لي ألا ترى فيه آثار القصد ودلائل للارادة ؟

دع عالم النباتات في تنوعه واختلافه الذي لا ينتهي الى حد ، ثم تأمل في عالم الحيوانات وما متعت به من أسلحة الكفاح ووسائط التكاثر ، وما ألهمته من الحيل والاساليب للذياد عن حياتها وحياة صغارها ، وما أحيطت به من الوبر لاتقاء أفاعيل الجو عليها ، ثم قل لي ألا ترى في ذلك كله آثارا للقصد ودلائل للارادة والاختيار ؟

يقول الماديون كل ذلك أوجدته الفواعل الوجودية والعوامل الطبيعية، وكل ما تراه فيها من آثار الالهام كالحيل الحافظة لوجودها، والاعضاء الواقية لها، فانما هو من آثار الضرورة الطبيعية والحاجة الفطرية . فالحيوانات في البلاد الحارة توجد بلا وبر أو بوبر خفيف، ولكن التي توجد في البلاد الباردة تحلى بوبر وتلهم بأمور كثيرة لحفظ وجودها، وليس ذلك لان خالقا قصد ذلك بها، ولكن لان الضرورة تقضي ان تكون على تلك الحال والا تلاشت .

نقول ليت شعري ما هي تلك الضرورة التي تهب لكل محتاج حاجته، وتلهم كل حي ما به حياته وبقاؤه ؟ أهي عاقلة مدركة أم عمياء بكماء صماء . اهي كلمة فارغة أم الهة مدركة تقصد عمارية الكون وبقاءه ؟

ان كان كل هذا لا يدل علي القصد ولا يشعر بارادة عاملة في الكون ، وانما هي مجرد الضرورة والحاجة، فهل الضرورة هي التي أرادت بقاء الانواع فخلقت الذكر والانثى وجعلت في كل جنس ميلا فطريا الي الآخر، وخلقت احدهما حاملا للجراثيم المنتجة والآخر وعاء لها يحملها في احشائه ويغذوها بدمه حتى تستوفي حياتها الجنينية؟ ثم اعدت لها أثداء تمدها بالغذاء الخالص حتي تشب وتترعرع ، وأودعت صدري الابوين من الحنان والرحمة ما يضطرهما الي تربية صغارها واعدادها للحياة؟

هل الضرورة هي التي أدركت أن دوام النوع لا يكون الا بايجاد انثى بجانب الذكر تشابهه فى التركيب الظاهرى وتخالفه في التركيب الباطني فأعدت لكل منهما الاعضاء اللازمة للتوليد، ثم ادركت أن تقاربهما لا يمكن أن يكون بمجرد عاطفة حفظ النوع وان لا بد لذلك من وسيلة تجعل اتصالهما أمرا محتما عليهما ، فخلقت لكل منهما لذة في ذلك الاتصال ليكون واقعا لا محالة مهما اعترضهما من العوائير، فأخذ أحدهما ينجذب الى الآخر طلبا لتلك اللذة وتوفية لتلك الحاجة ليتم التلقيح وان لم يريداه ولم يسعيا اليه.

اللهم ان آثار القصد في هذا الامر من أظهر ما يكون، فان كانت الضرورة هي التي

فمالت ذلك فهي ضرورة عاقلة مدبرة حكيمة مزبدة لبقاء الانواع، تستحق أن تعبدوان يُتأمل في آثار رحمتها وسعة سلطانها ويُتعجب من شمول علمها واحاطة قدرتها .

الضرورة. . . . ما احقر هذه الكلمة بجانب هذا الابداع العظيم وحيال هذه المشاهد الطبيعية التي لا تحد،

الضرورة . . . ما أضيق مدلول هذه الكلمة عن تفسير عجائب هذا الخلق، وتعليل قيام هذا الوجود المحير لاذوي المدارك.

واذا كانت الضرورة أعجز من أن تعلل ظاهرة واحدة من هذه الظواهر التي لا تحصى، فان القائلين بها يستحقون الرحمة لا الرد، وشبهتهم تستحق السخرية لا الحل.

﴿ رأى الدكتور الدكتور ادوارد هارتمان ﴾

في القصد والغاية

الدكتور ادورد هارتمان خليفة الفيلسوف الكبير شوبنهور وهو يعد ركن الفلسفة الالمانية . قال في كتابه (المذهب الداروني صفحة ١٥١ من الطبعة الفرنسية ما مؤداه .

« كان المذهب المادي قد انكر قبل داروين وجود النظام في الطبيعة رغما عن المشاهدات ، ولكن المذهب الداروني اعاد الاعتراف بوجود ذلك النظام، الا انه تخيل تعليله بأنه نتيجة الادوار الميكانيكية المحض .

« وعلى هذا فاذا عُد النظام الطبيعي كشيء مقرر، واذا زُعم انه نتيجة الحوادث الميكانيكية، لزم القائل بهذا ان يختار واحداً من اثنين . فاما ان يقول بأن نظام الحوادث الطبيعية الناتجة من ميكانيكية الطبيعية غير مرتبط بالنواميس الميكانيكية ولم تو .د تلك الحوادث الا اتفاقا (اى بالصدفة)، واما ان يكون هذا النظام نتيجة

ضرورية ثابتة لهذه النواميس وحادث من طبيعتها .

« ففي الحالة الاولى يسقط زعم تعليل الحوادث بالنواميس الميكانيكية . لان الاتفاق (أي الصدفة) يكون في هذه الحالة العامل الوحيد في ايجاد النظام الطبيعي . وهذا ، بعبارة أخرى ، يلاشي امكان التعليل بأصول طبيعية عاملة في الوجود على نظام مقدر ...

« وفي الحالة الثانية يكون الحال على العكس اذ يفضي الى الاعتراف بوجود القصد لان من مقتضيات الميكانيكية حدوث حوادث مطابقة لنظام مقدر ، اى تكون الميكانيكية ذات غاية وقصد .

« هذ حق لامرية فيه ، ولا تنس ان كلمة الميكانيكية تعني آلة للتكوين او مجموعا من الوسائل ، وهذا يقتضي ان تكون موضوعة لغرض ،

« واذا لم تكن ميكانيكية الطبيعة موضوعة لغاية وقصد ، لرأيت ان السائد في الكون فوضى عمياء لقوى مستقلة هائمة على وجهها هيمان الثيران المهملة .

« ونقول بعبارة اخرى ان القصد يقتضي الميكانيكية ، فانه يستحيل بدونها ، كما يستحيل وجود الميكانيكية بدون وجود القصد . فاذا تقررت نظرية الميكانيكية على اطلاقها تحققت معها نظرية القصد على اطلاقها كذلك ، واذا تحققت نظرية القصد على اطلاقها تحققت نظرية الميكانيكية كذلك .

« وان وجود هذا الرأى عند الداروينيين (رأى عدم وجود القصد) هو من المسلمات التي لا يقوم عليها دليل ، ومن الاوهام التي لا اساس لها » .

﴿ رأى لويز بوردو ﴾

في الغاية والقصد

العلامة لويز بوردو من كبار مؤلفي فرنسا قال في كتابه (مساله الحياة) الصادر في سنة ١٩٠١ ما يأتي :

« القول بوجود القصد هو المصباح الذى ينير مسائل علم البيولوجيا (علم الحياة) فاذا حرمت من هذا النور اصبحت علوم التشريح والفزيولوجيا غير مفهومة وخالية من المعنى . وقس على ذلك كل شيء . وحيثما يتأسس نظام ويستتب ويترقي، ونشاهد اقترانات وتطابقات واتجاهات وظيفية الى غاية واحدة ، او استحالات منتظمة لذرة واحدة، اولعالم برمته ، هنالك يجب ان يعترف بأن هنالك قصداً مقصوداً وروحاً مدبرة ، لانه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها . فالقصد يظهر في تلاؤم الحوادث ويثبت به » .

ثم قال :

« اذا اعتبرت النواميس على وجه عام فغاياتها البينة مجموع آثارها . فغاية ناموس الجاذبة العامة ازالة التهويش الذى حل به من وجود المادة في حالة اضطراب وارتباك، وتكوين اجرام عالمية ودفعها للدوران ، وغاية الحوادث الطبيعية ونواميسها تحديد الظواهر المتغيرة التي تتنزل منها جميع تشكلات الكائنات ، وغاية ناموس الالفة الكيماوية هو انتاج هذه المجموعة العظيمة للاجسام المركبة المتمتعة بخصائص مختلفة، والصالحة لجميع الاستعمالات ، وغاية الحياة هو تكوين مجموعة لايحصى عدد افرادها من الكائنات الآلية الحية المترقية الى طوائف متعاقبة وقابلة للتكمل من اول المونير الى الانسان (المونير الخلية الاولية الحية) » .

﴿ رأي الاستاذ فون باير في الغاية والقصد ﴾

العلامة فون باير الالماني هو من وصفناه فيما تقدم قال في صفحة ٢٤٠ من كتابه (دحض مذهب دارون) .

« اذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لا يوجد قصد في الطبيعة، وان الكون لا يقوده الاضرورات عمياء، فانا اعتقد ان من واجباتي ان اعلن عقيدتي في

ذلك، وهي أني على العكس أرى جميع هذه الضرورات تؤدى الى اغراض سامية .
وان الزوبعة الفكرية التي ثارت في ايامنا هذه تعلن ان هذه التعاليم لا تثبت كثيراً.
والذى اعتبره أنا قصداً في الحياة العضوية لايمكن ان يضحى في سبيل سلسلة من الاتفاقات
(الصدف) » .

﴿ رأى العلامة كاميل فلامريون ﴾

في الغاية والقصد

كاميل فلامريون اشهر فلكى العالم ومعدود من العقول النادرة في العصر الحاضر
قال في كتابه (المجهول) صفحة ٩ :

«ان درس الوجود يجعلنا ندرك ان له نظاما مقرراً وغاية دفع به اليها، وان
المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده، وانهما يتعاليان عن ان نلم بهما في
حقارتنا.

«ان ناموس الترقى الذى يقود الحياة، والنظام الطبيعي لهذه الحياة نفسها،
وتجاذب الأجناس، والتبصر الذي يظهر فى النباتات والحشرات والطيور الخ
وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها، وامتحان المشاهدات الرئيسية
للتاريخ الطبيعي يقرر منها كما قال اورستيد بأنه يوجد في الطبيعة عقل
مدبر»

﴿ رأى العلامة لوجيل الفرنسى ﴾

في الغاية والقصد

لوجيل من اقطاب العلم العصرى كتب فى كتابه (العلم والفلسفة):
«ان العلم يستسلم احيانا لشكوك وانكارات تزعجنا، ولكن العالم مسايتير لا يسبر لها
غورا، فهو يكتفى بالالفاظ كلما لم يجد سبيلا للنفوذ الى اسرار الظواهر المحسوسة. تكثر
الكيمياء من ذكر الالفة ؟ أليست هذه الالفة قوة فرضية، وأنية غير مدركة بالحواس

كالحياة والروح ؟ الكيمياء ترجع الي الفزيولوجيا فكرة الحياة، وتأبي عليها ان تشتغل بها، ولكن هل في الفكرة التي تحوم حولها الكيمياء ظل من الحقيقة ؟ هذه الفكرة لا تدرك غالباء ليس في أصلها فقط ولكن في آثارها أيضاً . أيستطيع الانسان أن يتأمل لحظة واحدة في القوانين المسماة بقوانين (برتلو) دون أن يشعر بأنه حيال سر لا يسبر له غور ؟ واذا اعتبرنا ظاهرة ساذجة من ظواهر الاتحاد الكيماوي، ورأينا هذا الميل الذي يدفع بعض الذرات الي بعض، فتتباحث ثم تتضام بعد تخلصها من المركبات التي كانت تحويها ، أليس في هذا ما يحير العقل ؟ كلما أمعن الانسان في درس العلوم من وجهتها المعنوية ازداد اعتقاده بان ليس في العلم ما يمنع من اتفاقه مع ابعد الفلسفات مرمي .

الي أن يقول:

«نحن لا نعلم ولا نرى الا الظواهر والقشور، أما الحقيقة والعلة فتأبيان ان تنكشفا لنا . وانه ليحق لفلسفة عالية ان تعتبر كل القوى الخاصة التي افاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة، صادرة من قوة اولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل . اذا وجهنا انفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية والكائنات ذاتها صورا متغيرة لفكرة المهيئة» .

﴿ رأي دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية ﴾

كنا نستطيع ان نأتي علي مئات من شهادات العلماء في هذا الصدد ولكنا رأينا الاكتفاء بما تقدم، وختمها بشهادة دائرة المعارف الفرنسية الكبرى، فهي وحدها تمثل رأي العلم الرسمي كله .

جاء في صفحة (٨٥٦) من المجلد السابع والعشرين :

« ان الوجود الذي خلقه الله ليس بآلة ساذجة (بسيطة) كما تحاول ان تقدم

به الناس تلك المقارنات الطائشة . وليس مذهب وحدة الوجود هو المذهب الوحيد الذي من خواصه الادلال على أن الكل من الكائنات المتنوعة للطبيعة الحية غاية وضع لاجلها ومركزا يدور عليه » .

﴿ الداروينيون ينكرون الالهام في الحيوانات ﴾

للماديين انكارات للمحسوسات تعتبر من المدهشات ، وتظاهرهم بمظهر المتمردين للمناقضة . من ذلك انكارهم للالهام الحيواني وعزو جميع الحيل التي تستخدمها الحيوانات لحفظ وجودها والبحث عن غذائها الى الضرورة العمياء ، هروبا من القول بالقصد . فنريد في هذا الفصل أن نأتي على أمثلة من علم الحيوانات في الالهام الحيواني ليرى القاريء آثار القصد بادية فيه تشهد بالقصد الالهي والعناية الربانية .

دع ما يبتنيه النحل من الخلايا المسدسة الاشكال ، وما يقيمه كلب البحر من السدود على الانهار مما تقدر قيمته بألوف الفرنكات ، وما يأتيه النمل من المدهشات في اقامة مساكنه ، وما تفعله الطيور من العجائب في حضانة البيض والزغاليل والقيام بحاجاتها من مأكل ودفء ، ثم تدريبها على الطيران الخ الخ مما لا تسعه المجلدات ، دع كل هذا واتل ما أقصه عليك من المشاهدات التي اطلع عليها العلماء بمراقبة الحشرات . ولكني قبل ذلك أريد أن اذكر لك مذهب الماديين في الالهام الحيواني :

يقول الماديون ان الالهام الحيواني عادة موروثة ، فان النحل مثلا اهتدى بعد محاولات كثيرة الى أن حفظ حياته يرتبط ببناء خلاياه على نسق معين ، فأدمن عليه فصار عادة له فأورثها صغاره . . ولكن اثبت غير الماديين من علماء الحيوانات ان هذا الزعم باطل ، فأخذوا حيوانات كالنحل وكلب البحر وهي صغيرة جدا وربوها حتى كبرت وهي لم تر ما يفعله آباؤها ثم تركوها فعملت نفس أعمالهم من بناء مساكن واقامة جسور

بحيث لم يوجد أدنى فارق بين العملين. فكيف تنال هذه المشاهدة بغير الالهام الذي اودعه فيها الخالق؟

ان كان ذلك عادة موروثة فلم لم يرث الانسان عادة آبائه في البناء والنحت وهم قد اعتادوها منذ ألوف مؤلفة من السنين، وأنت ترى انك لو ربيت أحد أفراده بمعزل عن الناس لنشأ جاهلا لا يكاد يميز بين الخير والشر؟ فاما أن يقول الماديون بأن الحيوان أرقى عقلا من الانسان، واما أن يقولوا بأن صنائع الحيوانات من الالهام الالهي.

نرجع الي ذكر مشاهدات العلماء في عجائب حياة الحيوانات المثبتة للالهام الالهي،

منها ان الفراش متى وصل الى الطور الثالث من حياته، يضع بيضه على هيئة دوائر على الاوراق الخضراء، هذا البيض لا يفقس الا في الفصل التالى فيخرج على هيئة ديدان صغيرة في الوقت الذي تكون فيه أماته (أمهاته) فى عداد الاموات، اى انها لا تراه، فمن الذى علم الفراش أن صغاره متى خرجت احتاجت الى التغذى بجنى النباتات الخضراء؟ ومن الذي هداه الي وضع بيضه علي تلك النباتات؟ هل هداه آباؤه؟ لا، انه لم يرها في حياته، فلم يبق الى الالهام الالهى.

ومن تلك المشاهدات أن الحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى انها لا ترى لها ذرية أبداً (تأمل)، وليس فرد من أفرادها رآى له اماً أو ولداً، ولكن من العجيب أن هذه الحيوانات قبل أن تبيض تعني غاية العناية بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض، لتصلح غذاء لصغارها متي خرجت. ففى أي كتاب قرأت هذه الحيوانات ان بيضها يحتوى علي صغار، وان تلك الصغار ستخرج وهى في حاجة الي الغذاء وان ما تحتاجه تلك الصغار هو تلك الجثث الحيوانية؟ الا يدل هذا علي الالهام الالهى من كان له قلب او القي السمع وهو شهيد؟

ومن اعجب المشاهدات من هذا القبيل ان الحيوانات المسماة (يومبيل) من أكالة الحشائش ولكن صغارها تولد من اكالة الحيوانات فترى الامهات تعمد الي

وضع بيضها على اجساد الحيوانات حتي اذا خرجت صغارها وجدت ما تغتذى به فمن الذي أدراها أن اولادها من اكالة الحيوانات ؟

ومن المدهشات في هـذا الباب الحيوانات المساة (اوديتير) و (سفكس) فان صغارها متي ولدت احتاجت بأن تغتذى بأجساد حيوانات حيـة فـترى امانها متي باضت تعمد الى اصطياد حيوانات لا تقتلها ولـكن تضربها بحيث تمنعها الحركة وتركها بعضها علي بعض علي تلك الحالة من العجز فاذا خرج صغارها وجدت امامها لغذائها حيوانات حية وان كانت لا تستطيع الحركة .

ومن المحيرات للفـكر من أمر الهام الحيوانات ما تكلم الاستاذ ميلن ادوراد عنه في جامعة (السربون) من فرنسا وهو الحيوان المسمى (اكسيلو كوب) فقـد قال أن هذه الحيوانات التي تراها طائرة في الربيع تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة فلم ير صغارها أماتها ولا تعيش هي حتي ترى أولادها التي تـكون على حالة ديدان لا ار جل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول علي غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضي أن تعيش مدة سنة من الزمان في مسكن مقفل وهدوء تام والا هلكت

فترى الام متي حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا فاذا اتمته علي ما ينبغي أخذت في جلب ذخيرة تكفى صغيرها سنـة ، وتلك الذخيرة هي طلع الازهـار وبعض الاوراق السكرية فتحشوها فى قاع السرداب ثم تضع بيضة وتأتي بنشارة الخشب تـكوّن منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضـة ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخرى وهكذا فتبني بيتها مكونا من جملة أدوار ثم تترك الكل وتموت .

قال العلامة ميلن ادوارد عقب هذه المشاهدة

« يجب أن يدهش الانسان لما يرى حيال هـذه المشاهـدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك ان كل هذه العجائب الـكونية ليست الا نتائج الاتفاق (الصدفة) أو بعبارة أخري نتائج الخواص العامة للمادة وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الاحجار ، وان الهامات النمل مثل اسمي مدركات القوة المدركة الانسانية

ليست الا نتيجة عمل القوى الطبيعية والكيماوية التي بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الاجسام. ان هذه الفروض الباطلة بل هذه الاضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضا فان الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها ابداً . واذا أطل الانسان على وكر من اوكار بعض الحشرات الصيفية يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى اصول أعمالها اليومية » انتهي كلام العلامة ميلن أدوارد .

بقي علينا أن نبدي رأينا في أصل هذه الشبهة وهي الاعضاء الزائدة في الحيوانات ودحض استدلال الداروينيين من ذلك على نفي القصد .

﴿ شبهة الاعضاء الزائدة ﴾

ظهر ببحث العلماء في الكائنات الحية والبائدة أن لكثير منها أعضاء زائدة أى اثرية مثالها العيون الاثرية التى لاتبصر في بعض الحيوانات التى تقطن الكهوف أو تقيم تحت الارض.

ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود زوج من الاطراف ضامراً في بعض الحيوانات الفقرية وقد وجد كلا الزوجين من الاطراف ضامراً في بعض الحيوانات كالحيات

فكل هذا يدل ببداهة العقل على أن الخالق الحكيم جرى في ايجاد الكائنات وتنويعها وابداع أشخاصها على سنة تدريجية ، واودع في كل كائن قابلية لان يلائم البيئة التى يعيش فيها

فان اتفق وجود حيوان متمتع بعينين في بيئة خالية من الضوء ضمرت عيناه وصارتا فيه أثريتين على تعاقب الاجيال . وان حدث وجود حيوان ذى أربعة أطراف في بيئة لايحتاج فيها الا الى طرفين اثنين ضمر فيه الطرفان الآخران لايحتاج اليهما وأورث هذا الضمور أولاده فصار فيها ذانك الطرفان اثريين .

وبالعكس إن قضى على حيوان لاناب له ولا منسر ان يعيش في بيئة يحتاج فيها الي ذينك العضوين تكونا له بالتدريج حتى يصبح من ذوي الانياب والمناسر (أن

صحت مذاهب التحول وقد اريناك شكوك العلماء فيها .

ولكن أليس الاولى بنا ان نعد هذا التحول التدريجي أثراً من آثار العناية الالهية بدل ان نعده من آثار الضرورة التي لا تعقل ولا تعي شيئاً؟

يميل الماديون أن يعتبروا هذا التحول دالا على أن الخلق جار على سنة العناية المطلقة والضرورة المحضة . كانهم يريدون ان يهلك كل حيوان او نبات يقضي عليه بأن يوجد في بيئة غير بيئته الاولى ليسوغ لهم ان يقولوا أن في الكون قوة عاقلة مدبرة وهذا من غرائب شؤن الماديين ، والا فكيف لا يعد امداد الحيوان بحاجته من الاعضاء التي لم تكن له من الرحمة الالهية ويعد عكسه من دلائل الحكمة والغاية والقصد ؟

ان الذى حدا بالماديين الى هذا الزعم توهمهم أن هذا التحول الجزئي يدل على أن العالم كله خلق على هذه الوتيرة فوجدت الخلية الاولى اولا ثم تحولت الى ارقى منها بتغير البيئة وهكذا تم الخلق على ما هو عليه من الابداع والكمال .

هب أن الخليقة تكونت على هذا الضرب من التدرج فماذا فيه من نفي القصد الالهي ؟

هل مما ينفي القصد الالهي ان توجد خلية ساذجة متمتعة بخاصية مقاومة المؤثرات وقابلية التدرج نحو الكمال حتى تصل الى ارقي أنواع النبات والحيوان .

أليس هذا اجدر ان يدل على قوة خالقة اوجدت هذه الخلية ومتعتها بكل قوة ووسيلة لحفظ حياتها حتى تصل الى كمالها ؟

ايهما ادل على دقة الصنع وغاية الابداع فى عمل عامل ؟ أعمله الشيء دفعة واحدة وتركه وشانه يبيد ان لم تناسبه الظروف ، ام تكوينه على حال تمكنه من التدرج شيئا فشيئا وإمتاعه بالوسائل التى تمكنه من مكافحة التغيرات الطارئة في كل حين ؟

خلق الله الارض على سنة تدريجية كما تدل عليه المباحث الجيولوجية ، وجعل بيئاتها وقواها دائمة التحول والتغير، حتى ان سطح الارض الذى نعيش عليه كان قاعا للبحر في عصر من العصور ، وما فيه الآن من مدن عامرة كان قبل عدة اجيال غابات كثيفة، وما كان غابات كثيفة يظل ويقيت ملايين من الحيوانات اصبح الآن مناجم للفحم الحجري . وقس على ذلك مالا يحصى من الانقلابات. فاذا كان الله خلق الارض على هذه السنة أفليس من الحكمة أن يخلق الكائنات ممتعة بخاصة مقاومة المؤثرات مقاومة المؤثرات حتى لاتبيد وتتلاشى أمام التغيرات الذريعة؟

فاذا لم يخلق الحيوان البصير على حالة تمكنه من أن يعيش في الظلام فتصبح عيناه اثريتين ، وما لا ناب ولا منسر له ان يكون له ذانك العضوان اذا اقتضت الاحوال المعاشية وهلم جرا ، هل كان بقي، لولم يمتع الخالق الحيوانات والنباتات بهذه الخاصية من التحول ، على الارض حي يعمرها الآن ؟

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

مر دنا القاري، ما حاوله الانسان من تعليل وجود الاحياء وتنوعها على الارض، واتيناه بمذاهبه المختلفة حتى مذهب دارون وهو احدثها ظهوراً، واكثرها ذيوعا، وقد رأى القاريء انه أصبح كغيرة مثقلا باعباء النقد، نائيا تحت آصار التجريح حتى فضل عليه مذهب لامارك وان كان هو أيضا لا يستطيع الوقوف على ساقيه من كثرة ما حمل من أوزار الاستشكالات.

وقد زاد الانسان اطلاعا على الدقائق البيولوجية والامبريولوجية ، ووقوفا على كنه الاختلافات الجنسية والنوعية، وعلى حقيقة المؤثرات الطبيعية، والعوامل الخارجية فازداد علما بأن هذه المذاهب كلها لا تفسر وجود الحياة ولا ظهور الاحياء وتنوعها. وجاء العلامة (دوفرى) فأثبت بالعمل حدوث الطفرة في عالمي النباتات والحيوانات، فأصبحت نظرية التسلسل نفسها فى أزمة اعترف بها اكبر اشياعها من أمثال (لودانتك) و(ايف) و (دولاج) و(جولدسميث) فتغير موقف العلم حيال هذه المسئلة كل

التغيير ، وادرك العقل في هذه الدفعة ايضا انه كان مخدوعا بآراء باطلة فهل معني ذلك ان العلم عاد الي القول بالمذهب القديم وهو ان كل نوع خلق علي حدته ؟

لا . فان القول به يرد عليه من الاستشكالات أكثر مما يرد على غيره من المذاهب ،وتأثير الفواعل اللامار كية والدارونية فى الاحياء لايمكن نكرانها بوجه من الوجوه ولكنها غير كافية في تعليل وجود الحياة وتنويع الاحياء واصبح الباحثون يرون افضاء المسئلة الى أحد امرين : فاما ان يوفق نابغة من نبغاء العلم الي وجدان نظرية تحل جميع معاضلها ، وتفسر كل غوامضها ،بما لا يدع محلا لنقد ناقد، ولا استشكال مستشكل ، واما أن يقتنع العقل نهائيا بأنها من المسائل التي لا تحل كمسئلة الوجود نفسه .

وعلي كلتا الحالتين فقد خاص العقل الانساني ،بادراك وهن هذه المذاهب،من إصر كان اثقل الاعصار عليه ،ناهيك بنظريات كانت توهمه بأنه فهم سر الخليقة فهما لاتردد بعده ، في الحين الذى كان فيه ابعد عن هذا الفهم منه فىاى زمن كان .

ولا أستطيع أن أصور هنا مبلغ ارتقاء القوة المعنوية للانسان بادراكه أنه كان مخدوعا بزخارف من الكلام أحلها محل الحقائق المقررة عشرات من السنين ، فان ذلك يزعه عن الوقوع في مثله ويحثه على مد مدى بصره، وعدم قبوعه في زوايا من المباحث حرجة،لا تصور له غامضة الوجود على ماهي عليه ،ولا تشعره بروعة هذا المجهول الضخم الذى يحيط به من كل مكان، فيصدر الاحكام الطائشة علي بداءات الاشياء ونهاياتها، ويبعد عن مصدر الحق الذي يتهالك لادراكه ،ويتفاني للوصول اليه بجهوده المتوالية في مدى الوف من السنين .

فاذا كانت مهمة العلم أن يبحث عن الحقيقة وان يجدها فليس اضر عليه من ان يتخيلها في رأى من الآراء ويجمد عليه . ولا احيل القارئ لفهم خطر هذا الانخداع العلمى الا الى ما كتب في كتب الدارونيين في مدى خمسين سنة بعد ظهور هذا المذهب ليتحقق من مبلغ الغرور الذى كان آخذا بمتنفسهم،والزهو الذي كان قابضا على

مُخَـنِّقهم . ولست في حاجة لاعطاء القارى أمثلة ممـا كانوا ينشرونه من ذلك فهو مشهور متداول ، ولكني أعطيه امثالا مما نشره الباحثون بعدهذا الدور، أى فى مدى العشرين السنة الاخيرة بعد زوال هذا الكابوس عنهم ممـا يشف عن الادب العالى الذى افاضه عليهم تحققهم من انهم كانوا واهمين ، وبالقشور قانعين . وهو ادب دفعهم الى تلمس الحقيقة لا من ناحية المذاهب الخادعة والتعبيرات الفارغة ، ولكن من ناحية النظر الصحيح فى كل ما يعرض لهم غير محتقرين موضوعا بحجة أنه بقية من بقايا الاقدمين ، ولا مجاوزين مجالا بدعوى أنه من المقررات المتفق عليها او أنه غير جدير بالبحث استنادا الي أصول وضعها الواضعون أيام الغرور العلمي المشؤم ، فظهر لهم من أسرار الوجود ماحير عقولهم ، وصغر في نظرهم أصولهم ، وانفتح أمامهم مجال لايحده القصور بحد ، ولا تحصر عجائبه ولا تعد ، ونحن هنا نسرد عليك بعض مـا اعترفوا به من ذلك وما فرضه عليهم هـذا الموقف العادل من الزراية على المذهب المادى ، والتحقير لاصوله الضيقة الحرجة ، وما هـدوا اليه من الطريق المؤدى الى اباب الحقيقة التى تر د فيها ، ولا حيرة معها .

واني الفت نظر القارى، الي أمر جدير بالنظر، وهو أن هذه الاقرارات بقصور العلم ، وبحقارة القدر الذى وصلنا اليه منه ، وبكونه قاصراً علي العلاقات الموجودة بين الكائنات لا يتعـداها الي كنهها ، هي الوصف المميز لعلم القرن العشرين، على نقيض ما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر، حيث كان الغرور بهذا القـدر الناقص من العلم بالغا اشد درجاته ، وهو انتقال بعيد المدى ، تحرر به العقل من اسر الاوهـام ذات الصبغ العلمية ، وتعرض معه للحقيقة وجها لوجه ، فشعر من جلالها وروعتها بما لم يشعر به في عهد من عهوده السابقة . فاذا كان عالم القرن التاسع عشر قد بلغت منه الكبرياء مبلغها حتي صرفته عن الحقيقة التي ما تولد العلم الا لنـشدانها ، زاعماً أنه بلغ الي درجة من فهم المساتير تمكنه من تعليلها وتفسيرها بنظرياته واصوله المصطلـح عليها ، معتدا بحواسه ومشاعره واحكامها ، فان عالم القرن العشرين متواضع معترف بقصور علمه عن تعليل أصغر الظواهر واحقرها ، مقر بانه كان ولا يزال مخدوعا بحواسه

ومشاعره ، وانها لاترية من الموجودات الا قشورها ، اما لبابها وحقيقتها التي هي مرمى العلم ومطامح نظره ، فمستورة عنه بحجاب تلك الحواس نفسها ، والفرق بين الحالين بعيد الغور ، واسع المدى ، بحيث ان القيام على احدهما يؤدى الى عكس مايؤدي اليه الآخر . فالاول يؤدى الي نكران كل شيء فوق المادة، والثاني الي نكر ان المادة واثبات مافوقها واعتبارها وجها من وجوه القوة ، وكيف يؤمن بالمادة عالم القرن العشرين بعد ماتوصل الى افنائها في القوة ، وبعد مارأى إشعاعها وتلاشيها بذاتها الي تلك القوة ؟

والاول يفضى الى قصر البحث على المادة باعتبار انها اصلا للوجود كله، والثاني الى مد البحث لما وراءها من عالم القوة الذى ثبت انه الاصل الذى تنزلت منه .

فالخلاف بين المطمحين لايقدر بقدر ، ولا يقاس بقياس .

فلنبدأ الآن في ان نعرض على القارىء آراء اركان النهضة العلمية الراهنة في العالم والوجود، ليقابلوها بتلك الكتابات الطائشة التي يريد اصحابها ان يوهموا الناس ان العلم الطبيعي قد حل معضلة الوجود، وادرك سر قيام الموجودات على الاسلوب المادى البحت، وليعذرونا ان اكثرنا من النقل في هذا الباب فان هذه الفتنة العمياء تجب ازالتها مهما كلفت الباحثين من جهد وثبات، لانها مثار كل الضلالات الالحادية ومنبعث جميع الرعونات العقلية .

رأي الاستاذ شارل ريشيه

من مقدمة كتبها شارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الفرنسية والعضو بالمجمع العلمي لكتاب الدكتور ماكسويل النائب العام في حكومة الجمهورية الفرنسية وهو كتابه المسمى (الظواهر النفسية) قال الاستاذ ريشيه . في صفحة ٧ من طبعته الخامسة سنة ١٩١٤

« يجب على الانسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى ان يعتقد بقوة ان هذا العلم العصري مهما بلغ من الصحة فهو لايزال ناقصاً نقصاً هائلا :

ثم قال في صفحة ٩ معللا جهلنا العظيم بالكون :

« ان حواسنا من القصور والنقص علي حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الافلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تعرف الا عرضاً . واذا لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا كنا جهلنا دائما ان المغناطيس يجذب الحديد. وما كان احد منذ عشر سنين يعلم بوجود أشعة رنتجن . وقبل اكتشاف الفوتوغرافيا كان لايدرى احد ان النور يؤثر علي املاح الفضة . ولم تكتشف الامواج الهرتزيه (نسبة الي هرتز الطبيعي) الا منذ ثلاثين سنة. ومنذ مئتي عام كان لايعرف عن هذه القوة الكهربائية العظيمة الاخاصة جذب الكهرمان اذا دالك بالصوف .

« اذا سألنا رجلا بربريا بل لو سألنا فلاحا مصريا أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوى الطبيعة وجدناه لايدري منها عشر ماتسرده منها الكتب الابتدائية لهذا العلم في سنة ١٩٠٣ . ويظهر لي ان علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة في مثل موقف قروي اليوم ازاء اساتذة كلية فرنسا .

ثم قال بعد ضربه الامثال :

« ثم لماذا لانصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذي نفخر به الى هذا الحد ليس فى حقيقته الا ادراكا لظواهر الاشياء ، واما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا ، والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن ان تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك اننا اذا القينا حجرا في الهواء نراه يسقط الي الارض، فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله سقط بجذب الارض له جذبا مناسبا لكتلته والمسافة التي سقط منها . ولكن ماهو هذا الناموس ان لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، والا فهل منهم أحد ادرك تلك الذبذبة الجاذبة التي تجعل الحجر يسقط على الارض. ان ظاهرة سقوط حجر علي الارض من الشيوع بحيث لاتدهشنا . ولكن الحقيقة انه لايوجد عقل انساني فهم ذلك . ان هذا الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) :

« نرى البيضة تلقح فتصبح جنينا ، وترانا نصف أدوار هذه الظاهرة ونحن بين

مخطئين ومصيبين في الحقيقة ، ولكن هل فهمنا رغماً عن وصفنا الدقيق لها سر ذلك التحول الذى يحدث في البروتوبلاسما الخلوية فيقلبها الى كائن حي عظيم ؟ وبأي معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تتجمع تلك التحبيات هنالك ؟ ولماذا تتهادم هنالك لتعيد تكونها في مكان آخر .

« انا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بدرجتها . حتى أن أكثرها سذاجة لاتزال سرا من الاسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فما معنى اتحاد الايدروجين بالاوكسيجين ؟ ومن الذي استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد وهو يفضى الى ابطال خواص الجسمين المتحدين وايجاد جسم ثالث مخالف الاولين كل المخالفة ؟ ان العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التي توصف بانها غير قابلة للوزن وهي مع ذلك تصير قابلة له متى اجتمع عدد كبير منها .

« فالاولى بالعالم الصحيح ان يكون متواضعا وجريئا في آن واحد متواضعا لان علومنا ضئيلة ، وجريئا لان مجال العوالم المجهولة مفتوح امامه .

ثم ختم مقدمته بقوله :

« فالويل للعلماء الذين يظنون أن كتاب الطبيعة قد اقفل ، وانه لايوجد شيء جديد يحسن تفهيمه للانسان الضعيف .

رأى الفيلسوف الفرنسى جيو :

وقال الفيلسوف جيو فى كتابه (عدم التدين في المستقبل) في طبعته السادسة سنة ١٨٨٦ وهو من الد أعداء الاشكال الموجودة من الاديان :

« ان الفرض القائل بأن الذرة المادية لا تقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد اثبت طومسون وهلمولتز ان الذرات في ذاتها زوبعات متشابهة مكونة من الابخرة (كبخار كوريدرات الامونياك مثلا) فقال ان كل حلقة زوبعية تتألف على الدوام من جزيئات واحدة ولا يمكن فصل

احداها عن سائرها . فلكل منها والحالة هذه شخصية ثابتة .

« اذا وُسّم المذهب المادي وجب عليه أولا نسبة الحياة الى العنصر العام بدلا من ان يفترضه مادة عمياء . قال الفيلسوف سبنسر (كل جيل من الطبيعيين يكتشف في المادة المسماة عمياء قوي ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعه قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما عن جمودها الظاهر بتأثير قوى لايحصي عددها ولما اثبتت لنا آلة التحليل الطيفي (السبكترسكوب) بان الذرات الارضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لايحصي لها عدد تخترق الفضاء في كل وجهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا ان ندرك كما يقول سبنسر (ان الوجود ليس مؤلف من مادة ميتة، بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته، حي بأعم معاني هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها) . . . .

« الاصلاح الثاني الذي يحتاج اليه المذهب المادى لكي يفي بحاجة البحث عن العلل الاولية هو أن يفترض ان للمادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما ان هذه المادة الاولية هي عبارة عن قوة صالحة للحياة والفكر معا فليس هذا ما يُفهم عمليا بل ولاعلميا من معني المادة فضلا عما يفهم من معني الايدروجين(الذى يظن البعض أنه المادة الاولية). فالمادى البحت الذى يلمس بيديه كرة الدنيا معتمدا علي الحاسة الغليظة وهى حاسة اللمس يصيح قائلا : الكل مادة . ولكن المادة نفسها تستحيل في نظره الى القوة ، والقوة ليست الاصورة اولية من صور الحياة . وعلي هذا يستحيل المذهب المادي الى مذهب روحاني ، وتجده مضطراً أمام الكرة الارضية الدائرة لان يقول انها حية . واذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ويقول نعم هي قوة، هي حركة، هي حياة. نقول ومع ذلك فهى أيضاً شيء آخر لانها تفكر فيّ ، وتدرك ذاتها بي .

ثم قال « اذا كان المذهب المادي الذى يدعى انه علمى محض لايقبل ان الطبيعة تعطي بقدر مايدرك العقل ، واذا انكر وجود الفكر والطبيعة معا كان بذلك منكراً

انطباق الطبيعة على أحكام العقل وهو الاصل الذي تعتمد عليه كل فلسفة تدعي انها علمية محضة.

ثم قال :

« اننا عوضا عن أن نحاول ادماج المادة في العقل والعقل في المادة نعتبر الاثنين معاً في هذه التركيب وهو الحياة ، وهذا التركيب اضطر العلم نفسه في تنزهه عن الغرض سواء اكان أدبياً أو دينياً للاعتراف به. فالعلم يوسع كل يوم دائرة الحياة حتى صار لا يوجد خط انفصال ثابت بين العالم العضوى والعالم غير العضوى » انتهى .

﴿ رأى الاستاذ جوستاف لوبون ﴾

نقلنا رأي هذا العلامة الكبير في العلم والمزاعم الفلسفية في صفحة (٢٣ـ٢٨ من هذا) الكتاب فراجعه فيها وهي آية فى هذا الباب .

﴿ رأى الاستاذ هنرى بوانكاريه ﴾

قال الاستاذ الرياضي الكبير هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في مقدمة كتابه (العلم والافتراض) صفحة ١ .

« الحقيقة العلمية فى نظر المشاهد السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده ان المنطق العلمى غير قابل للنقض وان العلماء ان اخطأوا احيانا فلا يكون ذلك الا لانهم لم يراعوا قواعده » .

« والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الادلة المنزهة عن الخطأ . وهي واجبة ليس علينا فقط بل وعلى الطبيعة أيضا ، مقيدة الخالق نفسه ولا تسمح له الا باختيار حل من بين الحلول القليلة المدققة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أى شيء قد اختار الخالق منها. ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية وعلى هذه الصورة نعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

«وهذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من اهل الدنيا والتلاميذ الذين يتلقون مبادىء علم الطبيعة ، وها هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو ايضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مئة سنة ان يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

«ولكن لما تروى العلماء قليلا لاحظوا امكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا ان الرياضي نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وان التجربة لاتستغني عنها كذلك . حينئذ سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة ، وتحققوا ان نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا ايضا . فان الشك في كل شيء او الاعتقاد بكل شيء يعتبران حلين قليلي المؤنة ، فان كلا منهما يعفينا من اعمال الروية» .

﴿ رأى الاستاذ وليم جيمس ﴾

الاستاذ وليم جيمس استاذ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة وصاحب المؤلفات الممتعة في علم النفس . قال في كتابه ارادة الاعتقاد :

صفحة ٧٣ :

«قد بدأ عصر العلم بغاليليه من لدن ثلاث مئة سنة ، ومن ذلك اليوم الى هذا الحين كان يكفى أن ينبغ أربعة رجال يفضي كل منهم الى خليفته بما فتح على الناس في عهده من مكتشفات العلم . فكان يصل الينا عنهم ذلك النور العلمي كله . فهل يعقل ان علما ليس له من العمر الا يوم واحد . . . . يستطيع ان يمثل لنا شيئا آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه السكون في نظر الذين سيفهمونه على حقيقته في يوم من الايام ؟ كلا . ان علمنا ليس الا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر . والامر الوحيد الذى يمكن ان يقال بشيء من التأكيد هو ان عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم اوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له الى اليوم» .

﴿ رأى الاستاذ كروكس ﴾

الاستاذ وليم كروكس من اكبر علماء الانجليز ومن أعضاء المجمع العلمي الملكي حصل على جميع ألقاب الشرف العلمية التي تمنح في بلاده للنابغين، وهو مكتشف اشعاع المادة وآلات كيماوية كثيرة. قال في خطبة له في مجمع العلوم كما ورد ذلك في مجموع خطبه صفحة ٨

«من بين جميع الصفات التي عاونتني في مباحثي النفسية وذللت لي طرق اكتشافاتي الطبيعية، وكانت تلك الاكتشافات احيانا غير منتظرة، قلت من بين تلك الصفات عندي اعتقادي الصحيح الراسخ بجهلي. واكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا او آجلا الى اهمالهم الكلي لجانب عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم لانهم يرون ان رأس مالهم هذا وهمي محض».

وقال في معرض آخر من تلك الخطبة:

«متي امتحنا من قرب بعض النتائج العادية لظواهر الطبيعية، نبدأ بادراك الى اى حد هذه النتائج او النواميس كما نسميها محصورة في دائرة نواميس اخري ليس لنا بها اقل علم. اما انا فان تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حداً بعيداً. فقد تقوض عندي هذا النسيج العنكبوتي للعلم كما عبر بذلك بعض المؤلفين الي حد أنه لم يبق منه الا كرة صغيرة تكاد لاتدرك.

«ولست بآسف من الحدود التي تضعها امامنا الجهالة الانسانية، بل اني اعتبرها منشطا منقذا. اني اعتقد بأني لست أنا وليس احد سواي اهلا لان نعين مقدما ما ليس بموجود في الكون. ولا استطيع انا ولا احد غيري يستطيع ان نقول بان شيأ بعينه لايحصل حوالنا في كل يوم من ايام حياتنا. هذه العقيدة تدع لي املا مقويا بأن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن ان يحدث في مجال من المجالات، في أقل الاوقات تفكراً فيه.» انتهى.

وقال في خطبة أخرى صفحة ٣٦

«الكون كله، على ماندركه، نتيجة الحركة الذرية . وهذه الحركات الذرية تنطبق تماما على قانون حفظ القوة ، ولكن مانسميه ناموسا طبيعيا هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من اشكال القوة . ونحن نستطيع ان نعامل الحركات الذرية كما نعامل حركات الاجرام الجسمية، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكننا مع ذلك لا نكون اقرب مما كنا عليه الى حل اهم مسئلة وهي . اى نوع من انواع الارادة والفكر يمكن ان يوجد خلف هذه الحركات الذرية، مجبرين لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وماهي العلة العاملة التي تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفي الاصل من وراء ستار المسرح)؟ وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟»

ثم قال .

«اسمحوا لى ان استنتج من هذا الفهم انه يستحيل علينا ان نتخيل مقدما الاسرار التي يحتويها الكون والعوامل الدائبة على العمل فيها حولنا» انتهى .

﴿ رأي الاستاذ اوليفرلودج ﴾

اوليفرلودج من اكبر علماء الطبيعة الانجليز، عضو بالمجمع العلمي الملكى ورئيس جامعة برمنجهام ومكتشف نظرية التلغراف اللاسلكى . قال في خطبة خطبها في جمعية تقدم العلوم الانجليزية وهو رئيس القسم الرياضي والطبيعى منه (نقل هذه القطعة عنه العلامة (البيردوروشاس)) مدير مدرسة الهندسة الفرنسية فى كتابه الحالات العميقة للنوم المغناطيسي . قال:

«ان الذى نعلمه ليس بشيء في جانب مايجب علينا ان نتعلمه وقد يقال ذلك احيانا بلا اعتقاد . اما بالنسبة لى انا فهى الحقيقة الحرفية . وارادة قصر مباحثنا على المجالات التي افتتحناها نصف افتتاح يعتبر خيانة لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث

وتخييبا لاقدس آمال العلم » .

﴿ رأى الاستاذ كاميل فلامريون ﴾

كاميل فلا مريون اكبر فلكي الفرنسيين ومن اشهر فلاسفة الغرب قال في كتابه (المجهول) صفحة ٥٧٨ :

فلا نضيقن دائرة مدركاتنا ، ولا نؤسسن مذاهب ولا نظريات ، ولا نزعمن ان كل شيء يجب ان يمال حتي يمكن التسليم به ، فان العلم لا يزال بعيدا عن أن يلفظ كلمته الاخيرة في أي موضوع كان »

وقال في كتابه (القوي الطبيعية المجهولة) يخاطب الماديين :

« ايه أيها السادة مهما بلغ من ضيق احكامكم فان قصر نظركم لا يصح ان يسرى على الوجود . فقد اعلنتم بأنه رغما منكم ومن كل العقبات التى تضعونها فان مركبة المعارف الانسانية ستتقدم الي ابعد مما هي عليه الآن وستستمر متقدمة وهي فائزة لا محالة بادراك قوى جديدة ».

الى ان قال :

« ترانا نفكر ولكن ماهو الفكر ؟ لا يستطيع احد ان يجيب علي هذا السؤال. وترانا نمشي ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك . ارى ان ارادتي قوة غير مادية وان جميع خصائص روحي غير مادية أيضا ومع ذلك فمتي اردت ان ارفع ذراعي ارى ان ارادتي تحرك مادتي، فكيف يحدث ذلك ، وما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية في انتاج نتيجة مادية ؟ لا يوجد من يستطيع ان يجيبني عن هذا أيضا. بل قل لى كيف ينقل العصب البصري الي الفكر صور الاشياء الخارجية ؟ وقل لى كيف يدرك هذا الفكر واين مستقره وماهي طبيعة العمل المخي ؟ قولوا لي ايها السادة . . . . ولكن كفي فاني استطيع ان اسألكم عشر سنين ولا يستطيع اكبر رأس فيكم ان يجيب علي احقر اسئلتي » انتهي

﴿ رأي الفيلسوف الكبير هربرت سبنسر ﴾

هربرت سبنسر اشهر الفلاسفة العصريين وتعاليمه تعتبرا كثر التعاليم سلطانا على العقول قال في كتابه (الاصول الاولية) صفحة ٢٤٧ :

قال بعد ان سرد الاصول التي يحاول بها تفسير الوجود :

« اي وظيفة تؤديها هذه الاصول فى تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها ان تعطينا وحدها فكرة عن هذا الوجود اعني عن مجموع ظواهر الموجود الذى لا يمكن ادراكه ؟ واذا اعتبرناها مجتمعة فهل تستطيع ان تعطينا فكرة تساوى جلالة هذا الوجود ؟ واذا رتبت وجملت مذهبا فهل تستطيع ان تكوّن لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل الاجواب واحد وهو : لا »

﴿ رأي الفيلسوف اندريه كريسون ﴾

قال الاستاذ (اندريه كريسون) مدرس الفلسفة في جامعة ليون في كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) وهو في صفحة ١٧٠

« العلم لا يعطينا على الوجود فى مجموعه الا معارف مبهمة للغاية . فاننا لا نعلم العدد الحقيقي للنجوم ولا للكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة . فابداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن ان يكون الا تحكما . فالفلاسفة الطبيعيون المتحفظون يرفضون ان يبنوا من النظريات ما يمكن ان يسمى بالرواية الخيالية للسماء . فهم لذلك يفضلون القيام على ارض ثابتة اقرب الى روح العلم .

الى ان قال :

« ماهي الفلسفة الطبيعية اليوم فى الواقع ان لم تكن عقيدة فوق متناول العلم . هل يقتصر الطبيعى على قول مايعرفه ؟ هل يمتنع عن الحكم على الاشياء التي يجهلها ؟ لا ، فان مذهبه يكبر ويمتد لانه في كل خطوة من خطواته يحمل العلم ما ليس عنده ، فتراه تلميحا او تصريحا يؤكد لك بانه سيحل مسائل لم يحلها العلم وانه سيثبت فروضا من وجهة معينة ،

أحقق الكيماويون التركيب الحيوي واثبتوا امكان التولد الذاتي ؟ أفسر أحد اصل التمثيل الوجداني . اصارت اصول فلسفه النشوء والارتقاء تامة وتنزهت عن كل صعوبة ؟ أقامت نظرية المادة والقوة على حالة نهائية ؟ أتفق العلماء على جميع النقط التي يبحثونها ؟ أصار مما لاجدال فيه ان جميع مافي الوجود خاضع لنظام مقرر لايتغير ؟ ألا يوجد عالم اطلاق تتخالف فيه النواميس في جهة أخرى ؟ يستطيع العالم المدقق ان يجيب على هذه الاسئلة بأنه ربما كانت له على هذه المسائل عقائد مؤسسة على المرجحات ولكنه لايستطيع ان يبت فيها بالقول الفصل الذى يتطلبه العلم . ومع ذلك فالفيلسوف الطبيعي يتنكب هذا التحفظ ويبني مذاهب وهو هادىء البال فمثل من يعتقد ان الاستكشافات المقبلة لن تكذبه .

الى ان قال :

« ان قيمة مايظهر لنا انه اشد المعارف ثبوتا واوضحها صحة لاتزال مشكوكا فيها من وجهة علم العلل الاولية . ولا يستطيع احد ان يثبت انها حقيقية كما لايمكن احد ان يثبت انها باطلة .

الى ان قال :

« فالذى يفتر بنتائج الفلسفة الطبيعية لايجوز له ان ينسي ان هذه النتائج لم تثبت ثبوتا مطلقا ولا يمكن ان تصل الى هذه الدرجة ابدا . فهي تفوق جهد العلم المصرى بما لايقدر . ولا يمكن ان تعلن صحتها بدون التسليم بهذا الافتراض الكبير وهو : « ان الشىء الذى لا يستطيع عقلنا ان يشك فيه هو مظهر الحقيقة الواقعية » فلنقل بايجاز ان الفلسفة الطبيعية ملآى بعقائد غير مثبتة ولا تقبل الاثبات » .

﴿ أثر هذا الانتقال العقلي على الانسان ﴾

(وخاتمة الكتاب)

اننا نستطيع أن نأتي بمئات من هذه الاعترافات ولكننا رأينا ان نجتزىء بما

تقدم خشية الاملال . وليست هذه الاقوال في حاجة الى الشرح ، ولكنني ارجو ان لا يقرأها القارىء كما يقرأ أخبار الصحف ، ولكن أن يبهها من التفهم ما هي جديرة به فانها في الحقيقة تبين موقف العقل الانساني في القرن العشرين ، وتنم عن خلاصه من أسر الانخداع للعبارات الفارغة التي كانت تلقب بالعلمية أو الفلسفية وهي مبنية على الوهم البحت أو الدعوى الباطلة التي تجر اليها الكبرياء الجاهلية .

لقد مضي ولله الحمد ذلك الزمان ، وأصبح العقل معترفا بقصوره ، مقرا بانخداعه لاحكام الحواس ، وهذا عهد جديد كان أثره على ترقيه في ادراك المجاهيل اكبر الآثار المعهوده في تاريخه العقلي وأجلها ، بل كان من اثره انه اصبح في موقف يصلح فيه لان الحقيقة التي كان يتهالك عليها ، ولا يصل اليها .

رب قائل يقول . ما هذا التناقض ؟ كيف يدرك العقل انه قاصر ، وانه مخدوع بحواس الجسم ، وانه في وسط بحر لا ساحل له من مجاهيل لم يدرك من مجموعها الا علاقات سطحية لبعض ظواهرها ، ويكون في الوقت نفسه اجدر مما كان عليه بادراك الحقيقة التي يتفاني في طلبها ؟

جوابنا على هذا الاعتراض :

ان هذا الشعور بالقصور وبالانخداع للحواس هو في نفسه علم عال خرج به الانسان من منطقة التبعية للطبيعة الي منطقة الاستقلال المطلق عنها ، فاستطاع ان يحكم عليها غير متأثر بعواملها ولا مفتونا بظواهرها ، فنقله هذا الشعور الصحيح فجأة من التعويل على هذه المظاهر المحدودة من القوي العاملة حوله التي سماها بالنواميس الى تلمس ما وراءها من القوة الخفية المسيطرة عليها .

نعم ان الانسان اسير حواسه الجسمية ، ليس له مصدر غيرها يستنزل منه العلم بما يحيط به من الموجودات غير قوة التخيل ، وهذه القوة قد تخطىء المرمي وقد تصيبه بل هي الي الخطأ اقرب منها الى الصواب وصوابها لا يمكن تحقيقه لبعده عن مجال الحس ، وتاريخ العلم مشحون بالشواهد على ان التعويل على هذه القوة يرمي به الى مطارح بعيدة من الضلال والشطط ، وعلى ان الوقوف مع حكم الحواس ادعي الي

الوصول الي الحقائق التي لا يمكن النزاع فيها وان كان ما يصل اليه منها شيء قليل لا يبلغ ما يطمح اليه الانسان من فهم الوجود وعوامله الاولية .

هذا كله صحيح وليس في العالم رجل يعول على رأيه ينصح بتسليط قوة التخيل على العلم بعد خلاصه منها منذ نحو ثلاثة قرون ولكن هذه اليقظة الجديدة للعقل الانساني من شعوره بقصوره ، وبانخداعه لحواسه ، وبان ما يراه وما يحس به ليس هو الا مظاهر وقشوراً للباب تعمل فيه قوى ارقي من القوى التي يدركها ، هذه اليقظة الجديدة نبهته لخطأ جلل كان يقع فيه ويعتبره ألمعية ، ويصم من لا يشايعه فيه بالعامية . هذا الخطأ الجلل هو عزوه كل ظواهر الوجود الي العدد المحدود من مظاهر القوى العاملة التي سماها بالنواميس ، وتشدده في ذلك الى حد الافراط الذي ليس بعده مرمى .

فكان اذا رأى ظاهرة جديدة علاها بتلك النواميس فان علت عن النواميس حط منها لتقبل التعليل صاغرة ، ويعز عليه ان يعترف بقصور تلك النواميس وبوجود ظواهر في الكون يجب ان يكون لها نواميس ارقي منها . وقد تأدى بالجرى على هذا الاسلوب الي حال من الجمود العلمي استحال معه العلم ، وهو متواضع منصف معترف بعجزه ، الي طاغية متجبر ليس لاستبداده حد يقف عنده .

واننا نضرب لك مثالا من ذلك . يشهد الحس نفسه ان الفارق بين الجماد والانسان من العظم بحيث لا يدع محلا لاي نزاع ، ذلك ميت لا حس به ولا شعور ، وهذا حي له حس وشعور ، وله فوق ذلك ادراك يصلح لاخضاع قوى الطبيعة نفسها ، فالنظر المجرد اليهما يقضي بالحكم بأن في الانسان قوة ليست من نوع القوى التي في الجماد ، قوة يجب درسها والوقوف على مصدرها ، وعدم التسليم بما يتخيله العقل بشأنها حتي يؤيده شاهد من المحسوسات

هذا ما يجب على كل باحث في الطبيعة متبصر منصف ، ولكن النزعة التي كانت استولت على اهل العلم قبل هذا الدور كانت لا تسمح لهم بهذا التبصر والانصاف ، ولكن كانت تدفعهم لغلوهم في الاعتداد بالنواميس التي اكتشفوها الى الزعم بأن القوى العاملة في الانسان هي نفس القوى العاملة في الجماد ، حرصا على السلطان الوهمي الذي

نحاوه بخيالاتهم لتلك النواميس . فان قلت لاحدهم كيف يمكن تعليل صدور القوة العاقلة من قوة عمياء لاشعور لها ولا ادراك؟اجابك أمثالهم وهو(بوخنر)العلامة الالماني بقوله كما جاء في صفحة (٤٥) من كتابه القوة والمادة :

«ان ادراك هذا السر يقتضي ان يعلم هذا الامر وهو ان قوى طبيعية بل وعقلية تلازم جواهر المادة . وهذه القوى العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيها شروط ضرورية في المخ، أوفي المجموع العصبي، حيث تكون عناصر المادة متحدة على شكل خاص ومتأثرة بحركة خاصة، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر كما تنتج فيها في احوال اخرى ظواهر الجذب والدفع».

فليتأمل القارىء في مبلغ هذا الجمود العلمي ، فان بوخنر لاجل ان يماشي المذهب المادي القاضي بان لاموجود غير المادة وقوتها الملازمة لها ، آثر ، وهو حيال مسألة تعليل وجود العقل الانساني ، ان ينحل المادة صفة العقل وان يبذل قصارى جهده في اذاعة هذا الحكم ، على ان يقف موقف المتثبت المتبصر، فيبحث لعله يجد لهذا العقل اصلا عقليا عاما مستقلا عن المادة ، بل لعله يجد هو أو غيره بعد خمسين او مئة سنة ان المادة ليست بشيء غير حركة اثيرية كما مال اليه جمهور العلماء اليوم .

ان هذه الجرأة المفرطة في الحكم على مساتير الوجود ببضعة القشور العلمية المعروفة، ليست من العلم في شيء ، بل هي من تسليط قوة التخيل على العلم والفلسفة معا وتحكيمها فيهما ، ومن الغريب ان الماديين مع هذا الافتئات كله يدعون انهم قائمون على الاسلوب العلمي الدقيق، وأنهم لايحكمون على الوجود بقوتهم المتخيلة

فان اظهرت تعجبك من عقلية الماديين في اكبارهم للمادة الى هذا الحد حتى نسبوا اليها العقل (مع انهم في جهة اخرى يقولون لاعقل بغير مخ) دهشوا من تعجبك هذا، وقالوا لك كما قال بوخنر في كتابه المتقدم وهو يدعى الكتاب المقدس للمذهب المادى:

«ان المادة ليست بشيء حاصل على طائفة كاملة من خواص سلبية ، كما اعتاد

الناس ان يتمثلوها خطأ على تلك الحال ، ولكنها في الواقع على الضد من ذلك كله . فالمادة ليست ميتة ولا جامدة ولكنها متحركة في كل مكان وملأى من الحياة على أقصى درجات النشاط . وهي ليست مجردة عن الصورة ، بل ان الصورة والحركة كما يرى بعدُ من خصائصها الضرورية الملازمة لها . وليست المادة بغليظة كما يقول بذلك خطأ رجال ليسوا على شيء من العلم ، ولكنها من اللطف بحيث لا نستطيع ان نتصور ذلك تصورا . وليست مجردة عن القيمة بل هي على العكس الام العامة التي يتولد منها كل كائن . ولها معنى هو اسمى المعاني المعروفة. وهي ليست مجردة لا من الشعور ولا من العقل ولا من الفكر (تأمل) فهي قابلة لارقي درجات الشعور ولأكمل اعمال الفكر في الكائنات الحية المتولدة منها عن طريق التدرج » انتهى .

الى هذا الحد وصل تحكم الماديين في ادعاء خصائص للمادة ليمكنهم ان يحافظوا على مذهبهم فى عدم وجود شيء سواها في هذه اللانهاية الوجودية كلها ، حتى اذا ثبت لهم أن من الناس من يعرف الامور المستقبلة، اقرروا حرصا على كيان مذهبهم ان يزيدوا في صفات المادة صفة أخرى ولأضافوا الى قولهم انها عاقلة مفكرة قولهم (وتعلم الغيب أيضا) وقس على هذا . ولكن هذا الضرب من التحكم ليس من العلم في شيء ولكنه من تسليط قوة التخيل على العلم والفلسفة والاستبداد بالرأى الى حد يأباه العقل نفسه لانه يشعر بأن القائلين به قد عرفوا سر تركيب المادة، وفاجأوها فى عالمها الاثيرى الاعلى متحلية بكل هذه الصفات التى ينحلونها اياها . فهل تصل الدعوى بالماديين الى هذا الحد ؟

اذا سألنا عن ذلك زعيم الماديين (بوخنر) اجابنا بما قاله فى صفحة (٤٥) من كتابه المادة والقوة :

« نحن لا نعلم ماهي المادة في ذاتها كما لا نعلم ماهي القوة في ذاتها أيضا ولا ندرى هل المادة واحدة فى أصلها أو مكونة من ستين أو سبعين عنصرا كيماويا معروفا ، ولكننا نعلم بطريقة مؤكدة بأنه يوجد شيء يجذب ويرفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ . وانه فى الوقت الذى يزول فيه هذا الشيء تزول

هذه الظواهر معه . هذا الشيء هو الذى نسميه مادة ونسمي الظواهر المذكورة مظاهر لها ، ونسمي سبب هذه الظواهر القوة المشمولة في المـادة » .

نقول هذا كلام صريح في ان الماديين يجهلون ماهية المادة وماهية القوة ، فمن أين جاءهم اذن انها هي الموجود الاول ، ألا يجوز ان يكون الموجود الاول هي القوة، وان المادة تنزلت منها كما يقول به جمهور الطبيعيين اليوم ؟

وهل ملازمة الجذب والدفع والحركة والنور والحرارة للمادة يضطرنا القول بملازمة القوة العقلية لها أيضا ، مع وجود الخـلاف الجوهرى بين الظواهر الآلية ، والظواهر الادراكية ؟ أليس الجزم فى هذه الامور الخطيرة التي هي فوق متناول العقل والتجربة ممـا ينم عن طيش ونزق لايصـح ان يتهم بهمـا باحث طبيعي يجـدّ وراء الحقيقة ؟

يقول قائل منهم : ومن ابن جاء للدينيين ان أصل الوجود روح مـدبر مريد مختار أوجـد الاشيـاء من العدم المحض ، وقام علي تدبيره بحـكمة ليس لهـا حد ؟

نقول : نحن الآن في مجال العلم الطبيعي لافي مجـال الدين ، فان أراد المـاديون ان يقناسوا بالدينيين كفانا منهم هذا الاعتراف وحده ، وعددنا مذهبهم دينا لاعلما ، وأضفناه الي جدول الاديان البشرية ، ولـكنهم لايقبلون ذلك بل يأنفون منه مدعين أنهم علي الصراط العلمي الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فان صدقوا فكيف يتفق هذا الضرب في الخيالات ، وهـذا التحكم في المجهولات ، والقطع فى النهايات والبداءات ، مع اسلوب الفلسفة الحسية التي تفخر بعدم تعرضها لما يعلو عن متناول التجربة والمشاهدة ؟

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضع تلك الفلسفة في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) :

« بما اننا نجهل اصول الـكائنات ومصائرها فلا يجوز لنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها اولاحق لها ، كما لايجوز لنـا أن نثبت ذلك ، فالمذهب الحسي يتحفظ

كل التحفظ في مسئلة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع المذهب الحسي يجب عليها ان تحترس من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها، بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها، لاننا على الحياد التام بين النفي والاثبات ».

وقال الفيلسوف (روبينيه) في كتابه (الفلسفة الحسية).

«يريد الفلاسفة الحسيون ان يبعدوا كل خيال اوتوهم، وان لايعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة، وان يحذفوا من اقوالهم كل الافتراضات التي لايمكن تحقيقها» انتهى.

اذا كان الامر كذلك ألا يكون من الحكم على اصول الاشياء ومصائرها زعم الماديين بأن اصل الوجود المادة، ومصيره المادة؟ وهل القول بان المادة عاقلة ومفكرة تعتبر بعدا عن كل خيال وتوهم ، واعتماد على التجربة والمشاهدة؟

الهم ان المذهب المادى ليس من العلم الطبيعى لانه مبني على احكام لا يمكن مشاهدتها ولا الحكم عليها بالتجربة، وليس من الفلسفة الحسية، لانه قائم على الخيال والوهم والافتراضات التي لا يمكن تحقيقها ، فماهو اذن؟ هو عرض لمرض الزهو الذى كان اصاب العقل الانساني بتأثير توالي الفتوحات العلمية، فخيل اليه ردحا من الزمن انه ادرك كنه الوجود، فقام محاطا بالآلاء المخترعات والمستكشفات يقطع ويفصل في امور الكون كأنه خلقه بيده، وكان الناس تأخذ تلك المخترعات والمستكشفات المتوالية بألبابهم فيخيل اليهم ان العقل العصري الذى هى آثاره لايقرر ما يقرره من الامور الفلسفية عن طيش اونزق فاندفعوا في تياره بغير روية، واحتقروا كل ما يخالفه من المذاهب الفلسفية .

اما اليوم وقد صحا العقل من نشوته، وتنبه من غفوته فقد تبين له ان كل ما حصله من المكتشفات العلمية لا يتعدى العلاقات بين الكائنات، ولا ينفذ الى ما بعد قشورها الغليظة، وان كل ماوأيناه من المزاعم على هذه القشور ليس له أصل يقوم عليه، بل هو مجموع من دعاو باطلة، ادى اليها زهو لاموجب له بأمور لاتبلغه

بعض ما يتوق اليه من لباب الحقيقة ، وادرك انه مخدوع بحواسه في كل شعور من شعوراته ، فهب يبغي لنفسه اصلا آخر يقوم عليه ليسير بقدم ثابتة الى عالم الحقيقة فأعان على رؤس الاشهاد ان كل هذه العلوم التى حصلها في مدى القرون السابقة لاتتعدي العلاقات بين الكائنات ، وانه لا يتصل بها الا بهذه الحواس الخمس ، وهي مضلة خداعة لاتصله منها الا بظواهرها المناسبة لتلك الحواس ، وانه ان اعتمد علي مقرراتها في الحكم على الحقيقة كان ضاربا في متاهات من الخيال المحض تنزل به الى حضيض من الجهل يكون تأثيره علي افساد كيانه أشد من تأثير اي مذهب من المذاهب التى هدمها واقام فلسفته على انقاضها .

هذه اليقظة من العقل نقلته كما قلنا من منطقة التبعية للطبيعة الي منطقة الاستقلال عنها ، ومكنته من الحكم عليها غير متأثر بعواملها ، ولا مفتون بظواهرها ، ودفعته بقوة قاهرة الي تلمس ما وراءها من القوي الخفية المسيطرة عليها . فاصبح العقل اليوم يتهم مدركاته السابقة ويحاسب كلا منها حسابا دقيقا حتى لا ينخدع لالفاظ وضعها بخياله ، وحمل نفسه نيرها قرونا عديدة .

فاذ كان العالم في عهد غروره العلمي يحل بكلمة (الطبيعة) ما لا يحل من معاضل الكون ، ويعقل بها ما لا يعقل من اسراره ، فهو اليوم لا يأبه بهذه الكلمة لانه يراها فارغة ان تجردت عن علم صحيح بكنه المادة ، وكنه النواميس العاملة فيها . واين هو من ذلك ؟

وكان اذا سأله سائل عن عالم ارقي من عالم المادة جزم بعدم وجوده ، فان ناقشه السائل في جزمه ، رماه بأنه من الجهل بحيث لا يفهم ما يقال له ، ولكنه اليوم اندفع يبحث عنه بكليته ، وعلي نفس الاسلوب العلمي وطريقته .

وكان اذا ذكر له عالم الروح ضرب بيده مكتبه وصاح قائلا هذا ضلال قديم ، لقد شرحنا الجسم فلم نجد للروح اثرا فيه

ولكنه اليوم ، وقد ظهر له أنه كان مخدوعا بحواسه ومغرورا بقشور علومه ، فقد عاد اليه التبصر الذي يجدر بكل باحث عن مساتير الوجود ، واصبح لا يجزم

بوجود شيء ولا بعدم وجوده حتي يتحقق من ذلك بالاسلوب العلمي من المشاهدة والتجربة .

لذلك لم تظهر أول حادثة من الحوادث المعزوة للارواح في أمريكا سنة ١٨٤٦ حتي بادر لتحقيقها بنهمة المتعطش للحقيقة ، لا بكبرياء المدعي الالمام بالطبيعيـة . ولما ثبتت له صحتها اخذ في تحقيق كل ما يشابهها في كل بلد . ولما آنس ان هذه المباحث تؤدي الي اكتشاف قوى مجهولة من عالم ارفع من هذا العالم، أخذ في تكوين الجمعيات العلمية لبحثها ، وما زال دائبا وراء هذا السبيل في مـدي أكثر من ثمانين سنة ، حتى تحقق ان حل مساتير هذا الوجود المادى لاسبيل اليه الا بالوقوف علي حدود ذلك العالم المعنوى ، وتأكد ان العلم لم ينقطع عند التخوم التي وصل اليها من مباحثه المادية، ولكنه يتصل بذلك العالم الروحانى ويمتد فيه الى مالا نهاية له، وتبين اننا لم نر من الطبيعة الا جهتها المادية، ولكن جهتها الروحيه الجامعة لكل القوى التي كنا نعتبرها مجهولة هي فى ذلك الذي كنا نجزم بعدم وجوده . فانفتحت امام العقل الانساني والعلم التجريبي باحة ليس لها حد تقف عنده ، والفرق بين العالم الباحث وبين الاعتقاديين امام تلك الباحة ، انهم كانوا يحكمون قوة التخيل فى الحكم على كائناتها ، ولكنه الآن يُحكم فيه المشاهدة والتجربة، أي الاسلوب العلمي بكل ما يقتضيه من تحليل وتمحيص .

فلم يعد العقل يعتبر العلم الطبيعي واقفا عند حدود هذه المادة المحسوسة ، ولا الاسلوب التجريبي مقصورا عليها . فبعد أن كان عالم ماوراء المادة لاينال الا بالمكاشفات الروحانية ، من طريق الرياضات النفسانية ، فيؤمن به واحد عن عيان ، ويسلم به الكافة من طريق الايمان ، أصبح اليوم جزءاً من علم الطبيعة ، يسرى عليه ما يسري علي سائر أجزائها من الاساليب التجريبية والنظم العملية ، فبطلت المنافسة القديمة بين الدين والعلم ، اذ اختلطا معاً وصارا شيأ واحداً، فبعد أن كان الانسان يقرأ العلم فيمتلىء شكوكا وشبها ، ويرجع للدين فيجده لاعتماده على المسلمات ، وقيامه علي الايمان بالغيب ، لايشفي للمتأثرين بشكوك العلم علة ، ولا ينقع لهم غلة ، أصبح

اليوم بفضل دخول المباحث النفسية الى حظيرة التجربة لايجـد امامه الا علما جامعا لمطالبه ، موفقا بين حاجات جوهريه ، وهي حالة كانت من المستحيلات في نظر جمهور المفكرين ، فصارت هي الامر الواقع في القرن العشرين .

كيف حدث هذا الانقلاب العظيم ؟ وما الذى أوجبه واقتضاه في عصر كان يعتبر أعرق العصور في الشكوك ؟ ماهي أدوار هذا الانقلاب ؟ والى أي مدى بلغ تأثيره في أوروبا وامريكا ؟

أحسن وأجمع ما كتبناه في هذا الموضوع هو ما نشرناه في مجلة المقتطف الزاهرة في خمس عشرة مقالة متتابعة من يناير سـنة (١٩١٨) الى (ابريل) من سنة (١٩٢٠) فرأينا ان نجعلها مادة الجزء الثاني لهذا الـكتاب بعد أن نضع لها مقدمة هي ترجمة مقدمة وضعها الاستاذ الـكبير كاميل فلامريون لكتابه العظيم المسمى بالمجهـول والمسائل النفسية

والحمد لله اولا وآخرا

سيظهر الجزء الثاني من هذا الكتاب لطبعته الثانية في شهر يناير سـنة ١٩٣٢

فهرست الكتاب

صحيفة

اصلاح خطأ

صحيفة ٥	س ٩	ـ صفحة ١٣٠	صوابه	١٣٤
« ١٢	س ١	ـ مادة	«	قادة
« ٣٠	س ١	ـ السادس	«	السادس عشر
« ١٠٤	س ٩	ـ برير	«	برير

على أطلال المذهب المادي

﴿ الجزء الثاني ﴾

« طالع هـذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعد أن تطلق »
« نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك وانت واقف تطل »
« علي العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقـة من وراء ستارها »
(كتبها الدكتور شبلي شميل فوق)
(كتابه فلسفة النشوء والارتقاء)

(تأليف)

محمد فريد وجدي

الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣١



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونستعينه ، ونستكفيه فيما نستبينه ، ونسلم على رسوله محمد خاتم مرسليه ، وعلى آله وصحبه وتابعيه ، آمين .

(وبعد) فهذا هو الجزء الثاني من كتاب (على اطلال المذهب المادي) بادرنا الى نشره بعد الاول لانه منه كالنتيجة من المقدمة ، أو كالثمرة من الشجرة ، وهو مجموع المقالات التي كنا نشرناها بمجلة المقتطف الزاهرة في اجزاء متوالية منها من يناير سنة ١٩١٨ الى ابريل سنة ١٩٢٠ وكان الداعي اليها ان المقتطف نشر في جزئه الذي صدر في شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ مقالة تحت عنوان (الفلسفة الحديثة) آنست فيها هضماً ظاهراً لحق الباحثين العصريين في الروح من طريق الاسلوب العلمي المقرر ، فرأيت ان اكشف النقاب عن حقيقة هذه المسألة التي شغلت جمهور العلماء اليوم وأثرت في المدركات البشرية تأثيراً قضت به على الفلسفة المادية قضاء لاقيام لها بعده ، وأوجدت للبحث عن الحقيقة التي بادت الاجيال في تلمسها من طريق العلم الطبيعي عهداً جديداً لم يكن يحلم به الباحثون منذ أقدم أزمنة الفلسفة . وقد أقر بهذه الحقيقة من اعلام العلماء الطبيعيين وكبار الفلاسفة العصريين مئات لا يعقل تواطؤهم على الكذب ولا الانخداع ، بجانبهم ألوف من المجربين المتطوعين من اطباء وأصوليين ومهندسين وصحفيين وماليين ممن لا ينطلي عليهم حيل المحتالين ، ولا تروج لديهم احابيل المشعوذين ، وقد مضى على هذه المباحث اكثر من سبعين سنة وهي تقاوم تمحيص الممحصين . وتقاوي نقد الناقدين وتثبت على تجارب المجربين ، حتى تغلب عليها من أنواع العقول مالم يتغلب على سواها من المسائل العلمية ، فخرجت من كل هذه الامتحانات فائزة منتصرة ، فماذا يطلب من الضمان على صحة امر بعد استجماعه مثل هذه الشهادات التي لا تعد ، والتحقيقات التي لا ترد ، وليست هي من الامور العقلية فيقال انها خيال من الخيالات ،

الفاسفية تروج في الاذهان اليوم وتسقط غدا ، ولكنها امر حسي يخضع لحكم الحواس ويمكن تجربته بالآلات والادوات ، وليس خاصا ببلد ولا بجنس ولا بدرجة معينة من درجات العقول، ولكنه عام شائع وُجد من يوم وجود الانسان ولازمه في كل ادواره، ثم جاء العلم المادي فتشكك فيه ردحا من الزمن ثم عاد فبحثه على اسلوبه واعترف به، فهل يجمل بالعاقلين أن يحترموا التحقيقات العلمية في الامور المادية، ويزروا بها في الامور الروحانية، واقطابه يقولون لهم اننا لا نأتيكم بها مستمدة من دين، ولا مستقاة من فلسفة كلامية، ولكننا نأتيكم بها على الاسلوب العملي التجريبي كالامور الطبيعية سواء بسواء.

لاجرم ليس بين الشرقيين واحترام المباحث الروحية العصرية الا ان تنكشف في صورتها الحقيقية، وهو الذي انتدبنا له فأفسح لنا المقتطف الزاهر مكانا من صحفه القيمة، فنشرنا فيه هذه المقالات التي نعتبرها كافية في اطلاع الناطقين بالضاد على تاريخ هذه المباحث من لدن ظهورها الى اليوم.

وبما ان هذه المسئلة من المسائل التي كان العلم قد تشدد في رفضها وابعادها عن مجاله، ورمي القائلين بها من الاقدمين بكل مثلبة، فقد لقي العلماء الذين بحثوها اخيرا من ضروب المقاومات مالا يخطر ببال، حتي اضطر اكثرهم لبدء تحقيقاتهم فيها بمقدمات تأنيبية ثاروا فيها على الجمود العلمي ثورات كان لها اكبر الآثار في كشف الاغشية المادية التي رانت على قلوب الماديين. من احسنها مقدمة وضعها العلامة الكبير الاستاذ (كاميل فلامريون) الفلكي الفرنسي في صدر كتابه المسمى (المجهول والمسائل النفسية) الم فيها بادوار الجمود العلمي، وتاريخ استعصائه عن قبول كل جديد، فرأينا ان نصدر بها كتابنا هذا، فان فيها من الحقائق التاريخية ما يندر وجوده في كتاب واحد. قال حضرته تحت عنوان (المنكرون):

« عدد كبير من الناس مصابون بقصر نظر حقيقي في العقل، وقد صورهم (لوميير) أصدق تصوير بقوله أنهم يتخيلون ان الافق المحيط بهم هو نهاية العالم. فترى الحوادث الجديدة والآراء الحديثة تكسفهم وتذعرهم. فهم لا يريدون ان يتغير السير المادي

للاشياء . اما تاريخ تقدم المعارف الانسانية فلديهم من الامور المهملة.

«وتظهر لهم جراءة الباحثين والمخترعين ومحدثي الانقلابات من الجرائم، ويخيل اليهم بان النوع الانساني كان دائما على ماهو عليه الآن . فلايتذكرون عصر الحجر، ولا عهد اكتشاف النار، ولا زمن اختراع عمل البيوت والمركبات والسكك الحديدية، ولا توالى الفتوحات العقلية، ولا استكشافات العلم، فتري فيهم الآن اثراً من وراثة اسلافهم الاسماك بل والحيوانات الرخوة، ونجد هؤلاء السادة المحترمين يتمكنون من الجلوس علي كراسيهم ويظلون علي تلك الحالة في راحة لايعتريها. اقل اضطراب : وهم ليسوا اهلا لقبول مالا يفهمون ولا يطوف بخيالهم حالهم الحقيقي من انهم لا يعلمون اقل شيء . لايعرفون بأن في ثني كل تعليل لاية ظاهرة من الظواهر الطبيعية مجهولا، فيكتفون بتغيير الالفاظ ليس الا . لماذا يسقط الحجر؟ لان الارض تجذبه . مثل هذا الجواب الواضح يشبع مطامعهم العلمية ، فيتوهمون انهم قد فهموا هذه المسألة. والتلاعب بالتفسيرات المدرسية المقررة يفتنهم على نحو ما كان عليه الحال في عهد موليير . . . .

« في كل عصر، وفي جميع ادوار المدنية يصادف امثال هؤلاء الرجال البسطاء وهم في حالة هدوء وسكون، ولكن ليس بغير زهو، فينكرون بسلامة قلب جميع الاشياء التي لم يبحثوا فيها ويزعمون انهم يحكمون علي النظام الكوني الذي لا يسبر له غور. مثلهم كمثل نملتين في حديقة تتكلمان في تاريخ فرنسا او في بعد الشمس عن الارض.

«فلنعرض للقارىء حوادث من التاريخ، ولنأت ببعض الشواهد على ما نقول:

« تحررت مدرسة فيثاغوس من الآراء العامية على الطبيعة، وارتقت الى ادراك الحركة اليومية لكوكبنا الارضي، فنمت بذلك السماء التي لانهاية لها من أن تتكلف الدوران حول نقطة تافهة في كل اربع وعشرين ساعة. فلسنا في حاجة لان نقول بأن الرأى العام ثار علي هذا الرأي الجليل، فلا يمكن ان يطلب الى الفيل ان يطير الي وكر النسر . ولكن كانت قوة المعتقدات الراسخة بحيث منعت العقول الراقية

من قبول هذا الرأي، حتى افلاطون وارخميدس، وهما العقلان اللذان يتألقان نورا. وكان من عداد المكذبين ايضا الفلكيان هيبارك وبطليموس . حتى ان هذا الاخير لم يمالك نفسه من الاغراق في القهقهة من مثل هذه الخزعبلة الفارغة . وقد وصف نظرية دوران الارض بأنها مضحكة للغاية . هذا التعبير قارص جدا. وكأننا نرى من هنا بطن كاهن صالح من كهان ذلك العصر يضطرب ويتلوى من دعاية بمثل هذه القوة وهو يقول: ما اكبر هذا السخف! الارض تدور؟ لقد اصاب الفيثاغورسيين الخبل، تلك ادمغتهم التي تدور »

ثم اخذ الاستاذ كاميل فلامريون يسرد تاريخ الاستكشافات العلمية وما لقيه العلماء المكتشفون من المكافحات والاضطهادات . فذكر ان الفيلسوف الكبير سقراط قبض عليه وقتل بالسم لانه ترفع عن تصديق الخرافات التي كانت شائعة في زمنه . وان الفيلسوف اناجزاغور اضطهد وعذب لانه زعم ان الشمس اكبر من شبه جزيرة بلوبونيز ببلاد اليونان .

وجاء بعده غاليليه بالفي سنة فأحرق بالنار لانه قال ان الارض كرة حقيرة في هذه اللانهاية السماوية .ثم قال ما ترجمته حرفيا :

«وقد حضرت في ١١ مارس من سنة (١٨٧٨) تقديم الفونوغراف الذي اخترعه اديسون الى مجمع العلماء الفرنسي. فلما أدار مقدمه الآلة وتكلم الفونوغراف هب احد العلماء الكبار وهو المسيو (بويو) من مكانه وامسك بخناق الرجل، وصاح في وجهه تعسا لك، اننا لا نخدع لمشعوذ مثلك يتكلم من بطنه . وما هو اعجب من هذا ان هذا العالم اعلن بعد هذه الحادثة بستة اشهر، اى في جلسة ٣٠ سبتمبر لمجمع العلماء بانه درس مسألة الفونوغراف (درسا مدققا) فرأى ان المسألة مسألة تدليس وان الصوت الذى يرن منه ليس منبعثا من الفونوغراف ولكن من بطن مقدمه .ثم قال: (أى العلامة بويو) ولا يعقل ان يستطيع المعدن محاكاة الجهاز الصوتي الشريف للانسان » فلم يكن الفونوغراف في نظرة الا من الاوهام .

«ولما حلل الكيماوى الكبير (لافوازييه) الهواء الى عنصريه الاوكسيجين

والازوت ثار عليه اكثر من عالم عظيم ، وانبرى له الكيماوي الاشهر (بوميه)أحد أعضاء المجمع العلمي ، ومخترع الاريومتر ورد عليه بقوله :

« ان العناصر أو الاصول المكونة للاجسام قداعترف بها وتحقق منها الطبيعيون في جميع العصور وفى كل الامم . وليس من المحتمل ان توضع هذه العناصر التي عُرفت منذ الفى سنة بأنها بسيطة، في عداد الاجسام المركبة ، كما انه ليس من المحتمل أيضا ان تعتبر حقيقية تلك الوسائل التي تقدم لنا لتحليل الماء والهواء، ولا تلك الادلة المستحيلة، (ولا نقول اكثر من ذلك)، الداعية الى انكار وجود عنصرى النار والتراب .فان الخواص المعترف بها لهذه العناصر تتعلق بجميع المعارف الطبيعية والكيماوية التى تحصلنا عليها الي الآن . وقد صارت هذه العناصر قواعد لعدد لايحصي من مكتشفات ونظريات تتبارى كلها في الوضوح والجلاء . وهذه المكتشفات والنظريات يجب ان ترفع منها كل ثقة اذا اعتبر ان النار والهواء والماء والتراب غير عناصر اصلية .

ثم قال كاميل فلامريون عقب هذا :

« كل الناس يعلمون اليوم بأن هذه الأربعة العناصر، التى دوفع عنها بهذه الروح العظيمة من التقوى، لا وجود لها، وان الحق فى جانب الكيماويين العصريين بتحليلهم الهواء والماء . اما عنصر النار الذي كان يقول عنه بوميه ومعاصروه بأنه الاصل المولد للطبيعة والحياة فلم يوجد الى فى خيال اولئك الاساتذه .

والعالم لافوازييه نفسه ليس بريء من مثل هذا الجمود العلمى، فقد كتب للجمعية العلمية بحثا مسهبا يثبت لها فيه استحالة سقوط الاحجار من السماء . وقد كانت تلك الاحجار وهي النيازك قد شوهدت في اماكن متعددة، ورؤيت وهي ملتهبة ومع هذا كله اعلنت الجمعية العلمية بأن ذلك من الامور التي لا يتصورها العقل. وفى سنة (١٦٢٧) سقط نيزك يزن ثلاثين كيلو غرام في رائعة النهار رآه العالم (غاساندى) بعيني رأسه ولمسه وفحصه ونسبه لثورة ارضية مجهولة ، مع ان النيازك عرفت بعد

ذلك بأنهـا بقايا كواكب متحطمة، تمر بها الارض فتجذبها اليها ، فتسقط عليها من السماء .

« وقد كان الاساتذة الارسطاليسيون يؤكدون في عصر غاليليه أن الشمس لا يمكن ان يكون عليها كلف وقد ثبت ذلك بعدُ بالحس .

ولما رأى العالم (جالفاني) مكتشف الكهرباء بأن ارجل الضفادع التي كان علقها على قضبان الحديد في بيته قد اضطربت، وانهمك في درس سبب ذلك ونسبه للقوة الكهربائية، هزىء به الناس وسموه استاذ رقص الضفادع . فكتب يقول سنة ١٧٩٢ : « لقد هوجمت بطائفتين متعارضتين العلماء والجهلاء . كلتا الطائفتين تهزآن بي وتسمياني استاذ رقص الضفادع . ومع هذا فاني متحقق من أني قد اكتشفت احدى القوى الطبيعية »

« وفي هذا الوقت نفسه انكر المجمع العلمي والمجمع الطبي المغناطيس الانساني انكارا مطلقا وعاقا تصديقهما به على نجاح (جول كاوكيه) في استئصال سرطان ثديي لامرأة بدون بنج وبواسطة التنويم المغناطيسي وحده .

« ولما اكتشف هارفي الدورة الدموية هزئت به جامعة الطب وسلقته بالسنة حداد ،

« ولما قدم المركيز جوفروا سنة ١٧٧٩ مشروع عمل السفن البخارية رماه الناس بالعته وقالوا هل يتفق الماء والنار ؟ وعرضت الحكومة مشروعه على الجمعية العلمية لفحصه فقررت بانه خيال . فاشتد استهزاء الناس بالمخترع ونبزوه بالالقاب . فنبغ عقبه (فولتون) وعرض مشروعه على اولي الامر فلم يصادف غير ما صادفه سابقه، فرحل الى امريكا وهناك لقي بعض المساعدة بعد جهد جهيد .

« ولما اكتشف فيليب لوبون الاستصباح بالغاز نشر مشروعه فلم يأبه به احد ، وسخر الناس منه، ومات صاحبه ولم يجد لندائه ملبيا ، وكانوا يردون عليه باستحالة وجود مصباح بدون فتيل . . . .

« ولما اكتشفت السكة الحديدية لنقل المسافرين والبضائع ثار الناس على المخترع

وعدوه مخرقاً، وكتب المهندسون الفصول الطوال لاثبات ان العجلات تدور على نفسها ولا تسير على القضبان . وقام العالم الرياضي المشهور (اراغو) في مجلس النواب سنة (١٨٣٨) فأثبت فساد هذا المشروع وافاض في بيان جمود المادة وصلابة المعادن ومقاومة الهواء، وزعم ان هذا المشروع لو نجح افضى الي تقليل ايرادات النقل علي الحكومة فتخسر بذلك مالا طائلا . ثم ختم خطبته بقوله: « لنحذر من المضي مع الاوهام فان مثالين متوازيين من الحديد(يريد القضبان) لا يغيران طبيعة اراضي غاسكونيا البور »

« وخطب السياسي الكبير(تييرس) في هذا الموضوع فقال : « انا اسلم بأن مشروع السكة الحديدية يكون من ورائه(بعض الفوائد) لنقل المسافرين اذا قصر ذلك علي بعض الخطوط القصيرة جداً والمنتهية الي بعض البلاد الكبيرة كباريس .ولا يجوز عمل خطوط طويلة . . . . . .

« وقال الاقتصادي الكبير(برودون): « ان من الآراء الساذجة المضحكة الزعم بان السكك الحديدية تخدم في تسهيل تبادل الافكار »

« ولما استشيرت الجامعة الطبية الملكية في امر السكك الحديدية اجابت بانها ان تحققت توجب المضار الشديدة علي الصحة العامة فتسبب الدوار للركاب والمشاهدين في الخارج ونصحت بعمل حواجز عالية خشبية تحيط بالسكك حيثما مدت(حتي لايرى القطار احد وهو سائر) .

« ولما اقترح عمل اسلاك تلغرافية بحرية بين اوروبا وامريكا في سنة (١٨٥٣) قام احد اقطابنا في علم الطبيعة العلامة(بابينيه) احد اعضاء المجمع العلمي وممتحن مدرسة الهندسة فكتب في مجلة العالمين يقول: انا لا استطيع ان اعتبر هذه الآراء من الآراء الجدية فان نظرية التيارات الكهربائية تستطيع ان تعطينا ادلة غير قابلة للنقض عن استحالة مثل هذا النقل للمخابرات، حتي ولو اغفلنا التيارات التي تحدث من نفسها في سلك كهربائي طويل ، وهي تلك التيارات التي ثبت انها في غاية الحساسية في المسافة القصيرة الموجودة بين دوفر وكاليه (وهي لاتبلغ ثلاثين ميلا)

وأن الوسيلة الوحيدة لايصال العالم القديم بالحديث (أوربا بأمريكا) هو اجتياز مضيق بهرنج بدون العروج على جزائر فيزويه واسلاندا وجروينلاندا ولابرادور !!

«وقد عاش العلامة الجيولوجي (ايلي دوبومون) السكرتير المستديم المجمع العلمي والمتوفى سنة (١٧٧٤) طوال حياته ينكر وجود الانسان الحفرى بدون ان يعرف شيأ محققا فى هذا الموضوع . مع ان صديقي الفاضل (اميل ريفيير) كان قد اكتشف الانسان الحفرى سنة (١٨٧٢) واحضره الي دار الآثار بباريز ورآه كل انسان.

«وقد ابت الجمعية الملكية الانجليزية سنة (١٨٤١) نشر اهم مذكرات العلامة (جول) المشهور الذى اسس هو والعلامة (ماير) علم الترمودانياميك. وقد سخر الورد (بروغهام) بتوماس يونغ الذى وضع هو والعلامة فرسنل نظرية تموجات الضوء.

« ولما رأى العلامة ماير الجرد الذى قابل به العلماء اكتشافه الخالد في المانيا اعتراه الجنون فرمي بنفسه من النافذة . والعلامة الكهربائي الكبير (اوهم) عد مجنونا عند قومه الالمانيين .

« ولما اكتشفت العدسات البلورية المقربة للابعاد رفض السناتو فى هولاندا ان يعطي مكتشفها امتيازا لعملها بحجة ان الناظر بها لا يستخدم الا عينا واحدة . وبعد ذلك بخمسين سنة رفض العالم الفلكي الكبير ان يضع زجاجات مكبرة في آلاته لظنه انها تضر بضبط وتحديد مواقع النجوم . . .

« وقد وضع صديقي الحكيم (اوجين نو) في مقدمة كتابه الذى اسماه (اشياء عن العالم الآخر) قوله :

« هذا هدية الى ارواح العلماء الذين ماتوا من حملة الامتيازات والشهادات والتشريفات والاوسمة ، اولئك العلماء الذين أنكروا دوران الارض وسقوط النيازك والكهرباء ودورة الدم والتطعيم وتموجات الضوء ومانعة الصواعق والداجير يوتيب

وقوة البخار والمحرك للسفن والسفن البخارية والسكك الحديدية والاستصباح بالغاز والتنويم المغناطيسى . ثم ما بقى اهديه الى الاحياء منهم والى الذين سيولدون ممن يجرون على خطة من سبقهم فى الحال وسيجرون عليها في الاستقبال »

« اني ارى أن من التحقير الشديد لهؤلاء العلماء ان اقلد صديقي (اوجين نو) وأربأ بنفسي عن كتابة مثل هذا الاهداء فى رأس هذا الكتاب . ولكني مع هذا انبه القارىء اليه واسمح بنشره لانه لايخلو من القيمة الفلسفية ، واضيف اليها متابعا مؤرخا لهذه الظواهر بأن هؤلاء العلماء الرجعيين الذين يصادفون في كل مجال من مجالات العلم والفنون والصنائع والسياسة والادارة ينتفع بهم من وجهة انهم يقفون عند حدود يتبين الناظر اليها مسافة التقدم .

« نبغ اوجست كونت وليتريه وأرادا تحديد الطريق النهائي الحسي للعلم فأرادا ان لايسلم الناس الا بما يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم ويسمعونه بآذانهم وان لا يحاولوا ادراك مالا يمكن ادراكه . وقد صارت هذه قاعدة العلم منذ خمسين سنة .

« ولكننا بتحليلنا شهادات حواسنا وجدنا انها تخدعنا خدعا تاما . فاننا نري الشمس والقمر والنجوم تدور حولنا ، وهو ضلال مبين ، ونحس بأن الارض ثابتة ، وهو ضلال مبين أيضا . ونري الشمس تشرق فوق الافق والحال انها تحته ، ونحس بأجسام صلبة ؟ ولا يوجد شيء من ذلك ، ونسمع اصواتا متناسقة ، مع ان الهواء لايحمل فى الواقع الاتموجات ساكنة في ذاتها . ونعجب بنتائج النور والالوان التي تجلي فى نظرنا المظاهر البديع للطبيعة ، والحال انه لايوجد ضوء ولا لوان ولكن حركات اثيريه معتمة بتأثيرها علي عصبنا البصرى تعطينا شعورات ضوئية . ونرى ارجلنا تحترق فى النار علي غير علم منا ، ونرى أن مستقر الشعور بالاحتراق هو في مخنا وحده ، ونجدنا نتكلم عن الحرارة والبرودة ، والحال انه لايوجد في الكون لاحرارة ولا برودة بل حركة فقط . وبناء علي هذا فحواسنا تخدعنا فى حقائق الاشياء حتي اعتقدنا ان الشعور والواقع شيئان مستقلان ،

« ليس هذا كل مايقال فان حواسنا الخمس المسكينة عليها أنها لانكفي في

تعريفنا بالواقع فهي لا تشعرنا الا بعدد قليل من الحركات التي تؤلف حياة الكون ولاجل اعطاء القارىء فكرة عن ذلك اردد هنا ما كتبته في كتابي المدعو (لومين) منذ ثلث قرن . قلت : « من آخر درجات احساسنا بالصوت المدرك باذننا في عدد من الذبذبات يبلغ ٣٦٨٥٠ في الثانية الي اول درجات شعورنا البصري المدرك بعيننا في عدد من الذبذبات يبلغ ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ اربعة كترليون في الثانية أيضاً لا نستطيع ان ندرك شيأ فيما بين هاتين الدرجتين من الذبذبات . ولا مشاحة في ان بينهما مسافة بعيدة جداً لا تتأثر بذبذباتها حاسة من حواسنا . فاذا كان في عود شعورنا اوتار أخرى ، كعشر أو مئة أو الف ، فان نظام الطبيعة بتر نيتها كان يظهر لنا على اتم واكمل حال ، فحواسنا تخدعنا من جهة ، وشهادتنا ناقصة كما رأيت من جهة أخرى . فليس لدينا ما نفخر به ولا ما يحملنا على وضع فلسفة حسية مزعومة .

« نعم يجب علينا ان ننتفع بما عندنا فان كانت العقيدة الدينية تقول للعقل . « ياصاحبي الصغير ليس لك الا مصباح يهديك الطريق فأطفئه واتركني اتول قيادتك » الا انه ليس هذا رأينا . نعم ليس لنا الا مصباح ضئيل ولكن اطفاءه يفضي الي العمى المطبق . فلنجعل مبدأنا وهو ان العقل او التعقل يجب دائما وفي كل شيء ان يكون دليلا لنا . وليس وراء هذا الا العدم ، ولكن لا يجوز لنا ان نحصر العلم في هذه الدائرة الضيقة ولا نرجع الى (اجوست كونت) لانه مؤسس المذهب العصري ولانه يعتبر من اكبر العقول في جيلنا الحاضر . فقد حدد دائرة علم الفلك على ما كان يعلمه في زمنه ، وهو الامر الذى يعتبر من المستحيلات العقلية فقال « اننا نعلم انه يمكن دراسة اشكال الكواكب وابعادها وحركاتها ولكننا ان نستطيع أبداً بأية وسيلة من الوسائل دراسة تركيبها الكيماوي » وقد توفى هذا الفيلسوف سنة (١٨٥٧) أى بعد اكتشاف التحليل الطيفي بخمس سنين ، وهو الاكتشاف الذى عرفنا بالضبط التركيب الكيماوى للكواكب على حسب ترتيب طبيعتها الكيماوية

« ولقد كان مثله كمثل فلكي القرن السابع عشر الذين كانوا يؤكدون بأنه لا يوجد غير سبع كواكب . ولم يعلموا ان المجهول بالامس يكون عين الحقيقة غداً »

ثم ذكر الاستاذ كاميل فلامريون ان العلماء ايسوا وجدهم المصابين بالجرد امام كل جديد ولكن يشاركهم الكاتب في ذلك والتمس لهم عذرا ثم قال:

«ان استكشاف اشعة رنتجن حديثا وهو الاستكشاف الذي لم يكن يخطر ببال احد لغرابته في ذاته يجب ان يصغرنا بضيق مجال ملاحظاتنا المادية. فان الرؤية من خلال الاجسام الكثيفة في باطن صندوق، وتمييز الهيكل العظمي للذراع من خلال اللحم والثياب الكاسية له، لاشك انها من الامور المناقضة لحقائقنا المادية. هذا المثال هو على التحقيق افصح دليل على هذه البداهة العلمية وهي: من الامور المناقضة للتأكيد بان الحقائق تقف عند حد معارفنا وملاحظاتنا»

«ثم ان التلفون الذي ينقل الكلمة ينقلها لا بواسطة تيارات رنانة ولكن بواسطة حركة كهربائية، فاذا كنا نستطيع ان نتكلم من باريس الى مرسيليا بواسطة انبوبة فان صوتنا يلبث سائراً ثلاث دقائق ونصف قبل ان يصل الى الجهة المرسل هو اليها. وتلبث كلمة مخاطبنا مثل هذه المدة أيضا اى ان الجواب المركب من كلمة واحدة لا يصل الينا الا بعد سبع دقائق. هذا مالا يفكر فيه احد، ولكن التلفون ادخل في البعد عن التصور من اشعة رنتجن من جهة معارفنا بالاشياء السابقة عليه.

«لقد تكلموا عن النوافذ الخمس لمعارفنا وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس. ولكن هذه النوافذ الخمس لاتصلنا بالعالم الخارجي الا قليلا، ولاسيما النوافذ الثلاثة الاخيرة. فان العين والاذن تذهب الي بعدما. ويكاد يكون النور وحده هو الذى يصل بين عقلنا والوجود ولكن ماهو النور؟ هو نوع من الذبذبة في الاثير بسرعة مفرطة والشعور بالنور ينتج على شبكية اعيننا على درجة من الذبذبات الاثيرية تمتد من ٤٠٠ ترليون في الثانية الواحدة (وفيها يظهر الطرف الاحمر من الطيف الضوئي) الي ٧٥٦ ترليون (وفيها يظهر الطرف البنفسجي) وعدد هذه الذبذبات قد قدر بضبط منذ زمان طويل، وفيما هو مثل هذا العدد وما بعده توجد ذبذبات في الاثير لاتدركها اعيننا فما بعد اللون الاحمر تحدث الذبذبات الحرارية المعتمة، وفيما بعد البنفسجي تحدث الذبذبات الكيماوية للاشعة الكيماوية الممكن تصورها.

بالفوتوغرافيا وهي اشعة معتمة ايضا . ويبقى امامنا ذبذبات كثيرة غير هـذه مجهولة عندنا

ثم قال بعد ايراده تحقيقات علمية لما سبق :

«الظواهر الطبيعية التي تحصل حولنا على الدوام تحدث تحت تأثير قوى غـير مرئية لنا . فبخار الماء الذي له اكبر تأثير في اختلاف الاقاليم غير مرئي بالعين ، والحرارة والكهربائية غير مرئيتين أيضا . والطيف الشمسي بتمثيله مجموع الاشعـة المضيئة التى تحس بها شبكية العين اصبحت الاشعة المرئية بالعين ويعرفها الكافة اليوم. فاذا امررنا شعاعا شمسيا من خلال منشور زجاجي تحصلنا منه وهو خارج من ذلك المنشور على شريط من الاشعة ملون من الاحمر الى البنفسجي يخترقه عـدد كبير من الخطوط

«أشهرها يُدل عليه بالحروف من اول ا الى ح من الحروف الابجـدية وتلك الخطوط هي خطوط الامتصاص الناتجة من المواد التي تحترق في الجو الشمسي ومن الابخرة المائية الموجودة في الجو الارضي . ويعرف منها الآن الوف مؤلفة فاذا وضعنا ترمومترا على يسار الطيف المرئي بعد الشعاع الاحمر نرى زئبقه يرتفع فيعرف ان هنالك اشعة حرارية لاتراها اعيننا . واذا وضعنا زجاجة فتوغرافية على يمين الطيف فيما بعد البنفسجي رأيناها تتأثر فيعرف بذلك ان هنالك اشعة كيماوية شديدة الفعل محجوبة عنا . ثم انا ننبه لهذا الامر الهام وهو ان الاجسام غير المرئية يمكن ان تصير مرئية. فالاورانيوم وسلفات الكنين تصير مرئية في الظلام تحت تأثير اشعاع الاشعـة التى هي بعد البنفسجي»

ثم قال :

«يرجح اننا نجد اشعة رونتجن بين الدرجة ٥٨ و ٦١ حيث الذبذبات الاثيرية تكون من ٧٤٤ ٧١١ ١٥١ ٣٧٦ ٢٨٨٢٥٠ الى ٢٣٠٥٨٤٣ ٠٠٩ ٢١٣ ٦٩٩٥٩٥٢

في الثانية الواحدة وقد يكون عدد الذبذبات اكبر من ذلك . فيري ان في هذه الرتبة من الذبذبات يوجد فراغات كبيرة او مواطن مجهولة ليس لنا عنها ادني علم. فمن الذي يستطيع ان يقول ان هذه الذبذبات لا تلعب دوراهامافي التركيب الوجودى العام؟

« ثم يقال الا توجد ذبذبات في الاثير اسرع من الدرجة التي ذكرناها. »
ثم قال :

«يوجد في الحياة الارضية خصائص لم يكتشفها الانسان الآن وحواس لاتزال مجهولة لديه .فكيف يجد الحمام السياح والسنونو اعشاشها التي تركتها ؟ وكيف يعود الكلب الي بيته بعد ان يبعد عنه عدة مئات من الكيلومترات في طريق لم يعهده من قبل ؟ وكيف تستهوى الحية العصفور الى فمها ؟ وكيف يجذب البرص اليه الفراش بعد ان يوقعه في خدر الخ الخ؟ وقد بينت في كتاب غير هذا ان سكان الدنياوات الاخري يجب ان يكونوا ممتعين بحواس مخالفة لحواسنا »

« ليس لنا علم مطلق بشيء من الاشياء فكل معارفنا نسبية اي ناقصة وقاصرة

«فالعقل العلمي يوجب علينا ان نتحفظ في انكاراتنا،ولنا الحق في ان نكون متواضعين، ولنقل مع اراغو«ان الشك دليل علي التواضع وما اضر بتقدم العلم الا نادرا» ولكننا لا نستطيع ان نقول مثل هذا القول عن الانكار المطلق»،

« ويوجد كذلك عدد عظيم من الحوادث لاتزال بعيدة عن التفسير تختص بالعالم المجهول ، ومن هذا الباب الحوادث التي سنتكلم عنها في هذا الكتاب . فالتلباتيا اى الشعور عن بعد، وظهور اشباح الموتي ، وانتقال الافكار ،والرؤي في النوم، وفي حالة الانتقال النومي بدون استخدام الاعين لقرى ومدن وآثار، ومعرفة المستقبل من حادثة قريبة، والشعور بما هو آت، والانذارات الخارقة للعادة ،والحس بحوادث مستقبلة ،والاملاء بواسطة الطرق على الاخونة (الترابيزات)، وحدوث

ضوضاء لا يمكن تعليلها، وظهور أرواح في بعض البيوت ونقل الاشياء من امكنتها ورفعها الى فوق ضد نواميس الثقل ، وحركة الاشياء وانتقالها بدون مس أو حوادث تشبه تجسد القوى (وهو مايظهر محالا لاول وهلة) والظهور الوهمي أو الحقيقي للارواح أو لنفوس من جميع الرتب ، وظواهر أخرى غريبة لاتزال بعيدة عن التفسير للآن كلها تستحق ان نطلع عليها وأن نوجه اليها اهتمامنا العلمي .

ثم قال :

« والذين يقولون : حاشانا أن نصدق هذه المستحيلات . لالا ، نحن لانصدق الا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ، هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عند مايصلون في رسمهم الى جبل طارق هذه العبارة (هنا تنتهي الدنيا) ولم يعرفوا أن في تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الارض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون في ذلك الحين .

« كل مانعرفه من العلوم الانسانية يمكن أن يشبه بجزيرة صغيرة ، صغيرة للغاية محاطة بأوقيانوس لاساحل له » .

وقال في صفحة ٧٥٠

« المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس » .

***

وقال هذا العالم الكبير أيضا في صفحة ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

انا لا اخفي عن نفسي بأن كتابي هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع ان يقنع غير الباحثين المستقلين . ولكن ماأقل العقول المستقلة

الحرة على سطح كوكبنا هذا ، وما اقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية ، كأني بجمهور قرائي يقولون : أى شيء في هذه المسئلة يوجب الاهتمام : اخونة (أى ترابيزات) ترفع عن الارض ، ومناضد تتحرك ، وكراسي تنتقل عن مواضعها ، و يانات تقفز ، وستائر تضطرب، وطرقات تحدث بلا سبب معروف ، واجوبة توجه الى أسئلة عقلية ، وجمل تملى عكساء وأيدى ورؤوس واشباح تظهر، كل هذا من الامور التافهة او الهذيان الذى لا يصح ان يلفت نظر عالم من العلماء . . . .

« اجل من الناس من قد تسقط السماء على رؤسهم فلا يتأثرون .

« اما انا فأجيبهم قائلا : ماذا تقول ؟ ألا يجدي شيأ في نظركم ان نعلم ونشاهد ونعترف بأنه توجد حولنا قوى لا تزال مجهولة ؟ ألا يعد شيأ يؤبه له عندكم ان ندرس طبيعتنا الخاصة وخصائصنا الذاتية ؟ ألا تستحق مثل هذه المسائل ان تكتب في برنامج المباحث، وان نخصص لها ساعات من العناية ؟

ثم قال :

« اني كلما افكر فى هذا الامر ادهش من ان دهماء الناس لا يزالون يجهلون هذه المسائل كل الجهل بينما قد عرفها ودرسها وقدرها حتى تقديرها وسجلها من مدة مديدة جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة فى مدى هذه السنين الاخيرة » انتهى.

...

وقال العلامة الانجليزى الكبير السير وليم كروكس احد رؤساء المجمع العلمى البريطاني الحاصل على اكبر الالقاب العلمية، وهو مكتشف اشعاع المادة، قال من خطبة القاها في جمعية المباحث النفسية في ٢٩ يناير سنة ١٨٩٧ وكان اذ ذاك رئيسا لها (انظر مجموعة خطبه) قال :

اني لا أستطيع أن اوكد لكم بأن أعمال ومنشورات جمعيتنا هذه فيما يختص بالتدوين الدقيق للمشاهدات الجديدة الهامة، او بالفائدة التي تنتج من هذه المشاهدات

تؤلف مقدمة لا تقدر قيمتها لعلم هو ابعد غورا من اى علم ظهر على سطح الارض (تأمل) سواء فى كشفه عن حقيقة الانسان اوعن حقيقة الطبيعة، وعوالم اخرى ليس لنا علينا الى الآن اقل اثارة من علم»

...

وقال العلامة الشهير (هنرى سيد جويك) المدرس بجامعة كمبردج وهو يعتبر اكثر اخوانه العلماء تشككا وتثبتا . قال في خطبة رئاسة جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ اى قبل اربعين سنة

« من الامور الفاضحة ان يتناقش الى الآن فى صحة هذه الحوادث (الحوادث الروحية) التي اعلن تصديقه بها عدد عظيم من الشهود الاخصائيين ، واهتم غاية الاهتمام بحل مسألتها عدد آخر منهم ، وان يحتفظ العالم العلمي مع كل هذا حيالها بالانكار الساذج . . . .

« كان الناس يظنون منذ ثلاثين سنة ان الاعتقاد بالميسيمر يسم (التنويم المغناطيسي) وبالاخونة المتحركة يفسر تفسيرا كافيا بقلة التهذب العلمي عند اهله ، فلما اكد رجال من اهل العلم المشهورون الواحد بعد الآخر صحة تجاربهم الشخصية، اظهر معارضوهم مهارة في تصيد العلل للحط من مقامهم العلمي، فقالوا ان هؤلاء الباحثين غواة وليسوا من اهل تلك المهنة ، أو اخصائيون في بعض الفروع العلمية وليس لهم نظرات عامة ولا خبرة كافية ، أو مخترعون فقط يجهلون الاساليب الدقيقة للبحث العلمي، وانهم ليسوا اعضاء في المجامع العلمية ، فاذا كانوا من اعضاء تلك المجامع اظهر المعارضون اسفهم لهذا وعدوه من الحوادث المحزنة

إننا في متابعتنا السير في هذه المباحث لا يجوز لنا ان ننتظر من شهادة واحدة مهما كانت كاملة نتائج قاطعة على العرف الانساني فان الانكار العلمي اخذ في النمو من زمان بعيد ، وقد صارت له جذور قويه عديدة لاقبل لنا باجتثاثها اذا قدر لنا ذلك الا باسقاطها بمجموعة من الحوادث المحققة ، فيجب علينا ان نعمل بلا فتور ، وان نركم

البراهين علي البراهين ، وان تضيف التجارب الي التجارب ، وان لا نطيل الجدال مع المنكرين الاجانب عن مباحثنا على قيمة تجربة من التحقيق ، ولكن نعتمد على عدد هذه التجارب للحصول علي الاقناع المطلوب » .

***

هذه كلمات من خطبة القاها الاستاذ سيد جويك في جمعية المباحث النفسية بلوندره فيما هي هذه الجمعية ؟ قال الباحث الفرنسي المشهور (جبرييل دولان) في كتابه المسمي (الوساطة) صفحة ٧ :

« تأسست في انجلترة منذ سنة ١٨٨٢ (أي منذ خمسين سنه) جمعية المباحث النفسية جمعت بين اعضائها رجالا من الطراز الاول في العلم مثل الطبيعي العظيم (وليم كروكس) والمؤرخ الطبيعي المشهور (الفردروسل ولاس) و (اوليفر لودج) وهؤلاء الثلاثة من اعضاء الجمعية العلمية الملكية . وكان يعاونهم اساتذة آخرون وبسيكولوجيون (علماء بالنفس) وغيرهم . فعملت مباحث مدققة فى سنين طويلة اتخذت لها ادق التحوطات لتجنب اسباب الخطأ . وان الانسان ليجد فى المجلدات الثلاثة والاربعين التي نشروها الى هذا اليوم مستندات عديدة خاصة بالتجارب والملاحظات المقتطفة والمحققة بعناية اولئك الباحثين الخ الخ »

نقول وهذه الجمعية لا تزال موجودة الي اليوم وقد بلغ عدد ما نشرته من مجلداتها اربعين مجلدا . وقد تأسس في فرنسا فى سنة ١٩١٩ مجمع علمي شبيه بها سيرد عليك ذكره في هذا الكتاب . ولم تبق في اوروبا وامريكا جريدة يومية ولا مجلة الا وتذكر المباحث النفسية بل منها ما خصتها كل يوم بعمودين كجريدة (السيكولو) الايطالية ، وسوادنا الاعظم لا يزال الى اليوم لا يدرى هل لهذه المسألة وجود في العالم العلمي ، مع انها امس مسألة بالانسان ، واخصها به ، لانها تحيط الانام عن وجوده الروحاني وخلوده فى عالم بعد هذا العالم

وقد نشر المقتطف الزاهر في صدر جزئه الصادر في اغسطس من هذه السنة (١٩٢١) تحت عنوان (مناظرة في مناجاة الارواح) مقالا للمستر (مكايب) ناظر بها الكاتب الكبير الطبيب الدكتور (ارثر كونان دويل) في مسألة مناجاة الارواح وقد وعد المقتطف بايراد رد الدكتور كونان دويل في الجزء القادم الذي يصدر في سبتمبر فرأينا ان نأتي على ملخص كلام المستر (مكايب) لنرى القراء مبلغ جهد المنكرين ليروا مثالا من وهن اساليبهم في دحض هذه المباحث. فقد قال:

«ان هذا المذهب ولد في الخداع وربي في الخداع وانتشر الآن في المسكونة والخداع وسيلته».

واستدل على قوله هذا بثبوت خداع الوسيطة (اوزابيا بلادينو) مع ان كاشف خداعها هو العلامة (هودجسون) من كبار علماء انجلترا ومن اعاظم المصدقين بمخاطبة الارواح.

ثم ذكر ان جميع الوسطاء خادعون واستشهد على ذلك بقول العلامة كاميل فلامريون والبارون شرنك فقال:

« اكتفي بالاستشهاد برجلين من الذين بحثوا في هذه الاعمال او المظاهر وهم يعتقدون صحتها، الاول فلامريون الفلكي الفرنسوي المشهور الذي بحث في هذا الموضوع بحثا دقيقا مدة خمس عشرة سنة فقد قال. «ان كل وسيط يستعمل وساطته للربح فهو غاش» والثاني البارون شرنك نوتزنج من اعيان الاطباء في فينا فقد قال قلما قام وسيط الا وثبت انه يستعمل الغش. قال هذا القول بعد ان بحث في هذا الموضوع بحثا دقيقا جدا مدة ٣٠ الى ٣٥ سنة.

«وقال آخر من المعتقدين بصحة مناجاة الارواح ان ٩٨ في المئة من حوادث مناجاة الارواح الطبيعية المحسوسة خداع.

«فلست مبالغا فيما نسبته من الغش الى هذا المذهب» انتهى

تقول ما اغرب هذا التدليل. يستشهد المستر (مكايب) على ان هذا المذهب

مبني على الخداع بأقوال رجال يقول عنهم انهم من المصدقين به ولم يرد أن يسألهم على أي دعامة أقاموا عقيدتهم به مادام الامر كما ذكروا

نعم لم يسألهم المستر (مكايب) هذا السؤال مع انه أول ما يتبادر الى ذهن كل قارىء ، لانه يعلم أنهم سيجيبونه بأنهم بنوا عقيدتهم على تجارب وسطاء غير مأجورين وقد ظهرت خاصة الوساطة في علماء أعلام واطفال رضع ونساء سريات من زوجات المجربين و بناتهم . فظهرت في المستر ستيد اكبر صحفي العالم وأشرفهم نفسا ، وفي العلامة فارلي الكهربائي الانجليزي ، وفي بنتي المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكي ، وفي امرأة الوزير الروسي الشهير اكزاكوف ، وفي ابنة البارون كيركوب الانجليزي وعمرها لم يتجاوز تسعة أيام (ايام) وفي القصصي الفرنسي الكبير ساردو . راجع ما كتبناه على الوساطة في هذا الكتاب . وفي العالم اليوم الوف غير هؤلاء ممن لا يعقل فيهم الخداع والتدليس . فلو كان سأل المستر (مكايب) هؤلاء العلماء الاعلام الذين يقول عنهم انهم من المصدقين بمخاطبة الارواح لأخبروه بالواقع ، وليبينوا له الاصول التي بنوا عليها عقيدتهم .

ثم قال ان كاميل فلامريون بحث هذه المسائل مدة خمس عشرة سنة والحقيقة انه بحثها مدة خمس وخمسين سنة كما صرح بذلك في آخر كتاب له وهو (الموت وغامضته) الذي نترجمة الآن تباعا في الوجديات التي نصدرها كل خمسة عشر يوما (١) . فلو كان هذا مبلغ تثبت المستر (مكايب) في مناظرته فاننا نربأ به ان يخوض في موضوع ليس له المام صحيح بتاريخه .

ثم قال المستر (مكايب) :

« أرى ان مناظري حسب ان من أقوى الادلة على صحة هذا المذهب ما ادعاه من كثرة عدد العلماء الذين اعتنقوه » .

(١) هي مجلة كنا نودعها كل خمسة عشر يوما مقامة خيالية خلقية وننشر فيها مباحث علمية أخرى اشتراكها ١٥ قرشا في السنة .

ثم استشهد المستر مكايب علي فساد هذا القول بما كتبه الدكتور ستانلي هول رئيس جامعة كلارك ضد السير او ليفرولودج رئيس جامعه برمنجهام الذى ذهب الي أمريكا لنشر مذهب مخاطبة الارواح وهذا قول الدكتور ستانلى المذكور في السير او ليفرلودج :

« ان منظر اب يرى الناس قلبه الدامي على ابنه القتيل يجعله بمأمن من الانتقاد » يشير بذلك الى مقتل ابن العالم الانجليزى في الحرب، مع ان السير اوليفرلودج يعتقد بصحة الاتصال بالارواح قبل الحرب العامة بعشرات من السنين .

ثم أورد المستر مكايب قول الدكتور ستانلي المذكور وهو :

« ولكن تبشير السير اوليفرلودج بمناجاة الارواح احتقار للعلم »

ثم أشار الي الحياة التي تحياها الاروح بعد الموت حسب ما ادعاه السير اوليفرلودج (كما يقول) فذكر « انها تشبه حياة ضعاف العقول في البيمارستان » :

وختم الدكتور ستانلى مقالته بقوله :

« اني اؤكد انه لايوجد ذرة من الحق في كل هذا الجبل الكبير من دعاوي مناجاة الارواح » انتهى .

أشار المستر مكايب الي هذه المقالة ليدحض قول السير ارثركونان دويل مناظره ان من أقوى الادلة علي صحة مذهب استحضار الارواح كثرة عدد العلماء القائلين به. فهل غاب عن المستر مكايب ان القول بوجود علماء كثيرين يقولون بصحة شيء لا ينفي وجود علماء آخرين ينكرونه ؟ وهل رأى عالم منكر لم ير شيأ من التجارب النفسية يدحض جبلا كبيرا كما يقول من تجارب قام بها علماء آخرون ورجال من كل طبقة في مدى جيلين متواليين ؟ وهل من العلم أن تكذب بشيء لم تعمل فيه تجربة واحدة بحجة انه لايسيغه عقلك ، وانت تدرى قيمة هذا العقل ومبلغ رأس ماله العلمى فى هذه اللانهاية المجهولة ؟

ان الرأي العلمي الذى يؤثر في هذه المسئلة حقيقة هو أن يتصدى لها عالم أو مجمع علمي فيمضي في تجربتها وقتا كافيا ثم يكتب عن تجاربه تقريرا مفصلا يثبت فيه ماقام به من

التجارب وما اتخذ من الوسائل وما شوهد فيه من التدليس وما انتهى اليه الامر من عدم وجود شيء اصلا يعول عليه في هذا الباب

هذا هو الرأي الذي يؤثر في دحض هذه المسئلة ، اما رجل ينظر الى مجموع التجارب التي حصلت فيراها مما لا يسيغها عقله ... لغرابتها ، (وما غرابتها الا لكونها تفوق علمه الناقص) ، فيندفع للكتابة في نفيها منتقدا تجارب العلماء امثاله متهما اياهم بالانخداع والوقوع في حبالة المدلسين ، فهذا ليس من العلم ، وليس من الحكمة ، وليس من الاخلاص ، وهو عار سيسجله التاريخ على كل من يرتكبه كائنا من كان . كما سجل علي (لافوازييه) تكذيبه بالنيازك ، وعلى (بوميه) تكذيبه لتحليل الهواء ، وعلى (بوبو) تكذيبه لنظرية الفونوغراف وعلى (بابينيه) تكذيبه لامكان مد الاسلاك البحرية ، وعلى (تيرس واراغو) استهجانهما لفكرة السكك الحديدية ، وعلى المجمع العلمي البريطاني تكذيبه للدورة الدموية ، وعلى كل المجامع العلمية تكذيبها بالتنويم المغناطيسي الخ الخ ، اليس في تاريخ الجمود العلمي مزدجر لكل متهور يخيل اليه ان مساتير الوجود انحصرت في بضعة القشور العلمية التي حصلها له هذا العقل الناقص ؟

ان هذه المباحث النفسية كما مرت من ادق الاختبارات العلمية الفردية ، مرت كذلك من تمحيصات اكبر مجمع علمي اجتمع خصيصا لفحصها وتقديم تقرير عنها

وذلك أنه تقدم طلب من جم غفير من الانجليز سنة ١٨٦٩ حيث كثر اللغط بهذه المسائل الى الجمعية الجدلية العلمية بانجلترة لاعطاء الرأي العام البريطاني رأيا حاسما فيها ، فندب هذا المجمع ثلاثين من اعضائه لفحصها فحصا علميا وتقديم تقرير تفصيلي عنها . وقد صدعت هذه اللجنة بالامر ، وكان من اعضائها السير وليم كروكس من اكبر علماء الانجليز ، والمستر الفريد روسل ولاس ، مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وقوانين النشوء والارتقاء ، وهو بمعزل عن دارون فنسب المذهب الى الثاني بسبب سبقه اليه بشهادة بعض من اطلعهم دارون عليه . وقد وقع هذا التقرير في اكثر من خمسمئة صفحة ونشر في البلاد الانجليزية وترجم الى كثير من اللغات ، ونحن ننقل من الطبعة الفرنسية التي بين ايدينا فقرات من خلاصته وهي :

« كل هذه الاجتماعات عقدت في البيوت الخاصة بالاعضاء لنفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أي نوع كان .

« وقد عملنا تجاربنا في ضوء الغاز ما عدا عدداً قليلاً منها اقتضي شأنه الخاص ان نعمله في الظلام دقائق معدودة .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة في الخارج أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا . فكان واسطتنا الوحيد احد اعضاء اللجنة (تأمل في أنه لم يكن منهم وسيط مأجور) وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على صفة النزاهة المطلقة وليس له غرض مالي يرمي اليه ولا أي مصلحة في غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما امكن لمجموعنا أن نتخيله عملت بصبر وثبات . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش وتوهم .

« وقد بدأ نحو اربعة أخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر (تأمل) وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بانها نتيجة التدليس أو التوهم ، أو انها حادثة بحركة غير ارادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون اشد الانكار عن فروضهم الا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته وفي شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لاغبار عليها » الخ .

نقول فهل هذا الرأي العلمي الناضج الذي هو نتيجة تجارب ثلاثين من اكبر علماء الارض في مدى ثمانية عشر شهرا بغير وسيط مأجور ، ولا تأثير من أي نوع كان ، يأتي دحضه بكتابة مقالة يكتبها رجل مهما كانت منزلته لم يكلف نفسه تجربة هذه المسائل والتورط في مآزقها ؟

اذا جوز العقل ان ينخدع بحيل المدلسين عالم أو عالمان او عشرون عالما درسوا هذه المسألة على انفراد فهل يجوز ان ينخدع بها مئات منهم لخصوها في كل بلد ، وان ينخدع

كذلك الوف مؤلفة من أطباء ومهندسين وأصوليين وماليين وصحفيين ومؤلفين، ممن خبروا أساليل الخلق وعرفوا دخائلهم في مدى ثمانين سنة، وفي كل صقع من اصقاع الارض ؟

وهل يعقل ان ينخدع بها ثلاثون عالما من اكابر علماء الانجليز ندبوا خصيصاً لفحصها وهم في أشد درجات الانكار لها، فبحثوها بغير وسيط ماجور في مدى ثمانية عشر شهرا واتخذوا لتمحيصها ما امكن لعقولهم الراقية من الوسائل والتدابير ؟

ماذا يزيد الناس اكثر من هذا الضمان على صحة مشاهدة من المشاهدات ؟

ان هذه الخوارق الروحية هي المسئلة الوحيدة التي لا يقبل ان يأخذ بها آخذ الا بعد أن يراها بعيني رأسه. ولو رآها الناس اجمعون الا واحدا منهم لظل ذلك الواحد منكراً لها حتى يراها . وهذا التنويم المغناطيسي الذى كافح العلماء الجامدين مئة سنة ثم تغلب عليهم وصار يدرس اليوم في جامعات الطب الكبرى، لايزال في الناس من ينكره ولا يأبه به، فما قولك في الخوارق الروحية التي لا تعد عجائب التنويم المغناطيسي بجانبها شيئاً يذكر ؟

ألا إن هذا الجمود العلمي الذى يعتبره البعض من قوة العقل، ومن الألمعية هو شر ما مني به هذا الانسان المسكين، ولا ندرى متى يخلص من كابوسه ليسرع في ترقيه الى الغايات البعيدة التي اعد لبلوغها، مدفوعا بالقوى العلوية التي متع بها دون غيره من الكائنات الحية .

نحن نكره بل نرى من الشؤم عليه ان يجري وراء كل ناعق بخرافة، ولسنا نرضى به ان ينكر ما يؤتى به حاصلا على كل الضمانات العلمية مما بحث على أدق الاساليب التجريبية ومرت عليه أشد الاصول التمحيصية .

قال العلامة (جان فينو) مدير المجلة العالمية في بحث جليل نشره في مجلته في ثلاثة أجزاء متوالية من دسمبر سنة ١٩٢٠ الى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ تحت عنوان (فتح على الروح خالدة) مشيرا الى هذه المسائل الروحية قال :

« يكفي الانسان ان يلقي نظرة على الشواهد التي لا يحصى لها عدد مما قدمه من

بعنايات مضاعفة ، ومراقبات شديدة للغاية ونشر في مطبوعات الجمعية الجدلية بلوندرة ليحني رأسه اجلالا لهذه الحقيقة الجديدة » .

وقال بعد ذلك :

« فالمنكرون حتى أعصاهم قيادا لا يستطيعون ان ينكروا وهم مخلصون في انكارهم انه توجد قوة نفسية تحدث ظواهر خارقة للعادة يزداد عددها يوما بعد يوم ولا يمكن النزاع في صحتها » انتهى .

وقال المستر (مكايب) في مقالته :

« أشرت آنفا الى ماقاله مناظري من انه يستطيع ان يذكر أسماء خمسين من الاساتذة في معاهد العلم الكبرى الذين فحصوا مظاهر مناجاة الارواح واثبتوها . فاني أطلب منه انه يذكر لي عشرة فقط »

نقول ان المستر مكايب عرض نفسه لخصمه تعريضا غريبا فان مناظره لا يستطيع ان يذكر له اسماء خمسين فقط بل خمس مئة واني احيل القارىء الى مانقلته عن رجال العلم في هذا الكتاب لينظر اين يقع تحدى المستر مكايب في هذا الباب .

ثم أخذ المستر مكايب يناقش في حادثة طيران الوسيط (هوم) التى شهدها الارل كروفورد واللورد ادر والكبتن ونحاولا اثبات ان الوسيط المذكور خدع هؤلاء الثلاثة الرجال رغما عن تأكيدهم ذلك وعن قول احدهم وهو الكبتن ون : (اني احلف ان هوم خرج من شباك ودخل من آخر) ، وأخذ يعيب على الدكتور كونان دويل قوله ان صحة هذه الحادثة اثبت من صحة الحوادث القديمة التى اتفق الناس كلهم على تصديقها .

وانا أعيب على المستر مكايب جرأته على رمي ثلاثة شهود في درجة الرجال الذين ذكرناهم بالانخداع في حادثة عيانية من هذا القبيل لان هذا الضرب من الازراء بعقول الناس وخصوصا من الطبقة المذكورة يطمس اعلام كل حقيقة ، ولا أدرى وهو كاتب ديني كيف يجمع بين هذا الافراط في التشكك وبين ايمانه بالتاريخ الديني الذى يكتب فيه .

ثم اخذ المستر مكايب يطعن في ادلة كتابي السير اوليفر لودج والدكتور ارثر كونان دويل وهو يعلم انهما ليسا بالركنين اللذين تأسس عليهما المذهب الروحاني. ولو كان هذا المذهب قائما على كتابين لفردين لما قامت له قائمة في العالم، ولحكم عليهما بالجنون المطبق في هذا العصر الحافل باعلام الماديين .

والحقيقة ان هذا المذهب قام على تجارب اجراها مئات من العلماء وألوف من الاذكياء في مدى جيلين متواليين، وكان من اهم اركانه (اولا) قرار لجنة الجمعية الجدلية الانجليزية التي تألفت من ثلاثين عالما طبيعيا ودرست هذه الخوارق الروحية في مدى ثمانية عشر شهرا وبدون وسيط مأجور في بيوت اعضائها. و (ثانيا) مجاميع جمعية المباحث النفسية التي الفها علماء انجلترة من منذ سنة ١٨٨٢ ولا تزال قائمة للآن وقد جمعت من تجاربها اكثر من اربعين مجلدا ليس فيها حادثة واحدة غير ممحصة على الاسلوب العلمي الدقيق

على هذه الاركان القوية قام المذهب الروحاني وانتشر هذا الانتشار البعيد المدى، فهل يمكن ان تهدم كل هذه المجهودات العملية التجريبية مقالات كلامية، وتشكيكات لفظية من اناس اراحوا انفسهم من حيث تعب العاملون ؟ فلو كان العالم يتبع في سيره أمثال هؤلاء الذين جعلوا حظهم من العلم التشكيك في كل جديد، ورمي العاملين عليه بالبله والانخداع، لما مدت الخطوط الحديدية، ولا الاسلاك البحرية، ولا اكتشفت الكهربائية، ولا عد الاوكسيجين في المواد الكيماوية، ولا عرفت الدورة الدموية، الى ماالية مما لا يمكن حصره . ولكن الانسانية تصغى قليلا لهؤلاء المشككين، ثم تلفظهم الى عالم الجامدين، وتجري خلف العاملين الى ما اعد لها من الغايات البعيدة.

. . .

هنا يجب علينا ان نلفت نظر القارئين الى امر جدير بالتنبه اليه وهو :

ان الباحثين في الخوارق الروحية قسمان : قسم السواد الاعظم، وقسم العلماء. فاما الاولون فيطيرون وراء كل ظاهرة روحية وينسبونها الى ارواح الموتى فيدعون انهم

خاطبوا روح ارسطاليس وابن رشد وشوبنهور ونابليون، ويعنون بنقل هذا الكلام ونشره، وقد اتخذوا هذه المباحث دينا لهم لا يفترق عن الاديان الاخرى في شيء.

واما قسم العلماء فقد بحثوا في هذه الخوارق عقب شيوعها وانتشار القول بها ولهم غرض واحد هو التدليل ببراهين محسوسة على انها قائمة على الغش والتدليس، لانهم كانوا كلهم ماديين لا يتخيلون وجود عالم وراء المادة، ولا قوة غير قوتها الذاتية. فتبين لهم بعد إنعام النظر في تلك الخوارق أنها لا تمال بالخداع، ورأوا أنهم حيال قوى مجهولة يجب الاعتداد بها، والعناية بكشف اللثام عن وجهها.

فأخذوا يعللونها بالعلل المادية في حيز النواميس المعروفة مع الانعام في دراستها، فكانت تستعصي على تلك العلل، وتظهر لهم وجوه اخرى لا يمكن تعليلها بقوى المادة ولا بقوة الانسان الطبيعية، ولا بالقوة التي سموها بالنفسية، وقد درسنا هذه التعليلات في الفصل الخاص بها من هذا الكتاب وبينا وجوه استعصاء هذه الخوارق عليها، حتى انتهى بهم الامر الي القول بأنها تتعلق بقوة عاقلة غير قوي الحاضرين، لها قدرة علي التكلم باللغات التي يجهلها جميع المجربين، وعلى الاتيان بما يعجزون عنه من الاعمال منفردين ومجتمعين، وعلى التجسد والظهور امام عينهم في مثل اجساد الآدميين مدعية بانها ارواح المتوفين.

فوجد اولئك الباحثون أنفسهم حيال امر محسوس لا يمكن الشك فيه تدركه مشاعرهم وتسجله آلاتهم وتتأثر بمشهده حتى الحيوانات التي تكون معهم فرأوا أن تكذيب المحسوسات ضرب من الجنون فسلموا بوجود عالم روحاني بعيد الغور فيه، والمحية حياة عقلية عالية وقادرة علي مالا يقدرعليه الاحياء المتجسدون.

ولكنهم رغما عن تأكيد تلك الكائنات العاقلة بانها ارواح الموتي واقامتها ادلة كثيرة على صحة ماتقول، كتكلمها بلهجتهم، واستخدامها تعبيراتهم، وكتابتها بخطوطهم وتوقيعها بتوقيعاتهم، لم تسمح لهم حيطتهم بالتسليم لها بما تدعيه لان كل هذه الامور مرجحات لا ادلة علمية مطلقة، فتوقف جمهورهم عن القول بانها ارواح الموتي، وذهب كثير منهم الى القول بانها روح الوسيط نفسه (وفي هذا ربح نسبي للمذهب الروحاني

لان هؤلاء ما كانوا يقولون بوجود روح على الاطلاق) ومال غيرهم الى القول بأنها ارواح مجردة موجودة في العالم ولكنها غير ارواح الآدميين ، وسلم جماعة منهم على رأسهم العلامة (الفرد روسل ولاس) الطبيعي الانجليزي الكبير بأنها ارواح المتوفين . واستدل على ذلك بالمرجحات التي ذكرناها وزاد عليها قوله انها لو كانت من عالم غير العالم الانساني لذكرت ذلك ولو لبعض الباحثين ، ولما أجمعت في كل بلد على القول بأنها ارواح الميتين ،

فاذ ذكرنا نحن الاسبرتسم او المذهب الروحاني او المباحث النفسية فلا نعني الا المباحث العلمية المجردة عن كل صبغة مذهبية ، والموافقة للخطة العلمية الرسمية ، أي اننا لا نجزم بأنها أرواح الموتي ، بل نرجح ذلك فقط ، ولا نعبأ بأي تجربة لا تأتينا على الاسلوب العلمي الدقيق .

هذا هو موقفنا وموقف كل متثبت ، فلسنا نذهب بادعاء الالهية الي ابعد ما يؤدي اليه الجود ، كما يفعل المتحذلقون ، ولا ننزل من درجات الغفلة الي حضيض نأخذ فيه بكل ما يقال من هذا القبيل كما يفعل الساذجون .

ومع هذا التوقف والتثبت فاننا نعلن على رؤس الاشهاد بأن العلم التجربي قد اكتشف العالم الروحاني بأسلوبه العملي المحسوس ، وشرع يدرسه على طريقته في درس عالم المادة ، وهذا عهد للبشرية لم يكن يخطر ببال اجرأ الخياليين ، انتقلت به من دور الايمان بالغيب الي دور الايمان عن مشاهدة ، ولا تسل عما سيبتني على ذلك من القضاء على مابقي في الانسان من الميول الحيوانية ، والرعونات البهيمية ، وما سيقوم عليه من الاصول الخلقية ، والكمالات الروحية في مستقبل ليس ببعيد ، فاذا كان الانسان كلف بالبحث عن السعادة من يوم وجوده على ظهر الارض فأعجزه وجد انها في شيء من اشيائها ، فسوف يجدها في هذا الفتح العظيم ، وسوف يجد فيه ما يحقرها في نظره إزاء سعادة اخري ما كان يتخيلها في عهده القديم .

مقالة المقتطف

(نشر المقتطف في جزئه الصادر في دسمبر سنة ١٩١٨ ما يأتي تحت عنوان :)

البحث الفلسفي الحديث

من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد ان اصحابها مالوا عن الطريقة العلمية الى الطريقة الروحية . والفلسفة تشمل مواضيع مختلفة تتفق كلها في صعوبة ادراكها فمنها ما تحققت قضاياه حتى صار يحق له ان يحسب بين العلوم الطبيعية، ومنها ما ابانت المعارف الحديثة انه من باب الاوهام والخرافات. ومما يدعو الى الاسف ان كثر اهتمام الناس كان موجها في السنوات الاخيرة الى هذا القسم من الفلسفة كما يظهر مما نشرناه من اقوال السر اوليفر لدج واضرابه من المعتقدين مناجاة الارواح والتلبثي ما اشبه .

ولقد كانت الفلسفة دائما في عراك بين الذين يحكمون العقل والذين يحكمون العواطف . فان الانسان مفطور شديد الاميال الرغائب فاذا لم يثقف عقله التثقيف الكافي حسب رغائبه حقائق . يرغب في أمر فيعتقد انه حقيقة مقررة حتى اذا ابنت له خطأه رماك بالكفر او بسوء العقيدة او قال انك مادى لاتؤمن بشيء روحي . ولقد اثارت هذه الحرب رغبات شديدة لا يلام من ظهرت في نفسه وعلكتها . وهل تلام من كان ابنها فلذة كبدها في ميادين القتال اذا رغبت في التكلم معه او في مناجاة روحه وقلما تعلم انه اسلم الروح . لاتلام ولكن رغبتها هذه تقوى عواطفها فتتغلب على احكام عقلها . اما العلم فغرضه اظهار الحقائق كما هي وعلى رجال العلم ان يرشدوا العامة حتى لا يصدقوا شيئا لمجرد رغبتهم فيه او لانه يطابق اميالهم . لكن المعتقدين بمناجاة الارواح غرضهم الاول اهمال العقل وارضاء العواطف

«من الكتب الحديثة التي ألفت في هذا الموضوع كتاب للدكتور مرسير خطأ فيه السر اوليفر لدج وبين انه على ضلال مبين على ماقاله هيو اليوت في مجلة «تقدم العلم» الانكليزية . ولم نطلع على هذا الكتاب حتى الآن ولكننا نرجح ان تخطئة المؤلف للسر اوليفر لدج جاءت مطابقة لتخطئتنا له في كل ما نشره في المواضيع النفسية سواء كان في كتابه خلود الانسان او كتابه عن ابنه رعند .

والدكتور مرسير من اشهر اطباء الامراض العقلية في هذا العصر وهو طبيب بيمارستان تشرنيج كروس ببلاد الانكليز وقد قال قولا يثقل وقعه على المعتقدين بمناجاة الارواح والتليبثي وهو ان الاشتغال بهما يؤدي الى اختلال العقل ويمرض اصحابه بالجنون . واستشهد لتأييد قوله بالدكتور روبرتسن مدير البيمارستان الملكي بادنبرج . وهذا يؤيد ما قلناه في مقتطف مارس سنة ١٩٠٦ «وهو» ان الذين يصدقون مناجاة الارواح ويمارسونها تضعف قواهم العصبية رويداً رويداً وينتهي أمرهم الى الجنون» . والظاهر ان الذين فيهم ضعف خلقي ميالون الى تصديق السبرتزم ومناجاة الارواح وما كان من هذا القبيل

ومن الكتب الفلسفية الحديثة رسالة في الخلود لجماعة من الكتاب قال فيها هيواليوت انها تدل على ان كتابها يعتقدون بان الحجاب الفاصل بين الدنيا والاخرى يمكن هتكه وان آراءهم مطابقة لرغائبهم . ولكنه رجح ان القارىء الذي يقرأ رسائلهم وهو غير معتقد اعتقادهم لا يقنعه ما فيها من الادلة . والف آخر كتابا في التليبثي صحيحها وفاسدها اظهر فيه اسباب الفاسد منها اما الصحيح فلم يظهر اسباب صحته ، ولعله رآه صحيحا لانه يميل لتصديق الاوهام فلم يبحث عن اسبابه البحث الكافي .

«هذا ونعيد ماذكرناه مراراً وهو ان الذين يدعون صحة مناجاة الارواح والتليبثي ويعملون بهما لا يلزم إن يكونوا كلهم خادعين ولا ان يكونوا مخدوعين من غيرهم ، بل يغلب ان يكون كثير منهم مخدوعين من تلقاء انفسهم ، اى ان اميالهم

تتسلط على عقولهم في هذه المسائل مع انهم في غيرها يكونون من اذكي الناس عقلا عقلا واكثرهم بحثا وتدقيقا. ومن هذا القبيل السر اوليفرلدج . ونحن نعرف رجلا كان امهر الناس في العلوم الرياضية وحل غوامضها وتطبيقها ولكنه كان مع ذلك يصدق من الاوهام مالا يصدقه العامي

(نشر المقتطف هذه الكلمة فرددنا عليها في المقتطف نفسه بهذه المقالة الآتية)

المباحث النفسية

والفلسفة المادية

قرأت في مقتطف الشهر الماضي (دسمبر سنة ١٩١٨) مقالا تحت عنوان (البحث الفلسفي الحديث) فرأيت ان ابدى ملاحظات عنت لي فيه رجاء تجلية الحقائق العلمية التي تنشدونها.

جاء في ذلك الفصل ان ماينشر الآن من الكتب والمقالات الفلسفية قد ميل به عن الطريقة (العلمية) الى الطريقة (الروحية) وان اكثر اهتمام مناس كان موجها في السنوات الاخيرة الى هذا القسم من الفلسفة.

هذا كلام صريح بان الميل العام اخذ يتجه غير الوجهة المادية في المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل في تاريخ الفلسفة الاوروبية لايصح ان يهمل امره او ان يعلل تعليلا بنظرة عجلي ، فان أوروبا التى بلغت اشدها في المباحث المادية وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لاتظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطا ولكن لا بد لذلك من علل جذيرة بانعام النظر .

ثم جاء في تلك المقالة ان « المعتقدين بمناجاة الارواح غرضهم الاول اهمال العقل وارضاء العواطف »

وهو كلام يدل بصراحة علي ان الباحثين في مسألة الروح مخرقون مجافون الاسلوب العلمي الدقيق في ابحاثهم ولا يتوخون الا مشايعة ميولهم.

ثم جاء في ذلك المقال ان الذين يصدقون مناجاة الارواح تضعف قواهم العصبية رويداً رويداً وينتهي أمرهم الى الجنون.

ثم ذكر الكاتب لتلك المجالة ان الباحثين في هذه المسائل لا يلزم ان يكونوا كلهم خادعين أومخدوعين، ولكن يغلب ان يكون كثير منهم مخدوعين من تلقاء أنفسهم، أي ان ميولهم تتسلط على عقولهم مع انهم في غيرها يكونون من اذكى الناس عقلا، واكثرهم بحثا وتدقيقا، ومن هذا القبيل السر اوليفر لدج. ثم قال ونحن نعرف رجلا كان من امهر الناس في العلوم الرياضية وحل غوامضها وتطبيقها ولكنه كان مع ذلك يصدق من الاوهام ما لا يصدقه العامي.

وهذا القول صريح الدلالة في ان جميع الباحثين في هذه المسألة لا يوثق باقوالهم وان السر او ليفر لدج وذلك الرياضي الجليل يكادان يكونان العالمين الوحيدين الذين يشاركان دهماء الروحيين في وساوسهم.

وبما اني من المتتبعين لحركة المباحث النفسية في اوربا وامريكا وقرأت اجل ما كتب فيها بلغة الباحثين أنفسهم، رأيت أن اوافي المقتطف ببحث وجيز في هذا الموضوع تجلية للحقيقة واعدا بالعود الي مثله كلما سنحت لي فرصة. واني ماوقفت سنين كثيرة من حياتي العلمية لاستقصاء هذه المباحث الا لانها حادث جلل في تاريخ العلم العصري سيكون من اثره تعديل مزاج الفلسفة العصرية وتكميل إنماء المدركات البشرية علي المادة والروح معا

كيف نشأت المباحث النفسية

حدث في سنة ١٨٤٦ في قرية هيد سفيل من ولاية نيويورك بأمريكا ان اسرة رجل اسمه جون فوكس ازعجتها طارقات كانت تحدث في البيت الذي تسكنه فتجارأت مدام فوكس ذات يوم وسألت ذلك الفاعل المستتر قائلة هل

انت روح؟ واتفقت معه على ان يكون علامة الاثبات طرقتين وعلامة النفي طرقة واحدة . فاجابها بطرقتين. ثم مازالت تسأله وهو يجيب بواسطة الطرق حتي علمت منهُ انهُ روح رجل كان ساكنا بهذا البيت قتله جارهُ ودفنهُ فيه ثم سلبه ماله ولم تهتد الحكومة اليه . فاسرعت مدام فوكس باخبار البوليس والنيابة فحضر رجالها واخذوا كل حيطة وتسمعوا الطرقات علي طريقة صاحبة البيت وفهموا منها مافهمته .فعمدوا الى الحفر في المكان الذى دلت عليه الروح فوجدوا جثة القتيل و كان من اثر ذلك اهتداؤهم الي القاتل.

هدأت روح القتيل ولكنها ظلت تزور بنتي المستر جون فوكس حتى انستا بها وحضرت ارواح اخرى ادعت انها ارواح موتي آخرين، وتحسنت طريقة التفاهم بينهما وبين هذه الكائنات،فجاءت على هذه الطريقة وهي:ان تقرأواحدةمنهماالحروف الهجائية فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابته طرقة فتكتب الاخري ذلك الحرف ثم تعيد الاولى سرد الحروف فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابته طرقة ثانية وهلمّ جرّا . ثم تجمع تلك الحروف وتقرأ.

فجاءت تلك الروح ذات يوم ورجت الاختين ان تعلنا بانهما مستعدتان لاشهاد الناس خوارق تثبت لهم وجود الارواح فى أكبر مكان للمحاضرات في نيويورك. فأبت البنتان ذلك اشد اباء خشية من سوء القالة واتهامهما بالشعوذة . فاجابتهما الروح بانها تصر علي ذلك لانها تريد ان تنتهز هذه الفرصة لتثبت للناس صحة خلود النفس،قائلة انها ما تجشمت الاستئناس بهما الي هذا الحد الا لهذه الغاية . فاصرت البنتان علي الاباء والامتناع . فانذرتهما الروح بانهما ان بقيتا على اصرارهما ذهبت ولم تعد . فلما استمر اصرارهما ذهبت كما قالت،ولم تعد البنتان تسمعان شيئا. فحدث لهما من جراء ذلك كدر عظيم لانهما كانتا قد انستا بتلك الروح وجعلتا التكلم معها من اكبر المسليات لهما. فلم يسعهما اخيراً الا القبول ولكنهما شرطتا ان يكون العمل في الصالونات الكبيرة لبعض البيوت ثم تتدرجان من ذلك الي قاعة المحاضرات الكبرى . فأخذ البنتان تحضران في بعض تلك الصالونات امام جمهور من العلماء

والمفكرين فتحدث خوارق عديدة رغماً عن كل ما يتخذ من التحوطات . ثم اعادتا التحضير في قاعة المحاضرات الكبرى فشهد هذه الخوارق جم غفير من الناس وكثر التحدث بها في كل ناد

فكان القاضي ادموندس رئيس مجلس الشيوخ بأمريكا من اسرع الناس الى بحث هذه الخوارق، فاعتقد صحتها وكتب فيها بحثاً مستفيضاً ، فحملت عليه الجرائد حملات عنيفة، ففضل ان يستقيل ويخدم الحقيقة على ان يبقى في وظيفته مقيداً بتقاليدها فكان من اكبر العاملين على نشر هذه المباحث .

ثم تلاهُ الاستاذ (مابس) معلم علم الكيمياء بالمجمع العلمي فانتهي امره بتصديقها ونشر مباحثه على رؤوس الاشهاد.

لحذا حذوه العلامة روبيرت هير واطال البحث والتنقيب فظهر له صدق نظر صاحبه فوضع كتاباً جليلاً اسماهُ (الابحاث التجريبية على الظواهر النفسية).

فكان من اثر هذه الكتابات فيه ان نشبت حرب قلمية بين الباحثين فلم يبق عالم ولا كاتب في الولايات المتحدة الاخاض غمارها، وانتقلت الحركة الى انجلترا فانتدب العلامة الكيماوى الكبير وليم كروكس لبحثها مع بعض الوسطاء الانجليز فاتضح له انهُ حيال قوى كبيرة من قوى النفس كانت مجهولة، فكتب في ذلك كتاباً دعاه (مباحث على الظواهر النفسية قال) فيه :

« بما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بأنفسهم، اما انا فاسرد بغاية الصراحة مارأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » .

ولما تولى هذا العالم رياسة الجمعية الملكية اشار في خطابة الرياسة الى المسائل النفسية وقال انه مضى عليه في بحثها ٣٥ سنة وان معارفه قد زادت فيها وانه سينشر عنها كتاباً جديداً وقد نقل المقتطف عنه هذه الخطبة .

وكان من السابقين الي بحث هذه المسألة العلامة الكبير الفرد روسل والاس

مكتشف مذهب النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد فوضع فيها كتابين جليلين يسمى احدهما (خوارق العصر الحاضر) ويدعي الثاني (الدفاع عن الاسبرتزم) وقد قال في الاول مانصه :

« لقد كنت ملحدا بحتا مقتنعا بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن في ذهني محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها، ولكني رأيت ان المشاهدات الحسية لاتغالب ، فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا على صورة لايمكن تعليلها بوسيلة أخرى ».

وممن عني ببحثها من كبار العلماء العلامة الايطالي الكبير (سيزار لومبروزو) مكتشف علم الجرائم فانه بعد ان رمى المصدقين بها بالجنون، وكتب عنهم فصولا انتقادية في مؤلفاته، عاد فبحث هذه الخوارق مع العلامتين كاميل فلا مريون الفلكي المشهور والاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ومدير الجريدة العلمية والمدرس بجامعة الطب الباريزية وألف في ذلك كتابا قال في مقدمته :

« لم يكن أحد أشد مني عداء للاسبرتزم بحكم تربيتي العلمية وميولي النفسية ، وكنت أعتبر من البديهيات العلمية ان كل قوة ليست الا خاصة من الخواص المادية، وان كل فكر وظيفة من الوظائف الحية . وكنت أهزأ دائما من الاخونة المتكلمة . ولكن غرامي باظهار الحقيقة وتجلية الحوادث المشاهدة قد تغلب على عقيدتي العلمية.

ومن كبار العلماء الذين درسوا هذه المسألة درسا مدققا الاستاذ هودسون والاستاذ ميرس المدرسان بجامعة كمبردج، وستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد والسير جون كوكس المشترع المشهور، والاستاذ باركس الجيولوجي، والمستر غلادستون والمستر بالفور وزير الخارجية الانجليزية الحاضرة، والعلماء سيدجويج ربودمور وباريت وغارنتي وكلهم من الانجليز.

أما من العلماء الفرنسيين فنذكر شارل ريشيه وكاميل فلاماريون المتقدم ذكرهما والدكتورين ماكسويل وبيير جانيه، والرياضي الكبير مدير مدرسة الهندسة الفرنسية البير دوروشاس والدكتور بارادوك.

ومن الالمان العلماء زولنر الفلكي وفيشنر وويبر والتريس.

ومن الامريكان شارل وليم اليوت رئيس جامعة هارفارد ووليم جيمس استاذ علم النفس بجامعة هارفارد وهيزلوب استاذ العلوم العقلية بجامعة كولومبيا ووليم ليوبولد استاذ الفلسفة بجامعة بنسلفانيا.

كل ماذكرناهم من أقطاب العلم الرسمي وكانوا ماديين لايعتقدون بشيء غير المادة، وكتبهم بين ايدينا، ولوشئنا لملأنا من أسماء أمثالهم صحفا عديدة وانما اكتفينا بهذا القدر للادلال علي عظام خطر هذه المباحث الجديدة. ولم يحصل لواحد منهم جنون وقد مضى علي بعضهم في البحث اكثر من نصف قرن، وجميعهم شاغلون لمناصبهم العالية من مجتمعاتهم.

قال الفيلسوف جان فينو مدير مجلة المجلات الفرنسية في مجلته (عند ذكر هذه المباحث في مجلد سنة ١٨٩٥ وبعد سرده عدداً من العلماء المشتغلين بها):

« لايصح ان يفترض ان هؤلاء الرجال يستخدمون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي حطت كثيرا من العظمة الروحية. كما انه من الصعب ان نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية هي اشهر من ان تذكر ».

وقال الاستاذ (بينيه) في كتابه (تحولات الشخصية) في صفحة (٢٩٨) بعد ذكره بعض التجارب الروحية:

« وهذه البراهين كافية لان يتمكن مذهب كالاسبرتزم من ادهاش الناس اجمعين وكسب الوف مؤلفة من المصدقين ».

وقال العلامة البسيكولوجي الشهير (بير جانيه) في كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة (٣٧٦) وما بعدها:

« المذهب الذي اوجزنا الكلام عنه هنا يستحق درسا مدققا ومناقشة اصولية .

وان التشكك والازدراء اللذين يحملان على نكران مالا يفهم وعلى ترداد كلمتي غش وتدليس دائما وفي كل مكان، ليس لهما مكان هنا ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيواني . فان الحركة التي دفعت الى تأسيس خمسين جريدة في اوروبا وحملت على اعتقادها عدداً عظيما من الناس لا يصح ان تعتبر قليلة القيمة » .

وقال الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي والمدرس بالجامعة الطبية بباريز في مجموعة العلوم النفسية لسنة (١٨٩٣) صفحة ٣٤٩ :

« لا يمكن ان مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين في انجلترا وامريكا وفرنسا والمانيا وايطاليا يقعون تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل . فان كل ماوجه اليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه وتناقشوا عليه ، ولم يزدهم احد علماء ، وكلهم عرضوا بمسألة المصادفات الممكنة والتدليس وجدوا انهم قد فكروا فيها قبل ان يعارضوا بها حتى اني لا استطيع ان اتوهم ان اعمالهم كانت عقيمة، اوانهم قد تأملوا وجربوا في اوهام خداعة » .

وقال الكاتب الفرنسي المشهور (جبريل دولان) في كتابه (مباحث على الوساطة) :

« اننا نعتقد انه متي اكد رجال من درجة روبيرت هار وما بس والقاضي ادمون بأمريكا وكروكس وولاس ولودج بانجلترا واكزاكوف وبوترلوف في روسيا وفيشنر وزولنر في المانيا وجيبييه بفرنسا — فاذا متي اكد رجال من هذه الدرجة ومعهم عدة الوف من المجربين انهم شاهدوا الحوادث المذكورة آنفا وانهم راقبوها بعناية فاننا نعتقد ان لهذه المشاهدات وجوداً حقيقيا وانها دخلت من ذلك الحين الي المجال العلمي » .

(ايهمل الباحثون فى هذه المسئلة العقل)
(ايرضوا العواطف؟)

اكثر العلماء الذين بحثوا في هذه المسئلة لم يدفعهم اليها الا حب فضح استار المشعوذين فاستخدموا لذلك ادق الاساليب العلمية، والآلات الكشفية، فانتهي

امرهم باعتقاد سلامتها من كل تدليس .

ولما شاع ذكر هـذه المباحث في انجلترا ثارت لها الخـواطر وخشي المتنورون من عودة دولة الاوهام البائدة الي العـلم والفلسفة فرفع عدة الوف منهم طلباً الى الجمعية العلمية لتبدي للامة رأيها في هذه المسألة. فاهتمت تلك الجمعية بالامر وعينت لفحصها لجنة مؤلفة من ثلاثين عالماً منهم روسل ولاس ووليم كروكس وتندل والورد افبري وغيرهم ، فقامت هذه اللجنة بما عهد اليها في ثمانية عشر شهراً وعقدت للبحث والتجربة اربعين جلسة، ورفعت عن ذلك تقريرا مطولا وقع في مجـلد ضخم ترجم الى اكثر اللغات جاء منه ما يأتي :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالاعضاء لاجل نفي كل احتمال في اعـداد آلات لاحداث الظواهر او اى وسيلة من اى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة والذين يأخذون اجراً على عملهم هذا ، فقد كان واسطتنا احد اعضاء اللجنة، وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على صفة النزاهة المطلقة، وليس له من غرض مالي يرمى اليه ولا أي مصلحة في غش اللجنة.

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيـله من التحوطات عملت بصـبر وثبات . وقد دبرت هـذه التجارب في احوال كثـيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش اوتوهم .

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو اربعة اخماس اعضاء اللجنة تجاربهم وهم في اشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر وكانوا مقتنعين اشد اقتناع بانها كانت أما نتيجـة التدليس او التوهم او أنها تحدث بحركة غير عادية للعضلات. ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون البتة عن فروضهم هذه الا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا يمكن مقاومته في شروط

تنفى كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة فاقتنعوا رغماً عنهم بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لاغبار عليها . الخ الخ »

هذا بعض ماورد في نتيجة ذلك التقرير والقارىء يرى ان خوض ثلاثين عالما انجليزيا من اعضاء الجمعية الملكية في بحث هذه المشاهدات لم يكن الدافع اليه اهمال العقل وارضاء العواطف ولكن تهدئة ثورة الخواطر . وهذا التقرير الذى هو حادث جلل في تاريخ العلم العصرى يعتبر فاتحة عهد جديد لتكميل الفلسفة وتحليتها بما تجردت عنه من القسم الروحي تحت تأثير الفلسفة المادية .

ومما يجب التنبيه اليه ان جل الذين يكذبون بهذه المباحث لم يقرؤوا فيها كتابا واحدا ولم يلموا بتاريخها وأدوارها الي حد يسمح لهم بالحكم عليها . ومنهم من عمل فيها تجارب ناقصة أو وقع تحت طائلة بعض المدلسين وكثير ماهم في كل مجال من مجالات العلم والعمل . فهبوا يصخبون أن جميع التجارب تدليس في تدليس .

لو كان الذين يتولون هذه الحركة بعض العامة أو جماعة من كتاب الاقاصيص لما اعرناها أقل التفات ولكن العاملين فيها هم أعلم علماء الارض وما كنا لنعبأ بهم أيضا لو كان عددهم محصورا في عقد أو عقدين وكنا قلنا كما يجوز الانخداع على واحد يجوز على عشرة أو عشرين ولكن عددهم قد تجاوز حد الاحصاء فهم يعدون بالالوف ومنتشرون في كل بلد متمدن وكتبهم بين أيدينا مفصلة تجاربهم كل التفصيل مما لا سبيل الى الزراية عليه .

ثم لماذا يستنكر البعض امر هذه المباحث وهل الغرض منها الا اثبات شيء أجمع العالم على القول به قديما وحديثا وهو وجود الروح وخلودها بعد الموت ؟

نعم كانت الفلسفة المادية قد تشككت في هذه المسألة وعدتها من بقايا الخرافات السابقة ولكن ليس في الارض فيلسوف يقول بأن المذهب المادى قد

وصل الى الدرجة التي ليس وراءها غاية، بل هو اليوم وقد انهدم ركن الجوهر الفرد، وثبت تحلل المادة واستحالتها الى قوة ، قد فقد اساسه الذى كان يعتمد عليه .

لقد حاربت الفلسفة المادية التنويم المغناطيسى مئة سنة وعدت المشتغلين به ممخرقين، ثم اضطرت لاعتباره فرعا من العلوم الرسمية . وهذه الفلسفة عينها اليوم تحارب المباحث النفسية بنفس السلاح الذى حاربت به التنويم المغناطيسي ولكن هيهات فقد خرج الامر من يديها بعد مافقدت سلطانها علي العقول بثبوت تحلل المادة وبعد ماشهد الوف من العلماء المحققين بحقية المشاهدات النفسية . فالاولي باشياع تلك الفلسفة العتيقة أن يتلافوا الامر ويوفقوا اصولها على مافتح الله به على الناس من المباحث الجديدة، لان من اخص صفات العلم العصرى متابعة طريقه في التقدم لا الجمود علي اصول قديمة ثبت بالامتحان انها ضيقة حرجة لا تجمع بين اطراف الحركة العلمية الحاضرة

***

هذا وقد تكونت في لوندره منذ سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم جمعية المباحث النفسية جمعت بين اعضائها خيرة علماء الانجليز والفرنسيين والامريكان، وكان الغرض من تأسيسها ان تكون وصلة بين العلم الرسمى وهذه المباحث ، فكان من تأثير هذه الجمعية صبغ هذه المسئلة بصبغة علمية بحتة لتسهيل دخولها الى العلم الرسمى . وسنأتي على اسماء اعضائها ونتيجة تجاربهم في الجزء المقبل من المقتطف ان شاء الله .



جمعية المباحث النفسية

في اوروبا وامريكا

(نشرها المقتطف في جزئه الصادر في فبراير سنة ١٩١٨ ما يأتي)

وعدنا في مقالنا السابق هنا ان نأتي على تفصيل عن الجمعية النفسية التي تألفت في اوروبا وامريكا للبحث عن معالم العالم الروحاني فنوفي اليوم بما وعدنا. واحسن اسلوب نتبعه في ايراد مانريده هو ان نأتي به بلسان العلماء الاوروبيين فنترجم ما كتبوه في مؤلفاتهم عنها.

قال الاستاذ (وليم جيمس) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ومدرس علم النفس بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة في كتابه (ارادة الاعتقاد) صفحة ٣١٣ وما بعدها .

ان جمعية المباحث النفسية التي يمتد عملها في انجلترة وأمريكا قد سمحت بان يلتقي العالمان العلمي والروحاني في مجال واحد . واني اعتبر ان هذه الجمعية مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير في ترتيب المعارف الانسانية. فلهذا استحسن ان افضي الى القارىء بنتائج اعمالها بايجاز فاقول:

« اذا صدقنا الجرائد واوهام الصالونات خيل لنا ان الضعف العقلي وسرعة التصديق هما الرباط المعنوي الجامع بين اعضاء هذه الجمعية، وان حب العجائب هو الروح المحرك لها . ومع هذا فيكفي ان نلقي نظرة واحدة على اعضائها لدحض هذه التهمة . فان رئيس هذه الجمعية الاستاذ سدجوك *Sidgwick* المعروف بانه اشد الناس شكيمة في النقد واعصاهم قياداً في الشك بجميع البلاد الانجليزية ووكيلاها المستر ارثر بلفور والاستاذ ج .ب. انجلي سكرتير المجمع الشمسوني :

ويمكن التنويه من اعضائها العاملين بالاستاذ ريشيه الفزيولوجي الفرنسي الخطير . وتشمل قائمة اعضائها رجالا كثيرين آخرين كفاءتهم العلمية اشهر من نار على علم . فاذا طلب الى ان اعين جريدة علمية تكون مصادر اغلاطها ممحصة بادق الاساليب، فاني انوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فان الفصول الفزيولوجية التي تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم لا تبلغ في دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة . حتى ان صرامة الاساليب الكشافة التي طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء كانت بحيث توجد اختلاف الآراء في باطن الجمعية نفسها ».

وقال البحاثة الفرنسي المهندس جبرييل دولان في كتابه الوساطة صفحة ٧ :

«قد تأسست في انجلترة منذ سنة ١٨٨٢ جمعية المباحث النفسية فجمعت بين اعضائها رجالا من اعيان العلم يعتبرون في الطبقة الاولى، مثل الطبيعي العظيم وليم كروكس والمؤرخ الطبيعي المشهور الفردرسل ولس واوليفر لودج ، وهؤلاء الثلاثة من اعضاء الجمعية العلمية الملكية وكان منهم اساتذة وبسيكولوجيون (علماء بالنفس) وغيرهم فعملت مباحث مدققة في سنين طويلة اتخذت لها ادق التحوطات لتجنب أسباب الخطأ . ويجد الانسان في المجلدات الثلاثة والعشرين التي نشروها الى هذا اليوم مستندات عديدة خاصة بالتجارب والملاحظات المتقطعة والمحققة بعناية من أولئك الباحثين بحيث يمكن التأكيد اليوم بان الكشف والنقل العقلي والتلباثي (التأثير الروحي عن بعد) أصبحت من الظواهر الطبيعية ككل الظواهر التي لا تحدث باستمرار. فان الشفق القطبي والزوابع المغناطيسية وثوران البراكين وظهور المذنبات الخ ليست من الحوادث العادية ولا يمكن احداثها بالارادة، ولكن ندرتها النسبية لا يمكن ان تتخذ دليلا على عدم وجودها » انتهى

ونحن الآن يجمل بنا ان نأتي على اسماء اكثر اعضاء جمعية المباحث النفسية بدون الاطالة في وصف مزايا كل واحد منهم كما فعل الاستاذ وليم جيمس في كتابه

المتقدم ذكره فنقول :

منهم الاستاذ رسل واس مكتشف ناموس النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد بدون ان يطلع أحدهما علي مباحث الآخر ، والاستاذ هنري سدجويك المدرس بجامعة كمبردج . والاستاذ وليم كروكس الكيماوي الانجليزي الكبير مكتشف اشعاع المادة ومخترع مكشف كهربائي يعرف باسمه ، وآلات أخر للمباحث الكيماوية . والاستاذان الدكتور ميرس ورتشارد هودسون وكلاهما مدرسان في جامعة كمبردج لعلم النفس ، والاستاذ أوسكار بروننج من أشهر علماء الانجليز ، والاستاذ تشارلس اليوت نورتون مدرس بجامعة هارفارد بأمريكا والاستاذ وليم جيمس مدرس علم النفس بجامعة هارفرد أيضا والاستاذ وليم ر . ليوبولد مدرس علم النفس والفلسفة في جامعة بنسلفانيا بأمريكا ، والاستاذ جيمس هيزلوب مدرس العلوم العقلية بجامعة كولومبيا بأمريكا ، والاستاذ كاميل فلامريون الفلكي الفرنسي الاشهر والاستاذ شارل ريشيه الفزيولوجي الكبير والعضو بمجمع العلماء والمدرس بجامعة الطب بباريز ، ورجال آخرون بينهم عدد كبير من الاطباء المشهورين والحكماء المجربين نضرب عن ذكرهم خوف الاطالة . فاذا أراد القارئ الآن ان يعرف الاسلوب الذي جرى عليه هؤلاء القادة في مباحثهم والباعث الذي حداهم الي تجشم هذه المتاعب ، أتيناه بما يريد منقولا عن أولئك الباحثين أنفسهم .

قال العلامة الدكتور ميرس *mijers* المدرس بجامعة كمبردج وهو الذي يصفه الاستاذ وليم جيمس بأنه اكبر مجرب في انجلترا . قال في كتابه (الشخصية الانسانية) في صفحة ١١ وما بعدها :

« حوالي سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادي الذي أوغل حتي وصل الى سواحلنا وبلغ اوج سطوته علي العقول اجتمع ثلة من الاصحاب في كمبردج واجمعوا رأيا علي ان هذه المسائل العويصة المتنازع فيها يريد المباحث الروحية تستحق التفاتا وجهدا جديا أكثر مما عولجت بهما الي ذلك الحين . وكنت أري

انا ان محاولة جديرة بهذا الاهم لم تعمل الى ذالك الوقت لتبت فيما اذا كنا أهلا أو غير أهل للالمام بشيء يختص بالعالم غير المرئي (عالم ماوراء المادة)، وكنت مقتنعا بأنه لو أمكنت معرفة شيء من ذالك العالم على اسلوب يمكن العلم ان يقبله ويحفظه، فلا يكون ذالك لا بالتنقيب في الاساطير القديمة، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة، وبتطبيقنا على الظواهر التي تحدث فينا وفيما حولنا نفس اساليب المباحث المضبوطة المنزهة عن الاغراض والمتروى فيها، اى تلك الاساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس :

فالمباحث التى تجب علينا لايمكن ان تقتصر على تحليل ساذج للاسانيد التاريخية او التي صدرت عن هـذا الوحي او ذاك مما يوحى به في الزمان الماضي، ولكن يجب ان تؤسس قبل كل شيء — ككل بحث علمى بالمعني الدقيق لهذه الكلمة — على تجارب يمكننا تكرارها اليوم، وماين أن نزيد عليها غداً . فلا يمكن ان تكون الا مباحث مؤسسة علي هذه القضية، وهى انه « اذا كان يوجد عالم روحاني، وكان هذا العالم الروحاني موجودا في اي عهد كان، وكان قابلا لان يظهر ويستكشف فيجب ان يكون كذالك في ايامنا هذه.

« فمن هذه الوجهة وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة واجهت الجمعية التي انا عضو منها هذه المسئلة » انتهى

ثم اخذ هذا الاستاذ يسرد التجارب التي عملها هو وعملها غيره مما لاسبيل الي بسطه فى هذه العجالة . ثم قال مخطئاً الذين يكذبون بهذه المشاهدات في صفحة ٢٢١ :

« ماهي الادلة التي تحملني على الاعتقاد بأن هذا ليس بصحيح ؟ هذا السؤال يجب ان يضعه كل انسان نصب عينه اذا توصل الى التحقق بغير طريق التأمل العلمى من الجهل المطلق الذي هو عليه بماهية الوجود الحقيقية.

« واني اعترف في كل حال بان جهلي هو بحيث ان معارفي فيما هو مرجح او غير مرجح في الوجود لم تظهر لي كافية لرفض مشاهدات تظهر بحق انها مثبتة، وانها

مع ذلك ليست مناقضة لشاهدات واصول عامة اكثر منها تأسساً . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعاً فانه ، حتى باعتراف ممثلي العلم ، ليس الا نظرة عجلى في العالم المجهول وغير المتناهي للنواميس الطبيعية » . انتهى

وقال السير (اوليفر لودج) في كتابه (خلود الروح الانسانية) في النسخة الفرنسية الصادرة في سنة ١٩١٢ صفحة (١) وما بعدها :

« قد ثبتت صحة حوادث غريبة حدثت في كل أمة ، وفي جميع العصور ، ويمكن حذف جانب كبير من تلك الحوادث الى مجال الاوهام والوساوس ، ولكن لا يمكن حذفها كلها الى ذلك المجال . وليس من المظنون في الحالة الحاضرة للعلوم الطبيعية اننا على علم بجميع اعمال الروح الانساني ، واننا قد أوصلناها الى درجة من البساطة بحيث ان كل ما يحدث في العالم العقلي والروحاني يمكن ان يفهمه الكافة بسهولة . ومع هذا فيوجد كثير من الناس يظهر انهم يعتقدون ذلك . على أنهم يضطرون من حين آخر الى قبول مكتشفات جديدة مدهشة في علوم البيولوجيا (علم الحياة) والكيمياء ، وفي العلوم الطبيعية على وجه عام . ولكنهم يقبلون ضمنياً أن هذه المكتشفات العلمية هي وحدها من الوجود الاجزاء التي يمكن اكتشافها اكتشافاً اساسياً ، واما ما بقي فقد عرف أحسن معرفة .

« هذا ايمان ساذج وهو يبين استعداد من يميلون لقبول عقيدة ما ، ولكنها عقيدة لا تعتمد على العلم ولا يمكن حفظها الا باغفال مقدار عظيم من الشهادات في الجهة المضادة :

« تألفت منذ ٢٨ سنة جمعية خاصة في لوندرة الغرض منها بحث ما في هذه التاكيدات من الحقيقة (يريد التأكيدات بوجود عالم روحاني) ، وقد كان مؤسسوها من رجال الادب والعلماء ، وقد ألمت مدة عدة سنوات بمقدار من هذه الحوادث الغريبة ، وهي وان كانت غريبة الا انه قد اعتبرها صحيحة افراد من اهل الحكم والذوق . وقد كان غرض هؤلاء العاملين اما ادماجها بطريقة مناسبة في العلم المرتب ، واما حذفها نهائياً باعتبار انها غير قائمة الا على سرعة التصديق والخديعة والتدليس » .

انتهى .

وقال العلامة سدجوك رئيس جمعية المباحث النفسية في خطبة الرياسة ونحن نترجم ما نترجمه منها منقولا عن كتاب الاستاذ لودج المتقدم ذكره قال :

« من الامور الفاضحة ان يتنازع الى الآن في صحة هذه الحوادث(الحوادث الروحية) التي اعلن تصديقه بها عـدد عظيم من الشهود الاختصاصيين واهتم غاية الاهتمام بحل مسألتها عدد عظيم آخر، وان يحتفظ العالم العلمي حيالها مع كل هذا الانكار الساذج ».

الى ان قال :

« كان الناس يظنون منذ ثلاثين سنة(هـذه الخطبة قيلت في سنة ١٨٨٢) ان الاعتقاد بالمسمرزم(التنويم المغناطيسي) والموائد المتحركة يفسر تفسيرا كافيا بقـلة التهذب العلمي عند اهـله . فلما اكد رجال من اهل العلم مشهورين الواحد بعـد الآخر صحة تجاربهم الشخصية اظهر معارضوهم مهارة مضحكة في تصيد العلل للحط من مقامهم العلمي، فقالوا ان هؤلاء الباحثين هواة وليسوا من أهل تلك المهنة، او انهم اختصاصيون في بعض الفروع العلمية وليس لهم نظرات عامة ولا خبرة كافية، اوانهم مخترعون بسطاء يجهلون الاساليب الدقيقة للبحث العلمي، اوانهم ليسوا اعضاء في المجامع العلمية. فاذا كانوا من أعضاء تلك المجامع اظهر المعارضون أسفهم لهذا وعدوه من الحوادث المحزنة .

« اننا في متابعتنا السير في هذه المباحث لا يجوز لنا أن ننتظر من شهادة واحدة مهما كانت كاملة نتائج قاطعة على العرف الانساني. فان الانكار العلمي بدأ في النمو من زمان بعيد وقد صارت له جذور قوية عـديدة، ولا قبل لنا باجتثاثها اذا قدّر لنا ذلك، الا باحاطته بمجموعة من الحوادث المحققة . فيجب علينا ان نعمل بلا فتور وأن نركم البراهين على البراهين، ونضيف التجارب الى التجارب، وان لا نطيل الجدال مع المنكرين الاجانب عن مباحثنا على قيمة تجربة من التحقيق ، ولكن لنعتمد على

عدد هذه التجارب للحصول علي الاقناع المطلوب »

...

هذه بعض اقوال قالها اعضاء جمعية المباحث النفسية وقد جمعوا من تجاربهم اكثر من اربعين مجلدا ضخما اصبحت الآن عمدة الباحثين فى هذا الموضوع وقد اثرت في العالم العلمي تأثيراً لاحد له حتي اصبح يطالب رجال العلم من كل قبيل ادخال هذه المباحث الى العلوم الرسمية التي تدرس في الجامعات

قال العلامة كاميل فلامريون الفلكى المشهور في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) صفحة ٦٠ :

« الكائن الانساني يمتع بخصائص لم تعرف الآ قليلا وهى خصائص قداظهرتها الملاحظات التي عملت على الوسطاء والمستعدين لتوليد الحركات، كاظهرها كذلك التنويم المغناطيسى والتليبثى والابصار بدون الاعين والاخبار بالمغيبات

« هذه القوى النفسية المجهولة تستحق ان تدخل في دائرة التحليل العلمي . وهى الآن لاتزال في عصر بطليموس (يشبهها بالعلوم الفلكية) ولم تصادف الآن كبلرها ونيوتنها ولكنها تستوجب العناية والبحث »

وقال الدكتور انكوس الطبيب بجامعة الطب الباريزية في كتابه (العلوم الخفية والسبرتزم) في طبعته الثالثة سنة ١٩١١ صفحة ٧ .

« لقد انتشرت الجمعيات الروحية وتكاثرت وشعر الناس بوجوب استزادتها واصبحنا نؤمل ان نظريات هذا المذهب الروحاني ستنال حرية المدينة في الفلسفة العصرية »

وقال العلامة الفرنسى الدكتور ج . ماكسويل في كتابه (الحوادث النفسية) في طبعته الخامسة الصادرة فى سنة ١٩١٤ صفحة ٣١٣ :

« انا لاآسف من اني عبرت عن شعوري نحو الحوادث التى لاحظتها بنفسى فاني واثق من انها ستدخل فى يوم من الايام — ولعل ذلك اليوم قريب — الي النظام العلمي ، نعم انها ستدخل فيه رغما عن جميع العقبات التي يركمها فى طريقها

العناد والخوف من السخرية »

.·.

هـذا غيض من فيض ذكرته لخدمة الحقيقة ويري القارئون ان جمعية بل جمعيات تتألف من أمثال هؤلاء الفحول الذين جدوا على الدقة في البحث ، ومرنوا على التثبت والروية بأساليبهم الصارمة ، وليس فيهم الا من عرف مداخل الخطأ في الاحكام ، ومسارب الشطط الي المدركات، ومستقر الانخداع من النفس ومواطن الاهواء من احناء الصدر . زد علي ذلك ان كثيرا منهم من مدرسي علم النفس بالجامعات الكبرى ، وعلم النفس علي الاسلوب الحديث يعتبر من العلوم الحسية ، فلاهو مستمد من مباحث افلاطون ولا من مقالات ارسطو، وعلماؤه يعتبرون بحكم وظائفهم من أعلم الناس بدسيس الوساوس ، ودبيب الهواجس ، وضلال الحواس، وتلبيس المشاعر . وكثير منهم من الطبيعيين والكيماويين والحيويين ، الذين لا يعترفون بغير سلطان الآلات المعدنية والتجارب الحسية فهم لا يأبهون بالبرهان العقلي ولا يخضعون للقياس المنطقي ، لا يقرون لشيء بوجود الا اذا أبصروه ولمسوه وقلبوه علي كل وجه، وادركته آلاتهم الحديدية فوزنته وقاسته وقدرته . ثم هم مع ذلك في بيئة قد تخلصت من الاوهام، وتملصت من سحر الاحلام ، غاصة بالنقدة المدققين ، والعرفة المتميزين والكتبة الصارمين . قلنا ان جمعية بل جمعيات تتألف من مثل هؤلاء الاقطاب فيستمرون في البحث عشرات من السنين ، ويدونون تجاربهم في عشرات المجلدات ويعرضونها في الآفاق علي النقاد والمجربين ، كل هذا يعتبر حادثا جللا ليس له نظير في تاريخ المدركات الانسانية . وقد أحدث من التأثير الادبي مالم يحدثه مذهب علمي ولا أسلوب فلسفي، فأصبح له مئات من المجلات والمكتبات الخاصة والوف من الجمعيات . وقد روى الاستاذ رسل والاس في كتابه (عجائب العصر الحاضر) ان اتباعه يبلغون عشرين مليونيا . وكتب جان فينو مدير مجلة المجلات الفرنسية في مجلد سنة ١٨٩٥ وهو بصدد كلامه علي الاسبرتزم يقول :

« لنضف الي هذا صفات أشياع هذا المذهب فهم اماعلماء أوأساتذة فنيون أو أطباء أو مهندسون ».

نقول أضف الى هذا أن بقاء هذا المذهب قائما اكثر من سبعين سنة يتناوله المجربون الخبيرون من كل قبيل، ويحاول دحضهُ الناقدون من كل صوب، ويتصداه الماديون ويبذلون وسعهم لاثبات التدليس فيه، ثم ينتهي امرهم بتصديقه والقول به، ثم انتهاء امره الي الشيوع بين أقطاب العلم الاوروبي الي هذا الحد، وانقلاب الفلسفة من مادية متطرفة الى روحية معتدلة — كل هذا أثر عوامل سلطها مدبر الكون على هذا الانسان ليخرجه من ظلمات المادة، وينقذهُ من براثن الماديين، ليطمئن على وجوده في هذه الحياة القصيرة الأمد، وفيما بعد هذه الحياة في عالم الجمال الاقدس وليضع أصول أخلاقه ومراميه على أساس متين من فلسفة عالية جديرة بمواهبه الكريمة، يستطيع بها أن يتابع سبيله في الترقي ثابت القدم مرفوع الرأس، مطمئنا على أمرٍ عزيز عليه وهي نفسه، واثقاً بأنه حي فى وجود كلهُ حياة وجمال وجلال ونور.

• • •

(نشر لنا المقتطف هذه المقالة ثم عقب عليها بما يأتي :)

(المقتطف) ما أجمل ما ختمت به هذه المقالة . أما الامور التي بنيت عليها فقد ذكرناها كلها او اكثرها في مجلدات المقتطف الماضية، وذكرنا معها أوجه الضعف فيها، وما ثبت من فساد بعضها، ولو كان اصحابها من أكبر زعماء مناجاة الارواح كندجولك وكروكس وستدولدج . ومع اننا نتمني من صميم الفؤاد ان تثبت صحة مناجاة الارواح ثبوتاً ينفي كل ريب، لكن بحثنا المتواصل في هذا الموضوع منذ اكثر من اربعين سنة الى الآن اقنعنا ان الذين ينقطعون للعلوم الطبيعية

والفلسفية يكونون في الغالب من أبسط الناس وأحسنهم طوية وأقلهم مقدرة على اكتشاف الخداع . فالدكتور ميرس والسر اوليفر لدج والاستاذ ريشه والاستاذ لمبروزو جلسوا غير مرة مع أشهر الوسطاء أوسابيا بلادينو وأكدوا أن ما كانت تعمله أمامهم لا يفسّر الا بقوة روحية أي باستخدامها الارواح غير المنظورة . وجاءها وفد من قبل جمعية المباحث النفسية لكي يبحث في اعمالها فجلس معها مراراً ونشر تقريراً مسهباً عن أعمالها نشرنا خلاصتهُ في المقتطف وأكدوا أنها لا تستعمل الخداع بل تفعل ما تفعل بوسائل غير مادية أو غير طبيعية فانتقد تقريرهم هذا وابنا وجوه الضعف فيه وامكان الخداع في أعمالها وبعد حين ذهبت هذه الخادعة الي اميركا سنة ١٩٠٩ فاكتشف الاستاذ منستر برج أستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا خداعها بما لا يبقي مجال للريب . وكان غشها قد كشف سنة ١٨٩٥ في كمبردج لما جلست مع الاستاذ سدجوك والمستر ميرس والدكتور هدجسن ولكن ثقة هؤلاء العلماء بها لم تفارقهم حينئذ لانهُ لم يظهر غشها الا في بعض أعمالها . ومنذ سنة ١٨٥٠ الي الآن كشف غش اكثر من مئة وسيط من أشهر الوسطاء . مثل بلادي وكاوشستر وفوستر والاخوان دفنبرت ومستر فاي والدكتور سلايد وفلورنس كوك ومس شورس وفرمن ومس ود وهدصن وبوغه ومدام بلافتسكي واغلنتن

وقد قلنا غير مرة ان المحك الذي تثبت به صحة المستكشفات والمزاعم هو العمل بها . فنقل الاشارات بالتلغراف ألوفا من الاميال من أغرب الامور التي يتعذّر علي الانسان تصديقها ولكنهُ لما رأى الاشارات تنقل فعلا وتبني علي نقلها مصالح الناس صدقها وقال أنها حقيقة لا وهم . ونقلُ الالفاظ المسموعة بالتلفون مئات من الاميال اغرب من نقل الاشارات بالتلغراف ولكن محك الاستعمال اثبت صحتهُ . ومن هذا القبيل نقل الاشارات بالتلغراف اللاسلكي والتصوير الشمسي واستخراج الالوان البديعة من قطران الفحم الاسود . واستقطار الارواح العطرية من فضلات المواد الفاسدة ونحو ذلك من مكتشفات القرن الماضي والسنين الاولى من

هذا القرن

فاذا كانت مناجاة الارواح صحيحة أي اذا كان عقل الميت يؤثر فعلا في الاحياء فيحادثهم ويخبرهم بأمور يجهلونها فلا بدّ من ان يصير لهـذا الاكتشاف فائدة عملية يعتمد عليها في مصالح الناس كأن يخبر عقل القتيل عمن قتلهُ اذا كان مجهولا أو يصفه وصفاً كافيا للدلالة عليه وكأن يخبر من اخفى شيئا قبل موته عن المكان الذي اخفاه فيه أو من شاهد حادثة وقعت في حياته عما شاهد . وعدم ثبوت ذلك بالفعل لاينفي بقاء النفس بعد الموت ولا يثبت زوال عقـل الانسان من الوجود بعد موته ولـكن يجب ان يكون لاثبات ذلك أدلة اخـري « وضرر الشيء ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيـه بطـريقه » كما قال الامام الغزالى فى تهافت الفلاسفة

***

لما نشرنا هاتين المقالتين في المقتطف رأينا انهما لاتكفيان لتجلية هذا الفتح العلمي الكبير فعولنا علي أن نتبعهما ببحث مستفيض نأتي فيه علي جميع أدوارها تحت عنوان اثبات الروح بالمباحث النفسية، ونرد فيه ضمنيا علي تعقيب المقتطف المتقدم فنشرنا فيه المبحث التالى نفسه فصدرت هذه المقالة فيه وهي أول حلقة منه في جزء ابريل سنة ١٩١٩

اثبات الروح بالمباحث النفسية

ان البت في مسألة الروح الانسانية بالوجود أو عدم الوجود، والحكم لها بالخلود أو عدم الخلود، من الامور التي يبتني عليها وخصوصا في هذا العصر عصر المبادىء والاصول، انقلابات فكرية غاية في الخطورة يكون لها اكبر الآثار في اخلاق الانسان ومراميه . وقد عهدنا الانسان يحيا بمحصوله الادبي اكثر مما يحيا بمحصوله المادي .

وهذا العالم الغربي الذى نال من المدنيه والرفاهية بفتوحات العلوم الطبيعية أوفر حظ وبعد ان زعزع له العلم المادى والنقد الفلسفي أقوي اصوله الدينية الموروثة منذ عدة اجيال،تراه يضطرب بمجموعه ويتململ سأما مما هو فيه،ويتلفت الحيران لكل حركة يتنسم من ورائها نسمة عقيدة يثلج عليها صدره،وتزول بها شكوكه ويبصر بها الحق واضحا فيتجه اليه

وقد اجبتم على سؤال من سألكم عن منتهى آمالنا في التمدن في جزء يناير الماضى صفحة ٩٢ بقولكم « ان يعيش كل احد مستريحا مسرورا لايتألم ولايمرض ولا يجوع ولا يتعب . وان يعرف ماوراء الموت معرفة يقينية كما يعرف ان الماء يطفيء النار والحبر يسود الاصابع والحرارة تذيب الثلج ، ثم قلتم .ومن المحتمل ان يصل الناس اليها بطريقة يقينية تقنع كل احد »

اصبتم فى هذا القول كل الاصابة فليس الانسان بالكائن الذي يقنعه نعيم الجسد دون الوصول الى سر حياته الروحانية،ولولا ذلك لقنع العالم الغربي بما هوفيه من الرفه ولم يحرك المباحث الروحية ساكنا،وانت تراه اشد اجناس المسكونة تطلعا لاسرار الروح وقد فاق في هذا النهم المتدينين انفسهم،

ماتوسط الناس القرن التاسع عشر حتى كانت العلوم المادية في اوج عظمتها والمذاهب الفلسفية فى غاية ابهتها ونبغ موليشوت وكارل فوغت ولويز بوخنر وهيكل في المانيا فاعطوا الفلسفة المادية نهاية سلطانها،فكسفت كل فلسفة فى الارض،واعتبرت اشياعها من حملة لاوهام الفكرية القديمة . ثم جاء مذهب النشوء والارتقاء في سنة ١٨٥٩ بفلسفته التى مؤداها قيام العالم على نظام آلي غير مقود الى غاية معينة بعقل مدبر فأعطي الفلسفة المادية سطوة اخفتت امامها كل صوت ، فكان الذي يقول بوجود عقل عام مدبر للكون أو روح مستقلة عن جسد الانسان يعد من البله الذين يستوجبون الرحمة على قصور نظرهم وانحطاط عقلهم.

فى هذا الحين الذى بلغ فيه الشطط المادى هذا المبلغ حدثت حادثة هيدسفيل التي ذكرناها في مقدمة المقالة الاولى من بحثنا هذا . وكان من امر تحقيقها وشيوع

امرها وتتالى مباحث العلماء في امثالها ما كان مما كان أثره ايجاد أدلة علمية حسية على وجود عالم حي حياة عقلية سامية وراء هذه المادة وعلى أن الموت ليس هو الحد الفاصل بين الوجود والعدم . ولم تتقرر تلك الادلة لا في سنة ولا في عشرين ولم يقم بها عالم واحد ولا جماعة واحدة من العلماء، ولم تقتصر على بلد دون بلد، ولكنها تقررت في اكثر من سبعين سنة بذلت في الابحاث والمشاهدات والمجادلات والتحديات ، وقام بتحقيقها رجال من كل مجال من مجالات العلم والادب وانتشرت في كل أمة راقية وكانت ثمرة ذلك أن اكبر علماء الارض واحكم فلاسفتها، واجل كتابها وساستها ، وادبائها ينشرون آراءهم في الروح ووجودها وخلودها ويسردون تجاربهم العلمية في ذلك غير خاشين لومة لائم بعد ان كان يخجل اكبر رأس فيهم قبل خمسين سنة ان يشير الى عقيدته الدينية بكلمة واحدة .

هذه حركة لامثيل لها في تاريخ العالم، وقد كان من اثرها اعتدال مزاج الفلسفة وصدق النظر في الوجود وظواهره، وقد كتبت فيه مقالين في المقتطف فعقبتم عليهما بما يفيد عدم اعتدادكم بما ورد فيهما، ولكني ارى انكم مع هذا لا تضنون على قرائكم ببعض ما يظهر في عالم المباحث النفسية من الاقوال المنسوبة لبعض العلماء، وهي خطة مثلى حببت الي ان افضي اليكم ببعض ما اعلمه في هذا الموضوع، فاني قرأت كل شبهة وردت عليه من الناقدين والماديين الذين تألبوا على دحضه بكل وسيلة، وقرأت كل الحلول التي دفعت بها تلك الشبه وهي حلول عملية لا كلامية مما يتألف منه مجموع من أجل ما ولدته مجهودات البشرية في عصر من العصور واري ان نشر صورة موجزة من هذا المجموع في المقتطف مما يخدم قراء العربية اجل خدمة . ولهذا عولت على أن اوافيكم اولا بملاحظاتي على تعليقكم ثم اردفه بالتجارب التي عملت والشبهات التي وردت عليها وبما دحضت به الشبهات فاقول:

قلتم أن بحثكم المتواصل في هذا الموضوع منذ اكثر من اربعين سنة اقنعكم بان الذين يقطعون للعلوم الطبيعية والفلسفية يكونون في الغالب من ابسط الناس واقلهم مقدرة على اكتشاف الخداع .

وانا لا اوافقكم علي هذا الرأى فان قوما كالطبيعيين مرنوا على الاساليب الدقيقة وانقطعوا للمشاهدات المحسوسة، وقصروا شهودهم على الآلات المدنية والحواس البدنية، لا يمكن ان يكونوا أقل الناس مقدرة علي اكتشاف الخداع . ويؤيدني في ذلك مؤلفو الغرب فقد جاء فيما نقلته عن مجلة المجلات الفرنسية في صحيفة ٥ من مقتطف يناير قولها: «من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر ».

وجاء فيما نقلته بتلك الصحيفة عن الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي قوله : « لا يمكن أن مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين في انجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا وايطاليا يقعون تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل ».

ثم اني لم اسرد في المقتطف اسماء هذا الجم الغفير من العلماء الطبيعيين والفلاسفة الا لاني اعتقد انكم مثلي لا تأبهون الا بشهادات رجال الطبيعة والفلسفة. ولو كنت اعلم انكم ترفعون علي شهاداتهم شهادات من دونهم لا تيتكم باسماء ألوف من الاطباء والمهندسين والكتاب والسياسيين واللغويين .ومما يؤثر عن المستر غلادستون أنه كتب يقول : « ادرس الاسبرتزم فان وجدت فيه غشا وتدليسا فاهزأ بسائر المعتقدين به واسخر بي في مقدمتهم» (انظر كتاب الظاهرة الروحية لجبريل دولان في طبعته الخامسة)

ومنهم اللورد بلفور وزير الخارجية الانجليزية الحاضرة وهو القائل « عندي الاسبرتزم أفضل من السياسة لانها تفيدني أكثر منها» (انظر الكتاب المتقدم)

هذا ولو شئت أن أسرد من هذه الاسماء المشهورة لسردت شيئا كثيراً، فاذا كان المنقطعون للعلوم الطبيعية والفلسفة أكثر الناس قبولا للانخداع فهناك الالوف من أمثال من ذكرناهم يشهدون بأنهم بذلوا غاية وسعهم لاثبات التدليس في التجارب فلم يستطيعوا ولم يستطع خصومهم ان يثبتوه لهم .والذين كشفوا تدليس الوسطاء الذين ذكرتموهم هم زعماء الروحيين. فقد قلتم ان أوسابيا بلادينو كشف غشها في كمبردج سنة ١٨٩٥ سدجوك وميرس والدكتور هدجصن وهؤلاء الثلاثة من كبار اعضاء

جمعية المباحث النفسية والقائلين بأنه قد قام الدليل الحسي علي وجود الروح وخلودها بعد الموت.

ولا عجب اذا حاول بعض الوسطاء التدليس علي المجربين، فان التدليس ليس بقاصر علي هذه المباحث، فهو عام في جميع مجالات المجهودات الانسانية وانما العجب ان يفلت مدلس من أيدي أولئك النقدة الصارمين . علي ان لجنة الجمعية العلمية الملكية التي عينت في انجلترا لبحث المسائل النفسية لم تستخدم وسيطا مأجوراً كما ذكرت ذلك في تقريرها ونشرناهُ في مقتطف يناير صفحة ٥٥، وكان الكثير من العلماء والكتاب الباحثين خاصة الوساطة مثل الاستاذ الطبيعي الانجليزي دومورغان والدكترستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد والمستر ستيد الكاتب الانجليزي الكبير وامرأة اكزاكوف الوزير الرومي المشهور وبنتاالمستر ادمونز رئيس مجلس شيوخ الولايات المتحدة سابقاً وكان يعرض بها للتجربة لشدة شغفه بالمباحث النفسية .

قلنا ان التدليس ليس قاصراً علي وسطاء المباحث النفسية فهو في كل مجال من مجالات الاعمال الانسانية، وانما المدار على التمحيص والاخذبالاحوط، ولا نعرف فرعاًمن فروع العلم جرى عليه ادق من أساليب التمحيص ماجرى علي المباحث النفسية لغرابتها من جهة، ولغلبة المذهب المادي علي الباحثين من جهةأخرى، ولم يتوصل الآ الى اثبات تدليس نحو مئة وسيط من سنة ١٨٥٠ الى اليوم، أي في مدى سبعين سنة وهو عدد قليل بالنسبة لعدد الوسطاء الذين خضعوا لهذه المباحث الصارمة.

ثم انكم قلتم ان العمل الذي تثبت به صحة المكتشفات والمزاعم هو العمل بها فاذا كانت مناجاة الارواح صحيحة، أي اذا كان عقل الميت يؤثر فعلا في الاحياء فيحادثهم ويخبرهم بأمور يجهلونها، فلابد من ان يصير لهذا الاكتشاف فائدة عملية، كأن يخبر القتيل عمن قتله، وكأن يخبر من أخفى شيئاً قبل موته عن المكان الذى اخفاه فيه الخ

نقول ان تاريخ مناجاة الارواح مؤسس علي ان روحا أخبرت سكان البيت الذي ظهرت فيه بأنها روح قتيل قتلهُ جاره وسلب ماله فكان كما أخبرت . وقد

أشرنا الي ذلك في ايرادنا لتاريخ هذا الفن في صفحة ٥٠ من مقتطف يناير .

ثم حدثت بعد هذه الحادثه ملايين من هذه الاختبارات وغيرها مما حير عقول الباحثين واضطر اكبر الماديين كوليم كروكس وروسل ولاس ولومبروزو وسدجوك وأمثالهم للاذعان. فسئلت الارواح عن حجج ومستندات ضائعة فعينت مواطنها ، وسئلت عن تفاصيل حوادث وفيات مجهولة فأنبأت بها . وسئلت عن مقادير ديون كانت عليها فقدرتها وعينت الدائنين وما لكل منهم بالضبط. واستخدمت في المخابرات بين امريكا وأوربا في أمور معجلة فقامت بما عهد اليها بأكثر واضبط من التلغراف ، وسئلت أسئلة فلكية عويصة فاعلمت بأمور لم تكتشف الا بعد سنين عديدة . كل هذه أمور مقررة ممحصة كما يقول الاستاذ وليم جيمس اكثر من تمحيص الامور الفزيولوجية (انظر صحيفة ١٤١ من مقتطف فبراير) .

وسنأتي في مقالاتنا التالية على نماذج من انواع هذه المشاهدات كلها مع بيان صنوف التحوطات والتمحيصات التي اتخذها العلماء المجربون لها .

ثم قالتم ان عدم ثبوت ذلك لا ينفي بقاء النفس بعد الموت ولا يثبت زوال عقل الانسان من الوجود بعد موته، ولكن يجب ان يكون لاثبات ذلك أدلة اخرى .

وانا اقول ان عدم ثبوت ذلك ينفي بقاء النفس بعد الموت ويثبت انحلال عقل الانسان بعد وفاته ويقوى شبهات الماديين، بل يجعل تلك الشبهات حججاً مقررة . لانه كان يقال بحق : لو كان للروح بقاء بعد الموت لدلتنا بدليل حسي علي بقائها هنالك ، والا فهل يعقل ان تكون ارواح ملايين الملايين من الامهات والآباء والاحباء حية في عالم وراء هذا العالم فتلبث الوف السنين لا تبدي أقل حركة تشعر بوجودها وتنم علي بقائها؟ وكان المادي اذ ذاك يرفع عقيرته قائلا : اذا كان الانسان في بحثه عن المجاهيل الطبيعية قد وقف علي اسرار النواميس الميتة وخواص الحركات الاثيرية الخفية كالكهرباء والمغناطيس واشعة رونتجن، وهي من العالم الجامد المجرد عن العقل والشعور، ألا كان يقف علي رسوم ذلك العالم الحي الآهل بملايين من العلماء والفلاسفة والقادة والمفقودين ؟ الا كانوا يبدون لنا ولو اشارة

خفية تدل على وجودهم وراء هذا الوجود؟ أليس في صمتهم ذلك حجة ناطقة على انهم اصبحوا رميما تذوروه الرياح، كاذور بقايا الاشجار وفتات الاحجار؟

نعم كان المادي يستطيع أن يقول ذلك وله الحق، وكان المتـدين يحني رأسه خجلا وله العذر، فشيوع أمر الاتصال بالاموات من أول وجود الانسان الى اليوم وذيوع ظهور أشباحهم في بعض الاحوال في كل أمة حتي وجد ذلك في اساطـير المصريين القـدماء والهنود والصينيين، ووجـد معه طرق تحضـير الارواح منـذ ألوف مـن السنين، ثم ظهور هذا الامر أتم ظهور في هذا العصر والعمل علي تحقيقـه تحقيقا علميا على الاساليب النقدية الصارمة — كل هذا أثر واضح يدل على صحة وجود ذلك العالم، وعلى صدق العقيدة القائلة بخلود الارواح بعد الموت . وعدم وجود هذا الاثر الواضح كان يصح أن يكون من الادلة السلبية القوية علي عـدم وجود ذلك العالم .

ثم ان استشهادكم بقول الامام الغزالي « ان ضرر الشيء ممن ينصره لا بطريقـه أكثر من ضرره ممن يطعن فيـه بطريقه » لا ينطبق علي ما نحن بصدده . فان الطريق الذى يسلـكه العـلماء الاوروبيون والامريكيون في تحقيق وجود الروح هو الطريق الاصلى لاثباتها، بل لا يوجد غيره . فهم يبحثون في أمر ظهور الارواح في أماكن قيل انها تتردد عليها، كبعض البيوت والقصور القديمة . وفي تأثيرهـا على أدمغة بعض الاحياء بالاستيلاء عليها، واظهار شخصيات غـير شخصياتها، وعلي ايديهم في احداث خطوط غير خطوطهم والتوقيع عليها بتوقيعات المتوفين انفسهم — كل هـذا لم يقنع الباحثين وكان لهم في تأويله مجال واسع . لانهم كلهم كانوا ماديين لا يعتقدون بشيء . فطلبوا الى أولئك الارواح ان كانت موجودة ان تكتب بدون يد الوسيط وان تتكلم لا بلسانه، فحدث ما طلبوا وظهرت اذرع وايد لمسها المجربون وصافحوها، ثم ظهرت اجساد قاسوها ووزنوها وفحصوها بكل وسيلة ممكنة وطلبوا اليها احداث الخوارق التى يتخيل أنها لائقة بعالم الارواح السائد علي

العالم الحسى كادخال المادة من خلال المادة، وفى تغيير صياغة المعادن كانقلاب السلاسل الذهبية الى خواتم ، وفى تمزيق الثياب واعادتها كما كانت ، وفى ظهورها بمظاهر مختلفة، وفى افنائها نصف جسم الوسيط اوجسمه كله ثم اعادته ، وفى رفع الاجسام بدون لمسها الى السقف حتى انها رفعت بعض الحاضرين أيضا ، وفي جلب الاشياء من بلاد بعيدة ، وفى الاخبار عن الامور المقبلة الى غير ذلك مما سنلم ببعضه في مقالاتنا المقبلة . كل هذا بينما يكون الوسيط مربوطا وموضوعا تحت قفص من الحديد ومتصلا بسلك من الجلوانومتر لتسجيل أقل حركاته وسكناته ومراقبا أشد مراقبة وهو في حالة خدر تام لا يعي مايحدث، بخلاف المشعوذين الذين ذكرتم بعض أعمالهم فى مقالة السحر الحلال فانهم يذهبون ويجيئون مطلقي الايدى والارادة، فان لم يكن هذا هو طريق اثبات وجود عالم روحاني مؤثر في هـذا العالم المادى فهل طريقه القياس المنطقي والاستنتاج العقلي وقد برهنت الفلسفة المادية الحسية انه دليل على ضلال العقل وعجزه عن الالمام بالحقائق، وعلى ان مسلماته اكثرها اضاليل قررها له تصوره وايدها في نظر جهله .

ثم قلتم في مقالة السحر الحلال : «رأى جماعة من اكبر علماء الارض أعمال الخادعة اوسابيا بلادينو فصدقوا ماتدعيه من أنها تفعل بواسطة ارواح الموتى، ويذهب هؤلاء العلماء انفسهم الى ناد لاحد المشعوذين ويرون من أعماله ما تقصر عنه اعمال أوسابيا بلادينو بمراحل كثيرة ومع ذلك لا يقولون انه يفعل ما يفعل بقوة روحية لانه هو نفسه لا يدعي هذه الدعوى» .

أقول علماء أوربا لم يفتهم أمر المشعوذين فقد اعترض عليهم بمثل ماقلتم فاحضروا مشعوذ امبراطور المانيا ومشعوذ مبراطور النمسا وهما اوسع مشعوذى العالم حيلا في جلسة روحية واروهما بعض الخوارق التي تحدث فيها، فاعترفوا بأن هـذا فوق مقدور صناعتهم، وشهدوا بذلك كتابة، وسننشر نص شهاداتهم فى مقالاتنا المقبلة هنا

اما ان ما يفعله المشعوذون أغرب مما يحصل في جلسات التحضير فلا نقول نحن به ولا الوف المجربين، فان الخوارق الروحية قد فاقت ماينخيله كل متخيل، واي غريب

بعد ظهور روح الميت متجسدة بصورتها التي كانت عليها في الحياة الدنيا ، وتكلمها بصوتها الاصلي وعباراتها المألوفة لديها ؟ واي عجيب بعد افنائها لبعض اعضاء الوسيط او الجسم كله ثم اعادتها اياه، او قلبها صورة الوسيط وجنسه فيظهر وجهه ملتحيا وهي امرأة او شعره اصفر وكان اسود او يظهر طفلة ناعمة وهو كهل، ويطول قده، ويغلظ جسمه، ثم يعود الى ما كان عليه . كل ذلك حصل تحت اشد المراقبات العلمية واعيدت تجاربه في كل بلد وفي مدى اكثر من سبعين سنة مما لا سبيل الى دحضه بعد كشفه ووقوف الناس على اسانيده . والا فكيف يعقل ان اكبر علماء الارض واذكي الاطباء والمهندسين والمحامين والكتاب والادباء الاوربين والامريكيين ينخدعون هذا الانخداع الغليظ وقد سبقونا في العلم والعمل والتشكك بمراحل ، وتشبعوا بالمذهب المادي منذ عدة قرون، ويستمرون في هذا الانخداع اكثر من سبعين عاما ؟

كل هذا لا يقبل التعليل بالخداع والانخداع، فلا مناص لقراء العربية من التوسع في معرفة هذا الموضوع، وسأتولى بمعونة الله هذا الامر فانشره في هذه المجلة في عدة مقالات متسلسلة من الجزء القادم ثم اترك لكل انسان الخيار في الحكم والسلام



الاسلوب التجريبي

(الذي اتبعه العلماء في اثبات الروح)

الوساطة

نشرنا هذه المقالة بمجلة المقتطف في مايو سنة ١٩١٩

طبعت الفلسفة الاوربية في القرن التاسع عشر بطابع الاسلوب الحسي ، فالفظت جميع المدركات العقلية الى عالم الفروض ، ولم تقبل في العلم الا ما أيدته التجربة أو دلت عليه الحواس ، فكان على المتصدين لبحث عن الروح ان يجدوها بدليل محسوس . وكيف يتسنى ذلك بغير جعل الانسان ذاته موضوع النظر والبحث لرؤية آثارها فيه ؟ أيصح لمن يريد ان يعرف هل في الاناء الذي بين يديه ماء ، أن يتركه جانباً ويأخذ في بناء القضايا المنطقية للاهتداء الى ما حواه ، أم ينظر فيه هو نفسه ليتحقق من وجود أو عدم وجود شيء فيه ؟

لهذا احتاج الباحثون العصريون في الانسان الى الوسيط . فيحتاج اليه في التنويم المغناطيسي لتنويمه ورؤية ما يظهر فيه من القوي الكامنة والخصائص المستكنة . ويحتاج اليه في المباحث النفسية لما ثبت علمياً منذ سبعين سنة وبشهادة ألوف من العلماء انه تحدث بحضرة شخص ذي استعداد خاص ، اذا اتجهت ارادة المجربين معه الى الاتصال بالعالم الروحاني ، حوادث روحية غاية في الغرابة يمكن للعلم أن يبحثها على اسلوبه التجريبي فيضيف الى ما عرفه من أحوال المعنى الانساني معارف جليلة لا تقبل النقض يتجلى من خلالها وجود الروح واستقلالها عن الجسد وقيامها بدونه وتعلقها بعالم

روحاني وراء هذا العالم المادي

فالوسيط في المباحث النفسية هنا يستخدم كآلة للبحث وكوسيلة لظهور الحوادث الروحية . وليس أمر الوساطة ببدع فانها ضرورية حتى في الحوادث الطبيعية نفسها . فلا يمكن مثلا احداث شرارة من جسم مكهرب بكهربائية موجبة الا بتقريب جسم آخر منه مكهرب بكهربائية سالبة . ولا يمكن احداث تفاعل بين عناصر جسم الا بتسليط عامل آخر عليه كالحرارة او النور او الكهربائية، اوجسم آخر له خاصة احداث التفاعل بينها . كذلك لا يمكن ايجاد الصلة بيننا وبين الاحياء المجردة عن المادة الا بوجود وسيط تكون له خاصة في ايجاد تلك الصلة .

وقد شوهد ان خاصة الوساطة ليست بقاصرة على احد الجنسين ولا على المصابين بأمراض عصبية ولا على ذوي اسنان أو معارف محدودة

فمن الوسطاء رجال ونساء ومنهم المصابون بأمراض عصبية، والاصحاء الذين هم في أكمل حالات القوة، ومنهم الطاعنون في السن، والاطفال الذين لم يجاوز عمرهم تسعة أيام، كما شوهد ذلك لبنت اللورد سيمور كيركوب فانها أمسكت القلم بيدها وكتبت به رسالة عن لسان جدتها المتوفاة أمام والدها ووالدتها ومربيتها، ومنهم الجاهلون الاميون والعلماء والاعلام

ثم أن الوسطاء يختلفون في الخصائص فمنهم وسطاء يرون بأعينهم من العالم الروحاني مالا يراه غيرهم، فيصفون ما يرونه للمجربين ويعينون لهم موضعه، فيسلطون آلة التصوير على ذلك الموضع فترتسم عليها عين الصورة التي اخبر عنها الوسيط. والآلة خير شاهد على ان المرئي ليس بخيال .

ومنهم وسطاء يسمعون مالا يسمعه سواهم من أصوات الارواح فيلقون الى المجربين ما يسمعونه من الاجوبة على أسئلتهم مما لا يعرفه الوسيط ولا يخطر بباله ولا يستطيع ان يجيب به لقصوره عنه .

ومنهم وسطاء يكتبون فتستولي الروح على يد أحدهم وتكتب ماتشاء ان تكتبه بينما يكون الوسيط ملتفتا الى يمينه أو يساره يحادث المراقبين له . وقد شوهد

وسطاء تستولي الروح علي يد احدهم اليمني وتكتب جوابا علي سؤال ، وتستولي روح أخرى علي يده اليسرى فتكتب جوابا علي سؤال آخر، وروح ثالثة علي لسانه فتجيب علي سؤال ثالث، كل ذلك في وقت واحد.

ومنهم وسطاء تتجسد الارواح بحضرتهم فيلمسها المجربون ويفحصون اعضاءها ويزنونها ويقيسون طولها ويسألونها فتكلمهم وتعمل لهم من الخوارق مالا يخطر ببالهم . وقد تظهر عدة أرواح في آن واحد ثلاثة أو أربعة أو اكثر منهم الذكر والانثي والشاب والشيخ فتجول بين الحاضرين وتلمسهم وتطالب اليوم أن يصوروها بآلة التصوير، بينما يكون الوسيط متشنجاً ملقي علي كرسيه ومراقباً من اثنين او ثلاثة من المجربين . فلو تخيل متخيل ان أعين المجربين قد انيمت نوماً مغناطيسياً فرأت ماليس بموجود، فهل انيمت آلة التصوير أيضا فرسمت ماليس بموجود؟

هذه أمور خارقة للعادة تحققت علميا وتكررت تجاربها ملايين المرات في كل اقطار العالم المتمدن منذ سبعين سنة، وهي التي حولت الى المذهب الروحاني رؤوساً استمعت على كل مؤثر في الارض . وسنأتي على أمثلة من هذه التجارب مع بيان التحوطات التي اتخذت لها في مقالتنا التالية لهذه.

التحوطات التي تتخذ ضد الوسطاء

لما شاعت أول حادثة لظهور الارواح في هيدسفيل، وخاض فيها الناس من كل قبيل، استنكرها رجال العلم كل الاستنكار وجزموا بانها خرافة روجها المدلسون لسلب اموال الناس، واكتفوا بنفيها هي وامثالها مما شاع اذ ذاك علي صفحات المجلات والجرائد ولم يتنزلوا لبحثها اعتقاداً منهم بأنها لا تستحق النظر . فلما كثر خوض الناس فيها واخذ في الدفاع عنها بعض ذوي العقول الكبيرة من أمثال المستر (ادمون) رئيس مجلس شيوخ الولايات المتحدة بأمريكا، وعدد من الكتاب والادباء، خف بعض العلماء لبحثها لا لظنهم ان فيها حقيقة تستحق الاعتبار ولكن

ليثبتوا للناس بالدليل المحسوس وجوه الاحابيل التي وقعوا فيها تحت تأثير الوسطاء الخادعين . فتولوها بأساليبهم العلمي الصارم وتحوطاتهم البالغة أقصى غايات الاحتراس . ناهيك بقوم ماديين لا يعتقدون بوجود شيء في الكون غير المادة وقوتها وقد مرنوا من محاولاتهم العلمية على عدم التسليم الا لشهادات الآلات والموازين فأبوا بعد طول التجربة وتكرارها الي التسليم بصحتها وكتبوا في ذلك كتباً سطروا فيها كل ما اتخذوه من التحوطات لاثباتها . فتولي النقدة العلميون مباحثهم بالنقد الصارم ولاحظوا على تحوطاتهم أموراً اعتبروها نقصاً وزعموا أنهم لو كانوا تداركوها لظهر لهم التدليس ظهور الشمس . فكان من يليهم في البحث من العلماء يستدركون كل مالوحظ على على من سبقهم من النقص حتى بلغت بهم الوسوسة في ذلك الى حد ليس بعده مزيد . فكانوا يأتون بالوسيط الى جامعة من جامعاتهم أو معمل من معاملهم العلمية ويجردونه من ملابسه ويفتشونها ثم يدخلونه حجرة خالية من الاثاث الا كراسي وخوانا ويغلقون بابها ويختمونه بالشمع ويأخذون مفتاحها معهم ثم يجلسون الوسيط على كرسي ويربطونه عليه ربطاً قويا بحيث يؤثر الرباط في معصميه وذراعيه وفخذيه حتي تستحيل عليه الحركة قيد أنملة . ثم يسمرون أطراف الاربطة على الارض ويختمون العقد بالشمع . ثم يضعونه وهو وكرسيه في قفص من الحديد ويوصدون عليه بالاقفال ولا يكتفون بذلك بل يصلون به سلكا من آلة الجلوانومتر لتسجل عليه جميع حركاته وسكناته ، ثم لا يقنعون بكل هذا بل يوكلون به اثنين منهم يراقبانه طول مدة التجربة . وكان الذي يحدو هؤلاء العلماء لركوب هذه الخطة الصارمة جزمهم المطلق باستحالة وجود خارق للعادة في الطبيعة ، وباستمرار الحوادث فيها على نواميسها المقررة ، وأن تلك الخوارق المزعومة هي من الشعوذة البالغة أقصى درجات التمويه والسبك . ولكن كانت تذهب كل تحوطاتهم سدي فيستمر ظهور تلك الخوارق على أتم ما يكون . فاضطروا أمام هذه المشاهدات — وما يضطر أمثالهم امر هين — أن يعترفوا علناً بوجود عالم روحاني بعيد المدى ، يمكن أن نتصل به بحضرة وسيط

حاصل علي خاصة الوساطة بيننا و بينه

وقد تكررت هذه التجارب مع كل هذه التحوطات في كل مدينة راقية على يد رجال يعتبرون في مقدمه أقطاب العلم العصري، أتينا على ذكر بعضهم في مقالاتنا السابقة . وقد بلغ هذ المذهب من العمر اكثر من سبعين سنة وهو يزداد رسوخاء وتزداد مشاهداته وضوحاء حتي اصبحت من الحقائق التي لا يصح الامتراء فيها ، ولم تكن تجارب هؤلاء العلماء انفرادية ولكن تألفت لها في كل عواصم البلاد المتمدنة الجميات، ومنها مايعد عمرها الآن بعشرات السنين ، من أكبرها شأنا جمعية المباحث النفسية التي تأسست في لندرة سنة ١٨٨٢ واتخذت لها أعضاء من أعلام العلم الرسمى في فرنسا وايطاليا وأمريكا وغيرها وهي لاتزال عاملة الآن فيكون عمرها خمسين سنة ، وقد دونت مباحثها وتجاربها في عدة عشرات من المجلدات الضخمة ، وتولي عضويتها ورئاستها أكبر علماء الارض ممن لا يصح اتهامهم بالقصور عن ادراك نقص الدليل، ولا بالتقصير في اتخاذ أي ضرب من ضروب الاحتياط . بل هم الذين علموا الناس أساليب البحث عن المجاهيل ووجوه الاحتراس للتجارب . ولا يعقل أن هؤلاء الاراكين في العلم والفلسفة يبقون طوال هذه المدة مخدوعين لا يفرقون بين الشعوذة والظواهر النفسية على كثرة النقدة المحيطين بهم . بل هم أنفسهم أئمة النقد وزعماء الشكوك .

وقد استقدم هؤلاء العلماء أكبر الوسطاء الى دورهم من أقصي الارض، وتكلفوا في ذلك الالوف المؤلفة من الجنيهات، وصبروا على بحثهم السنين الطوال. وقد الفت كتب في تاريخ بعض وسطائهم منها كتاب وضعه المسيو (ساج) عن الوسيطة الامريكية (مدام بيبر) دعاه باسمها ووضع عليه العلامة الفلكى الاشهر (كاميل فلامريون) مقدمة طنانة ونحن ننقل للقراء بعض ماجاء فيها من طبعته الثالثة صفحة (٣١) :

« متى عرض الانسان مشاهدات من هذا القبيل علي القارئ . فاول ما يتبادر الي ذهنه افتراض التدليس، فيعتبر الوسيط خادعا ويري أنه قد دبر حيلة بمهارة في

على الخفاء . فالامر في نظره لا يعدو الاحتيال والتدليس . فلأجل متابعة هذه المباحث بفائدة يجب ابعاد هذا الفرض، ولكن ليس ذلك بالامر السهل فان اكثر الناس جبلوا على ان يكبروا من فطنتهم الذاتية ويسيئوا الظن على وجه عام بفطنة سواهم . وتجد كلا منهم يعتقد في نفسه بأنه لو كان مع المجربين لكشف الغطاء عن التدليس بأسرع ما يكون . وعليه فلأجل اقناع الناس يجب ان لا يهمل أي ضرب من ضروب الاحتياط والتحرز، ويجب استخدام جميع الوسائل لذلك وهذا هو الذي قام به مشاهدو مدام بيبر كما سيراه القراء »

ثم ذكر ماتخذه المجربون عليها في أمريكا من ضروب الاحتياط حتي عينوا عليها وعلى جميع اعضاء بيتها الجواسيس ثم قال :

« ولكن لأجل ابعاد فرض التدليس نهائيا رأي بعضهم ان يرفع مدام بيبر من البيئة التي هي فيها وينقلها الى مملكة لا تعرف فيها احداً، وهذا هو الذي حدث فعلا. فان بعضاً من علية أعضاء جمعية المباحث النفسية دعوها الي انجلترة ليجربوا عليها هنالك، فلبت دعوتهم ووصلت الي انجلترة في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٩ على الباخرة شيئا من بواخر شركة كونار . فخف لاستقبالها الاستاذ فريدريك ميرس الذي حزن لفقده حديثا علم البسيكولوجيا وأوصلها من ساعة قدومها الي بيته في كمبردج، ولكنه في اللحظة الاخيرة دعي الى ادمبورج فرجا صديقه الاستاذ اوليفر لودج (المدرس بجامعة كمبردج) ان ينوب عنه في اضافة مدام بيبر فأضافها الاستاذ لودج في بيته، هي وبنتيها الصغيرتين اللتين كانتا معها . وفي مساء ذلك اليوم نفسه عاد المستر ميرس وأرجعها الي بيته في اليوم التالي :

فابتدأت التجارب على ذلك في كمبردج . الي ان قال :

« الخلاصة ان في مدة الخمس عشرة سنة التي لبثتها التجارب مع مدام بيبر أخذ المجربون بكل الآراء التي ابداها المعارضون المكذبون لاجل كشف التدليس، وكان بعضهم من المتعنتين، فلم يكتشف شيء من ذلك، وذهبت جميع المجهودات سدى. فيجب اذن ان يبحث عن علة هذه الخوارق في غير التدليس »

(الفرق بين الشعوذة والوساطة)

كثيراً ماشبه البعيدون عن التجارب الروحية الوساطة بالشعوذة والفرق بينهما كما رأيت عظيم جدا . فالوسيط يعرى جسمه ويفتش ويربط ويوضع في قفص من الحديد ويوصل بجسمه سلك كهربائي اقتجيل أصفر حر كاته عليه، ويوضع تحت مراقبة صارمة، ويقع في صرع شديد يلحقه بالجادات . ولكن المشعوذ يكون مطلق اليدين والرجلين، يذهب ويجيء بين المتفرجين لا يسأل عما أخفاه من الادوات والآلات، بل يحضر معه على مرأى من الناس من العلب والاسلاك والاواني ما يعتمد عليه في خدع أعين الناس . ويبث في وسط الحاضرين من مساعديه من يحتاج اليهم في تمويه أعماله . والمتفرجون يعرفون كل ذلك ويرون له الحق فيه .

ثم ان المشعوذ يعرف عنه انه درس هذا الفن وتتلمذ فيه لاستاذ وتمرن عليه تحت اشرافه سنين . ولكن الوسيط قد يتفق ان يكون بعض العلماء المجربين أنفسهم او بعض زوجاتهم أو بناتهم ممن لم يدرسوا الشعوذة ولا تتجه اليهم ريبة فكان الكاتب السياسي والاجتماعي الخطير (ستيد) الانجليزي، واسطة لنفسه تستولى الروح علي يده فتكتب، بينما يكون هو مشغولا عنها بشيء آخر . وكذلك كان الاستاذ ستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد . وكان الوزير الرومي الخطير (اكزاكوف) يجرب علي امرأته . وكان المستر ادمون رئيس مجلس أعيان الالويات المتحدة يجرب على بنتيه . ولما اجتمعت لجنة الجمعية الملكية الانجليزية لفحص خوارق الاسبرتزم، وكانت مكونة من ثلاثين عالما، كان واسطتهم واحدا منهم (راجع مقالتنا الاولي) . فما أعظم الفرق بين الوسطاء والمشعوذين وما ابعد وجوه الشبه بينهما !

(تعليل الخوارق التي تظهر بحضرة الوسطاء)

لما ثبت للعلماء المجربين صحة هذه الخوارق ثبوتا ليس معه تردد اخذوا في

تعليلها بالعلل المعروفة غير مبالين بما يدعيه سواهم من نسبتها الي أرواح الموتي . فافترضوا افتراضات كثيرة وأطالوا الجدال فيها عشرات من السنين فلم يظهر أن واحداً منها يصلح لتعليل جميع مشاهدات الاسبرتزم غير فرض واحد وهو عزوها الي أرواح الموتي . وقد رضي هذا الفرض جمهور من العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع الا عدداً منهم محصورا لا يزال يرجي رأيه الاخير. ومع هذا فهو لا يخفى عن الناس انه يرجح التعليل المذكور. اما نحن فسنأتي على مجموع هذه التعليلات ونبين وجوه عدم كفايتها في التعليل الا الفرض القائل بوجود عالم روحاني وراء هذا العالم باقلام العلماء المجربين انفسهم بعد أن نفرغ من الاتيان علي بعض تلك التجارب وعلى ضروب التحوطات التي اتخذت لها، ليكون القارئ علي بينة من تفصيلات هذا الموضوع الخطير.

• • •

تجارب العلماء

على الوسطاء

نشرنا هذه المقالة بمجلة المقتطف الصادر في شهر يونيو سنة ١٩١٩

لما ظهرت الحوادث النفسية تنفي بعض المقررات العلمية المعروفة تلقاها العلماء اولا بصفير الاستهزاء ظنا منهم أن اوهام الازمان الماضية تحاول أن تستعيد دولتها في عصر العلم التجريبي، ولم يزيدوا علي ذلك فلما كثر ترددها اندفع بعضهم لكشف حيل الدالسين مدرعين بالاسلوب العلمي الصارم ، فلما قاومت كل مجهوداتهم اتهموا مشاعرهم وحواسهم ولم يسلموا بتلك الظواهر وان كانت محسوسة لشدة رسوخ المذهب المادي في نفوسهم، فزعموا انها من الخيالات التي تتراءى للانسان وهو في حالة الاستهوا ، وفرضوا ان للوسطاء تأثيراً علي المجربين يشبه تأثير النوم

المغناطيسي علي المؤمنين فيرون الصور التي تطوف بخيال منيميهم كأنها حقائق مجسدة وماهي الا خواطر لا وجود لها في الواقع .

هذه شكوك لا تطوف برؤوس العامة ولا يعرفونها ، ولكنها من رجال العلم ضرورية ، فان الموضوع الذى كانوا بصدده في منتهي الخطورة ، و كان هو المعركة الفاصلة بين المذهب المادي والمذهب الروحاني في الواقع .

فكان الاستاذ الكبير كروكس ، الذي وفاه المقتطف حقه في الشهر الماضي من الرثاء ، يرى أيدى تتكون أمام عينيه فتلمس الحاضرين وتسلم عليهم مصافحة ، وتمسك القلم فتكتب صحفا طويلة رداً علي كل سؤال يوجه اليها . ويرى أجساداً بشرية تامة تتكون امامه من مادتها الاولية فتكلمه وتسمح له بفحصها بكل وسائل الفحص العلمي وتجيب علي أسئلته الفلسفية اجابات يقصر عنها الوسيط بل لا يفهمها . ورأى ألوف من العلماء غير هذه المرئيات عينها في كل بلد متمدن ، فكان هم هؤلاء العلماء ان يثبتوا أولا أن هذا الجسد المتكون شيء له حقيقة في الخارج وانهم ليسوا بمخدوعين بمظاهر خيالية ولدها ذهن الواسطة واوجبها عليهم الاستهواء الذى قد يكونون وقعوا فيه بتأثيره . حتي اذا ثبت لهم ان تلك الظواهر ليست خيالية وانها مستقلة عنهم وعن الواسطة بحثوا عن حقيقتها كما يبحثون عن المحسوسات في عالم الشهادة ، فعمدوا أولا الى استشهاد الآلة الفوتوغرافية فرسموا تلك الايدى والاجساد الكاملة واتخذوا لذلك من التحوطات ما يليق بمكاناتهم العلمية ، فكانوا يأتون بآلاتهم الخاصة وبزجاجات حساسة لم يمسها يد قبلهم ويتولون التصوير بأنفسهم ، فكانت شهادة الآلة موافقة لشهادة أبصارهم . والجمادات كما لا يخفى لا تقع في الاستهواء ولا تتأثر من الخيال ، الا أنهم لم يقنعوا بذلك ، فكانوا يأخذون خصلا من شعور تلك الاجساد المتكونة وقطعا من ثيابها ، كما فعل الاستاذ كروكس والوزير الروسي اكزاكوف وغيرهما ، ليكون بقاؤها واستمرارها بغير حضرة الواسطة أكبر دليل علي انها ليست بخيالات ولكن حقائق . فاستمرت تلك الاشياء موجودة وصرح كل أولئك العلماء وفي مقدمتهم الاستاذ كروكس بأن تلك الاشياء لا تزال موجودة عندهم وقد مضي علي بعضها نحو

خمسين سنة

الا ان الشكوك العلماء لاتقف عند حد فطلبوا المزيد،لان المسئلة في حقيقتها معركة فاصلة بين مذهبين يتنازعان السلطان على عقول البشر منذ الوف من السنين. فاخترع الاستاذ (دونتون) *Donton* ، الجيولوجي الامريكي المشهور، وسيلة حاسمة لهذه الشكوك، وهي اخذ قوالب تلك الاعضاء بواسطة البارافين الذائب. وقد نشر اكتشافه في مجلة (البنراوف لايت) الامريكية، ونقله عنه الوزير الروسي المشهور (الكسندر اكزاكوف) في كتابه المسمى (الانيميسم والاسبرتسم)، وهو أشهر واكبر كتاب في علم الارواح،لانه ثمرة جهود هذا الرجل العظيم في مدي خمس وخمسين سنة،وقد ترجم الي عدة لغات . قال الاستاذ دونتون:

« علمت اخيرا انه لو غمس أصبع في البارافين الذائب وترك حتي برد تأتي للانسان ان يسحب اصبعه منه بسهولة ، ثم اذا ملىء هذا القالب بالجبس امكن الحصول على شكله بالدقة، فكتبت للمستر هاردي ارجوه ان يهيي لي جلسة للتجربة مع مدام هاردي،ولم اكشف له عن الطريقة التي نويت الجرى عليها . فما لبث ان دعاني الي بيته فذهبت اليه ومعي شيء من البارافين والجبس فوضعت البارافين ذائبا تحت خوان وجلست مدام هاردي واضعة يدها عليه، وجلست انا والمستر هاردي الى جانبيها ولم يكن معنا غيرنا.

« بعد قليل سمعنا حركة في اناء البارافين، وبواسطة القرع على الخوان أمرت الروح مدام هاردى ان تقدم يدها بضعة سنتيمترات،ففعلت ، ولم نلبث ان حصلنا على عشرين قالبا لاصابع ذات حجوم مختلفة منها اصابع اطفال واصابع كبيرة للغاية وكانت الخطوط الجلدية ظاهرة فيها اكمل ظهور، وكان طول اكبر ابهام منها يبلغ ضعفي طول ابهامي وكان أصغرها يبلغ طول اصبع طفل عمره سنة واحدة

« بينما كانت تحدث هذه القوالب كانت يد الواسطة علي بعد قدمين علي الاقل من البارافين . فالفت انظار الوسطاء الى هذا الاسلوب فانه يثبت المنكر حقيقة تلك الاشباح ووجودها مستقلة عن جسم الوسيط » انتهي.

وكتب هذا الاستاذ بعد ذلك الى مجلة (البنراوف لايت) يقول: « واحد
« رأيت أثناء التجارب ظهور الاصابع المتجسدة مغطاة بالبرافين مرارا عديدة او تغاضب
قال الوزير اكراكوف في كتابه المقدم ذكره صحيفة ١٣٢ من النسخة الفرنسية لعل
الطبعة الثالثة :

« تصور الاستاذ دونتون اقامة الدليل التالي وهو انه وزن البارفين قبل التجربة ثم وزن مابقي منه بعد التجربة مضافة اليه القوالب التي أخذت فكان وزن الجميع مساويا للوزن الاول تماما . وقد جرب هذا الوزن على رؤوس الاشهاد مرارا كثيرة امام جمهور غفير بواسطة لجنة عينها الجمهور نفسه . وقد أعيدت هذه التجارب في بوستون وكارلستون وبورتلند . وبالتيمور وواشنجتون وغيرها من المدن فنجحت في جميعها نجاحا تاما . ولكن النقاد لم يعتبروا مع هذا انفسهم مقهورين فزعموا ان الوسيط يمكنه ان يرفع بيده او برجله جزءا من البارافين يخفيه بوسيلة من الوسائل . فطلبوا ان يوضع الوسيط في كيس وان يربط من عنقه وعملت التجارب معه وهو على تلك الحالة امام الجمهور نحو عشرين مرة فكانت النتائج ثابتة تحت مراقبة اللجنة التي عينها الجمهور نفسه .

« ولكن هذه التحوطات لم تقنع المنكرين فزعموا ان الوسيط يمكنه ان يفتق الكيس ويخرج منه يديه ويعمل مايريده ثم يخيطه ثانية ولو ان اعضاء لجنة المراقبة لم يشاهدوا مايبرر هذا الفرض . فعزموا ان يتخذوا تحوطات اخرى تصلح لاعطاء البرهان القاطع المطلق على صحة هذه التجارب . فاقترحوا ان تؤخذ القوالب داخل صندوق مغلق بمفتاح . قالوا اذا نجحت التجربة مع هذا الاحتياط الجديد كان برهانا دامغا وحاسما . فاليك وصف الصندوق الذى عمل خصيصا لهذه التجارب باشارة الدكتور جاردنر »

ثم وصف الصندوق بأنه من الخشب المصفح داخله بالحديد وخارجه بشبكة من ذلك المعدن ايضا وجعل له اقفال متينة واطال فى ذلك ثم قال:

« واذا كنا قد أطلنا في بيان تفصيلات هذا الجهاز فذلك لان عليه يقوم الحكم

خمسين سنتيمترا .

الاضرنا بعد ذلك عند مدام هاردى وكان المجربون الكولونيل فريدريك فاصاجون وتيرلى وج.س درابر وايبس سارجنت ومدام دورا بريفام والمسيو الاى وزوجته .فبدأ الكولونيل بوب، وهوخبير بالنجارة، ففحص الصندوق من كل جهاته.وتقدم المجربون فأطالوا البحث فيه .ثم أرادوا ان يتحققوا هل من الممكن توسيع ثقب من الثقوب بآلة حديدية، ثم أعادته الى ما كان عليه، فحاولوا ذلك فوجدوه مستحيلا

« وضع الصندوق المستر وتيرلى وأتي بوعاء فيه ماء بارد في غاية الصفاء فوضعه في الصندوق بعد أن فتشه جميع الحاضرين .ثم أتي بوعاء فيه ماء مغلي وعلي سطحه قشرة ذائبة من البارافين وبعد فحصه بدقة أيضا وضع في الصندوق وأقفل بالاقفال . ولزيادة الثقة ختمت ثقوب تلك الاقفال بالشمع وختمت به كذلك جميع جهات اتصال الغطاء بالصندوق ثم جعل عليه غطاء من القماش .

« بعد اربعين دقيقة سمعنا قرعات سريعة حادة آذنتنا بنجاح التجربة ، فتركنا اماكننا ورفعنا الغطاء وفحصنا الاختام فوجدناها لم تمس ثم فحصنا الصندوق فوجدناه علي ماكان عليه فرفعنا الشمع وفتحنا الاقفال، فوجدنا قالبا ليد عائما علي سطح الماء فاضطررنا ان نستنتج من ذلك ان قوة لها خاصة التجسد عملت ذلك القالب ووضعته في وعاء الماء ولم يكن بينه وبين يد الوسيطة أقل شبه»

فاليك النتائج التي وصلنا اليها :

(١) حدوث قالب يد آدمية في حجم اليد الطبيعية بواسطة قوة مجهولة.

(٢) الشروط التي حدثت فيها التجربة لاتدع ظلا من شبهة يحوم حول نزاهة الوسيطة.

(٣) كانت كل التحوطات من العناية والدقة بحيث تنفي كل شبهة في التدليس وفي تأثير الوهم ولذلك فنحن نعتبر شهادتنا نهائية

(٤) هذه التجربة حققت ماشاهده الباحثون من قبل وهو ان ايديا

قد تتجسد فتتفاد بعقل منبعث من كائن غير مرئي ويمكن نظرها ولمسها . ... واحد

(٥) حدوث قوالب من البارافين بانضمامها الى شهادة آلات التصوير أو تغلب منهما برهان محسوس علي تأثير قوة عاقلة خارجة عن الاجساد المرئية وهذه التجربة لعل تصلح أن تكون قاعدة للابحاث العلمية . ... ال

(٦) كيفية حدوث هذه القوالب داخل الصندوق تؤدى الى آراء سيكون لها أكبر تأثير علي فلسفة المستقبل وعلي المسائل النفسية والفزيولوجية ، وستفتح أفقا جديدا للمباحث في القوي الخفية وفي مستقبل الانسانية » .

ثم يلي هذا المحضر امضاآت المجربين

قال الوزير اكزاكوف عقب ايراده هذا الكلام ان لهذه التجربة صبغة كافية من الصحة اذا نظر للاشخاص الموقعين عليها ، نخص بالذكر منهم الاستاذ دنتون والدكتور جاردنر . وقد كتب المستر ايبس الكاتب الكبير الى مدير مجلة الاسبريتواليست بلوندرة ما يأتي :

« لقد شهدت التجارب المذكورة فانا اضمن الصحة التامة للمحضر الذى قدم عنها »

ثم نقل الوزير اكزاكوف شهادة النحات الامريكى المشهور (جون دوبيان) في الجبس المنصب في ذلك القالب وغيره قال :

« أشهد بأني نحات ونقاش امارس صناعتي منذ ٢٥ سنة ، منها عدة سنين أمضيتها في ايطاليا لدراسة أعمال كبار اساتذة النحت والتصوير ، وقد عرض علي المستر هاردى سبعة أشكال من ايد عملت من الجبس ذات حجوم مختلفة ففحصتها في ضوء حاد بواسطة الزجاجة المكبرة فرأيت ان كلا منها يعتبر من الاعمال الدقيقة العجيبة ، لانها تظهر جميع الدقائق التشريحية والبروزات والانخفاضات الجلدية بدقة ومهارة لم استطع للآن مجاراتها في أى يد صنعتها او في اى جزء آخر من أجزاء الجسم البشرى ، اللهم الا اذا اخذت بواسطة الصب المباشر علي الجسم أو على اى جزء آخر منه .

خمسين سنة اعلن هنا عن طيب خاطر بأن هذه القوالب لو تحصل عليها بأية طريقة الا فانها تشرف اكبر صناع العالم . الخ الخ »

فاصلا الامضاء (جون دوبيون)

الا قال الوزير اكزاكوف وقد اشترط فى التجارب التي اجريت في انجلترة بواسطة الدكتور مونك ان تقدم الارواح القوالب وهي لاتزال في ايديها للحاضرين فاليك بعض ماكتبه المستر (ريمرس) فى ذلك (وهو من قضاة الانجليز) :

« بعد ان سمعنا حركة الماء أمرت ان أقف مكاني واستلم القالب بيدى فرأيت رجلا ممدودة الي وعليها القالب فامسكت به فانسحبت منها الرجل بسرعة البرق تاركة القالب فى يدى ».

وذكر الوزير المذكور عن تجارب المستر تييد من مارتيز والمستر اوكسلي والمستر ريمرس بأنهم ادخلوا الوسيط في كيس من التل وجعلوا رأسه في داخله ثم عقد طرفه عدة عقد وجعل عليها عقدة خفية من الورق تسقط اذا تحرك اقل حركة وشبكت أطراف الاربطة بالدبابيس في ظهر الوسيط وشهد جميع المجربين بأنه يستحيل علي الوسيط ان يخرج من الكيس بدون ان يرى .

ونقل المؤلف المذكور عن الدكتور (روبيرت فريز) تجاربه في اخذ القوالب بلوندرة فذكر فيما كتبه قوله :

« اذا اخذ القالب علي يد عادية فيستحيل سحبها منه فان محيط المعصم اصغر بنحو بوصة ونصف البوصة من محيط الكف ، فلا يمكن سحب اليد الطبيعية من القالب الا اذا تمزق . فيمكن تعليل سحب الروح المتجسدة ليدها منه بدون تمزيقه انها تنحل فيه وتتركه » .

ونقل الوزير المذكور ماكتبه المستر (ديسمون فيتزجيرارد) العضو بجمعية مهندسي التلغرافات بلوندرة وهو قوله عقب ذكر تجاربه التي عملها والتحوطات التى اتخذها :

« لاجل فك الوسيط من اربطته اضطررت ان اقطع تلك الاربطة لعدم

نجاحي في حل عقدها، وأستطيع أن أؤكد بأن موضع الوسيط وحالة الأس واحد بالضبط في آخر الجلسة على ما كانت عليه في أولها ».

نأو تقلب

ادخال الوسيط في قفص من الحديد

لما حار الشاكون في أمر حصول هذه القوالب رأى الدكتور الد ال الانجليزى المعروف كما نقله عنه الوزير اكزاكوف ان يدخل الوسيط في قفص من الحديد وان يقفل بابه لا بمفتاح بل بالمسامير ذات البرغي (أى ذات القلاووز) فرأي رغما عن هذا التشدد كله تجسد روح امرأة ثم تجسد روح رجل جاس اليه كلاهما واعطوه هو والمجربين معه قوالب لارجلهما .

هذا بعض التجارب التي عملت لاخذ القوالب فى أكبر عواصم العالم المتمدن، وعلى أيدى رجال مرت الشكوك مهدمائهم، وهي تثبت بالحس ان المجربين لم يكونوا مخدوعين ولا مصابين بالاستهواء، وان تلك الاشباح المتجسدة لها وجود حقيقي في الخارج وليست بصور خيالية . واني أترك للقراء الحكم على تلك التحوطات وعلى قيمة المجربين، وأذكرهم بأن هذه التجارب تعمل منذ سبعين سنة الي اليوم ولم يستطع منكر اثبات التدليس فيها . وليست هذه التجارب بشي فى جنب ما سيراه القراء. فالحدث الذي حني رؤوس أقطاب المذهب المادى واركان العلم الرسمى في اوروبا ليس بالشيء الصغير . ولا عجب ان حنت هذه المشاهدات ارفع الرؤس فان المكابرة في المحسوسات ليست من العلم ولا من الحكمة ، والكون كبير وقواه لا تحد، وما علمناه منها بواسطة حواسنا الخمس القاصرة لا يعد بجانب ما لم نعلمه شيئا ، فيا صاح لا تقنع بانك صاح .

خمسين سنة لما نشرنا هذه المقالة في الجزء نفسه جاء في المقتطف ما يأتي :

الا

فاما

الا

الامتحان العلمي

في المباحث النفسية

كل ما وقفنا على نتائجه قبل الآن من الامتحان في المباحث النفسية إما قام به شخص واحد فوجب أن تكون نتيجته حسب هواه أو استعداده او اقتناعه السابق أو تغلب الوهم عليه ، وإما قام به اثنان او ثلاثة في يوم أو يومين أو ايام قليلة ، فكان عرضة للخطأ أيضاً ، ولذلك لم تصبح هذه النتائج من الحقائق العملية مثل غيرها من المكتشفات الحديثة كالتلغراف السلكي واللاسلكي والتلفون السلكي واللاسلكي والاحتراق الداخلي الذي بني عليه استنباط الاوتوموبيل والغواصات والطيارات ، وكاصل الامراض المنسوب الي المكروبات وعلاجها بالمصل المستخرج منها ، ونحو ذلك مما امتازت به السنون الخمسون الاخيرة . ولا عبرة بما يقال من ان الارواح استخدمت في اكتشاف مواقع المياه في الارض والاستدلال على المخبآت والانباء بما أصاب بعض الجنود في الحرب فان ذلك كله مشمول بالريب ولو كان صحيحاً لذاع في أطراف المسكونة ورأينا العمل به في هذا القطر كما نرى العمل بالتلغراف والتلفون والطيارات والاتوموبيلات والتطعيم بالمصل في علاج الدفتيريا والتيفويد .

وبعد فقد وقفنا الان في مجلة نانشر الصادرة في ١٧ ابريل الماضي على خلاصة امتحان مستفيض في المباحث النفسية في اعظم معهد علمي بأمريكا ذلك أن المستر توماس ستانفرد اخا الند ستانفرد منشيء الجامعة الشهيرة في كاليفورنيا وهب تلك الجامعة عشرة آلاف جنيه لكي تستخدمها في المباحث النفسية ، وكان

الدكتور جوردان العالم الشهير رئيسا لتلك الجامعة، فسأل أساتذة فرع اس واحد هل يقبلون هذه الهبة ويتولون هذا البحث فترددوا أولا في قبولها، ولكنهم تغلب ونظروا في الامر واستشاروا أساتذة الجامعات الاخرى فقر القرار أخيرا على العمل بالهبة والجرى في الامتحان، وعينوا الدكتور كوفر لادارة هذا العمل وهو من أ..ال علماء البسيكولوجيا (أى علم النفس أو الفلسفة العقلية)، وقد نشر الآن تقريره الاول وهو مجلد ضخم فيه ٦٦٣ صفحة .

وفي القسم الاول من هذا الكتاب خلاصة التجارب التي جرّبت في التلبثي أى انتقال الافكار لحزر أوراق اللعب ونقط الزهر وما أشبه فكانت نتائج عشرة آلاف امتحان علمي مدقق أجريت في تلامذة المدرسة الذين يميلون الى الاعتقاد بقراءة الافكار سلبية كلها .

ثم أجريت التجارب في عشرة من شديدي الشعور النفسي وخمسة منهم وسطاء في السبرتزم وكلهم من المخلصين المعتقدين بصحة شعورهم، وقد تبرعوا لاجراء الامتحان فيهم من غير أجر فكانت نتيجة الف امتحان أن شدة الشعور النفسي لا تفيد أكثر من الوسائل العادية، أى أن حزرهم لم يزد على ما يتفق حدوثه حسب قواعد الصدفة .

والتجارب التي أجريت لاثبات انتقال الشعور من شخص الى آخر كانت نتيجتها كلها سلبية أي لم يثبت منها انتقال الشعور .

أما التجارب التي جُربت لمعرفة تأثير العقل الباطن كما أشار الفيلسوف برغسن، فدلت على وجود شيء من الشعور لا يتناوله الوجدان في الغالب ، ولكنه مستعد لدخول الوجدان ويدخل فعلا في وجدان بعض الناس، والمرجح أن لهذا الشعور يدا في ما يروي من حوادث التلبثي أو انتقال الافكار كما اثبت البعض

ومما امتحن أيضا ما يتصور الانسان انه سمعه اذا كان الكلام الذي سمعه غير واضح تماما سواء كان الكلام من فم متكلم في الهواء أو بآلة كالتلفون أو الدكتافون، فظهر أنه لا يمكن الاعتماد على الاذن في سماع الاسماء والجمل اذا سمعتها في أحوال

خمسين سنة

الثمت مجلة نانشر ما كتبته عن هذا الكتاب عا مفاده ان الدكتور كوفر قام فاصب منه ونشر نتائج تجارب على غاية الدقة قام بها رجل مجرّب

" هـذا ما وصل اليه البحث العلمي الدقيق حتى الآن ولـكن هـذه النتيجة لا تنفي أن يتصل البحث والتحقيق غداً الى اثبات أمور كثيرة لم يستطعها اثباتها حتى الآن لانه يبعـد عن العقل أن لا نثبت الارواح وجودها بأدلة مقنعـة كما أنـه لا يستحيل أن يكون شعور الانسان لايزال ضعيفا وقـد يرتقي حتى يدرك ما لايدركه الآن ".

• • •

هذا ما نشره المقتطف فى ذلك الجزء ووجدنا في باب المسائل منه أيضا رداله على سؤال وجهه اليه أحد قرائه تصدى فيه لهذه المباحث ونحن ننشر السؤال والجواب عليه كما ورد ثم نرد عليه وعلى المقالة معا فاليك :

(١) السر وليم كروكس والسبرتزم

مصر . طالب علم . أراكم تخطئون السر وليم كروكس فى اعتقاده صحة مناجاة الارواح مع اعترافكم بأنه من أكبر العلماء الطبيعيين المكتشفين . أفلم يكن علمه كافيا لان يعصمه من الانخداع اذا كان الوسطاء خادعين حقيقة ؟

ج . ان العلم بشيء لا يستلزم العلم بكل شيء فاكبر علماء الشرع لا يستلزم علمهم به أن يعلموا أيضا أصول علم الهندسة أو اصول علم الطب أو أصول علم الكيمياء ، بل أن النابغين في علم من العلوم قد يعتمهم نبوغهم فيه من ادراك غيره ، حتى لقد ادّعي بعضهم ان النبوغ فى أمر نوع من الجنون أو يلازمه شيء من البـله في أمور أخرى . ونحن نبرىء السر وليم كروكس من ذلك ولكننا لا نبرئه من الانخداع ، فقد اعتقد ان الوسيطة مس كوك « على تمام الصدق والاخلاص » فوثق بها تمام الثقة ، واعتقـد أيضا أن الوسيط هوم من الصادقين واستعمله كثيراً كوسيط في مباحثه النفسيـة . لـكن هوم هذا قال للمسيو فلامريون الفلـكي الشهير أن مس كوك دجالة وقد خدعت

السر وليم كروكس . وهذا نص عبارة فلاماريون في كتابه الاخير المطبوع واحد
أو ثقاب
سنة ١٩١٧ :

(هنا أورد المقتطف عبارة كاميل فلاماريون باللغة الفرنسية ثم أورد ترجمتها لعل
ال
بقوله)

أي قال المسيو هوم نفسه ان رأيه أن مس كوك خدّاعة ماهرة وقد خدعت ذلك العلامة الشهير بدناءة

وقال فلاماريون في مكان آخر من كتابه هذا :

(وهنا أورد المقتطف أيضا عبارة الاستاذ كاميل فلاماريون باللغة الفرنسية ووضع ترجمتها كما يأتي :)

« اى ان المشاهدات التي شاهدتها مدة أكثر من أربعين سنة لم تثبت صحة شيء بل اثبتت لي عكسه »

ونحن لم نر من المشاهدات قدر ما رأى فلاماريون ولكننا رأينا منها (مدة اكثر من أربعين سنة) ما أقنعنا بأن اعمال الوسطاء كلها من قبيل الشعوذة والخداع والانخداع وقد يخالطها شيء من محفوظات العقل الباطن ينطق به الوسيط وهو لا يدرى . وهي سخيفة تافهة الى حد ان قلنا فيها مرارا ماقاله الشهير هيكسلي وهو « اني افضل ان اكون زبالا هنا على ان اموت وتأتي روحي الى وسيط فتنطق بالسخافات التي تنطق بها الارواح بلسان الوسطاء المأجورين بجنيه كل جاسة »

وقد نقلنا الشواهد المتقدمة من مقالة للكاتب الكاثوليكي الشهير وليم . الي *W.S.Lilly* نشرت في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر وهو يعتقد ان الارواح تحضر احيانا في جلسات الهبنوتزم ولكنها ليست أرواح الموتى كما تدعي بل ارواح الشياطين . فخلصنا من ورطة اوقعنا في شر منها ، والعقول مختلفات ، أما نحن فقد رأينا الذين يصابون بالاستهواء يتكلمون بخفة روح كالحشاشين في اول تحشيشهم ويظهر لنا ان تنبه الفريقين من قبيل واحد (انتهى كلام المقتطف)

خمسين – نحن على مقالة المقتطف وجوابه على السؤال بهذه الرسالة وقد نشرت فيه
قام
بادر في يوليو سنة ١٩١٩:

تجارب العلماء

على الوسطاء

أرى من متعلقات هذا المبحث ان آتي بكلمتين في بيان معنى المباحث النفسية فقد غمض على القراء التفرقة بين معنى هـذه الـكلمة فى مقالاتي ومعناها في مقالة المقتطف التي وضعها فى صفحة ٥٤٤ عنوانا للجملة التى اقتطفها من مجلة ناتشر الامريكية فنقول :

كلمة *Psychisme* تطلق ويراد بها جميع المباحث المتعلقة بالنفس، فمنها مباحث في المغناطيس الحيواني وأخرى للحالات المختلفة للاستهواء وغيرها في التلبثي، وهي تأثير نفس الحي على نفس اخري لحي آخر من بعد، ومنها مباحث في العقل الباطن، ومنها مباحث فى خواص الوساطـة وما يحدث بسببها من الاتصال بالعالم الروحاني ومخاطبة العوالم التي فيها، وظهور الخوارق للمادة بتأثيره . كل هذه الابحاث توصف بكلمة (بسيشيك) أي نفسية . فالفرع الذى بحث فى جامعة كاليفورنيا هو المسمى بالتلبثى والعقل الباطن ولسنا نعول عليهما في مبحثنا في المقتطف لان المسلك اليهما وعروهما حديثا عهد بالظهور ولم تتهذب وسائل التجربة فيهما بعد ، ولكننا هنا نعول على الفرع المثبت للعالم الروحاني والاتصال بالاحياء التي فيه، والخوارق التي تحدثها المجربين . هـذا هو الاصل في هذه المباحث وعليه المعول فى اثبات العالم الروحاني وقيام الروح مجـردة عن المـادة . فسواء استطاع اساتذة جامعة كاليفورنيا ان يثبتوا التلبثى التى اثبتها اساتذة جامعة كمبردج الانجليزية (لدج وميرس وهودجسون) او لم يستطيعوا فالعالم الروحاني مثبت بالتجربة بخواص الوساطة التي نتكلم عنها هنا ،

ولعل المقتطف يريد من قوله عن هـذا المبحث : «إما قام به شخص واحـد فوجب ان تكون نتيجته حسب هواه أو استعـداده أو اقتناعـه السابق أو تغلب الوهم عليه،وإما قام به اثنان اوثـلاثة في يوم أو يومـين او ايام الخ » قلنـا لعل المقتطف يريد بهذا القول مبحث التلبثي، اما مبحث خواص الوساطـة والاتصال بالعـالم الروحاني الذي نتكلم عنـه هنا فلا ينطبق عليـه هـذا القول،فان اول قرار علمي صدر في اثباته كان من لجنة الجمعيـة العلمية الانجليزية ، وكانت مؤلفة من ثلاثين عالمًا من اركان العلم العصرى وقد استمروا في بحثها ثمانيةعشرشهرا،وتقريرهم المفصل لذى رفعوه مطبوع في مجلد ضخم بالانجليزية والفرنسية ولغات اخرى . وقد تألفت في أمريكا وانجلترا وفرنسا جمعيات للبحث تعـد بالمئات نأتي علي اسمائها وعنوانات مجلاتها ان طلب منا ذلك. اشهر هذه الجمعيات جمعية المبـاحث النفسية التي تأسست في لوندرة سنة ١٨٨٢ اى منذ سبع وثلاثين سنة ولاتزال موجودة للآن وهى مؤلفة من اكبر علماء الانجليز ولها مجلة خاصة ولفروعها بفرنسا وامريكامجلات ايضا . يدير مجلة الفرع الفرنسي الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي والمدرس بالجامعة الطبية بباريز .

فهذا الفرع بحثته الجماعات لا الافراد،ودام البحث فيه عشرات السنين لا يوماً ولا يومين، حتي صارت مشاهداته أقرب من مشاهدات علم الطبيعة،وعددمجلاته اكثر من عدد المجلات الطبية. منها مجلة (المغناطيس والعلوم النفسية) وهى تصدر منذ ٧٣ سنة و (المجلة الروحية) وعمرها ٦٢ سنة وغير ذلك مما لايكفيني في بسطه عشرات الصفحات

واست اختم هذا الفصل حتي انبه القارىء الي تدليس احد رجال المذاهب والي فضيلة المقتطف . ذلك ان المقتطف في رده علي سؤال طالب علم صفحة ٥٩٧ أتي بعبارتين للعلامة (كاميل فلاماريون) نقلا عن مقالة المستر (وليم للي) ظهر من ورائهما العلامة فلاماريون من اشد المنكرين للمباحث النفسية . وأى انكار بعـد ان يقول جربت اكثر من اربعين سنة فثبت لى عكس مايقال؟

قرأت هذا الكلام فدهشت لاني أعرف ان كاميل فلامريون يكتب في اثبات العالم الروحاني بالتجربة الي مايو الماضي . فتناولت كتابه الذى نقل منه القس وليم الي فلم املك نفسي من الضحك اذا وجدته فعل بكلام العالم الفلكي مافعله بعض الرافضة بالقرآن الكريم في آيتي « لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى » « وويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فأخذ المستر وليم الي صدر كلام فلامريون وترك بقيته لجاء المعني مباينا لما قصده المؤلف ومظهراً له بغير صورته الحقيقية واليك تكلة هاتين العبارتين :

جاء في عبارة العلامة فلامريون بعد قوله : «وقد خدعت ذلك العلامة الشهير» قوله « وانه هو وحده دانيال دوجلاس هوم الوسيط الوحيد الذى يمكن ان يوثق به ثقة مطلقة » ومن الغريب ان الاستاذ المؤلف وضع هذه الجملة الاخيرة بالخط الواسع ادلالا علي غاية الاستهزاء بالوسيط هوم . ثم قال عقب ذلك :

« والذى علم وشاهد منافسات الوسطاء ، وهي لاتفترق عن منافسات الاطباء والممثلين والموسيقيين والنساء ، لايري لحديث المستر هوم هذا قيمة حقيقية ذاتية» انتهى فالاستاذ كاميل نقل قول هوم مستهزئا به لامثبتا له.

وقد سلك (وليم الي) هذا المسلك عينه في عبارته الثانية . وذلك ان (كاميل فلامريون) بعد ان سرد مشاهداته ومشاهدات غيره في كتابه (القوي الطبيعية المجهولة) أراد ان يجد لها تعليلا علميا فعرض جميع التعليلات ومنها التعليل القائل بأن هذه الخوارق من عمل ارواح الموتي فلم يقبل هذا التعليل (١) وقال انه في مدي بحثه أربعين سنة لم يرما يؤيده مع اعتقاده صحة المشاهدات ورأى ان يعزوها اما لمجموع عقول المجربين أولا رواح مجردة مجهولة الطبيعة.

ثم قال بعد ذلك في صفحة ٥٨٨

« ومع ذلك فان الفرض الروحاني يجب حفظه في مستوي الفروض السابقة

---

(١) (المقتطف) ان القرينة في جوابنا وفي كلام المستر الي تفيد نفي فلامريون لمناجاة أرواح الموتي لاغير

لان المجادلات لم تدحضه الي الآن ».

ثم زاد في هامش تلك الصفحة قوله :

« كانت تحت نظرى حديثا مشاهدات تشهد لهذا الفرض (الروحاني) فالاولي والثانية من الاحدى عشرة مشاهدة يمكن ان تكون عرفت من القواميس والثالثة والخامسة من الجرائد (اى مرت روح الوسيطة فقرأت ذلك عندما سئلت عنه في القواميس والجرائد)، ولكن بالنسبة للسبع الاخرى نرى ان قبول صحة شخصية الروح هو احسن الفروض المفسرة لها ».

ومن المدهشات ان العلامة (فلامريون) الذى أظهره لنا المستر ولي بمظهر أشد المنكرين أنحي بأشد اللوم على الذين ينكرون صحة هذه التجارب بعد ان جازت كل أدوار الامتحانات فقال بعد تأنيبه المنكرين:

« هذا التعليل الساذج الذى مؤداه ان كل ما في هذه الظواهر ليس قد عرضناه كثيرا في هذا الكتاب وجادلنا فيه ودحضناه وقد صار قرائي يعتبرونه في الرجوع محكوما عليه حكما تاما مطلقا نهائيا ومطروحا خارج دائرة البحث » انتهي

ولكن بقدر ما أضحكني تدليس المستر (وليم ولي) اعجبني المقتطف في عزوه الكلام الي ناقله وتحميله تبعته، وهذا من التحفظ الذى يجب علي كل متكلم في العلم ان يتوخاه .

عود لموضوعنا الاول

أكتب هذا الفصل وبين يدى عشرات من مؤلفات العلماء وتقارير الجمعيات وكلها خاصة بالتجارب الروحية في كل ضرب من ضروب القوى النفسية فما علي الا ان اختار وان اختار الا تجارب أهل العلم الطبيعي فهم أعلم بسلامة الدليل وطرق الامتحان وفي قلوبهم من الجحود الالحادى ما يحملهم علي زيادة التدقيق، فكلمة واحدة من مثل وليم كروكس أو اوليفرلودج او سيدجويك تفوق في نظري مئة الف كلمة

من كلمات ستيد وساردو وفيكتور هوجو من كبار الكاتبين ونبغاء الشعراء من المصدقين بالاسبرتزم . ولو كان الذى يشهد للاسبرتزم عالم أو عالمان لقلنا مجنون أو مجنونان ، ولكن عددهم أصبح يقدر بالالوف وفي كل أمة متمدنة فلا يعقل أن البله والجنون يشمل هذا العدد العديد من رجال العلم النابهين في مدى سبعين سنة

بعد أن تحقق أهل العلم أن ما يحدث من الخوارق في أثناء تجاربهم ليس بخيالات عمدوا الى النظر في القوة العاقلة التي تحدث هذه الظواهر وتدعي انها من سكان العالم الروحاني . فقالوا ان لم تأتنا هذه القوة بدليل معنوي يمكن الركون اليه سهل تعليل حصول تلك الخوارق بتأثير روح الوسيط أو مجموع أرواح الحاضرين أو من عامل آخر يبحث عنه .

لهذا اهتم العلماء كل الاهتمام بالحصول العقلي لهذه التجارب فسألوا تلك الكائنات عن مسائل شتى في العلم والفلسفة والامور الغيبية ليتحققوا مما اذا كانت كانت الاجوبة التي تعطيها عنها يمكن تعليلها بأنها صادرة من عقل الوسيط أو عقل أحد الحاضرين نقلها من طريق قراءة الافكار (اون كانت قراءة الافكار من متعلقات العلم الروحاني أيضا) . فنختار من ألوف التجارب التي بين أيدينا ثلاثا احداها موضوعها اجابة الروح على مئة مسألة علمية من أعوص المسائل . والثانية حلول مسائل فلكية والاخبار بوجود جرم سماوي قبل اكتشافه بثمانية عشر عاما . والثالثة اتمام الروح لنصف رواية كان وضعها الكاتب الانجليزي الطائر الصيت ديكنز ومات قبل اتمامها فجاءت روحه فأتمتها امام أعين المجربين :

١ — اجابة على مئة مسألة علمية

كتب العلامة ب . ت باركس *Barkas* الجيولوجي الانجليزي العضو بالجمعية

الجيولوجية في مجلة (اللايت) الانجليزية يقول :-

«دعيت لحضور سلسلة من جلسات روحية تجريبية في بيت امرأة ليست من الوسيطات المأجورات، تربيتها العلمية عادية، فالقيت عليها مسائل كنت أحضرها في أثناء التجربة، وكانت تجيب عليها كتابة في جلسات تستغرق الواحدة ثلاث ساعات، فدأبت على ذلك ٣٦ ليلة ، فجاءت الاجوبة من السداد والقوة بحيث لا يوجد في انجلترا كلها فيما يرجح رجل واحد يستطيع أن يجيب اجابات بهذه الدقة في مثل هذه الاحوال على كل هذه المسائل »

وجاء في مجلة (بسيكولوجيال رفيو) الانجليزية ذكر عن هذه التجارب في الصفحة ٢١٥ من مجلدها الاول قالت:

«ولا يجوز أن يغيب عنا أن الوسيطة تربيتها عادية ، وكانت محاطة برجال يراقبونها بيقظة، وكانت المسائل تحضر وقت انعقاد الجلسة وهي تجيب عنها كتابة بسرعة عظيمة كأنها ترتجلها ارتجالا، ثم لا تعود بتصحيح بعض ما كتبته. وكانت هذه المسائل من علوم شتى لا تميل اليها النساء عادة . ويؤكد الذين عرفوها فوق ذلك انها لا تهتم بالعلم ولم تقرأ في حياتها كتاباً علمياً واحداً»

وقال الوزير الروسي اكزاكوف في كتابه (الانيميسم والاسبرتسم) عن هذه التجربة في صفحة ٣٣٠:

«كان أكثر المسائل يحضرها الاستاذ باركس أثناء التجربة ولا يطلع عليها احداً من الحاضرين . وكانت الوسيطة تكتب الاجوبة عليها في الظلام وهي متنبهة »

ثم سرد الوزير عدداً من تلك المسائل وما أجابت به الروح عنها ونحن نختار سؤالين منها ليرى القراء مبلغ صعوبتها وهما :

(١) هل تستطيع أن تقول لي (يخاطب الروح الذي يحرك يد الوسيطة) كيف يمكن حساب العلاقة التي تربط الذبذبات النوعية للهواء المأخوذ بحجم معين وتحت ضغط ثابت على حسب السرعة المعلومة للصوت أو السرعة المحددة بواسطة قاعدة نيوتن ؟

(٢) هل تستطيع أن تفسر لي اصل الذبذبات الهوائية الناتجة من الانقسام الناقصة ؟

هذان سؤلان من مئة ليس في بلادنا هذه واحد يجيب عنها ولا يوجد في انجلترا كلها،وهي مركز العلم والعلما ،واحد يستطيع أن يجيب عليها كلها بدون تحضير فهل يعقل أن تجيب عنها امرأة تربيتها العلمية عادية وأن تكتبها بسرعة البرق وفي الظلام وهي تحادث الحاضرين في اثناء اشتغال يدها بالكتابة ؟ قبل ان يسرع المنكرون الى تعليل هذا الامر انقرأ ما كتبه عنها باركس نفسه في مجلة (الاسبريتواليست) الانجليزية ونقله عنه الوزير اكزاكوف فى كتابه فيما قاله :

« يوافقني كل انسان على ان هذه الاجوبة المختلفة لا يعقل أن تصدر الامن انسان واسع الاطلاع جداً على أعرض الفروع المختلفة للعلم،وقد اعطتنا الوسيطة غير هذه الاجوبة المختصرة رسائل تامة على الحرارة والضوء والفزيولوجيا النباتية والكهرباء والمغناطيس والتشريح ويمكن أن يقال أن كل واحدة من هذه الرسائل تشرف رجلا من رجال العلم . وجميعها صدرت منها بدون تحضير وبلا اقل تردد

« والوسيطة طول مدة التجربة تكون في حالتها العادية وتحادثنا وتجيبنا على كل سؤال نوجهه اليها في الامور العادية بلا تكلف ولم يبد اثر للعالم الخفي عليها الافي استيلائه على يدها وتحريكها بارادته دون ارادتها.

« فاني اشهد بأني قد وضعت بنفسي اكثر هذه الاسئلة ، وان الوسيطة لم تعرفها قبل ذلك بل لم يكن في جميع الحاضرين من يعرف عبارتها غيري . وقد كتبت اكثر هذه الاسئلة بدون تحضير عقلي،فكانت الوسيطة تجيب عنها تحت نظرنا وكان يستحيل عليها ان تستمد الاجابة عليها.

« واضيف الى هذا انها لم تأخذ بنسا واحدا اجرة على تلك الساعات التي سخرتها فيها،وهي لاتقل عن مئة ساعة ضحتها بكل نزاهة لدرس الخاصة الجليلة التي لها في الوساطة »

انتهى

لما نشر الاستاذ باركس تجاربه هذه عنيت بها جمعية المباحث النفسية واعتبرت بعد نقدها من التجارب التي تستحق الاعتبار ودونتها في مجموعتها.

وكتب الوزير اكزاكوف الي العلامة باركس يسأله امورا ايضاحية فأجابه بكتاب ننقله من الانيميسم والاسبرتسم تأليف الوزير المذكور صفحة ٣٣٨ قال باركس :

« سيدى : تسألني عما اذا كنت انا نفسي استطيع ان اجيب علي الاسئلة الطبيعية التي وجهتها الي الوسيطة بمثل الدقة التي اجابت بها عنها ثم تريدون ان تعلموا الوجه الذى نستند عليه في القول بأن هذه الاجوبة ليست نتيجة قراءة الافكار . فأجيبكم بأن الاسئلة التي وجهتها الى الوسيطة في علم الطبيعة كنت استطيع ان اجيب علي بعضها ولكن بأقل اتقان منها.

« وقد كانت الاجوبة التي اجابت بها الوسيطة علي وجه عام تفوق معارفي كثيرا في ذلك الوقت (قبل ١٢ سنة) وهي لاتزال ارقي من معارفي الحالية اذا طلب مني ان أجيب عنها بدون تحضير.

« وفي هذه الاجوبة كثير من المصطلحات الفنية كان لايدور بخلدي أن آتي بها لعدم استعمالي لها . ويوجد في تلك الاجوبة أيضا عبارات أجهلها كل الجهل كقولها غشاء ادنيه *Adnée* فلم اصادف في هذه المدينة كلها (نيوكاسل اون تاين) غير طبيب يعرف معناها .

« واني استطيع ان اوكذلك بشرفي اني لم اكن استطيع ان اجيب بمثل هذا التفصيل علي جزء كبير من المسائل الطبيعية التي وجهتها الي الوسيطة بدون ان اطلع عليها احدا وكان من بين المسائل عدة لااستطيع ان أجيب عنها ابدا.

« وقد رجوت أحد اصدقائي ممن يتقنون علم الموسيقى ان يضع لى اسئلة فيها ففعل ولم أحاول انا ان افهمها، ثم وجهتها بعد ذلك للوسيطة فكتبت أجوبتها بدون تردد . تلك الاجوبة التي قرأتموها وقرأها غيركم ولم يكن موسيقى واحد في تلك الجلسة

(يريد بذلك انها لم تقرا الاجوبة في افكار أحد من المجربين) وكانت معارف الوسيطة ذاتها ابتدائية في الموسيقي.

«واني امر جد السرور اذا رأيت ولو حادثة محققة يجيب فيها وسيط حساس من العوام غير منوّم بالكتابة وبعبارات علمية صحيحة ، على اجوبة موسيقية وعلمية بواسطة قراءة الافكار او بتأثير ارادة رجل عالم او موسيقي عليه .

« تسألونني ان ابين لكم المسائل التي كنت لا أستطيع انا ولا واحد من الحاضرين الاجابة عليها فأجيبكم بأنه في الجلسة الاولى التي كانت مخصصة للموسيقي لم يكن في الحاضرين واحد يستطيع الاجابة عنها بجواب معقول . ولم يكن منهم واحد يستطيع الاجابة على الاسئلة الكيماوية والتشريحية والخاصة بالعين والاذن والدورة الدموية والمخ والمجموع العصبي ومواضيع كثيرة أخري تتعلق بالعلوم الطبيعية الا ان المستر (بل) كان على شيء من علم الكيمياء العلمية ولكنه ما كان يستطيع ان يعبر عما يعلمه بسهولة وكنت انا على علم بمبادىء علم الطبيعة . واما بقية الحاضرين فكانوا من ابعد الناس عن هذه المسائل

« تفضلوا بقبول .... الخ »

التوقيع : ب . ت . باركس

وانا لا اتولي بيان قيمة هذه التجربة وقيمة الذى قام بها ، فمن اراد التعليل فليعلل بحركة غير ارادية لليد تجيب على مئة سؤال من اعوص المسائل العلمية لا يوجد في انجلترا كلها من يجيب عليها بدون تحضير فتكتبها بسرعة عظيمة في الظلام او في النور تحت اشراف الحاضرين بينما صاحبة تلك اليد تكلم المجربين بدون تكلف كأن يدها لم تفعل شيئا ، ثم لا تأخذ على هذا اجراً ولا تريد ذكر اسمها ايضاً .

نرجئ ذكر التجربتين الباقيتين للجزء المقبل ان شاء الله

• • •

رد المقتطف علينا

نشرنا في المقتطف هذه المقالة فرد علينا في جواب رد به على احد سائليه من ذلك الجزء نفسه، ونحن نورده هنا ليطلع عليه القراء، ولم نشأ أن نناقشه فيه لانه مجرد شبه يمكن أن توجه الى كل بحث، وفي مجموع مقالاتنا الكفاية في ازالتها. اليك السؤال المذكور وجواب المقتطف

(٤) مناجاة الارواح

ومنه . ذكر محمد بك فريد وجدى في مقالاته (اثبات الروح بالمباحث النفسية) مقتطف ابريل أن قد بلغ هـذا من العمر أكثر من سبعين سـنة وهو يزداد رسوخا وتزداد مشاهداته وضوحا حتى اصبحت من الحقائق التي لا يصح الامتراء فيها وقد تألفت لها في كل عواصم البلاد المتمدنة الجمعيات ومنها ما يعد عمرها بعشرات السنين الخ . ثم قال « وقد سئلت الارواح عن حجج ومستندات ضائعة فبينت مواطنها ، وسئلت عن تفاصيل حوادث وفيـات مجهولة فانبأت عنها، وسئلت عن مقادير ديون فقدرتها، وعينت الدائنين وما لكل منهم بالضبط، واستخدمت في المخابرات بين امريكا وأوربا في أمور معجلة فقامت بما عهد اليها بأ كثر وأضبط من التلغرافات، وسئلت اسئلة فلكية عويصة فأعلمت بأمور لم تكتشف الا بعد سنين عديدة . كل هذه الأمور مقررة ممحصة اكثر من تمحيص الامور الفزيولوجية »

« فكيف نرى حتي اليوم في أرقي الممالك مدنية اموالا طائلة تصرف وعشرات الالوف من الناس تستخدم في اثبات القضايا والجرائم، وكيف يعاني اهل العلم ما يعانونه في اكتشاف غوامض اسرار الطبيعة وعند هذه الممالك ما يكفيها مؤونة البحث والجهد ولا يكلفها غير استئجار الوسيط . فهل العالم في غفلة وسبات الي حد العدم حتي يهمل

ذلك؟ وكيف يصدق ذلك محمد بك فريد مع سعة اطلاعه وغزيره علمه؟

ج . ان ماذكره فريد بك نرجح انه لم ير شيئاً منه بعينه، ولم يقع شيء منه في اختباره، بل قرأه في كتب القوم ومجلاتهم . أما كونه موجوداً في كتب القوم فلا شبهة فيه ولا شبهة أيضا في انه ان كان الذين يصدقونه يعدون بالمئات فالذين لا يصدقونه ولا يعملون به يعدون بالملايين، وهم لا يصدقونه لا كبرا ولا عندا ولا جهلا، بل اما لانهم لم يعلموا به او لانهم علموا به ورأوا انه غير صحيح، وان الذين يصدقونه مغشوشون. وقد وقع لنا ان شاهدنا الذين يقرأن الافكار والذين يستنطقون الموائد والذين يناجون الارواح والذين يخبرون بالغيب والذين يكتبون بالپلنشت، وكان معنا اناس رأوا ذلك معنا واعتقدوا صحته، وبعضهم علماء وبعضهم اطباء، واما نحن فلم نر فيه شيئا خارقا للمادة مطلقا . رأينا مع جمع كبير في اوتل شبرد كمبرلند يقرأ الافكار ويكتب بالعربية وهو لا يعرف حرفا منها، كتب اسما واضحا اضمره احد الحضور وكنا قد فسرنا كيفية عمله لما قابل الخديوى توفيق ورسم صورة فيل الخديوى قد اضمر صورته، ثم لما رأيناه في اوتل شبرد فسر هو كيفية عمله فاذا هي كما فسرناها نحن كما رون في مقتطف فبراير ١٨٩٣ وقد فسرنا اعمالا اخرى للذين شاهدوها معنا فلما رأوها ثانية زالت غرابتها من نفوسهم . وقرأنا بالامس مقالة للكاتب الروحي الشهير المستر ستوت ذكر فيها انباء بعض الوسطاء بعدد الجوهر في عناصر الاجسام، ذكر ذلك معجبا به غاية الاعجاب، مع ان بعضه غير صحيح والبعض الآخر مبهم ويستطيع كل من قرأ اصول الكيمياء وما يظنه الكيماويون من وضع الجواهر في العناصر ان يقول به كما قال الوسيط كأن الوسيط اطلع على كتب الكيماويين التي فيها آراؤهم في تأليف الجواهر موضحة بالرسوم فرسخت تلك الرسوم في ذهنه وذكرها وهو نائم كما يذكر من يحلم حلما ماهو راسخ في ذهنه . والعلماء الطبيعيون في أوربا وأميركا يعدون بعشرات الالوف فلا عجب اذا انخدع مئة او مئتان منهم لاسيما وان العلماء من ابسط الناس في الغالب، واقلهم مقدرة على كشف الخداع . وهذا غير خاص بعلماء أوربا واميركا ولا بعلماء هذا العصر بل هو شائع في كل العصور حتى جاء المثل

العربي القائل « العالم مطية الجاهل » . والذى يقرأ كتب المعتقدين بمناجاة الارواح ولا يقرأ الردود عليها يتعذر عليها ان لا يصدقها ، ولا سيما اذا لم يشاهد حوادثها بنفسه ومعه واحد يفسرها له . وفلامريون من اشهر الباحثين فى هذه المواضيع ويظهر لنا مما استشهد المستر للي من كتابه الاخير انه لا يزال يعتقد بوجود أرواح تؤثر في الاحياء ، ولكنها ليست ارواح الموتي والمستر للي يعتقد انها ارواح الشياطين . ونظن انه لو رأي محمد بك فريد وجدى الوسطاء وسمع أقوالهم وكان معه واحد يشير الى مواقع الخلل فيها لعدل عن رأيه فيهم .

...

تجارب العلماء

علي الوسطاء

نشرناها بالمقتطف في ٥ أغسطس سنة ١٩١٩

قلنا في الجزء الماضى من المقتطف ان العلماء اهتموا بعد اثبات صحة المشاهدات الروحية بالبحث فى الدرجة العقلية لتلك العوامل الخفية ، واخترنا من الوف التجارب التي قاموا بها ثلاثا اتينا على واحدة منها ووعدنا بايراد الاثنتين الباقيتين في مقتطف هذا الشهر فنوفي بما وعدنا فنقول :

قال الوزير الروسى (اكزاكوف) في كتابه (الانيميسم والاسبريتسم) فى صفحة ٣٤١ ما يأتى :

نشر الماجور جنرال (ا . و . دريزون) الانجليزي فى مجلة (للايت) لسنة ١٨٨٤ ، صفحة ٤٩٩ تحت عنوان (حل مسائل علمية بواسطة الارواح) ما يأتى :

« اجابة لما طلبه الى المستر جرك ستوك من إخباره عما اذا كنت استطيع ان او افيه ولو بمثل واحد عن حل الروح أو العامل الذى يدعي انه روح لمسئلة من تلك

المسائل التي حيرت ألباب العلماء في القرن الماضي أتشرف بأن ارسل لكم المشاهدة الآتية التي شاهدتها بعيني رأسي:

« اكتشف وليم هرشل في سنة ١٧٨١ الكوكب اورانوس وتوابعه ولاحظ ان هذه التوابع على خلاف جميع توابع النظام الشمسي تقطع مداراتها من الشرق الى الغرب . فقال ج. ف هرشل في رسالته الفلكية ان لمدارات هذه التوابع خصوصيات شاذة تناقض النواميس العامة التي تحكم اجرام المجموعة الشمسية . وذلك أن مستوي هذه المدارات يكاد يكون عموديا على سمت الشمس فهو يكون معه زواية ٥٨ و ٧٠ درجة وأنها تجري في حركة قهقرية أي أن دورانها حول مركز كوكبها يحصل من المشرق الي المغرب بدل أن يكون على العكس.

«ولما نشر لابلاس نظريته هذه وهي أن الشمس وجميع الكواكب تكونت من مادة سديمية كان أمر تكون التوابع في نظره من المساتير .

« وذكر الاميرال سميث في كتابه (الحوادث السماوية) أن حركة هذه التوابع قهقرية علي خلاف جميع الاجرام السماوية التي شوهدت الى ذلك الحين فكان هذا موضع دهش جميع الفلكيين.

«ونشر في (الجالوري أوف ناتشر) مثل ذلك وهو أن توابع أورانوس تدور من المشرق الى المغرب وهو شذوذ غريب لانظير له في المجموعة الشمسية

«وقد اشتملت جميع الكتب الفلكية التي نشرت قبل سنة ١٨٦٠ على هذا الموضوع فيما يختص بتوابع أورانوس.

«اما انا فكنت لا أجد تفسيراً ما لهذا الشذوذ وكان الامر في نظري من المساتير كما كان في نظر جميع المؤلفين الذين ذكرتهم.

«في سنة ١٨٥٨ نزلت في ضيافتي امرأة حاصلة على خاصة الوساطة فأقمنا جلسات يومية للتجارب الروحية

«في ذات ليلة أخبرتني بأنها تري بجانبي شخصا من عالم الارواح يزعم انه كان فلكيا في حياته الارضية.

«فسألت روحاً عما اذا كانت الآن وهي في عالمها اكثر علما بالفلك مما كانت عليه وهي في حياتها الارضية ؟ فأجابتني بأنها صارت الآن اعلم مما كانت عليه كثيراً. فخطر ببالي ان اوجه الي هذا المدعي بأنه روح سؤالا اختبر به علمهُ فقلت له اتستطيع أن تقول لي لماذا تدور توابع اورانوس من المشرق الي المغرب لا من المغرب الى المشرق ؟

فأجابني على الفور بما يأتي :

ان توابع اورانوس لا تجري في مداراتها من المشرق الي المغرب بل من المغرب الى المشرق علي ذات الاتجاه الذى يجرى عليه القمر في دورته حول الارض. وانما نشأ خطأكم من أن القطب الجنوبي لاورانوس كان مواجها للارض في الوقت الذي اكتشف فيه هذا الكوكب . ولو نظرتم الي الشمس من نصفها الجنوبي ظهرت لكم دائرة من اليمين الي اليسار لا من اليسار الي اليمين .وتوابع أورانوس أيضا تتحرك من الشمال الى اليمين وهذا لا يعني أنها تجرى في مدارها من المشرق الى المغرب .

فسألته سؤالا آخر فى هذا الصدد فاجابني بما يلي :

«مادام القطب الجنوبي لاورانوس متجها نحو الارض بالنسبة لراصد ارضي فان توابعه تظهر انها تتحرك من الشمال الى اليمين .فيستنتج من ذلك خطأ بانها تجرى من الشرق الي الغرب . وقد بقيت هذه الحالة نحو اثنتين واربعين سنة ، ولما اتجه القطب الشمالى لاورانوس نحو الارض فان توابعه رؤيت جارية من المغرب الى المشرق.

فسألته كيف حدث ان هذا الخطأ لم يعرف فى مدى اثنتين واربعين سنة بعد اكتشاف الكوكب اورانوس بواسطة وليم هرشل؟

فاجابني بما يأتي ذلك لان الناس من عادتهم ان يرددوا ما يقوله أئمتهم فتراهم في اعظامهم امر الثمرات التى حصل عليها اسلافهم لا يكلفون انفسهم عناء التفكير والروية فيها.

قال الماجور جنرال دريزون عقب ذلك : فاخذت مستهديا بهذا التعليم في

حل المسئلة هندسيا فرأيت ان تفسيرها في منتهي درجات الاحكام ، وان حلها غاية في السهولة ، فلم يسعني الا كتابة رسالة علي هـذه المسئلة في مذكرات الجمعية الملكية المدفعية في سنة ١٨٥٩ .

« وفي سنة ١٨٦٢ فسرت أمر هذا السر المزعوم في كتاب فلكي صغير دعوته (نظرة في السموات) ولكن تأثير رأى الأئمة كان شديدا حتي انه لم يبدأ اعتراف المشتغلين بعلم الفلك بأن حركة توابع اورانوس منسوبة لموضع محرر هـذا الكوكب الا في ايامنا هذه .

« وفي ربيع سنة ١٨٥٩ لاحت لى فرصة بحضرة الوسيطة المذكورة لحادثة الروح التي ادعت انها روح فلكي فسألتها عما اذا كانت تستطيع ان ترشدني الي حادث فلكي آخر لايزال مجهولا عند البشر . وكنت اذ ذاك املك منظارا مقاس عدسته اربعة بوصات ومسافته البؤرية خمس اقدام . فأخبرتني بأن الكوكب المريخ تابعين لم يرهما أحد من اهل الارض الآن . وقالت لى بأني أستطيع ان اراهما في شروط صالحة لرؤيتهما . فانتهزت اول فرصة لاحت لي لرصد ماأخبرتنى عنه فلم اجد شيئا . فأخبرت بهذا النبأ ثلاثة أو أربعة من اصحابي كنت اجرب معهم في الامور الروحية وقررنا ان لا نكلم أحدا بما أخبرتنا به لاننا لانملك أى دليل علي صحته . وذلك كان منا تفاديا من التعرض للاستهزاء العام .

« ولكني في اثناء اقامتي بالهند فاتحت بذلك المستر سينت ولكني لا استطيع ان أعين متى كان ذلك . فحدث انه بعد ذلك التاريخ بثماني عشرة سنة أى في سنة ١٨٧٧ اكتشف هذين التابعين للمريخ فلكي في وشنجتون » . انتهي

هذه هي التجربة الثانية من التجارب الثلاث التى وعدنا بايرادها لايمكن ان تدل الا بشيء واحد وهو ان الوسيطة كانت أعلم بالفلك من جميع علما زمانها فادعت للعالم الفلكي الجنرال دريزون بأنها تعبر عن روح فلكي ميت وهي في الواقع لاتعبر الا عن رأيها الخاص . ولكن مافائدة هذه الوسيطة من نكران ذاتها الى هذا الحد وهي لو نشرت ماقالته للجنرال باسمها لخلدت ذكرها في تاريخ العلم ؟ وناهيك عن

يعدل رأي مثل الامامين الفلكيين هرشل ولا بلاس وعن يكتشف المريخ تابعين جديدين لم يرهما احد من العلماء من يوم خلق الله علم الفلك الى سنة ١٨٥٩».

اليك التجربة الثالثة :

مات الكاتب الانجليزي الطائر الصيت (شارل ديكنز) عن رواية من افضل رواياته اسمها (اسرار إدوين درود) كتب نصفها ونشره في مجلد وبقي نصفها الآخر حسرة في قلوب طلاب الآداب . فاتفق ان جمعية في مدينة براتلبورغ بأمريكا كانت تجرب مع وسيط شاب صناعته عامل عند بعض الميكانيكيين فحضرت روح ادعت انها روح (شارل ديكنز)الانجليزي وانها تريد ان تكمل الرواية التي تركتها ناقصة. فاوسع تلك الجمعية الا اعلان ذلك وضرب له موعدا ١٥ نوفمبر فاهتم بذلك المستطلعون واوفدت جريدة (ذى سبر نجفيلد دبلى يونيون) مندوبا من قبلها ليحضر التجربة فكتب عنها فيها ثمانية أعمدة ونحن هنا ننقل بعض ما كتبته مجلة الاسبر يتواليست الانجليزية عنها نقلا من كتاب الوزير الروسي اكزاكوف من صفحة ٣٢٦ الى ٣٣٢ قالت المجلة :

«حوالي آخر اكتوبر من سنة ١٨٧٢ أمسك الوسيط المتقدم ذكره القلم وكتب بغير ارادته رجاء بتوقيع روح المستر (شارل ديكنز) بأن تعين الجمعية لها جلسة خاصة في ١٥ نوفمبر لتعمل فيها على اتمام الرواية آنفة الذكر قائلة أنها بحثت طويلا لبلوغ هذا الغرض فلم تجد وسيطا مناسبا لهذا العمل غير هذا الوسيط، وشفعت هذ القول برجاء الوسيط نفسه أن يخصص لهذا المشروع كل أوقات فراغه »

« قبل الوسيط هذا التكليف فكانت الروح تستولى على يده وتكتب صحفا عديدة كل يوم أمام المجربين حتى كتبت من نوفمبر الي يوليو ١٢٠٠ صفحة طبعت في مجلد يحتوى على أربع مئة صفحة

« واليك ما كتبه منـدوب جريدة (السبر نجفيـلد دبلي يونيون) في ذلك العدد :

«نحن هنا بحضرة جمعية مؤلفة من أشخاص لـكل منهم ميزة خاصة وهم يؤدون وظائفهم الى النهاية . وما أشد هـذا علي من لم يكتب في حيـاته ثلاث صفحات في أي موضوع كان (يريد أن الوسيط كان عاميا وأن المراقبة عليه كانت صارمـة) . اما نحن فقد دهشنا عند كتابة أول فصل اذ تحققنـا أنه يشبه النصف المطبوع من الرواية من كل وجه . وقد بدأت كتابتهُ من الجهـة التي ترك الكاتب روايته فيهـا بالضبط . وقد انسبك الـكلامان معـا بحيث أن امهر النقدة لم يستطيعوا أن يعينوا الحد الفاصل بين الكلام الذي كتبه ديكنز في حياته وبين الكلام الذي كتبته روحهُ بعد وفاته .فكل شخص من أشخاص روايته استمر في النصف الاخير منها علي ما كان عليه من الحياة والصفات والاحوال . وليس هذا كل ما في الامر فقد جدت أشخاص أخرى» (وكان ذلك دأب ديكنز لا يزال ينشىء اشخاصا جددا حتي في آخر أدوار رواياته)« لم تكن صورة منقولة من الاشخاص الذين تقدم ذكرهم في النصف الاول من الرواية ولم يكونوا هياكل جامدة ولكن كانوا أشخاصا ذوي حياة ومبتدعات حقيقية . فمن الذي ابتدعها؟

«ثم اليك تفصيلات ذات فائدة عظيمة جدا فاني ببحثي في المسودات وجدت كلمة سائح *Traveller* مكتوبة في كل موضوع بلامين كما هي العادة عند الانجليز في انجلترة بخلافها عندنا في امريكا فلا تـكتب الا بلام واحدة» وكلمة *Coal* فحم كتبت في كل موضوع باضـافة حرف *S* عليها كما هي العادة عنـد الانجليز دون الامريكان . ومن المفيد أيضا أن ننبه علي أن الحروف الكبيرة التي تكتب في أوائل الاعلام كانت في المسودات حافظة الميزات التي كانت لنظائرها في خـط ديكنز وهو حي .ومن المدهشات أيضا الالمام بشكل مدينة لوندرة كما دلت عليه الروح في مواطن عديدة مـن الرواية . وكانت في المسودات أيضا تعبيرات مستعملة جـدا بانجلترة ومجهولة تماما بأمريكا .وأتوه أيضا بالتحول الفجائي في الافعال من الزمن

الماضي الى الزمن الحالي وخصوصا في سياق حديث حي . هذا التحول بعينه كان يكثر وروده في كتابات ديكنز وخصوصاً في مؤلفاته الاخيرة . هذه الخصائص وما يمكن اضافتها اليها ايضاً ذات قيمة قليلة ولكن بمثل هذه الفروق التافهة امكن أن تخيب كل محاولة للتدليس .

وختم المندوب كلامهُ بقوله :

« وصلت الى مدينة براتلبوروغ وانا معتقد ان هذا الامر لن يكون الا كفقاعة صابون يسهل فقأها . ولكني بعد يومين صرفتهما في الامتحان المدقق اعترف بأني عدت وانا حائر . ولقد كنت انكر اولا باعتبار انه مستحيل — كما كان يفعل ذلك كل انسان بعد الاختبار — ان تكون هذه المسودة كتبت بيد الوسيط الشاب . ولقد قال لي بأنه لم يقرأ قط الجزء الاول من هذه الرواية . هذا امر قليل القيمة في نظري لاني مقتنع كل الاقتناع بأنه ليس باهل لانه يكتب صفحة واحدة من المجلد الثاني لهذه الرواية . لا اقول ذلك لاجل اهانته لان كثيراً من الناس ليسوا باهل لتكميل عمل تركهُ ديكنز ناقصا .

« فانا الآن متردد بين امرين : فاما ان افرض ان رجلا عبقريا استخدم الوسيط ليقدم بواسطته للجمهور عملا خارقا للمادة بوسيلة خارقة للمادة كذلك ، وبين مايقوله ذلك العامل الخفي من ان روح ديكنز هي التي كتبته بنفسها . الفرض الثاني ليس بأعجب من الفرض الاول . فاذا كان يوجد في مقاطعة فرمون رجل مجهول للآن يصلح لان يكتب مثل ديكنز فليس له من علة معقولة لان يعمد الى مثل هذه الحيلة . واذا كان ديكنز نفسه هو الذي يتكلم بعد موته فما اعجب هذا الامر .

« واني لاشهد بشرفي بأني اعطيت كل الحرية لاختبار كل شيء فلم أجد أقل أثر للتدليس . ولو كان لي الحق في نشر اسم الوسيط (وقد طلب ان لا ينشر اسمه) لكان ذلك وحده كافيا لازالة كل ظن يعتري من لم يعرفه

« وقد كانت كتابة الوسيط تسرع أحيانا حتى تتعذر قراءتها . وكانت التجربة تبدأ في كل مرة في الساعة السادسة صباحا او في منتصف الساعة الثامنة مساء وكان

نور النهار يبقى الى تلك الساعة في ذلك الفصل . ولكن اذا اظلمت الحجرة بعد ذلك كان ذلك لا يعطل الوسيط بل يستمر في كتابته كأنه في نور ساطع.

«وكان الوسيط يقع في غيبوبة عند استيلاء الروح على يده ويخبر بعد يقظته بأنه كان يرى روح ديكنز جالسة بجانبه وهي في حالة تأمل عميق . واحيانا كانت تنظر اليه نظرات ايحائية يفرق منها . وكان ذلك يحدث للوسيط كانه في حلم . وكان متى أرادت روح ديكنز ان تعلن الوسيط بانتهاء الجلسة تضع يدها الثقيلة الباردة على يده. فكان الوسيط يفزع عند ذلك ويصيح وتخرجه تلك الملامسة من الغشي الذي هو فيه. وكان احيانا يشعر بعد انتهاء التجربة بألم في صدره يستمر طويلا» . انتهى

ونقلت مجلة الاسبريتواليست الانجليزية عقب ايرادها هذه الحادثة قول المستر هاريسون الاخصائي المشهور في هذه المسائل وهو :

« من الصعب التسليم بأن العبقرية والصناعة المتجليتين في هذه الكتابات واللتين تشبهان من كل وجه عبقرية وصناعة شارل ديكنز تدفعان صاحبهما مهما كان شأنه ان يقدم نفسه للعالم على حالة امهر المدلسين».

نقول هذه ثلاث تجارب اخترتها من الوف امثالها ليست باقل قيمة منها يعجز اكبر النقاد الاوربيين عن تعليلها بعلل طبيعية فلنكتف بها الآن ولننظر في المقالة المقبلة الي اى حد وصلت خاصة الوساطة عند بعض الوسطاء وفي استحالة تفسير أحوالهم بالتدليس ومنهم علماء من الطراز الاول وكتاب وشعراء من الطبقة العالية ونساء اميرات من بيوت الملك وزوجات وزراء وعلماء ومثل هؤلاء يستحيل في حقهم العمل لخدع الناس ؛

وقد سئل فاضل المقتطف لماذا لا تعتمد الحكومات على الوسطاء في اثبات الجرائم وكشف الغوامض . فنجيب حضرته متوسلين بذكره اسمنا في سؤاله بأن هذا العلم لا يزال يجاهد لاثبات وجوده ولا يزال خصومه الذين لم يدرسوه يبذلون كل وسعهم لطمس معالمه وذلك صرحه بحجة انه يهدم اساس المذهب المادى ويعفى

على آثاره . والمذهب المادى في نظرهم ثمرة العلم الذى ليس وراءه مرمى ولا بعده مطمح . وقد ثبت بشهادة التاريخ انه ليس اشد على الانسان من تحويله عن عاداته التى شب عليها وتعديل مقرراته التي أنس اليها . وقد ظهر فيه هذا الخلق بأشد حالاته في القرن التاسع عشر حيث بلغت دولة المادة اوج عظمتها وغاية ابهتها . ولولا ان المباحث النفسية تجرى على نفس القاعدتين اللتين اتخذهما المذهب المادى اساسين لاسلوبه وهما المشاهدة والتجربة لماتت هذه المباحث وليدة ولما قاومت العوامل الداحضة لها سبعين يوما لا اكثر من سبعين سنة ولخجل ان يلفظ بها الحوذى الاوربي بله الالوف من اقطاب العلم الذين نذكر بعضهم في كتاباتنا عنها . فمتى انتهى هذا الدور دور النزاع الشديد الذى يسبق عادة ميلاد الحقائق الكبرى تلاه دور الاستفادة والانتفاع . ولا يدرى الا الله مبلغ ماستمكنه على الانسان هذه الفتوحات من النور الالهى وغاية ماتصل به اليه من المدركات العالية المناسبة لمقامه الكريم من هذه الخليقة « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » .

تعليق للمقتطف

(لما نشر المقتطف هذه المقالة علق عليها بما يأتي)

(المقتطف) اننا نأسف لان وجدى بك لم ينصف الذين لم يروا حتى الآن مايقنعهم ان ارواح الموتى تتجلى للاحياء وتناجيهم بالوسطاء فاتهمهم بانهم يفعلون ذلك لانهم ماديون . فكاتب هذه السطور مثلا ليس ماديا اى لاينكر وجود الروح بل لو اراد ان ينكر واحدا من الاثنين الروح او المادة لرأى انكار المادة اسهل من انكار الروح لان الذى يشعر به العقل ليس المادة نفسها بل التأثير الواصل منها الى الدماغ والدماغ اشعر بمثل ذلك ولو لم تكن المادة امامه . وان لم نكن مخطئين فالعلامة فلامريون الذي قضي اربعين سنة يمتحن ويجرب اقتنع ان قوة روحية تفعل بعض

ما ينسب اليها ولكنها ليست ارواح الموتي فكيف لم يقنعه ما نقله الآن وجدى بك بان مفسر حركة اقمار اورانوس ومكتشف قرين المريخ هو روح فلكي مشهور . ومتمم رواية دكنز هوروح نفسه . افلامريون لايصدق ما قاله الوزير الرومي في مسأله فلكية من اختصاصه ومسألة انشائية من اختصاصه ايضاولماذا؟هذا سؤال نطرحه علي حضرة وجدى بك :

تعليقات على ملاحظات

نشرنا هذه المقالة بالمقتطف في شهر سبتمبر سنة١٩١٩ وفيهاملاحظات علي تعليقه المتقدم .

ذيل المقتطف الزاهر مقالتنا الخامسة المنشورة في جزئه الماضي بكلمات ختمها بسؤال وجهه الينا لنجيب عنه . وانا نرى ان في مناقشة تلك الكلمات والاجابة عن ذلك السؤال اكبر فائدةللبحث الذى نحن بسبيلهفليعذرنا حضرات القراء اذا استوعبت هذه المقالة تلك المناقشة وارجأنا متابعة البحث الاصلي للاجزاء المقبلة فان المقتطف مباحث اخري يطالب باستيفائها فلا تتسع صحفه من هذا البحث لاكثر مما نورده اليوم .

تعقيب المقتطف على مقالتنا يشمل قضيتين؟

(الاولي)لومه ايانا علي اتهامنامن لايصدق التجارب الروحيةبالاخلاد الى المذهب المادي .

(والثانية) سؤاله ايانا عن وجه عدم اعتداد كاميل فلامريون الذى بحث هذه الظواهر اربعين سنة باجابة روح الفلكي عن المعاضل الفلكية واتمام ديكنز لروايته الناقصة وكلا الامرين من اختصاصه .

(رأينا فى القضية الاولى)

المكذبون للتجارب الروحية ثلاث طوائف وهم الدينيون والماديون وبعض الفلاسفة والاعتقاديين .

فالدينيون يعتقدون وجود الروح من طريق الوحى، وكتبهم مشحونة بظهور ارواح الانبياء والصالحين فى كل مكان وكل زمان، ولكنهم يطعنون على التجارب الروحية الحديثة من جهة اعتبارات مذهبية، ويدعون أن تلك الارواح المزعومة هي من أخبث الشياطين جاءت لتضليل الناس .

وأما الماديون فيكذبون تلك التجارب جملة وتفصيلا ويدعون ان اخوانهم الباحثين فيها قد وقعوا فى شباك التدليس ، وترددوا في الفخاخ التى نصبها لهم المشعوذون . هكذا كان يقول وليم كروكس وأوليفر لودج وكاميل فلامريون وشارل ريشيه وسيزار لومبروزو وغيرهم . فلما سنحت لهم فرص للتجارب ورأو صحة ما كانوا يكذبونه بالامس واعلنوا ذلك بشجاعة أدبية يحمدون عليها، ضحك منهم المتخلفون وزعموا أنهم وقعوا في فخاخ المشعوذين كما وقع من قبلهم . ومازال الامر يجرى على هذا المنوال منذ اكثر من سبعين سنة حتي بلغ عدد العلماء الذين جربوا الظواهر النفسية وصدقوها حداً فاق ما لكل فرع من فروع العلم فجاوزوا حدود المئين الى الالوف في جميع انحاء المعمور، ووصل عدد من نحا نحوهم من الشعراء والكتاب والاطباء والمحامين والمهندسين والسياسيين الى بضعة ملايين وصار لهم صحافة واسعة النطاق وجمعيات تعد بالمئات . ونقلت المجلة العلمية الاخلاقية للاسبرتزم التى يديرها المهندس (جبريل دولان) في جزئها الصادر فى شهر يونيو الماضى عن جريدة الاكسلسيور ان الكاتب الانجليزي الكبير (كونان دويل) أعلن اعتقاده بهذا المذهب، وعقبت تلك المجلة علي ذلك بقولها أن هذه المباحث قد انتشرت فى انجلترا انتشارا عظيما حتي لا تصادف مجمعا أو ناديا أو ملهى الا وجدت المجتمعين فيها يتجاذبون فيها أطراف الحديث . وقد انتشرت أيضا في أمريكا

على هذا النحو . فمثل هذه الجماهير من كبار المتمدنين لا يعقل ان يعمهم الانخداع عشرات من السنين، وان عقل انخداع الافراد فلا يعقل انخداع الجمعيات الكثيرة التي الفت لهذه المباحث خاصة ومريت عليها فيها الاساليب العلمية العملية.

وقد أحسن العلامة كاميل فلامريون حيث قال في مقدمة كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) صحيفة ٥ :

«كلما فكرت في هذا الامر عراني الدهش من ان معظم الناس لا يزالون يجهلون هذه الحوادث جهلا مطلقا مع انها عرفت ودرست وقدرت وسجلت من منذ زمن ليس بقصير بفضل جميع الذين تتبعوا بنزاهة اتجاه هذا النور الجديد» .

واما الاعتقاديون من اهل العلم والفلسفة فقد اعتبروا الفروق العظيمة بين الحياة الانسانية وحياة الاحياء الاخرى فحكموا بوجود روح انسانية من طريق الظن والترجيح ولهم كلام طويل في هذا الباب سقط كله امام شبهات الماديين حتى خفت صوتهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فانتشر الالحاد في أوروبا انتشارا مريعا وجاءت مذاهب النشوء والارتقاء واخصها مذهب دارون فوصلت بين حلقات الاحياء وحشرت بالانسان في رتبة الحيوانات الثديية، ولم تمنحه الاهذه المزية، وهي انه ارقى انواع هذه الرتبة . واقتدح علماء الفزيولوجيا أفكارهم ليجدوا فارقا بين الانسان والحيوان من جهة العواطف القلبية والميول النفسية والقوى الادبية والعقلية فلم يعثروا على شيء من ذلك الا في الكم دون الكيف. الا ان العلامة دوكاترفارج الفرنسي زعم انه اهتدى الي فارق بين الانسان والحيوان وهو عاطفة التدين فادعي انها هي الوصف المميز لهذا الكائن الذي يزعم غرورا انه ملك الكون . فلم ينتشر رأيه هذا حتى سلقه اخوانه الفزيولوجيون بالسنة حداد وعجبوا منه كيف يجرأ على هذا القول وهو يرى ان الحيوان لا يتجرد من عاطفة الخضوع والخشوع والاسترحام وهي اساس العاطفة الدينية بمعناها العام . فالكلب الذي يتخاشع ويتخاضع امام سيده

ويسترجعه بتحريك ذنبه ليعطف عليه ويرضى عنه اذا آنس منه الغضب لا يفترق عن الانسان فى تخاضعه وتخاشعه عند سماعه زمجرة الرعد وهزيم العواصف أووهو متأثر بطلب مغنم أو دفع مغرم لقوة خفية يظن أن بيدها تصريف هذه الشؤون الكبرى . فعاطفة التدين موجودة كما ترى في الحيوانات العليا ولكن على قدر قواها العقلية . فليس للانسان أدنى ميزة على الحيوان من هذه الوجهة أيضا . وقد أفرد هذا الموضوع بالتأليف .

نعم عدت مذاهب النشوء والارتقاء على عقيدة الروح وان كان دارون نفسه تظاهر بالايمان . ولكن لم يفت هذا التناقض كبار أنصاره من معاصريه فزعم بعضهم أنه تصنع التسامح أمام العقائد ليصد حملات الدينيين عليه وعلى مذهبه . ومن ظن منهم اخلاصه فى ايمانه رماه بالعجز عن استقصاء كل النتائج التي يؤدي اليها رأيه في النشوء والارتقاء

فأين ذهبت زخارف الاعتقاديين من الفلاسفة في امر الروح امام هذا السيل الجارف من الملاحظات العلمية والمشاهدات الفزيولوجية وما تخللها من الحملات القوية على العقائد والموروثات ؟ آوت الي بعض الرؤوس ومن بينها رؤوس كبيرة وجدوا في انفسهم من الجرأة مادفعهم الي الجهر بعقائدهم، فهزانصار التحول رؤسهم متضاحكين ، وقالوا هذا مصداق لناموس الوراثة الذى نعول عليه في نقل الصفات المكتسبة . فان عقيدة اكتسبها الانسان منذ الوف السنين لايمكن ان تزول في أعوام معدودة ، فلا بد من مرور اجيال لتحل محلها المقررات الجديدة.

على ان الباقين من هؤلاء الفلاسفة الاعتقاديين لايعبأن بعقيدتهم فى الروح الا من الوجهة الفلسفية الكلامية ، فهم لا يعملون على استشراقها ولا يأبهون بالباحثين المجربين فيها . وكثير منهم ينتقد هذه التجارب ويدحضها ولم يكلفوا أنفسهم عمل تجربة واحدة ، متأثرين بنفس الاصول المادية التى تغلبت على رجال العلم فى القرن الماضي . وسيرتها في ابطال هذه الحوادث منقولة عن سيرة الماديين انفسهم الذين هم

يزعمون ان ليس وراء المادة مرمي . والا فان الرجل اذا اعتقد فلسفياً أن المادة مجهولة الاصل وانها قد تتحال وتستحيل الى قوة، وان ممكنات الكون غير محصورة وان حواسنا الخمس من القصور والضؤولة بحيث لا تصلنا من الوجود الا باغلظ جهاته، وان العقل قد لا يكون صفة من صفات المادة، ولكن متنزلا من عالم أرقى منها، وأن علومنا الارضية على جلالتها لا تساوى قطرة من بحر العلم المطلق — ان رجلا يعتقد مثل هذه الاصول من الوجهة الفلسفية لا يتحفز لتكذيب كل بحث جديد، ولا يتعجل في البت بنقض كل نظرية بدون امتحان مدقق، ولا يتهم ألوف العلماء وملايين من الاذكياء فيما يدعون انهم شاهدوا أمورا علي الاسلوب العلمي الدقيق في مدى أكثر من سبعين سنة بأنهم مخرقون ضالون . بل يتئد ويستجمع كل ما كتب في هذا الموضوع ويلقي عليه نظرة عامة ويتتبع سير المباحث ويظهر أمامها بمظهر المستعد لقبولها متى بلغ عدد العلماء القائلين بها حداً يستحيل معه اجماعهم علي ضلالة، أو وقوعهم في حبالة، أو اتفاقهم في البلادة العقلية والبله .

ولكن الذين يكذبون هذه المباحث وان كانوا من المعتقدين بالروح لا يسلكون هذا المسلك، ولكن يسرعون الى تكذيبها باعتبار انها مستحيلات علمية أو مظاهر خيالية . وهذا بعينه سيرة الجامدين علي الفلسفة المادية . وهم ما ظهروا بهذا المظهر علي مناقضته لاصولهم الا لتأثرهم على غير علم منهم بأصول تلك الفلسفة وانحصارهم في دائرتها الضيقة . فالعدو اللدود لكل بحث روحاني هو تلك الفلسفة دون سواها سواء كانت بذاتها وجها لوجه، أو بمظهر من مظاهرها الكثيرة في الفلاسفة الاعتقاديين وغيرهم .

لهذا السبب اتهمنا الذين يسرعون الى تكذيب المشاهدات الروحية بدون بحث، أو الذين يهزون أكتافهم عند سماعها لعدم الاهتمام بها بانهم ماديون جامدون علي المادية، فان لم يكونوا ماديين فهم متأثرون بالفلسفة المادية ومحبوسون في دوائرها الحرجة علي غير علم منهم . ولا نخلي العالم من وجود أفراد مثل العلامة صاحب هذه المجلة وقفوا موقف الحياد ولم يتأثروا بالتعاليم المادية الا انهم من القلة بحيث يصح

اغنالهم من باب التغليب

(رأينا في القضية الثانية)

كيف لا يعتقد العلامة كاميل فلامريون بأن روح فلكي مشهور تكشف القناع عن بعض المساتير الفلكية وأن روح كاتب كبير تكمل رواية تركها ناقصة مع أن كلا الامرين من اختصاصه ؟

الجواب : أن كاميل فلامريون بمقتضى مذهبه لا يرتاب في أن روحا من العالم الروحاني تأتي فتحل بعض المعضلات أو تكمل ما تركه بعض الكاتبين ناقصاً . ولكنه يرتاب في صحة شخصية تلك الروح أي في أن تلك الروح الظاهرة هي روح هذا الميت أو ذاك . ويري أن الادلة لديه غير كافية في اثبات الشخصيات ويرجح أن تلك الآثار العقلية أما أحدثتها أرواح المجربين مجتمعة ان كانت لا تتعدي قدرتهم العلمية وإما أتت بها روح من طبيعة غير معروفة للبشر موجودة في العالم الروحاني وهي غير الروح الانسانية . وهو لا يصير الى هذا التعليل الا متي رأي أن تلك الآثار العقلية تفوق قدرة المجربين منفردين أو مجتمعين كما هو الشأن في الاخبار عن اجرام علوية مجهولة أو احداث كتابة ليس في قدرة أحد احداثها غير أفراد معدودين في العالم كله لم يكن منهم واحد في جلسة التجربة .

على ان كتابات الرجل في هذا الموضوع تدل على حيرته الشديدة كما نقلناه عنه في مقتطف يوليو سنة ٩١٩ صحيفة ٤٣ فقد ذكر أن أمامه احدي عشرة مشاهدة تاربعا منها يمكن أن تعلل بأن روح الوسيط سرت فنقلت ما قالته عن القواميس والجرائد وان السبع الباقية منها لا يمكن تعليلها الا بالقول بأنها أرواح الموتي الذين تدعي الارواح بأنهم أرواحهم .

هذا موقف الاستاذ فلامريون وهو بعينه موقف جماعة من الباحثين في الروح ولا بد لنا من كلمة في هذا الموضوع وان لم يجيء وقتها لاعطاء القاري، فكرة عن هذا الباب فنقول :

اجمع العلماء والعقلاء الذين بحثوا في الظواهر الروحية منفردين أو مجتمعين على انها حقة لا يصح الارتياب فيها بعد ان مرت من منخل الامتحان العلمي الدقيق عشرات من السنين . ولكنهم اختلفوا في أمر واحد وهو صحة شخصية الارواح التي تتصل بالاحياء ، هل هي ارواح الاشخاص الذين تعينهم بالاسم ام هي شخصيات تتكون من مجموع أرواح المجربين أو ارواح عالمية أخرى مجهولة الطبيعة أو ارواح الشياطين ؟

فذهب الكثيرون من العلما وفي مقدمتهم الاستاذ الكبير روسل ولاس الفزيولوجي بأنها ارواح الاشخاص الذين تعينهم بالاسم ، مرتكنا على انها لو كانت غير ذلك لما اجمعت في كل بلد ولدي كل امة على انها ارواح الموتي طول هذه المدة ، ولو بدمنها من يصدق المجربين بذكر حقيقتها ولو مرة واحدة .

ثم ان هذه الارواح تأتي فتتجسد على صور اشخاص الميتين ، وتتكلم بلغاتهم ، وتكتب بخطوطهم ، وتوقع بتوقيعاتهم ، وتذكر أهلها بما نسوه من ماضيهم معها ، وتدلهم على مواضع اشياء كانوا ستروها عنهم ، فلو كانت أرواحا غير أرواحهم لما اتقنت التلبيس عليهم الى هذا الحد وعلى هذا الوجه الظاهر .

ثم قالوا او أي حظ للشياطين أو لارواح أخرى في نكران شخصياتها الى هذا الحد وانتحال شخصيات أخري ؟ ان قيل انما تفعل ذلك للتضليل رد على القائل بأنها تأتي بأرفع درجات الحكمة وهي لا تدع وجها من وجوه الاصلاح الخلقي والنفسي الا جاءت به بأبلغ العبارات وأكثرها تأثيرا على النفوس .

ولكن الذى حير بعض الناظرين ان روحا قد تأتي فتدعى انها روح فلان ثم تأتي روح فلان ذاك فتسأل عما قالته في التجربة السابقة فتنكره ، وتقول ان الروح التى جاءتكم قبلي هي روح شريرة اتت لتهزأ بكم في غيبتي

وقد شكا كبار المجربين هذا الامر لتلك الارواح وأظهروا التشكك في صحة شخصياتها من جراء تلك الحوادث . فأجابوا بأن عالمهم كالعالم الارضى فيه الطيب والخبيث . فالخبثاء ينتهزون بعض الفرص لتضليل الناس والسخرية بهم على نحو

ما كانوا يعملون وهم علي الارض . ويحـذرون المجربين من الوقوع في حبالاتهم، ويذكرون ان المميزات التي تميزهم عن اصحاب تلك الشخصيات هي انها تخلط في ماضيها ولاتكتب بخطها، وانما تمثلها تمثيلا ناقصا، فيفتضح امرها بقليل من التأمل كما هو حاصل ،

فمسألة التحقق من شخصية الارواح هي عضلة العقد في المباحث النفسية وهي المسئلة الوحيدة القابلة للاخذ والرد بين العلماء . اما اثبات العالم الروحاني ووجود عالم عاقل فيه مجرد عن المادة يمكن ان تتصل به بواسطة اشخاص ذوى استعدادات خاصة فقد اصبح من البداهة العلمية التي لا يصح التردد فيها بعد ملايين التجارب والمشاهدات السابقة .

فكاميل فلامريون لايكذب كما قلنا ان روحـاً تأتي فتحل مسألة فلـكية . وتكمل رواية ناقصة ولـكنه يرتاب في شخصية تلك الروح هل هي روح ذلك الشخص الذى تعينه بالاسم او روح عالمية اخرى مجهولة الطبيعة . فهو لايرتاب في صحة المسألة ولكنه يرتاب في تعليلها.

وفى ختام هذا البحث نقول ان المعركة القديمة بين الماديين والروحيين كانت قائمة علي امكان او استحالة قيام الروح المجردة بدون مادة . امارقد ثبت بهذه المباحث قيامها بدون مادة فان مسألة اثبات الشخصيات ثانوية . وقد تفنن العلماء في وسائل اثباتها تفننا لايخطر ببال غير امثالهم ، سنأتي على طرف منها حينما نصل في بحثنا الى هـذا الموضوع هنا ان شاء الله.



ملاحظات المقتطف

لما نشرنا هذه المقالة لاحظ عليها المقتطف في الجزء نفسه بمناسبة رده على بعض السائلين ونحن نورد السؤال وجوابه هنا وهما:

(٧) حقيقة أقمار أورانوس

مصر . أحد المشتركين . اقد علقتم على مقالة فريدبك وجدي المدرجة في مقتطف أغسطس مشيرين اشارة المنكر الي ماذكره عن روح الفلكي الذي صار الآن أكثر علما بعلم الفلك، وأن هذه الروح بينت خطأ الفلكيين الذين يحسبون أن اقمار أورانوس تدور حوله من الشرق الى الغرب، لا من الغرب الي الشرق كسائر السيارات وكما يقتضي الرأى السديمي . والي روح الروائي ديكنز التي قيل انها أتمت رواية لديكنز مات قبل أن يتمها . وسألتم وجدى بك كيف أن هذين الامرين لم يقنعا فلامريون بصحة دعوي الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتي بالذات مع ان المسألة الاولي فلكية والثانية انشائية وهما من اختصاصه . ولكن لنفرض ان فلامريون لم يقتنع بأن روح فلكي هي التي بينت خطأ الفلكيين، وروح دكنز هي التى أتمت رواية دكنز، اينفى ذلك كون روح فلكي فسرت حركات اقمار اورانوس وروح دكنز أتمت روايته؟

ج . اننا استشهدنا بفلامريون في هذه القضية كبينة قوية على انه لو كانت الحادثتان صحيحتين لما خفيت عليه صحتهما ولكفتا لاقناعه بأن الروح الاولي هي روح فلكي والروح الثانية روح دكنز نفسه . ومن حيث انهما لم تقنعاه ففي صحتهما شبهة قوية ولو ذكرهما كل وزراء روسيا في كتبهم . وهذا هو الواقع . ولم نهتم نحن بتفنيدهما قبلا لان دعاوى مدعي مناجاة الارواح كثيرة جداً ويستحيل علينا ان نبحث فيها كلها . ولكننا لم نبحث بحثا مدققا في واحدة منها الا وجدناها غير صحيحة او وجدنا شكا

في صحتها . هذه أقار أورانوس لما كشفت ظار انها تدور حوله من الشرق الى الغرب كما قيل ولا يزال علماء الفلك يقولون ان حركتها متقهقرة اي انها تدور من الشرق الى الغرب . قال السر روبرت بول استاذ علم الفلك في جامعة كمبردج في كتابه دليل السماء المطبوع سنة ١٩٠٥ في آخر الصفحة السابعة منه ماترجمته : « ان اقمار اورانوس واقمار نبتون تخالف في سيرها سير كل جرم آخر في النظام الشمسي في كون حركتها متقهقرة » *Rétrograde* وقال العالم انسورث دافز في المجلد الاول من كتابه العلم في الحياة الحديثة المطبوع بلندن سنة ١٩١٠ صفحة ٢١ ماترجمته ان اقمار اورانوس الاربعة حركاتها كلها متقهقرة في سطح يميل ٨٢ درجة على سطح فلك سيارها » . وقال العالم ترماس هيث المساعد الاول في المرصد الفلكي بادنبرج في اطلسه الفلكي المطبوع سنة ١٩٠٣ صفحة ٩٠ ماترجمته : « ان افلاك اقمار اورانوس مائلة على دائرة البروج على زاوية ٨٢ درجة وحركات هذه الاقمار متقهقرة » وجاء في ملحق الانسكلوبيذيا البريطانية المطبوع سنة ١٩١٣ عما تم من التحقيق الفلكي في أمر اورانوس « ان الفلكيين سليفر ولول اثبتا ان حركة اورانوس نفسه على محوره متقهقرة يتمها في عشر ساعات وثلاثة ارباع الساعة » . فما ذكره الوزير الرومي في كتابه غير صحيح سواء قالته الوسيطة او وضعه هو او قالته كل ارواح الموتى .

ورب قائل يقول كيف تعللون اذا كلام الوسيطة العلمي بحدوده العلمية ولو لم يكن منطبقا على الحقائق العلمية . فنجيب أولا أنه ليس ثم دليل على ان الوسيطة نطقت به . وسواء نطقت هي بهذا القول او غيرها فالتعليل عندنا هو هذا : ان القائلين برأي لابلاس الحريصين على اثباته هالهم كون حركات هذه الاقار متقهقرة وحسبوا ذلك ناقضا لرأي لابلاس ، ثم لما رأوا ان فلك هذه الاقار يكاد يكون عموديا على فلك اورانوس قالوا ان حركتها يصح ان تحسب مستقيمة كما يصح ان تحسب متقهقرة . والمرجح عندنا انهم ذكروا ذلك في المجلات والكتب فقرأته الوسيطة وذكرته بشيء من الابهام ان كانت قد ذكرته فعلا . ويحتمل انها فعلت ذلك حينئذ لا

بقصد التضليل، بل ذكرته في غيبوبتها كما يذكر الانسان أمورا كثيرة وهو بين النوم واليقظه مما لا يتذكره في اليقظة . ولكن افلاك هذه الاقمار ليست عمودية تماما على فلك أورانوس حتى يصح ماتقدم بل تقطعه على زاوية ٨٢ درجة ولذلك تسهل رؤيتها متقهقرة . ونرجح اننا ذكرنا اسباب الحركة المتقهقرة فيما كتبناه من بسائط علم الفلك وكون ذلك لا ينقض رأى لابلاس.

اما تكميل رواية دكنز فليس لدينا الآن دليل على تكذيبه، ولكننا نذكر قصة وقعت لنا وهي ان جريدة اميركية يومية عيدت عيد بلوغها مائة سنة على ما نتذكر ونشرت شرحا مسهبا لتقدمها في هذه المدة من سرعة الطبع وسعة الانتشار وبعثت الينا بالعدد الذى ذكرت فيه ذلك . فاستحسناه ونوهنا به في المقطم وبعثنا اليها بالعدد الذى كتبنا فيه عنها فصورت المقطم ونشرت صورته وكتبت فصلا طويلا عنا تقول فيه ان المقطم جريدة يكتبها رجل واحد وهذا الرجل نفسه هو الذى يجمع اخبارها ويكتب مقالاتها ويجمع كل حروفها ويطبعها ويوزعها الى غير ذلك من الغرائب التي تفوق التصديق وينقضها الاختبار. وليس في هذا كله مايشيننا ولكن الجرائد الاميركية لاتحاسب ذمتها في ذكر الغرائب والظاهر ان قراءها يرضون بذلك فلا نستبعد ان تستنبط جريدة اميركية أو مطبعة اميركية قصة مثل قصة رواية ديكنز لكي يكثر قراؤها ويربح طابعها من بيعها . والا فلو كانت هذه القصة صحيحة لكفت وحدها لاقناع فلامريون وكل المشككين في محادثة أرواح الموتى بصحة ماينسب الى هذه الارواح. أو لاستحضروا روح دكنز مرارا وسألوها عن صحة القصة فأخبرتهم الخبر اليقين حتى لم يبق في المسكونة مشكك.

ردنا علي المقتطف

نشرنا هذه المقالة فى المقتطف متابعين بحثنا الاصلي ومضمنين اياها رداعلي مانشره المقتطف من الرد علينا في جوابه السابق.

كلمة في مصلحة هـذا البحث — اني مع احترامى لرأي المقتطف ولـكل رأى يخالف رأيي أري من حقي ان ادفع عن مستنداتى وجوه التجريح.

أجاب المقتطف علي سؤال لبعض قرائه في صفحة (٢٦١) فذكر ان عدم اعتراف كاميل فلامريون بحادثة اقار اورانوس وبقية رواية ديكنز يعتبر بينة قوية علي عدم صحتهما . وقد بينا رأي فلامريون في ذلك الجزء نفسه في امثال هـذه التجارب فلا نعود اليها هنا.

وقد نقل المقتطف أقوال بعض الفلـكيين الذين لايزالون يعتقدون ان أقمار أورانوس تدور من المشرق الى المغرب . وانا اخشي ان يتسرب الى ذهن القارىء ان الجنرال دريزون صاحب هذه التجربة الروحية يحكم بأن ماذكرته الروح اصبح رأى (١) العلماء كلهم . اذلك انبه القارىء الي انه قال كما نقلته عنه في صفحة (١٢٣) من المقتطف :

« وفي سنة ١٨٩٢ فسرت أمر هذا السر المزعوم في كتاب فلكى صغير دعوته

---

(١) (المقتطف) اذا قال عالمان من أشهر علماء الفلك انا رصدنا اقار اورانوس فوجدناها تدور من المشرق الى المغرب لايكون قولهما من قبيل الرأى أو الاعتقاد من قبيل النتائج الحسابية كما إذا قال مهندس اني مسحت الاطيان الفلانية فوجدت مساحتها خمسة وسبعين فدانا . فما وجده الفلـكيان سليفر ولول في مرصد من اكبر مراصد الدنيا منذ بضع سنوات فقط يجب الاخذ به الى ان يثبت انهما غلطا في حسابهما .

(نظرة في السموات)» ولكن تأثير رأى الأئمة كان شديدا حتى انه لم يبدأ اعتراف المشتغلين بعلم الفلك أن حركة توابع أورانوس منسوبة لوضع محور هذا الكوكب الا في أيامنا هذه» انتهى.

فهو يقرر أن الاعتراف بذلك لم يبدأ الا حديثا وهو نفسه باعتباره عالما فلكيا جرى عليه.

وقال المقتطف في صفحة (٢٦٢) عند نقده هذه التجربة (ليس ثم دليل على أن الوسيطة نطقت به) والشك في نسبته للوسيطة معناه الشك في صدق الجنرال دريزون أي يجوز أن يكون قد اختلق هذه الحادثة وقول الوسيطة ما لم تقل.

وفي رأيي أنه لا يصح أن يصير الناقد الي هذه الدرجة من الشك في صدق مجرب الا اذا كانت هناك قرائن تسوغه. ولا نرى نحن قرينة واحدة في ذلك. فالجنرال دريزون حاصل علي أعلى الالقاب العسكرية في أرقي أمة أوربية ومعروف بمباحثه الفلكية وكتاباته من الاعتبار بحيث تسجل في مذكرات الجمعية الملكية المدفعية. ولم ينفرد من بين العالم بالنقل عن الارواح ففي الارض ملايين من أهل العقل والبصر يحذون حذوه في هذه المباحث فأي قرينة تسوغ لنا أن نصمه بنقيصة لا يقدم عليها الا كل مجرد عن الشرف، عار عن الادب.

اما ما ذكره المقتطف عن رواية ديكنز واستشهاده بما ذكرته الجريدة الامريكية عن المقطم ففيه نظر، فان هذه التجربة لم تنفرد بروايتها تلك الجريدة بل نصت عليها مجلة لاسبريتواليست الانجليزية، كما نقلناه عنها في الصفحة (١٢٥) من المقتطف وكانت التجربة في جمعية المباحث النفسية في مدينة براتلبورغ من الولايات المتحدة. وقد تناولها النقدة من الانجليز ومنهم الاخصائي المستر هاريسون فقرروا انها لا تفسر بالغش والتدليس، فليرجع من شاء لما كتبناه عنها في المقالة السادسة.

اما ما ذكره المقتطف عن الجريدة الامريكية التي قرظت المقطم فانا لا أستطيع ان اشك في صحته حرصاً علي آداب النقد ولكني أقول، لعل تلك الجريدة خلطت

بين المقطم والاهرام فان المرحوم بشاره باشا كتب عن نفسه . انه اتي في أول تأسيس الاهرام من المتاعب ما لم يلقه غيره،وقال بأنه كان هو وحده يحرر مقالاته السياسية واخباره اليومية ويترجم تلغرافاته ويرتبها ويشرف علي توزيعه وادارته جامعاً في شخصه بذلك وظائف لا يقوم بها الاعـدة رجال . والا وجب علينا أن نحكم بان الجرائد الامريكية(١) من السخف وقرائها من البله في حضيض ليس دونه حضيض . وهذا الحـكم لا يتفق وما عليه الامريكيون من التبريز في كل مجال من مجالات العـلم والعمل والضرب في المدنية الانسانية بافوز السهوم واوفر الحظوظ.

وبعد فليس رمينا عرض الحائط بكل هذه الشهادات الانسانية والمشاهـدات العلمية التي لوحظت فيها ادق الشروط التجريبية علي ايدي اعقل افراد الامم وابعدهم نظراً واكثرهم شـكوكا من الامثلة الحسنة التي ننقشها في نفوس من يحتـذون شاكلتنا من القارئين. فلو اتيح لي او لحضرة العلامة صاحب هـذه المجـلة ان نجرب هذه المشاهدات ونقرر ما قرره قبلنا الملايين من الفضلاء لما كان حظنا ان استحسنا

---

(١) (المقتطف) يقول المثل الغرض يعمى ويصم وبعض الجرائد الاميريكيـة غرضهـا الاول في الغالب تسلية القراء بذكر الغرائب المدهشة واليكم مثالا من ذلك يتعلق بموضوعنا ذكره الفلكي الكبير الاستاذ نيوكم اشهر فلكيي امـيركا بالاجماع في مقالة نشرها في مجلة القرن التاسع عشر ولخصناها حينئذ في مقتطف مارس سنة ١٩٠٩ وهو:

«وسنة ١٨٥٨ احتدمت نار الجدال في جريدة من جرائد اميركا في امر مناجاة الارواح والوسطاء وانتهى الجدال بان واحداً عرض مبلغا طائلا من المال جائزة للوسيط الذي يحرك مائدة من غير ان يلمسها او يقرأ ورقة من غير أن يراها او يقرع قرعة لا يعرف سببها،واشترط أن يكون ذلك أمام لجنـة يعينها هو.فقبل رئيس المعتقـدين بمناجاة الارواح طلبه وأتي باشهر الوسطاء من اماكن مختلفة والفت اللجنة من ثلاثة وهم الاستاذ لويس اغاسز واستاذان آخران من اساتذة مـدرسة كمبردج الاميركية

هـذا الاسلوب من النقد وجرينا عليه بأحسن من حظ اعـلام العلم ، وأركان العقل ، فيتهمنا تلاميذنا بأننا نكذب فيما نقول، أواننا من السذاجة بحيث ننخدع باحابيـل المشعوذين .

عود لموضعنا الاصلي

اتينا في الاجزاء الماضية على عدة أمثلة من خواص الوساطة التى يخيل لبعض انها نوع من الـكهانة أو العـرافة أو الشعبذة . والواقع اننا جميعا حاصـلون على خاصة الوساطة ولـكن على درجات شتى . وقد ظهرت هذه الخاصة في الوف مؤلفة من أطباء الاوربيين بين رجال ونساء فـكانت وسيطة الوزير الروسى اكزاكوف امرأته وهي من اعرق البيوتات الروسـية . وكانت وسيطة ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريـكي ابنته المسماة لورا . وكان المستر سـتيد الـكاتب الانجليزى الـكبير وسيط نفسه، فـكانت الروح تسـتولي علي يده فتكتب ماشـاءت الارواح وجرى الامتحان في نزل بوستن فلم يفلح الوسطاء في شيء. واستصغر أولئك الاساتذة انفسهم لما رأوا انهم جلسوا ساعة ولم يروا شيئا يستحق الذكر . ولم يعمل الوسطاء الا بعض مايعمله المشعوذون عادة، وكان عذرهم عن فشلهم ان الارواح لاتظهر امام اناس لايؤمنون بها . ومن ثم لم يعد الاستاذ نيوكم يعبأ بما يسمع عن مناجاة الارواح، بل كان يقول للذين يكلمونه في هذا الموضوع ايتوني بوسيط تعتقدون صدقه ودعوني امتحنه على انفرادا وأخيرا وجد الوسيط المطلوب وهو فتاة اسمها لولو هرست عملت اعمالها المدهشة امام جماعة كبيرة وهو بينهم لـكنها لم تدع انها فعلت شـيئا خارق العادة بل اظهرت كيف فعلت كل مافعلته . واتضح حينئذ ان كل ماسمعه الاسـتاذ نيوكم عنها قبلا كان من قبيل المبالغة والوهم . وكان هناك جمهور من مخبرى الجرائد فصدرت جرائدهم وفيها اغرب الاخبار كأن الفتاة فعلت أعجب مايدعيه مناجو الارواح ، فتأملوا .

ان تبلغه اياه . وكان على هذه الحال أيضا العالم اللاهوتي الانجليزي ستنتون موزس . وكان وسيط الجمعية العلمية الرسمية التي تكونت في لوندره لتقديم تقرير عن الاسبرتسم واحدا منهم فلم يحتاجوا لوسيط مأجور . وكان الضابط الانجليزي بول الذي تولى مصلحة الانجار مع الاعداء في اثناء الحرب في بلادنا هذه وسيط نفسه أيضا . فذكر في كتابه (العسكري دودنج) ان الروح استولت على يده فأملت عليه ذلك الكتاب، وفيه تنبؤات كثيرة ظهر منها ما جاء وقته كتاريخ وقوف رحى الحرب العامة، وتاريخ ابرام الصلح، مع ان ذلك الكتاب أملي عليه قبل الصلح بسنتين. وقد قال المقطم عقب ايراد هذا التنبؤ في عدده الصادر في ٨ مارس سنة ١٩١٩

« هذا مانقلناه من الحديث المذكور وأعظم مايقع منه في نفس القارىء النبوءة الخاصة بانتهاء الحرب وعقد الصلح فانها كتبت سنة ١٩٠٧ كما تقدم ولم يكن في سير الحرب مايدل على موعد نهايتها وتاريخ عقد الصلح »

ان خواص الوساطة تعتبر خطأ من علم ماوراء الطبيعة وهي في الواقع من الحالات الطبيعية . فالباحث الذي ينيم شخصا نوما مغناطيسيا وينظر فيما يكتسبه من من الخصائص العقلية والروحية وهو في تلك الحالة لا يقال عنه انه يبحث فيما وراء الطبيعة ولكن يقال انه وسع من دوائر بحثه الطبيعي، فبعد ان كان يقصره على درس خصائص المادة الجسدية تخطى الى درس خصائص الحياة المستكنة فيها . وكذلك الباحث الذي يجلس واخوان له حول خوان ويعمل على الاتصال بعالم الروح، لا يقال انه يبحث في عالم ماوراء الطبيعة ولكن يقال انه يتخطى ببحثه الدوائر التي حدها المذهب المادي الى الدوائر التي تظهر فيها خصائص الروح . فالذين يزعمون ان هذه المباحث من علم ما وراء الطبيعة ويلفظونها بهذا الاعتبار يقفون في وجه العلم الطبيعي نفسه ، ويصدون عن سبيله ويحكمون عليه بأن لا يتعدى الدوائر الضيقة التي حددها له القصور العلمي وهو حكم يأباه الرقي المطرد للعلم نفسه

علل بعض النقدة في اوروبا هذه المشاهدات تعليلات شتى، فلم يقو واحد منها

على النقد، واضطر النقدة واحدا بعد الآخر الى التسليم بصحة هـذه المشاهـدات الا الذين لم تتح لهم تجربتها. ونحن هنا نأتي على طائفة من المشاهـدات من أنواع شتى لا تفسر بالخدع والانخداع، ولا بالبله والسذاجة، ننتخبها من ملايين من امثالها لننتقل منها الى فصول اخرى من اول المقالة الثامنة المقبلة

(وساطة الاطفال الرضع)

ذكر المستر كابرون في Kapron في كتابه المسمى المذهب الروحي في العصر الحاضر في صفحة (٢١٠) قال

«روى لنا المستر لوروا سندرلاند ان المسائل التي كان يطرحها على الروح كان يجاب عنها بالقرع على الخوان وكانت الوسيطة ابنته مارجريت أو ابنتها الطفلة، وكانت لاتزيد سنها عن سنتين. قال فكنت امسك الطفلة بين يدى ولا يكون معنا احد فتجيبنا الارواح بالاسلوب المصطلح عليه »

وجاء في كتاب المذهب الروحي بأمريكا في العصر الحاضر ان البارون سيمون كيركوب كتب الي المستر جنكن مؤلف ذلك الكتاب يقول:

« كانت ابنتي وسيطة ولم تتجاوز سنها سنتين، وقد بلغت الآن من العمر احدى وعشرين سنة، وقد كتبت طفلتها بيدها تحت تاثير الارواح ولم تتجاوز سنها التسعة الايام (تاسوعاء)، وقد حافظت على الرسائل التي كتبتها وها انا مرسل اليكم بصورة فوتوغرافية لتلك الكتابات.

« لم تحمل ابنتى هذه الطفلة غير سبعة اشهر ثم وضعتها في حجم صغير جدا. فكانت ابنتى ترفع هذه الطفلة على وسادة باحدى يديها وتمسك بيدها الاخري كتابا عليه ورقة بيضاء وما كنا ندرى بأية كيفية ينتقل القلم الى الطفلة، فكانت تمسكه بيدها بقوة. فكتبت اولا الحروف الاولى لاسماء الاربعة الارواح التى تلازمها وهي R.A.D.J ثم سقط القلم من يدها، فظننت ان الامر قد وقف عند هذا الحد، ولكن ابنتي الاخرى اوجين

صاحت قائلة انها قد عاودت القبض على القلم فكتبت الطفلة الجملة الآتية: (لا تغير شيئاً فهذا برهان جلي وافعل ما أمرناك به ، أستودعك الله)وانت ترى ذلك في الصورة الفوتوغرافية المرسلة اليك ».

(تتكلم الوسطاء عدة لغات يجهلونها)

كتب المستر ادموندس الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ الامريكي في كتابه المذهب الروحي عن وساطة ابنته وهو من سراة الامريكيين وثراتهم قال :

« ظهرت فى ابنتي (لورا) خاصة الوساطة ولكنها ما كانت تقع في اغماء أثناء حضور الارواح . وكانت تلك الارواح تستولي علي لسانها فتتكلم بلغات مختلفة ولم تكن تعرف فى حالتها العادية الا لغتها الاصلية واللغة الفرنسية . ولكنها متى استولت الارواح علي لسانها كانت تتكلم بتسع أو بعشر لغات بسهولة تامة »

ومثل الرئيس ادموندس لا يصح اتهامه بالبله والخبل ولا اتهام ابنته بالتزوير والتدليس . وأمثلة تكلم الوسطاء باللغات المجهولة كثيرة لا تحصي .

(تلقي الوسيط رسائل متعددة في وقت واحد)

ذكر الدكتور(ولف) فى كتابه عن وسيطه منسفيلد يقول :

«رأيت منسفيلد وهو يتلقي عن الارواح وقد استولت روح علي يده اليمني وروح علي يده اليسرى فأخذتا تكتبان بلغة يجهلها . وبينما كانت يداه تكتبان كان هو نفسه يكلمني في أمور أخري.

وذكر الاستاذ كروكس في كتابه المباحث النفسية صفحة ٩٥ :

« رأيت الميس كيت فوكس بينما كانت تكتب بيدها تحت تأثير روح رداً على سؤال أحد الحاضرين، كانت روح أخري تملي بواسطتها جوابا لرجل آخر من الحاضرين

بطريقة الفرع . وكانت الوسيطة نفسها في تلك الحالة تتكلم مع شخص ثالث في أشياء لا علاقة لها بالارواح »

(التخاطب بواسطة الارواح عن ألوف الاميال)

ذكر المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكى المذكور آنفا في المجلد الاول في كتابه صفحة ٣٠ :

« بينما كنت اسيح في امريكى الوسطي كان أصحابي يقفون علي أخباري مفصلة بواسطة الارواح يوما فيوما وهم في نيويورك . أول اجتماعهم لسؤال عني كان بعد سفرى بأربعة ايام وانا علي بعد ٨٠٠ ميل منهم، ولم تقابلنا في طريقنا سفينة حتى يتوهم انها نقلت من اخبارى اليهم »

ثم سرد تفصيلات ما اخبرتهم به واتفاقها التاريخي مع مذكراته اليومية

. وكتب الاستاذ الامريكى (روبرت هير) في كتابه (المباحث التجريبية على الحوادث النفسية) فقال :

« لما كنت فى كيب مى *Cape May* بايسلاندة كلفت الروح الملازمة لى ان تذهب الي فيلادلفيا (بأمريكا) عند ميسيز جورلى وان تبلغها اني ارجو زوجها ان يذهب الي بنك فيلادلفيا ويستفهم منه عن تاريخ حوالة كانت لى فيه ، وكلفتها بأن تخبر الميسيز جورلي ايضا بأني في منتصف الساعة الرابعة سأجلس امام السبيريتوسكوب (آلة عليها الحروف الهجائية للتخاطب مع الارواح) لتسلم الجواب . وكانت الساعة اذ ذاك واحـدة بعد الظهر وفي الساعـة المحـددة عادت الروح وأخبرتني بنتيجـة عملها .

« فلما عدت الي فيلادلفيا حدثتني مدام جورلى بأن الروح التى ارسلتها اتفق حضورها في ساعة كانت هي تتخاطب فيها مع روح اخرى، فقطعت عليهما التخاطب

عن الامر الذى عناني ووصلتني نتيجة مساعيهما في اليوم نفسه .

« وكان عامل البنك قد أعطاني تاريخاً خطأ عن الحوالة التي انا بصددها وكنت انتظر مجيء الجواب مطابقا لحسابي، ولكن لما ذهب زوج مدام جورلي واخوها الى ذلك العامل تحري التاريخ واعطاها اياه صحيحا هذه المرة فجاءت الروح بتاريخ لم اكن انتظره ولا اتوقعه » انتهى

هنا يمكن ان يقول معترض : اذا كان قد بلغ من قدرة الباحثين فى الارواح ان يتخاطبوا على بعد آلاف الاميال فلم لا يكتفون بها عن التلغراف اللاسلكي؟ الخ الخ

فأقول بأن الارواح لا يمكن استخدامها لاغراضنا الدنيوية فهي اذا اطاعت الباحث في نقل الاخبار، وجلب الاشياء، واحداث الخوارق فانما تفعل ذلك لاقامة الدليل لهم علي انها حية باقية مدركة وقد صرحت بذلك الف مرة . ولكن الفائدة المنتظرة من عقيدة وجود الارواح وخلودها لا يمكن للعقل تقديرها في مثل هذا القرن وما يليه . فالمذهب المادى ساق الناس الى تيار اداهم الي الاباحة المطلقة، واطفأ في صدورهم جذوة الامل فأظلمت القلوب ولم تجد لها متنفسا الا في الافراطات من كل نوع . هذا ولا تزال بقية في النفوس من عقيدة موروثة فاظلك لو ذهبت تلك البقية الموروثة أيضا وتحقق الانسان علميا انه كمية مهملة فى الوجود لا تبالى النواميس في ايةزاوية من زوايا العدم قذفت بها ؟ فجاء المذهب الروحاني اليوم يثبت للناس من طرائق الحس والعيان وجود العالم الروحاني وخلود النفس بعد الموت فى عالم كله جمال وجلال وترق لا حد له ولذات عقلية وروحية لا تنتهى الي غاية . فنحن لا نحتاج الارواح لتخدمنا في امورنا الدنيوية، ولكننا نحتاج لها لتثبت وجودها بأى الطرق شاءت .

ان ما اوردته فى باب خواص الوساطة شيء لا يذكر فى جنب الملايين من المشاهدات التي تغص بها المؤلفات التي وضعها الافراد والجماعات . وناهيك ان الملايين من الافراد والالوف من الجمعيات دأبت منذ اكثر من سبعين سنة على

التجارب وتدوينها . فالذي حي رؤوس الباحثين الاوروبيين من أهـل الشكوك المستعصية والالحاد المصمت ليس بالامر الهين ، فان توالى هذه المشاهدات في مـدي ثـلاثة أرباع القرن على أيدي رجـال لا يخشون فى الحق لومـة لائم من العـلماء والكتاب والصحفيين والسياسيين والاطباء والمهندسين والاصـوليين على الاسلوب العلمي الحاصل على ادق الشروط التجريبية هو الذى أعطى المذهب الروحى هـذا الوزن فى أوروبا وامريكا ومكنه من ضرب المذهب المادى ضربة لا قيـام له بعدها

ولو كان مجموع هذه الشهادات والتجارب فى مدى هذا الزمن كله وعلي ايـدي هؤلاء الرجال الذين ذكرناهم في أرقي أمم العالم مما يسهل تعليله بالخدع والانخداع وعدم التفرقة بين الشعوذة والمشاهدة العلمية ، أو بالبله والخبل ، فعلي العقل الانساني وعلي التجارب والمشاهدات ، وعلي العلماء والاذكياء ، وعلى الباحثين من كل أمة وفي كل اجيال البشر السلام

...

تعليـلات المنكرين

الحوادث الروحية

نشرنا هذه المقالة فى المقتطف الصادر فى نوفمبر سنة ١٩١٩ وفيها رد ضمني على الحواشي التي ذيل المقتطف بها بعض الصحف .

لما ذاع امر الحوادث النفسية ، وتناقل الناس تجاربها ، حاول بعض الناقدين ممن يفسرون مساتير الكون وهم جلوس على اسرتهم ، أو ممن يسرعون الي البت في كل معضلة ولم يبلغوا الغاية من علمها ، أن يعللوا بعض ظواهرها بعلل . وقد نظرنا في التعليلات التي

تعلل بها الحوادث النفسية فوجدناها تنحصر في ست نظريات وهي :

(١) هذه الحوادث من الشعوذة لا اكثر ولا أقل فجميع الوسطاء خادعون وكل المجربين مخدوعون .

(٢) هذه الظواهر خيالات تتراءى للمجربين وهم تحت تأثير الاستهواء الواقع عليهم من الوسيط فيرون مالا حقيقة له في الخارج ويخبرون عنه كأنه من المشاهدات الواقعية .

(٣) هذه الحوادث من فعل روح الوسيط نفسه لاروح أجنبية عنه .

(٤) هذه الحوادث عمل الروح العامة التي تتكون من مجموع أرواح جميع الحاضرين .

(٥) هذه الحوادث نتيجة عمل أرواح مجردة موجودة فى الكون ولكنها ليست بأرواح الموتي .

(٦) هذه الحوادث فتنة من الشياطين لتضليل عباد الله المؤمنين

فلنلق على كل من هذه التعليلات نظرة انتقادية مستندين على التجارب العلمية التى عملت لدحضها واثبات نقصها فنقول :

(نظرة على التعليل بالتدليس)

قال الاستاذ الكبير وليم كروكس في كتابه القوى النفسية صفحة ١٧٤ :

« قالوا ان كل هذه الحوادث نتيجة التدليسات والتدبيرات الآلية المتقنة أو الشعوذة ، وان كل الوسطاء مزورون وجميع المجربين غفل مخدوعون . . .

ولقد رأيت عدة تدليسات كان بعضها متقنا جدا وبعضها من الفلاظة بحيث لا يتفق ان يقع فيها واحد ممن شهدوا الحوادث الحقة لهذا العلم . فمن الباحثين من اذا صادفه تدليس من هذا القبيل يكره موالاة البحث ، ويجد نفسه مدفوعا الى اطلاق العنان لآرائه سواء فى مجالسه الخاصة او بلسان الصحف فيهم بانكاره جميع الوسيطين

فيكتب للجرائد شارحا ماراه من التدليس، وقد تأخذه الشفقة من رؤية هـذا المنظر المحزن وهو امعان الرجال المعدودين من الاذكياء فى الانخداع بالاحابيل التى كشفها هو من أول وهلة . . .

« فلا يجوز ان ننسي ان اي تعليل من التعليلات يجب ان تتوفر فيه جميع الشروط لاجل أن يكون ذا قيمة حقيقيه . فليس من العقل ان يقول شخص لم ير الا بعض المشاهدات التافهة « اظن ان كل هـذا من التدليس » ولا ان يقول : « قد رأيت كيف تدبر هذه الادوار من الغش » . . .

« وبما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لمجرد حجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المتقدون وغيرهم ممن في يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بأنفسهم . أما انا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » .

وقال العلامـة كاميل فلامريون فى كتابه القوى الطبيعة المجهـولة صحيفة ٥٤١ :

« من السهل جدا ان يقف الانسان موقف المنكر انكارا مطلقا حيال المشاهدات التي هي غرضنا من هذا الكتاب » .

ثم سرد حوادث روحيـة كثيرة وقال : « كل هذه الحوادث بالنسبة لثلاثة أرباع سكان الكرة الارضية تعتبر هذيانا أو شعوذة، فلا يصح ان يبحث عن علتها فى نظرهم . ولديهم ان الرأي المقبول الوحيد هو ان كل هؤلاء الوسـطاء من الذين اتخذوا الوساطة صناعة أولم يتخـذوها كذلك، مدلسون مزورون وكل المجربين مغفل مخدوعون .

« وقد لايكتفي الواحـد من هؤلاء القضـاة الاعلين بالغمز بعينيه أو بالتبسم وهو على اريكة اختصاصه الملكي، ولكنه قد يتفضل فيحضر احدى التجارب، فاذا اتفق كما يحدث كثيرا، عدم حصوله على شيء يخضع لارادته، يبرح المجرب المبجل المكان وهو معتقد تمـام الاعتقاد بأنه بنفاذ بصيرته الفائق قد اكتشف الحيلة ومنع

ظهور أي شيء بادراكه الواسع ونظره البعيد . فيسارع الي الكتابة للجرائد مفسراً التدليس وباكيا بأدمع التمساح تأثراً من ذلك المنظر المحزن وهو انخدع رجال معدودين من الاذكياء بتدليسات اكتشفها هو من أول وهلة .

« هذا التعليل الاولى الساذج قد عرضناه كثيرا في هذا الكتاب وجادلنا فيه ودحضناه، وقد صار قرائي يعتبرونه فيما رجوهم كوما عليه حكاتاما مطلقانها ئيا ومطروحا خارج دائرة البحث ».

هذا قول رجلين من اكبر رجال العصر الاخير في نفس التدليس واما امامنا مثات من هذه الاقوال فلنكتف بهما ولننظر الي ماعلقه المقتطف علي بعض ماقلناه في المقال السابق:

ذكر المقتطف من الاستاذ نيوكم الفلكي ماجرى سنة ١٨٥٨ أى قبل ٦٢ سنة من تكون لجنة من ثلاثة اساتذة في نزل بوستن لبحث حوادث الاسبرتسم فلم يروا ما يستحق الذكر . وان الاستاذ نيوكم نفسه جرب علي فتاة اسمها لولو هرست فاتت بالمدهشات ولكنها لم تدع انها فعلت شيئاخارقا للعادة ولكنها أظهرت كيف فعلت مافعلته ، وان الجرائد الامريكية ذكرت الغرائب عن تلك الفتاة .

لتكن الجرائد الامريكية على تلك الصفة، بل ليكن الامريكان كلهم مخدوعين بالاعيب المشعوذين، فلسنا والحمد لله نعتمد عليهم ولكن على مقررات الجمعيات العلمية الاوربية، ومؤلفات الباحثين الاوربيين، وعلى الاخص منهم الانجليز المشهورين بشدة التدقيق والتمحيص والاعتماد علي المشاهد المحسوس وعدم التسرع في اصدار الاحكام الطائشة .

وبعد فان الاستاذ نيوكم الامريكي لم يخرج عن كونه أحد المنكرين لهذه المباحث، وقد بني انكاره على تجارب سلبية محدودة، بل بني حكمه الشخصي فيها علي تجربة واحدة وقع بها في احابيل مدلسة عمرها خمس عشرة سنة فتنطبق عليه أقوال الاستاذين وليم كروكس وكاميل فلامريون التي قدمناها . فأين البروفسور نيوكم في تسرعه وضجره، من الاعضاء الثلاثين الذين ندبتهم الجمعية العلمية الانجليزية رسميا

لبحث ظواهر الاسبرتسم، فامعنوا في التجارب ثمانية عشر شهرا وليس معهم وسيط أجنبي وبالغوا في الصبر، وبذلوا ماهو معروف عن علماء الانجليز من الثبات والتؤدة وبعد النظر، ثم كتبوا تقريرهم المشهور الذى وقع في اكثر من خمسمئة صفحة وترجم الي جميع اللغات الحية. وقد جاء فيه بالصفحة ٩ وما بعدها من الترجمة الفرنسية ما يأتي:

«قد عقدت هذه اللجنة من يوم تألفها فى ١٦ فبراير سنة ١٨٦٩ أربعين اجتماعا بقصد عمل التجارب والامتحانات المدققة.

« كل هذه الاجتماعات عقدت في البيوت الخاصة للاعضاء لاجل نفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كان.

« ولقد كانت اثاثات الغرف التي عقدت فيها الاجتماعات في كل حال هي اثاثاتها العادية.

« وقد كانت الاخونة (الترابيزات) التي استخدمت دائما للتجارب هي أخونة للطعام ثقيلة تحتاج لقوة عظيمة اذا اريد تحريكها. وقد كان طول أصغرها خمس أقدام وتسع بوصات وعرضها أربع أقدام. وكان طول اكبرها تسع أقدام وثلاث بوصات وعرضها أربع أقدام ونصف القدم وكان ثقلها مناسبا لحجمها.

وقد كنا نعمد الى تفتيش هذه الاخونة وجميع الاثاثات تفتيشا مكررا قبل عمل التجارب، لنحصل علي الثقة التامة بعدم وجود أي آلة أو جهاز يمكن بواسطته أن تحدث الاصوات والحركات التي ستذكرها بعد.

« وقد عملنا تجاربنا فى ضوء الغاز ماعدا عددا قليلا منها اقتضي فيها شأنه الخاص أن نعمله فى الظلام دقائق معدودة.

« وقد تحاشت لجنتكم أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه الوظيفة في الخارج أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا، فكان واسطتنا الوحيد احد اعضاء اللجنة، شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية، حاصل علي صفة النزاهة المطلقة وليس له من غرض مالي يرمي اليه ولا أي مصلحة في غش اللجنة.

«وقد عقدت لجنتكم عدة اجتماعات بدون أي وسيط لاجل محاولة الحصول على نتائج مشابهة للتي تحصلت عليها بحضوره فلم تحصل بعد كل جهد نتائج مشابهة ، اما التي تحصل مع وجوده .

«كل تجربة من التجارب التي عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش أو توهم .

وقد اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهـدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الي الدليل القاطع .

وقد بدأ نحو أربعة اخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ومقتنعون أشد اقتناع بأنها كانت اما نتيجة التدليس أو التوهم أو انها حادثة بحركة غير ارادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون أشد الانـكار عن فروضهم السابقة الا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته وفي شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة فاقتنعوا رغماً عنهم بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهـدات حقة لاغبـار عليها .

« وقد كانت نتيجة تجاربهم التي تتبعوها مدة طويلة وقادوها بعناية واهتمام وجشموها جميع اشكال الامتحانات تقرير الاحوال الآتية :

(أولا) أنه بوجود شخص أو اشخاص ذوي استعداد جسماني او عقـلي خاص تتولد قوة كافية لتحريك أشياء ثقيلة بدون استخدام أى مجهود عضلي وبدون مس ولا اتصال مادى من أي نوع كان بين تلك الاشياء وبين جسد أي شخص من الحاضرين .

(ثانياً) هذه القوة تستطيع أن تحدث اصواتاً في بعض الاشياء الجامدة بحيث يسمعها جميع الحاضرين بوضوح تام ولا يكون بين تلك الاشياء وبين احد الحاضرين اى اتصال

وقد ثبت ان هذه الاصوات صادرة في هذه الاشياء عن ذبذبة تتضح عند اللمس تمام الاتضاح .

(ثالثا) كثيرا ماتكون تلك القوة مقودة بعقل ». انتهى

نقول أين هذه الرزانة والثبات والدؤوب وراء الغاية الجليلة من ذلك التسرع المعيب والتحدى السلبي الذى ظهر بهما الاستاذ نيوكم؟ فهل كان يتخيل أغاسز وصاحباه ان يكشفوا عالم الروح بجلوسهم مرة أومرتين امام وسيط لايهمه الاقبض الاجرة؟ وهل كان يرجو الاستاذ نيوكم ان يتصل بالعالم العلوى بجلوسه مرة واحدة امام مشعوذة وهو بين حشد من المتلهين ولم يتخذ بعض مايتخذه رجال العلم في انجلترا وفرنسا والمانيا من التحوطات التجريبية، كربط الوسيط وحبسه في قفص حديدى وتسميره بالارض وايصال تيار كهربائى الى جسده ليسجل كل حركة وسكنة لكيلا يقع فيما وقع فيه من الانخداع الشائن حتى كانت المشعوذة هي التي اخبرته بأنها لم تفعل مافعلته بغير اساليب الشعوذة ؟

انا اعجب لماذا يعول خصوم هذه المباحث علي أمثال هؤلاء المتسرعين ويمتنعون عن قراءة تقرير اللجنة الرسمية التي ندبت لدرس هذه الحوادث في البلاد الانجليزية وهو يعتبر حكم الانجليز المشهود له بالتمحيص والتدقيق ؟

ان تقريرا يكون من الموقعين عليه تندل ولورد دافيرى وروسل ولاس وويليم كركس من أقطاب العلم الانجليزى بل من زعماء المذاهب العلمية الحاضرة لجدير بأن يحل فى الدرجة العليا من الاعتبار في نظر المتكلمين في هذا الموضوع الذى حول آراء العلماء من المادية البحتة الي الروحانية الصرفة في هذا الجيل .

هل يعقل ان نعتقد بتجربة اغاسز السلبية الوحيدة وبوقوع نيوكم(١) في يد مشعوذة ماهرة فنعتبر فشلهما حجة دامغة ونرمى عرض الحائط باقوال الالوف من رجال العلم الذين

(١)(المقتطف) انما استشهدنا بالاستاذ نيوكم للدلالة على عدم تدقيق الجرائد الاميركية . اما رأيه فى السبرتزم فيرجع فيه الى مقالته المشار اليها وقد كان اول رئيس لجمعية المباحث النفسية الاميركية

جربوا هذه المباحث مجتمعين ومنفردين في مدى اكثر من سبعين سنة ؟

ألم يكن في الثلاثين اخصائيا الذين ندبهم المجمع العلمي البريطاني لفحص الاسبرتسم واحد في مثل تبصر اغاسزاو نبوكم فيهدي تلك اللجنة الى طريقة التدليس ؟

ان جمعية المباحث النفسية التى تألفت في لوندرة منذ سنة ١٨٨٢ لاتزال قائمة وقد تولي رئاستها لسنة ١٩١٩ اللورد ريليه *Rayleigh* وهو اعلم علماء انجلترا بالطبيعة ناهيك انه يشغل فى الجمعية الميكية محل العالم الاشهر تندل . وقد جمعت هـذه الجمعية من التجارب مايقع في اكثر من اربعين مجلدا . فهل يعقل ان هذه الجمعية المؤلفة من غطارفة العلم الانجليزى تتكسع فى الغرور والوهم والانخداع نحو اربعين سنة ؟ وهل يليق ان نرمى بتجاربها الايجابية عرض الحائط ونأخذ بقول اغاسز او نيوكم ممن لم يحاولوا هذه الموضوع الخطير الا مرة ؟

هل هذا الاسلوب السلبي الانكارى مما يرقى العلوم ، أو يشجع الباحثين على موالاة التنقيب عن اسرار الكون ؟

لو كان دحض المستكشفات العلمية يتأتى بنقل آراء الخصوم المتسرعين في احكامهم لما حيي مذهب جديد في العالم ولا ثبت رأى حديث فيه .

ولو كانت الحقائق الجديدة تموت بأحكام الخصوم المتسرعين لباد استكشاف الاوكسيجين بواسطة لافوازييه ، لقيام قيامة العلماء ضـده اذ ذاك بحجة ان العناصر الاربعـة لاتقبل التحليل . ولذهب استكشاف هرفي لدورة الدم ادراج الرياح لان جامعة الطب هزئت به وسلقته بلسان حاد . ولقبر الاستصباح بالغاز لان العلماء كانوا يضحكون متي ذكروا امـكان وجود مصبـاح بلا فتيل ، ولما مدت الخطوط الحـديدية وجرت عليها الآلة البخارية ، لان الرياضي الاشـهر اراغو اثبت بالادلة الرياضية سنة ١٨٣٨ امام مجلس منواب الفرنسي ان هذا المشروع مستحيل . ولمـا تحقق عمل الاسلاك البحرية التلغرافية لان العلامـة نابيه قال عنها في المجمع العلمى الفرنسى سـنة ١٨٥٣ : « ان نظرية التيارات الـكهربائية تستطيع ان تعطينا أدلة غير قابلة للنقض (تأمل) عن استحالة مثل هذا النقل للمخابرات » ، ولمـا كذا

صدقنا وجود الانسان الحفرى لان العلامة الجيولوجي الكبير (ايلى دو بومون) السكرتير الدائم للمجمع العلمى الفرنسى ظل طول حياته ينكر وجوده ، ولكننا رفضنا الاستفادة من السبكترسكوب لان العلامة اجوست كونت قال اننا لا نستطيع ابداً وبأية وسيلة من الوسائل أن ندرس التركيب الكيماري للكواكب ، ولحرمنا من القوة الكهربائية فى مخاطباتنا ومعاملنا وبيوتنا لان علماء الطبيعة المعاصرين لمستكشفها جالفاني سخروا منه وكذبوه ونبزوه بلقب مرقص الضفادع.

انا لو أردنا استقصاء أقوال خصوم كل بحث جديد لزمنا أن نضع في ذلك كتابا فليس طريق الوصول الي الحقائق وخصوصا الكبري منها أن نقف مع اقوال المنكرين الجامدين من غير المجربين، أومن المجربين الذين فشلوا في تجربه واحدة أو عدة تجارب فى سويعات معدودة،ولكن طريقها درس أدلة المثبتين وزنتها بميزان النقد الصحيح.

هذا هو الذي نعمله فى كتابتنا هذا البحث وهوالطريق الذي سلكه كل الباحثين فى جميع العصور . وبهذا الاسلوب وحده تقررت الاستكشافات الجديدة وزادت بها مادة العلم

ان التنويم المغناطيسى الذى أصبح اليوم جزءا من العلوم الرسمية رمى مستكشفه مسمر بالشعوذة،ونبز بكل الالقاب المحقرة .فلو كان أخذ المجربون المتقادم بكلام هؤلاء الخصوم لكنا حرمنا اليوم من أعظم استكشاف ظهر فى العلوم النفسية .

والاسبرتسم مضي علي جهاده اليوم اكثر من سبعين سنة وقد وصل الى ما وصل اليه من احترام الوف من العلماء وملايين من الفهماء في سائر اصقاع المعمور رغما عن جميع المعارضين حتى صارت له مجامع علمية لا تقل جلالا عن المجامع الرسمية .

وقد ذكرت مجلة التاريخ السنوى للمباحث النفسية التى يصدرها العلامة الكبير

شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي بجريدتها المطبوع في سبتمبر الماضي أنه قد تألف في فرنسا مجمع علمي جديد لتهيئة الحوادث النفسية للدخول الى العلم الرسمي مؤلفا من الاستاذ الدكتور جيليه المدرس بجامعة السوربون وشارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الباريزية والدكتور كالمت المفتش العام لصحة باريز . وجبرييل دولان المهندس والاستاذ كاميل فلامريون والكونت ا. دوغرامون من المجمع العلمي الفرنسي وجول روش أحد وزراء فرنسا سابقا والعضو بمجلس النواب حالا والاستاذ سانتو ليكويدو أحد وزراء ايطاليا ورئيس اللجنة الدولية الصحية للحلفاء والاستاذ تيسييه المدرس بجامعة ليون والمسيو بارتلمي سوربل الصحفي الفرنسي المشهور . فهل يجتمع هؤلاء القادة المشاهير من العلماء والاطباء والسياسيين لتهيئة الاضاليل للدخول الى العلم الرسمي ؟ وهل يعقل أن يتنزل أمثالهم للاشتغال بالاعيب المشعوذين مما ثبت لاغاسز بتجربة سابقة ولنيوكم بانخداعه لطفلة مشعوذة أنها خرافات لا تستحق غير الاعراض ؟

وجاء في المجلة العلمية والخلقية للاسبرتزم الصادرة في شهر سبتمبر الماضي بصفحة ٢٨٠ ان المجمع العلمي الفرنسي (الاكاديمي فرنسيز) منح المسيو ل. شفوري جائزة (فاني امدن) لتأليفه كتابهُ الذى عنوانه(الانسان لا يموت) وهو أول كتاب روحي حصل على هذه الجائزة من مجمع كان قبل سنوات يهزأ بهذه المباحث ويعدها من الانحرافات العقلية . فهل يهب مثل هذا المجمع جوائزه لنشر الاضاليل وتأييد خزعبلات الخادعين والمخدوعين ؟

ان دولة الاسبرتسم قد تأيدت بحيث لم يعد في وسع أحد ان يصدعن سبيلها او يقف حائلا دون انتشارها بعد ما اكتسبت الى صفها الالوف من رجال العلم والملايين من أصحاب الذكاء والفهم وخصوصا بعد ما اجتازت كل عقبة وضعت في سبيلها وثبتت على كل تمحيص واختبار وتجربة سربت عليها . فاي وهم يقاوم كل هذه التجارب والمشاهدات ، وأي شعوذة تستهوى عقول اعتى المجربين من الماديين في مدى اكثر من سبعين سنة ؟

هل عهد في تاريخ البشر ان شعوذة مهما بلغت من الدقة ينخدع بها ثلاثون عالما نزلوا خصيصا ليبحثوا فيجمعون على الشهادة بصحتها ؟ وهل عهد في تاريخ البشر ان الملايين من افراده الاذكياء يتأليون على درس مسألة محسوسة فيلعب بعقولهم حثالة من المحتالين والدجالين وينتهي الامر بأن يصدروا لنشرها نحو ثلاثمئة مجلة، ويؤسسوا لها المجامع العلمية، ويتولاها أقطاب العلم الرسمي في مثل الامم الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها ؟

وهل يعقل بعد هذا كله ان تستمر هذه الحركة وتزيد في هذا العصر عصر الشكوك والالحاد وفي مثل القارتين المتمدنتين حيث دولة العلم قائمة وموازين النقد صارمة ؟

اللهم لا

ويحسن بنا ان نختم هذه المقالة بكلمة كتبها الاستاذ فايجو مدرس علم التشريح بجامعة ايسيون للعلامة كاميل فلامريون في ١٥ مايو سنة ١٩١٦ ونشرتها مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية في عددها الصادر في سبتمبر الماضي جاء في نهايتها :

« انا لا احاول ان اعلل ما رأيته، ولكن اكتفي بأن أقول كما قال السير وليم كروكس بأنه حق صحيح .

« وانا اشعر الآن بندم عظيم من جراء جحودي السابق . فاذا ادرك الانسان ما وصل اليه العلم في هذه السنين الاخيرة تعذر عليه ان ينكر شيئاً لاول وهلة . واننا لننسى بسرعة تعاليم روجر بأكون وندعي مع ذلك اننا حسيون نحب المذهب التجريبي »

دحض شبهة الاستهواء

في التجارب الروحية

نشرنا هذه المقالة في مقتطف دسمبر سنة ١٩١٩:

ندحض في هذه المقالة النظرية الثانية من نظريات الماديين التي يوردونها لتعليل الظواهر الروحية، ومؤداها ان هذه الظواهر خيالية بحت ليس لها حقيقة في الواقع وانما تتراءى للمجربين لوقوعهم تحت تأثير استهواء الوسيط.

لما آنس الماديون ان اصرارهم على نظرية التدليس اصبح لاوزن له بعد دخول الوف من الرجال المشهود لهم بالالمعية والفضل الي ميدان التجارب، وتطابق شهاداتهم لها في كل صقع من اصقاع المعمور، لجأوا الى نظرية الاستهواء التي قدمناها وهي بمثابة خط الدفاع الثاني لهم، كأن العلماء الكبار امثال كروكس وريشيه وزوالنر ولومبروزو وبترهوف والالوف المؤلفة من الاخصائيين العظام، من الغباوة والبله وانحطاط المدارك والبلادة العقلية بحيث يسهل على وسيط ساذج مربوط على كرسيه ومحبوس في قفص من الحديد ان يوقعهم تحت تأثيره المغناطيسي فيوهمهم برؤية مالا يوجد الا في خياله، فيسرعون الي اثباته تحت العنوانات الضخمة في مجلاتهم وكتبهم، في مدى جيلين متتابعين ، ويعقدون له مئات الجمعيات ثم لايؤوبون الى رشدهم بعد تنبيه الماديين لهم، ولكنهم يدأبون عليه ويواصلون البحث فيه كأنهم جمعوا الى بلادة العقل البله المستعصي والجمود الذي لاحد له.

ان دحض نظرية الاستهواء من ايسر الامور، بل هي داحضة عن نفسها في نظر من وقف علي بعض التجارب الروحيه ونحن ساردون هنا الوجوه التي تبطلها .

(١) المعروف في الاستهواء انه يؤثر علي واحد، والمجربون للظواهر النفسية يكونون

عادة كثيرين وقد كان عدد الاعضاء الذين ندبتهم الجمعية العلمية الانجليزية لبحث هذه الظواهر ثلاثين فكيف تسني للوسيط استهواء هذا الجم الغفير ؟

(٢) المقرر أن الواقع تحت استهواء غيره يكون فاقد الارادته وملازما لجالسه وفى حالة نوم لا تفترق عن النوم الطبيعي الا في اطاعته للمؤثر عليه . والمجربون في المسائل النفسية يكلم بعضهم بعضا ويقومون ويقعدون ويراقبون الوسيط ويقيدون بالكتابة ما يشاهدون ويسمعون .

(٣) المعروف عن الاستهواء ان المستهوى يقف على قدميه أمام من يريد استهواءه ويحدق في عينيه ، أو يشير اليه بيديه . والامر على العكس من هذا في التجارب الروحية فان الوسيط هو الذى يقع في خدر تام وقد يتشنج وتعتريه حوادث تعوز الاسعاف في أثناء التجربة ، فيقوم بخدمته المجربون ويكون مقيداً ومربوطا على كرسيه ، وموضوعا داخل قفص من الحديد ، وموصلا بسلك كهربائي ليسجل عليه جميع حركاته .

(٤) كثيراً ما يكون الوسيط امرأة الباحث المجرب أو ابنته كما كان ذلك حال الوزير الروسى اكزاكوف وادموندس رئيس مجلس السناتو الامريكى ، او أحد المجربين كما حدث للجنة التى ندبتها الجمعية العلمية الانجليزية لبحث هذه الظواهر ، او يكون المجرب وسيط نفسه كما كان حال ستيدوستنتون موزس وغيرهم من كبار الرجال وعظيمات النساء . فهل تستقيم نظرية الاستهواء في هذه الاحوال كلها ؟

(٥) تسجيل الآلة الفوتوغرافية للظواهر النفسية في ساعات حدوثها فتأتي الصور مطابقة لما رآه المجربون بأنفسهم ، فهل تقع الجوامد في الاستهواء أيضا فترسم خيالات الوسيط ؟

(٦) ارتفاع الاخونة الثقيلة عن الارض وانتقال الاثاثات من أماكنها وبقاؤها فى مطارحها الجديدة بعد التجربة ، أو تحطمها واستحالتها الى قطع بدون لمس احد لها وخروج مساميرها بدون آلة ، وبقاء ذلك كله مشاهداً محسوسا بعد الفراغ من التجربة .

(٧) حدوث قوالب من البرافين في اثناء التجربة و بقاؤها بعدها، ومنها قوالب لايد وأرجل ليست لاحد من المجربين لان منها ما يكون في نحو ضعفي حجم يد الانسان العادي.

(٨) بقاء الازهار والاشياء التي تجلبها الارواح من اماكن بعيدة بعد التجربة ولا يزال كثير من تلك الاشياء محفوظا لدى المجربين وقد مضي علي بعضها اكثر من نصف قرن

(٩) بقاء ما تكتبه الارواح بأيديها في اثناء تجسدها بعد انقضاض التجربة هذه الوجود كلها تنفي نظرية الاستهواء والتخييل، وقد نقلنا عدداً كافيا من هذه التجارب في مقالاتنا السابقة هذا، ولكن الماديين الذين يزعجهم ان يكون في الكون غير المادة المحسوسة يهزون اكتافهم متى سمعوا بهذه التجارب ويصرون على اعتبارها اضاليل عقلية او احابيل شعوذية وينسون او يتناسون ان الذين يقولون بها اليوم كانوا بالامس اشد منهم شكا وكانوا يصمون المجربين باشد مما يصمونهم هم به اليوم من سقم العقل، والوقوع في الانخداع، ولكنهم بعد ان خبروها بأنفسهم عادوا فاقتنعوا بصحتها بالرغم منهم .

ولو كان هؤلاء الماديون منصفين ولم يطوح بهم الهوى الي ماطوح بهم اليه من معاندة المحسوسات لكان لهم في تقرير لجنة الجمعية العلمية الانجليزيه التي وكل اليها البت في امر هذه الظواهر مقتنع . لان هذه اللجنة التي الفت من ثلاثين عالما من اشهر علماء الانجليز دعيت خصيصا لحسم مادة القيل والقال ودرس الموضوع دراسة علمية خالية من كل غرض مذهبي أو اعتبار ديني . ولم تستخدم وسيطا مأجوراً، ولم تجتمع الا في بيوت أعضائها المجربين، وليس فيهم واحد يجهل الاستهواء أو يستنيم للانخداع، وكانت الامة الانجليزية اذ ذاك ناقمة علي حركة الاسبرتسم، وعادة اياها رجوعا للاوهام القديمة ، وتود أن يكون من وراء اجتماع هذه اللجنة كشف وجوه التدليس واصدار حكم قاطع صارم لا يقبل النقض على ان هذه الامور من الشعوذة التي لا يقع فيها الا الغفل، ولا يقيم لها وزنا الا العامة

الجاهلون ولكن رغما عن هـذا كله جاء تقرير اللجنة مخالفا لرأى الجمهور ومثبتا لنظرية القائلين بأن وراء هذه المادة قوى تظهر فى شروط خاصـة وتعمل بعقل وروية، وتأتي أعمالا مادية لادخل لاحـد من المجربين فيها . فكان هـذا رأى العـلم الحاسم. وجاء بعـدها الوف مؤلفـة من العلماء المجربين فايدوا كلهم هـذه النتايج . فهل بعد هذا الشاك مهما بلغ به حب التحوط لمـدركاته ان يشك في صحة تلك الظواهر بحجة انه لم يرها بعينيـه ؟ ولو رآها هو ونقلها لـكذبه السامعون كما يكذب هو سواه وهلم جرا . وليس هـذا بالطريق التي تؤدي الى تقرير الحقـائق الكبرى . وقد لاحظ هذا الامر قادة العلم في اوربا ونبهوا علي ضرره وعلي تأثيره السيء في تقدم العلوم فقال الاستاذ الرياضي الكبير ألبرت دورشاس مدير مدرسة الهندسة في باريز في مقدمة كتابه « استخراج القوة المحركة التي في الانسان » :

«ان رفض تصديق كل هذه التأكيدات علي كثرتها ووضوحها ودقتها يجعل قيام أى علم طبيعي مستحيلا فدارسه لايجوز له ان يطلب شهود جميع الظواهر التي تاتي اليه والتي تكون ملاحظتها صعبة غالبا».

على ان المادي المتشكك لو قام له عذر فى اطراح قرار لجنة الجمعية العلميه الانجليزية المذكورة آنفا فلم يعهد في تاريخ العلم ان ثلاثين عالما من الاخصائيين يجتمعون ثمانية عشر شهرا لبحث فى مسألة محسوسة ويجمعون على حكم لايشذ عنه واحد منهم، واربعة اخماسهم كانوا مقتنعين قبل بحثها بانها من الشعوذة كما كتبوا ذاك بأنفسهم فى تقريرهم، كلهم في الضلال لايشذ عنهم واحد يخالفهم الي الهدى .

لم يعهد هذا في تاريخ العلم ولن يكون فى عصر من العصور وقد أثر تقرير هذه اللجنة أعظم تأثير فى عقول العلماء فحملهم على احلال هذه المباحث محلها من الاعتبار وانتهي الحال بهم الى ماترى اليوم من اعتبار المجامع العلمية الرسمية المؤلفات التي تصدر فيها. وقد ذكرنا في المقالة الماضية خبر منح المجمع العلمي الفرنسي جائزة (فان إمدن) الكتاب المسيو ل . شفروى الذي عنوانه الانسان لايموت وكل مستنداته مستمدة من التجاربها

الروحية الحديثة .

قال الدكتور السر ارثر كونان دويل وهو من مشهوري المفكرين الانجليز في كتاب أصدره في سنة ١٩٠٩ التي نحن فيها وهي التي أعلن فيها انضمامه الى صفوف الروحيين بعد تجارب دامت اكثر من ثلاثين سنة :

« ولقد تأثرت أيضاً في ذلك العهد بتقرير الجمعية العلمية الانجليزية وهو التقرير الذى يصعد تاريخه الى سنة ١٨٦٩ فانه من الاعمال التي تفضي قراءتها الى الاقتناع. وهو وان كان قد قوبل من الصحفيين الجهلاء وماديي العصر بالسخرية الا انه في الواقع ذو قيمة جليلة . فلقد تألفت هذه اللجنة من جماعة من الرجال الممتازين المعروفين بالنزاهة،وقد رغبوا في تحقيق الظواهر الخارجية الاسبرتسم .فجاء تقريرهم مفصلا تجاربهم والتحوطات التي اتخذوها ضد التدليس . فبعد ان يقرأ الانسان البراهين المجموعة فى ذلك التقرير لا يستطيع ان يدرك كيف كان يصل هؤلاء المجربون الى غير النتائج التى اعلنوها،وهي ان هذه الظواهر بلا أقل ريب حقيقية وتدل على وجود نواميس وقوى لا تزال مجهولة من العلم . والاغرب مما تقدم انه لو جاء قرار هذه الجمعية ضد الاسبرتسم كان طعن هذه الحركة طعنة قاتلة وما كان يقابل بالاستهزاء لضمانه صحتها . ولقد كان هذا الاستهزاء حظ مباحث عديدة عملت بعد مباحث هيدسفيل فى سنة ١٨٤٨ أو حين قام الاستاذ هير (*Hare*) من جامعة فيلادلفيا ليعارض الحقيقة كما كان شأن القديس بولس،ولكنه اضطر ان ينحني اجلالا لها (انظر صفحة ٣٧ من كتاب الوحي الجديد تأليف الدكتور السير ارثر كونان دويل)

هذا تأثير وقع تقرير اللجنة العلمية الانجليزية في العالم العلمي فيحسن بكل من يريد الكلام في هذا الموضوع تصويبا او تخطيئا ان يقرأه احتراما للحقيقة.

واننا فى مناسبة ذكر كتاب الدكتور السير ارثر كونان دويل نقتطف لقراء هذه المجلة كلمات منه فهو احدث كتاب ظهر فى عالم المطبوعات فى هذا الموضوع،وصلتني

نسخة منه منذ ايام وقد أخذت في ترجمته لانه يحكي تاريخ نفسه في الشك والجحود ثم تدرجه شيئا فشيئا تحت تأثير البراهين الي الاعتقاد الجازم بان الاسبرتسم حق وانه وحي جديد للعالم ليخرجهم من ظلمات الالحاد المطلق الي انوار الايمان القائم على دعائم العلم الصحيح . قال الدكتور المذكورة بعد ذكره التجارب التي عملها في مدى الثلاثين سنة السابقة .

« ان هـذا الموضوع كما برهنت عليه يجدر ان يعتبر بعثا لعلم كان قد اندثر لا استكشافا جديداً . واننا لسنا في عهد يصح أن تحسب فيه الآراء الناضجة المروى فيها لامثال كروكس ووالس وفلامريون وشارل ريشيه ولودج وباريت ولومبروزو والجنرالين دريزون وتوريز والسرجان بالانتاين وستيد والقاضي ادموندس والاميرال اسبورن مور والمرحوم ارشيديكون ويلبر فورس وجم غفير من شهود آخرين . قلت لسنا في عهد يصح أن توصف فيه آراء هؤلاء بأنها من الخلط أو اللغو المل . وقد توافقنا انا والمستر ارثر هيل في القول باننا وصلنا من هذا العلم الى الغاية التي تعتبر معها كل شهادة جديدة زائدة عن الحاجة ويقع عبء كل انكار علي المنكرين أنفسهم .

« ان زمن البحث والتنقيب قد مضى وحان وقت العمل من زمان بعيد .

« ان الادلة التى يستند عليها هذا العلم من الكثرة بحيث تملأ مكتبة بأكملها . والشهود الذين دعوه لا يعيشون فى غيابات الظلام ، ولا هم في ماض بعيد لا يقبل التمحيص ولكنهم معاصرون لنا ، ومن اصحاب المدارك والصفات المجمع علي احترامها ؛

« الامر فى جملته ينحصر كما أرى فى الاخذ بأحد رأيين اثنين وهما : اما ان يفرض بأن وباء من الجنون الـم جيلين من الناس ، وعم قارتين من الارض واصاب رجالا ونساء يعتبرون فى أوج الصحة فى كل مجال عقلى آخر . واما التسليم باننا منذ سنين نتلقى وحيا جديداً من مصدر الهى يخالف اكبر الحوادث الدينية التى حدثت منذ موت المسيح مخالفة كبيرة . لان حادثة الاصلاح البروتستانتي كانت عبارة عن تهذيب الكاثوليكية

وأما هـذا الوحي الجديد فيغير في نظرنا وجه الموت، وحظ الانسان من الوجود تغييراً كليا . لامجال للتردد في اختيار أحد هذين الفرضين . واما النظرية التي مؤداها ان الاسبرتسم لا يعدو التدليس والافك، فلا تثبت أمام الوضوح والعيان. فاما ان يكون هذا الامر من الجنون البحت، وأما ان يكون انقلابا يجعلنا نقابل الموت وجها لوجه بلا وجل وبتعزية لاحد لها باقناعنا بان الذين نحبهم لم يتلاشوا بالموت، ولكنهم انتقلوا الى عالم من وراء حجاب

«وأحسن ما أفعله لختام هذا الكتاب الصغير هو أن أنقل الكلمات البليغة التي أعجز عن الاتيان بمثلها وهي كلمات تساوى فيها الفكر والبيان في السمو، المفكر الكبير والشاعر المستر جيرالدماسيه *Geraldmassey* وقد كتبت منذ عدة سنين قال :

«ان الاسبرتسم صار لي، كما صار للكثيرين غيري، توسعة في مدى أفق العقل ومنفذا لي الى السماء، وتحولا لايماني بالغيب الى عقيدة بمشاهدات محققة لا يمكن أن تشبه الحياة بدونه الا بالمرور في قاع سفينة مقفلة النوافذ، وليس مع السائر من نور غير بصيص من لهب شمعة ثم سمح له مفاجأة أن يصعد الى ظهر السفينة في ليلة حالية بالكواكب ليتامل لاول مرة هذا المظهر المعجب للسماء وهي تتلألأ بعظمة الله».



الروح والجسد

جاء في جزء المقتطف الذي نشرنا به هذه المقال سؤال وجهه الينا بعض قراء المقتطف هذا نصه :

حضرة الفاضل محرر المقتطف

قرأت في مجلتكم مقالات متوالية تحت عنوان اثبات الروح بالمباحث النفسية لحضرة الفاضل فريد بك وجدى ويتلخص كلام حضرته في أربع كلمات وهي ان الروح غير الجسد خلافا لما يثبته الطبيعيون من ان الروح ظاهرة من الظواهر التى تنتج من الجسد بتأثير بعض المؤثرات فيه .

فالرجاء من حضرة الكاتب ان يفسر لنا العلاقة بين زوال الروح من الجسد بالامتناع عن تعاطي الطعام و بين استمرارها فيه بتعاطيه الطعام الى ان يصير الجسم غير صالح لها مسكنا مستفيد

دحض شبهات

تأثير الوسيط بقوته الذاتية

نشرنا هذه المقالة فى جزء المقتطف الصادر فى يناير سنة ١٩٢٠

لما تحقق المنكرون للعالم الروحاني ان نظرية التدليس والاستهواء لاتنهض لتعليل المشاهدات التجريبية للمباحث النفسية، ولا تقوى على مقاومة تيار ظواهرها

التي تظاهرت في الشهادة لها المشاعر والآلات المدنية، وخشوا انهم أصروا على هذا الضرب من المكابرة أن يحاط بهم من كل جهة، تقهقروا الى خط دفاع ثالث وجمعوا صفوفهم استعدادا لمعركة فاصلة تسلحوا لها بفروض جديدة . فزعموا ان تلك الظواهر كلها لا تدل على وجود عالم روحاني تظهر لنا آثاره بواسطة ذوى الاستعداد الخاص لاظهارها، ولكنها مظاهر مختلفة لقوى الوسيط نفسه . فقد يظهر الوسيط بشخصية مخالفة لشخصيته فيخيل للمجربين ان روحا استولت عليه وتكلمت بلسانه والحقيقة ان هذه الحالة مظهر من مظاهر الامراض العصبية كحالة المرضى الذين وصفها اطوارهم الباحثون في تلك الامراض، كالاساتذة جانه وريجو وجمس وميرو وغيرهم (انظر المقتطف صفحة ٤٦٨)

والوسيط الواقع في تلك الحالة قد يخبر بما لا يعرفه هو ولا يعرفه المجربون فيتوهم من يراه ان روحا تتكلم بما غاب عن الناس، والحال كما يقول المقتطف في الجزء الماضي انه يعبر عن « معلومات محفوظة في عقله الباطن الذى أطلق عليه الاستاذ ميرس اسم *Subliminal* أى تحت عتبة الشعور واطلق عليه شوبنهوير وهارتمان اسم اللاشعور *Inconscient* نريد بذلك ان بعض الناس يسمعون ويقرأون عن أمور كثيرة فترسخ في عقلهم الباطن ولكنها لا ترسخ أولا يبقى ذكرها في عقلهم الظاهر الذي يستولي عليهم وهم في حالتهم الطبيعية، فاذا مرضوا أو ناموا بالاستهواء وأصابتهم الغيوبية تذكروا ماهو راسخ في عقلهم الباطن وذكروه »

فان قلت لهؤلاء ان انواع المشاهدات الروحية لا تنحصر في ظهور الوسيط بشخصية غير شخصيته، ولا في اخباره بالغيب ولكن تتناول ضروبا من الخوارق يطول فيها العد، ردوا عليك بمثل ماقاله المقتطف في ذلك الجزء نفسه : « لا يخفى علينا ان بعض مايروى عن الوسطاء لا يعلل بما تقدم ولكن الذين فحصوا بعض الغرائب المروية وجدوا فيها بعدا عن الحقيقة مقصودا او غير مقصود وانها اذا ردت الى حقيقتها زالت منها كل غرابة »

المنكرون في كل زمان ومكان رددوا هذه العبارات كلما خوطبوا في المسائل الروحية. فقالها كروكس ورسل واليس وشارل ريشيه وبترهوف وزولنر ولومبروزو ولجنة الجمعية العلمية الانجليزية التي دعيت لفحص المشاهدات النفسية وتقديم تقرير رسمي عنها وقالها الالوف من العلماء والمفكرين في كل بلد متمدن ولكنها ذابت وتلاشت عند ما بحثوا هذه المشاهدات بانفسهم فانقلبوا الى صفوف أنصارها ودافعوا عنها بكتاباتهم وخطابهم، حتى أصبح لها الدولة اليوم. فالامر كما يقول الدكتور (ارثر كونان دويل) ينحصر بين فرضين اثنين لا ثالث لهما: فاما أن يكون وباء من الجنون انتهم القارتين في جيلين متواليين، واما أن نكون حيال فتح جديد افاضه الله على الناس ليكمل به لهم نقص الدليل العقلي في اثبات الروح والخلود بشاهد من الحس كما تتطلبه الفلسفة العصرية.

وأنا أزيد على هذا قولي: لو كانت مشاهدات ألوف من العلماء والنبهاء مجتمعين ومنفردين في جيلين متواليين، تدحض بمثل هذا الاسلوب، لبطل كل علم في الارض الا ما يراه الانسان بنفسه. فيستطيع أحدنا مثلا جريا على هذا الاسلوب ان ينكر كل ماذكره المقتطف عن العلماء جانه وريجر وجمس ومبرس وازام من تجاربهم في الشخصيات المتعددة، ويستطيع أن يورد عليها كل ما يورده المنكرون على المشاهدات الروحية من التشكيكات المتنوعة. واذا كان المقتطف يثق بهم ويعتمد على ما ينقلونه عن الشخصيات المتعددة لدحض الوساطة الروحية، فلم لا يثق بهم فيما يقولونه هم انفسهم عن المشاهدات الروحية. أليسوا هم أولى الناس بتعليلها بالشخصيات المتعددة باعتبار انهم اكبر الدارسين لها والواقفين على أطوارها. انهم لم يفعلوا ذلك بل رأيناهم يشهدون بصحة الظواهر الروحية وبأنها ليست مما يعلل بالشخصيات المتعددة فقال الدكتور جانه في كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة ٣٧٦ بعد ذكر الاسبرتسم:

«المذهب المادي الذي اوجزنا الكلام عنه هنا يستحق درسا مدققا ومناقشة اصولية وان التشكيك والازدراء الذين يحملان على نكران كل ما لا يفهم وعلى

تزداد كاتي غش وتدليس دائما وفي كل مكان ليس لها محل هنا ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيواني . فان الحركة التي دفعت الي تأسيس خمسين جريدة في أوربا وحملت علي الاخذ بها عدداً عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة،

أما ميرس وجمس فالاول منهما كان اكبر أعضاء جمعية المباحث النفسية في لوندره وفي كتابه المسمي الشخصية الانسانية الذي نقل المقتطف عنه ما قاله في الشهر الماضي عشرات من الشهادات في صحة التجارب الروحية. والثاني منهما كان رئيسا لجمعية المباحث النفسية المذكورة وقد نقلنا شهادته لهذه المباحث في العدد الصادر من المقتطف في شهر يناير من السنة الماضية.

ويحسن بنا أن نضيف هنا الى شهادتهم شهادة عالم كبير من الباحثين في مسألة الشخصيات المتعددة هو الاستاذ الدكتور (بينيه) *Binet* مدير المعمل البسيكوجي في جامعة الطب الفرنسية فقد قال في كتابه (تحولات الشخصية) في صفحة ٢٩٨ بعد ذكره بعض التجارب الروحية :

« هذه البراهين كافية لان يتمكن مذهب كالاسبرتسم من ادهاش الناس أجمعين ومن كسب الوف مؤلفة من المصدقين ».

هذه شهادات من نخبة العلماء الذين استشهد المقتطف باقوالهم في مسألة تعدد الشخصيات وقد زدنا عليها شهادة الاستاذ (بينيه) وهو من اكبر الاخصائيين في تلك المسألة، فبأي مرجح نأخذ باقوالهم في مسألة تعدد الشخصية ونرفض تجاربهم في المباحث النفسية ؟

...

قلنا ان في المشاهدات الروحية مالا يمكن تفسيره بتعدد الشخصيات، ولا بالعقل الباطن، ولنضرب لذلك أمثلة قليلة من ملايين كثيرة من تجارب بحثت كلها بحثا علميا وسري عليها أدق أساليب التمحيص المعروفة، منها تكلم الوسيط باكثر

من عشر لغات لا يعرفها هو ولا احد من المجربين، كالعربية والهندية والجاوية والصينية، يتكلم بها كاحد أبنائها بشهادة أهل تلك اللغات الذين يستحضرون للتفاهم مع الروح المتكلمة . وقد كتب المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكي ان ابنته (لورا) كانت تتكلم بخمس عشرة لغة كاحد ابنائها وكان من شدة شغفه بهذه المباحث يعرضها للمجربين ، فهل يعقل ان عقلها الباطن يحفظ تلك اللغات كلها على غير شعور من عقلها الظاهر ويشهد أبوها، وكان زعيم أكبر هيئة دستورية في العالم، انها لم تتعلم غير الانجليزية والفرنسية ؟ ان عقل ذلك فهل يعقل كتابتها لتلك اللغات كلها بخطوط أصحابها المتوفين ؟

ومنها ادخال المواد الجامدة الى غرف التجارب المقفلة من خلال الحوائط ونقلها اياها من مئات الاميال، وانفاذ الاشياء الجامدة في الصناديق الحديدية المقفلة المغطاة امام أعين المجربين بدون ان تلمسها ، وقد نقلنا شيئا من ذلك في مقالاتنا الماضية، فهل تفسر هذه الخوارق بتعدد الشخصيات أو بالعقل الباطن ؟

ومنها ظهور ايد وأرجل وانصاف اجساد واجساد تامة التركيب تتكلم وتسلم على الحاضرين بيدها وتسمح لهم بفحصها بكل ضروب الفحص وتكتب لهم بيدها وتترك قوالب من البرافين لبعض أعضائها وتهديهم بخصل من شعرها وبقطع من ثيابها، فهل يفسر هذا أيضا بتعدد الشخصيات أو بالعقل الباطن ؟

كل هذه المشاهدات، وهي ملايين، مما سرى عليه أقوى ضروب التمحيص لو عرضتها على الماديين وأخبرتهم بأن الذين شاهدوها هم من اخوانهم العلماء الذين يفوقونهم علما ورزانة اعرضوا بجانبهم ولم يجدوا وسيلة أحسن من نكرانها جملة وتفصيلا، والادعاء بأن أولئك العلماء (وهم ألوف) قد خدعهم المشعوذون واستهواهم الدجالون. فان أتيتهم بشهادة عشرات الالوف من الاطباء والمهندسين والصحفيين والكاتبين والشاعرين رموا بها عرض الحائط أيضا وزعموا ان هؤلاء ينقصهم التمحيص العلمي الصارم وكبر عليهم ان يأخذوا بتجارب من دونهم . فان قلت لهم فتفضلوا انتم بالبحث بأنفسكم ،

اجابك بعضهم بأن هذا لا يهمه أصلا كما فعل الاستاذ هكسلي . وأجابك البعض الآخر بأنه حضر تجربة لوسيط (مأجور) فظهر له أنه يحاول الغش فلم يعد بعدها للتجربة ووقر في نفسه ان كل الوسطاء مدلسون ! ورد عليك آخر أن هذه المشاهدات مناقضة للعلم المعروف . . . . كأن العلم المعروف لا يصح ان يرتقي عما هو عليه الي ابد الآبدين .

ان هذا الاسلوب في دحض الاستكشافات الجديدة لا يعد من الحيطة العلمية ولا من دلائل الالمعية ولكن يعتبر من قبيل وضع العقبات امام العلم واحتكار مسألة الوجود الكبرى لعدد محصور من نواميس ناقصة أظهر النقد العلمي الجديد انها مسلمات تحكمية كالمسلمات المنطقية .

...

ولقد بلغ الغلو ببعض العلماء الماديين انهم اخترعوا نظريات لتعليل المشاهدات الروحية لو ثبتت لكانت اعجب من ظهور ارواح الموتي جهارا وسيرها بين الناس في الطرقات . كقولهم ان القوة العصبية للوسيط قد تخرج منه في بعض الاحوال وتحدث أعمالا مادية محسوسة . فما هي هذه القوة العصبية ؟ وعلي اى دليل علمي استندوا في زعمهم بأن هذه القوة قد تخرج من الجسم لتضحك على لحي المجربين ؟ وما حظها من أدعائها بأنها روح بعض الميتين ؟

وأراد الدكتور ادوارد هارتمان الالماني ان يعتدل فلم يقل بخروج القوة العصبية بل قال بخروج الروح من جسد الوسيط وهو متشنج واتيانها لتلك الخوارق،فيظنها المجربون روح أحد المتوفين وما هي الاروح اخيهم الوسيط . كما ذكر ذلك في كتابه (انيميسموس اندسبريتسموس) الذى رد به على الوزير الروسي اكزاكوف . فلما سئل ومن اين لروح وسيط جاهل أن تأتي بالفلسفة العالية وأنباء الغيب ؟ فأجاب بقوله ان الروح الانسانية نفحة من الخالق عز وجل فاذا تجردت اتصلت به اتصال الفرع بالاصل وعلمت ما كان وما سيكون الى ابد الآبدين .

فرد عليه اكزاكوف بقوله : ان هذه الارواح التى تظهر المجربين تدعى انها أرواح موتى معينين، فهل يعقل أن روح الوسيط بتجردها عن عالم الرعونات البشريه واتصالها بالذات العلية الكليـة، تتصف بالكذب الصراح وهي في ذلك الطور من الجلال السماوى ؟ اما كان يجدر بها وهي تتجلى في ذلك العالم العالي بذلك العلم المطلق أن تقول الحق وتهدى الناس الي الصواب ؟

وقد زعم بعض العلماء ان هذه الخوارق تحدث من الروح العامة التى تتكون من مجموع توجهات المجربين واتحاد قواهم العصبية علي احداثها . وهذه شبهة لا تحتمل النقد ولا يصح أن تحشر فى عالم الفروض العلمية، فان القول بتكوّن روح عامة من قبيل الاستناد الى مجهول فما هي تلك الروح العامـة ؟ وبم تتألف ؟ وكيف تتكوّن ؟ وما حـدود سلطانها ؟ وما حظها من الابهام والتدليس ؟ علي أن المجربين اكثر مـا يكونون مكذبين منكرين يريدون عـدم ظهور أي خارق، او ظهوره وكشف احبولة الوسيط . واذا أمكن تعليل بعض المشاهدات الساذجه بهذه النظرية كتحرك خوان أو انتقال متاع من مكان لمكان، فهل يمكن أن يعلل بها حـدوث المشاهدات الكبرى كظهور الاشباح وتكلمها بلغات متعددة وكتابتها بها واحداث الخوارق التى سردنا عليك بعضها ؟

ان أوردت عليهم هـذا، قالوا كل ما لا يعلـل بتلك النظرية يجب ان يلفظ الي زاوية الاهمال باعتبار أنه من الشعوذة وانخداع المجربين !(بخ بخ)

الامر جلل . وهناك ملايين من المشاهدات تتظاهر عـلي نفى هـذه الشبهات كلها . وما احتل الماديون اعداء هذه المباحث خط دفاع الا تعقبهم المجربون فيه وقهروهم عنه . فاذا كانت هذه المشاهدات ليست من الشعوذة ولا الاستهواء، ولا من روح الوسيط ولا من مجموع أرواح المجربين، فلم يبق الا شبهة رجال الدين ومن نحـا نحوهم من الاعتقاديين، وهي انها آثار ارواح مجردة موجودة في الكون غير ارواح الناس او اعمال شيطانية الغرض منها التضليل وصرف الناس عن حقائق الدين. وهذا ما سننظر فيه في الجزء المقبل ان شاء الله.

وما سألنيه حضرة المستفيد في صفحة ٥٢٣ من المقتطف فسنجيبه عنه في ختام المقال التالي أيضاً.

رد شبهتي الارواح غير الانسانيـة

والارواح الشيطانية

نشرنا هذه المقالة في مقتطف فبراير سنة ١٩٢٠

نفينا في مقالات سابقة شبهات الماديين على الخوارق والارواح المتجسدة التي تظهر للمجربين الظواهر الاسبرتسم واليوم ننفي شبهة بعض الفلاسفة الاعتقاديين القائلين بان تلك الارواح التي تكلم المجربين ليست بأرواح الموتى من الآدميين ولكنها أرواح مجردة اخرى موجودة في الكون لا ندرى حقيقتها .وشبهة رجال الدين الذين يذهبون إلى ان تلك الارواح ارواح شيطانية تظهر للمجربين لتفتنهم وتضلهم عن الدين

فاما الشبهة الاولي فضعيفة من وجوه عديدة :

منها انه لامعنى لادعاء تلك الارواح المجردة بانها ارواح موتى الآدميين واصرارها على تلك الدعوي في مدى جيلين متواليين واجماعها على ذلك في كل ادوار هذه المباحث .

ومنها ان الارواح التى تظهر للمجربين تعلم اسرار الموتى الذين تدعى هى انها ارواحهم،وتكتب بخطوطهم وتوقع بتوقيعاتهم ، فاذا تجسدت ظهرت بصورهم التي كانوا عليها وتكلمت باصواتهم واخبرت عن جميع دخائلهم، ولا يعقل ان تكون تلك الارواح المجردة من الغش وفساد الطوية بحيث تزج بالعالم في مثل هذا الضلال

البعيد الا اذا كانت من اخبث الشياطين ، فتؤول هذه الشبهة الى الشبهة الثانية .

ومنها ان تلك الروح لايعقل ان تكون من الملائكة الذين تصفهم الاديان فانها تقول بأنهم كائنات علوية ليس من شأنهم التدليس ولا من صفاتهم التلبيس.

ومنها انه لوساغ في العقل وجود أرواح مجردة تحضر فتكلم المجربين، فلم يستبعد ان تكون هي أرواح الميتين خصوصا وهي تؤكد ذلك وتقيم عليه البراهين كاستراه في المقالة الثانية عشرة.

ومنها ان هذه الشبهة لاقيمة لها في دحض المذهب الروحاني لانها من جهة لاتؤيد مزاعم الماديين لنفيهم وجود الارواح جملة كافية، ولادعاوى الدينيين لذهابهم الى ان الارواح لاتحضر المجربين ، بل تقوى حجة الروحيين من امكان اشرافنا على العالم الروحاني واتصالنا بالكائنات اللامادية فيه.

٥٠

وأما شبهة رجال الدين فلا تقوى على النقد، حتى النقد المؤسس على تعاليمهم، لان الشياطين في تعريفهم هي ارواح شريرة، جبلت على اغراء الناس على الفساد وتوريطهم في المهلكات . والارواح التي تظهر للمجربين على الضد من ذلك تأمر الناس بالمعروف، وتزعهم عن المنكر، وتقيم لهم الادلة على الخلود، وتعمل جهدها في هدم المذهب المادى الذى دفع بالناس الى قبول شر التعاليم وكان من اثر تلك الارواح في مدى سبعين سنة ان آمن بالله واليوم الآخر ملايين من الماديين وانفتح لاهل النظر مجالا لاحد له في تنور اسرار الخليقة وكشف مساتير الطبيعة والاستدلال على عالم الروح بأسلوب العلم المادى، وتعديل مزاج الفلسفة العصرية . فماذا ابقت هذه الكائنات بعد هذا كله للملائكة الكروبيين، وأرواح الشهداء والصالحين ؟

الحقيقة ان انتداب رجال الدين في أوربا على الحط من قيمة هذه الآية الكبرى

آية ظهور الارواح سببا قل من فطن له في هـذه البلاد . وهو ان هـذه الارواح تدعى انها مكلفة بهداية الناس الى نظر جديد يرتقون به على معارج الدليل الحسى الي مستوى من العقائد أرقي مما هم فيـه من اديانه المقررة . وقد صرحت بأن الناس بما يحملونه باسم الاديان من جهالات اسلافهم أصبحوا بعداء عن كل خير ، مستعصين عن كل كمال . وانه قد آن وقت خلاصهم من هذه الآصار لا بتكذيب كتبهم ورسلهم، ولكن باعتبار ان تلك الكتب أو حيت لهم مشوبة بكثير من الخرافات لان حالتهم العقلية تأبي غير ذلك، وان المرسلين هم وسطاء روحيون لا اقل ولا اكثر .

هذه التعاليم ازعجت رجال الدين وجعلتهم ينظرون الى المسألة الاسبريتية نظرهم الى عامل شديد الخطر يقوض صروح الاديان، ولكنها لفتت من جهة أخري نظر الباحثين المستقلين، ورأوا فيها حلا علميا مقبولا لمسألة النبوة والكتب الموحاة.

ونحن في هذه المقالة لانرى بدأ من نشر طرف من فلسفة الارواح في هذه المواضيع . وأحسن ماأتت به من ذلك ما كتبته بنفسها بالاستيلاء على أيد أكبر وسطاء انجلترا القس ستنتون موزس الاستاذ بجامعة كوليدج سكول . كان هذا القس عدوا المذهب الروحي كجميع رجال الدين وكان له صديق حميم من غلاة الماديين وهو الدكتور ستانهوب سبير . فاتفق ان ميسز سبير قرأت كتاب (الارض المتنازع عليها) للاستاذ الانجليزى الكبير (دبل اوين) في الاسبرتسم فحبب اليها البحث في هذا المذهب . فحملت زوجها الدكتور سبير وستنتون موزس على التجربة، وكانت الوسيط أولا (لوتي فلاور) ثم (وليم) المشهور فاتضح في اثناء التجارب ان القس ستنتون موزس خاصة الوساطة، فكان يشاهد أصحابه اذا اجتمعوا معه للتجربة حدوث طرقات واجابتها علي اسئلة السائلين، وظهور أنوار على هيئة كريات وهبوب روائح زكية عليهم وحصولهم على مقادير من المسك السائل في أيديهم ومناديلهم الخ ولكن اكبر هذه الظواهر كلها كان استيلاء أرواح معينين علي يد القس وكتابتهم فصولا طويلة كان لها اكبر تأثير عليه وعلي الحاضرين .

وذلك انها فاجأته بما يناقض عقائده الدينية فكان يجد يده تكتب ما يعد مجرد الفكر فيه كفراً صريحاً، فيشتد في الرد عليه، فتستولى الروح علي يده ثانية وتناقشه في رده حتى أفضى الامر الي صبوه لمذهبها واقتناع الدكتورسبير وزوجته وابنهما شارلتون سبير بصحة مذهب استحضار الارواح بعد أن رأوا من دلائله الحسية مالا يمكن التردد في قبوله.

وننبه هنا ان ما سننقله عن كتاب القس ستنتون موزس (التعليم الروحي) هومذهب جميع الارواح في جميع بقاع الارض.

فما كتبته بيد القس المذكور عن وظيفتها قولها في صفحة ٩٠ من الكتاب المذكور :

« نحن مرسلون من عند الله كما ارسل المرسلون من قبلنا غير أن تعاليمنا أرقي من تعاليمهم . فالهنا هو الههم الا ان الهنا أظهر من الههم، واقل صفات بشرية ، واكثر خصائص الهية

«الايمان التقليدى لا يمكنه ان يحل محل الاقتناع العقلي . لان الايمان انما يكون ايمانا اذا قام على أصول ثابتة منتخبة يقرها العقل، والافلا يمكن أن يكون واجباً علي أحد . فاذا لم يكن مستنداً علي شيء أصلا فلسنا في حاجة الى اقامة الدليل على بطلانه .

« ان وجهتنا نحن اعتبار العقل فكيف يمكن أن يستدل من ذلك علي اننا آتون من قبل الشيطان ؟ وماهو الخطر المتوقع من الاصل الذى ندعوا اليه ؟ وبأي مناسبة يمكن اتهامنا بأننا نرمي الى غرض جهنمي ؟

(مذهب الارواح في حب الانسانية وفي الفلسفة)

« محب الانسانية هو الذى يحبها لذاتها، والفيلسوف هو الذى يحب العلم لذاته، كذلك فامثال هذين الرجلين هم أحباء الله الذين لا تقدر لهم قيمة، وما أعد لهم من السعادات لايمكن ان يحد بحد.

فالاول لا يقيد حبه للناس اعتبار الجنس ولا الوطن ولا الاعتقاد ولا الامم، ولكنه يحيط الانسانية عامة بحبه الخالص . فيحب الناس باعتبارهم اخوانا غير مبال بآرائهم الخاصة فهو لا ينظر الا الى حاجاتهم . يهبهم من علمه الراقي فيبارك الله عليه . هذا هو الحب الصادق للانسانية، وليس هو ذلك الذى لا يحب الا الذين يوافقونه فى الرأي، ولا يساعد الا من يتملقونه، ولا يتصدق الا ليعرف عنه انه من المحسنين .

«والثاني أى الفيلسوف هو الذي خلص من وطأة النظريات فيما يجب أن يكون، ومن الخضوع للآراء الطائفية والتقاليد المذهبية، فاصبح حراً من أسر المقررات، ومستعداً لقبول الحقيقة مهما كانت بشرط ان تقوم عليها البراهين، باحثاً عن مساتير الحكمة الالهية فيجد سعادته من وراء هذا البحث . وهو لا يخشى ان يستنفد خزائن هذه الحكمة فانها لا تقبل النفاد . اما اغتباطه فى الحياة فهو فى الترقي كل يوم في معارج العلوم العالية، وفي الحصول منها علي محصول عظيم من آراء هي أقرب الي الحقيقة عن الله وعن العالم . اجتماع هاتين الخصلتين حب الانسانية وحب الفلسفة يكونان الرجل الكامل (صفحة ٣٧)

(مذهب الارواح في المقررات التي نعتبرها حقائق)
من الكتاب المتقدم

« اذا رايت ان تعاليمنا تثبت عدم وجود حقيقة مطلقة فنحن نشكرك على انك فهمت ما نرمي اليه . فما لاشك فيه انه لا شيء وانتم في حالتكم الراهنة من النقص يقرب من الحقيقة المطلقة ولا من الكمال المطلق .

والحقيقة المناسبة لكم يجب ان تكون متغيرة لانكم لا تستطيعون ان تحيطوا بالحقيقة المطلقة في كليتها، ولا ان تدركوها في جزئياتها، فهى تظهر لكم من وراء حجاب . ونحن لا ندعي ان نكشف لكم عن وجهها فنحن انفسنا نجد في الوصول اليها . والذى علينا هو ان نساعدكم فى الحدود المسموح بها، فنعين لكم في صورة غير تامة الجلاء مدركات جديدة هي اقل بعداً عن الحقيقة مما لا يقدر من المدركات التي تتخيلون انها وحي مباشر من الحق

تعالى نفسه (صفحة ١٦٧)

﴿ نصيحة الارواح للناس في الامور الاعتقادية ﴾

من الكتاب المتقدم

« لا تخضع لاية عقيدة مذهبية، ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند على العقل . ولا تأخذ بلا تحفظ وحياً جاء لاحوال خاصة في عصر من العصور . وستعلم بعد أن الوحي لا ينقطع أبداً، وهو آخذ في الترقي ولا وقت له ولا حد وليس هو بامتياز لامة دون أمة ولا لشخص دون شخص . والله يكشف نفسه للانسان شيئاً فشيئاً (صفحة ٩٧)

(مذهب الارواح في الاديان الموجودة)

من الكتاب المتقدم

« العقل الانساني مسوق لان يأخذ به بين وراثي، محمول على ان يعتقد أنه يجب أن يكون الله على مايدركه جنسه أو أسرته . فالله عند الهندي الاحمر هو الروح الاعظم الذي يدركه، وعند المتوحش الاسود هو الفتش الذي يعبده ، والنبي يجب ان يكون المسيح أو محمداً او كونفسيوس . وبالجملة فان الانسان من الشمال الي الشرق ومن الغرب الي الجنوب قد أسس علما لاهوتيا لما يعتقده وأخذ يلقنه لاولاده مخضعا اياهم بالقوة لدين يعتبره الوسيلة الضرورية للنجاة . وقد نبهناكم قبل الآن الي هذا الامر فتأملوه . فأى دين من الاديان لجنس من اجناس البشر، على أي بقعة من بقاع الارض، يدعي احتكاره للحقيقة الالهية فهو بشري مزور ، ولده الكبر والفقه الزهو

« فلا يوجد اي علم لاهوتي محتكر للحقيقة بل ان في كل منها نقصاً الى حد معين . ولكل منها جهات صحيحة تناسب حاجات الذين أوحي اليهم أو ارتقي بهم . ولكن لا يوجد من بينها واحد يصح ان يعلن الناس بأنه الغذاء الروحاني الوحيد المنزل من الله اليوم . والانسان في قصوره وعجزه يحب ان يعتقد بأنه المالك لحلوم

لاصل من أصول الحقيقة (ونحن نضحك من تمسكه بهذا الغرور) ويؤديه افتخاره بهذه المالكية الوهمية الى الاعتقاد بوجوب ارسال دعاة له في طول الممالك وعرضها يحملون عقائده الجنسية لشعوب اخري تضحك من هذه الحقوق المزعومة (صفحة ١٧٨)

(مذهب الارواح في اختلاف الاديان وصحتها كلها)
من الكتاب المتقدم ذكره

ذكرت الارواح اولا ان الحقيقة المطلقة نور ساطع لاتتحمله اعين البشر طفرة ثم قالت :

« قد حصل كل اجناس البشر علي شعاع من هذا النور . فمنذ وجدت دنياكم هذه حصل كل من البرهمي والمحمدي واليهودى والمسيحي على بصيص خاص من ذلك النور واعتبره كل منهم ميراثا له خاصة انزل اليه من السما . فلاجل ان نزيدك تنبيها علي مبلغ بطلان هذه المزاعم نحيلك الي التأمل في الكنيسة المسيحية التي تدعي لاختصاص بالحقيقة الالهية والي ماوصلت اليه من الانقسامات

« لقد قرب الوقت الذى فيه يخترق شعاع جديد من نور الحقيقة ظلمات هذا الجهل الانساني . والحقائق العالية التى كلفنا باعلانها تمحو من ارض الله الاحقاد المذهبية وغم العلوم اللاهوتية والغضب وارادة السوء والبغضاء والكبر الفريسى (نسبة الفريسيين) وهي الصفات التى شوهت اسم الدين وجعلت كلمة العلم اللاهوتي مرادفة بين الناس الشقاق والتفرق (صحيفة ١٧٩)

(مذهب الارواح في الابرار وفي القرب من الله)
من الكتاب المتقدم ذكره

« لايوجد بررة مختارون غير الذين يشتغلون بأنفسهم الترقي في معارج الكمال علي مقتضى النواميس الطبيعية التى تحكمهم . فنحن ننكر مايعزى للاعتقاد الاعمي والايمان الساذج من القدرة المطلقة . ونعترف بقيمة العقل المدرك المخلص

المنزه عن ضيق النظر . فمثل هـذا العقل يقرب من الله ويجتذب ارشاد الملائـكة .
ونرفض بصوت عال كل مذهب هادم يقرر أن للايمان و للاعتقاد وللتسليم بالآراء
المقررة قدرة ما على محو الذنوب . وننكر أن حيـاة أرضية معيبة نجسة يمكن ان ترتقي
وتتحول الى حياة طاهرة بالتسليم برأي ما أو بخيال ما او بعقيدة غير معقولة تسليما اعمي.
أن مذهبا هـذه حاله قد حط من النفوس اكثر مما حطته اية خرافة يمكننا ان نعينهـا
(صفحة ٩٤).

(مذهب الارواح في أى الاديان يجب الاخذ به)
من الكتاب المتقدم ذكره

« ليس من تعاليمنا أن دينا من الاديان له التأثـير الاعـلي دون سواه . فليس
واحد منها بمحتكر الحقيقة . ولـكن لـكل دين نصيبا منها وكلها مشوبة بالاضاليل .
فنحن نعلم مالا تعلمون ونعرف الاحوال التى تكون الشكل الديني الذى يفضله كل
انسان علي سواه ونقدره حق قدره . ونعرف ان ارواحا هي معنا في الطبقات العليـا
من الرقي الروحاني تقدمت رغمـا عن الشـكل الديني الذي كانت آخذة به عـلى
الارض. فنحن هنـا لا نعبأ الا بعاطفـة التعطش لادراك الحقيقة عند جميـع حمـلة
العقائد المتخالفة علي السواء، وليس للتأملات المجردة من قيمة هنا. فترانا ننكره المباحث
الجـامدة التى يزعم اللاهوتيون انهم حلوا بهـا مساتير العلم السماوي. ولا نبـالي
بالمجادلات الطفلية التى يهتم بها الناس . ولا نكترث بمسألة التخالف المذهبي الا
لنعلل انها اشد العوامل خطراً في توليد الحقد والبغضاء والخبث ومقاصد السوء بين
الناس

(مذهب الارواح في الوصول الى الحقيقة)
من الكتاب المتقدم ذكره

« يجب علي الانسان ان يعلم كل هذا اذا أراد ان يتصل بالارواح بلا خطر .
واذا علم ذلك او كان في دور تعلم ذلك ، وجب عليه ان يرى ان نجاحه متوقف

عليه نفسه

«فليكسر نفسه وليطهر عقله الى اعمق ما يصل اليه وليطرد منه القذر كما يطرد الطاعون لو وصل به . وليرفع بصره الى ارفع ما يستطيع أن يرفعه اليه . وليحب الحقيقة حبه لله فهي التي يجب أن ينحني أمامها كل شيء . وليتبعها غير مبال بما يؤديه اليه البحث . اذا فعل ذلك احتف به ملائكة الله وأشرقت في صميم روحه الانوار»

* * *

هذا طرف من مذهب الارواح ، وكتب المجربين مشحونة بها في كل أمة فلا عجب ان ذهب رجال الاديان الى انها أرواح شريرة جاءت لتفتن الناس في دينهم وتحيد بهم عن طريق عقائدهم . ولكن رجال العلم في أوربا وامريكا يرون في هذه التعاليم اصلاحا بعيد المدى لم تصل الى تكوينه والدعوة اليه فلسفة بشرية الى اليوم . وهم يذهبون الى أن هذه التعاليم العالية من أقوى الادلة على أن هذه الارواح ليست من الارواح السفلية ولا من الكائنات الواقفة في درجة معينة من درجات الرقي العقلي . ومن عني من القراء بدرس الفلسفة الدينية ووقف على قوة ما يدلى به نقدة الاديان من الشبهات عليها يجد في هذه التعاليم الروحية حلا علميا أصوليا لجميع تلك الشبهات ، ويجد معه الدواء الشافي من داء الالحاد الذي يتسرب الى عقول الواقفين على تلك الفلسفة .

فاذا كانت الارواح تقول بأن الحقيقة ليست محتكرة لاى دين في العالم وانها لا يصح ان تنحصر في واحد منها وانها انما أوحيت في أزمان مختلفة لامم خاصة احتوشتها أحوال خاصة وأن ليس فيها ما يصح الركون اليه في كل أدوار البشر وفي جميع أجيالهم ، فانها في الوقت نفسه تصرح بانها كلها وحي من الله ولكنه وحي مشوب بالخرافات التى كانت عالقة في عقول المرسلين بهاء أولئك المرسلين الذين تعتبرهم وسطاء ليس الا

هذه تعاليم خطيرة ندع الخوض في تحليلها و بيان قيمتها الآن ولكننا نقول بأنها تنفي شبهة رجال الدين في ان تلك الارواح من الكائنات السفلية.

فاذا انتفت جميع الشبهات التي قدمناها على حقيقة تلك الارواح فلم يبق الا فرض واحد وهو انها ارواح الموتي الذين تدعى هي انها أرواحهم . ولكن هل تقيم هي الادلة الحسية علي ماتقول ؟ وهل لها في اثبات شخصيتها مايحمل على الاخذ بما تدعيه ؟

ذلك مانبحث فيه في المقالة الآتية ان شاء الله

وقد طالت هذه المقالة فلم نستطع اجابة حضرة الكاتب المستفيد كما وعدنا فنرجيء ذلك الفرصة مقبلة.

...

تحقيق شخصية الارواح

التي تظهر للمجربين

نشرنا هذه المقالة في جزء المقتطف الصادر في مارس سنة ١٩٢٠

ثبت بالادلة العلمية التجريبية بأدق معاني هذه الكلمات ان كائنات تظهر للمجربين متمتعة بعقل غير عقل الوسيط ولا عقل واحد من المجربين ولا عقولهم مجتمعة فتستولى اما علي يد الوسيط فتكتب بخطوط المتوفين وتوقع بتوقيعاتهم، واما فتتسلط علي لسانه فتتكلم بلغته الخاصة . وقد تظهر تلك الكائنات متجسدة بجسد تستمده من جسم الوسيط نفسه كما ثبت ذلك بوزن الوسيط قبل تجسد الروح وفي اثنائه فتدعى هذه الكائنات بأنها أرواح ميتين معينين عاشوا منذ حين، أو عشرات بل مئات من السنين . فهل هذه الكائنات الروحانية صادقة فيما تدعيه ؟

هذه مسألة ضخمة ليس لدينا عليها دليل علمي من نوع الادلة التي تستحق هذا الوصف ولكن كل مالدينا مرجحات اذا جمعت والقي عليها نظرة عامة بلغت بالناظر درجة الاقتناع ونحن نثبتها هنا بايجاز فنقول :

(١) تكلم الروح بلغة المتوفى الخاصة واستخدامها عباراته المألوفة وتذكيرا اهله بحوادث قديمة كانوا نسوها لبعد العهد بها ولا يدريها احد سواهم .

(٢) دلالتها اهلها على أمكنة اوراق ومستندات ضائعة وضعها المتوفي في تلك الاماكن قبل موته بدون اطلاع احد عليها .

(٣) كتابتها بخطه والتوقيع بتوقيعه والتعبير بأسلوبه حتي ولو كان من كبار الكاتبين بحيث عرض كل ذلك على الخبراء فحكموا بتطابق الخطين والانشائين كل التطابق .

(٤) ظهورها متجسدة علي صورته التي كان بها على الارض وتكلمها بصوته ولهجته .

(٥) اجماعها في كافة بقاع الارض على التأكيد بأنها ارواح الموتي وانها ليست من الملائكة ولا من الجن ولا هي أرواح أخرى ذات طبيعة مجهولة

(٦) شغفها بأهلها وايصاء المجربين بهم وتكليفهم البحث عنهم ومساعدتهم .

هذه كلها مرجحات قوية وقد قلب العلماء المجربون البحث في هذه المسألة علي كل وجه يمكن تصوره فكانت الدلائل تتظاهر علي ابطال كل فرض غير هذا الفرض مع كثرة ماأتوا به من الاحتمالات في هذا الباب وطول ترددهم في قبول هذا الرأي

فقال العلامة الفزيولوجي الشهير (الفريد رسل والاس) مكتشف مذهب النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد فنسب الثاني لاعتبارات جزئية قال في كتابه (المعجزات والاسبرتسم العصري) :

« كنت ماديا مقتنعا بمذهبي كل الاقتناع ولم يكن في عقلي مكان للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ولكني رأيت ان المشاهدات

الحسية لا تغالب فانهاقهرتني وأجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة. ثم أخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا على صورة لا يمكن تعليلها بوسيلة أخرى»

يقول انه كان ماديا متشدداً ولكن المشاهدات قهرته على قبول وجود العالم الروحاني بغير عزو تلك المشاهدات الى أرواح الموتى، ثم اضطر أخيراً بتتالي المشاهدات الى القول بهذا الرأى لانه لا يمكن تعليلها بوسيلة أخرى.

وقال العلامة الفلكي الكبير كاميل فلامريون في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة):

« كان تحت نظري حديثاً مشاهدات تشهد لهذا الفرض (الروحاني). فالاولى والثانية من الاحدى عشرة مشاهدة يمكن أن تكون عرفت من القواميس، والثالثة والخامسة من الجرائد (أى أن روح الوسيط سرت فقرأت ذلك عند ما مثلت عنه في القواميس والجرائد)، ولكن بالنسبة للسبع الاخرى نرى أن قبول صحة شخصية الروح هو أحسن الفروض المفسرة لها»

• • •

بقي علينا أن نقول كلمة فيما تخبر به الارواح عن أشياء يصعب على بعض الناس تصديقها عن العالم الآخر. كقول بعض الارواح أنها هنالك تأكل وتشرب. وكقول ريموند بن السير اوليفر لودج أنه هنالك يقيم في بيت من الآجر وانه اذا ركم القاذت ثيابه بالطين. وقد وجه سؤال الى المقتطف في هذا الصدد بصفحة ١٨٦ من الجزء السابق. ونحن لبيان هذا نقول:

ان للناس عن الموت وعن الحياة في العالم الآخر معارف وراثية تقليدية وان كانت أصبحت لدي الاكثيرين في عداد الاوهام القديمة بتأثير شبهات الفلسفة المادية الا انهم لا يزالون يستندون اليها في هدم كل علم صحيح يخالفها مما يختص

بالحياة في العالم الاخر . فالذى ورثه الناس من ذلك ان الانسان متي مات انتقل طفرة الي حالة نفسية وعقلية مباينة لما كان عليه كل المباينة، فعلم كل ما كان يجهله وخلص من كل الاوهام والاباطيل والصفات الذميمة التى عاش عمره عليها، واصبح أحد رجلين اما منعما ثوابا علي ماقدم من اعمال صالحة، اومعذبا جزاءاً علي ما اسرف علي نفسه

ونحن هنا لانبحث في مصدر هذا العلم ولا فى فساد اسلوبهم في الاخذ عنه ، ولكننا نريد ان نقول الماديين (ولا نقصد سواهم بكتابتنا فى هذا الموضوع) ان الموت كما ثبت علميا لا يرفع الانسان طفرة من حالة كان فيها على الارض الى حالة اخرى لانسبة بينهما . بل هو انتقال بسيط من حياة كان فيها الانسان يحمل جسداً كثيفاً الي حياة اخرى يحمل فيها جسدا لطيفا خاضعا للقوانين الطبيعية علي نسبة الفرق بين تركيب الجسدين . فيبقي الميت في الوجود ممتازا علي ما كان عليه علي الارض من الخلائق النفسية والعقلية، الا انه يرانا ويسمعنا ولكننا لا نراه ولا نسمعه . ولاعجب في ذلك فنحن لانرى الاثير وهو مادة ولا نرى اشعة رونتجن والكهرباء والحرارة المغناطيسية وهي مواد اثيرية فى حالة حركة، ومؤثرة فينا اعظم تأثير . ولكن يرى الميت امثاله من الذين انتقلوا الى مثل حالته، فيجتمعون به ويعيشون معه علي النظام المقرر فى ذلك العالم اللطيف، كما نعيش نحن في عالمنا هذا علي نظامنا المعروف، فيظل الميت علي ما كان عليه ويأخذ فى اصلاح نفسه تدريجيا علي سنن مقررة . ومن الموتي من يستمرون على ما كانوا عليه من الصفات ويزيدون عتوا وعناداً، يعصون كل ارشاد كما كانوا يعصونه وهم علي الارض

ولا ادري كيف يعقل ان يكون امر الحياة الاخرى علي غير النظام الطبيعي العام والوجود واحد وقواه هي هي في كل زمان ومكان؟ أليست الطفرة محالا، والسنن الطبيعية حكم لا يمكن التملص منه، والحياة درجات لا تقف عند حد ؟

نعم قد ثبت علميا ان الارواح أقدر منا علي المادة المحسوسة وانها تأتي من الخوارق ما لا

يكاد يتصور، وان من ارتقي منها قد وصل الي مكانات عالية من السمو العقلي والنفسي، وليس هذا بصعب التعليل لو امعنا النظر فيه قليلا.

اننا بحالتينا الجسمية والعقلية ثمرة وجودنا في وسط عوامل معينة من عوامل الطبيعة المحيطة بنا. فوجود أرضنا على هذه الكثافة المقدرة، وهوائنا على هذه الاطافة المقررة، وحواسنا على هذه القوى المعينة، وجرينا من الشمس على هذه المسافة المحددة، هي اكبر العوامل التي جعلتنا على ما نحن عليه جسدا وعقلا. فان تخيلنا كوكبا من الكواكب يخالف أرضنا في كل هذه العوامل جاءت الكائنات مناسبة له كل المناسبة ومخالفة لنا كل المخالفة.

ولو تخيلنا نشوء حاسة سادسة فينا كالحاسة التي تهدى النحل الى خلياتها، والحمام الي وكناتها، عن بعد مئات الاميال، لتغيرت مدركاتنا و الاتنا الجسدية والعقلية والاجتماعية علي تلك النسبة. فما ظنك لو زادت قوى حواسنا الخمس كلها فأدركنا من قوى الوجود ما لا ندركه منه الآن.

اننا نعلم الآن ان المادة نفسها وكل قوى الكون كالحرارة والنور والكهرباء الخ ليست الا درجات معينة من الذبذبة في الاثير المالئ للكون. فأدركنا تلك المادة وكل القوى المعروفة لنا على نوع ما وبنينا على هذه المعرفة القاصرة وجودنا الصوري والمعنوي، واقمنا عليها الصنائع والعلوم التي نحن عليها اليوم، ولكن بين عدد الذبذبات الاثيرية التي تولد الحرارة وعدد الذبذبات التي تولد النور والكهرباء الخ درجات نتائجها مجهولة لنا، ولم ندرك منها أشعة رونتجن المنتمة الا عفوا، فبنينا عليها التصوير من خلال الحجب الكثيفة. فلو اتيح لنا ان ندرك نتائج الذبذبات الاثيرية الاخرى فالى اى حد تبلغ قدرتنا علي المادة وعقولنا من ادراك الحقائق؟

هذه من الوجهة المادية. فاما من الوجهة النفسية فالانسان على مثل هذه الحال النسبية ايضا. يرى نفسه يفكر في الامور ويذكر الماضي، ويحفظ المسموعات، ويتخيل الصور، فيسمي مجموع تلك القوى عقلا لا يعرف له مصدرا فتارة يزعم انه نفحة

من عقل عام متميز عن المادة وخالد لا يعتريه الفساد ، وآخر يدعي انه ليس بمستقبل بل هو لازمة من لوازم تركيبة الجسداني يفني بفنائه .

ينام فيرى خيالاته تتجسد امامه فيلمسها ويكلمها ثم يستيقظ فلا يبقى في ذهنه الا صورها وقد لا يذكرها فيسمي مايراه حلما ويذهب في تعليله على مايحسنه له المذهب الذى ينتمي اليه .

وينوم نوما صناعيا فيرى ويسمع مالا يراه ولا يسمعه وهو يقظان ويتجسد امامه كل مايتصوره منومه تصوراً فيسمى هذه الحال نوما مغناطيسيا ويسلك في تعليلها المسلك الذى يزينه له ماهو عليه من المدركات الطبيعة الناقصة .

ويصاب ببعض الاعراض فتكون له شخصية غير شخصيته أو شخصيات متعددة فيتوهم انه يرى اشياء واشباحا يلمسها ويكلمها فيسمي الناظر اليه هذه الحال مرضا عصبيا ويمضى في تفسيره على مايسمح به علمه في العهد الذى هو فيه .

يحدث كل هذا في هـذا العالم ويؤلف حتى لا يلفت نظرا لاحد لجريه مجرى الامور العادية ولم يهجس في عقل عاقل ان ينكر وجود هـذا العالم المادى بسبب وجود هـذه العوارض فيه . ولـكن اذا روى له بعضها عن عالم الارواح اتخذ ذلك دليـلا على عـدم وجود ذلك العالم وعد من يقول بوجوده جانيـا على العلم والفلسفة .

فاذا سألته لم تنكر العالم الروحاني لرواية بعض هذه الاعراض النفسية عن اهله ولا تنكر هذا العالم مع وجودها كلها فيه ؟ ولم تكون النفس البشرية وهي في هذا العـالم عرضة لـكل الاعراض التي ذكرتها ويجب ان تتنزه عنها وهي في الحياة الاخرى ؟ اجابك على الفور بقوله : نعم لان الروح متى خلصت من هذا الجسد يجب ان تتخلص من جميع عوارضه المرضية ؟

فان قلت له : من أين أتيت بهذا الايجاب وأنت لم تعن بدرس حالات الارواح بعد انتقالها الى ذلك العالم كما عني بذلك الوف من العلماء والباحثين في عشرات من السنين ؟ وبأى سلطان تتحكم في اسناد تلك الاعراض للجسد المحسوس دون اسنادها

الجسد غير المحسوس الذي ينتقل مع الروح بعد الموت؟ ان قلت له ذلك لم يجد جوابا يمكن أن يسمى علميا.

أما الذي ثبت لاهل العلم الذين وقفوا أنفسهم لدرس حالات الارواح بعد انتقالها من هذا العالم، فهو أنها لا تطفر طفوراً من حال دنيا الى حال عليا بل تلازمها جميع صفاتها العقلية والنفسية مدة حتى تتهذب بتجاربها الخاصة وترتقي على سنة تدريجية فقد تكذب وتدلس وتحسد وتغرى بالفساد وتتخيل الخيالات وتصاب باعراض كل هذه الصفات.

فان أخبرتهم روح بأنها هنالك تسكن في بيت من الآجر وان ثيابها تتلوث بالطين كلما سجدت كما أخبرت بذلك روح ابن السر أوليفر لودج، نظروا في قولها نظر ناقد فلعلها تكذب لتضليل المجربين، ولعلها تسخر منهم، ولعلها انتقلت الى ذلك العالم وهي حاملة لخيالاتها القديمة الخ الخ، ولكنهم لا يتخذون قولها هذا دليلا على عدم وجودها في ذلك العالم. وكيف يسوغ لهم ذلك وهي تكلمهم وتعطيهم البينات على وجودها، كما ثبت ذلك لكل من طالع كتاب السر أوليفر لودج. والعلماء لم يتكلفوا المشاق وراء هذه المباحث وفاء لشهوة من شهوات الانحراف العقلي كما يتوهم خصوم هذه المباحث ولكن بعد قيام الادلة التي لا تقبل النقض على وجود العالم الروحاني، وليس بعد تجسد اهله امامهم واحداث الخوارق لهم من بد لمستزيد فهم ليسوا بطائفة من الموسوسين يجتمعون حول وسيط فيستملون مايصوره لهم من أهوائه وخيالاته ثم يقومون بنشره بين الناس، لاجتلاب السخرية اليوم في مدى جيلين متتابعين، ولكنهم أئمة العلم الرسمي ألفوا لبحث هذه الامور مجامع علمية بلغ عمر بعضها اليوم نحو نصف قرن، وقد تكون في فرنسا مجمع جديد في سنة ١٩١٩ جمع بين أعضائه أكبر زعماء العلم في تلك البلاد وقد أتينا على خبر تأليفه في جزء شهر دسمبر من المقتطف واثبتنا اسماء اعضائه وقرناها بالقابهم العلمية ومكاناتهم في الهيئة الاجتماعية.

فمسألة الروح ووجودها في عالم وراء هذا العالم أكبر مسألة اهمت البشرية منذ

وجودها علي هذه الارض، وستكون كذلك مادامت عليها وهي من الاعضال والتشعب واتساع المدي وبعد الغاية بحيث يجب أن توقف لها الاعمار ويوصل في بحثها الليل بالنهار. وقد توجهت البشرية بمجموعها اليوم، وفي مقدمتها رجال العلم الى حل هذه المسألة حلا حاسما بحيث تصبح من المقررات الطبيعية فتدرس في المدارس كما تدرس الكيمياء العملية والميكانيكا، فكان من أثر هذا الاهتمام كله حدوث حركة روحية لم يسمع بمثلها فى أى عهد من عهود التاريخ . وقد جاء في جريدة المقطم في عددها الصادر أمس ٩ فبراير تحت عنوان (بساط الريح وتحقيق حلم قديم) ما يأتي :

« لم يسبق أن اشتد اهتمام العلماء والكتاب الباحثين برفع ستار الغيب لمعرفة ماوراء هذه الحياة اشتداده هذه الايام . وقلما تصدر جريدة أومجلة من جرائد الغرب ومجلاته الكبري الا وفيها بحث أورسالة أو فصل عن هذا الموضوع الذي شغل العقول والاذهان منذ عرف المرء الموت مفرق الجماعات ».

(جواب لمستفيد)

طلب الينا فاضل فى مقتطف ديسمبر تعليلا لعلاقة الروح بالجسد من بقاء الحياة فيه بسلامته وزوالها عنه بعطبه كأنه يري ان فى هذه العلاقة الوثيقة شبهة علي استقلال الروح عن الجسد.

فنجيب حضرته علي ان هذا الاستقلال قد قامت عليه الادلة الحسية اليوم وفيما كتبناه هنا من المقالات المتتابعة الكفاية فى هذا الباب .

أما وجه وجود تلك العلاقة المشاهدة بين الروح والجسم فهو ان هذا الاخير آلة تستخدمها الروح لاغراضها كما يستخدم الميكانيكى الآلة البخارية لاغراضه كذلك فاذا صلحت الآلة البخارية ساقها الميكانيكى أحسن سوق، واذا فسدت بعض الفساد

قادها على علاتها قيادة تناسب ماعرض لها من التلف . واذا عطبت كل العطب تركها حيث هي وانصرف عنها لشأنه . فكما لا يقدح تلف بعض عدد الآلة البخارية أو عطبها كلها في استقلال قائدها وسلامته التامة، كذلك لا يقدح ضعف الجسد وعطبه في استقلال الروح وكفايتها التامة.

واني مع هذا اوجه نظر حضرة المستفيد لما سأكتبه في الجزء المقبل في خاتمة مباحثي في اثبات الروح فسيجد فيها مكان هذه الشبهات من العلم الحق ان شاء الله .

خاتمة

نشرنا هذه المقالة في مقتطف ابريل سنة ١٩٢٠ وهي تتمة هذا البحث

امتاز الانسان عن جميع الاحياء التي تشاطره الوجود على هذه الارض ببعد مدى النظر العقلي، ونمو قوتي الاستدلال والاستقراء، وعدم وقوفه من هذه الخصائص عند حد . وقد كافأت هذه القوى فيه تجرده عن الاسلحة الجثمانية لحفظ وجوده بين الاحياء التي تنازعه البقاء، واستظهر عليها بسعة حيلته وقدرته على الابتكار، وسخرها لحاجاته، فوجد فراغا من الوقت لتأمل في نفسه ليعرف مصدرها ومصيرها، وفي الكائنات ليدرك مساتيرها، وفي الطبيعة ليقف على القوي أو القوة العظمى المدبرة لها.

لم يكن الانسان بالكائن الذي ينفعل لقوى الكون فاغرا فاه، ويخضع لنواعله لاهياعنها، فأخذ يفكر اولا في علل العاديات التي تصيبه في ذاته واهله وجماعته وبيئته، فتخيل الوجود عامرا بعوامل عاقلة محجوبة عن بصره، فقرر لها عواطف واهواء من نوع عواطفه واهوائه ، فشرع يتقرب اليها بالعبودية، ويتزلف لها بالقرابين الحيوانية،

والبشرية جلها لمراضيها وتجنبا لمساخطها فكان هذا اصلا لتدينه وابحثه فيما وراء المادة المحسوسة .

اطرد الانسان طريقه في الترقي فكان كلما ازداد علمه بالكون والكائنات، ونما ادراكه للعلل والمعلولات، ورقي شعوره بالحقوق والواجبات لطف من عقائده بتلك العوامل وهذب من مدركاته في صفاتها حتي وصل الي توحيدها وتنزيهها وجد في التوفيق بين مايهديه اليه العلم الحسي وبين مايوجبه عليه النظر العقلي حتى كان له بازاء العلم الطبيعي علم لاهوتي . ولكنه ماكاد يصل الي هذه المرتبة العقلية حتي تولدت في ذهنه الشكوك والشبهات، وعمر رأسه بالايرادات والاستشكالات، وهي من لوازم الاعمال العقلية، فتجرأ بعض آحاده علي نفي القوة العاقلة المدبرة للكون والذهاب في تعليل الوجود بالفواعل الطبيعية المحضة . الا ان اولئك الآحاد لم ينجحوا في نشر مذهبهم بين الدهما. لغلبة سلطان العقائد على الاذهان، ومسايرة العلوم الكلامية لاهواء الانسان

بدأت هذه النزعة المادية حوالي القرن الخامس قبل المسيح وبقيت مقصورة على بعض المفكرين، عرفا لتجريح الدينيين والاعتقاديين من الفلاسفة الرسميين . وتشدد حفظة العقائد في تعذيب اصحابها في بعض الادوار تشددا ليس له مثيل في تاريخ التطورات العلمية، وازدادوا في الوقت نفسه جمودا علي تعاليمهم وعداء لحرية البحث والنظر حتي اختنق العقل الانساني تحت آصار التقييد وعميت سبل التأمل علي الناظرين، وظل العالم الغربي على هذه الحالة نحوا من الف سنة حتي كانت فتنة الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك، وما نشأ عنها من فصم وحدة الدينيين، فتجرأ الفيلسوف الايطالي بطرس بومبا تيوس سنة (١٥١٦) علي التصريح جهارا بانكار الروح، وبعدم امكان حدوث الاعمال العقلية بدون جسد. وتلاه جسندي سنة (١٥٩٢) فاحيا مذهب ديموكريت المادي اليوناني في الجواهر الفردة، وتلاهما توما هوبس من كبار فلاسفة الانجليز ولكنه اضطر للهرب من انجلترة خوفا من بطش الدينيين

فلما جاء القرن الثامن عشر كان الجو اكثر ملاءمة لنشر الفلسفة المادية فنبغ داويد هيوم في انجلترة ناصر آلهاوايده في فرنسا كونديلاك ودولامتري وديدرو، وفي المانيا الباون هولباخ . ولم يهل القرن التاسع عشر حتى كان للفلسفة المادية دولة قوية الشوكة ولا سيما في المانيا، دخل تحت لوائها اكثر أذكياء الامم في عشرات قليلة من السنين لانها اعتبرت تحريراً للعقل من اسر الاضاليل الموروثة وزاد الماديين تبجحاً بنظرياتهم جمود رجال الدين على عقائد تناقض بداهة العقل، واحتفاظهم بآراء ظهر بطلانها بالحس، ومعاداتهم للعلم معاداة لاهوادة فيها، مع ظهور اثره الباهر في ترقية الحياة الانسانية وتخفيف ويلاتها الجمة .

فلما ظهر مذهب دارون سنة (١٨٥٩) تلقاه الماديون بالتصفيق الحاد وعدوه ضربة قاضية على كل مذهب يناقض المادية لاقامته الدليل القاطع على ان الكون سائر على نظام آلي محض، واكب الماديون على تعليل كل صغيرة وكبيرة في الكون بالنواميس المادية البحتة متشددين في انكار كل ماعداها من عقل مدبر وعالم روحاني، فكان كل ما يروى لهم من الخوارق التي غص بها تاريخ العالمين ويشير الى وجود قوى تعمل في الكون من غير طريق النواميس الآلية، يعدونه من خرافات الاقدمين واكاذيب المتنبئة والمشعوذين .

فكان اذا تجرأ متجرئ على التصريح بوجود عالم وراء المادة صاح به الماديون من كل مكان قائلين له : انهبت اليه فأنت تخبر عنه عن عيان، ام سلمت به انقيادا لاضاليل الكهان ؟ وان تجاسر متكلم على القول بوجود روح في الانسان نظر بعضهم الى بعض يتغامزون، ثم قالوا له وهم يتضاحكون: لاتصدق الاماتراه بعينيك وتلمسه بيديك، والا فخذ بكل مايقال، وهيئ ذهنك لقبول كل خيال.

هنا تقوضت دولة المنطق، وانهارت اركان النظر العقلي ، واصبح الحكم المطلق للحس والعيان، واين منهما المتكلمون في العالم الروحاني والنفوس المجردة عن المادة ؟ ادرك الباقون من اشياع دولة الروح ان الخطب جلل وان العقبات التي تعترضهم لا

تذال، فادركهم الشك هم الآخرين وتحرج موقف حفظة الاديان، ومرت اليهم عدوى التعاليم المادية فأصبح وجودهم في وظائفهم مبنيا على المصلحة الشخصية لا على العقيدة الدينية .

كان كل هـذا ولم تبطل في دور من تلك الادوار تلك الامور الخارقة للعادة الدالة على وجود عالم روحاني محجوب وراء هـذا العالم المادي المشهود، من حـدوث حوادث في بعض الدور تدل على وجود عوامل عاقلة مستـترة عن العيون، وظهور اشباح متجسدة للمستعدين لرؤيتها، وسريان أرواح النائمين ووقوفها من هذا الطريق على ادراك كثير من الشؤون الغيبية . ولـكن من الذى كان يستطيع في دور غلبـة المذهب المادى في القرنين السابقين أن يرفع بهذه الامور رأسا، أو يحرك بها شفة، وألسنة المتهكمين مترصدة، وأقلام الناقدين مترقبة، تشن على كل متكلم فيها غارات لا تبقي ولا تذر، أقلها ان تسلبه كرامته بين العارفين، وتعده في زمرة المخرفين، حتى ان الطبيب (مسمر) الالماني لما وقف على سر التنويم المغناطيسي في أخريات القرن الثامن عشر، وهو الفن الذى كان يمارسه المصريون والهنود والصينيون منذ ألوف من السنين، وعالج ألوفا من الذين كان قد حكم الاطباء على أمراضهم بالاعضال، ساقه الناقـدون بألسنة من نار، ووصموه بالتدجيل والشعوذة، وحطوا من كرامته كل الحط حتى أمضى بقية أيامه مرذولا منبوذاً . فخالفه في التجارب جمهور من الاطباء وغـيرهم فلم يكونوا أحسن حظا منـه . وألفت جمعية العلماء الفرنسية لجنـة لبحث هذا التنويم المزعوم . . . فقررت بعـد التجارب المدققة . . . انه زور وبهتـان، وان القائلين به مدلسون او اغبياء، فظل انصاره مئـة عام يقرعون التهم الـكلامية بالتجارب العملية، حتى اضطروا تلك الجاعات الرسمية المسماة بالجمعيات العلمية الى اعتباره فرعا من العـلوم المقررة . ولـكن المـادية الموروثة لم تسمح لهم أن يقروا منـه الا مالا يناقض مذهبهم، وغضوا الطرف عن مشاهداته العالية التى تثبت وجود الروح بالحس لـكل مجرب فيه .

ظل العلماء في هـذه الحيـلاء الفكرية كل القرن الثـامن عشر والنصف الاول

من القرن التاسع عشر ، وبات الناس تيما لهم مفتونين بتلك المقررات العلمية الا اقصة متخيلين انهم حلوا مساتير الكون ، وتمكنوا من تعليل كائناته تعليلا آليا محضاً، حتى هدأت ثائرة هذا الدور الانتقالى وسكنت فورة الفرح بالجديد، فأخذ العقل الانساني ينظر فيما حصله بعد كل هذا الجهاد الجهيد نظر نقد وتمحيص وقد صحا من نشوته،وسكن من هزته، فاذا به لم يبرح موقفه الاول،اللهم الا علما ببعض الظواهر واكتشافا لبعض البسائط . أما من جهة ماكان يزعمه من ادراك سر الطبيعة ووقوفه على آثار العلل الاولية ، فوجد انه قد انخدع بألفاظ بعدت به عن مجال الفلسفة العملية ، التى ارتضاها أسلوبا لبحثه اشواطا بعيدة ، حتي اشبه الخياليين الذين طالما تبجح عليهم بمحصوله وتعالى عليهم بأصوله . وجد ان المادة لاتزال مجهولة وان القوى التي دعاها ميكانيكية مقررة لاتعدو النظريات الظنية، وان العلل التي فسر بها الوجود ظواهر خداعة لاينطق التعويل عليها على أسلوبه، وان تلك النواميس العليا التي علل بها عالم الاحياء والتنوعات البيولوجية كناموس لانتخاب الطبيعى والوراثة معلولة لايصلح ان يركن اليها الا اذا أراد ان يموه على نفسه.وقداوجز هذا الموقف من الحيرة العلمية الاستاذ المشهور (جوستاف لوبون)في كتابه تحول المادة فقال :

« كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد جدا،فان تاريخ العلم التجريبي المحقق لايصعد الى ابعد من ثلاثة قرون . وفي هذا العهد القريب قربا نسبيا حدث دوران مختلفان من ادوار التحول في افكار العلماء.

« فالدور الاول كان دور الثقة وهو الذى تكلمت عنه آنفا . فكانت المقررات الفلسفية والدينية وهى قواعد مدركاتنا القديمة على الوجود تضمحل وتزول ببطء امام الاستكشافات العلمية التي تتوالي كل يوم ولاسيما في النصف الاول من القرن الاخير . فما كنت تسمع من يرفع عقيرته بشكوى . وكيف يشكى من احلال الحقائق المطلقة محل اوهام المعتقدات القديمة. فكان يظن مؤسسو كل علم جديدا انهم يحدون له الدوائر النهائية التي لايعوزها غير سد مافيها من الفراغ . وكان يخيل اليهم انهم متي اتموا بناء الصرح

العلمي استمر هذا الصرح قائما على انقاض أوهام الزمان الماضي فكانت الثقة العلمية في هذا الدور على أتم ما تكون .

« دامت هذه الثقة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها الى ان حدثت في الايام الاخيرة استكشافات غير منتظرة قضت على الفكر العامي بأن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد انه قد تخلص منه الى أبد الآبدين . فان الصرح العلمي الذي كان لا يرى مافيه من الصدوع الا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة . وصارت التناقضات والمستحيلات التي فيه ظاهرة للعيان بعد ان كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون .

« ادرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين وأسرعوا يتساءلون عما اذا كانت الاصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور . فحدث اذ ذاك في العقائد العلمية مثل ما كان حدث ذلك للعقائد الدينية عند ما شرعوا في مناقشتها الحساب اذ سبقت ساعة النقد ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان .

« لا مشاحة في ان الاصول التي كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال ، بل هي ستبقى امدا طويلا في نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية في نشرها ، ولكنها فقدت كل ما كان لها من الاجلال في نظر العلماء الحقيقيين .

« وقد كتب المسيو (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول : « لا توجد لدينا نظريات عالية الآن يمكن قبولها قبولا تاما ويجمع عليها المجربون اجماعا عاما ، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى . وقد اتسع المجال للافتراضات الجريئة ولم يظهر ان ناموسا من النواميس يمكن اعتباره ضروريا ضرورة مطلقة . فنحن نشهد في هذه الآونة اعمالا هي اشبه بالهدم منها باقامة بناء نهائي . فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا انها تأسست تأسسا ثابتا صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة . وقد رفض اليوم على وجه عام الرأى القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تعليلات ميكانيكية . فان اصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا

فيها . وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت ثقتنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت الي اليوم كانها أساسية» انتهى كلام العلامة لوسيان بوانكاريه .

ثم عاد الاستاذ (جوستاف لوبون) فقال :

«ولكن من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى الحالية ، فالوجود مفعم بمجهولات لانراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . فقد دلنا التاريخ على مبلغ تأثير النظريات العلمية فى تأخير الترقي متى حصلت على درجة معينة من الجمود. فلا يمكن والحالة هذه احداث خطوة واحدة الي الامام الا بعد تفكك الآراء السابقة. فان تعيين ضلالة واحدة وتتبع نتائجها يساوى أحيانا حدوث استكشاف جديد. فالاشد خطرا على تقدم العقل الانساني هو تقديم الظنيات للقارئين لا بصفة حلول الحقائق المقررة علي نحو ماتفعله الكتب المدرسية، والتطاول لوضع تخوم للعلم، ورسم حدود لما يمكن معرفته، كما كان يود ذلك اجوست كونت » انتهى

ونحن نقول بعد هذا التمهيد : لما وقف العقل الانساني فى شخص رجال العلم العالى هذا الموقف من النظر الصادق والادراك الصحيح والتواضع الجدير به، وهو فى وسط هذه اللجة من المجاهيل العالمية، حرم علي نفسه الركون الي اصل ركونا مطلقا مهما زين له الخيال انه ثابت لا ينقض، والقي عن عينه تلك الغشاوة التى كانت تمنعه من النظر فى كل ما يخالف مقرراته الموروثة، وعلم من هذا الدرس القاسي من الانخداع عدم التسليم لغير مايتم تحت حسه بالتجربة ، فما كان يبلغه وجود حادثة من حوادث ماوراء المادة يمكن تحقيقها بالاسلوب التجريبي حتي بادر الي تمحيصها ولم يأنف من اعلان حقيتها ، ولم يستكبر جماهير من العلماء شابت نواصيهم فى

المباحث المادية وملايين من الاذكياء والفضلاء جدوا على الالحاد وتربوا في مهده أن يهتموا بدراستها مجتمعين ومتفرقين وان يصرحوا بما رأوه غير هيابين ولا مترددين

هذا سر تقاطر رجال العلم العالى وأراكين النهضة العصرية على بحث مشاهدات ماوراء المادة وانهامهم في هذا السبيل بنهمة لم تعهد في تاريخ العلم الى اليوم . ولكن ما أبعد الشرقيين عن مثل هذا الموقف الجليل من التواضع والتعطش للحقيقة . انهم لايزالون فى دور الغرور بالنظريات العلمية الناقصة والتبجح بمقررات الفلسفة المادية البائدة، متوهمين ان ذلك منتهى الالمعية واقصي غايات الضلاعة العقلية . ولا يدرى الا الله كم مقدار الامد الذى يمضونه في هذا الدور الخطير سهل الله عليهم الانتقال منه

ومما ننبه اليه هنا ان البحث في المشاهدات الروحية ليس بوقف علي العلماء بل تناولته جميع الطبقات من اطباء ومهندسين وأصوليين وصحفيين وماليين وغيرهم ممن يعدون بالملايين، تألبت كل هذه العقول البشرية على تحقيق حوادثها فلم تزدد الا وضوحا حتى صارت اليوم في عداد الامور الحسية التى تمتحن بالآلات المعدنية. فثبت من مجموع هذه الابحاث ان وراء هذه المادة المحسوسة عالما علي منه عامرا بالكائنات العاقلة، وان الانسان متي اتم العمر المقدر له هنا انتقل الى ذلك العالم بما حصله من علم واختبار، وتابع فيه طريق ترقيه حاملا جسداً اثيريا لا يعدو عليه التحول ولا الفناء، وانه لايزال يترقي حتي يصل الي درجات يعجز عن تخيلها حتي الارواح المجردة العالية التى تتصل بالباحثين بالطرق التي بيناها هنا.

هذه العقيدة لم يحصل عليها العقل العصرى من طريق الدين ولا من طريق المنطق، ولكن من الطريق العلمي التجريبي المعروف . وقد تردد فى قبولها عشرات من السنين قلبها فيها على كل وجه وسري عليها كل اسلوب من التمحيص حتى صارت هي والحسيات في مستوى واحد . فأخذ بها كما يأخذ بالعلم الطبيعي

الذى تهديه اليه الحواس، بل هى من العلم الطبيعي وانما سميت مما وراء الطبيعة لانهـا لم تـكن في دائرة البحث العلمي . أما اليوم وقد تناولهـا الاسلوب العلمي التجريبي فهى من صميم العلوم الطبيعية، مثل الـكلام فيها كمثل الـكلام في أشـعة رونتجن وخصائص الراديوم . وقد اعتبر العقل الانساني وقوف العلم على آثار هذا العـالم الروحاني انتقالا منه من دور الحرج والنقص الى دور السعة والتكمل، فانه وصـل به بين شطرى الوجود، أى بين شطره المدرك بهـذه الحواس القـاصرة وبين شطره المحجوب عنها . ولا يخفي ان المحجوب عنها هو مستقر القوى المؤثرة ومسرح العوامل المـكونة . فتم له بذلك وصـل ما يجب ان يكون موصولا ليجد العلم المجال امامـه مطلقا فلا يقف حيال كل مسألة من المسائل التى يتحرق الانسان لادراكهـا حائرا ثم يرتد عنها معترفا بأنه امام مجهول لايسبر له غور . بهذا الوصل بين شطرى الوجود انحلت مسألة مـن اكبر المسائل الانسانية وهي التناقض المؤلم القديم بين العلم والدين . فتحول الدين عن أسـلوبه المعروف من التسليم بالغيب والجولان في متاهات الآراء القديمة، الي ادراك صحيح مبني على الاسلوب العلمى الصارم. فتوحدت وجهتا الانسان . فبعد ان كان امامه عقيدة وعلم على طرفي نقيض أصبح أمامه علم محض جامع لجميع ميوله الجسدية والروحية . اركانه المشاهدة والتجربة وعماده النظر والاختبار، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا ينابذ فيه الامن خادع نفسه .

هذا عهد للانسانية تصغر كل عبارة عن وصف جلاله وجماله ويعجز كل خيال عن تقدير آثاره فى ترقيتها وايصالها من فهم الحقائق الكبرى الى ما تتوجه اليه بكليتها . ولا يمكن تصوير ما ينبني على ذلك من طهر النفوس وسمو الاخلاق وبعد الغايات وتلاشي الفوارق الجنسية والدينية، والشعور بالسعادة الحقة والطمأنينة الكاملة، واعتبار الموت كما هو في الواقع ترقيا من عالم نقص الى عالم كمال، وانتقالا من سجن الحواس القاصرة الي باحة الاطلاق المنزه عن القيود .

هذا هو العهد الذهبي الذى طالما تخيله الانسان فى كل زمان ومكان فليعمل

له العاملون ولا يقف في سبيله الشاكون بل ليقرأوا ما كتبه اشياعه وليجربوا ما جربوه فقد وضح الصبح لذى عينين وملأ نوره الخافقين .

وقد أتينا فيما نشرناه في المقتطف على صورة مصغرة لمشاهدات هذا الفتح الالهي وسردنا كثيرا من شهادات مجربيها، ولم ندع وجها من وجوه بيان مسألة الا أتينا عليه أو اشرنا اليه، حتى صارت مقالاتنا هذه كافلة لدحض كل شبهة تقام ضدها فان فيها كل ما يكتب في توهينها ردا مقنعا، ولكل ما يستشكل به عليها بيانا وافيا، يدركه من يراجع تلك المقالات عند ما تمر به شبهة أو يقرأ في تحقيرها مقالا . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

تعقيب للمقتطف

على اثبات الروح بالمباحث النفسية

أتم محمد بك فريد وجدى مقالاته الممتعة التى اراد بها اثبات الروح بالمباحث النفسية وهو الموضوع الذى كتبنا فيه في مجلدات المقتطف السابقة ما يملأ الف صفحة على الاقل ذاكرين ما يقوله انصاره وما يقوله مخالفوهم . ولم نكتف بالنقل عن زعماء الفريقين بل امتحنا الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح وذلك في أوروبا وهذا القطر والقطر السورى فلم نر شيئا غريبا لا يمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح. وزد على ذلك اننا انتقدنا مرة ما كتبه المسترستد عن انباء وسيطه بقتل ملك الصرب قبلما قتل ثم ثبت ان انتقادنا كان في محله وان ما كتبه المسترستد لم يكن صحيحا . وانتقدنا ايضا تقرير اللجنة التى ارسلتها جمعية المباحث النفسية لامتحان أوسابيا بلادينو وأيدت دعواها ثم ثبت بالامتحان ان تلك المرأة كانت تخدع مشاهديها.

وقد طالعنا كثيراً من أنفس الكتب التي تلم بهذا الموضوع مثل كتاب الدكتور ميرس «الشخصية الانسانية وبقاؤها بعد موت الجسد» وكتاب الاستاذ وليم جمس «علم النفس» وكتب السير أوليفر لدج وكثيراً من المقالات التي نشرت في اكبر المجلات الانكليزية والاميركية فلم نر فيها كلها دليلا قاطعا علي ان الذي ينطق الوسطاء هو روح انسان ميت مع رغبتنا الشديدة في مخاطبة ارواح الموتي . وهذا ما يقوله كل الذين يعتد بقولهم من رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية والبرتستانتيه والارثوذكسية أي الزعماء الدينيون لستمائة مليون من البشر الروحيين المعتقدين بخلود النفس . واحدث مالدينا من الادلة علي ذلك ماجاء في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية في عدد يناير هذه السنة وهو ان مؤتمر الكنيسة الانكليزية الذي عقد حديثا اعلن رئيسه فيه (وهو رئيس اساقفة انكلترا) ان مجمع الاساقفة الذي موعد اجتماعه هذه السنة سيبحث في مسألة مناجاة الارواح.

وهذا دليل قاطع أن اشد الروحيين تمسكا بالروحية لايزالون مرتابين في صحة مناجاة أرواح الموتي .

وقد أورد وجدي بك في مقالاته خلاصة الادلة التي يقيمها اصحاب مذهب المناجاة لتأييده فأجاد واوفي الموضوع حقه من هذا القبيل . لكنه لم يكتف بأدلة التأييد بل شدد النكير علي منكري المناجاة أو مفسري أعمال الوسطاء بغير مخاطبة ارواح الموتي وجاري الذين يتهمونهم بأنهم ماديون وان اعتقادهم المادي هو الذي يمنعهم من التسليم بوجود الارواح وبالتالي من التسليم بصحة مناجاتها . والتهمة بالمادية قديمة جدا اتهم بها كل الطبيعيين من ايام غاليليو الى الآن حتي باخت وصدق عليها ماقيل في تلك الناقة :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتي سامها كل مفلس

ونود ان يترفع وجدي بك عنها ونرجح انه لو علم أن أكبر المعترضين علي دعوى مناجاة أرواح الموتي هم رؤساء الدين في الكنائس المسيحية الذين لا يرتاب أحد منهم في خلود نفس الانسان — لوعلم ذلك لما خطر علي باله ان يتهمهم هذه التهمة

ثم ان بعض العلماء الذين يعتقدون مناجاة الارواح لا يفرّقون بين المادة والروح بل يقولون ان الروح تتجسم فتصير مادة والمادة تنحل فتصير روحا

هذا ولا خلاف في ان الوسطاء يفعلون افعالا غريبة سواء كان بالكلام او بالقرع أو بالكتابة . والناس في تفسير هذه الافعال فريقان فريق يقول أن سببها داخلي *Subjectif* أي أن الوسيط يفعلها من تلقاء نفسه اما احتيالا واما بفعل داخلي فيه كما يتكلم ويمشي وهو نائم أو مصاب بالبحران . وان الذين يشاهدونها قد يتوهمون انهم رأوا وسمعوا اكثر مما رأوا وسمعوا او يروون عنها غير ما رأوا وسمعوا. وفريق يقول أن سببها خارجي *Objectif* وهؤلاء ثلاث فرق فرقة تقول ان سببها أرواح الموتي وفرقة ان سببها أرواح الشياطين وفرقة أن سببها منتشرة في الكون

وما من أحد الا وهو يود ان يعرف أين كان قبلما ولد والي أين يذهب بعد ما يموت . اما جسده فأمره معلوم تراب والي التراب يعود . وأما عقله أوروحه أونفسه فشيء آخر غير هذا التراب نعلم وجوده فينا مادمنا احياء فما هو واين تكون والى اين يذهب بعد موتنا . الاديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية تقول انه يذهب بعد الموت الى الجنة أو الى النار · والعلوم الطبيعية تقول انها لا تعلم اين كان ولا الي اين يذهب . فهل صار في الامكان ان تتصل أرواح الموتي بالاحياء فتثبت وجودها لهم وتخبرهم بالحالة التي هي فيها وبما يصيب ارواحهم بعد مغادرتها اجسامهم . هذه احق المسائل بالبحث والتحقيق



ملاحظاتنا على هذا التعقيب

اننا لم نشأ ان نرسل بملاحظاتنا هذه الي المقتطف بعد ما اعلنا فيه اتمام مقالاتنا لاسيا وقد رأينا ان حضرة العلامة منشئه لم يزد شيا في هذا التعقيب علي ما سبق مساجلته البحث فيه، ولكننا في هذا الكتاب نأتي بهذه الملاحظات عليه لان المقام يدعو اليها هنا فنقول :

يقول حضرته انه امتحن الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح فلم ير شيئاً لا يمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح .

ثم ذكر ان الوسطاء يفعلون افعالا غريبة والناس في تفسيرها فريقان أولهما يرى ان سببها داخلي، اي ان الوسيط يفعلها من تلقاء نفسه اما احتيالا واما بفعل داخلي فيه. وان الذين يشاهدونها قد يتوهمون انهم رأوا وسمعوا اكثر مما رأوا وسمعوا الخ، وفريق يقول ان سببها خارجي وهؤلاء ثلاث فرق فرقة تقول ان سببها أرواح الموتي وفرقة ان سببها ارواح الشياطين وفرقة ان سببها روح منتشرة في الكون .

ونحن نرى ان في هذا الكلام نظرا . فاما امتحان حضرته للوسطاء وعدم رؤيته شيأ لا يمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح ، فليس بعجيب فانه فيما يظهر امتحن الوسطاء المأجورين ، وقد قلنا انه لا يوثق بهم ، وقد أكد ذلك المجربون الشؤون النفسية واثبتوا ان جلهم دجالون وانهم لم يعتمدوا علي اكثرهم في مباحثهم.

وقد الف أولئك الباحثون كتبا فى ذلك لتحذير الناس منهم .

واما قوله انه لم ير شيئا لا يمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح ، فكلام غامض. فهل يفسر ماراه بالخداع المحض ، ام بفعل روح الوسيط نفسه ، ام بروح منتشرة فى العالم ، ام بالجن ؟

فان كان يرى انه يفسر بالخداع المحض عذرناه لانه لم يصادف غير الوسطاء المأجورين ، وان كان يريد بهذا ان يطعن علي مجموع المشاهدات، قابلنا قوله هذا بما كتبته لجنة الجمعية الجدلية الانجليزية في تقريرها عن هذه الحوادث، وقد كانت

مؤلفة من ثلاثين عالما ندبوا خصيصا لفحص صحة هـذه الظواهر فقد ذكرت في تقريرها ما يأتي :

« وقد تحاشت اللجنة ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة في الخارج والذين يأخذون اجرا على عملهم هذا الخ . . .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات ، وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش أو توهم .

« وقد بدأ نحو اربعة أخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها اما نتيجة التدليس أو التوهم ، أو انها حادثة بحركة غير ارادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون أشد الانكار عن فروضهم السابقة الا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته وفي شروط تنفي كل افتراض من الافتراضات السابقة الخ الخ » .

لو قابلنا هذا الكلام الصادر من ثلاثين عالما انجليزيا تأبوا على كشف اللثام عن هذه المسئلة ، بما يقوله حضرة صاحب المقتطف من انه لم يرفيها شيأ يعلو عن التعليل تحققنا ان حضرته تسرع في حكمه فانقظ من مجال البحث العلمي موضوعا هو أجل ما هدى اليه الانسان من حين وجوده على سطح الارض الي اليوم ،

ولو كان وقف أمر هذه المباحث عند حد الحكم القاطع الذى اصـدرته لجنة المجمع العلمي الجدلي البريطاني لوجد المشككون سبيلا الى تشكيكاتهم باهمال العلماء لها ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فقد أسس اساتذة من جامعة كمبردج وغيرهم جمعية سموها جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ لا تزال قائمة الي اليوم ، وقد جمعت من تجاربها اكثر من اربعين مجلدا . وتألف في فرنسا مجمع علمي برئاسة الاستاذ الفزيولوجي الكبير (شارل ريشيه) العضو بالمجمع العلمي والمدرس بجامعة الطب الفرنسية وبادارة الدكتور جوستاف جوليه العالم المشهور وعضوية الفلكي الاكبر كامبل فلاماريون والدكتور

كانت مفتش صحة باريس والكونت ذوغارمون احد وزراء فرنسا السابقين والاستاذ تيسو وغيرهم، وها هي اليوم تعمل تجاربها تسويغا لادخال هذه الحوادث الي العلم الرسمي، وقد تأدت الي نفس النتائج التي تأدت اليها لجنة المجمع العلمي البريطاني وجمعية المباحث النفسيه كما تشير اليه مجلتها الجليله المسماة(نشرة المجمع العلمي لدرس الحوادث النفسية) .

وقد قرأنا في المجلة الروحية الفرنسية الصادرة في شهر يونيو أن خمسة عشر عالما من علماء امستردام (هولاندا) كثير منهم اعضاء في المجمع العلمي دعوا اخوانهم في البلاد المتمدنة كافة ان يحضروا مؤتمر سيقام فيها للمسئلة الروحيـة من ٢٦ اغسطس الي ٤ سبتمبر .

فمسألة تجتمع لفحصها اللجان العاميه وتؤسس في سبيلها الجمعيات التجريبيـة في ارقي الامم مدنية وتؤلف لها المؤتمرات في العواصم الاوربية، لا يصح ان تلفظ الي مجال الامور الخرافية، ولا أن يكتفي فيها مثل صاحب المقتطف بحكم كالذي اصدره فيها .

وقال حضرته انه سيتألف مجمع للاساقفة الانجليز في سنة (١٩٢٠) وسيبحث في مسألة مناجاة الارواح.

نقول نعم وقد اجتمع هذا المجمع وكان قراره عدم الاستخفاف بهـذه المسألة والاشـادة بثمراتها وقد لخص هذا الحكم العلامة(جان فينو) مدير المجلة العالمية وهي اكبر المجلات الاوربية الصادر في ١٥ يناير من هذه السنة(١٩٢١)فقال:

« في مؤتمر الاساقفة الانجليكانية الذي عقد في قصر لامبيث في ٥ يوليو الي ٧ اغسطس سنة ١٩٢٠ وحضره ٢٥٢ من رؤوس الـكنيسة منهم مطارنة كنتربوري ويورك وسيدني وكيبتاون والهند الغربية وميلبورن وامارة بلاد الفال الخ هذا عدا اكثر من مئة اسقف من اكبر الاساقفة تقرر النظر بنوع خاص في امر الاسبرتسم والعلم المسيحي وبالتيوصوفية نظراً لتأثيرها العظيم في عقلية اهل العصر الحاضر

«ومع تحذير هذا المؤتمر المؤمنين عن مزاولة اعمال الفرق المختلفة للمذهب الباطني

اعترف مؤتمر لامبيث المذكور بقيمة هذه الميول الروحانية التي تكافح المادية بنجاح عظيم . ولكن تفاديا من أن يفضي شدة انتشار هذه المذاهب وسلطانها الآخذ في الازدياد الى هدم سلطة الكنيسة واصولها الاعتقادية استحسن كبار الاساقفة المؤتمرين وضع معالم جديدة للنصرانية لتكسب ثقة العناصر التي تشذ كل يوم عن الايمان الرسمي

« فيخطيء الفكر الحر خطأ جدا اذا ظهر أقل تسامحا من الكنائس النصرانية التي فقدت شيأ كثيراً بغلبة المذهب الروحاني الكامل لان مذاهبه المختلفة قد أعلنت منذ الآن حربا ضروسا على الاديان ذات العقائد الجامدة وخصوصا ضد مدعي الوكالة عن الله في الارض

« وبعد كل هذا فالحقيقة ستتغلب على كل هذه الاعتبارات ونحن باسمها نطالبه باحترام هذا (الوحي الجديد) وبحث ظواهره بحثا علميا في حدود الامكان ».

الى أن قال :

«فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ، ولكن من الظلم وما يؤسف له اغلاق النوافذ التي فتحت أمام أعيننا فبهرتنا منها الانوار» انتهي

ذلك قرار المؤتمر وهذا رأى الفيلسوف المشهور (جان فينو) مدير المجلة العالمية ، في أرقي البلاد مدنية ، فليقدر القراء تأثير المباحث الروحية في المراكز العلمية ، وليواجهوا هذا الفيض السماوى الجديد بقلوب متعطشة للحقيقة ، فان العالم والعلم قد دخلا في عهد هو أعظم عهود الانسانية وأجلها شأنا سيؤدي بالانسان به الى كماله المطلق من أقرب الطرق وآمنها

ويجدر بنا أن ننبه هنا الى امور جديرة بالتأمل

(أولها) ان الخوارق الروحية لنقضها جميع السنن الطبيعية المعروفة للآن عز على العقول التسليم بها وأكثر الناس من اتهام الباحثين فيها بالانخداع والوقوع في حبائل

المشعوذين ، وتطلب كل منهم ان يراها بنفسه ليفضح الشعوذة التي انخدع بها غيره ، هذا على خلاف المسائل العلميه التجريبية التي يكفي في الاخذ بها ان يجربها عالم او عالمان . لهذا السبب تألبت على دراسة الخوارق الروحانية جميع صنوف العقول من علماء وفلاسفة واطباء ومهندسين واصوليين وكتبة وشعراء وصحفيين وماليين فاتفق الجميع على القول بأنها حقة لاغبار عليها ، وان لاأثر للتدليس فيها . وهذا الاجماع كاف في اثبات حقيتها . وهل يعقل ان تعجز كل هذه العقول في مدى اكثر من سبعين سنة عن فضح أى شعوذة مهما بلغت من الاتقان وخفاء الوسائل ، وانت تعلم ان الوسطاء كانوا يربطون ويوضعون في اقفاص من الحديد ويقبض على أيديهم وتوصل أجسادهم بالاسلاك الكهربائية التي تسجل عليهم اصغر حركاتهم ؟

(ثانيها) أن المنكرين لهذه الحوادث كلهم ممن لم يكلفوا أنفسهم تجربتها أو ممن جربوها مرة أو مرتين فلما لم يجدوا شيأ يذكر أو وقعوا مع وسيط مدلس اقلعوا عن التجربة واسرعوا فى الحكم بأن المسألة كلها تدليس في تدليس . قال العلامة (كاميل فلامريون) في صفحة ١٠٥ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة):

« من السهل جدا أن يقف الانسان موقف المنكر انكارا مطلقا حيال المشاهدات التي هي غرضنا من هذا الكتاب » .

ثم صور حال أولئك المنكرين فقال :

« قد لايكتفي الواحد من هؤلاء القضاة الاعلين بالغمز بعينيه ، أو بالتبسم وهو على اريكة اختصاصه الملكى ، ولكنه قد يتفضل فيحضر احدى التجارب فاذا اتفق ، كما يحدث كثيرا ، عدم حصوله على شيء يخضع لارادته ، يبرح المجرب المبجل المكان وهو معتقد تمام الاعتقاد بأنه بنفاذ بصيرته الفائق قد اكتشف الحيلة ومنع ظهور أى شيء بادراكه الواسع ونظره البعيد . فيسارع الى الكتابة للجرائد مفسرا التدليس وباكيا بادمع التمساح تأثرا من ذلك المنظر المحزن وهو انخداع رجال معدودين من الاذكياء لتدليسات اكتشفها هو من أول وهلة » انتهى .

هذا حال المنكرين كلهم ، ولا يحفظ تاريخ هذه المباحث ان عالما وقف على بحثها عدة سنين فهب بعد ذلك يعلن علي رؤوس الاشهاد انه لم ير شيئا او انه اكتشف فيها وجوه التدليس ، كما لا يحفظ تاريخها أيضا ان جماعة من العلماء أو الاذكياء قاموا بفحصها بصبر وثبات مدة كافية ثم اعلنوا انها خداع في خداع كما يقول المنكرون بدون بحث ولا تنقيب . بل حفظ تاريخها ان كل العلماء الذين وقفوا زمنا كافيا لدراستها صدقوا بها وكتبوا فيها كتابا او رسائل .

وهذا من اكبر الادلة على صحة هذه المباحث وتعاليها على كل تعليل مادي يريد أن يعللها به الماديون .

(ثالثها) ان الشعوذة عرفت بهذه الصفة في كل زمان ومكان، وتاريخها يصعد الى عدة الوف من السنين ، والمشعوذ تطلق له الحرية في اعداد الآلات ، واتخاذ الادوات ، وبث اعوانه بين الجمهور ، وتعطى له كل الفرص الضرورية للذهاب والجيئة على المسرح لعرض الاعيبه على المتفرجين . والمباحث الروحية عرفت كذلك في كل زمان ومكان، وجاء كلام عنها في اساطير المصريين القدماء والصينيين والهنود والبابليين وغيرهم ، وميزت عن الشعوذة بمميزات كثيرة ، منها ان الذين كانت تحصل على أيديهم في الازمنة القديمة كانوا من اهل الرياضات والعبادات ، ظهرت منهم هذه الخوارق من غلبة أرواحهم علي اجسادهم تابعة لسنن طبيعية أرقي من السنن المعروفة عن عالم المادة .

وكل الذي يفعله العلم اليوم هو انه يقوم بفحص هذه الخوارق على من تظهر علي أيديهم متى وقعوا في حال خاص كنوم مغناطيسي أو انتقال نومي او خدر تام الخ ، والعلماء يبحثونها بالاسلوب العلمي الدقيق متخذين كل التحوطات التي تنفي كل تدليس أو خداع . كربط الوسيط على كرسيه وتسميره بالارض ووضعهما تحت قفص من حديد وايصال أجسادهم بالتيارات الكهربائية الدقيقة لتسجل عليهم كل حركة وسكون . فأين هذا من الشعوذة ؟

وقد ظهرت هذه الخوارق علي ايدي اطفال رضع منهم من كان عمره تسعة ايام

ومنهم من كان عمره عامين ومنهم خمسة اعوام . وظهرت بوساطة رجال ونساء من الذين لا يعقل أن يصدر منهم غش او تدليس ولا تزال تصدر منهم الي اليوم .

وليس في تاريخ العقل الانساني انه انخدع لشعوذة بمثل هذا الانخداع في مثل هذا الامد الطويل ، فهل يعقل انه يقع فيه وهو في اشد القرون كراهة لكل قديم ، واكثرها تمسكا بالاسلوب العلمي القويم ؟

وهل يعقل ان يروج هذا الانخداع في كل بلد وفي القارتين معا ، ويكون في مقدمة المخدوعين العلماء الاعلام الذين مرنوا علي الاساليب العلمية الحاسمة ، وجمدوا على التعاليم المادية الصارمة ؟

وان عقل كل هذا فهل يعقل دوام هذا الانخداع جيلين متواليين ، فيزداد زيادة مطردة حتي يبلغ الي حد تأسيس مئات المجلات للبحث فيه ، واقامة المجامع العلمية لدعم مبانيه ، والوصول به الي اقصي مراميه ؟

اللهم ان كل هذا مما لا يعقل ولا سيما في مثل هذا الجيل الذى لم تدع الشكوك مكانا من قلبه لقبول رأى لم يقم عليه دليل محسوس ، فضلا عن خرافة يقوم علي فسادها الف شاهد ملموس .

(رابعها) ان المصدقين بصحة الخوارق الروحية من العلماء والاذكياء في كل صقع لم يرفعوا رأسا بتكذيب المكذبين ، ولم يأبهوا باستهزاء المستهزئين ولكن قالوا كلهم كما قال السير وليم كروكس العلامة الانجليزى الكبير في كتابه (القوى النفسية) :

« وبما أني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي أن ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وسواهم ممن لا يعلمون شيأ في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم » انتهي

فكيف حصلت للمصدقين بها كل هذه الثقة ؟ ولماذا تعلقوا بها كل هذا التعلق ، رغما عن سخرية الساخرين ، وتهكم المتحذلقين ؟ أليس لان الادلة العيانية لا تدحضها الاقاويل ، والوقائع الملموسة لا تطمسها الاضاليل ؟

فلو كان هؤلاء الباحثون قد انخدعوا كما يقول المنكرون ، لكانت زواجر خصومهم تنبههم الى مواطن الغفلة من نفوسهم ، فظهروا اكثر استعصاء على تضليلات المضلين ، واحابيل الدجالين ، ولانتهي بهم الامر في جيلين متواليين الى الانفضاض من حولهم ، وتبيين وهن اصولهم ، كما هي السنة في تنازع الحق والباطل ، ولكن الذي يحدث هو ان كثيراً من هؤلاء المنكرين المتشددين ، والمستهزئين المتغالين ، أخذوا يجربون هذه الخوارق لدحضها بشاهد محسوس ، فرأوا من صحتها ما لم يكونوا يحتسبون ، فعادوا الى الاعتراف بحقيتها ، وبقصر نظرهم السابق في تحقيرها وتحقير كل من كان يأخذ بها ، ونشروا ذلك في كتبهم ، وقد اتينا على طرف من ذلك في هذا الكتاب كما رأيت ، فهل كان يمكن هذا اذا كانت هذه الخوارق الروحية من أضاليل المشعوذين ؟

فعلى الذين يسرعون الى انكار هذه الظواهر لغلبة التعاليم المادية على عقولهم ان يتأملوا في هذه الوجوه الاربعة ، وليربأوا بانفسهم عن الاستخفاف بعقول الالوف من العلماء ، والملايين من الفهماء ، فان مثل هذا الاستخفاف لا يعتبر من الالمعية ولا من قوة الموهبة العقلية ، ولكن من الجمود المزري بصاحبه ، والركود المردي للآخذ به ، وليعلم كل من له عقل سليم ، اننا نعيش في بحر لجي من مجاهيل ، واننا متعنا بالقوى التي تمكننا من استكشافها فلا يقطعن قاطع على نفسه طريق التقدم ولا يجعلن هذه القشور التي يسميها علمية عوائق له عن متابعة سيره الى استجلاء هذا العالم الكبير ، فذلك منه اثم خطير ، وشر عليه مستطير ، والله نسأل ان يتولانا بعنايته ، وان يكلأنا برعايته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

على أطلال المذهب المادي

﴿ الجزء الثالث ﴾

موضوع هذا الجزء تعريب بحث جليل للعلامة الفرنسي الكبير
جان فينو مدير المجلة العالمية الفرنسية نشرها في ثلاثة
أجزاء منها من ١٥ دسمبر سنة ١٩٢٠
الى ١٥ يناير سنة ١٩٢١
تحت عنوان

فتح علمي - الروح خالدة

نقله الى العربية

محمد فريد وجدي

الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣١



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونشكره، ونصلي ونسلم علي رسوله محمد وعلى آله وتابعيه امين

وبعد فاننا نقدم للقراء اليوم الجزء الثالث من كتابنا (على اطلال المذهب المادى) وهو تعريب بحث جليل للعلامة (جان فينو) مدير المجلة العالمية نشره فيها في ثلاثة أجزاء متعاقبة من ١٥ دسمبر سنة ١٩٢٠ الي ١٥ يناير سنة ١٩٢١ تحت عنوان (فتح على الروح خالدة) اتي فيه من افتنانه الكتابي بما لا يتفق الا لأهل الضلاعة من أمثاله.

ولسنا فى حاجة لتقديم هذا العالم للقارئين فان شهرته قد طبقت الارض ، وهو أحد الكتاب المعدودين من ذوى الصيت العالمى، ترجمت كتبه الممتعة الى اكثر اللغات الحية ، وبلغت مجلته الي الأوج الذى لا مرام فوقه لطامح ، فاشتغال مثله بالمباحث النفسية في اجزاء متعاقبة أدل دليل علي مابلغته هذه المباحث من الاحترام في نظر الجماهير ، واعلان مثل (جان فينو) لثقته بها أقوى حجة علي أن هذا الضرب من البحث نال ماهو جدير به من القيمة العلمية والفلسفية .

ونحن بتعريبنا هذه المقالات الممتعة لهذا الفيلسوف الكبير نعتقد اننا نخدم هذه الحقيقة الجديدة خدمة جليلة ، فان في اعلان (جان فينو) الاعتقاد بصحتها ، لا باعتبار انه اصدق نظرا من جميع الذين بحثوها وصدقوها قبله وفيهم اقطاب العلم الرسمي ، ولكن باعتبار وظيفته الصحفية ومكانة مجلته من الذيوع ، يعد حادثا من الحوادث المؤثرة غاية التأثير في البلاد الفرنسية والبلاد التي تستمد منها العلم والفلسفة ، وقد سبقه الي مثل ذلك صديقه الحبر المستر (ستيد) صاحب مجلة المجلات الانجليزية ، ومكانها هي أيضا من المجلات الانجليزية مما لا يمكن النزاع فيه ، ويمتاز الصحفى الانجليزي الكبير بأنه هو نفسه كان حاصلا علي موهبة الوساطة ، ووجود مثله في

الوسطاء أقوي حجة على الذين يدعون أن كل الوسطاء خادعون ، فان مكان المستر ستيد من الهيئة الاجتماعية ، وموضعه من البسطة المالية والعلمية ، ومحله من ملوك الارض وقادتها ، لاتسمح له ان يلعب بسمعته ، حتي لو كان مدلسا بفطرته ، فما قولك وقد كان من قوة الاخلاق وكرامة النفس بحيث ابي ان يدير تركة المستر (سسل رودس) وهي تبلغ تسعة وثلاثين مليونا من الجنيهات لمنافاة بعض نصوص وصيته لرأيه الخاص.

على أن نزاهة الوسيط مسألة ثانوية فانه عامل سلبي في التجارب الروحية ، اذ يكفي وجوده بين الجماعة لتسهيل ظهور تلك الكائنات الحية ، وكثيرا ما حمل الشك العلماء الباحثين علي شد الوسطاء على كراسيهم وتسميرها بالارض والختم على اربطتها بالشمع ، وجعلهم تحت اقفاص حديدية الخ من انواع التحوطات ، فلم يمنع كل هذا ظهور تلك الخوارق التي قلبت شكل العلم . ونقلت الفلسفة من حال الي حال .

ولكن وجود امثال المستر ستيد والكاتب الفرنسي الطائر الصيت ساردو والعلامة الانجليزي الكهربائي فارلي والعلامة اللاهوتي ستنتون موزس وغيرهم في عداد الوسطاء من الضمانات القوية على صحة هذه الموهبة التي لايزال ينازع فيها من لم يلموا بشيء من تاريخ هذه المباحث التي عمت العالم المتمدن .

لنبدأ الآن في ايراد تعريب مبحث العلامة (جان فينو) قال :

« بما ان النظريات والمقررات العلمية ليست هي الحقيقة الثابتة »
« التي لاتتغير فيجب علينا ان نكون دائما متأهبين لهجر تلك »
« النظريات وتهذيبها حين يظهر انها تمثل تلك الحقيقة »

كلود برنار

ان الناس ترتعد فرائصهم ويرتعدون أمام فناء الموت المزعوم . وقد احتفظ الناس من هذه الناحية بالذعر الذى كان يعتري آباءهم أيام سكناهم المغاور في خلال ألوف من الاجيال . فالعلماء والشعراء ورجال السياسة وكناسو الطرقات سواء في التشبع بالمدركات التقليدية ، يلعنون الفناء ويخافونه .

مما يوجب الدهش أن الناس على شقائهم وتعرضهم للكروب الشديدة

يتجافون دائماً عن النظر فى الاسباب الجمة التي تهوي بهم في الضلال . والحال انه اذا انقشع عنهم هذا الضلال حل محله هناء وصفاء من ذات المنظر الذى كان يملأهم كمداً وذعراً

نعم ان الآخذين بالديانات المسيحية واليهودية والاسلامية يعلنون أمامهم في حياة سماوية، هي تتمة هذه الحياة الارضية ، ولكن عقيدتهم القطعية في ذلك لا تخلو من شكوك فطرية، فان ثقتهم في أن المولى سيتلقاهم فى صدره بعد موتهم لا تتعدى أفواههم. فهم وقوف على عتبة ارواحهم، متملكهم الهلع من وشك انقطاع وجودهم المادى .. والا فكيف نفسر ذلك الشعور بالوجل والفراغ الذى يصيب الماديين والمؤمنين حيال هذا المعمى النهائي على السواء ؟

لقد شغلت مسألة البقاء بعد الموت في كل زمان الخلقيين والفلاسفة فبذلوا قصارى جهدهم في ستر إعضالها مراعاة لمصلحة الدهماء، ولكن القصد الحسن لا يكفى فى كشف مساتير ماوق الطبيعة .

ان القول بالانتهاء الى العدم المحض يظهر أوضح ظهور من الثرثرة القيمة أو الخرقاء التى تمتاز بها المؤلفات القديمة في العلوم الكونية . ولا بأس من الاعراب عن اعجابنا في هذا المقام بحمية الفلاسفة الذين اندفعوا الى تتبع هذه الغامضة بدون أن يكون لديهم أية وسيلة لحلها .

أما نحن فنستطيع بعد هذه القرون التى انقضت فى البحث والترقى فى كل مجال من مجالات الفكر أن نعالج موضوعا فشل فيه سابقونا كل الفشل . فالعالم الذى كان موصدا أحكم ايصاد على عهد آبائنا الاولين قد انفتحت اليه عدة كوى (نوافذ) أخذ يتسرب الينا منها النور . فاصبحنا اليوم أكثر أملا منا من أى عهد كان في امكاننا عاجلا أو آجلا ادراك الاسرار التي كانت تعتبر فوق متناول العقول .

١ — (استكشاف مزدوج لمصلحة الروح)

صار من المسموح لنا قبل كل شيء الادلاء بحجج جمة لاثبات الحياة بعد الموت

هي ثمرة المشاهدات العلمية تقرب من أصول كثيرة للايمان الوجداني . وهذا يوجب علينا ان نكون متسامحين حيال أصحاب الايمان وأن نحترم براهينهم أو عجزهم عن البراهين . فان تشككنا بجمل من الجنايات محاولتنا حرمان السعداء الراجين من عقيدتهم العالية، في الحين الذى يميل فيه العلم الى تحقيق بعض الافتراضات في البقاء بعد الموت .

وما أصدق ما قاله أراغو من ان الطبيعيين الذين يأبون أن يسلموا بغير المشاهدات التي يعرفون لها تفسيرا يضرون بتقدم العلوم أكثر مما يضره به الرجال الذين يؤخذ عليهم التهافت علي تصديق كل مايسمعون.

ومن الخطر العظيم أن يسلك الانسان هذا المسلك حيال الحياة التي هي بعد الحياة الارضية لان الادلة علي صحتها آخذة في الازدياد في نظر العقول المنصفة التي تتطور مستقلة عن العقائد المقررة والمذاهب الدينية .

فلنقر عينا بخلاصنا من ضلالتين رئيسيتين كانتا تصدان عن سبيل كل تقدم في هذا المجال، فلسنا الآن تحت سطوة النظرية النفسية المؤسسة علي الفزيولوجيا، وقد تحررنا كذلك من ربقة المذهب الآلي .

فعلي مقتضى النظرية الاولي كل ظاهرة روحية يجب أن تتألف عناصرها من علل فيزيولوجية، وعلي موجب النظرية الثانية أعضاؤنا هي المحور الوحيد الذي تتطاير حواليه وتتعلق به حالتنا العقلية والشعورية . ولكن العقل الباطن قد دخل الآن دخول المنتصر الي المجال البسيكولوجي (أي النفساني) (١) وأصبح من المقرر أن ما يصل الينا من طريق ذلك العقل الباطن ارفع كثيرا مما يصل الينا من طريق المخ وقد تنجم ظواهر عديدة

---

(١) العقل الباطن الذى يسمونه *Subconscience* هو ما شوهد في اثناء النوم المغناطيسي والانتقال النومي من ان للانسان وراء عقله العادي عقلا أرقي ثبت انه هو المصرف لجميع آلاته، والحافظ لكل مدركاته، يدرك ويشعر من ذاته مستقلا عن الحواس وليس عقلنا العادي الا مظهرا من مظاهره .

وتنمو فيما دون شعورنا بدون أن يكون لها علاقة ما بالاعمال الآلية لحسنا وادراكنا .
ولقد سمحت لنا المشاهدات الجراحية في الحرب الكبري بترقيات غير منتظرة من هذه الناحية :

نعم ان الامر كما أكده الدكتور (منيار) في التاريخ السنوى للطب النفساني لسنة (١٩١٨) بانه لم يشاهد قط زوال اوضعف او اضطراب خاص لاحدى الوظائف العقلية تابع لاصابة خاصة لجزء من أجزاء المخ ، حتي انه لم يعد من الممكن تعيين عضو محدود يكون مركزاً للنفس كالفصوص الجبهية مثلا .

ويمكننا ان ننوه باسم اثني عشر عالما وصلوا الى هذه النتائج عينها بعد دراستهم لهذه المسئلة : نذكر من بين هذه الاعمال الابحاث التركيبية (٢) التى قام بها (شيرنجتون) و (موناكوو) مما يؤيد هذه المشاهدات ، والدكتور (ترود) بعد أن قام ببحث العلاقة الموجودة بين المخ والفكر سرد عددا من المشاهدات التي حصل عليها بعد درسه لجروح المخ فظهر له انها منطبقة على المقررات المذكورة آنفا . من بين هذه التجارب ما دل علي أن بتر جزء عظيم من المخ لم تكن نتيجته تقليل صفات الشخصية . وقد شاهد الدكتور (رافنجو) جريحين شفيا بعد ان اخترقت القذيفة مخيهما من طرف الي طرف .

وذكر الدكتور (لوفور) انه استخرج قطعة من المخ الباطني المجاور للزاوية اليسري المسماة (بونتا سيرابيللو) فبعد أن اصيب المريض بالعمي والصمم والشلل النصفي مرتين شفي ولم يحفظ من مخلفات جراحه الا اضطرابات لا تذكر .

وقدم الدكتوران (بيللو) (وكوتو) الى المجمع الجراحي في سنة ١٩١٥ أربعة وعشرين حالة مدهشة جميعها يؤيد حقية هذا الموضوع أى افلاس تينك النظريتين الرسميتين حتي في المجال التشريحي الباتولوجي (الباتولوجيا علم الامراض) فخرج المذهب القائل بتركز

---

(٢) يريد بالابحاث التركيبية ما يقابل الابحاث التحليلية . فالمجرب لا تصح تجربته الا بهذين الركنين . فان استطاع أن يحلل جسما الى عناصره وأن يؤلفه ثانية منها كان ذلك دليلا قاطعا علي انه عرف العناصر المؤلفة له معرفة تجريبية .

الشخصية في المخ مصابا بضربة قاضية .

٢ـ (استقلال الروح عن الجسد)

على هذا النحو يصل الانسان بنظام الي تحديد جديد لوظيفة المخ وسلطانه التام في الحياة النفسية . نعم أنه من الصعب انكار حدوث تغيرات مخية عقب تغيرات تطرأ على حياتنا النفسية . ولكن من المستحيل مع هذا الاقرار على المذهب المطلق القديم الذي مؤداه ارتباط النفس بالمخ منذ ظهر لنا أن الاصابات المخية الخطيرة تكاد تدع ظواهر الشخصية سليمة حتي فيم يختص بالذاكرة . والذاكرة كما لا يخفى هي الخاصة الاصلية المميزة للشخصية . ومن هنا تتراءى لنا صحة النتائج المطمئنة التي يمكن ان تستنتج فى مصلحة القول ببقاء النفس بعد الموت . ذلك لانه يجب التسليم بنتيجة رئيسية وهي : أنه اذا كان المخ يحصر شخصيتنا النفسية . فان هذه تزول بزواله . ولكن اذا كان المخ لا يظهر في الواقع الا جزءا من وجداننا أو من حياتنا النفسية فانهما يكونان غير تابعين لسلطانه . فاذا عرفنا ان النفس تكاد تكون مستقلة عن المخ عرفنا تبعا لذلك ان الحياة النفسية تستطيع حفظ وظيفتها والتمتع بالبقاء بعد الموت على صورة أخرى مادام العضو الرئيسي الذي ظنوها متعلقة به مدة قرون أخذ يروى عن عرش سلطانه ، وما دام قد ظهر استقلال وجداننا أو بعبارة افضل استقلال روحنا عن سلطان الجسم ، والبراهين العلمية والمادية علي ذلك آخذة فى الزيادة كل يوم ، فانه لا يليق بنا ان نقرن فنائها النهائي بفناء غلافها الجثماني .

العلم الجديد الذي يؤتينا بهذه المقررات المعزية والتي لا تقبل الدحض لا يزال في بداءته ، ولكنه انشوته بهذه اللألاءة والرسوخ يسمح بتحقيق آمال لنا عظيمة في مستقبل قريب . فقد انفتحت أمامنا مملكة عظيمة من ظواهر جديدة ظواهر بلغت من الكثرة والتنوع حدا من الجلالة بحث يحق لنا أن نأمل الحصول من ورائها علي فتوحات لا تخطر ببال .

٣ — (الواقع وقوة العقل الباطن)

يرجح ان اكثر الظواهر الاسبريتية (الخاصة بتحضير الارواح) يمكن تفسيرها بفعل العقل الباطن للوسيط . فان تجارب حديثة تفتح امامنا من هـذه الوجهة باحات عجيبه ، لنذكر منها التحقيقات التي عملها الدكتور (كروفرد) أستاذ الميكانيكا بالمجمع العلمي الصناعي لمدينة (بلفور) .

هذا العالم الطبيعي الذي هو أجدر أن يعتبر خصما للعلوم الباطنية لا مشايعا لها يسلم بوجود قوة نفسية حالة فينا تحدث آثارا لا يمكن الشك فيها على الاشياء المادية . واليك حجة من حججه البينة قال :

لنضع وسيطا في أثناء جلسة تجربة روحية على ميزان فنرى انه عندما يزايل الخوان (الترابيزة) الارض تحدث زيادة في وزن جسم ذلك الوسيط ويكون الفرق بين وزنه قبل التجربة وفي أثنائها مساويا لوزن ذلك الخوان .

فاذا بقي الخوان معلقا في الهواء ، وهو الامر الذي ينسب عادة للفعل المباشر للأرواح ، فان الميزان يستمر دالا على تلك الزيادة عينها .

فماذا يستنتج من ذلك ؟

يستنتج منه انه بما ان الوسيط هو الذي يحمل الثقل فيكون هو نفسا سببا مباشرا لارتفاع الخوان في الهواء . وذلك بأن يكون عقله الباطن هو الذي أحدث هذه الظواهر على غير شعور منه بحيث انه لا يستطيع احداثها وهو في حالته العادية .

وفي رأى الدكتور (كروفورد) ان الوسيط يشع منه نوع من قضيب روحاني ، ولكن اذ كان قد أمكننا أن نحقق أمر زيادة ثقله فمن المستحيل علينا أن نشاهد وجود القضيب المذكور ،

أما آثار العقل الباطن باعتباره قوة روحية سواء أكان له أم لم يكن له ذلك القضيب المتوسط

فقد ثبت بغاية الوضوح الآن .

والتنويم المغناطيسي الذى يجب أن يشغل مكانا عاليا من علم النفس لاسباب كثيرة، والذى أخطأوا فى اعتباره فرعا من العلوم الباطنية يعطينا في هذا الموضوع تفسيرات لا تحتمل الشك فيما يختص بحقية وجود العقل الباطن والقوى التى تحت دائرة الشعور العادى

نعم أنه لا يفسر لنا كنه هذه القوي المجهولة، ولكن ماهو العلم الذى يكشف كنه قوة من القوي المولدة للظواهر الطبيعية ؟ فنحن نشهد في هذا الموطن ما نشهده في كل موطن، وهو مظاهر خارجي لقوى خفية. فالذى يهم الباحث هو التحقق من وجود تلك القوى في الواقع، أما معرفة الكنه الحقيقي لتلك القوى فسيطول انتظارنا لها وستضطرنا الى الالجا الى الافتراضات، وهذا عينه ما يحصل فى مجال أدق العلوم الطبيعية.

فنرجع الى كلمة (ليبنز) الشهير وهي : لنحذر من اعتبار قشور الالفاظ لبابا للاشياء .

في التجارب الجمة التى عملتها بمساعدة المأسوف عليه الاستاذ (الفريد بينيه) و (او كورو يكز) أمكنني دائما أن اشاهد وجود العقل الباطن الذى كان بأعماله العجيبة والمعقدة يؤتينا بتفسيرات اكثر المعجزات التي رويت لنا عن القرون السابقة .

وعليه فجميع سلسلة الحوادث الخارقة للعادة يمكن أن يأتي مثلها ذلك العقل الباطن اذ تخاص من الطبقات العميقة لانيتنا (اى ذاتنا): كالنظر من بعد، وتنفيذ الاوامر التى تصدر اليه بغير طريق المشاعر المباشر أى بواسطة التأثير النفساني، ومعرفة المغيبات، واعطاء معلومات عن أشياء ، والتكلم بلغات يجهلها الوسيط فى حالته العادية ، وزيادة مقاومته الطبيعية وقواه المادية ، وفقد جسمه للحس بالآلام ، وتأثر جسمه بآثار التلقين كتوليد بثور او دمامل به ، وحوادث أخرى متنوعة يستحيل الحصول عليها والانسان في حالته العادية.

٤ — (تلاقي العقل والايمان)

في بداءة هذه التجارب كانت الكلمات الكاربة لباسكال عن الصمت الابدي للعوالم غير المتناهية ترن في أذني . ولكن كان تجدد هذا المظهر واستمراره على الاتساع أمام عقلي الدهش من لأنه قد فتح لي باب الرجاء لادراكه ، بل لفهم هذا الحلم السامي .

واني ليجب علي ان اعترف بتواضع بأني انمت مرة سيدة خضعت لتجاربي عن طيب نفس فلم أستطع أن أعيدها الى اليقظة الا بعد بذل جهد عظيم اكثر من ساعة فعاهدت نفسي ان لا أنيم بعدها انسانا الا وهو في حالة تنبه وقد وفيت بهذا العهد .

ومع هذا فقد وجدت في هذه المجالات المحدودة كثيرا من الادلة على وجود العقل الباطن الذي يعمل بمعزل عن الدائرة الفزيولوجية للمخ بل كثيرا ما يعمل ضدها .

القوانين الفزيولوجية المعروفة لا يمكن أن تتفق وعمل العقل الباطن، فهل هو مقر الروح التي احس الناس بوجودها منذ قرون في كل صقع من أصقاع الارض !

ان العالم والرجل الساذج يتأثران بصحة وجود المادة على السواء بسبب آثارها وتفاعلاتها ، أو ليس الامر كذلك بالنسبة للعقل الباطن ؟ اننا مع عدم امكان وزنه ولا مسه على صوره مادية نرى قواه العاملة ظاهرة بمظاهر شتى . وكما انه ينبوع الفرح والترح فهو كذلك القوة البانية والهادمة في الجسم . وهي بخفى كنهه على نحو ما تفعله جميع قوى الطبيعة ومع ذلك فلا شيء يمنع من الاعتقاد بوجودها في الخارج .

ان حواسنا دائمة الانخداع بالمظاهر، وانه لينتج من ضلالها في الحكم مناقضات واضحة للوجود الذي انجحت العلوم الطبيعية في استكشاف بعض جوانبه . فليس بمسموح لنا والحالة هذه أن ننكر قوى أو ظواهر تناقض ما نشهده بحواسنا ومشاعرنا،

علي أن العقل الباطن يتجلى لنا أيضاً بمظاهر تدل عليه من وجه آخر . فلا يمكن الشك في وجوده كما لا يمكن الشك في الظواهر الكثيرة التي هو ينبوعها ومجالها معاً . وبما كانت هذه الظواهر تمتد الي ابعد ما يحيط به النظر فيكون مما يناقض العلم التحكم في تضييق دائرتها . ولا يمكن التسليم اليوم بالاصل المادى الاكبر الذى يقضى بانكار وجود الروح بحجة عدم ادراكنا أى خاصة بدون المادة ، كالحرارة لا يمكن أن توجد بدون جسم حار ، ولا الكهرباء بدون جسم كهربائي ، فان العقل الباطن يلفت نظرنا اليه علي الدوام بمظاهره التي لا تنتهي الي غاية ، ولا يمكن تحديدها بحد . وبما أن عددا عظيما من الظواهر التي انجح الباحثون في تدوينها تتفق والخصائص التي تعزى الي الروح في رأى الذين يعتقدون بها بالفطرة أو بالنظرة الاجلي او بتأثير الايمان فهل من العقل ان لا نعتبر تلك المظاهر المسجلة شيئاً مذكورا .

وبناء علي هذا فان علم النفس المستخرج من الفزيولوجيا بدون أن يعني بما يقتضيه الايمان ، وبحاجة الناس من الوجهة الادبية ، قد انتهى به الامر منذ الآن الي اعارة امانيهم الروحانية قواعد علمية .

فهذا التلاقي غير المنتظر بين العقل والايمان ستكون ثمرته ارتفاع قيمتهما وحدوث التسامح بينهما

ان خلود شخصيتنا تتجلي لنا اليوم في مجالى كثيرة ولكننا تحت تأثير التشاؤم الملازم لافكارنا نحول وجوهنا عنها عن قلة ثقة ان لم نقل عن شيء من الكراهة . الا ان الواقع هو أن الجرثومة البروتوبلاسمية قد انتقلت من حي الى حي منذ أجيال . وقد ثبت أن كل وجود شخصي مهما كان حقيراً ينطوي بعد زواله عناصر خالدة ادبية ومادية .

ولجسمنا نوع من الخلود حيوى فيزيولوجي كما حاولت التدليل علي ذلك في غير هذا الموطن ويخطيء المتدينون في احتقارهم هذا الجسم لانه كالروح مستمد وجوده من الفكر الالهي او من الاصل الابدى الموجودات ولكن مما لا مشاحة فيه ان الوجوه الاخري من الخلود تفوق وتحقر للدرجة القصوى امام الاماني

التي يسمح لنا بها استكشافنا العقل الباطن وهو اليوم يوشك ان يعتبر مقراً للروح

اعتاد الانسان أن لا يعتقد بصحة الوجود الا للآراء التي يمكنه ان يستنبط منها فوائد مباشرة . والعقل الباطن يهبنا وسائل عجيبة أصلية لاصلاح صحتنا الجثمانية والنفسانية وهي تؤدى لنا في سبيل تحقيق سعادتنا مالا تؤديه الجهود العقيمة التي نبذلها في حياتنا اليومية . فان الانتفاع المعقول بالقوة المستكنة في العقل الباطن تستطيع علي مر الايام أن تقلب حياتنا الشخصية والاجتماعية من طور الى طور آخر .

٥ـ (في مملكة العقل الباطن)

الرجل العامي يجهل أن المعلومات التي يعتبرها ادق شيء ليست في الواقع الا مدركات ضالة لمشاعرنا وعقولنا . فنحن لا نلم الا بالظاهر الخادع للاشياء اما حقيقتها اي الحوادث علي ماهي عليه في الواقع فتتعالى عن مداركنا .

ان الجهود التي بذلها الانسان للوصول الى ادراك الواقع أو الي معرفة أصول الكائنات ومصائرها كانت وستكون عقيمة . وهذا هو الذي قرره (كانت) بأسلوب جلي في كتابه (نقد العقل المحض) وقد اثبتت العلوم الحاضرة صحة شكوكه وهي تلك العلوم التي تقدمت في دراسة علاقاتنا مع العالم الخارجي دراسة تزداد كل يوم تعمقاً و توسعاً ولكنها لم تستطع ان تستكشف شيأ يتعلق بالواقع المبحوث عنه بشغف عظيم منذ النشأة الاولى لعلم الميتافيزيكا (علم ادراك العالل الاولية للوجود)

فالفلسفة والعلم وقد أدركهما الاعيا ء أصبحا يسبحان في اللاأدريه المطلقة . وقد سلما باستحالة تخطي دائرة العلاقات الخارجية بين الناس والاشياء والقوى الطبيعية وحرما علي نفسيهما كل استطلاع فيما وراء هذه الحدود وجاء اجوست كونت بمذهبه الوضعي فجعل هذا العجز الزمني عن الادراك قانونا محترما ولكن البرغسونية مذهب

الفيلسوف المعاصر لنا (برغسون الفرنسي) استحقت الثناء عقاومتها هذا التشاؤم المتطرف فان نقدها الدقيق للاساليب العقيمة التي يتبعها العقل عند مايشرع في دارسة الحياة ذاتها ومقابلة ذلك النقد بتمجيد قوى الوجدان وخصائصه قد سمح لنا بتوقع مجيء الزمن الذى نستطيع فيه ان نتقدم في طريق ادراك ذلك المجهول (يريد بالوجدان القوة التي بها يدرك الانسان بدون تدخل العقل العادي بأساليبه المنتزعة من العالم المادى)

البرغسونية المذكورة تؤكد لنا وجود خلاف اصلي بين العلم المادى، وهو المجال الخاص بالعقل، وبين ظواهر الحياة والوجدان التي لا يمكن فهمها لا بقوة البديهة. فالعقل الذى يمتد سلطانه في العالم الطبيعي لا يصلح الا لتوليد آراء مادية، ولكن الحياة والوجدان تتطلب ادوات اخرى للبحث عنها وماقصور العقل التأملي الذى قال به (كانت) الا حكما بقصور ادراكنا في الواقع فالوجدان وحده يستطيع الاتصال بحقائق الاشياء

ان نقد اساليب الادراك يثبت قبل كل شيء بأنه يخضع لضرورات العمل ويأخذ عنه عوائد وصفات محدودة لاننا لا نفكر الا لنعمل وهو لكونه مخلوقا للاشتغال بالمادة الجامدة يفشل اذا أراد بسط سلطانه على حوادث الحياة والوجدان، لانه يستخدم فيها الوسائل والادوات التي افاده استخدامها في العالم الآلي. ان هندستنا ومنطقنا لايمكن ان يطبقا الا على المادة، والادراك اذا حاول فهم الحياة التي هي خلق مستمر، وتحول ونماء لاحد لها يعرض للناظرين جميع ضروب قصوره بسهولة تامة. وان تحليلنا لا يدرك الشيء الذى لا يقبل الانقسام كما لا يدرك فكرنا الهندسي الحياة السارية والطفرة الحيوية وقد بقي لنا لحسن حظنا قوة الغريزة وهي ليست متولدة من الادراك، ولا هي وظيفة خفية ودنيئة ولكنها علم مناقض للعلم المستمد من الادراك المباشر وليست في حاجة لبذل جهود للحصول على العلم مثله.

فلاجل تذليل الصعوبات التي رآها (كانت) واجتياز دائرة الادراك الخاص من امر الرسوم التي يحبسنا فيها ناموس علينا الا انما، وتوسيع اختصاص الوجدان، ذلك الوجدان

التي ضمرناها وضحيناها في سبيل ذاك الادراك .

فالعالم سيستمر على استخدام الادراك ، ولكن الفلسفة ستعاود التعويل على العقل الرحيب من آفاق الوجدان الانساني والاصول الحية التي يصدر هو منها . بالجرى علي هذه السنة سنفوز باسقاط الحوائل التي منعتنا الي اليوم من الوصول الي سر العقل الباطن .

بهذا الاسلوب سنتمكن من اقامة الجسر المبحوث عنه الذي سيوصلنا على مر الايام الى المجهول السامي،وذلك بتشييده على الظواهر التي لا يمكن الشك فيها،اى ظواهر العقل الباطن .

٦- (التوفيق بين الادراك والوجدان)

مع ماتقدم لا يجوز اعتبار نقد القوة المدركة على اطلاقه ، لاننا بترك التحليل واللهجة المادية نصل الي الاطلاق المطلق من العلم والفلسفة . فان الحقيقة التي يحصلها لنا مذهب عدم الاعتداد بالادراك تصبح باطنية غير قابلة للتمحيص ولا للنقد. فنرجع بذلك الى الحاد متطرف يثور على جميع فتوحات الفكر باعتبارها ناتجة من الجرى على اسلوب ما ، ومن شروح مشوبة بالضلال .

فماذا يبقي لنا بعد حرماننا الادراك من الاسلحة لاستقصاء البحث في الوجود وحوادثه ؟

وقد لاحظ بحق (هنرى بوانكارية) في كتابه (قيمة العلم) ان العالم الزلوجي (الزلوجيا علم الحيوانات) اذا شرّح حيوانا افسده ، وحكم على نفسه بعدم الالمام به في جملته ، ولكنه باهماله تشريحه يحكم على نفسه بعدم الالمام بشيء فيه .

ففضل مذهب (برغسون) يرجع الى مساعدته في اعادة سلطان قوة كانت مضيمة ومهجورة، فيجب اعتبار حق الوجدان واسناد بعض المباحث المقاومة التي اغتصبها منه

الادارك . ولكننا مع نقدنا لحكم الادراك لايجوز لنا ان ننسى بأننا في حاجة الى مساعدته لاجل تمحيص عمل العقل الباطن والوجدان

اما العلم فانه بحالة لايستطيع معها ان يتحرر من سلطان الادراك الا اذا جازف بتعرضه للعدم . ولقد تنازع الناس حيث في قيمة كل من الادراك والوجدان. ولكن من الخطر محاولة جهل مزاياهم التي تمت والتي هي على وشك التمام .

ومما لاشك فيه أن اوثق النظم العلمية كعلم الطبيعة الرياضية التي تجتاز اليوم دورا من ادوار الانتقال ، تمد انصار الوجدان بأسلحة قوية .

والكوسموغونيا الجديدة للعالم انيشتين (الكوسموغونيا علم وصف تركيب العالم) تهدم في نظر كثيرين من المفكرين مدركاتنا الاصلية عن الزمان والمكان ولقد اصبحت اصول كارنو ونيوتن ونسبية لافوازييه ونظرية ماير في حفظ القوة كلها هدفا للطعن في اتجاهات مختلفة ، فتركت بين يدي نقدتها ماكان لها من حظوظ ضئيلة من قوة البقاء. وما يضرنا من ذلك ونحن بدفننا النواميس العتيقة ، التي يمتاز بها الدور الثاني لعلم الطبيعة التجريبي ، يدخل هذا العلم في دور جديد من الانتقال يثبت به مرة اخرى مرونته او قوته وهو يتقدم للوصول الى الحقيقة؟

والرياضيون انفسهم يعتمدون اليوم على الوجدان . لانه يكمل تحليلاتهم ويعتبر ضروريا لتعليم الفروع الرياضية كما هو ضروري للعلماء المؤسسين للمذاهب العلمية وفي رأى النابغة مؤلف كتاب (حساب المرجحات) أن الوجدان مع مساعدته الادراك قد يخدع انصاره كما يخدعهم العقل نفسه .

ومع هذا فان النواميس الطبيعية الكيماوية الصارمة التي تكاد تعتبر نهائية والتي تناسب في الجلالة موضوعها المحير الالباب تكفي لتقرير قيمة العقل في المباحث ولانزاله منزلة ممتازة بجانب الوجدان

ومجرد الذوق السليم وهو افصح الاساليب العقلية يرى وجوب اعتبار الوجدان والعقل معا في المباحث

والفكر في هذا الامر وهو : ان مخنا لاشيء غير مجتمع من خلايا مادية ينحصر

فيها عقلنا ، واذا شئت فقل روحنا وشعورنا وتفكرنا وجميع جهودنا ومحاولاتنا. فالجرح الذي يصيب المخ يؤثر جد التأثير في محتوياته مباشرة . ومسألة استقلال أحدهما عن الآخر أو تعلقه به لاتزال محلا للنزاع . من هنا يظهر المخ بمظهر عضو العقل. ولا يلزم من ذلك ان العقل ليس له وسائل أخرى للظهور بها . ولا يمكن أن يستنتج من ذلك ان المخ هو المحتكر لخاصية إشعاع وإعمال كل الخصائص العقلية . فان هذا الزعم في جموده يناقض المنطق والمشاهدة معاً . ويمكن أن يقال فوق هذا : ان المخ ليس الامادة ، والمادة ليس من خواصها هداية نفسها، ولا العلم بالشيء قبل حدوثه، ولا العمل على موجب تدبير أو غرض أختير من قبل . فالذي يعطي المخ هذا كله هو العقل، وهو يدل بهذا على انه شيء زائد عن المخ الذي أداته في ظهوره.

نحن لانبصر الضوء الا بالعين ولكن لنفرض ان عددا عظيما من الناس كف بصرهم فجأة فهؤلاء لايبصرونه قط . فهل يلزم من ذلك أن يعدم النور نفسه ؟

كذلك ليس من حق أحد أن يؤكد بأن الخصائص العقلية تبطل أو لاتصير حقيقية اذا زال المخ.

وعليه فوهن أساس القول بكفاية الادراك وحده أو الوجدان وحده يتضح بأقل نظرة من نظرات العقل الخالص عن المسلمات التي لا تستند الى تجربة .

فلنتنزه عن التعصب حتى للحقائق المقررة لان ذلك هو الشرط الوحيد لولوج العالم المجهول وكشف أسراره .

٢ — (العهد الكريم للوجدان)

العالم مصاب بكراهة كل جديد ، وهذه الكراهة الفطرية تخطئ في هلعها أمام غلبة الوجدان أو العقل الباطن ، لأن هذا الامر لايعدو في جملته عودة أصل تراثي

الناس منذ أقدم العهود الانسانية . وهذا العقل الباطن نفسه قد عمل على تقويم النوع البشرى دائما وفي كل مكان . ولكنه بعد أن كان عمله فطريا في الانسان أصبح اليوم علميا وفلسفيا. وقد شوهد حتي وهو علي تلك الحالة الفطرية يعمل لدى الفيلسوف سقراط وقد اعتبر رتبته فوق رتبة العقل . فقد قال في تقريظ افلاطون :

« ان الشعراء والعلماء ملهمون لا من العقل ولكن من انفعال قد يشبه انفعال المتنبئة ويحملهم على أن يقولوا أشياء لا يفهمون منها شيئا » .

وثبت القول بالوجدان عند الافلاطونيين الجدد وكان روسو بكبير من شأنها وكان يقول ان الفطرة كانت هي المتسلطة على الناس في عهد كالعهد الاول وقد فسد هذا العهد باخضاع العاطفة للادراك . وعنده ان الدور الثالث من ادوار الانسانية سيقوم باعادة اخضاع الادراك للعاطفة التي سميت بعد سقوطها قليلا لافطرة .

وفي القرن التاسع عشر عقب حدوث رد الفعل ضد المذهب العقلي رجع فلاسفة كثيرون الى الاعتداد بالفطرة أو العقل الباطن ومنهم شوبنهور وتلاميذه.

ولكن كل اطلاق يؤدى الي نتائج سيئة . فان تسلط الفطرة وحدها علي الناس في الازمان السابقة أفضي بهم الي البربرية، والى الجمود عن كل ترق، كما أن تسلط الادراك عليهم وحده ادى الى الافلاس العقل نفسه . فظهور الحقيقة يستدعي قبل كل شيء اعتداد أحدهما بالآخر هذا هو ينبوع الوحي الجديد في تحسين الوجود الانساني المطلق تحسينا بعيد المدى .

فنحن بفتحنا العالم الاخروى الذي ظل دائما موصدا أمام الادراك سنوجد أسبابا لا تنضب تبعثنا لمذهب عال من طلب التكمل. هذا المذهب سيقلب مدركاتنا المتطرفة في المادية ويوجد لنا آفاقا لم نحلم بها ولا تنتهي الى حد من الغبطة والكمال المعنوى.

فاذا كان قد صعب علينا ان نعرج الي السماء فسيكون في امكاننا أن نوجد تلك السماء علي الارض .

والحوادث التي لا يحصى لها عدد والتي تتعاصي عن الخضوع لنشاطنا العقلي والعضوي مما توجد لنا عالما جديداً مستقلا استقلالا لا ينازعه فيه شيء. وهذا العالم سيبقى مستقلا عن مخنا وعن مجموعنا العصبي .

وهناك براهين لا تعارض تضطرنا للتسليم بوجود قوة أو قوى مجهولة مستقرها فينا نحن، فلنسمها شعوراً أو روحاً، فالذي يهمنا انها سواء أكانت هذه او تلك فانها لن تزول بعد موت أعضائنا ومخنا .

ما اكثر ما نجد أدلة من نوع آخر لاثبات هذه القضية . فالعلوم المسماة بالباطنية تؤتينا بألوف مؤلفة من الشهادات غير المباشرة في مصلحة هذه النظرية، وما اساء سمعة هذه العلوم الا الذين يبحثونها بدون مراقبات دقيقة وبخفة، حتى أن أرزن العقول لتدين المشاهدات ضالة ومخالفة لكل أسلوب علمي . ومع هذا فانه فيما يلي رغماً عن وجود تجارب باطنية ناقصة وتحقيقات لا يوثق بها، سنبرهن على انه يمكن اقامة الدليل العلمي على البقاء بعد الموت مع تركنا الآن البحث في معرفة حالات ذلك البقاء .

٨ — (أخطاء الاسبرتسم وغيره)
(من المذاهب الباطنية)

الناس عادة اكثر تعويلا على الضلالات الظاهرة منهم على لُمَع الحقيقة التي يتعذر عليهم ادراكها .

فالاسبرتسم والتيوسوفيا(١) ذانك المذهبان المعدان لان يؤديا أكبر خدمة

---

(١) التيوسوفيا كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين (تيو) اى الاله (وسوفيا) أى الحكمة ومعناها معا الحكمة الالهية وهو علم وضع على مذهب مختار من الفلسفة والعلم مستمد من الحكمة الهندية القديمة يشبه الصوفية في اعتماده على تطهير النفس ويماشي العلم في فتوحاته الكونية (المعرب)

في دراسة العالم الاخروي هما نفساهما كانا أشد من سواهما في تسوىء سمعة المباحث التي سبق تحققها فيه . وماذا يقال في الفروع الباطنية الاخرى مما هي أقل منها قيمة التي تبدأ من قراءة الكف وتنتهي بالتنجيم أو كشف الغيب من خلال الكريات البلورية، فلقد شوهت المباحث الروحية المتقيمة بعناية وسوأت من سمعتها .

لنأخذ مثالا على ذلك من الفوتوغرافية الاسبيريتية فان اشياعها بتشبثهم بقرنها بظهور الموتى للاحياء جعلوا الامرين محلا للنزاع على السواء .

فرجل من مدينة بوسترن يدعي (مولر) صناعته الحفر ويشتغل بالفوتوغرافيا في ساعات فراغه ، رأى ذات يوم وهو يعمل لتثبيت الصورة على الزجاجة الحساسة رأسا ظاهرة بجانب الصورة وبعد عدة أيام رأى مثل ذلك فتأثر منه غاية التأثر ولكنه عرف أخيراً ان ذلك ناشيء من نقص تنظيف المرآة فبقي عليها اثر صورة انطبعت فيها من قبل. فلما ادرك ان الاتفاق قد وضع بين يديه كنزا يستغله أصبح اماما للفوتوغرافيا الاسبريتية حصل من ورائها ثروة طائلة ووجد له مقلدون عديدون. ولقد بلغ من رواج التجارة الاسبريتية أن اعلن في سنة ١٨٧٤ عن قرب صدور طبعة جديدة للكتاب المقدس مصحوبة بصور حقيقية لابراهيم وموسى وداود والملك سليمان وبعض رجالات الاناجيل

وبعض مصوري الممالك الاخرى كرهوا ان يسبقهم مصورو الولايات المتحدة الامريكية فأحدثوا مثلهم عجائب من هذا النوع .

وقد رأت المحاكم ضرورة وضع حد لتهافت الارواح على طلب تصويرها بمعاقبة أولئك المصورين المهرة الذين يتجرون بتصوير سكان العالم الاخروي فالقتهم في غيابة الحبوس عدة سنين .

وقد عجز المحققون عن اقناع الناس بامكان تغطية الصور السالبة بأى مظهر يريده المصور الماهر من طريق التدليس، فاستمر التصوير الروحي متابعا سيره في التضليل.

ونحن هنا مع عدم ارادتنا انكاره على حالة مطابقة التصوير الروحي الذي يوجد بين القائلين به رجال لهم حظ من سعة العقل ومكان لا نزاع فيه من طهارة النفس فلا نمالك أنفسنا من الاسف من الخفة التي يقبل بها بعضهم حوادث مشكو كافيها في غالب الاحوال .

لنضرب مثلا آخر : وهو كشف الامور من خلال الكريات البلورية ، الذي اصبح يقول به عدد عظيم من الناس ليس في الممالك الانجلوساكسونية وحدها ولكن في فرنسا وفي غيرها أيضاً . وقد أتي على هذا الامر حين من الدهر كانت آثاره فيه تشبه مرضا معديا في قوة الانتشار وكيفية عمله أن ينظر في منشور بلوري فلا يمضي طويل زمن حتي يرى الناظر فيه مرائي ليست بشيء غير مايشتغل به عقله في الاحوال العادية . وقوة ظهور تلك المرئيات يتبع شدة قبول الناظر للتأثر من جهة، وصفات المنشور البلوري من جهة أخرى .

فكان المنشور البلوري الذي يملكه موريسون صاحب تقويم (زادكييل) شهرة طبقت العالم كله في سنة ١٨٦٣ فكان يري فيه الناظرون ا"مناجيها(حواء)والملك ارثور وخوانه المستديرو الانبياء والقديسين المعتبرين في جميع الكنائس .حتى انه قد رؤي فيه يهوذا الاسخريوطي . والتقويم الذي كان يحمل انباء هذه المناظر التي نقلتها هذه البلورة المشهورة ذكر عن هذا المنظر الاخير مايأتي:

«يهوذا على غاية مايكون من الشقاء . فقد باع المسيح .وهو الآن في الجحيم ويريد أن يخرج منها بمساعدة البلورة»

فلما رفعت على موريسون المذكور قضية سرد في دفاعه عن نفسه أن من المعتقدين بصدقه أرقي رجال انجلترة عقولا مبتدئا باللورد غراهام ماراباالارشيدياكروبنسون والاسقف ليشفيلد ومختتما بالكولونل فيبس واللورد افينجهام . فقد حدث جميعهم بركة تلك البلورة وقد نوه بالخصائص التي لا تخطر ببال للكرة البلورية التي يصدق بها جم غفير من الناس في مؤتمر العلوم النفسية الذي أقيم في شيكاغو سنة ١٨٩٠

فالجلسات الروحية والاخونة المتحركة وحوادث الجسد تعطينا أدلة جديرة بالنظر

واحيانا مرجحة عن تهافت لاحد له في سرعة تصديق أولئك الرجال الذين ينهمكون في الاعمال الباطنية .

وكاتب هذه الصحف اشترك في تجارب عديدة فشق عليه في اكثرها تجرد المجربين من كل حاسة انتقادية وتعقلية . فكانوا يقعون في غالب الاحوال تحت تأثير تخيلات اجماعية وبعض العلماء ممن أرادوا التعمق في بعض المستكشفات الباطنية صاروا ضحايا طهارتهم القلبية لا تصافيهم غالباً بسذاجة لا حد لها .

(المعرب) ينحي العلامة جان فينو في هـذا الفصل من مقالته باللوم والتثريب على المجربين الذين يتجردون من النقد الصارم في مباحثهم ولم يبري بعض العلماء من ذلك، فلا يتبادرن الى ذهن القارىء انه يرمي بذلك كل الباحثين لانه قال ان في هذه التجارب ألوفا مؤلفة من مشاهدات محققة تجبر اعصى الناقدين قيادا على احترامها ولا يستطاع عـدم الاعتداد بها بوجه من الوجوه . بل هو نفسه واحد من الباحثين في الامور الروحانية وقد بنى مبحثه هذا عليها ، وهو لم يسمه فتحا علميا الا بسبب كون هـذه المشاهدات اصبحت داخلة في دائرة العلم المحض كما ستراه من كلامـه الآتي .

نعم انه يعيب قوماً يتهافتون على تصديق ما يرونه بلا تمحيص ويبنون عليـه تعاليم مذهبية تسيء الى هذه المباحث العملية من كل وجه، وترمي بها الى عالم الظنون والخيالات.

قد يكون المسيو جان فينو متحاملا على اكثر من يعنيهم ، ولكن وجود ألوف مثـله من المتطرفين في النقد والتمحيص بين المعتقدين صحة الظواهر الروحية اكبر ضمان للقارئين على ان هذه المباحث اجتازت كل عقبات النقد، ومرت من ادق مناخل التدقيق وحوت كل صنوف المعقول فلا يكبرن القارىء ان يصادف مثل هذه العقول الشديدة المراس في المعتقدين بهذه الفتوح الروحية في العصر الحاضر فان وجودهم اجلى مظاهر حقيتها، واكبر دليل على صحتها

٩ ـ (الاتصال الكاذب بأرواح الموتى)

يجب عدم الثقة خصوصا بالوسائل المتفق عليها الاتصال بالارواح سواء أكانت على صورة تحريك الاخونة أم بالكتابة بلا واسطة أو بواسطة ، فقد أفرط المدلسون في استغفال المجربين . فلا بد من استخدام التبصر التام قبل كل شيء في تحقيق هذه التجارب لمصلحة المذهب الروحاني نفسه . لان أشياعه المتناهين في السذاجة أو المتشيعين بالحماسة كانوا في كل زمان ومكان أقوى العوامل في غاية الالحاد المذهبي من أشد الماديين حمية .

وانا لناح على العلماء ذوي التأثير العظيم أمثال (كاميل فلامريون) بان لا يحشروا الي مؤلفاتهم حوادث غير حاسمة وسهولة التعليل والتقليد . وعلي خصوم الماديين أن يكونوا من هذه الوجهة أشد شكيمة من خصومهم ، لان مشاهدة واحدة يقبلونها بخفة تهدم مئات من مشاهدات أخرى جديرة بالنظر .

وانه لتوجد أمثلة بينة علي الخفة التي يقبل بها علماء وكتاب مشهورون ظواهر هذه المجاهيل وتعليلاتها .

فنراهم بمجرد دخولهم في الديانة الروحانية يأخذون إخذ المتحمسين من المتمذهبين حديثا فيجافون مقتضيات الفطرة السليمة ، بل وأصول أعمالهم العقلية التي حصلت لهم الشهرة والمجد باستحقاق وجدارة . فكروكس ولومبروزو وهيزلوب وأوليفيه ولودج الخ ولا ضرورة لذكر بعض العلماء الفرنسيين من ذوي الشهرة العالمية الذين يعطوننا من هذه الناحية امثلة مدهشة من سرعة التصديق .

فلنأخذ مثلا لذلك كاتبا مثل (كونان دويل) المعروف في العالم أجمع بدقة النظر ومواهبه في الملاحظات الدقيقة وهي المواهب التي سمحت له بعمل أقاصيص بوليسية بمهارة مدهشة . فهذا الكاتب بمجرد اقتناعه بصحة بعض ظواهر التلباتيا (التأثر عن بعد) اعتقد بصحة مجموع العقائد الباطنية بخفة تستدعي الاسف الشديد . فان قراء (المجلة العالمية) قرأوا باهتمام عظيم (رسالته الحيوية) الموجبة للاعجاب التي

يوجد فيها بجانب ظواهر مفيدة للغاية عقائد توجب الدهش والحيرة. فان تأكيداته في مسألة الجسد الاثيرى للانسان وتصويراته للعالم الاخروى لا يمكن أن تقابل الا بشيء من الاستخفاف . فهو اذا تكلم عن عالم الآخرة يخيل انه قد عاد منه بعد أن لبث فيه عدة سنين .

فقد قال عنه : « هو عالم كل ما فيه هادي، ولطيف، والوجود به ساذج ومؤنس ، وفيه طوائف سعيدة تسكن اماكن تحظى فيها بلذات الجمال والموسيقى : ففيها حدائق غناء وانهار عذبة وغابات خضراء وبحيرات جميلة وحيوانات مستأنسة » وقال ايضا : « ليس هناك غني ولا فقير فكل منهم يخدم المجتمع بأحسن ما عنده . فهو مستقر تعمره الغبطة والضحك . تؤتي فيه جميع صنوف الالعاب والرياضات الجسدية . ليس فيه طعام ولا شراب . ولكن الحال هناك كما هو عندنا اذا صرف الانسان ادراكه وقواه وارادته في سبيل الخير أمكنه أن يصبح رئيسا » الخ الخ.

يقول كونان دويل هذا ويؤكد بأن البراهين قد تظاهرت على وجود هذا العالم الذي يصفه للناس

وان المتأمل ليشاهد هنا نوعا من التجسيد بلا شعور من القائلين به، ومظهراً من مظاهر الرجعة الي العقائد التى انطبعت في النفس منذ قرون

فلودج في كتابه ريموند الذى كثر انتقاده فى الايام الاخيرة، وكتاب آخرون ممن يكتبون عن العالم الاخروى، كلهم يكتبون متأثرين بالوراثة الدينية ، أو بالآراء السائدة في البيئة التي يعيشون فيها

فالارواح التي تأتي من العالم الاخروى تتكلم عادة بلغة الوسطاء ومن يحيط بهم وتتبع مايحبون وتأكيدات ريموند من هذه الوجهة أحسن نموذج لكل هذا وقد ارتج العالم حديثا بضحك جنوني من تهيج بشعور قوى من حب الاطلاع الشديد عند ماسمع باستكشاف اديسون، ورغب في تحقيق أمانيه من مناجاة

الارواح (١).

ولقد حدث حادث جلل في حياة هذا المخترع الامريكي الكبير . وذلك انه كان قد ظهر منذ سنين شديد الشكيمة نحو الظواهر الباطنية . وفي أمريكا اليوم وسيط مشهور اسمه (برت ريز) عرف في الولايات المتحدة بمواهبه الكشفية . فكان اديسون لا يفتر عن الاستهزاء به بدون أن يحضر معه تجاربه علي عادة العلماء المبالغين في الجمود . فلم يسع (برت ريز) الا ان حمله على أن يجرب معه مرة . فدعا الوسيط الى معمله فكشف له هذا جميع أعماله التي لم يطلع عليها أحد وقرأه من خلال الاجسام الكثيفة مذكراته المودعة ظروفا مخبوءة بعناية تامة .

فلم يك من اديسون الا ان وقع كما وقع قبله كثير من المتشددين في الطرف المناقض للطرف الذي كان فيه ، فأرسل الي جريدة (نيويورك تيمس) بالاسس التي بني عليها ايمانه الجديد ...

وهناك عالم آخر يدعي الدكتور (و . ه . طومسون) مؤلف كتاب (المخ والشخصية) فلما بلغه ماحدث من اديسون اخذ يسخر منه ومن الوسيط معا فاستأذنه اديسون في أن يرسل اليه الوسيط ليجرب معه . فأعد طومسون للتجربة طائفة من الاوراق كتبها باللغة اللاتينية والعربية والفرنسية والانجليزية ووضعها في ظروف مقفلة وخبأها في اماكن مختلفة ، وكلف الوسيط بأن يقرأها ، فقرأها كلها رغما عن جهله باللغات الاجنبية ، فلم تمض غير ايام حتي اعلن طومسون دخوله في الديانة الروحانية في جريدة ماندای تيمس .

فالقراء يرون خروج هذين الرجلين العظيمين علي قوانين المنطق فلقد كان يكفيهما ان يقولا بصحة الظواهر الكشفية وخصوصا قراءة الفكر وان لا يتجاوزا ذلك اذ لم يريا

(١) يشير المسيو جان فينو الى ما شاع اخيرا من ان المخترع المشهور اديسون اخترع آلة دقيقة يخاطب بها الانسان الارواح بدون وسيط ، وقد نشر اديسون تكذيبا لهذه الاشاعة .

مايسمح لها بقبول المذهب الروحاني جملة .

والاداة التي استكشفها اديسون يظهر انها تناسب درجته من التعقل باعتباره روحانيا متحمسا للغاية . فهي آلة مكبرة . فكل تأثير يقع عليها يكبر ويسجل . واديسون يشبه اداته هذه بقوة رجل اذا استخدم محركا قوته ٨ خيول يستطيع ان يدير آلة قوتها ٥٠٠٠٠ حصان وهو يؤيد عقيدته فى خلود الجسم بالنظرية القائلة بعدم قبول المادة للتلاشى .

ونحن نشتد في بيان هذه الحوادث لنبرهن على ضرورة التبصر واحترام المنطق في هذه التجارب وهما الصفتان اللتان كثيرا مايتجرد منهما المجربون الذين هم في المجالات الاخرى يعتبرون من أكثر الناس تدقيقا . وهم فوق ذلك لايستطيعون ان يدققوا تدقيقا كافيا فى امتحانهم الاحوال التي تصحب حدوث كل ظاهرة باطنية .

١٠ ـ (بعض ظواهر غريبة)

ليسمح لي بايراد حادثة شخصية أثرت أعظم تأثير في صديقي العظيم (و . ت . ستيد) فقد دعيت ذات يوم لجلسة روحية عظيمة وأنا بلوندرة فرأيت تلك السهولة التي بها تتأثر جماعة مؤلفة من خمسة عشر شخصا من الاذكياء من ظاهرة ليس لها أصل ثابت في الواقع . فقد كنا مجتمعين فى بهو عوبرى هاوس بشارع نور فلك تطل نوافذه على نهر التاميز . فلم يمض زمن حتي ظهرت فوق رأسي أنوار غريبة . فتصاعدت في وسط الظلام والصمت الذى كنا فيه أصوات متحمسة ومتأثرة تحيي تلك الروح .

فلما رفعت عيني دهشت من ظهور هذه الانوار غير العادية مضطربة في صور من أغرب مارأيت . وقد ظهر لى أني لااستحق أن اخص بتركز هذه الاشعة فوق شخصي دون غيرى وكان أولي بذلك أن تظهر فوق رأس بعض كبار الروحيين من الموجودين

فاكتفيت بملاحظة ذلك بتواضع.

ولكني على مجازفتي بتجردي من هذا الامتياز رأيت من واجبي أن أعمد الى تمحيص هذه التجربة. ولما بحثت الستائر المرخاة بدقة تامة وجدت فجوات صغيرة خلالها فاستنتجت من ذلك أن المصابيح المتألقة على شاطئ النهر يمكن أن تنعكس منها اشعة غريبة علينا. وطلبت وقف الجلسة وارخاء الستائر بأكثر عناية حتى لا تبقي فيها فرج تصلنا بالخارج.

فاذا تكررت هذه الظاهرة بعد اصلاحنا أحوال الجلسة فلا يسعنا الا الاعتراف بصحتها. ولكن وا أسفاه ءزالت هذه الانوار العجيبة بعد تغييرنا تلك الاحوال.

فاذا كنا لم نحدث ذلك التغيير كان الحاضرون وأنا منهم انحنينا اجلالا لهذه الظاهرة الباطنية.

فيجب والحالة هذه على كل العقول النزيهة أن تعمد الى كل أنواع التمحيص في التجارب. ولكن الافراط في الحذر لا يجوز ان يسمح قط بنكران الحوادث الباطنية جملة كافية فانه مما يناقض الاسلوب العلمي الحق ما يتصف به أكثر العلماء والرجال الذين يتسمون بسمات الحسيين من مناقضة المنطق في أطراحهم الحوادث الكثيرة والمعقدة للامور المجهولة فان ذلك يستوى وتطرف الروحيين الغلاة في سرعة التصديق.

ومما لا مشاحة فيه أن حالة البقاء بعد الموت لا نزال وستبقي غير معينة مدة طويلة ولكن الشيء الذى يهم الآن هو أن نستطيع أن نبرهن اليوم على الوجود الحقيقي للروح بأدلة اكثر مما كان لنا في الايام الماضية، وتجاربي الشخصية تشككني في دوام الشخصية الانسانية على الحالة التي تعطينا اياها تجسدات الارواح. ومع تركي جانباً ذكر تلك التجارب غير الحاسمة التي كان لي الشرف بحضورها في باريس ولوندرة وايطاليا وغيرها بصحبة أشهر الرجال في عصرنا الحاضر فاني الفت نظر الباحثين النزيهين الى شكوك كبيرة عندي.

قد عقدت لشدة شغفي بالتحقق من بقاء الشخصية الانسانية فيما وراء هذا العالم

عدة عهود وثيقة بيني وبين رجال عظماء لا يعد كثير منهم الآن بين الاحياء . وكان كل راحل منهم قد تكفل بموجب تلك العهود أن يحضر ليرى أخاه الذي لا يزال وراءه وليعطيه الدليل المقنع على البقاء بعد الموت. فاذا علمنا أن الارواح تأتي بدعوة غير المهتمين بهم ممن لا يعرفونهم وهم أحياء على الارض، فكيف يعقل أنهم يأبون الوفاء بالعهود المأخوذة عليهم في أحوال خطيرة ؟ —

ولكن، وا أسفاه لم يف (سيزار لومبروز) واضع علم الجرائم المشهور ولا (دوكاو) المدير المأسوف عليه لمعهد باستور ولا (و ت. ستيد) غريق السفينة تيتانيك المشهور بما وعدوا من الحضور والافضاء الي بشهاداتهم التي أنتظرها بلهف شديد.

الحالة الخاصة بالمستر ستيد تستحق أن تذكر هنا . فانه بعد أن مات ميتته الجريئة التي برهن فيها على علو نفس كان أحسن تاج لحياته اعتباره كانيا ذا بغة متصفا باستقامة لا تكون الا للقديسين، قيل أن روحه حضرت الى مكتب جوليا (المكتب الذي كان أسسه لتحضير الارواح مجانا) وطلب حضوري (ويمبلدون) ليفضي اليّ بأمر هام . وقد أرفق هذا الاستدعاء بشهادة عشرة ممن حضروا الجلسة . فاجبتهم معربا عن دهشي كيف أن صديقي الخالد الذكرى عندي لم يحضر الى باريز ليعطيني شهادته مباشرة، بدل أن يستدعيني الى البلاد الاجنبية، وروحه أقدر على الانتقال منا عليه معشر سكان الارض . فأجابوني بانه يوجد في مكتب جوليا وسيط شهير يستطيع ان ينقل اليّ فكر المتوفي . فكان هذا الجواب خاملا آخر على عدم الخضوع لشروط الجلسات المتفق عليها التي لا تظهر فيها الموتي الا بوساطة وسطاء مأجورين .

يقولون اجابة على هذا أن الموتي اذا لم يأبهوا لندائنا، ويرفضون أن يفوا بالعهود المأخوذة عليهم من هذا القبيل هنا، فهذا يرجع الي نقص وسائلنا في ضيرهم ليس الا .

والامثلة الكثيرة التي تؤتينا بها مستندات الجمعيات والجرائد النفسية أولى بها أن تعتبر محيرة للعقل من أن تعتبر مقنعة . فانه رغما عن طهارة ذمة المدبرين وعما

يأخذونه من التحوطات يبقى في النفس أثر من الشك فيها . ويمكن التسليم بأننا مع الزمن سننجح في تهيئة خاصة للاتصال بالموتى تسمح لنا بالدخول بقدم ثابتة في عالم الغيبيين عنا . أما الآن فان الحوادث النادرة التى تستحق الاحترام الخاص توجد غالبا محاطة بظواهر هوائية على درجات مختلفة لم يحسن تمحيصها أو لم تمحص مطلقا غالبا .

ومن هذا القبيل أولئك الذين كانوا وهم أحياء قد آتونا بمشاهدات لاتحصى عن علاقاتهم بعالم الموتى ، فلما ماتوا لم يحضروا قط لتعليم الاحياء شيأ عن شؤن العالم الاخروى ، رغما عن وعودهم الخطيرة لاتباعهم الغيورين. فالشك والحالة هذه لايزال دائما حول ظهور الارواح .

وحادثة (ميرس) الشهير تستحق الذكر . فقد كان وعد أن يحضر بين خواصه ليؤتيهم بدليل أقوي على صحة ظهور الموتى للاحياء . فلم يحضر مدة طويلة، فلما حضر أخيرا بوساطة وسيط ظهر بمظهر سذاجة فكرية وشعورية آلمت الحاضرين ايلاما شديدا . وقد علات هذه الحادثة بأن النابغين فى هذا العالم قد يصيرون سذجا في العالم الاخروى، فلم يشف ذلك غليلا . لانه ان صح هذا انهدم هذا الاصل الذى مؤداه استمرار الشخصية ، وهو الامر الذي يهمنا في مسألة البقاء بعد الموت .

وقد حدث مثل ذلك فيما يختص بالاستاذ (هيزلوب) فانه بعد ان أثرفى أشياع العلوم الباطنية أكبر تأثير بتجاربه على الميسزبير وأتى فى مؤلفاته على شواهد جمة من ظهور الاموات للاحياء ، لم ينجح هو نفسه في الظهور للاحياء بعد موته . ومع ذلك فريق ره على يأسهم لايفترون عن نشر حكايات خيالية عن ظهوراته، ولكن جمعية المباحث النفسية فى الولايات المتحدة التي اسسها هيزلوب نفسه اضطرت أن لاتعتد بكل ماشاع من حوادثه الكثيرة بحجة انها مجردة عن كل اساس تمحيصي .

ومع كل هذا فان المذهب الاصلي للبقاء بعد الموت الذى يستند على براهين مقنعة من نوع آخر لم يصبها من جراء هذا خطر ولا نقص . لان الامر لايتعلق فى هذه الحالة لا بصورة من صورة البقاء بل بأصل البقاء ذاته .؟

(المعرب) يلاحظ القراء ان المسيو جان فينو أفرط في الاستخفاف بجمهور المجربين ويحارون بين مذهبه هذا فيهم وبين قوله وقد نقلناه في العدد الماضى (العلوم الباطنية تؤتينا بألوف مؤلفة من الشهادات غير المباشرة في مصلحة هذه النظرية) وقوله فيما سيأتي في الاسطر القادمة (ان عددا لا يحصى من المشاهدات المستقاة من جميع مجالات العلوم الباطنية تميل لاثبات صحة البقاء بعد الموت) وقوله فيما سيأتي أيضا (انه لتعوزنا مجلدات عديدة لتسجيل البراهين على بقاء النفس المدونة فى المجاميع الضخمة لجمعيات المباحث النفسية التي تأسست فى كل مكان ، وفي المؤلفات الصادرة عن علماء من ذوى الشهرة العامة الخ الخ) قلنا يحار القراء في التوفيق بين مذهبه فى المجربين وأقواله هذه ويتساءلون معنا اذا كان المسيو جان فينو لا يثق بالمجربين الى هذا الحد فمن أين أتت تلك الالوف التى لا تحصى من المشاهدات الممحصة التي يقول بوجودها في كل مجال من مجالات العلوم الباطنية ؟

ومن الغريب اننا لاحظنا مثل هذا التناقض في مؤلفات كبار الباحثين فى المذهب الروحاني الجديد وكلهم من المعتقدين به، المعولين عليه، الكلفين بنشره كالمسيو جان فينو نفسه .

والذى يلوح لنا ان هؤلاء المؤلفين لشعورهم بأنهم يكتبون في موضوع قد يتهمهم قراؤهم فيه بسرعة التصديق يجهدون أنفسهم محاولين الظهور بأنهم من التشكك بالمكان الأرفع ، ومن التثبت والتوقف بحيث لا يتابعون كائنا من كان ، فلا يجدون وسيلة لاثبات ألمعيتهم احسن من النيل من دقة المجربين السابقين ، وهو اثر من آثار الضعف الذى تجد آثاره حتى في اكبر النفوس البشرية

وهذا العلامة جان فينو نفسه سيسرد عليك من تجاربه الشخصية في بقية بحثه ما يتفق وما دونه الباحثون قبله بنحو سبعين سنة ، فما هي الميزة التى يبز بها سواه واستأهل بها ان ينال منهم الى الحد الذى يجعل قارئيه يظنون بهم الظنون ؟

يكبر على المسيو جان فينو ان لا تأتى له ارواح لومبروزو ودكار وستيد وعدت من حضورها اليه بعد موت اجسادها . أفيريد المسيو جان فينو ان تأتيه مباشرة ، ام هو

استدان بالوسطاء فلم تحضر ؟ أما اذا كان الامر الاول فهو مستحيل كما لا يخفى ، واذا كان الثاني فالسبب فيه نقص وسائله في استحضارها . اللهم الا أن يقول بأن عدم حضورها دليل على فنائها بفناء أجسادها ، وهو لا يقول به ، بل هو لم يكتب بحثه ذلك الا لاثبات وجودها بعد الموت ويسمى ذلك فتحا علميا .

والواقع أن اتصال الارواح المجردة عن المادة بنا ونحن متورطون فيها ، لا يمكن أن يكون الا بتوافر أحوال تجعله ممكنا . والا لحضرت الارواح المتولهة على ذويها فتواتهم في شدتهم . ولكنها لا تفعل ذلك ولا في الرؤيا لانها لا تستطيعه ونحن على الحالة التي نحن عليها من التلبس بالمادة . فالمدار والحالة هذه على توافر الاحوال التي تجعل اتصالنا بها ممكنا وهو ليس بسهل فليس كل وسيط بأهل لاحداث كل ضروب الاتصال بالعالم الاخروى . والسبب في ذلك تفاوتهم في خاصة الوساطة كتفاوتهم في خصائصهم العقلية والجسدية . والامور هنا وهناك جارية على قوانين لا يمكن تعديها بوجه من الوجوه .

فهل يريد المسيو جان فينو أن تحضر كل روح بوساطة كل وسيط رغما عن كل الحوائل التي تحول دون ذلك ؟ اذا كان الامر كذلك فلم لا يريد أن يتنزل كل فكر على كل مخ ، وان ترسم كل عين كل صورة على أي بعد كان وان تشم كل انف كل رائحة على درجة واحدة ، وان يذوق كل لسان كل طعم على حالة معينة ؟ فاذا كانت آلات ادراكنا للمحسوسات تتفاوت الى هذا الحد فهل يعجب المسيو فينو أن تتفاوت خصائص الوسطاء في الشعور بالكائنات المجردة عن المادة وهي أدق من المحسوسات بما لا يقدر ، وتعوز من توافر الاحوال واجتماع الشروط مالا تعوزه تلك ؟

والمدهش أن المسيو جان فينو انقلب في الشق الثاني من بحثه (وستأتي ترجمته) من طرف الى طرف فبعد أن ذكر عن شكوكه بمجموع التجارب الروحية ما علمه القراء ، عاد مؤمنا بها ايمانا مطلقا ، وناعتا اياها بنعوت توجب الاخذ بها بدون حرج فقال مثلا في فصله الثاني عشر

« يكفي الانسان ان يلم بالامثلة التي لا يحصي لها عدد (تأمل) والتي درست بضروب

شتى من العناية والتمحيص المتناهي في الدقة ونشرت في مطبوعات الجمعية الجدلية الانجليزية، قلنا يكفي ذلك لان يخضع الانسان أمام هذه الحقيقة الجديدة »

وقال بعد ذلك :

« ان المنكرين مهما بلغوا من شدة الشكيمة لا يستطيعون أن ينكروا وهم مخلصون فى انكارهم بأنه توجد قوة نفسية تولد كل هذه الظواهر الخارقة للمادة (تأمل) التى تزداد عدداً كل يوم ، ولا يمكن النزاع فى صحتها »

وسيرد مثل هذا كثير فى كلامه والتوفيق بينه وبين ما سبق من افراطه في الاستخفاف بمن قبله غير ممكن ، ولا حل لهذا التخبط الا ما ذكرناه .

• • •

لنعد الى ترجمة بقية مبحثه، قال :

ان حوادث لا يحصى لها عدد، مستقاة من جميع مجالات العلوم الباطنية تميل للبرهنة على صحة البقاء بعد الموت. هذه الحوادث اذا نظر اليها وهي منفصلة بعضها من بعض لا تنجح بلا مشاحة فى ازالة شكوكنا واقامة صرح من عقيدة ثابتة انساء ولكن اذا وضع الانسان نفسه فوق هذه المشاهدات الفردية ونظر اليها في جملتها فلا محيص له من أن يخضع أمام تطابقها الذى يحير اشد العقول استعصاء وعناداً ومن هنا فان هذا المذهب يأخذ على الاقل، حتى في نظر أبعد الناس عن التصديق ، هيئة فرض علمى محترم على وشك الصعود الى مرتبة حقيقة تجريبية .

انه لتعوزنا مجلدات عديدة لاجل تدوين ادلة البقاء بعد الموت المسجلة فى المجاميع الضخمة لجمعيات المباحث النفسية التي تاسست في كل مكان، وفى المؤلفات الصادرة من علماء مشهورين شهرة عامة .

فلنكتف علي سبيل المثال وعلي عجل بذكر ظواهر تستطيع العقول المحبة للاطلاع أن تجد منها عددا لا يقف عند حد اذا لجأت الى مطبوعات العلوم الباطنية وهذه المطبوعات التي تزداد كل يوم نماء وتنوعا تلفت نظر الرجال المتعطشين لادراك الحقيقة.

لنقف هنيهة أمام الظواهر التي لاتدركها حواسنا ولا آلاتنا المتقنة ، وتدركها طائفة من ذوي التراكيب الاستثنائية ، فانها لتمتعها بخصائص خاصة تستطيع أن تراها وأن تعرفها مشفوعة بأدلة على وجودها لاتقبل النقض

فصاحب الانتقال النومي من ذوى الكشف يرى الجو المغناطيسي المحيط بأجسامنا ويميزبين ألوانه المختلفة . وقد أمكن تقرير هذه الحقيقة التي كانت مجهولة في الازمان الماضية ، وهي ان لكل انسان جواً خاصا محيطا بجثمانه يختلف في لونه باختلاف صاحبه .
وقد اخترع نوع من الآلات المصورة الآن لاظهاره للعين المجردة بوضوح تام

ويزعم أطباء من الذين درسوا العلوم الباطنية ان من الجواء الانسانية مافيه نقط عجيبة تنم عن أمراض كامنة في أصحابها

وقد أكدلي طبيب معروف في لوندرة بأنه استطاع بفضل ارشاد الجو المغناطيسى الانساني اكتشاف أمراض كامنة فيمن سمحوا له بفحصهم على هذا الاسلوب وتمكن من شفائهم وكانت لاتقبل الشفاء بأية وسيلة اخرى . واني انقل هذا التأكيد بكل تحفظ لأني لم اتأكد منه بنفسي

أما الكتابة (أى كتابة الوسيط بدون ارادته) فلا يمكن التشكك فيها في أيامنا هذه . وماهيتها معلومة : وذلك ان شخصا متمتعاً بهذه الخاصة المجهولة قد يكون غالبا منقادا لامر لايمكنه تعليله يضطره للقبض على القلم والمضي في الكتابة عدة ساعات أحيانا معربا عن حوادث وآراء خارجة عن دائرة تعقله الشخصي . وقد تكتب هذه الحوادث والآراء عكسا ولا تمكن قراءتها بدون عكسها بواسطة مرآة

وقد اتفق لي حضور جلسات لتجربة هذه الكتابة الآليــة كانت فيها الوسيطة شابة صغيرة تربيتها العلمية أولية فكانت تكتب آراء في علم ماوراء الطبيعة في درجة نادرة من السمو تفوق خصائصها العقلية فواقانا كبيرا : وكانت تكتبها أحيانا بلغة أجنبية تجهلها جهلا تاما

هذه الموهبة العجيبة قد تظهر في صورة أشد غرابة مما مر . فان الحفار (دمولان) كان أراني نحو مئة من الصور غاية في الجمال صورتها يده وهو في حالة لاشعورية ، وهو

لم يكن مصوراً قط في عهد من عهود حياته ، ولكنه رأي نفسه ذات يوم مدفوعا بقوة لا يمكنه تعليلها الي رسم مناظر بلاد أجنبية لم يزرها عمره . وقد عمل وهو على هذه الحالة أيضا صوراً غاية في الضبط لاشخاص لم يقابلهم قط

كان هذا الحفار صديقا حميا لاميل زولا ، وقد كلمني عنه هذا الصديق العظيم كثيرا باعتباره حاصلا علي فطرة سليمة نادرة وبعيدة عن كل تأثر بالآراء الباطنية

فحدث في حين من الاحيان أن وقع تأثير هذه العوامل الخفية التي كان يجهلها وأخذت يده ترسم علي غير شعور منه فاتتنا بمجموعة من صور ذات قيمة نادرة دالة علي صناعة مجهولة تؤثر علي النفوس تأثيرا يفوق تأثير التصوير المعهود بين الناس ولاعتقاد هذا الحفار اعتقادا راسخا بأن هذه الصور لم تصدر من شخصيته العادية لم يرد أن يبيع صورة منها رغماً عن القيم المغرية التي كانت تعرض عليه من كل صوب ، مع ان ثروته المتوسطة كان يجب ان تسول له قبول هذه المكاسب

وقد تظهر هذه الموهبة علي صورة ميل للموسيقي تستولى علي شخص ليس له اقل المام بهذا الفن .

وقد نشر الاستاذ (هيزلوب) عدة أحوال من هذا القبيل تابعة لتعدد الشخصية .

من هذا القبيل ماذكره من ان احدى الشابات ممن لا عهد لهن بكتابة ولا نشر أخذت في يوم من الايام تنشيء أقاصيص علي اسلوب (فرنك ر . ستوكتن) ولقد كان تشابه الكتابتين تاما لدرجة حملت النقادة الامريكي الشهير (هنرى الدن) على ان يفرد لهذه الحادثة بحثا خاصا

وذكر ان شابا آخر كان يجهل التصوير جهلا تاما عمل صور اعظيمة القدر على أسلوب أستاذ كبير في التصوير مات قبل هذه الحادثة بسبعة أشهر وهو (ر . س جيفورد)

وقد سرد (هيزلوب) المذكور عدة حالات أخرى مشابهة لهذه وانه ليصعب علينا ان

تقبل تعليلاته التي ترمي الى القول بحدوث انحلال في شخصية الوسطاء وتدخل شخصيات أخرى معها من أهل العالم الآخر .

وكثيراً ما حدث أن الشخص الذى يزاول الكتابة الآلية يكشف أسرار جرائم مجهولة ويدل على امكنة أشياء مسروقة كما يأتي احيانا بمعارف تفوق درجة الحاضرين العقلية

وتدل المستندات التي جمعتها الجمعية الجدلية بلوندرة على أن الخصائص الحديثة المحركة فى هذه الاحوال قد تستولي في الوقت ذاته على حاستنا السمعية وعلى اعضاء اخرى فتقوى قابليتها العادية

وماذا يقال ايضا عن كشف الوسيط الحوادث التي يجهلها هو والحاضرون معه ؟

بماذا تعلل هذه الحوادث ؟ يعللها أقطاب الروحيين بأن عقلا من العقول المجردة عن المادة من سكان العالم الاخروي استخدم تجرد الوسيط وآتانا برسالة منه ؛

وقد كثرت حوادث تجسد الارواح والموتي الى حد ان المطلعين على تلك الاسرار الروحية اصبحوا لا يشكون في حصولها ؛

والتجارب التي يسردها الاستاذ (جمس هيزلوب) بوساطة (مدام بيبر) والاستاذ كروكس الكيماوى المشهور بوساطة (ميس كيتى كنج) الخ لا يمكن أن يضرب بها كلها عرض الحائط (١)

وهناك طائفة من العلماء من أعصامهم شكو كما كانوا ينكرون كل هذه الحوادث بدون تجربة ثم قبلوها جملة ، يسلمون على نحو ما يسلم به هيزلوب بان الارواح التي تتصل بالاحياء

(١) المعرب : كيتي كنج اسم الروح التي كانت تتجسد أمام الاستاذ كروكس لا اسم الوسيطة ، اما هذه فاسمها ميس كوك . ويظهر ان كاتب البحث وهم في ذلك

هي شخصيات انسانية بقيت حية بعد ماحدث لاجسادها مايسمى بالموت ولاتزال تهتم بالامور الارضية .

قد تكون هذه التعليلات صحيحة اوباطلة . ذلك لا يهم . اما الذي يهمنا فهو صحة الحوادث ذاتها . فاذا اعتبرت تسعة اعشار الحوادث المحصة والمتقنة بواسطة الجمعيات الموثوق بها جداً مشكوكا فيها بعد درس دقيق آخر ، فان المشاهدات الصحيحة القليلة التي تبقى تضطرنا لعدم الطيش في رفض القول بوجود هذه القوة المجهولة .

١٢ — لننحن اجلالا للحقائق)

ان حادثة واحدة من الحوادث الدالة علي البقاء بعد الموت تمحص بحيث لا يمكن مقابلتها باعتراض وجيه تكفي لكسر اصرار المادية التى فات وقتها وتصوحت زهرتها

مما لا مشاحة فيه انه من الصعب تحديد معني التلباتيا (التأثر عن بعد) ، فان خصائصها وصورها لا يمكن احصاؤها كما لا يمكن احصاء الساتير التي تحيط بآثارها المعقدة المتنوعة .

ومجاميع الجمعيات النفسية التي تنتشر الآن في اكبر المراكز العقلية للعالم المتمدن تؤتينا بعشرات الالوف من المشاهدات تعارض اصولنا المقررة التي تعتبر شبه علمية . فاذا لم يبق منها بعد التمحيص الا عدة حوادث لا يمكن دحضها فهل نستطيع بعد ذلك ان نبقى جامدين علي مقرراتنا القديمة

اذن فلا محيص لنا من دراسة هذه المذاهب الجديدة دراسة منزهة عن الهوى . مع العلم بأن ادق العلوم كانت مجالا للاخطاء في ملاحظة حوادثها وتعليلها حتى بالنسبة لأعم تلك الحوادث واكثرها وضوحا : فالتواضع هنا والحالة هذه لا يعد فضيلة فقط يجب الاخذ بها بل يعتبر شرطا ضروريا للبحث الوافى لقوانين العقل

يكفى الانسان ان يلقى نظرة على الشواهد التى لا يحصى لها عدد مما قد درس بعنايات مضاعفة ومراقبات شديدة للغاية ونشر فى مطبوعات الجمعية الجدلية بلوندرة لينحني اجلالا «لهذه الحقيقة الجديدة». لنضرب لذلك مثلا بمشاهدة واحدة من مشاهدات لا تدخل فى حصر حدثت فى عهد هذه الحرب العامة وقد شوهدت وحققت بواسطة ناس لا علاقة لهم بالدين ولا بالاعمال الباطنية .

هذا المثال هو حالة مدام ريتشاردسون امرأة الجنرال الذى كان على بعد ١٥٠ كيلو مترا منها فلما جرح سمعت صوته وهو يقول: «اخلعوا خاتمي هذا من اصبعي وارسلوه لامرأتي» وقد شهد من حضروا جرح الجنرال المذكور مباشرة وأكدوا صحة سماع امرأته لصوته عن بعد عدة مئات من الكيلو مترات .

والبراهين متظاهرة على انه يوجد بين الاحياء اتصال سري يحمل شعورهم من خلال المكان والزمان ، فهل يوجد مثل هذا الاتصال بين الاموات والاحياء ؟

يظهر ان تجارب عديدة فى هذا الباب تثبت صحة ذلك الاتصال

وعلى هذا فهذا النوع من التلباتيا يستطيع وحده ان يثبت عقيدة البقاء بعد الموت ، ولكن لندع هذه الظاهرة جانبا الآن ، ولننظر في امكان معرفة الحوادث عن بعد خلال المكان و لزمان ، وهى خارج مرمي خصائصنا الطبيعية . لان هذا وحده يثبت وجود عالم فوق المادة مستقل عن المخ وعن اعماله

فالمنكرون حتي اعصاهم قيادا لا يستطيعون ان ينكروا وهم مخلصون في انكارهم بأنه توجد قوة نفسية تحدث ظواهر خارقة للمادة يزداد عددها يوما بعد يوم ولا يمكن النزاع فى صحتها .

فلنكن علة هذه الحوادث هى التلباتيا أو العقل الباطن أو أرواح الموتي فان صحة تلك الحوادث نفسها تبقى لاغبار عليها رغما عن المناقشات التي تدور حول الاصل المولد لها .

فالذين ينتسبون للعلم ليس لهم ادني حق في تقليدا المتعصبين للدين الذين يرفضون التسليم بكل ما يناقض آراءهم المقررة ،

وقد روى (كارل دوبرل) حادثة مضحكة عن واعظ من فينا اراد وهو على منبره ان يدحض التنويم المغناطيسي بهذا الاسلوب وهو قوله :

« أنا لا اصدق بصحة التلقين المغناطيسي الا اذا رأيته بنفسي ، ولكني ان أراه لأن ديدني أن لا احضر مثل هذه التجارب »

وانا لنستطيع ان نزيد في الامثلة الى ما لا نهاية له عن حوادث الاخبار بالمغيبات ، والنظر بدون الاعين ، وقراءة حوادث تقع بعيدا عن الشخص في خلال المكان والزمان الخ الخ ...

فاذا اعتبرنا ، ولو على حالة سطحية ، ظواهر التلباثيا ندرك بسهولة بأن مدركاتنا في هذا الباب ستكابد في مستقبل قريب تحولا أساسيا . واذ ذاك سيقلع الناس عن البحث عن العالم الاخروي وعن الجنة والنار في السماء المزدانة بالكواكب ، لان علم الطبيعة السماوية يمنعها من التسليم بوجود سماء فوقنا ، ولكننا نجعل العالم الآخر في ذاتنا وعامل حولنا . كيف نقول العالم الآخر ، ونحن لم نخرج منه قط وسنبقى فيه الى الابد . لان افكارا وعواطف ، وآراء واحساسات ، تربطنا فيه بسلاسل ، والذي يتغير هو فهمنا اياه ، وهذا الفهم يعلو ويسفل على قدر قيمة قوتنا النفسية وروحنا وعقلنا الباطن ، ودرجتنا الخلقية

ووجود التلباثيا بين الاحياء لا يسمح ببقاء اذني شك فيما يختص بوجود قوة روحية تزيد عن القدر المقرر لارواحنا وعقولنا (أي ان هذه القوة الروحية فينا اكبر واكثر خصائص مما يعتقده الناس قديما وحديثا)

ولكن التلباثيا بيننا وبين الموتى تثبت استمرار وجود روحنا أو عقلنا الباطن ، ان لم نقل بقاء غير محدود أي خلودها وعدم قبولها الفناء .

هذه الظواهر الجديدة تناقض ، وقتاما ، مدركاتنا الطبيعية ومقرراتنا النفسية المؤسسة على الفزيولوجيا ، وما نعلمه عن الزمان والمكان ، ولكن العلم الذي ارحمنا

عن ضلالات كثيرة سير بعنا في مستقبل قريب فيما نؤمل ، عن اغلاطنا فيما يختص بالنظر والتعقل والذى على هذا العلم منذ الآن ان لا يحتقر الحوادث المعزية الدالة على بقاء النفس بعد الموت

اذن فالانسان لا يموت وحياته مستمرة رغماً عن محضر الوفاة الذى يشهد بزوال زوال الاعلاقاء والعقل الباطن ، وهو المجهول الخطير في وقتنا الحاضر ، سيصبح هو نفسه شعورنا الذاتي العالي فى اليوم الذى تزداد بحقيقته علما

(المعرب) يتبين للقارىء مما مر في هذه الفصول ان العلامة جان فينو لم يقدم امام بحثه تلك العبارات الشديدة ضد كثير من العلماء والمجربين قبله الا ليبريء نفسه من الجري مع الاوهام ومن عدم اتخاذ الحيطة الكافية ضد الخدع والانخداع ، والا فكيف يوفق القاري بين اقواله هذه وتلك الاقوال ؟

وعلى اى حال فان المباحث الروحية جمعت من اشداء الشكيمة من امثال جان فينو الوفا مؤلفة ولم تمنعهم شدتهم من الخضوع لحقائق الجديدة فماذا يبقي بعد ذلك لاولئك المتوقفون هنا عن قبولها بعد ان جازت كل هذه العراقيل واقتحمت كل هـذه العقبات وخرجت فائزة خروج الحقائق بعد ضروب التمحيص والتحقيق

على ان هذه الخوارق لغرابتها وشدة عداء الناس لها قد لقيت من التمحيص اضعاف اضعاف ما لقيته المعارف الطبيعية وكان المجربون لها يزاولون عملهم فيها لا بقصد اثباتها كما هو الشأن في بقية العلوم بل بقصد دحضها وكشف احابيل التدليس فيها فلم تزدد الا وضوحا وثبوتا فلو كان عليها غبار لضعف اظهر ظهور الشمس في رائعة النهار ولم تقو على هذا التمحيص المتوالي اكثر من سبعين سنة

وهنالك امر آخر جدير بالنظر هو ان الحقيقة العلمية يكفي في تقريرها ان يشاهدها عدة علماء فيأخذ بها سائرهم بدون تردد ، ولكن الحال جرى على خلاف هذه السنة في التجارب الروحية فارتفعت الثقة بين العلماء فيها وصار كل منهم يربأ بنفسه على الاعتماد على تجارب غيره حتى يكررها بنفسه فان كرر بعضها ووجده صحيحا اخذ به وتوقف في قبول غيره ، وان

كان يقول به المئات من أمثاله لهذا السبب كان عدد المجربين من العلماء في هذا الفرع العلمي يربو على عدد المجربين في كل فرع آخر من فروع العلم وفي هذا ضمان آخر على صحة هذه الظواهر

فهل يريد المتوقفون هنا عن قبولها أن يجربوها هم أيضاً بأنفسهم؟ ولو فعلوا فماذا تكون قيمة شهاداتهم بجانب شهادات ألوف العلماء وملايين الفضلاء في مدى سبعين سنة متوالية وفي أشد الامم بعداً عن الاغترار بالظواهر، والانخداع للاحابيل والتأثر بالتقاليد ؟

نحن لا نطالب اليوم أن يسلموا بهذه الحقائق ، فان ذلك يعنيهم وحدهم ، ولكنا نريد ان نثبت للذين يسمعون القول فيتبعون احسنه ان تشكيكات أولئك المتوقفين لا يصح ان يقام لها وزن بعد دخول هذه الحقائق في هذا الدور العامي وبعدما اصبح يقول بها اعلم علماء الطبيعة وفطاحل الكاتبين والمؤلفين .

***

لنعد الى ترجمة بقية مبحث المسيو جان فينو ، قال:

١٣ — (مسكن الروح)

كثيراً ما يصادف الاسبرتسم بلا تقصد في العقائد القديمة للشعوب في الاولية . وقد شبه الناس في كل زمان روح الانسان بنفخة ساذجة مأواها الجسد ، ولكنها تتركه بالليل لمدة قصيرة ثم تهجره بالموت لأمد لا حد له . فعلم النفس والحالة هذه يجد له عونا عظيما في دراسة (الفولك لور) والاساطير العامية وقد أدخلها (هربرت سبنسر) الى العلم الرسمي . ولقد صارت دراسة (الفولك لور) من أهم الاشتغالات في هذا الباب وهي تعطي عناصر لاتقدر قيمتها لدراسة النفس الانسانية في تطورها خلال العصور . وتأكيد (باسكال) أن الجسم مسكن النفس يدل على الميول التي كانت لدى مؤمني كل العهود الانسانية ولا تزال لدى اكثر العلماء في أيامنا هذه .

هومير وأهل المذهب الرسمي من اليونانيين والرومانيين متفقون من هذه الوجهة مع أحط الشعوب الاولية . وفي رأى مؤلف الالياذة ان تناتوس (وهو الموت) وهيبنوز (وهو النوم) اخوان توأمان . وهما شبيهان كل الشبه وفي نظر الفيدا (كتاب الهنود المندس) الروح تزال الجسم في أثناء النوم وتتحادث مع (الديفا) وهم الآلهة الخالقة والحامية الكائنات . والاحلام دلائل تدلى بها الروح لاثبات وجودها .

ويعتبر (الايبون) اهالى باراجيه (بأمريكا الجنوبية) ان الموت ليس بشيء غير نوم طويل المدة . والعقائد العامية تختلف في تعيين مستقر الروح من الجسد . فبعضهم يجعلونها في المخ وبعضهم يعتبرونها في القلب، ولكن اكثر الناس يقررون بأن الروح مستقرة في النفس وان الموت هو خروج هذا النفس من الجسم . وعلى هذا الاعتبار كان الرجل من الرومانيين اذا حضرته الوفاة استدعي أصدق أصحابه اليه ومال عليه وقال له قبل أن يزفر النفس الاخير « خذ روحي من فمي » .

وبما ان النفس في اعتبارهم أبيض اللون فتكون الروح بيضاء كذلك . ومن هنا جاء التعبير (ببياض الروح) الذي يستعمله المؤلفون الدينيون والشعراء ورجال العصور الماضية والعصر الحالى .

لنذكر هنا في هذا المقام موت (كانت) الفيلسوف الالماني كما رواه أقرب مترجميه اليه قال :

« في يوم مشرق صافي الاديم ظهرت سحابة صغيرة خفيفة في السماء الصافية الزرقة واتجهت ببطء نحو الشرق فلمحها جندى يحرس قنطرة فالفت اليها من حوله وقال لهم وهو مقتنع بما يقول : « انظروا فهذه روح (كانت) صاعدة الى الله » .

كان كثير من الشعوب الاولية تعتقد بأن الجسم قد يؤوى أرواحا كثيرة في وقت معا فيعين الملاجاشيون والصينيون عدد تلك الارواح بثلاثة . ويشاركهم في ذلك سكان اواسط افريقا . ولكن الاسكيمو يقصرونها على اثنين، والداكوتاس يرفعونها الى اربعة ، منها واحدة تبقى بعد موت صاحبها في قريته، وثانية تمكث في جسده، وثالثة تضيع في الهواء وأما الرابعة فتقيم مع الارواح . وكان المصريون القدماء يقولون بعقائد تشبه بطريقة

غريبة العقل الباطن المتعدد . فكانت الروح في نظرهم تتألف من مجتمع عناصر نفسية تعيش مجتمعة مدة بقائها على الارض ولكنها تفترق بموت صاحبها . وفي هذه العقائد كنوز من معارف تخدم التيوصوفيين من كل العصور . وعند المصريين (اوزيريس) هو العنصر الاصلي للروح ، فيترك الميت بعد تصبيره ويصعد بعد ذلك لينضم الى الله وهو محتده الاول .

وقد أخذ أرسطو كما يلاحظ ذلك بوضوح قوله بتعدد الروح من المذهب المصرى فعنده ان الارواح الثلاثة الغاذية والشاعرة والعاقلة تعمل معاً في الجسد مدة الحياة ولكن بعد الموت لا يبقى في حالة كمال الا الروح الاخير

١٤ — (ميراث الماضى)

الشعوب الاولية تذهب الى ان الميت لا يعزيه شيء في انفصاله عن الاحياء ويبذل قصارى جهده ليعود حيا بينهم وتقولون ان الارواح لا تنسى شيئاً مما علمته أثناء حياتها على الارض وتعلم أسرار الاحياء فلا يغيب عن علمها ونظرها شيء . ومذاهب الرجعة بعد الموت قد استقت من هذا الينبوع . لان الروح بعد انفصالها من الجسم تريد أن تعود الى الارض في خلال وجودات جديدة ومتتالية . ومن هنا نشأت مذاهب التناسخ على اختلافها وغرابتها على ما تعلمه أديان خاصة والمذاهب الباطنية .

هذه المدركات التي للشعوب الاولية أثرت في المؤمنين والفلاسفة واتباع المذاهب الصوفية المختلفة . فالروح عندهم قد تكون نفساً وقد تأخذ شكلا ماديا انسانيا أو حيوانياً .

وقد قالت الكنيسة المسيحية بامكان تجسد الروح قبل أن يقول بذلك المذهب الباطني الراهن بزمان بعيد .

ذكر تيرتوليان في رسالته عن الروح انها جثمانية الاصل . قال والا فكيف نكيد

المذنبين عذاب جهنم اذا كانت الروح مبني عضادة فان لهب الجحيم لا سلطان له على ما ليس بجثماني وما كان كذلك لا يمكنه ان يفني في ابراهيم ».

وقد ألم (دو دانتي) في روايته الهزلية الموسومة بالكوميديا الالهية بالمدركات الدينية للقرون الوسطى فيما يختص بالبقاء بعد الموت على اسلوب غاية في الاتقان فاذا ما تدبرها الانسان وجد الصلة المتينة التي تربط بين مخاوف الانسان الاولى وأمانيه وبين مخاوف الناس وأمانيهم في العصر الراهن .

فالاديان والمذاهب الباطنيه ونظم ماوراء الطبيعة وعقائد او شكوك المثاليين من الفلاسفة (نسبة للمثل الاعلى) كلها مرتبطة كل الارتباط او بعضه باساطير وضعت في زمان عريق في القدم ولكن بقيت حقيقتها الى اليوم على ما كانت عليه .

ان واجبا أوليا أصبح مفروضا على جميع الذين يودون ترقية علم البقا بعد الموت وذلك أن يتخلصوا من جميع الضلالات التي تكاد تكون فطرية ، واعادة درس الحوادث الروحية في مظاهرها المتعددة وهم بعيدون عن الاوهام وعن التعصب . هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن يوصلنا الى حقائق معززة

أضعف جهة في المباحث التي من هذا القبيل هي عدم امكان استخدام الاسلوب التجريبي فيها ، وهو هو الاسلوب الوحيد الصالح لاتيائنا بالحقائق الحسية . والحوادث المتعلقة بما وراء الطبيعة ، والحوادث الباطنية تستعصي عن طرق التحليل والتجارب المعروفة فيجب والحالة هذه معاملتها بطريقة مناقضة للطرق العادية .

واذا كنا نلح في التنويه بهذه الحوادث فذلك الا لنثبت مع مقتنا ومكافحتنا التدليسات في صورها المتعددة ، بأنه يجب التسليم علميا بصحة الظواهر المتنوعة لهذه القوة المجهولة .

١٥ — (الحقيقة الجديدة) :

بما أن الزمان من المدركات المتفق عليها ، وهو صورة ذهنية ليس الا ، فلا نستطيع ان

تقتصر من وجهة فلسفية علي الحدود الضيقة التي يعينها لشخصيتنا

فالذي يحدث في اعماق هذه الشخصية يملأنا ذعراً أو تعجباً . وبعد استكشافنا لعقلنا الباطن فليس في مكنتنا أن نهمله واننا لنترقي في التحقق من ان العالم الخارجي علي مايدركه العقل ليس هو الا ظاهرة أو مدركا محضا ، وتفسيره ان لم نقل حقيقته مستقرها هذا العقل الباطن وهو الموجود الاصلي علي حسب مذهب «كانت» (١)

الانسانية لم تأبه بعالم الميكروبات الذى يساور الجسم ويحتله حتى قام العلم باستكشافه ، فهل من ينكر قيمة هذا الاستكشاف اليوم ؟ والنواميس البيولوجية الفزيولوجية المدركة بصرف النظر عن وجود هذا العالم الميكروبي تصبح لهذا السبب وحده باطلة ومناقضة للحقيقة الجديدة .

فما اشبه هذه العلاقة بعلاقة العقل الباطن بعلم النفس .

من الخطأ القول باستحالة التقدم في مجال زيادة العلم بالمجهول . واننا لنذكر هذا العلم الميكروبي الذى كان مهملا قديماً وخصوصاً علم الميكروبات الدنيا كلما بحثنا في ظواهر العقل الباطن التي لاتقبل التقييد والمراقبة .

بجانب الميكروبات التي يستطيع الميكرسكوب أن يدرسها توجد الميكروبات الدنيا التي تستعصي علي اقوى المنظارات المكبرة فهي كائنات غاية في الصغر بحيث ان حجومها تبقي أقل كثيرا من طول الامواج الضوئية المرئية وهي ٥ ١ جزء من مئة مليون جزء من الاشعاعات البنفسجية القصوي ومن هنا كانت الصعوبة في دراسة تلك الكائنات علي اى صورة من الصور . وهناك صعوبة اخري وهي استحالة الحصول علي هذه الميكروبات الدنيا علي حالة نقية اذ لا يمكن فصلها عن العناصر الخلوية

(١) كانت فيلسوف الماني توفي سنة ١٨٠٤ كان يذهب ان الكل موجود اصلا معنويا هو الموجود بحق ، واما مظهره المادي فصورة تناسب تركيب عقلنا وكان يسمي ذلك الاصل المعنوى (نومين) ومعناها الاصل

التي تنمو فيها ، أو عن الميكروبات الأخري المقيمة في السوائل ، من الميكروبات الدنيا المميزة من هذه الوجهة ميكروب الكَلَب . فالسم المعدي من هذا الداء يمر من خلال المصافي الخزفية او المصافي الطينية المسامية التي تمنع مرور أصغر الكائنات المعروفة . ومع هذا فقد نجحنا في الحصول علي نتائج علمية لايمكن النزاع فيها في هذا المجال الذي كان يظن انه موصد في وجه كل تحليل علمي وكل أسلوب تجريبي .

وقد حظي العلم في هذه العشرين السنة الاخيرة باستكشاف عدة دوزينات من هذه الميكروبات الدنيا (الدوزينه عندهم تعني اثني عشر) والعلم يستفيد من هذا الاستكشاف الآن في معالجة بعض الامراض . انذكر من هذه الميكروبات الدنيا الجرثومة غير المرئية للحمي الصفراء وطاعون الطيور والطاعون البقري وجدري الدجاج وتيفوس الطيور والتيفوس الطفحي وجدري الخراف الخ .

ولكن رغما عن عدم امكان رؤيتها حتي باستخدام أتقن الآلات المكبرة فقد امكنت دراستها بفضل تأثيراتها الخارجية وقد علمنا من ذلك باننا نستطيع ابادتها في دقائق معدودة اذا سلطنا عليها درجة من الحرارة تعلو عن ٥٥ وانها كلها معدية تسبب اضرارا تشريحية مرضية على صورة تغييرات تطرأ على النواة الخلوية الخ . ولكن لايزال أمرها محاطا بعالم من المساتير . واذا كنا نعلم انها سامة فاننا لانزال نجهل التأثيرات الحسنة التي تستطيع أن تحدثها حولها مما سيؤدي العلم به في يوم من الايام الى انتقال ذريع للعلم في معالجة الامراض الحالي . فأى ضرر كنا نجنيه على أنفسنا اذا وقفنا أمام عدم امكان رؤية هذه الميكروبات الدنيا وامام استحالة دراستها علي الاساليب المقبولة لدى العلم فرفضنا البحث فيها أو انكرنا وجودها ؟

ولكن الذى حدث انهم بفضل التأثيرات الناجمة من هذه العوامل المتناهية في الصغر والاستتار على حياتنا اليومية قد نجحوا في ايجاد علم من أكثر المعارف قياما علي الاسلوب الحسي وأكثرها نفعا للعالم .

أليست الحال هي هي ، مع حفظ الفرق بينهما ، فيما يختص بالعقل الباطن

وهو غير مرئي ويستعصي على الابحاث التي تحاول أن تجد مستقره المادي ، ولكن آثاره الكثيرة والمعقدة مما تلفت نظرنا وتفرض علينا بحثها على صورة لا يمكن النزاع فيها .

انه مما يناقض العلم ارادة انكار أو اطراح ظواهر العقل الباطن كما يناقضه أيضا احتقار مسألة وجود الميكروبات الدنيا وهي غير مرئية وغير قابلة للتمحيص .

ومع هذا فما أبعد الفرق بين ظواهر العقل الباطن و بين تأثيرات الميكروبات الدنيا من جهة سمو طبيعتها ومؤداها معا .

فاذا صعدنا من عالم الكائنات المتناهية في الصغر الي عالم الكائنات المتناهية في الكبر نجد فيها دليلا لا يدحض لتأييد الموضوع الذى نحن بصدده ويكفينا أن نعيد الى ذكرنا التأكيدات المتطرفة لاجوست كونت التى كان يقول بها جميع العلماء المتقدمين وعلماء عصره أيضا وهي انه يجب قطع الأمل في امكان معرفة التركيب الكيماوي للاجرام العلوية حتي ولا في مستقبل بعيدا جدا . فكانت الفطرة العلمية مضافة الى أدق المقررات العلمية تؤيد آراءه التى ترمي الي تثبيط كل المحاولات التي تتجه الي هذا الغرض

ولكن لم تمض غير سنوات قليلة حتي استكشف التحليل الطيفى الذي سمح بمعرفة تركيب مادة النجوم معرفة أتم من معرفتنا لنواميس تطوراتنا الاجتماعية والسياسية .

ونحن بدون التعويل على الادلة العديدة التي تدلي بها الفرق الروحية نستطيع ، وكل منا في دائرته ، أن نستجمع أدلة لا تقبل النقض على صحة وجود ظواهر خارقة للعادة تفوق آراءنا الخاصة بحدود الزمان والمكان ولسنا فى حاجة اذا اردنا ذلك الى تعلم خاص ولا وسطاء ذوي شهادات أو من يجري مجراهم، بل الذي علينا هو أن ندون ونفحص كل الظواهر الباطنية بمثل العناية التي نبذلها لندون حوادث الطبيعة .

فقد صادف كل منا في مدى حياته حوادث مميزة من اخبارات بالمستقبل، وانتقالات

الفكر الى مسافات بعيدة ، ورؤية الحالي والمستقبل على درجات من القرب والبعد وذلك بدون الاعتماد على أي حاسة من هذه الحواس.

نعم يجب تمحيص هذه الحوادث خصوصاً وهي تتعلق بحوادث تزعزع غالبا آراءنا المقررة.

ومع هذا فلو بحثنا الألوف المؤلفة من الحوادث المدونة في السجلات الضخمة المسماة (بروسيدنجس) الجمعية الجدلية بلوندرة ومايقدمه لنا كاميل فلامريون في كتابه المجهول والمسائل النفسية وكتابه القوى الطبيعية المجهولة أوفي كتابه الموت وغامضته في نحو مئة مؤلف من هذا النوع ، قلنا لو بحثنا في هذه الحوادث يكاد يكون من المستحيل أن نرفض رفضاً جلياً الاعتراف بتلك القوة الخفية التي تعمل فينا وبنا او بجانبنا وتسمي بالعقل الباطن أو الروح او المجهول العظيم . ومما لاشك فيه ان هذه القوة موجودة وانه لاوجه لنا في عدم الاعتداد بها في بحثنا عن الاسباب الاولية والثانوية لحياتنا الطبيعة والروحية

لقد أخطأ الناس خطأ جما في كل زمان بسوق الفكر المستقل مساق الأماني والعقائد المادية.

وكان العلماء السابقون يظهرون متشبعين غالبا بهذه الفكرة ، وهي انه يجب عليهم أن يضعوا أنفسهم في الطرف المضاد للطرف الذي فيه الديانة والمتدينين . ونرى تلاميذهم واشياعهم اكثر تطرفا من أساتذتهم في هذا الشأن ويظهرون شديدى الجفاء لكل تدخل روحاني في مجال الفكر . فان اشباه (هومي) لا يقتصر على عهد فلوبير ، فهو موجود في كل زمان في جميع البلدان .

(المترجم) هومي هو المسيو هومي الصيدلاني شخص قصصي اخترعه الكاتب الفرنسي فلوبير في قصته (مدام بوفاري) جعله مثالا للأحمق المصبوغ بصبغة الآداب والعلم فاصبح هومي علما لكل مغفل عده في غفلته ظاهر من العلم) نعود الى مانحن بصدده من نقل مبحث المسيو جان فينو قال :

فالعقل الذي الصحيح المستند على الاسلوب الاستنتاجي وعلى التجربة قد

أحدث شيأ فشيأ ثلمة كبيرة في سياج العقيدة المادية . فرأينا مع هـذا القبيل ان أعاظم المجددين واكابرذوى القرائح العلمية يتخذون لهم سبيلا مع المذهب الروحاني اليوم.

وزيادة علي هذا فقد اصبح يعتبر اليوم مناقضا للعلم نبذوا انكارالحوادث الكثيرة التي لا تفتأ تطرق علينا الباب وتلفت نظرنا اليها بقوة لا تغالب.

رجل العـلم الصحيح يبتسم برحمة وصفح عند ما يحاولون اعتبارعلمه واسـلوبه وفتوحات فـكره من المذهب المادى المتفق عليه وظنهما شيأ واحداً . كلا فقد يمكن أن يكون الانسان متقدما جداً من وجهة المحصول والمرمى العقلي مع اعلانه على رؤوس الاشهاد بأنه من الروحانيين .

فلاينسـين المعاندون وخصوم الايمان ان المذهب الروحاني لا يعني الخضوع للتأكيدات غير المحققة والايحاآت المريبة . فالذى يهمنا قبـل كل شي هو ضرورة عـدم حبس فـكرنا في دائرة مصنوعة يحيط به فيها المذاهب الضيقة لان العقل خاق لتكميـل هذه المذاهب واجتيازها الي ما بعدها . فاتفاق هذه المذاهب والعقل وتساعدهما بدون انقطاع يمكنه وحـده ان يوجـد لنا على متـلائم النواحي محقـق عن الوجود ونواميسه .

فالفكر الحر والعلم الحق يهمهما جدا ان ينفصلا عن المادية التي فات وقتها وعن المذهب الحسى الذى يوجب علينا ان لا ننظر الا من خلال فتحات صنعها هو واتضح انها ضارة ولا حاجة اليها .

فالفكر الحر الصحيح وعلماء الاجتماع الذين يتعالون عن مستوى الاحقاد التي ولدتها اختلافات الاديان والالوان والاجناس والاقوام لا يستطيعون ان ينبذوا جملة تلك المقررات المؤسسة على خير الانسانية التي تقدمها لنا التيوصفية الراهنة وفتوحات اخرى باطنية تمد أعلى الفتوحات واجدرها بالثقة .

فاذا كان القول بالتناسخ وبأصول أخرى كونية تستوجب شكوكا عميقة فليس الامر كذلك من ناحية مايدعو اليه ذلك المذهب من الاخوة العالية العامة الموقظة

الروحانية . اى شيء اعلى كعبا في الحرية من الاصول الاولية للتيوصوفية التي تكتفي ببحث الآخذين بها مجتمعين للبحث عن الحقيقة لا بتكليفهم بقبول عقيدة او عقائد جديدة ؟

فالتيوصوفية ليست في الجملة الا تأييد الاصول التي هى القواعد الجليلة لكل الاديان ولجميع المذاهب الخلقية · وجريا على أوسع مذاهب التسامح الديني قد صارت التيوصفية معددة للآلهة في الهند وموحدة لله في جميع البلاد الاخرى.

ان القول بالكارما يجعلها مناقضة للعقائد المسيحية وكذلك طريقتها في ادراك شخصية المسيح، فمسيحها الصوفي لا ينطبق على ما يصوره الانجيل ، والخلاص المنتظر للعالم يشبه (ميتريبيا) المذكور في الاساطير البوذية . وتجسده في صورة الشاب تاميل الذى يعيش الآن خفية بالهند باسم كريشنا مورتي يبعدنا بلا شك عن الترجيح الذى تقبله الفطرة السليمة العادية .

أما المذهب الكوني الذى يعتبر اخا للتيوصوفية فينشر هو أيضا حقائق إلهية مما يؤدى تطبيقها الي ترقية الانسانية من الوجهة الخلقية والعقلية.

نعم أنه يعتقد بظهورات روحانية ترفرف بين السماء والارض وليس لها من اصل ثابت لا في العلم ولا فى العقائد العادية ، ولكن ما أوسع وأروح الآفاق التى فتحها أمام الناس، مساعدا اياهم على ازدراء الشدائد التى تصدنا عن السبيل فى حياتنا الارضية .

لقد انتشر المذهب الروحاني كما كان منتظرا انتشارا عظيما بعد تلك الزوبعة الهائلة التى ثارت عليه . وقد زاد عدد المجلات الباطنية في كل بلد وزاد كذلك عدد الجمعيات الروحية وعدد أعضائها ، ومظاهرات من كل نوع تقوم في هذا المجال بكثرة وتأخذ أشكالا غاية في التنوع .

فاذا لم يصادف المذهب الروحاني ما يقفه فلا يمضى غير قليل من الزمن حتي يصبح أكثر من نصف البشر تابعين لفرقه المختلفة .

في مؤتمر الاساقفة والمطارنة للكنائس الانجليكانية الذي عقد في قصر لامبيث

في ٥ يوليو الى ٧ اغسطس سنة ١٩٢٠ وحضره ٢٥٢ من رؤوس الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسيدنى وكيتاون والهند الغربية وميلبورن وامارة بلاد الفال الخ هذا عدا اكثر من مئة أسقف من اكبر الاساقفة تقرر النظر بنوع خاص في أمر الاسبرتسم والعلم المسيحي والتيوصوفية نظرا لتأثيرها العظيم في عقلية أهل العصر الراهن ومع تحذير هذا المؤتمر للمؤمنين عن مزاولة اعمال الفرق المختلفه المذهب الباطني اعترف مؤتمر لامبيث المذكور بقيمة هذه الميول الروحانية التي تكافح المادية بنجاح عظيم ولكن تفاديا من ان يفضي شدة انتشار هذه المذاهب وسلطانها الآخذ في الازدياد الي هدم سلطة الكنيسة واصولها الاعتقادية استحسن كبار الاساقفة المؤتمرين وضع معالم جديدة للنصرانية لتكسب ثقة العناصر التي تشذ كل يوم عن الايمان الرسمي .

فيخطيء الفكر الحر خطأ جسا اذا ظهر أقل تسامحا من الكنائس النصرانية التي تفقد شيأ كثيرا بغلبة المذهب الروحاني الكامل لان مذاهبه المختلفة قد اعلنت مذ الآن حربا ضروسا على الاديان ذات العقائد الجامدة وخصوصا ضد مدعى الوكالة عن الله في الارض .

وبعد كل هذا فالحقيقة ستتغلب على كل هذه الاعتبارات . ونحن باسمها نطالبه باحترام هذا (الوحي الجديد) وبحث ظواهره بحثا علميا في حدود الامكان.

انا لم نعرف للاوكسيجين وجودا الا منذ قرن ونصف قرن وهو العنصر العام الاصلي لاقامة حياتنا . فلقد كان فينا وبيننا وفوقنا وتحتنا ولم يكن احد يحلم بوجوده . فهل الامر كذلك بالنسبة للقوة النفسية وظواهر العقل الباطن والحوادث الروحية التي يقال انها حادثة بتأثير سكان العالم الآخر، وبتأثير الروح وهي تلك القوة العاملة لا مجرد وظيفة من وظائف الجسم ؟

وغير هذا فان طريقة فهم الروح بوساطة العلم العصري ليست الاوراثة كافية من علم ماوراء الطبيعة لا الشائخ وهو لا يتفق والمستكشفات الحديثة ولم يستطع قطان

يلائمها. فقد ظل هذا العلم أيام كان علم التشريح والفيزيولوجيا والبسيكولوجيا أيضاً في دور الطفولة. في ذلك الحين نفسه قرروا هذه الثنوية المحرجة وهي الجسد والروح وقرروا تعلق أحدهما بالآخر تعلقا مطلقا ونتج من ذلك المذهب الذي مؤداه ان الروح ليست الا مظهرا للمخ والجسم.

ولكن في نور المستكشفات الحديثة صار مما يناقض العلم ان لم نقل من الطفولة الخضوع لعلم (يريد علم ما وراء الطبيعة الرمزي) تهدمه التجارب كل يوم في مجموع بنائه بل في تفصيلات تركيبه يصعب علينا ان نحيل الوجود كله الى النظام الذي وضعناه مستعينين بقدر كاننا ولم يكن تفسيره تفسيرا كافيا بمعارفنا الناقصة وبعلم لا يزال في حالة التكون.

فلا يجوز للعلماء الجديرين بهذا اللقب الذين يبحثون في الطبيعة جملة أن ينبذوا العقيدة الروحانية، اما الاخصائيون حتى ذوي الالقاب العالية منهم ممن يمكن تشبيه مخهم بالمحتويات الناقصة لدرج خزانة (دولاب) فان الاسلوب الذي يصفرون به العالم حتى يبلغ ابعاد سماعاتهم أو مموجاتهم أجدر أن يوافق تراكيب عقولهم من أن يوافق الحقيقة.

فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ولكن من الظلم ومما يؤسف له اغلاق النوافذ التي فتحت امام اعينها فبهرتها الانوار.

ان الحوادث التى نواجهها اليوم تحت ضوء العقل الباطن يكون منها غالبا كما يكون من انسان ترفع عن عينيه غشاوة؟

ونحن بدون ان نتابع الشكاك الكبير (شوبنهور) الذي كان يقول ان الانسان يحمل في باطنه أسرارا صميمة، ومفتاح هذا العالم العالي، نستطيع ان نسلم بأن جهود الزمان ستكشف فيما رجحه في أبعد ثنيات ذاتنا اسرار العالم الاخروي المبحوث عنه منذ وجد الانسان.

الفروع الكثيرة للمذهب الباطني التى ترينا من اسرار العقل الباطن مالا يرينا سواها هي التي يعول عليها اليوم لهدايتنا في متشعب التجارب النفسية.

يوجد بجانب البسيكولوجيا التي تدرس الجانب الظاهري لحوادث النفس محل للمذهب الروحاني الذي يدرسها من الجانب الداخلي، فالعلمان يستطيعان ان يتعاونا في ترقيهما مكملا احدهما نقص الآخر ولكن اهل الجمود العلمي سيستمرون بلاشك على رفض هذه الحقائق

الجديدة عن شخصيتنا . فالامر كما قال ج. ب . لامارك مهما تكن شدة المصاعب التي تعترض العاملين لاستكشاف الحقائق الجديدة فان صاعب تعريفها الناس اشدوا عظم ولكن العهد الذي تتغلب فيه تلك الحقائق قادم لا محالة. وكثرة الاسباب التي تحملنا على التأميل تساعد في زيادة سعادة البشرية . فلندع جانبا الشكل الشعري القريب او الطفلي للبقاء بعد الموت ، وهو الشكل الذي يحرك أرواح المؤمنين السذج او الاتباع غير المفكرين الاسبرتسم ولنكتف بأن نخرج من مضطرب الشكوك الكاربة صحة تلك الحوادث الباهرة فنقيم المستقبل على هذا الاساس صرحا اكثر طمأنينة للنفس على الخلود . فالذي يهمنا الآن هو أن نخطو خطوة الى الامام لاجل تخليص سياده الروح الذاتية استقلالها عن المخ والاعضاء . فان هذا سيكون فاتحة عهد يشرق فيه شعورنا الباطن شيأ فشيأ وان كنا لا نستطيع منذ الآن تحديد شكل تلك الحال .

١٦ — (مزايا الحقيقة الجديدة)

الاخاء العام وتزايد حب الانسان لاخيه والتضامن بين الكائنات والعروج باستمرار نحو قمة الكمال الخلقي . كل هذه المزايا تنتج من اول وهلة من انتشار الفتوحات الروحية الجديدة بان تغير حال الانسانية تغييراً كليا .

ونحن ندرك على اقدار متفاوتة مبلغ الترقيات التي تحققت بسببه الآن من الوجهة الاجتماعية ، ولكنا نجهل كل الجهل ما حدث من الترقيات المعنوية في ارواحنا لانها ترقت وستترقي في الكمال فاذا اردنا أن نقدر أقدار الصور التي تتعاصى على الادراك اضطررنا الي البعد عن الغاية التي نرمى اليها في هذا البحث

والمعتبر على وجه عام اننا لا نملك وسائل لتقدير قدر الترقي الادبي الذي تم في خلال هذا القرن . ولكني حاولت في كتابي (التقدم والسعادة) ان أضع أسلوبا حائزا الكل الضمانات العلمية يسمح بتجلية قانون التكامل الادبي فظهر منه ان الانسانية في ايامنا هذه أرقي في الوجهة الادبية كثيرا مما كانت عليه في القرون الماضية .

ولا بد من أن نصل الى مثل هذه النتيجة اذا امتحنا تطور ذاتنا الداخلية .

بعد مضي العهد اللاشعوري لأسلافنا وهو ميزة تميز الحياة الحيوانية دخلنا في دور الشعور بمنافعنا الادبية والمادية المباشرة ، فحدث لنا بذلك شعور شخصي . وهذا الشعور الشخصي يتمشى الآن نحو شعور عالمي يفتح للاجيال المقبلة آفاقاً من الجمال والهناء لاحد لها .

اليك أمثلة تدل على ذلك : منذ قرون كان الذين يندبون انتخاص البشر والعقول العالية يشتغلون لاجل أن توجد على الارض الاخوة العامة ولكن رغما عن دور المحنة العظيمة (يريد دور الحرب العالمية الاخيرة) فاننا نعمل اكثر مما كنا نعمل لابطال الحروب وتغليب أصل التقرب الاخوي بين الشعوب ، ولمحق التفاوت الاجتماعي والسياسي . والمذهب الروحاني الذي يفتح الآن أركان الارض سيساعد على صورة مؤثرة في اقامة هذا التضامن الجديد بين الكائنات . فان حوادث التلباتيا (التأثير والتأثر عن بعد) قد أعطى الحياة معنى جديدا . فقد صارت الحياة إلهية حقيقة . وهي متى تشبعت وتأيدت بروح التضامن بين الكائنات وبواطنة حب الخير للغير فانها تملأ ما يحيط بها روحا سماويا وهذه العوامل التكميلية الجمة التي لا يحصى لها عدد في اطوائه (هذا الوحي الجديد) يجعله ذا قيمة لا تقدر . فيجب علينا أن نستقبله باقبال عظيم ولنلجأ اليه في انجاز الوعود السماوية التي يعدها أرواحنا المتأملة . لا أن نصارحه العداوة ونكاشفه الجفاء . ولنفكر في القيمة العظيمة التي يعطيها لترقينا الروحاني . واتخاذنا أسلوبا عمليا حسنا في دراسة هذه الظواهر يفرض علينا الايمان بهذا الترقي الجديد للناس وهو ترق يتابع طريقه في وسط غياض ملأى بزهور إلهية ؛

فلنعد ذكرى هذه الكلمات الحكيمة لمونتسكيو وهي :

« اذا استطعت أن أجعل الناس يشعرون ببواعث جديدة لمحبة واجباتهم وأوطانهم وشرائعهم لاعتبرت نفسي أسعد الخلق »

وانا اعترف بكل اخلاص بأن اقتناعي التام بنجاحي في خدمة الحقيقة وسعادة اخواني الآدميين بهذه المباحث يحثني وتشجعني على نشر المقررات المعزية لهذا الوحي الجديد وحمل الناس على تحسين طرق البحث فيه .

(جان فينو)

فهرست هذه الرسالة

صفحة

صفحة

على أطلال المذهب المادي

ننشر تحت هذا الاسم العام كل ما نكتبه وما نؤلفه في علاج داء هذا العصر وهو الالحاد. وهذه الحلقة الرابعة من هذه السلسلة العلمية وهي الجزء الأول من كتاب يقع في ثلاثة مجلدات للعلامة الكبير كاميل فلامريون نشره تحت عنوان :

الموت وغامضته

ما قبل الموت

نقله الي العربية

محمد فريد وجدي

طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين
سنة ١٣٤٦ الموافقة لسنة ١٩٢٧



بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً ما اقترح عليّ، أن اوالي الكتابة في تقويم الاخلاق ،صدا لتيار الاباحة التي عمت جميع طبقات الناس في العهد الأخير، وهددت بتدهور ادبي عام لامرد له الا بقارعة عظمي لاتبقي ولا تذر . فكنت اعتذر اليهم عن القبول بأن هذه الاباحة لاترجع الي الاسباب القريبة الظاهرة للناظرين ، بل الي علة ابعد غوراً ، سطت على اصول العقائد الموروثة فاجتثتها، بتأثير الفلسفة المادية ، بحيث لا يتأتي اعادة سلطانها على العقول الا من طريق العلم الطبيعي، لا من طريق الوعظ والارشاد

ذلك انه قد حدث تطور ادبي ضخم، في العصور المتأخرة، فرض علي العقول ان لا تسلم بوجود شيء أو عدم وجوده الا بدليل محسوس

جر هذا التطور الأدبي الجلل المفكرين الي وضع جميع المسلمات القديمة علي بساط التحليل ، وسلط عليها أدق أساليب التمحيص ، فلم تقو واحدة منها علي النقد، حتي العقيدة بوجود الشخصية الانسانية متميزة عن الجسم . فعم الالحاد اوروبا وامريكا، وانتقل الينا من طريق العدوى . وكان من اثره نشوء ميل شديد الي ابلاغ النفس مشتهياتها الي اقصي مايصل اليه الامكان من مدى هذا العمر القصير

الا ان السلطان لم يتم لهذا الالحاد، فلم تكد تأتي سنة ١٨٤٦ حتي ظهرت في امريكا حادثة خارقة للعادة، اتينا علي تاريخها في الجزء الثاني من كتابنا علي اطلال المذهب المادى فتهافت كثير من علماء امريكا لتحقيقها، وكتبوا في صحتها كتبا ورسائل. فأيقظ ذلك شوق الناس الي تمحيص أمثالها في كل مكان ، فتألفت من مجموع هذه الجهود حركة قوية اثارت الصحافة في أوروبا وامريكا اثارة عنيفة ، فطلب الناس ان يدلي العلماء برأيهم في هذه الامور، فانتدبت في انجلترة لجنة علمية مؤلفة من نحو ثلاثين عالما من اكبر علماء الطبيعة، لفحص هذه الخوارق، وكان ذلك سنه ١٨٦٩ فبحثت هذه المسئلة ثمانية عشر شهراً وكتبت عنها تقريرا وقع في ٥١٤ صفحه أيدت فيها صحة هذه الخوارق بالاجماع، بعد أن بذلت كل ما في امكان العلم ان يأتي به من اساليب التثبت والتمحيص

فكان من آثار صدور هذا التقرير العلمي الخطير ان اغرى العلماء في كل بلد متمدن بفحص هذه الامور، منذ هذا التاريخ . فكانت ثمرة هذه المحاولات وجدان ادلة عملية ، تثبت وجود العالم الروحاني والروح الانسانية وخلودها، اثباتا علميا . ولم يبق

الا تقرير تدريس تلك المباحث في الجامعات الكبرى كفرع للعلوم الطبيعية . وقد بادرت الي تقريرها حكومتا فنزويلا والبرازيل من أمريكا بأوامر عالية منذ ثلاث سنين.

ولا تزال المباحث في هذه المسائل آخذة في النماء بحيث صارت الشغل الشاغل للعالم العلمي اليوم

ولا عجب في هذا، فان ثبوت وجود العالم الروحاني، والروح وخلودها، ثبوتاً علمياً من طريق التجربة، يجر الي حدوث تطور ادبي ينقل البشرية الي مكانة من الرقي المعنوي لا يتخيلها اليوم اكثر الناس تفاؤلا ، وتوجد للعلم الطبيعي معارف صحيحة علي أصل الحياة والوجود، وجميع غوامض الكون، يعد ما لدينا منها اليوم من هذيانات العقول الطفلية

وقد وقف جم غفير من رجالات العلم في اوروبا انفسهم للتبشير بهذا التطور الجديد، علماً منهم انه لا شفاء للانسان من داء الاباحة الذى هو فيه اليوم الا بهذا العلاج الجليل . وقد ادركنا نحن ، منذ ان تصدينا للكتابة في تقويم عوج النفوس، صحة هذا الرأى، فعمدنا الي نشر أخبار هذه الفتوحات العلمية بكل ما اوتيناه من ثبات ومثابرة. واليوم نقدم لقراء العربية ترجمة المجلد الأول من الكتاب القيم للعلامة الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) الذى نشره منذ خمس سنين باسم (الموت وغامضته). وكان له من التأثير ما كان ينتظر لمثله في ذلك العالم الآهل بالعلماء والمفكرين

يقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات، وقف (الأول) منه علي اثبات الروح بالادلة العملية ، واورد في (الثاني) الحوادث الخارقة للعادة التي تحصل في اثناء الموت، كظهور المحتضر لاقربائه البعيدين، وخص (الثالث) بايراد المشاهدات المقررة في ظهور الارواح بعد الموت، واثبات وجودها لذويها، بادلة محسوسة، حتي المثول امامهم متجسدة في صورتها التي كانت عليها قبل الموت. اعتمد في كل ذلك علي تجاربه الخاصة وتجارب العلماء الثقاة العاملين

وقد عمدنا الي اسلوب حسن في ترجمة هذه المجلدات الثلاثة، فحذفنا كثيراً من الاقوال التي لا تمس اليها الحاجة، حتي لا يكون الكتاب مملا للقارئين . وحرصنا كل الحرص علي ترجمة أقوال المؤلف ترجمة حرفية، كما هو دأبنا فيما ننقله عن العلماء الغربيين

فهاهي ترجمة المجلد الاول نقدمها للقارئين ، راجين ان يكون لها من الاثر لديهم، ما كان لأصل الكتاب عند الغربيين

محمد فريد وجدى

الموت وغامضته

قبل الموت

قال العلامة كاميل فلامريون :

ان موضوع هذا الكتاب محدد بالغرض من وضعه وهو : تحقيق البراهين الحسية على البقاء بعد الموت . فلن يجد فيه القراء لامباحثات أدبية ، ولاعبارات جميلة شعرية ، ولا نظريات تختلف في قوة تأثيرها على الاذهان ، ولا افتراضات علمية ، ولكنهم سيجدون حوادث مرئية فقط مقرونة بنتائجها المنطقية

هل سنموت موتاً نهائياً ؟ هذه هي المسألة . وأي شيء سيخلد منا ؟ ان قيل ان خلودنا قائم بتعاقب أخلافنا ، وبما نتركه وراءنا من أعمالنا ، وبما نجلبه للانسانية من الرقي بجهودنا ، فهذا يعتبر مزاحا محضا . لاننا ان متنا موتاً نهائياً فلن نشعر بشيء من خدماتنا الباقية بعدنا ، وستتأدي الارض ومن عليها الى التلاشي . اذن فكل شيء فان

لاجل معرفة ما اذا كانت الروح تبقى بعد الجسد يجب أولا معرفة ما اذا كانت هذه الروح ذاتها موجودة مستقلة عن هذا التركيب المادي . فعلينا اذن أن نؤسس القول بوجودها على قواعد علمية من المشاهدات الحسية ، لاعلى العبارات الخلابة أو علي الادلة الكونية التي اكتفت بها العلوم الكلامية في كل زمان الى هذه الايام.وقبل كل هذا يجب علينا أن نتحقق من نقص النظريات الفزيولوجية المسلم بهـا تسليما عاما والتي تدرس علي حالة رسمية

---

(1) *"La mort et son mystère,, Par Camille Flamma - rion. Chez Ernest Flammarion, 26 Rue Racine, Paris*

المــادية

مذهب ضال وناقص

« لنحذر خدع الظواهر »

كوبرنيك

ليس فى الناس من يجهل (الفلسفة الوضعية) لاوجوست كونت وأصالة ترتيبه للعلوم متنزلا تدريجيا من الكون للانسان، ومن علم الفلك الي علم الحياة (البيولوجيا).
وليس في الناس من يجهل أيضاً (ليتريه) خليفة اجوست كونت، فان قاموسه ماثل فى جميع المكتبات ومؤلفاته منتشرة فى كل مكان. وقد عرفت شخصه، وأقول انه كان عالي القيمة، عالما، من مؤلفى دائرة معارف القرن الثامن عشر ومفكراً بعيد الغور، ولكنه كان ماديا ملحداً عن اقتناع، ومخلصاً للدرجة القصوى. وكانت سيماه لاتناسب جمال روحه. فكان ممن يصعب علي الناظر اليهم أن لايفكر في أصلنا القردى. ومع هذا فقد كان عقله في أعلي درجات الاصالة، ونفسه نادرة في الكرامة. وكان لايبعد عن مرصدي كثيراً، وكانت امرأته تقية جداً. فكان يوصلها كل أحد للصلاة بكنيسة سان سولبيس مسوقا بطيب قلبه وصفائه، ولكنه ماكان يدخل معها اليها. والاستاذ (لودانتك) الذي خلفه وهو ملحد ومادى مثله مر بالكنيسة فى جنازته مراعاة لشعور امرأته وهي أيضاً متدينة تقية، ولكنهم يأسفون لحالتها هذه اذ يحبون أن يروا النساء مشايعات لآراء أزواجهن. وقد كان أستاذ الالحاد هذا طيب القلب جداً كسلفه. وهذا كله مخالف للرأي العام. وكان علي هذه الشاكلة (جول سوري) هذا (الملتهم للقسوس) وقد دفنه هؤلاء بعد أن صلوا عليه صلواتهم المقررة. فما أبعد المنطق عن هذا العالم. ولكن المذاهب لاتتحكم دائما فى سيرة اصحابها، فقد يكون الانسان كاتوليكيا عاملا بدينه، ولا يمنعه ذلك من أن يكون كاذبا في حديثه وعاديا على

حقوق أخيه . ويمكن أن يكون ماديا وهو مع ذلك شريف للغاية . وقد عرفت أيضاً ارنست رينان العظيم يرفض الوظيفة الكهنوتية التي كانت تؤدبه اليها مباحثه اللاهوتية مسوقا باخلاصه الاصيل وبحبه للتنزه عن كل رياء

هذه العقول العالية يجب أن يحترموا في عقائدهم الخاصة كما كانوا يحترمون عقائد غيرهم ، ولكن يمكننا مناقشة آرائهم وهم لايدعون انهم معصومون عن الخطأ

وقد اشتغل ليتريه بالمسائل النفسية التي عولنا على بحثها هنا ، فنستطيع أن نعتمد على براهينه كاعتمادنا على براهين (تين) نديده، باعتبار انهاقواعد الحجج المادية الراهنة. فلا نخش أن نكافحهم وجها لوجه، وأن نقبض على الثور من قرنيه

عقد (ليتريه) فصلا في كتابه (العلم من الوجهة الفلسفية) على الفزيولوجية النفسية صرح فيه بما يأتي :

« اليوم لايمكن الشك في ان الظواهر العقلية والخلقية هي من الحوادث الخاصة بالنسيج العصبي، وان الحالة الانسانية ليست الا حلقة ، بل أعظم حلقة في الواقع ، من سلسلة ممتدة ليس لها حد مقطوع الى آخر درجة من الحيوان، وانه بأي عنوان يبتديء الانسان، على شرط أن يستخدم الاسلوب الحسي والمشاهدة والتجربة، يكون عاملا في مجال الفيزيولوجيا لم يخرج عنه . وأنا لا أتصور فيزيولوجية لا تشغل منها نظريات العواطف والافكار بكل مافيها من السمو محلا عظيما »

(مناقشة كاميل فلامريون للتريه)

قال كاميل فلامريون بعد نقله هذه القطعة :

هذه هي قاعدة المذهب المادي في الروح . وأنا أدعو القاريء أن يزن بدقة هذا النوع من الفهم

قالوا : لايجوز لنا أن نسلم بوجود الروح « لاننا لم نر قيام أية خاصة بدون مادة ، ولاننا لم نصادف الجاذبية بدون جسم ثقيل، ولا الحرارة بدون جسم كهربائي، ولا الالفة الكيماوية بدون مواد قابلة للاتحاد، ولا الحياة والحس بدون كائن حي حساس مفكر ... »

والحال ان هذا التدليل معيب لابتنائه على التسليم بأمر يحتاج هو نفسه الى دليل يثبته ، وذلك الامر هو كلمة (الخاصة)

وتشبيه الفكر بالجاذبة وبالحرارة وبالآثار الآلية ، الطبيعية والكيماوية للاجسام المادية ، فيه تسوية بين شيئين مختلفين جداً لاتزال مسئلتهما معلقة وهما الروح والمادة

فارادة الكائن الانساني ، ولتكن ارادة الطفل ، هي شخصية شاعرة ، ولكن الجاذبة والحرارة والضوء والكهرباء فهي غير شخصية ولاشاعرة ، ثم هي في بعض الحالات المادية ، ضرورة عمياء ، وهي نفسها مادية محض . فالخلاف شاسع بين ركني هذا التشبيه كما بين الليل والنهار

فهذا التدليل العلمي نفسه فاسد من أصله . فالحرارة مثلا لاتأتي دائما من جسم حار ، والحركة التي ليس فيها أدنى حرارة يمكن أن ينتج منها حرارة ، والحرارة نفسها شكل من أشكال الحركة . والنور نفسه شكل من أشكال الحركة . وطبيعة الكهرباء لاتزال مجهولة

واني لأعترف بأني لاأفهم ان رجلا في قيمة « ليتريه » زعيم المذهب الوضعي يكتفي بمثل هذا التعليل ولا يتنبه الى انه دائر حول التسليم بأصل هو نفسه يحتاج لدليل أو حول لعب بالالفاظ . لان هذا التدليل معتمد على كلمة « الخاصة » والذي كان يجب اثباته بالحس أولا هو ان الفكر خاصة من خواص المادة العصبية ، وان الشيء غير الشاعر يمكنه أن ينتج الشيء الشاعر ، مما هو في الاصل متناقض

ان الانسان يتجاسر بصعوبة على تشبيه قطعة من الخشب بقطعة من الرخام أو بقطعة من المعدن ، ولكنهم لايجدون بأساً من تشبيه الروح والعقل المفكر وعاطفة الحرية والعدالة والرحمة والارادة بوظيفة من وظائف المادة العضوية . فان (تين) *Taine* يؤكد بأن المخ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء . ألايظهر من هذا ان محل التعقل لدى هذه العقول قد غشي مقدما بعماية لاتقل عن عماية اللاهوتيين ؟ أليس فيه دلالة على ان هؤلاء العلماء كانوا منقادين لرأي ليس عليه دليل ، ولاقتناع مذهبي محض ؟

يهمنا ونحن في بداءة هذه المناقشة أن لا نعتمد على الكلمات الفارغة . فما هي المادة؟ هى فى العرف العام ماندركه بحواسنا أى هي مايرى وما يلمس وما يوزن. نسلم بذلك. والصحف الآتية ستثبت ان في الانسان عنصراً مستقلا عن الحواس المادية، أى أصلا عقلياً شخصياً يفكر ويريد ويعمل ويظهر بعيداً عن جسده ويري بغير العينين ويسمع بغير الاذنين ويكشف المستقبل الذي لم يوجد بعد ويبين أشياء مجهولة . فافتراض ان هذا العنصر النفساني الذى لا يرى ولا يلمس ولا يوزن خاصة من خواص المخ قول بلا دليل وتعقل متناقض ، كما لو قيل ان ملحاً يستطيع أن ينتج سكراً ، وان السمك يمكنه أن يكون من سكان الارض القارة

الذى نريد أن نبينه هنا هو ان المشاهدة الحسية نفسها ـ (وليس لنا أسلوب غير أسلوب ليتربه وتين ولودانتك وأئمة المادية ونحن نرفض المذاهب البيزانتية في الاعتماد على الالفاظ فانها من الهذيانات) ـ قلنا الذى نريد أن نبينه هنا هو ان المشاهدة العلمية والتجربة تثبت ان الكائن الانساني ليس بجسد مادى بحت متمتع بخصائص متنوعة، ولكنه كائن نفساني أيضاً متمتع بخصائص تخالف خصائص الجسم الحيواني

كيف استطاعت عقول عاليـة من أمثال كونت وليتربه وبرتلو أن تتصور ان الوجود الحقيقى لا يخرج عن دائرة تأثير مشـاعرنا وهى الآلات البعيـدة المدى فى القصور والنقص ؟ ان السمكة لتستطيع أن تعتقد بأنه لا يوجد شيء خارج الماء ، والكلب ان تصدي لترتيب المعارف الكلبية لا يرتبها اعتماداً على النظر كالانسان ولكن اعتماداً على الشم . والحمائم السياحة تعول على الحاسة التي تهديها فى سيرها . والنملة على حاسة عصبها المقدم الخ الخ

الروح متسلطة على الجسد . فقدراته ليست بقائدة ولكنها منقادة . وهذا النظر العقلى نفسه ينطبق على الكون برمته، وعلى العوالم الدائرة في الفضاء، وعلى النباتات والحيوانات . فالورقة من الشجرة ممتعة بأعضاء ذات وظائف . والبيضة التى تفقس ممتعة بأعضاء كذلك . وهذا التمتيع يعتبر من الامور الصادرة عن عقل

فالعقـل العام ظاهر في كل شيء ومالىء الوجود ، وهو كذلك بدون مخ . ومن

المستحيل أن يحلل الانسان آلات العين والابصار والاذن والسمع بدون أن يستنتج ان عضو البصر وعضو السمع مصنوعان بعقل . وهذا الاستنتاج يكون أكثر وضوحا اذا حللت مسألة تلقيح زهرة وحيوان وانسان، وتطور البيضة النسوية الملقحة ووظيفة المشيمة (الخلاص) وحياة الجرثومة والجنين ، وتكوين هـذا الكائن الصغير في بطن أمه، والاستحالة العضوية للمرأة وتكوين اللبن في ثديها وميلاد الطفل والارضاع وتطور الطفل جسديا ونفسيا . كل هذه الامور مظاهر لاتنقض لقوة مدبرة عاقلة ترتب كل شيء وتقود اصغر الجواهر المادية بمثل النظام الذي تقود به الكرات الكوكبية أو النجمية في هذه اللانهاية السماوية . وهذا العقل لم يتولد من مخ . ولقد قيل بحق انه اذا كان الله قد خلق الانسان على صورته فقد قابله الانسان علي ذلك بمثله . واذا كانت الخنفساء تتخيل خالقا لم تتخيله الا خنفساء كبيرة . ولكن الاله الانساني الذي تخيله اليهود والنصاري والمسلمون والبوذيون لم يوجد قط . وعبارات الاله الآب وجيوفاه وجوبتير ليست الا كلمات رمزية

فاذا كانت الذرية الآدمية مخلوقة في أحسن تقويم من الوجهة الفيزيولوجية فهي لا تزال بعيدة عن الكمال فيما يختص بآلام الامومة. فلم كانت هذه الآلام؟ وماحكمة الاوجاع القاسية التي تلازم نهاية الانسان؟ تراها الكنيسة عقوبة علي خطيئة حواء. فياللمزاح؟ فهل وجد آدم وحواء في زمن من الازمان ؟ ألا تتألم اناث الحيوانات ؟

اننا نرى الطبيعة لاتأبه بالادوار المؤلمة للمرأة ، ولا بالشدائد الملازمة لخروج ما يخرج منها. فالطبيعة هنا مجردة حقيقة من الرحمة ويلزم منه أن يكون الله الرحيم ليس برحيم نحو مخلوقاته ، بل ليس له مثل عواطفنا الانسانية. وتكون العذارى المترهبات المنقطعات لتخفيف ويلات الانسان أفضل منه. هذه مسأله خطيرة الشأن رغما عن ثقتنا في وجود العقل المدبر في الطبيعة

اننا لم نفهم ماهو الله. هذا أمر من الوضوح بمكان. وماذا يثبت هذا العجز منا؟ يثبت انحطاطنا الروحاني

أما من جهة وجود العقل المدبر والفهم والنظام العقلي في كل شيء فهذا أمر لا يمكن

نكرانه . والعلم التجريبي يقف في الطريق اذا قرر أن جميع الحوادث الكونية تستحيل في نهاية تحليلها الي المذهب الثنوى المادة والحركة ، أو الى التوحيد الطبيعي المادة وخواصها . فالتاريخ الطبيعي وعلم النباتات والفيزيولوجيا الحيوانية والانتربولوجيا (علم التاريخ الطبيعي للانسان) تكشف المشاهد عن عنصر متميز عن المادة والحركة هو الحياة . ألم يبين لنا (كاودبرنار) الفزيولوجي ان الحياة ليست نتيجة الذرات المادية؟

وزيادة على هذا فان الوجود ينكشف لنا علي حالة حركة محضة ، لان الحركة ملازمة للذرات أنفسها وهذه الحركة ليست من العالم المادي لوجود النظام في الكل من كائنات وأشياء

المذهب الذى يعتبر الفكر الانساني وظيفة من وظائف المخ أو الذى يري توازيا وتوازنا بين عمل المخ وعمل الفكر ، نستطيع أن نعده كاعده البسيكولوجي (بيرغسون) مذهبا ناقصا كل النقص

يقولون بأن الاشياء التي يتذكرها الانسان مخزونة في المخ على حالة تحولات مطبوعة في طوائف من العناصر التشريحية فاذا زالت من الذاكرة فماذلك الا لان تلك العناصر التشريحية التي هي مستقرها تكون قد فسدت او دثرت. والتأثيرات التي تأتى من الاشياء الخارجية تبقى فى المخ كما تبقى على الزجاجة الفوتوغرافية الحساسة أو على صفيحة الفونوغراف

لامشاحة في ان هذه التشبيهات سطحية فانه اذا كان التذكر النظري لشيء من الاشياء مثلا ناشئا من تأثير هذا الشيء على المخ ، فلا يكون لهذا الشيء ذكرى واحدة بل ألوف من الذكريات أو ملايين لأن أبسط الاشياء وأثبتها يتغير فى صورته وحجمه ولونه على حسب النقطة التي ينظر اليه منها، اللهم الا اذا قصرت نفسك على حد معين كلما نظرت اليه ، وكانت عينك تجمد في حجاجها فترتسم على شبكيتها الصورة بعد الصورة ثم تنتقل الى المخ صور لايحصي لها عدد وغير قابلة لان يرتسم بعضها على بعض

فماذا تكون الحال اذا كان التأثير البصرى واقع من شخص تتغير صورته، وجسمه

متحرك ، ويختلف لباساً وصحباً في كل مرة تنظر اليه فيها ؟ مما لانزاع فيه ان ضميرك لايحفظ عنه الاصورة واحدة، وتكاد تكون لك ذكرى غير قابلة للتغير عن كل شيء أو كل شخص تقع عليه عينك . وهذا دليل واضح على أن في هذا الامر شيأ غير الاختزان الميكانيكي الذي يعللون به قوة الذكر في الانسان

ويمكننا أن نسري ماقلناه أيضاً على الذكرى السمعية . فان الكلمة قد يلفظها أفراد مختلفون أو فرد واحد في أوقات مختلفة وفي حالات متباينة فتعطي نغمات لايشبه بعضها بعضاً فكيف يصح بعد هذا تشبيه الذكرى السمعية بنظرية الفونوغراف

هذا الاعتبار وحده يكفي لان يشككنا في النظرية التي تعزو مرض نسيان الكلمات الى فساد او الى دثور الذكريات المطبوعة تشريحيا في القشرة المخية

ولكن اننظر مايحدث في هذه الامراض على رأى هذا المؤلف نفسه (يريد بالمؤلف ليتريه المتقدم ذكره) فقد قال :

« اذا كانت اصابة المخ خطيرة وذكرى الكلمات متأثرة بشدة فقد يحدث ان تهييجاً ما او انفعالا ما يعيد فجأة الذكرى، التى كان يظن أنها ضاعت نهائيا »

« أفيمكن هذا اذا كانت الذكرى مطبوعة فى المادة المخية وقد فسدت هنا أو دثرت ؟ فالامر يجري كما لو كان المخ أداة للذكر لا انه خازن له . فالمريض بفقده الكلام يعجز عن وجدان الكلمة متي احتاج اليها . ويظهر كأنه يدور حولها وليس له من القوة مايجعله يضع يده على مبتغاه منها ، والعلامة الخارجية للقوة في المجال الفزيولوجى هي الضبط دائما . ويظهر أن الذكر تسرى عليه هذه القاعدة أيضا . وأحيانًا بابدال المريض الكلمة الضائعة بجمل متعددة يدخل تلك الكلمة في واحدة منها وهو لايدرى

« فلنعمل الفكرة الآن فيما يحصل في مرض فقد الكلمات الآخذ في التفاقم ، أعني لما يكون نسيان الكلمات متدرجا فى درجات الخطورة ، فنجد دائما ان الكلمات تزول من الذاكرة بترتيب محدد كما لو كان المرض مليا بقواعد الآجرومية . فتزول اولا اسماء الاعلام ، ثم تليها الكلمات العامة ، ثم النعوت ثم الافعال طبقة بعد طبقة

فيصيب المرض كل طبقة منها الواحدة بعد الاخرى

« نعم ولكن المرض يمكن أن يحدث من أسباب كثيرة الاختلاف . وأن يأخذ أشكالا شديدة التباين . وأن يبدأ في جهة ما من المخ ثم يمتد فى أي اتجاه كان . ولكن نظام ضياع الذكر يبقى علي ماوصفناه ، فهل هذا يكون ممكنًا اذا كان المرض فى المحفوظات نفسها ؟

«واذا كانت المحفوظات ليست مختزنة فى المخ ففى أى محل تختزن ؟ وهل لقولنا (أين) معنى اذا كان كلامنا عن شيء آخر غير الجسم ؟ اننا نعلم ان القوالب المطبوعة يمكن حفظها فى علبة ، وان الاسطوانات الفونوغرافية يمكن ايداعها في بيوتها. ولكن كيف تحتاج المحفوظات التي ليست بأشياء مرئية ولامحسوسة لمكان يشملها وكيف يعقل أن يكون لها مكان ؟ هل هذه المحفوظات فى شيء غير العقل . واذا كان العقل هو الوجدان نفسه فالوجدان معناه قبل كل شيء ذاكرة » انتهى

(مناقشة كاميل فلاماريون للاستاذ لنزيه)

قال كاميل فلاماريون عقب ايراده هذا الكلام :

اننا نستطيع أن نقول مع هذا المفكر العظيم ان كل شيء في أجسادنا يحصل كما لو كان الجسم مسخراً للروح . ومن هنا فلا حق لاحد ان يفترض بأن الجسم والروح متلازمان بحيث لاينفك أحدهما عن الآخر

هذا مخ يعمل ، وهذا وجدان يحس ويفكر ويريد . فاذا كان عمل المخ يقابل مجموع عمل الوجدان اي اذا كان هناك توازن بين المخي والعقلي ، فيمكن ان يخضع الوجدان لما قدر على المخ ، ويكون الموت نهاية الاثنين ، وتكون التجربة على الاقل لاتثبت الضد ، ويستحيل أمر الفيلسوف الذي يثبت بقاء النفس الي الاستناد على قاعدة من علم ماوراء الطبيعة ، وهي قاعدة واهية على وجه عام . ولكن اذا كانت الحياة العقلية تطغى على الحياة المخية ، واذا كان المخ لايترجم بحركاته الا عن جزء صغير ممايحدث فى الوجدان ، فالبقاء بعد الموت يكون من الرجوح بحيث يلقى عبء التدليل علي المنكر لا على المثبت . لان الدليل الوحيد الذى لنا علي تلاشي الوجدان بعد الموت

هو أننا نرى الجسم يتحلل ، ولكن هذا الدليل لايكون له اقل قيمة اذا كان استقلال الوجدان عن الجسم ، ولو استقلاله الجزئي ، صار من الحوادث الداخلة فى نطاق التجربة

وان (برغسون) علي كونه من علماء ماوراء الطبيعة يظهر انه اكثر اعتمادا علي الحس من الطبيعي (ليتريه) نفسه

فالروح ليست المادة . ولم يثبت بدليل أنها وظيفة من وظائف المخ او خاصة من خواص المادة المخية قدر عليها ان تموت معه

وقد يسأل المتسائل كيف ان رجلا عاقلا في سعة ادراك (تين) مثلا ممن يقدرون ادراك وتأليف كتاب او مشروع وتنفيذه حق قدره ، وهو نفسه واضع كتابا خاصا في الادراك ، يستطيع ان يعزو ابتكار عمل فلسفي الى افراز تركيب ذى اجزاء مادية مؤلفة لمخ . فان عمل العقل الشخصى ظاهر ، وهو من الوضوح والثبوت بحيث لايكسفه الا جمود مذهبي

المخ عضو الفكر ، لامشاحة فى ذلك ولا يتأتي لاحد نكرانه ، ولكن المخ فى جملته علي عكس ما كانوا يسلمون به من قبل ، ليس ضروريا لوجود الفكر ولا الحياة

ويمكننا ان نضيف امثالا كثيرة على الامثال التي اتينا بها من امراض الذاكرة التي نوهنا بها وكلها تؤدى الى هذه النتيجة

قدم صديقي العلامة (ايدمون بيرييه) الى مجمع العلماء فى جلسته المنعقدة فى ٢٢ دسمبر سنة ١٩١٣ مشاهدة للدكتور (روبنسون) تتعلق بشخص عاش مدة سنة ، ويكاد يكون ذلك بلا ألم ولا أدنى اضطراب عقلي ظاهر ، مع ان مخه كان قد استحال الى عجينة مائعة بسبب قرحة عظيمة ممدة «اى ذات مدة»

وفي يوليو سنة ١٩١٤ نقل الدكتور «هالوبو» الي الجمعية الجراحية حديث عمل جراحي عمل في مستشفي «نيكر» لشابة وقعت من المترو . فشوهد بعد خرق جمجمتها ان جزءاً عظيما من المادة المخية قد استحال الى عجينة مائعة بكل معنى هذه الكلمة فلما نظف الجرح وسحبت تلك العجينة منه وأقفل الجرح شفيت المريضة

وقد بين الدكتور «جيبان» المجمع العلمي في ٢٤ مارس سنة ١٩١٧ بعمل جراحي علي جندي بأن بتر جزء من المخ لايمنع بقاء الخواص العقلية

ويمكننا ان نأتي على شواهد اخري . فقد يبقى من المخ جزء قليل أحياناً فيستخدم منه العقل بمهارة مايستطيع استخدامه

فاذا كان الجراحون لم يجدوا الروح على اطراف مشارطهم وهم يشرحون جسماً فذلك لأنها ليست هنالك . واذا كان لايعتبر الاطباء والفيزيولوجيون خواصنا النفسية الا خواص للمادة الحية ، فانهم ضالون ضلالا بعيداً . فانه يوجد في الانسان شيء غير المادة البيضاء والمادة السنجابية المخ

يمكن ان يعترض معترض بقوله ان خاصة الفكر تتبع حالة المخ وانها تضعف بتقدم السن كالمخ نفسه . ولكن أليس الآلة هي التي تضعف في هذه الحالة اي الجسم وليس العقل ؟ قد يشاهد في اكثر الاحوال عند المشتغلين الكبار بأفكارهم ان عقلهم يبقى قويا الي آخر أيام حياتهم . فان كل المعاصرين لي يعرفون في باريز كتابا مثل فيكتور هوجو ، ولامارتين ، ولوجوفيه ، ومؤرخين مثل تييرس ، وميتيه ، وهنري مارتان ، وجهابذة مثل بارتلمي سانتيلير « ١٨٠٥ ١٨٩٥ » وعلماء مثل شيفرول « ١٧٧٦ — ١٨٨٩ » قد أظهروا الي سن متقدمة جداً رجولة تامة وشبيبة روحية بينة

يعرّف بعض الفيزيولوجيين النوع البشرى منذ زمان بعيد بأنه الكائن المتعقل ، فهل الذى اوجد هذا الامتياز للانسان هو مجتمع الذرات المادية المكونة لمخه ؟ وهل التجمعات الكيماوية لذرات من الايدروجين والكربون والازوت والاكسيجين الخ يمكنها ان تعقل وان تفكر ؟

البيولوجيا علم حديث الظهور . وهي في شكلها الجبرى فلسفة لاعلم . وخاصة الفلسفة هي اعتبار الظواهر العقلية والنفسية نتائج للتفاعلات الفزيولوجية . والتعليلات الفيزيولوجية اذا جاءت علي صور تعبيرات مجازية كانت اعترافا صريحا بالعجز

فانهم يعتبرون العثور علي كلمة جديدة اكتشافا علميا ، والتفسير الظني لمشاهدة تعليلا طبيعيا

فالاحساس والاصل الحيوي لايزالان سرين مكنونين كما كانا عليه في القرون الخالية رغماً عن المكتشفات العصرية الدالة علي الاصل الفيزيولوجي المحض للحركات العضلية . ولا يستطيع واحد منا أن يمتنع عن الاعتراف بأن فيه بجانب جميع الظواهر الفزيولوجية، وبعبارة أحسن، فوق جميع الظواهر الفيزيولوجية اصلاعقلياعاملا باستقلال بدونه لايمكن تعليل شيء ، وبه يمكن تعليل كل شيء

لنقل عقب هذا بأن المظاهر الطبيعية المعروفة عن الروح ، وهي التي تكلمنا عنها هنا، تنمحي أمام الظواهر الطبيعية التي سنأتي عليها في الفصول التالية

وكان يجب على الطب ان يعتمد على هذه الاعتبارات فيؤثر لا على الجسد الطبيعي وحده بل وعلى الحركة العقلية أيضا . فان عدداً من الامراض التي استعصت على الوسائل العلاجية امكن شفاؤها بالتأثير العقلى . ولدينا من الشواهد على تلك الشفاءات التي تمت بالتنويم المغناطيسي والتلقين العقلى والمعجزات المزعومة للعقيدة الدينية من منذ وجود هيكل « ابيدور » وعبادة « اسكولاب » الى « لورد » ومنافساتها « ١ » والجبيبات المؤسسة على العلاج بالامراض المشابهة للمحلول العشرين، لاتؤثر هذه الوسائل كلها بفضل الاقناع العقلي ؟ نعم فان الاعتقاد يحرك الجبال

أجل . الروح ليست بالجسم . ولا هي مستفادة منه . بل هي تؤكد بأنها ممتازة عنه . وليس فى الناس من لايعرف فضل الارادة. فالثبات فى هذه الارادة سواء أكانت

« ١ » ابيدور مدينة يونانية على بحر ايجيه كان بها هيكل لالهالطب اسكولاب كان يزورها المرضي ويشفون . ولوردقرية فرنسية بها هيكل للسيدة مريم يحج اليها المرضى فيبلون من أمراضهم . وقد شوهدت شفاءات غريبة حدثت بسببها فعزاها الباحثون لفعل التأثير الاعتقادي

حسنة ام رديئة ، وفكرة التضحية والبطولة واحتقار الآلام،وعدم حس أعضاء الشهداء الذين كانوا يتكبدون أفظع التعذيبات ، ونكران الذات ، والاخلاص ، والفضائل ، والعيوب، والاحسان، والحسد ، والحب والبغض ، أليست كل هذه الصفات تدل على استقلال الروح عن المخ استقلالا نسبيا

من الناس من لايفكرون في شيء . وانا لنصادفهم بين الخلق . ولكن الانسان مهما انحط في علمه فانه يدرك بأنه يوجد شيء أعلى مقاماً من الاكل والشرب والتزاوج . وان هذا العالم الفاني للحواس ليس بحظه من الوجود ، وانه ليس الا مظهراً لاصل عال لانرى منه الا ظله مرتبكا . وقد جاءت الاديان محاولة أن تبل غلة هذه العاطفة

فاذا حللنا الجسم الانساني ووظائفه الطبيعية فلا يمكننا أن نتمالك أنفسنا من الاعتراف بأنها رغماً عن كل هذه اللذات التي تستطيع أن تمنحها لمشاعرنا فانها في الجملة أشياء تافهة اذا لم تعتبر فيها الا المادة وحدها. ولكن الكرامة الحقة هي للعقل والعاطفة والادراك وحب الصناعة والعلم . وان قيمة الانسان ليست بجثمانه السريع العطب الكثير التحول القليل المقاومة . ولكن بروحه التي تظهر منذ هذا الدور من الوجود متمتعة بخصائص غير قابلة للفناء

على ان هذا الجسد ليس بكتلة جامدة متحركة بنفسها، بل هو تركيب حي. ولا يخفى ان تركيب كائن أو انسان أو حيوان أو نبات يشهد بوجود قوة منظمة وعقل مدبر في الطبيعة وأصل مدرك يقود ذرات المادة وأنه ليس خاصة من خواصها. فان لم يكن في العالم لا ذرات مادية مجردة من التدبير لما استطاعت الخليقة أن تقوم،وكان استحال العالم الى مجموع مرتبك من المواد مجردة من النواميس الرياضية . وكان النظام ليس من حظ هذا الوجود

مؤدى النظرية الميكانيكية للوجود ان مجموع الاشياء هي الثمرة المحتمة للمركبات المجردة عن الشعور، وان الخليقة أصلها عماية محضة تصبح شيأ يذكر بالتدريج وينتهي

أمرها بالتحلي بفكر . أيستطيع الانسان أن يتخيل فرضا أشد استحالةمن هذا الفرض وأكثر مناهضة المشاهدات ؟

ان الطبيعة الغامضة قد وضعت فى كل شيء قسطا من العقل . وأنها تظهر متمتعة بحيل لاتخطر علي بال على وجه عام . فما معنى غرسها حب الزينـة والتبرج فيالبنت، وهي العاطفة التى تقودها لان تصير امرأة،وأن تتحمل انتستبقى النوع بواسطة جسمها اللطيف ، وأن تتكبد آلام الأمومة وهي راضية مستبشرة ؟ وما هو العشق ، هـذه الاحبولة المحبوبة ؟ وماهي الآلام القلبيـة ، وما هي العاطفة ، أليس لهجـة الطبيعة الصامتة يسمعها كل من له أذنان ؟ وما معنى تعاون عصفورين لبناء عش ؟ وتغـذية الذكر لانثاه وهي جاثمة على البيض ، وايتائها بالطعام لصغارهما الجيـاع ؟ وما هى الدجاجة وفراخها ؟ أتفكرت قط في اول خفقة للقلب حدثت فى بيضـة وفى طفل ؟ أحللت قط تلقيح الزهور ؟ فاذا لم تر في هذا كله نظاما عقليا ، وغرضا ، وبرنامجا ، ومقصداً عاماً ، وغاية ، وتدبيراً يتسلط علينا جميعاً ، واذا لم تردأنتري في «الحياة» الغاية العليا لنظام الدنياوات فانك لاتريد أن تري الشمس في رائعة النهار

الى أي غاية تسوقنا هذه القوة الخفية ؟ اننا لاندري ذلك . وبينما الحياة تفرض علينا قوانينها يندفع هذا الكوكب الذى نسكنه فىالفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلومتر في الساعة . وهو نفسه ألعوبة في يد القوي القائدة للمجموع الارضي وللحركات الاربعة عشرة المختلفة . فنحن ذرات مفكرة على ذرة متحركة تعتبر جزءاً من مليون من حجم الشمس. وهذه الشمس تعتبر جزءاً من مليون من «كانوبوس». وهو نفسه يعتبر ذرة في مجموعتنا الكوكبية الضخمة . وهذه المجموعة ليست الا عالماًمحاطاً بعوالم اخرى لاتنتهي الى حد . فما أوسع هذه اللانهاية ، وما اعجب هذه الحركات ، وما أدعي هذه السرعات للحيرة !

يظهر ان القوة ملازمة للذرة المادية، لانه لم تصـادف قط ذرة ساكنـة . وكل كائن حي ليس فيه قوة مدبرة لا يستطيع أن يعيش ، بل يسقط متحطما كبنـاء ترك وشأنه

كان رينان وبرتلو ، وهما الصديقان المتلازمان ، يتباحثان أحيانًا فى هذه المسئلة التي نحن بصددها . وقد مات كلاهما على غير أمل منهما في حياة أخرى. ولكن كان لكل منهما عواطف متخالفة من بعض الوجوه . ففى ٢٥ اغسطس من سنة (١٨٩٢) كتب برتلو لرينان وهو ينحل يوما بعد يوم (وذلك قبل موته بشهر واحد) يقول :

« لنتعز برؤية أحفادنا يكبرون . فان هذا هو النوع الوحيد من الخلود الذى نعرفه بعلم محقق »

هذا النوع من الكلام لا يستدعي أن يكون برتلو منكراً للخلود انكاراً مطلقاً ، ولكنه كان يوافق بلا شك بعض آراء مؤلف حياة المسيح

وكان رينان قد كتب الي برتلو فى ٢٠ يوليو ماصورته :

« أهم حادث في مدي حياتنا هو الموت، وهذا الحادث يقع على وجـه عام في أحوال غاية في الشناعة . ومذهبنا الذى أساسه أن لا نتمسك بأى خيال له عن تلك الساعة الخطيرة فوائد خاصة

« أنا أشتغل في هذه الساعة بتصحيح مسودات الجزئين الرابع والخامس من مؤلفى « اسرائيل » وأتمني أن أراهما مطبوعين . فاذا كان أحد غيرى يقسم الخطوط فسأشعر بقلة الصبر في قعر المطهر ، فان اكثر الاصطلاحات التي رميت اليها لا يدريها أحد غير الله وغيري . فلتنفذ ارادة الله » انتهي

من هنا يرى ان هذا الفيلسوف ، الذى كان لاهوتيًا قبل ذلك ، قد أعد نفسه لما قدِّر عليه. فان عقيدته بالله بقيت له . وقد يكون الانسان مضاداً للهيئة الكهنوتية ومؤمناً بالله معًا . فيحتمل أن رينان لم يكن بعيداً عن القول بالبقاء بعد الموت بقـاء غير محدود

ولكنه ، على ماروآه صهره المسيو بسيكارى الذي لازم سريره سـاعة وفاته ، قال وهو يجود بنفسه : انه لن يبقى منه شيء بعد موته ، لاشيء ، لاشيء ، لاشيء .

هكذا كان شعوره فى الساعة الاخيرة من حياته . ويشبهه في هذا الشك مئة من كبار العقول . مع أنهم كانوا يبحثون عن حقيقة البقاء بعد الموت مثله . هذا الشـك

لا يستند الا على جهلنا ليس الا . فقد كان بطليموس (الفلـكي الاكبر) لايجد شيئا أسخف من افتراض الحركة الارضية ، ولا أدعي منه للاستغراق في الضحك!

﴿ ماهو الفكر ؟ ماهي الروح ؟ ﴾

ليس يوجد شيء من وراء الطبيعـة . والروح اذا كانت موجودة مستقلة فهي كالجسم طبيعية محضة

قد وصل العلم أخيراً الي قبول نظرية وحدة القوة ووحدة الهيولي

كل شيء فى هذا العـالم حركة ، فالحركة العالمية تدبر العوالم كلهـا ، وقد سماها « نيوتن » الجاذبة العامة . ولكن هذا التعليل ناقص فان كان لا يوجد في الوجود غير القوة الجاذبة لاستحالت الكواكب الي كتلة واحدة لانها تكون قد جذبتها منذ زمان بعيد بل منذ الازل. ولكن توجد أيضاً الحركة، والحركة الحيوية تدبر الاحياء . وفي الانسان الراقي تشترك الحركة النفسية مع الحركة الحيوية . وأصل كل هذه الحركات في الحقيقة واحد ، وهو العقل المدبر في الطبيعة ، الذى يظهر أصم وأعمي فى العـالم المادى ، حتي فى دهماء الخلق ، وشاعراً بذاته في عدد قليل من الناس

لقد كتبت فى كتابي (أوراقي) سنة ١٨٨٨ مايأتي :

« ان مانسميه مادة تتلاشى متي امكن ان يتناولها التحليل العلمي . وفى رأينا ان عماد الوجود واصل جميع الصور هي القوة وعنصر الحركة . واصل الانسان الاصيل الروح . والعالم مجموع حركات مدبرة بعقل لا يمكن ادراكه »

وكتبت في كتابي (القوى الطبيعية المجهولة) سنة ١٩٠٦ مايأتي :

« ان الظواهر النفسية تثبت لنا مانعلمه من جهة أخرى بأن تعليل قيام الطبيعة بالحركة الآلية المحض هو تعليل ناقص ، وأنه يوجد في الوجود شيء غير المادة المزعومة . فالمادة ليست هى المدبرة للعالم بل هى عنصر من الحركة والروح معاً »

ومن منذ السنين التي كتبت فيها هذه الاسطر توالت المشاهدات النفسية التى تؤكدها عن سعة

توجد قوة عقلية تدبر ، وهي صامتة ومتسلطة ، إلهامات الحشرات ضامنـة

وجودها واستمرارها ، كما تدبر ميلاد عصفور وتطور الحيوانات العليا وفيها الانسان نفسه فهي هذه الحركة التي تقود الدودة لان تستحيل الى عجينة مائعة لاشكل لها داخل شرنقتها ثم تقلبها الي فراش . وهي هي التي تخرج من جسم الوسطاء هيولى تستحيل الي اعضاء حية وقتية ولكنها حقيقية وهذه الحركة توجد التجسدات الوقتية من طريق التولد الذاتي

اننا نؤكد بأن الوجود مجموعة حركات . وان فيها قوة غير مرئية مفكرة تدبر الدنياوات والذرات . اما المادة فعليها الطاعة والانقياد

ان تحليل الاشياء يدل على تأثير عقل مدبر فيها وهذا العقل العام في كل شيء يدبر كل ذرة وكل جزىء ، وهما في ذاتهما لا يلمسان ولا يوزنان ومن الصغر بحيث لا يريان يؤلفان بتجمعهما القائم على اصل الحركة الاشياء المرئية والكائنات وهذا العقل العام المدبر لا يقبل الفناء فهو أبدي

المذهب المادى ضال وناقص وغير واف ، فليس في وسعه أن يفسر لنا شيأ تفسيراً مقنعا . فان عدم التسليم بشيء غير المادة المتمتعة بخصائص ، من الفروض التي لاتقاوم التحليل العلمي . والتابعون للفلسفة الوضعية ضالون كذلك ، فانه توجد براهين وضعية «حسية» على ان الافتراض القائل بأن المادة متسلطة على كل شيء ومدبرة لكل شيء بخواصها بمعزل عن الحقيقة . فانهم لم يحلموا بوجود هذه الحركة العاقلة التي تمد الكائنات الحية والجمادات

واننا لنستطيع ان نقول مع الدكتور (جوليه) بأن العوامل الرسمية تعجز عن حل المعضلة الفلسفية العامة الخاصة بالارتقاء وهي خروج الاكثر من الاقل

المذهب المادي المنتشر كل الانتشار عن شعور أو لاشعور في جميع طبقات المجتمع ليس هو الا نظرية المظاهر ، فهو تقدير للاشياء غير المحللة

(المترجم) ثم نقل الاستاذ كاميل فلامريون بعد هذا عبارة للعلامة الملكي كوبرنيك باللاتينية ولم يترجمها للفرنسية . فأهملناها . ثم قال بعدها :

اننا سنشهد ضعف المذهب المادى بالاسلوب التجريبي نفسه ، وسنعمل على بيان

ضلاله المطلق . وكل الفزيولوجيا النفسية الرسمية قائمة على الخطأ ومناقضة للواقع . وانه ليوجد في الانسان شيء غير الجواهر الكيماوية المتمتعة بخصائص . يوجد فيه عنصر غير مادي اى اصل روحاني مما سيثبته الامتحان النزيه للحوادث . وسنري هذا الاصل الروحاني يعمل وهو مستقل عن الحواس الطبيعية

ما هو الانسان ؟ هل الروح موجودة ؟

« يجب علينا أن نبحث عن الحقيقة وعقلنا
« مطلق من كل قيد وخالص من كل
« رأى سابق لادليل عليه »
« ديكارت »

رأينا ان النظريات المادية لايقوم علي صحتها دليل ، وليست قائمة علي قاعدة من المتانة في الدرجة التى كان يتوهمها الناس . فان فيها جهات فراغ ، وتدع بجانبها كثيرا من أشياء غير مفسرة ، وهى أبعد من أن تشبه ، علي ماتدعيه ، بالنظريات أو باليقينيات الرياضية . فالمسألة والحالة هذه معروضة برمتها أمامنا لنبحثها بحثا حراً

وقبل أن نبحث فيما اذا كانت أرواحنا تبقى بعد انحلال أجسادنا ، يجب علينا أن نعلم ما اذا كانت موجودة في الواقع . فان المناقشة في الامد الذي يمكن أن يبقاه شئ ليس بموجود هو نفسه ، تعتبر مضيعة للوقت بشيء من البله . فاذا كان الفكر افرازا مخيا فلا شك في انه يزول بزواله

العلم بهذا الامر لايمكن الحصول عليه الا بالمشاهدة العلمية المحسوسة أى بالاسلوب التجريبى . ولكن كيف السبيل الى ذلك وعلم النفس لايزال الى أيامنا هذه من المسائل الكلامية ، والتأملات النظرية ، والافتراضات الظنية ؟ وان هذه لمن الاساطير التي يجب أن نتحاشى اتباعها هنا . اننا سنحاول أن نحدد طبيعة الروح بمشاهدات

عملية ، وأن نتعرف خصائصها

وانه ليؤسفنا أن نرى ان هذه الخصائص لاتزال قريبة من ان تكون مجهولة. فعلم النفس الجديد يجب أن يكون مؤسساً على العلم ولنذر دائماً أعمل كلمة مابعد الطبيعة في ترتيب العلوم الذي وضعه مؤسسه ارسطو . فلقد تمادي الناس في نسيان هـذا الاصل « ١ »

لاجل ان يتحقق وجود الانسان بعد انحلال جسده يجب أن يكون للانسـان وجود روحاني . فهل لعقلنا وجود ذاتي مستقل ؟ هل لنـا روح ؟ وبعبارة أضبط هل للانسان روح ؟ هذه هي المسئلة الاولى التي تتطلب الحل ، بل هذه النقطة الاولى التي يجب تقريرها

لقد علمنا مما تقدم بأن الماديين والحسيين والملاحدة والمنكرين لروح الطبيعة علي ضلال بعيد بذهابهم في تعاليمهم الي انه لايوجد في الكون غير المادة وخواصها ، وأن كل حوادث الانسانية يمكن تعليلها بنظريتهم العلمية العامية في آن واحد. فان افتراضهم هذا ليس بحق ولكن يجب أن نثبت لهم الموضوع المناقض لموضوعهم فنقول :

ماهي الروح ؟ ومن أين أتت هذه الـكلمة؟ وما معناها؟

قامت العقيدة بوجود الروح الى الآن علي ابحاث من علم ماوراء الطبيعة ، وعلى ايحاءات الهية مزعومة لم يقم على صحتها . دليل فان الدين والايمان بالغيب والعاطفة والرغبة والخوف ليست بأدلة

كيف خطرت لعقل الانسان فكرة وجود الروح؟

« ١ » يشير العلامة كاميل فلامريون الي هذا الامر ، وهو ان كلمـة ميتافيزك تعني باليونانية مابعد الطبيعة ، وهي تطلق على علم النفس والامور الروحانية . وهي ماسميت بما بعد الطبيعة لأنها لاتخضع لاسلوب علم الطبيعة، بل لأنهم كتبوها بعـد ما كتبوا علم الطبيعة ، فأطلقوا عليها هذا الاسم لهذا السبب ليس الامع انهـا تخضع في الواقع للاسلوب العلمي نفسه

كلمة روح ونظائرها ككلمة عقل مثلا في لغتنا الراهنة وفي اللغات القديمة من يونانية وسانسكريتية تنم عن معني النفس فليس مما يشك فيه اليوم ان فكرة الروح كانت تعني قديماً ماتعنيه كلمة النفس عند علماء النفس من أهل العهد الاول حتي ان كلمة « بسيشيه » اليونانية مشتقة من النفخ

فهؤلاء الناظرون يرون ان أصل الحياة والفكر وظاهرة التنفس شيء واحد . وهم من جهة اخرى لاجل أن يوفقوا بين هذا الحادث البين الذي لا يمكن نقضه وهو انحلال الجسم الميت المحروم من النفس ، أى المحروم من الروح ، وبين عقيدة ظهور الموتي أي استمرار حياة الذين أجسادهم همدت وصارت لاحراك بها او تحللت واستحالت الى تراب ، قلنا لاجل أن يوفقوا بين هذين الامرين تخيلوا ان النفس شيء يغادر الجسم بالموت لاجل ان يذهب الي عالم آخر ليعيش فيه حياته الخاصة به

وقد يعبر اليوم عن الموت بلفظ النفس الاخير

فاذا كان بعض الناظرين قد سلموا ببقاء الحياة علي صورة غير مرئية لنا ، فان بعضهم الآخر لم ير فيها الا أثراً من ميل الاحياء وأسفهم وعطفهم على موتاهم . فلقد قام من أول قيام الطوائف البشرية مذهبان علي هذا الامر متميزان ، بل متعارضان من آراء الناس . وهما المذهب الروحاني من جهة ، والمذهب المادى من جهة أخرى . ولكن كلا منهما قائم على اصول سطحية

فمعني كلمة روح وعقل يجب ان يتغير وان يتناقش فيه وان يمتحن . لانه توجد مميزات أساسية يجب تقريرها . فخواص التركيب الحي تخالف العناصر النفسية كل المخالفة

يعتقد الناس علي وجه عام باقتناع تام ، بأنه لا يوجد فى العالم الا حقيقة واحدة لا يجوز النزاع فيها ، وهي الاشياء الخارجية أو المادة ، أعني الشيء الذى يري ويلمس ويخضع لتقدير الحواس ، وكل ماعداها عندهم فأمور تجريدية وأوهام أى عدم محض

من الذين يرون هذا الرأى الغالبية العظمى من العلماء ومن الدهماء ، ولكن السواد الاعظم والعلماء أيضا يجوز عليهم الانخداع ، وهذا حالهم فى هذا الموطن

اقول كما قال صديقي المأسوف عليه دوران دوغرو ، العالم الطبيعي ، العلم الطبيعي نفسه يقرر لنا ان شهادة المظاهر ، حتي في الحين الذى تلوح فيه أنها حاصلة على قوة الوضوح التى لاتقاوم ، يجب أن تعتبر مريبة وأن تمحص تمحيصا صارما

اى شيء أوضح من دوران الشمس ؟ إن هذا الشعور وهذا الادراك يدلان على انه حق وعلى ان السماء كلها فوق رؤوسنا. أما شهدت هذا الوضوح أعين الناس اجمعين فى كل زمان ومكان ؟ وهل لهذا الوضوح مثيل في العظم والجلالة ؟ لا وهو مع ذلك هو وهم محض كما أثبته علم الفلك بالدليل القاطع

فما أشد مايظهر أشياع المذاهب سطحيين كلما اعتمدوا على المشاهدة الظاهرية وحدها في نقدهم المعلومات ، عندما يعتقدون أنهم حيال أمر تجربي فى الحيز الذى يرُونَنا اياه فيه

« الشمس سطح لماع يدور فوق رؤوسنا من الشرق الى الغرب ، في شروقه وغروبه » هذه حقيقة شهودية قد أيدتها شهادة الناس بالاجماع الوفا من السنين. فكيف يتجاسر العلم مع ذلك أن يؤكد لنا بأن هذه الحقيقة المقررة بالمشاهدة من الضلالات التي لانزاع فيها ؟ وكيف اتفق العالم كله اليوم على التحقق من انها ضلالة في الواقع ؟

فالشيء المحقق كل التحقيق ، والذى هو من المشاهدات الصحيحة ليس هو ما نعبر عنه بقولنا : «الشمس سطح الخ» ولكنه هو الذي يجب أن يعبر عنه هكذا : «أشعر بوجود سطح لماع أطلق عليه اسم شمس ، وهذا السطح يظهر لي انه متحرك من الشرق الي الغرب » الخ

هذا هو مايجب علي المتبع المذهب التجربي أن يحصره فى تأكيده التجربي ان اراد ان يبقى فى الحدود المضبوطة لمقررات التجريبية ، أي في عالم التحقيق المطلق

وهذا السطح نفسه ليس الا مظهراً كاذبا ، فان الشمس فى شكلها الحقيقي كرة لاسطح مستو

فلنعط الشعورات والمدركات حقها ولا نخلط بينها وبين الواقع . فان الواقع فى

حاجة الى ان يثبت بدليل . فاذا رأيت برقا يلمع ، وطرقت أذني جلبة انطلاق مدفع، وجب علينا، ان كنا مدققين، ان نفكر هكذا : «انا اشعر بأني أري برقا، وأشعر بأني سمعت جلبة انطلاق مدفع». ولكن الفزيولوجيين يهملون غالبا الجرى على هذا التمييز الاساسي، فالذي يقدمونه لنا باعتبار انه حوادث مشاهدة ليس في الغالب الا أموراً ظنية ، اي انها ليست مشاهدات ولكنها استنتاجات من المشاهدات . يفعلون ذلك بدون ان يتنبهوا لهذا العمل من عقولهم

فاذا قلت : اني احس بأني أرى سطحا لماعا يظهر ان طول قطره كذا وكذا سابحا في السماء من الشرق الى الغرب

فما تقوله صحيح صحة مطلقة ، ولك الحق في الادلاء به الى غيرك بتأكيد، وتكون جاريا على سنة المذهب التجريبي لادراك الحقيقة

ولكنك لو قلت: ان سطحا لماعا يجرى في السماء الخ كنت مؤكداً شيأ هو أكثر مما تعلم ، وتكون متعرضا للانخداع ، والدليل علي ذلك انك انخدعت حقيقة في نوع ذلك الجرم

مما لافائدة فيه الاكثار من الامثلة في هذا الباب. فانا نحس بشعور ما مثلا ويكون لنا فكر ما ، او انفعال نفساني ما ، فهذا كله من المعارف المباشرة الاكيدة، وهي حقيقة تجريبية جديرة بالثقة المطلقة

فالاحساس بالشيء يقتضي شعوراً أو ادراكا أو فهما، ولكن ماهي كل هذه المسميات؟ أهي خصائص لذلك الشيء ؟ لا . يوجد ازاء الشيء المشعور به والمدرك والمفهوم شيء يشعر ويدرك ويفهم

فان أردنا الكلام بتدقيق قلنا ان حادث الشعور والادراك والفهم هو وحده حادث أصلي مطلق ، وهو وحده الحادث الذي تفرضه علينا المشاهدة المباشرة

اننا ندرك هذا الامر منذ عهد مناقشات « بركلي» سنة (١٧١٠) بل منذ عهد «مالبرانش» سنة (١٧٦٤) وليس من امس فقط

اننا لانحكم على الوجود والاشياء والكائنات الحية والقوي والمكان والزمان

الا بشعورنا ، وكل مايمكننا أن نراه عن حقائق الاشياء هو في فكرنا وعقلنا ومخنا ، فيكون من التعقل الغريب أن نستنتج من ذلك ان أفكارنا هى عـين الواقع . وهذه التأثرات لها سبب يولدها ، وهذا السبب خارج عن اعيننا ومشاعرنا ، فنحن مرايا تعكس صور الاشياء المقابلة لها

نعم ان المذهب المثالى « لبركلي » و « مالبرانش » و « كانت » و « وانكاريه » يذهب الي مدى بعيد من التشكك «لأنهم ينكرون الوجود المادى» ، ولكن لا يذهبن عن نظرنا الاصل الذي يقوم عليه

وقد اصبح من الضروري الآن ان نثور على هذا الاعتماد العامى علي المظاهر ، وأن نعلن علي رؤوس الاشهاد ان العالم الخارجى ليس في حقيقته علي مايعطيـه هذا الظاهر . فاننا ان لم نكن حاصلين على أعين وآذان ، لكان ظهر لنا الوجود على حال غير ماهو عليه الآن . وقد كان من الممكن ان تكون شبكية أعيننا مركبة تركيبا يخالف ماهي عليه اليوم ، وكان يمكن أن يتذبذب عصبنا البصرى وان يدرك الذبذبات التي ليست فقط بين ٣٨٠ الى ٧٦٠ ترليون في الثانية اى من الاحمر المتطرف الى البنفسجى المتطرف ، بل يدرك ماهو بعد ذلك من الاشعة الحمراء المعتمة الى الاشعة البنفسجيـة المعتمة ، او يكون مركبًا من اعصاب تدرك معها الاشعاعات الكهربائية ، أو الامواج المغناطيسية ، أوالقوى غير المنظورة التي نجهلها . والوجود بالنسبة للكائنات (التى يمكن أن توجد على كواكب أخرى) يظهر على حال غير ماهو مقرر فى نظامنا العلمي . وعليه فاننا نكون ضالين ان اعتقدنا ان شعوراتنا هى عين الواقع . فالطبيعة فى الواقع هي على غير ماندركه منها ، نجهلها ولكن علي العقل ان يدرسها

أنا أحس وأتفكر ، هذه هي حقيقتنا الوحيدة المؤكدة ، الحقيقة المباشرة التجريبية الجديرة وحدها بهذا الوصف . وانه ليستنتج من هذه الحقيقة الشهودية الوحيدة التى لا يمكن الشك في حقيتها ، حقيقة اخري ثانوية كبيرة ، وهي وجود سبب صدر منه هـذا الشعور وهذا الفكر

وهذا السبب ينشطر الى عاملين وهما القابل والشيء نفسه ، أعني الشيء الذى يشعر ويفكر، والشيء الذى يشعر به ويفكر فيه

بعض الفلاسفة من شيعة المذهب المثالى مثل (بركلى) في القرن السابع عشر و(هنري بوانكاريه) في القرن العشرين ذهبوا الى ان الموجود بحق هو الشيء المفكر ، وان شعوراتنا وحدها هي الثابتة في نظرنا، واما الشيء المشعور به أى العالم الخارجي فيمكن ان لايكون موجوداً . ولكن هذا غلو يقابل غلو الماديين المتطرفين وكلاهما يستويان فى الضلال

فالمحقق الذى لايمكن رده هو اننا نعلم بأننا نفكر ، واننا نجهل حقيقة الواقع ، وأصل الاشياء والعالم الخارجي الذى لاتصلنا حواسنا الا بمظاهره فقط

أما الافتراض بأننا ندرك حقيقة الواقع فليس من العلم في شيء . لاننا متحققون ان مشاعرنا لاتكشف لنا الا جزءاً منه ، وهي لاتكشف لنا هذا الجزء الا على طريقة المناظير التي تغير حقيقة الواقع . فاذا كانت كرتنا الارضية محاطة بالسحب باستمرار كنا جهلنا الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وكان المجموع العالمي بقي مجهولا عندنا الى حد كان معه العلم الانساني يستحيل الى ضلالات لاعلاج لها . اذا تقرر هذا فالذي نعلمه ليس بشيء في جانب مانجهله . وعصبنا البصرى نفسه ترجمان ليس على شيء من الامانة

فالانخداع بالمظاهر هو القاعدة الواهية لافكارنا وشعوراتنا وعواطفنا وعقائدنا . فأول مظهر من مظاهر هذا الانخداع واكثرها اصالة هى شعورنا بسكون الارض . فتخيل الانسان بأنه قائم في مركز العالم وبني على ذلك كل خيالاته من طريق الاستنتاج . ورغما عن الادلة الفلكية فاننا نحاول ان نري وان نلمس الحقيقة ، ولا نستطيع ذلك . فاذا كنا فى أصيل يوم من أيام الصيف ، خيل الينا ان الهواء ساكن، والسماء صافية . وكل شيء حولنا في هدوء مطلق، والواقع بالفعل اننا فوق اوتوموبيل يجرى بنا فى صبوحة السماوات بسرعة توجب الدوار لمن يفكر فيها

فالانسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور وهى لاتدرى ان تركيبنا الجثماني الطبيعي

لايعرفنا بحقيقة الواقع . فان حواسنا تخدعنا فى كل شئ . والتحليل العلمي وحده هو الذى يؤتى عقولنا ببصيص من النور

من أمثلة ذلك اننا لانشعر بشئ من الحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه فانه يظهر ثابتاً ذا اتجاهات محددة الي فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ، ومع هذا فهو يسبح في الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر في الساعة في تطوافه السنوي حول الشمس، وهي نفسها تنتقل في خلال اللانهاية السماوية بحيث ان خط سير الارض ليس خطا منحنياً مقفلا ولكن حلزونياً مفتوحا دائما، وان كرتنا الهائمة لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الى اليوم

وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة في كل أربع وعشرين ساعة بحيث ان مانسميه (فوق) في ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتي عشرة ساعة. واننا نجري في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ أمتار في الثانية فى خط عرض باريز و٤٦٥ متراً في خط الاستواء

هذا و كوكبنا الارضي تلعب به اربع عشرة حركة مختلفة فلا نشعر بواحدة منها حتى تمسنا من قرب. كالمد والجزر للقشرة الارضيه ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الارضية دفعتين في اليوم تحت أرجلنا الى علو ٣٠ سنتيمتراً ولا توجد أى علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الامر مباشرة. ولولا وجود الشواطئ لما أدركنا وجود المد والجزر في الاوقيانس كذلك

وهل نحن نشعر بالهواء الذي نستنشقه أو ندرك ثقله؟ ان سطح جسم الانسان يحمل منه ماوزنه ١٦٠٠٠ كيلو غرام معادلا بمثله من الضغط الداخلى. وما كان أحد يتخيل ان الهواء ثقيل قبل غاليليه وباسكال وتورسلى. هذا مايشهدنا اياه العلم ، ولكن الطبيعة لاتشعرنا به

وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل ، فالكهرباء تلعب فيه دوراً لا ينقطع ، ولكننا لانشعر بها الاوقت الاعاصير اى وقت اختلال التوازن بشدة

والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٤٠ مليون

كيلو متراً علي الابرة المغطسة مما لاتشعرنا به مشاعرنا. ولكن توجد اجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات الكهربائية والمغناطيسية

وعيننا لاتدرك ما نسميه نوراً الا بواسطة ذبذبات الاثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة في الثانية (احمر متطرف) و٧٦٠ ترليون (بنفسجي متطرف) ولكن الذبذبات البطيئة للاشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ ترليون موجودة وعاملة في الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق الا ٧٦٠ ترليون للاشعة الحرارية البنفسجية المعتمة غير المرئية لشبكية عيننا

وأذننا لاتدرك مانسميه (أصواتاً) الا منـذ الذبذبة الثانية والثـلاثين من الاثير في الثانيـة للاصوات التي نسميهـا شديدة الي ٣٦٠٠٠ ذبذبة فى الثانيـة للنغمات الحادة

وأنفنا لايشعر بما نسميه (روائح) الا عن قرب شديد وفى حالة عدد محصور من التصاعدات فقط . ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان

وغير ذلك فالواقع انه لايوجد في الطبيعة خارج حواسـنا لانور ولا صوت ولا رائحة . فنحن الذين خلقنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة . والا ففي الفضاء من النور فى وسط الليل بقدرما يوجد منه في وقت الظهيرة . أعني توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الاثيرية تخـترق هذة اللانهاية السماوية . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة ؟ وليس هو بذي جليه الا بالنسبة لعصبنا السمعي . والروائح تحدث من جزيئات معلقة فى الهواء تؤثر على عصبنا الشمى

فهذه هى الثلاثة الحواس التى تصلنا ، ونحن في تركيبنا الارضي هذا ، بالعالم الخارجي . وأما الحاستان الاخريان، الذوق واللمس ، فلا تؤثران الا بالملامسة . وهذا شيء قليل ، وهو في كل الاحوال لايؤتينا بشيء من العلم بحقيقة الواقع . فيوجد حولنا من الذبذبات والحركات الاثيرية أو الهوائية، ومن القوى والاشياء غير المرئية مالانراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة، وبديهة عقلية لايمكن النزاع فيها

فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية لا ترى ولا تلمس ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها . أنا لا أقول ان هذه الكائنات الحية موجودة، ولكني أقول يجوز أن تكون موجودة. وهذا التأكيد هو النتيجة العلمية المطلقة المعقولة للمشاهدات السابقة

فاذا تقرر وثبت بالدليل ان أعضاءنا الادراكية لا تكشف لنا كل ماهو موجود، وانها تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا (لا نحس حركات الارض وثقل الهواء والاشعاعات والكهرباء والمغناطيس) الخ . فلسنا نكون على شيء من التثبت ان فكرنا ان ما نراه هو كل الحقيقة، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك

قلنا ان كائنات حية يجوز ان تكون موجودة حولنا . فمن الذي كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها . فها هي تتكاثر حولنا بالمليارات، والدور الذي تلعبه في حياة جميع الاجسام من الخطورة بمكان

فالمظاهر لا تكشف لنا الواقع . ولا يوجد الا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هي فكرنا . والموجود الذي لا يمكن النزاع فيه في الانسان هو عقله . هذه هي النتيجة التي تأديت اليها في مؤلفاتي السابقة، وقد أعددت هذا المؤلف للتدليل عليها بوضوح أوفى

فليعف قرائي عما ارتكبته من اعادة ماسبق لي نشره في كتابي « لومين » سنة ١٨٦٧ وفي كتابي القوى الطبيعية المجهولة سنة ١٩٠٧ ولكن هذه المعلومات مما يجب دوام التذكير بها

وهنرى بوانكاريه الذى تكلمنا عنه آنفاً على كونه مثليا لاروحانيا (مثلياً أي مشايعاً لمذهب المثل الاعلى) ورغماً عما ظهر من الشكوك في حديثه قد نشر الصفحة الآتية بمناسبة السنين الاخيرة لحياة عالم فرنسى وهو « بوتييه » الاستاذ بمدرسة الهندسة قال :

« لقد كان المرض الذى قتله طويل الأمد وقاسياً . فقد أمضى اثنتى عشرة سنة ملقى على سريره أو على كرسيه محروماً من الانتفاع بأعضائه، وفريسة للألم في

غالب أوقاته . وقد كان دبيب المرض فيه بطيئاً ومستمراً ، وكانت نوبه تزداد عدداً سنة فسنة . حتي آل جسمه الى الاضمحلال ، وكان الناظر اليه وهو في سريره الذى لا يستطيع مزايلته لا يري منه غير عينين . وقد كانت روحه أقوى من السلطان الاعمي لمرضه القاسي ، فلم يستخذ له ولم يذل أمامه . وكان يأمر بحمله الى مدرسة الهندسة أو الي مدرسة المعادن . فكان مستمراً على الاهتمام بما كان يحبه في زمنه الماضى في الأويقات التي كانت تتركه فيها آلامه . وكان عقله في هذا الجسم الذى يزداد كل يوم نحولا قد بقي كما كان مضيئاً متألقاً . وقد كان مثله في ذلك كمثل حصن تنهار جوانبه قطعة قطعة بتأثير قذائف العدو ولكن حمية القائد الذي يدافع عنه لا تزال مخوفة . حتي انه قبل وفاته ببضعة أسابيع طلب الى كتباً رياضية ليشرع في عمل بحث جديد عنده

«فقد أرانا الي آخر يوم من أيامه ان الفكر أقوى من الموت» انتهي.

كلا . ليس الذى كتب هذه الاسطر رجلا ساذجا ولكنه أستاذ فى التشكك. فما أصدق ماقيل من أن الحقيقة تتسلط على العقول بقوتها الذاتية وتتألق غير خامدة في وسط الليل الحالى بالنجوم الزواهر

وفوق هذا فان هنرى بوانكاريه هـذا كان يؤكد لى بنفسه غالبًا في أثناء محادثاتنا الكثيرة التى قد تكون غالبًا طويلة ، بأنه على شكه في صحة العالم الخارج عنا لا يصدق الا بوجود العقل . وهذا منه تطرف فانه يوجد شيء خارجا عن العقل. فلا نبالغن فى شيء

وبعد كل هذا فاننا نتحقق من كل مانشعر به في أنفسنا . ففي أثناء وضعي لهذا الكتاب وادراكي لرسمه وتوزيعي لأبوابه كنت أحس بتأكد وقوة، وأنا منزه عن التعصب لمذهب أو لعقيدة أيا كانت، احساسا مباشراً بأنى أنا الذى يضع هذا الكتاب، أي عقلى وليس جسمي ، وأنى أنا أملك جسمى لا أنه يملكني . هذا الشعور بذاتنا هو شعور مباشر ، ومدركاتنا يمكن بل يجب ان تكون قائمة على شعوراتنا فانها أساس كل تعقلاتنا

كيف يتجرأ المتجري، على الزعم بأن تحديد الكائن الانساني يمكن ان ينحصر في هذه الكلمات وهي انه « نسيج من اللحم محيط بهيكل من العظم » او في هذه الكلمات الاخرى وهي «انه تركيب من ذرات الاوكسيجين والايدروجين والازوت والكربون» او في هذه الكلمات ايضاً وهي : «ان الانسان هو ٦ كيلو غرامات من العظام و٥ من المواد الزلالية والليفية و٠٥ من الماء» او في هذه الكلمات ايضاً وهي انه «رزمة من الاعصاب»

ولكن أفضل من هذا كله تحديد بونالد فقد قال : «الانسان عقل تخدمه أعضاء»

ونحن نعلن هنا ان الانسان في أصله عقل سواء أعلم ذلك أم جهله . أما يحمل كل منا في نفسه عاطفة العدل ؟

والطفل الذي يعاقب بعدل أما يشعر بأنه قد استحق العقوبة ، والذي يعاقب بظلم أما يثور على المظلمة ؟ فمن أين يأتي هذا الشعور الادبي ؟ ان أسلاف الانسان هي الحيوانات من لدن العهود الجيولوجية الثالثة والثانية والاولى ، تطورت يسيراً يسيراً فارتقت من درجة الزواحف الى درجة القردة . فليس مخها هو الذي أوجد الشعور الادبي، وبخاصة هذا الشعور بالعدل الفطري في قلب الطفل . يمكن أن يدعي مدع بأن هذا الشعور أتى من أسلافنا ثم من التربية . ولكن من أين أتت هذه التربية ؟ أتت من عالم العقل ، ولا يوجد قياس مشترك بين هذا العالم العقلي الروحاني الأدبي وبين الظواهر الطبيعية الكيماوية للمادة المخية

الارادة كما لا يخفى قوة من رتبة القوة العقلية. فلنضرب عنها مثلا واحدا من الف : أراد نابليون أن يفتح الارض كلها وضحى كل شيء في هذا المطمع . فامتحن أعماله كلها حتى أصغر عمل منها من أول وقعة مصر الى معركة واترلو، تجد انه لا الفيزيولوجيا ولا الكيمياء ولا علم الطبيعة ولا الميكانيكا لا تستطيع أن تعلل قيام شخصيته، ولا استمرار أفكاره، ولا ثباته، ولا اصراره . فهل كانت هذه كلها ذبذبات مخية ؟ ليس هذا التعليل بكاف . ولا بد من أن يكون في أعماق المخ كائن مفكر ليس هذا المخ الا آلة له . فليست العين هي التي ترى ، ولا المخ هو الذي يفكر

ودراسة كوكب من الكواكب بالتلسكوب لايمكن أن تعزى لا الى الآلة ولا الي العين ولا الى المخ ولكن الى عقل الفلكي الذي يبحث ويجد

الارادة الانسانية وحدها تكفي لاثبات وجود العالم الروحانى، العالم المفكر، مخالفا للعالم المادي المنظور الملموس

وان تأثير الارادة ليظهر فى كل شيء . ويمكن أن نلاحظ ذلك بغاية السهولة فيما يلى :

أنا الآن جالس علي كرسي ويدىَّ موضوعتان على ركبتيَّ . فقد ألعب بأصابع يدى اليسري فأرفع واحداً بعد آخر بيدي اليمنى ، فتسقط بعد رفعها ، ولكنى لو أردت أن لاتسقط بقيت مرتفعة

فما هو ذلك الشيء الذى يؤثر علي عضلاتها ؟ الجواب هين ، هو ارادتي. فتوجد اذن قوة عقلية تؤثر على المادة . وهذه القوة متعلقة بمخي، هذا مما لامشاحة فيه. ولكن هذه الارادة آخر مايقال عنها انها «فكرة»، وهذه الفكرة تؤثر علي المادة. وسببها الاول ليس فى المخ لان ذبذباته ليست الا معلولات لاعللا

فلننظر الآن من الانسان الى قوته المفكرة على الخصوص . فانها الدليل المستمر على وجود الروح . فاذا تأملنا تأملا أو قلنا فى أنفسنا (أنا أفكر) أو (أنا أريد)، واذا حاولنا حل مسألة أو اذا استخدمنا قوتنا في التجريد والتعميم، فاننا بهذه الاعمال كلها نثبت فينا وجود الروح

فالفكر هو أثمن مايملكه الانسان وهو أشد الاشياء تميزاً بشخصيته وأكثرها استقلالا عن غيره، فحريته لايمكن العدوان عليها فانك تستطيع أن تعذب الجسد وأن تحبسه وأن تقتاده بالقوة المادية ، ولكنك لا تستطيع أن تعمل شيئاً ضد القوة الفكرية. فكل ماتعمله أو تقوله لايؤثر عليها. فهي تهزأ بكل شيء ، وتحتقر كل شيء . فاذا لعبت دوراً هزلياً ، أو حملها النفاق العلمي او الديني علي الكذب ، او ألبسها الطمع السياسي او التجارى وجهاً مستعاراً خداعا بقيت هي علي ما كانت عليه في جانب كل شيء

وضد كل شيء ملمة بما تريده . أليس هذا كله شهادة واضحة على وجود الكائن النفساني مستقلا عن المخ ؟

فليست المادة ، وليست مجموعة الذرات هي التي تفكر . والقول بأن المخ يحس ويفكر ، يعتبر من هذيان الطفولة ودرجة الاضحاك بمنزلة نسبة تعميم الآراء المحوية في رسالة تلغرافية الى الاعمدة المولدة للكهربائية من الآله الموضوعة لذلك

فالعقل والفكر والاتجاه النفسي ليس من المادة ولا من القوة في شيء . فالكرة الارضية التى تدور حول الشمس ، والحجر الذي يسقط،والماء الذي يجرى،والحرارة التى تمدد او تقصر المسافات بين ذرات الاجسام،هذه كلها تمثل لنا المادة من جهة اخرى، ولكن التفكر والتعقل والاتجاه وراء مقصد معين فهى شيء آخر ، وفيها دلالة على وجود اصل مخالف لغيره كل المخالفة

لم ينس احد تلك الابيات المقررة لفرجيل فى اغنيته السادسة من قصيدته (الانييد):

« كل مايوجد في الكون مبثوث فيه اصل واحد هي الروح المحيية للمادة وذلك بامتزاجها بهذا الجسم العالمي الكبير »

لقد اعرب الشاعر عن الحقيقة . فان الكون مقود بالروح واذا درسناهذه الروح في الانسان تبين لنا انها ليست القوة الطبيعة ولا المادة بل هي التي تستخدمها وتسيطر عليها بارادتها

البراهين على وجود الشخصية الانسانية لايحصى لهاعدد، ونحتاج فى سردها الى كتاب خاص . وقد قدّرها قدرها كل منا مرات عديدة

هذه البراهين ماثلة امام اعيننا كل يوم . فاحتقار الشدائد والقدرة على التخلص من انياب الحاجة ، والاخلاص للأغراض الشريفة، وتضحية الحياة في سبيل سلامة الوطن، وارادة التغلب والقهر ، والتجرد للدعوة العلمية او الدينية ، وتحمل آلام التعذيب لنصرة مايعتقده الانسان حقا، أليست هذه الصفات كلها مظاهر لوجود الروح؟فكيف

يعقل ان تولد مفرزات مخية مادية شبيهة كما يزعمون بمفرزات الكلي او الكبد شخصيات عقلية على ما نرى ؟

وقد أقام منذ زمان طويل (سنة ١٨٦٨) عالم مشهور عرفته في ذلك الوقت اسمه المسيو (رامون دولاساغا) العضو بالمجمع العلمي برهاناً جديداً على وجود الروح تحت عنوان «صحة وجود الروح بدرس تأثير الكلوروفورم والكورار على البنية الحيوانية» وقد توفي هذا العالم فى سنة ١٨٧١ في جزيرة كوبا

قال العالم المذكور :

« ان استنشاق أبخرة الاتير او الكلوروفورم يبطل الحس العام بحيث يمكن ان تخضع الاشخاص الذين يقعون في تلك الحالة الفيزيولوجية العجيبة لتحمل الاعمال الجراحية الخطيرة دون ان يشعروا بها . والاشخاص الواقعون تحت تأثير الاتير أو الكلوروفورم لا تقتصر حالتهم على عدم الشعور بالم ، بينما تمزق الآلات أنسجة اجسادهم وتقطعها وتعذبها ، ولا على بقائهم غير شاعرين بجروحهم وقروحهم التي لو حدثت لهم وهم في حالة يقظة لحملتهم على الصياح من الألم والذعر ، بل يحدث غالباً انهم يتأثرون بشعورات لطيفة ولذيذة بأرواحهم وهم فى هذه الحالة من النوم العميق »

رامون دولاسارغا قدم هذه الظاهرة معتبراً اياها دليلا علمياً على وجود الروح ، لانه يتضح منها ان الروح والجسم ليسا شيئاً واحداً . وقد رأينا ان الروح تستمر على التفكر بينما الجسم تحت تأثير الاتير او الكلوروفورم خاضع لفعل الآلات الحديدية . فهذان العنصران من المجموع الانساني قد ظهرا هنا منفصلين بفعل العامل المبطل للحس .

وقد دهش هذا العالم الاسبانى مما حدث لامرأته وهي تحت تأثير الكلوروفورم لانها حفظت فكرها سليما وقت ما كانت متخدرة وأثبتت له أن عقلها لم يصب بأقل تأثر فى ذلك الحين . فكانت تتكلم بهدوء وسكينة مع الجراح بينما كان يشق لحمها واعصابها بمشرطه . وقالت لزوجها ان افكارها وهي فى تلك الحالة كانت لذيذة

وانتذكر ايضاً ان الالم امكن حذفه في الاعمال الجراحية بالتنويم المغناطيسي في جامعة نانسي (بفرنسا)

فالتمايز بين الروح والجسم بل تفاصلها قد شوهد في أحوال غير هذه كثيرة ، فشوهد في حالة النوم المغناطيسي وحالة الانتقال النومي ، وانقسام الشخصية الخ ماجعل الافتراضات الفيزيولوجية التي تخيلت لتفسير هذه الظواهر الدالة على الشخصية النفسية المستقلة عن الجسم ، كلها غير كافية في التعليل . فمعلوماتنا الراهنة عن الحياة والفكر على وشك الانهيار والزوال

كل شيء يثبت لنا ان الروح الانسانية جوهر متميز عن الجسم . فالروح رغماً عن مؤداها اللغوي ليست نفساً بل هي انية عقلية . فما أكثر الكلمات التي تغيرت مدلولاتها ، ومن أمثلة ذلك كلمة الكهرباء المشتقة من كلمة كهرمان

أما نحن فنؤسس هنا وجود شخصية الروح مع خصائصها التي تظهر للطبيعة ، وليس بينها وبين خصائص المادة أية صلة

من السذاجة ان يتوهم الانسان انه يستطيع أن يصل الى درجة اليقين التام في أي مجال من مجالات العرفان . فلسنا على يقين من شيء . لان حواسنا وأساليب ملاحظاتنا وادراكنا ليست كافية لكشف الحقيقة المطلقة . وليس أمام العلم العريق في تحرى الاسلوب الحسي الا مرجحات قد تكون ذات قيمة عالية حتي تساوي مايسمي في اللغة المتفق عليها باليقين . فعلم الهندسة نفسه يقوم على أحد المسلمات ، ولا يوجد شيء يثبت لنا انه لايوجد غير ثلاثة ابعاد في الفضاء . والقول في علم الحساب بأن اثنين واثنين تساوى اربعة لايعني شيأ كبيراً اللهم الا اصطلاحا كلاميا أو تعبيراً عن عمل اضافي . ومع هذا فان العلوم الرياضية تمثل لدينا المعارف اليقينية . ولكن يتعذر الوصول الى هذا الحد في علم النفس

كل المعارف النفسية المذهبية وجميع المباحث الرسمية المدرسية فيها يعوزها التكميل بل التغيير والتنقيح

وبما ان الخصائص الطبيعية للنفس والادراك والعقل والارادة التي هي مرمي

التعاليم المدرسية الرسمية، والتي مظاهرها عادية ومستمرة، لم تثبت استقلال الروح عن المخ اثباتاً لا يمكن النزاع فيه، ولم تحصل لنا اليقين عن البقاء بعد الموت، رأينا أن ننظر الى هذه المسئلة من وجهة جديدة ، وأن نذهب الى مدى أبعد مما وقف البحث عنده الي اليوم

فالانسان قبل كل شيء كائن مفكر ، فالفكر أمر عملي محقق . أفلا يمكننا بجانب هذا الامر العملي الاولي ان نبحث فيما اذا كانت بعض الخصائص الروحية المجهولة أو التي لم تدرس الا قليلا ، تستطيع أن تؤتينا بموضوعات جديدة للبحث يساعدنا تحليلها الدقيق على تمزيق غشاوات من جهالة طال عليها الأمد، وعلي انارة مسألة تركيبنا النفساني وزيادة معارفنا المحدودة ، وتأسيس علم روحاني يمكن قبوله يكون محققاً لأمانينا بعد كل هذه المجادلات العقيمة في موضوع واحد ، وبعد هذه التمحيصات العديمة الجدوي التي لا تخرج عن دائرة محدودة ؟

لقد رأينا من الاعتبارات السابقة في الفصل السالف ترجيح الوجود المستقل للروح بشهادة الفيزيولوجيا نفسها . فنستطيع الآن ان نذهب الى مدي ابعد من هذا وان نزيد هذا الوجود المستقل للروح ، بمظاهر خصائصها التي لا يمكن ان تعزى الي الخواص المادية للمخ ، ولا الي تركبات عضوية أو كيماوية أو ميكانيكية او صفات ذاتية . . .

فشعور الانسان مقدما بما سيقع، مما سيطلع عليه قرائي هنا، من الامور الجديرة بالتفات خاص . فأدعو أشدهم عناداً ان يمحصوه ويقلبوه على كل وجه..

مثال ذلك ما رويناه في محل آخر من ان (ديالونيه) مدير مرصد باريس كان يشعر في نفسه ان ركوب البحر سيجر عليه مصيبة ، وكان يرفض ان يمتطي صهوته لهذا السبب، حتي حضر اليه أحد أقربائه وهو المسيو (ميتو) في اغسطس سنة ١٨٧٢ ورجاه ان يمضي معه اسبوعا من الرياضة. فقصدا شيربورغ فغرقا الاثنان معاً وهما عائدان من زيارة مرفئها بتأثير ريح شديدة

فالشعور بالحوادث المستقبلة والانذارات النفسية التي من هذا القبيل هي من

الكثرة بحيث تخرج عن حد الامور الاتفاقية ، ولا يدهشنا أن يهتم الباحثون بالتنقيب عن علتها، فانها جزء من الحوادث الواجب دراستها . فقد تكون حادثة واحدة يمكن تفسيرها بالاتفاق المحض ، ولكن تفسير عشرة حوادث او عشرين او مئة او الف بالاتفاق فذلك مما لا سبيل اليه

وقد كتب الدكتور (مينوسافاج) فى مجلة (اينسليزمجازين) الامريكية فى مارس سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

« كان في احدى ضواحي نيويورك شاب أتم دروسه في البلاد الاجنبية بجامعة (هيدلبرج)، وكان أبعد ما يكون عن المزاج التصوري الوهمي . وكان لطول قامته وقوة عضلاته اشتهر بين قومه بالمصارع ، وكانت العلوم التي آثرها على سواها هي الرياضيات والطبيعيات والكهربائية . ولما عاد من البلاد الاجنبية لم يعرف عن صحته الا انها جيدة للغاية . وكان يقيم مع أمه فى دار خلوية تملكها في تلك الانحاء . وكان من عاداته ان يذهب كل يوم بعد العشاء فيتمشي خطوات وهو يدخن في (بيبته) . ففى ذات ليلة عاد الى بيته هادئاً لم يكلم أحداً ودخل مخدعه . فلما أسفر الصباح دخل الى حجرة والدته قبل أن تستفيق من نومها ومسح وجهها بيده بقصد ايقاظها بتلطف ثم قال لها :

« يا أماه ، سأخبرك بشيء غريب محزن جداً فيجب أن تدرعي بالشجاعة لتكوني قوية وتتحملي سماعه

« فدهشت والدته مما سمعت وسألته عما يقصده من قوله هذا

« فأجابها بقوله : يا أماه اني عالم بما اقول ، اني سأموت قريبا

« فألم بالام من الكرب والاضطراب كما يعهد من كل ام في مثل هذه الحال وسألته ان يزيدها بيانا

« فقال لها : بينما كنت أتمشى أمس مساء فى الميدان ظهر لى روح ومشي بجانبي وأخبرني بأني سأموت فلا بد من اني سأموت

« فتأثرت الأم مما سمعت أشد تأثر واستدعت طبيباً وكاشفته بما سمعته من ابنها

« فقرر الطبيب بعد اطالة فحص الابن انه لم يجد عنده شيأ غير طبيعي وهدأ بال الام بقوله لها ان ماحدثك ابنك به لم يكن سوي حلم رديء وهذيان محض ، وانه لا يجوز لها أن تفكر فيه ، وانه لاتمضي الا أيام معدودة حتي تضحك هي وولدها من خوفها الوهمي

« فلما اصبح الولد في اليوم التالى شكا بوعكة خفيفة فاستدعى الطبيب ثانية فهزىء بوسوستها

« فاشتد المرض فى اليوم الثالث على الشاب وأحضر الطبيب فرأي انها باحدث فى الزائدة الدودية ، فقرران تستأصل بعمل جراحي . فلم يعش بعد العمل غير يومين اثنين ولم يمض بين مارآه وبين موته غير خمسة ايام » انتهي

امثال هذه الروايات اعتاد الناس ان يعللوها بطيش بكلمة (هذيان) ، ويخيل اليهم أنهم يحلون المسألة بحذفها علي هذا النحو . وليس هذا من الجد في شيء

فليس علىَّ هنا الا ان استمد من الاسانيد التي لاتحصى من بحثى الذى عملته لأزيد على ماقدمت اسانيد جديدة مختلفات الطبيعة ، وللدلالة بذلك علي سعة المجال المجهول الذي علينا اكتشافه . وقد وقعت الآن يدى على الكتاب لآتى وهو يخالف الكتاب السالف ولا يقل عنه في الغرابة . وقد ارسل الي من الآستانة في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ فاليك :

سيدي الاستاذ

« في سبيل البحث العلمي التجريبي الذى تبذلون فيه باخلاص عظيم ساعات كثيرة من وقتكم بقصد اتمام العلم العام ، اري من واجبي ان افضى اليكم بحادثتين شاهدتهما بنفسي

« قابلني في بيتي رجل من معارفي ذات يوم بالآستانة نحو منتصف الساعة الثانية عشرة صباحا وقال لي :

«لاأدرى لماذا أنا منذ صباح هذا اليوم مشغول الفكر بأن عمتي قد توفيت في مدينة (جنوا) . فسألته عما اذا كان يعلم ان عمته مريضة ؟ فأجابني انه مغاضب لأسرته منذ عشر سنين ولم يصله منها أقل خبر. وبينما نحن نتحدث وأنا مجتهد في أن أثبت له ان شعوره هذا وهمي ، اذ أقبل خادمه حاملا اليه تلغرافا من مدينة (جنوا) وفيه ان عمته توفيت فجأة في تلك الصبيحة عينها

« وهذا الرجل نفسه هب من نومه فجأة فى ليلة ٣١ يوليو الماضى وقال لزوجته بأن ملك ايطاليا قد قتل . فلم تعارضه زوجته اعتقاداً منها انه يحلم. فلما أصبحت أخبرته بما رآه فى الحلم . فقال لها ان ذلك لم يكن حلما ولكن تلك العبارة خرجت من فمي وأنا لم أعلم لماذا ولا كيف خرجت

« وكان بيتهما مطلا على الميناء فقال لزوجته ان أدل دليل على ان ملك ايطاليا لم يمت هو ان السفن الراسية رافعة أعلامها

« وبعد مضي ساعة عاد الى النافذة فرأى فى هذه المرة ان تلك السفن قد خفضت راياتها الى انصاف سواريها (علامة الحزن) . فدهش من هذا التغيير فأسرع الى الاستعلام فقيل له ان ملك ايطاليا (والد الملك الحالي) قد قتل غيلة فى الليل

« خاف صاحبي من هذا التوافق العجيب فجاء يستشيرني باعتباري طبيبا للامراض العقلية، ويسألني عما اذا كان ماحدث له يدل على عرض خطير لاصابة مخية. فهدأت باله ولكني دونت هذه الحالة لاسيما وصاحبنا كما قلت عنه انه رزين للغاية وجدير بالثقة من كل وجه

« فأرجوكم وأنا في انتظار جوابكم أن تتفضلوا بالعفو عن جراءتي بالكتابة اليكم قبل أن أتشرف بمعرفتكم شخصيا وتكرموا بقبول شكري واحترامى

الدكتور ل . موغيري

طبيب الامراض العقلية بالمستشفى الملكي

الايطالى بشارع كاريستان

رقم ٢٠ بالآستانه

لقد شكرت هـذا الدكتور الكريم على كتابه هـذا الذى ضمنه الي أمثـاله الكثيرة . فمن الجنون اعتبار كل هذا من الاوهام اذ يكون ذلك بمثابة انكار الشمس وقت الزوال . فالكائن الانساني لا يزال بالنسبة الينا سراً غامضاً ، وعلم المدارس قد ضل سبيل الرشاد الى الآن ، ولكن العلم الذى أخذ على نفسه البحث عن الحقيقة ، يجب بعد الآن أن يقتنع بأن هنالك خصائص للروح لا تزال مجهولة وهي أهم الاشياء التي يجب كشفها وتحديدها وتفسيرها . . .

واليك حادثة هامة للغاية تدل علي الشعور عن بعـد بالحوادث، حصلت لامرأة عن زوجها ، وهي مستخرجة من مجموع (الفانتـاسمس اوف ذى ليفنج) (١) وهذه الحادثة تتعلق بالدكتور (اوليفييه) الطبيب بمدينة هويلجوت «فيستر» :

« فى ١٠ اكتوبر من سنة ١٨٨١ دعيت لأداء عيادة طبية في الريف على بعـد ثلاثة فراسخ من داري وكان ذلك في وسط ليل دامس . فسرت في طريق أجوف تحفه أشجار قد قامت على حفافيه وصارت عليه كالقبة . وكان الظلام شديداً الي حد اني لم أدر كيف أقود حصاني فتركت الحيوان يسير بفطرته، وكانت الساعة حينذاك تسعة . وكانت الطريق التى سلكتها يعلوها حجارة غليظة مستديرة مكونة لانحـدار شديد . فكان الحصان ينحدر منها ببطء عظيم . فما راعني الا اثناء يدى الحصان ثم وقوعه فجأة ماداً فمه علي الارض ، واستلزم ذلك سقوطي من فوق رأسه ماساً الارض بكتفي فانكسرت احدى ترقوتيّ

« في هذه اللحظة كانت امرأتي تخلع ثيابهـا في الدار وتستعد لدخول السرير ، فشعرت بأني قد أصبت بأذي ، واعترتها رعدة عصبية ، وأخذت تبكي، ثم استدعت الخادمة قائلة لها : أسرعي اليّ فاني خائفة ، فقـد حدث لزوجي سوء ، فهو اما ميت او مجروح

(١) هذه مجموعة الحوادث الروحية التي حققتها بنفسها جمعية المباحث النفسية المشكلة في لوندرة من جماعة من العلماء منذ سنة ١٨٨٢ ولا تزال موجودة الآن

«وابثت طول غيبتي عنها ممسكة بالخادمة عندها ولم تفتر عن البكاء . وأرادت أن ترسل رجلا ليبحث عني ، ولكنها لم تدر الي أي قرية قصدت . أما أنا فعدت الى داري في الساعة الاولى بعد نصف الليل، وناديت على الخادمة لتؤتيني بمصباح وترفع السرج عن حصاني قائلا : اني قد جرحت ولا أستطيع أن أحرك كتفي

« فتحقق بذلك شعور امرأتي »

الدكتور اوليفييه

طبيب هويلجوت ، فنيستر

وقد كتب لي العلامة المدرس المسيو سافيلي من كوستا « جزيرة كورس » في سنة ١٩١٢ يقول :

« المشاهد ان هذه المسائل أصبحت في نظر القارئين فى الدرجة العليا من الافادة واني متحقق بأني أعبر لكم عن رأيهم في رجائي اياكم بمتابعة مباحثكم فيها

« ان مسألة حقيقة الزمان صعبة الحل للغاية وقد أجاب أحد الرياضيين المشهورين باحثاً سأله القول الفصل فيها بقوله « لنتكلم فى شيء آخر » ومع هـذا فاني أرى من واجبي أن أرسل اليكم بمشاهدات توجب الحيرة الشديدة ولا يمكن ان يتسرب اليها الشك أصلا

« بينما كان أبي عائداً الى داره ذات ليلة يصحبه احد اصدقائه اذ طرق آذانهما صيحات انزعاج منبعثة من نساء يبكين ويولولن ، فلم يشكا في طروء نازلة عليهن ، وظنا ان أحداً قد قتل عندهن . فوقفا أمام الدار التي تنبعث منهـا هذه الصيحات ليستكشفا جلية الخبر ، فكان نصيبهما ان انقطعت الاصوات فجأة فلم يعودا يسمعان شيأ . فلما كانت الليلة التالية، ومر ابي اراء هذه الدار ، سمع مثل الصيحات التي سمعها في الليلة السابقة تماما ولكنها في هذه الدفعة لم تكن وهمية . وعلم ان طفلا لم يكن به مرض في الليلة الفارطة اصيب فجأة في اثناء النهار بالخناق ومات من ساعته بما يشبه موت الفجأة. حدثت هذه الحادثة في مدينة بارازو وهي مجاورة للمدينة التي أودي فيها وظيفتي التدريسية » انتهى

فالذى يجب علينا التسليم به بدون ان نتأثر بأدنى شك ، هو ان علم المستقبل سيبحث في تحليل الخصائص الروحيـة المجهولة للآن لدى العلم العصري ، او التي لم تدرس الى اليوم الا دراسة ضئيلة جداً

والصحف الآتية ستمزج بنا في معمعان هذه المباحث بادخالها ضمن هذه التقاسيم الضرورية وهي : الارادة المؤثرة بمحض التلقين العقلي . — والتأثر والتأثير عن بعد . — والانتقالات النفسية الى مدي بعيد . — والنظر بدون واسطة الاعين اي بالروح . — ورؤية المستقبل

هذه الحوادث الحسية تثبت كلها الوجود الروحاني للنفس مستقلة عن الخصائص الطبيعية للحواس

فالروح والجسد هما شيئان متميزان لكل منهما خصائص خاصة بها

الارادة تعمل بلا لفظ ولا اشارة وعن بعد

المانيتيسم والابنوتسم والتلقين العقلي والتلقين الذاتي

« العلم مكلف تحت سلطان القانون الخالد »
« للشرف ان يبحث كل مسألة تتقدم اليه بصراحة »

السير وليم طومسون

من بين اعظم المظاهر المختلفة لشخصيتنا النفسية عمل الارادة الانسانية بدون الالفاظ او اية اشارة اخري وعلى بعد من صاحبها

مما لا مشاحة فيه ان الارادة خاصة غير مادية في اصلها ومتميزة عما يعرف علي وجه عام من خصائص المادة

فيمكنك ان تؤثر علي مخ انسان غيرك بتركيز عقلك فيه . فتستطيع وانت في تياترو او كنيسة وعلى بعد عدة امتار خلف انسان ان تجبره على ان يلتفت اليك بدون

ان يتخيل انك تؤثر عليه وبدون ان يعلم بوجودك ، وليست تجربة هذا الامر بالامر النادر ، وانه باسقاط الاحوال التي يمكن ان تحدث اتفاقا يبقى عدد كبير من احوال محققة لاسبب لها الا تأثير الارادة . حتي ولو كان الامر يتعلق بشخص ليس بينك وبينه سابق معرفة

فاذا كان التأثير يقع على شخص معروف من المجرب فان عددالمشاهدات يزداد زيادة كبيرة . وهي تثبت تأثير الارادة عن بعد .

يستطيع النقد المادى هنا ان يدعي بأن هذا الامر سببه عمل حاسة للمخ مجهولة وأن لادليل على ان عملها هذا ذو أصل روحانى . ولكن دحض هذه الشبهة ليس بالامر الصعب،وذلك ان المخ عضو مادي ويمكن تشبيهه بالجهازالكهربائي ، ولكن لا بد ان يكون خلف هذا الجهاز في اقصي جهات المخ شخصية روحية . فانني اذا تكلمت فما ذلك الا لانى أفكر فى التكلم . فالكلام هو النتيجة وليس بالعلة . فتخيل وجود جهازمخي، متمتع بشخصية عقلية مسئولة ذات ارادة واهواء وتعقل وتفكير، فذلك يكون من باب الافتراض الذي يعوزه الدليل . أليس شعورنا الخاص يكفى فى ان يدلنا علي الحق في هذه المسألة؟

فنحن باعمالنا حواسنا الخمسة، البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، تتجه الحركات التذبذبية من العالم الخارجي الي المخ وتنتقل اليه بواسطة الاعصاب البصرية والسمعية والشمية واللمسية . ولكن في تأثيرنا بارادتنا عن بعد ، أى فى نقل أفكارنا الى مسافة منا، تتجه الحركة التذبذبية بعكس الحالة الاولى ، أى من مخنا الي العالم الخارجي.فيجب أن يكون فى ابعد غور من مخنا العلة المؤثرة في احداثها وهو العقل

ولقد وضعت مؤلفات خاصة فى مسألة التلقين العقلي، والامثلة التى تثبت صحته لاتدخل تحت حصر . وقد شاهدت انا نفسي منها عدة فى الايام السالفة من تجارب (شاركو) في مستشفى (السالبتريير) والدكتور (لويس) فى مستشفى(لاشاريتيه).ولكن أغرب مارأيته منها كانت تجارب (بييرجانيه) في مدينة (الهافر) أجراها علي امرأة

قوية فلاحة، هي ربة أسرة وليست مصابة قط في أعصابها . فكانت تتلقى ما يوحيه اليها بعقله وهو بعيد عنها عدة كيلو مترات، فتطيعه بضبط مطلق وذلك بدون ان تعرف ماسيلقيه اليها مقدماً بأي وجه من الوجوه (١)

فهل الارادة تقتضي وجود شخصية نفسية ، اى ذات ، او عقل، اوروح ؟ وهل هذا التعليل آكد من التعليل بالخصائص الطبيعية والكيماوية المتعلقة بالمادة الحية؟ وهل الذات الشاعرة بنفسها موجودة ؟ ان كيفية وضع هذه المسألة هو بمنزلة حلها

اننا سنري فى الحوادث المشاهدة بدقة تامة عن التلقين العقلي وعن الافكار التى تنتقل من انسان لآخر بدون تلفظ ولااشارة، بل بمحض الارادة تجلى الشخصية الانسانية بكل وضوح . وان التجارب المشهورة التي اجراها الدكتور (اوكورويكز) ستمكن القراء من الحكم على علة هذه الظواهر بدون تحيز

فقد كان هذا الدكتور يعالج امرأة مصابة بهستريا صرعية مزمنة ، ثم تضاعفت بطروء نوب من الهم بالانتحار . كانت سن هذه السيدة ٢٧ سنة وكانت لقوة بنيتها يظهر عليها الصحة التى لاشائبة فيها . وكان يغلب على مزاجها النشاط والغبطة، مضافا اليهما احساس ادبي مفرط من جهة نفسية محضة، اى انه لم تكن له علامات ظاهرة، وكانت مع هذا محبة للصدق طيبة القلب للغاية وميالة للتضحية وذات عقل عال وعدة خصائص

---

(١) يمكن الاطلاع على تفصيلات هذه التجارب وتجارب كثيرة غيرها في كتاب الدكتور اوكورويكز *Achorowicz* المسمي بالتلقين العقلي *De la suggestion Mentale* (باريز سنة ١٨٨٧) وكتاب (جول ليبجوا) *jule Liegeois* المسمي (التلقين والانتقال النومي) *De la suggestion et du somnambulisme* (باريز سنة ١٨٨٧) وكتاب بيير جانيه *Pierre janet* المسمي الحركة النفسية الذاتية *L'automatisme psychologique* (باريز سنة ١٩٠٣) وكتاب الدكتور جوار *Joire* المسمي التاريخ السنوي للعلوم النفسية *Annale des sciences psychiques*

اخري، وحاسة الملاحظة فيها كانت جيدة . الا انهـا كانت تصـاب بضعف الارادة والتردد المتعب، ثم يعقبه ثبات مفرط . وكان أقل شعور بتعب معنوي، وأي تأثير غير منتظر قليل القيمـة سواء كان ساراً أو محزناً ينعكس على الاعصـاب المحركة ببطء وبدون ان تشعر به ، فيفضي الى نوبة او الى اغماء عصبي

قال الدكتور (اوكورويكز) فيما كتبه:

« حدث ذات يوم بل ذات ليلة بعد انتهاء النوبة (بمـا فيها دور الهذيان) ان المريضة نامت بهدوء ثم استيقظت فجأة فلما رأتني انا وصديقتها بجانبها رجتنا ان نذهب حتي لانتعب انفسنا من اجلها بغير موجب ، وألحت في ذلك الحاحا حملنـا على اطاعتها تفاديا من ان يسبب لهـا إباؤنا نوبة جديدة . فنزلت أنا السـلالم ببطء (وكانت تسكن الطبقة الثالثة من البيت) ووقفت اثناء النزول عدة مرات أتسمع ما يأتي من قبلها وأنا متوقع حدوث حادث سيئ (فقد كانت جرحت جرحا عديدة قبل ايام) ، فلما انتهيت الى الحوش وقفت مرة اخري متردداً بين الذهاب والبقاء. وبينما انا افكر في ذلك واذا بالنافذة قد انفتحت بضوضاء. فرميت ببصري اليها واذا بجسم المريضة يميل الى الخارج بحركة مسرعة، فأسرعت الى النقطة التي اتوقع سقوطها منها واخذت في تركيز ارادتي بقصد منعها من السقوط مدفوعا الي ذلك اندفاعا آليـا ، ولكن بدون ان اعلق عليه أية قيمة، لانه عمل غير معقول، وقد كان مثلي فيه كمثل لاعبي البلياردو الذين يحاولون ، وقد ادركوا انهم لم يصيبوا المرمي، أن يقفوا الكرة باشارات من ايديهم والفاظ من افواههم

«ومع هذا فان المريضة التي كانت قد تدلت وقفت فجأة ، ثم تقهقرت ببطء وبصدمات متوالية

«ثم كررت هذا العمل خمس مرات متوالية، فبدت على المريضة علائم الاعيـا ، فوقفت جامدة مستندة بظهرها على افريز النافذة التي كانت لاتزال مفتوحة

«وكنت في اثناء هذه الاعمال بحيث لاتراني في الظلام لان الوقت كان ليـلا . وفي هذا الوقت كانت صاحبتها قد اسرعت اليها وقبضت علي ذراعيها . وقد سمعتها

يتدافعان فأسرعت في الصعود لاساعدها، فوجدت المصابة في نوبة جنون، فلم تعرفنا وتصورتنا لصوصا . ولم استطع ان اجتذبها من ناحية النافذة الا بالضغط على القسم المبيضي من جسمها، فاضطررتها بذلك للوقوع على ركبتيها . فحاولت مراراً ان تعضني وما استطعت ان انقلها الى سريرها الا بعد جهد جهيد، وتمكنت اخيراً من انامتها

« فلما انتقلت الى دور النوم المغناطيسي كان اول مافاهت به هاتان الكلمتان :

« شكراً وعفواً

« ثم حدثتني بأنها كانت قد صممت على القاء نفسها من النافذة ولكنها كانت تحس في كل دفعة انها كانت تمنع بقوة من جهة الدور الاسفل

« فقلت لها : كيف كان ذلك ؟

« فقالت: لاادرى

« فقلت لها : أكنت تتخيلين وجودي هناك ؟

« فقالت : لا . واني ماأردت ان انفذ ارادتي الا لاعتقادى بذهابك . ومع هذا فقد كان يخيل لى من وقت لآخر بأنك كنت الى جانبي او خلفي وانك لم ترد ان اقع »

اليك تجربة المؤلف المذكور (يريد الدكتور اوكورويكز) قال :

« اعتدت ان انيم هذه المريضة كل يومين مرة، وان ادعها فى نوم عميق مدة كتابة مذكراتي عنها . وقد تأكدت من تجارب شهرين عليها بأنها لاتبدي حراكا وهي في تلك الحالة الا اذا اقتربت منهـا لأنقلها الي حالة الانتقال النومى . ولكني في هذه التجربة التي اذكرها بعد ان كتبت بعض المذكرات ودون ان اغير جلستى (وكنت علي عدة امتار منها خارجا عن مرمي بصرها واضعا كراستي على ركبتى ومسندا رأسى على يدى اليسرى) تظاهرت بأني لاازال اكتب بحمل القلم على الصرير، الا اني باطنيا ركزت ارادتي على امر اصدرته اليها وهو :

(١) ان ترفع يدها اليمني

«ثم راقبت حركات المريضة من خلال اصابع يدي اليسرى المستندة على جبهتي فرأيت انه:

«في الدقية الاولى : لم يحدث شيء

«في الدقية الثانية : اضطراب في اليد اليمني

«في الدقيقة الثالثة : زيادة الاضطراب ، ثم قطبت المريضة حاجبيها ورفعت يدها اليمني

واني اعترف بأن هذه التجربة اثرت في ما لم تؤثره اية تجربة اخري فأعدتها كما يلي :

« (٢) امرتها عقليا ان تقوم وان تأتي الىّ

« فقطبت حاجبيها وتحركت، ثم قامت ببطء وصعوبة واقبلت الىّ ويدها ممدودة

« (٣) امرتها عقليا ان تسحب سوارها من معصمها الايسر وان تعطينيه

«فلم يحدث شيء

«ثم مدت يدها اليسرى وقامت متجهة نحو المدموازيل X ثم نحو البيانو

«فلمست ذراعها الايمن وارجح اني دفعت به الى صوب ذراعها الايسر مركزا ارادتي على الامر الذى اصدرته اليها

«فسحبت سوارها وظهر عليها أنها تفكر ثم ناولتنيه

« (٤) أمرتها عقليـا أن تقوم وان تقرب الكرسي الكبـير من الخوان وأن تجلس بجانبنا

«فقطبت حاجبها ثم قامت ومشت نحوى . ثم أخـذت تبحث ولمست كرسي البيانو ، ونقلت كوبة الشاى من مكانها . ثم تقهقرت وأخذت الكرسي الكبير ودفعته الى الخوان باسمة بسمة ارتياح وجلست عليه ساقطة من الاعياء »

قال العلامة كاميل فلامريون عقب نقله هذه التجارب :

كل هذه الاوامر أصدرت عقليًا بدون اشارات ولا النطق بكلمة واحدة

وفى كتاب (اوكوروبكز) احدي وأربعون تجربة من هذا النوع

ويعرف قرائي مانشرته من امثال هذه التجارب في كتابي (المجهول) في باب التأثير النفساني من روح على روح أخري ، وخاصة في صفحتي ٢٩٦ و ٣١٦

فالتجربة الحاسمة التي شوهـدت عن تأثير الارادة وعن التلقين العقلي لا يمكن ان تعزى الى المادة الجسـدية ، ولا الي التفاعـلات الكيماوية ، ولا الى الحركات الميكانيكية . بل ان سببها فكرة ، أى سبب عقلي أو أصل روحاني يؤثر بحالة لاتزال مجهولة ، ولكن التلغراف والتلفون اللاسلـكيين يعطياننا عنهـا صورة يمكن البحث في تفسيرها

هذه المشاهدات من التلقين العقلي قد درست منذ زمان طويل من عهد (مسمر) ومن قبله بواسطة (فان هيلمنت) *Van Helment*

فاليك تجربة مشهورة من تجارب كثيرة أوردها شاهد نزيه وهو العالم (سيفرت) *Seifert* الذى كان يعتبر (مسمر) في أول أمره مشعوذاً ثم انتهي به الحال الى قبول نظريته تحت تأثير هذه المشاهدات

أجريت هذه التجربة في هنكاريا سنة (١٧٧٥) فى قصر قديم للبارون (هوريتسكي دوهوركا) حيث كان (مسمر) يعالج البارون بالتنويم المغناطيسي ويعالج في الوقت ذاته مرضى كثيرين كانوا يحضرون لاستشارته . فكان العالم (سيفرت) المذكور يعتبر هذه الامور كلها من الهذيانات

حضرت الجرائد ذات يوم وكان في واحدة منها ذكر حادثة تمت على يد (مسمر) مؤداها انه أحدث ارتجافات في بعض المصابين بالصرع، وهو مختبيء في غرفة مجاورة، بمحض اشارة بأصبعه وجهها الى المرضى . فشخص سيفرت الى القصر والجريدة فى يده فوجد مسمر فيه محاطا برجال من الاشراف . فسأله عما اذا كان ماذكرته عنـه تلك الجريدة صحيحا؟ فأجابه مسمر بالايجاب. فتغيظ سيفرت وطلب اليه دليلا تجريبيا عن تأثيره من خلال الحائط

فوقف (مسمر) عند ذلك على بعد عدة خطوات من الحائط ووقف العالم سيفرت

يراقب على الباب وهو مفتوح قليلا بحيث يرى (مسمر) والشخص الذي يحاول التأثير فيه

فأحدث (مسمر) أولا حركات مستقيمة بسبابة يده اليسري في الجهة المفترض وجود المريض بها وراء الحائط ، فابتدأ هذا يشكو ، ومس أضلاعه وظهر عليه التألم فسأله (سيفرت) قائلا : ماذا أصابك . وأجابه أشعر بأني غير مرتاح

فلما لم يقنع (سيفرت) بهذا الخطاب طلب اليه أن يصف مايشعر به بدقة. فأجابه المنوم بأني أحس كأن كل شيء يميد في باطني يمينا ويسارا

ولاجل ان لايكثر عليه من المسائل طلب اليه أن يعلن عن التغيرات التي يشعر بها في جسمه بدون أن يلقى عليه سؤال

وبعد دقائق أخذ (مسمر) يحدث بأصبعه حركات بيضية الشكل . فقال المريض من وراء الحائط : « الآن أشعر ان كل شيء يدور حولي على هيئة دائرة »

ولما قطع (مسمر) العمل أعلن المريض بأنه صار لايشعر بشيء . وهلم جرا . فجاءت كل هذه التصريحات من المريض مطابقة لاوقات احداث التأثيرات واوقات قطعها بل وجاءت مطابقة طبيعة الشعور الذى أراد (مسمر) احداثه على المنوم «١»

***

وقد رأيت صديقي المأسوف عليه الكولونيل دوروشاس *De Rochas* يحدث هذه التجارب في مدرسة الهندسة بباريز (وكان ناظرها) وكذلك رأيت الدكتور (بارتي) *Barety* يعملها في مدينة نيس ، ومجربين آخرين. فالتأثير بالارادة عن بعد ليس بالامر المشكوك فيه كما يعلم الذين درسوا هذا الموضوع

اما (فان هيلمنت) الذى كان طبيبا كبيرا ومفكرا عظيما في القرن السابع عشر

«١» من كتاب الدكتور كرنر *Kerner* المسمى (فرنزانتون مسمر) المطبوع سنة ١٨٥٦ وقد نقله عنه الدكتور (اوخورويكز) فى كتابه التلقين العقلى *De la Suggestion Mentale*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فانه وضع هذه المسئلة قبل (مسمر) وجاء حكمه فيها صريحاً جداً . فقد كان يعتقد ان كل انسان صالح لأن يؤثر في أمثاله عن بعد، ولكن هذه القوة تظل فيه على وجه عام كامنة ومختنقة بغلبة سلطان الجسد . فلاجل ان ينجح الانسان في ابرازها يحتاج لوجود تطابق بين المجرب والوسيط . ويجب ان يكون هذا الاخير شديد الحس ومتمرن على ان يحس تفاديا من أن تقوم شدة حسه تحت تأثير تصوره الباطني بمناقضة التأثير الواقع عليه من المجرب . أما أخص جهة يبتدىء فيها الشعور بهذا التأثير السحري هو فم المعدة، لان الحس الانساني في هذه الجهة أدق منه في الاصابع بل وفي الاعين . وقد يتفق ان الوسيط لا يتحمل أن تلمس منه تلك الجهة باليد

وقد كتب الدكتور المذكور في كتابه يقول :

« لقد أرجأت أن أكشف القناع عن هذا السر الكبير وهو ان في الانسان قوة تستطيع بمحض ارادته وخياله أن تؤثر فيما هو خارجي عنه وأن تطبع أثرها الثابت على شيء بعيد عنه جداً . وان هذا السر ليفسر تفسيراً واضحاً عدة حوادث يصعب فهمها تتعلق بالمغناطيسية الموجودة في جميع الاجسام ، وبالقوة المعنوية للانسان وتسخيرها للكون »(٢)

***

عاش الدكتور (فان هلمونت) من سنة ١٥٧٧ الى سنة ١٦٤٤. ونفتح الآن كتاب (كيرخر) *Kircher* المسمى *Magnes, sive de arte magnetice* المطبوع في روما سنة ١٦٤١ في فصل المغناطيس الحيواني فنجد فيه أمثلة على (الجذب والدفع) وعلى (الخاصة المغناطيسية للاعضاء الانسانية) وعلى تطبيق (المغناطيس التصورى) على الطب وعلى (المغناطيسية الموسيقية)

«٢» من كتاب فان هلمونت المسمي *Van Helmont* *Operaomnia* المطبوع في فرانكفورت سنة ١٨٦٢ نقلها الدكتور اوكورويكز في صفحة ٤٠٥ من كتابه التلقين العقلي

فليست هذه الشؤون النفسية من الحوادث العصرية ، بل هي تصعد الى عهد عيسى وفيثاغورس والى عهود أبعد من ذلك ايضا

ولكن ماهو التلقين الذاتي ؟

يقول المغطسون ان الارادة تركز سيالها ثم تقذف به الي الخارج في وجهة تقريبية كأنه لفافة أفيون . ولهذا السيال من الادراك والظرف مايحمله على الاسراع وعلي وجدان طريقه فيدور على الجدران ويصيب الشخص الموجه اليه فيغير عليه. وعند مايستولي عليه الى الحد المناسب ، يحصل النوم عن بعد أو عن قرب علي حد سواء. هذا واضح ، واضح كالتعليل القديم لفعل الافيون ، وهو انه منوم « لانه يملك خاصة منومة » على ماقاله موليير

ولكن « يجب أولا كما يقول اوكورويكز اثبات ان ذلك السيال موجود ، ثم اثبات أنه مما يمكن قذفه ، ثم اثبات انه يهتدى الطريق ، ثم اثبات انه يقف عند ما يصل الى المجموع العصبي للشخص المراد » ولكن يظهر ان من التبصر أن نقنع بعبارة (القوة النفسية) التي اقترحتها قبل سنة ١٨٦٥

فالتأثير النفساني من روح على روح أخرى أصبح من الامور التي لايشك فيها مهما كان شكل انتقاله اليها

فهل أفكارنا تجول ؟ نعم انها تنتقل على حالة تموجات في الاثير . وانا لنعلم قبل الآن ان الافكار تبعث بمتعلقاتها من الحركة الي كل مكان، أريد بكل مكان، نقطة بروز تلك الفكرة

والذى ينتقل ليس بمادة، وانما هي موجة تأخذ في الاتساع . وتأثيرها عام، ولكنها تمر غير محسوس بها حتي تجد بيئة مشابهة، وتصادف جميع الشروط متوافرة، فتحدث فيها حالة خاصة غير دائمة . فاذا خرجت الموجة من الارادة (ا)، وكان المخ (ب) يجمع هذه الشروط، فان الفكرة التي بعثتها تعمل فيه، فينام اذا كان ممغطسه يريد منه ذلك

ثم قال العلامة كاميل فلامريون :

ان تأثير الروح على المادة، وهو الامر الذى درس من زمان بعيد، لايظهر أكثر وضوحا الا في الحوادث الناتجـة بواسطة التلقين الذاتى فى بعض اضطرابات الدورة الدموية، مثل احمرار بعض أجزاء الجسـد والاحتقان الجـلدى والنفاطات والانزفة والخدوش الدامية . أما كون الروح متميزة عن الجسم، وأنها هي المسيطرة عليـه، وان العقل يؤثر فى المادة، وان الفكر مهما كان لطيفا يحدث آثاراً مادية، وان التصور العقلى يكفى في بعض الاحوال لايجاد أعضاء أو لافساد أعضاء ، كل هذا أظهر صحته جليـا عدد كبير من الامثلة المتنوعة ، بحيث يستحيل أن يكون للانسان أقل شـك فى هذه المسئلة الكبرى. ويمكننا أن نشاهد بين هذه الامثلة العلامات التى يوجدها فوق الجلد بواسطة توارد الدم محض الفكر أو العقيدة أو الاقتناع . فهذا (سان فرانسوا داسيز) ، وكان رجلا متصوفا تقيًا للغاية، زهد في العالم المادى واعتزل الناس فى غابة، متجرداً للعبادة، وجامعا حوله رجالا أتقياء سماهم تواضعًا بالاخوان القصر (فرانسيسكان).
وكان ذهب الى سورية ومصر للوعظ والارشاد، ثم عاد الى ايطاليا آخذاً بصيام شديد، وحياة تبتلية، حدث له بعدها انه كان يري مرئيات خيالية، ظهر له في واحد منها سيرافان ذو أجنحة منبسطة، فخدره وطبع علي جسده عـلامات صلب المسيح، فانخرمت يداه ورجلاه علي النحو الذي حدث للمسيح بتأثير المسامير، وانفتح جنبه كأنه طعن بحربة، وبقيت فيه هذه العلامات

هذا بلا شك من التأثير النفساني للروح في الجسم ، وهـذا الامر من الخطورة العظيمة من الوجهة الفيزيولوجية المادية، حيث أنكر انكاراً باتًا بزعم انه من الاساطير الدينيـة ، وانه من الامور المغالي فيها بل غير الصحيحة . وبما ان هذا الامر كان في نحو سنة ١٢٢٠، فقد عزاه المنكرون الي تسارع الناس الى تصـديق كل شيء في القرون الوسطي . فقالوا من الذى شهد هذا الامر ؟ شهده الدينيون والمؤمنون الذين يقبلون كل شيء وأعينهم مغمضة

علي ان هذا المثال عن قديس مشهور عزيت اليه أكثر من كرامة، ليس بالمثال

الوحيـد فى نوعه . فالبحث الذي أتعقبه فى هذا الكتاب أعثرني على عدد كبير من أشباهه

ثم أخذ الاستاذ كاميل فلامريون يسرد ماورد في التاريخ من أمثال هذه الحادثة فذكر ماحدث (لماريا مارل) التي ولدت فى سنة ١٨١٢ . و (لماريادومومينيكا) المولودة سنة ١٨١٥ . و (لكريسنزيانيكلوتش) المولودة فى سنة ١٨١٦ .و (لاناكاترين اميريخ) التي ولدت سنة ١٧٧٤ . وللقديسات تيريز وكاترين دوريكش وارشانجيل وتارديرو وجيرترود وليدوين وهيين دوهونجري واوزان دومانتو وايدا دولوفان وكريستين دوستراميلين وجان دولاكروا ولوسي دومارني وكاترين دوسـيين وباسكتيس وكلاريس دوكوجيس وكترين دورانكيوز وفيرينيكا جيولانى وكولومب شانوات ومادلين لورجيه وروزسيراء،ولأكثر من رجل تقي،ولكن ليس من غرضنا أن نضع كتابا في هذا الموضوع ، فلنكتف بأن نضيف الى هذه الامثلة حالة أدهشت العلماء العصريين وهي حالة لويز لاتو التي اشتهرت بهذه العلامات فى برادين (بلجيكا) ودرسها في سنة ١٨٦٩ الاستاذ ديليوف المدرس بجامعة ليبيج

وذلك انه فى يوم الجمعة ٢٤ ابريل سنة ١٨٦٨ بعد عيد الفصح بثمانية أيام كانت لويز لاتو عروساً قد مضى على زواجها خمسة أيام وهى لاتتجاوز الثامنـة عشرة من عمرها . وهى مريضة وضعيفة من منذ أكثر من سنة، وعرضـة للاغماء،وذات تصور صوفى حاد،ظهرت في جسمهـا أول علامة (من علامات صلب المسيح)، وتلك علامة الجنب الايسر (المقابلة لعلامة الحربة التي طعن بها المسيح) ثم ظهرت علامة الرجل اليسري (وهى العلامة المقابلة لاثر المسمار الذى سمرت به رجـل المسيح على خشبة الصلب). وفى يوم الجمعة الثالثة تمت لها العلامات الخمس المعروفة (أي علامات مسامير اليدين والرجلين والجنب). أما العلامات التي أحدثها التاج الشوكي فلم يسل منها الدم الا بعد مضي خمسة أشهر على ظهورها ، (وعلامات التاج الشوكي تقابل العلامات التى ظهرت فى رأس المسيح حين ألبسوه تاجا من الشوك استهزاء به)

فلنرفع صوتنا عاليًا بأن هذه المشاهدات لمناقضتها للفيزيولوجيا العادية التي تعتبر

الفكر خاصية مادية للتركيب الجثماني، قد أنكرها الاساتذة الرسميون انكاراً باتاً . ولما ذكر الاستاذ الشهير الهردو كتورفيركو العلامات التي ظهرت بجسم (لويزلاتو) صرح بأن الامر لايخرج عن حالتين، اما تدليس أو آية. وقد رفض بحق أن تكون آية، فلم يبق في باب التجويز الا التدليس . أما نحن فنستطيع أن نؤكد باسم العلم الحر ان هـذا الامر ليس بتدليس ولا بآية

ثم ذكر الاستاذ فلامريون مايحدث من تأثير زيارة المغارة المسماة (لورد) بفرنسا من عجائب الشفاء للامراض العضالة وعزا ذلك لتأثير الاعتقاد فقال :

جميع المرضي الذين يقصدون مغارة (لورد) *Lourdes* يتطلبون شفاء أمراضهم . وقد رسموا صورة الشفاء في مخـاخهم . ولكن عدد الذين يشفون منهم قليـل لأن ذوى التركيب العصبي الكافي لاحالة رغباتهم الى أشخاص جسدانية، وتأثيرها فيهم كما تؤثر الكائنات العلوية المتمتعة بسلطان عجيب قليلون

فالعقيدة الدينية قابلة لكثير من الاستحالات الصورية. فقد تتصور بصورة الاله (ابولون) و (اسكليبيوس) و (المسيح) و (الشيطان) و (مريم العـذراء) أو أية روح طيبة أو خبيثة علي حسب عقيدة المعتقد والآراء المخزونة في الشخصية الشاعرة

ثم ختم الاستاذ فلامريون هذا الفصل بقوله :

كل هذه الحوادث من المانييتسم، والهيبنوتسم، والانتقالات العقلية، والتلقينات الذاتية، وظهور صور الاحياء في أمكنة غير التى هم فيها، مما ألممنا به الماماً خفيفاً لمحض تأكيد صحتها، كل هذا يؤيد بدون أدني شك تأثير الروح علي الجسم الطبيعي ويؤدينا الي هذا الاستنتاج وهو: ان الروح موجودة ومستقلة عن الجسد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التلباتيا والانتقالات النفسانية الى مسافات بعيدة

الابصار والسمع التلباتي

حوادث واقعية لاعبارات كلامية

اذا كان تأثير الارادة بدون وساطة الكلام ولا أية اشارة، يعتبر مظهراً من مظاهر وجود الروح، فالتلباتيا والاتصالات العقلية عن بعد، بحسب شهادات اخري ليست بأقل ادلالا على وجود الروح الانسانية

فالشعورات الذاتية وغير المنتظرة، بحدوث حوادث وأمراض ووفيات عن بعد يقدر بعشرات ومئات والوف الكيلو مترات، هي من الكثرة بحيث أصبحت جزءاً من المواد العادية للمباحث النفسية . وهي على ما منيت به من الانكار والغموض في مدى قرون، فانها مع ذلك صارت مادة لفصل رسمي من فصول تلك المباحث

ان قرائي يعرفون هذه الحوادث، ولا أريد أن أعود الى ما سبق لي نشره في هذا الباب، وسأكتفي بتذكيرهم بهذه الظاهرة العقلية الهامة وهي التلباتيا، لأنها تثبت وجود الروح وتضع أمام الناظرين حوادث جديدة متميزة عن سواها

فاليك حوادث أخرى من الانتقالات التلباتية للفكر يستحيل الشك فيها، أستخرجها من كتاب أرسله اليّ من باسافان (بفرنسا) الدكتور (بوارسون) من جامعة باريس قال :

« أرسل اليكم بيان ثلاث حوادث من انواع مختلفة ولكنها تصلح لان تفيدكم في مباحثكم عن الظواهر النفسية، وانا ضامن لكم صحتها، لاني اعتدت ان لا أعير اهتماما الا لما أراه بنفسي من الحوادث التي من هذا القبيل

(١) بينما كنت في (بلفور) احدى ضواحي فرنسا من منذ نحو شهرين اذ رأيتني أفكر ذات يوم بشدة وبالحاح غريب في رصيفي (جورا)، وكنت لا أفكر فيه مرة واحدة في كل سنة، اذ لم توجد بيني وبينه غير علاقات وظيفية انقطعت منذ ثلاث عشرة

سنة ولم أره بعدها قط . فلم تمض بضع دقائق حتى رأيتني واياه وجهاً لوجه في دهليز Carrefour وبما انه كان آتياً علي بسكليت من شارع عمودي على الذي كنت سائرا فيه، فكان من المستحيل ان اراه قبل تلك اللحظة من بعيد . هذه حادثة لا أحاول تعليلها ولكنها أدهشتني

(ب) نظراً لمهنتي الطبية فأنا معرض كثيراً لان أستدعى في الليل. والذين يمرون أمام بيتي ليسوا بقليلين، ولكن اذا كان منهم واحد يقصد أن يطرق على الجرس فانى أستيقظ من نومى من تلقاء نفسي قبل أن يصل الى بابي بنحو عشرين متراً، فأعرف مقدماً بهذه العلامة انه سيستدعيني احد الناس

وقد شاهدت هذا الامر لامرة واحدة ، ولكن مئة مرة منذ اثنتي عشرة سـنة. ولاجل أن أكون مقنعاً في روايتي هذه يجب عليّ ان اقول بأني لو كنت صاحياً، وهو مايحدث كثيراً، فلاأستطيع أن أتنبأ بشيء من ذلك . ويجب عليّ ان اقول ايضا بأني اذا كنت مستغرقا في النوم، عقب يوم امضيته متعباً، فان هذه الظاهرة النفسية لاتحصل

(ج) من بين زبائني شابة مصابة بالهستريا أحدث لها نوماً مغناطيسياً وتلقينات بسهولة خارقة للعادة . وكثيراً ماأوعزت اليها أن تستيقظ وان تقوم في ساعة معينة . فكانت تستيقظ في تلك الساعة بدقة عظيمة . فكل من مارس صناعة التنويم يعلم ان ليس في هذا الامر شيء خارق للعادة . ولكن ما هو جدير بهذا الوصف انه حدث ان زوج هذه السيدة استبطأ يوماً من الايام ساعة يقظتهـا فقدم عقرب السـاعة التي كانت توضع على الخزانة الصغيرة التي توضع فيها آنية الليل . وكانت الساعة اذذاك ٦ ونصف فجعلها ٧ ونصف فقدمها ساعة عن موعد تيقظها ، ولكنه وهو يدير العقرب لايصاله الى الوقت المذكور رأى ان امرأته قد تنبهت فجأة عند وصول ذلك العقرب الى الساعة السابعة وهو الموعد المقرر لها . فجاءني زوجها وقص على مارأى . ولكني لما انا عليه من صعوبة التصديق اردت ان احقق هذا الامر بنفسي وفعلت ذلك بضع مرات

ويجب عليّ ايضا ان اقول ان هذه السيدة تقرأ وهي نائمة واعينهـا مغلقة عدد

الساعات في ساعتي حتي ولو غيرتها ولكن على شريطة ان انظر الى عقاربها و كذلك كانت تخبرني عن اسم الشيء الذى امسك به وراء ظهرى علي شرط ان اقبض عليه بيدي ... الخ الخ »

وقد نشر الاستاذ (لومبروز) الكتاب الآتي الذى ارسله اليه زميله (دوسانكتيس) المدرس بالجامعة معه وهو :

« كنت في رومية دون اسرتي التي بقيت في الريف . وبما ان بيتى قد سرق فى السنة الماضية فكان اخي يأتي وينام فيه . فأخبرني ذات ليـلة انه ذاهب الى تياترو كوستانزى . فأويت الى البيت وحدى وشرعت اطالع ، ولم اكد افعل حتى شعرت بذعر شديد فى نفسي ، فحاولت ان اقشعه عني وتشاغلت بخلع ثيابي ، الا انه لازمني ملقيا في روعي ان اخي فى خطر وان التياترو الذي هو فيه يحترق . اطفأت النور فلم يفدني ذلك ، بل ازداد بي الكرب حتي اضطررت الي ان اعود الى ايقاد المصباح خلافا لعادتي ، وانامزمع ان ابقى صاحيا حتى يعود اخي . وقد كنت في الواقع خائفا كأني غلام صغير . وبعد منتصف الليل بساعة سمعت فتح الباب فما كان اكثر دهشتي حينما قص على اخي الهلع الذى اصاب المتفرجين عند ماأخذت النار تدب الى التياترو . وقد وافق ذلك بالضبط الساعة التى شعرت فيها بالقلق العظيم »

واليك حادثة هامة جداً من انتقال الفكر افضى بها الدكتور كانتار الى الجمعية الطبية في (انجير) وهي :

« طفل يدعي (لودوفيك) لايبلغ السابعة من عمره كان متمتعا بخاصة حل المسائل الحسابية تشبه خاصة (اينودى) الشهيرة . فانتهى امر والده ان لاحظ فيـه (اولا) انه لا يصغى الى منطوق المسائل التي تلقى اليه الاقليلا . (ثانيا) ان وجود امه معه كان شرطا مؤكداً لنجاح التجربة . وكان ذلك يتوقف علي ان يكون الحل المطلوب تحت نظرها او محصلا في فكرها

« واستنتج الاب من ذلك ان ابنه كان لايحسب ، ولكنه كان يتلقى الحل كما يظن من فكر والدته . ولذلك رجاها ان تفتح قاموسا وان تسأل ابنها عن رقم الصفحة

التي تحت نظرها . فأجابها الولد على الفور قائلا هي صفحة (٤٥٦). وكان الامر كما قال. فكررت التجربة عشر مرات فلم يخطيء في واحدة منها

« فاذا كتبت عبارة على مذكرة فكان يكفي الغلام مهما كانت طويلة ان تمر الام بعينها عليها ليرددها اذا سئل عنها حتي ولو كان السائل اجنبيا »

كل هذه الحوادث مجتمعة تثبت لنا حصول الاتصال بين روح وروح اخرى والشعور التلباثي الآتي رواه الدكتور (فرواساك) بنفسه باعتبار انه حدث له نفسه فلا محل للتردد في تقدير قيمة هذه الحادثة قال في كتابه (الحظوظ والاقدار صفحة ٥٩٩) *Chance et Destinee* قال:

« رأيت في النوم حينما كنت طالبا داخليا فى مدرسة الطب بمدينة (دوبويترن) ان أبي قد أصيب بمرض سيفضي به الى القبر. فاستيقظت في كرب عظيم وحاولت ان اتغلب عليه قائلا لنفسي بأني قد تركت ابي يوم الاحد الماضي في صحة تامة. وكان يومنا اذ ذاك الاربعاء . واخذت اقنع نفسي ان من الضعف الادبي ان اقلق الى هذا الحد بسبب حلم، وعزمت ان لا افكر فيه . ولكن صورة أبي وهو في حالة النزع كانت لا تزايل ذهني، فأجمعت تخلصا من هذا الكرب، وان كنت فى غاية الخجل من ضعفي، أن اشخص الى (سان جرمان) حيث كان أبي . فلما وصلتها وجدته مصابا بنزيف صدري قضي عليه فى خمسة ايام»

اليك مثالا قيما آخر دالا على النظر من بعد في النوم وموضوعه حادثة خاصة أنقله عن الكتاب المسمي *Phantasms of the Living* المجلد الاول صفحة ٣٣٨ . فقد كتب القس (واربورتون) من مدينة (ونشستر) بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٨٨٣ قال :

« سافرت من اكسفورد لتمضية يوم او يومين مع اخى (اكتون واربورتون) المحامي اذ ذاك . فلما وصلت الى داره وجدته قد ترك كلمة فوق الخوان يعتذر بها عن غيبته، ويخبرني بأنه مدعو في بالو في (وست اند)، وانه سيعود الى البيت في الساعة واحدة . فرأيت بدلا من ان ادخل لأنام ان اجلس على كرسى كبير أهوم فيه حتي

يأتي . ففي الساعة واحدة استيقظت فجأة وانا اصيح : (لقد وقع وحق جوبتير) وذلك اني رأيت أخي في النوم خارجا من بهو على دهليز سلم مضاء اضاءة تامة ، اذعثرت رجله في الدرجة الاولي، فوقع ورأسه الي الامام غير متق السقطة بغير مرفقيه و يديه . وكنت لم أر قط الدار التي هو فيها، ولم أكن أعلم أين هي فلم أهتم بهذا الامر كثيراً وعدت الي التهويم ثانية، فلم تمض غير نصف ساعة حتي استيقظت بدخول اخي بغتة وهو يقول : «أراك هنا لقد كادت عنقي تنكسر . وذلك أني لما غادرت بهو البالو اشتبكت رجلي فوقعت بطولي كله الى اسفل السلم »

سندرس في الفصل التالي لهذا حوادث الابصار بدون وساطة الاعين دراسة خاصة، وهو سيدلنا بوضوح أكمل من كل ماسبق على وجود الخصائص العالية للنفس البشرية

هذا الابصار عن بعد، هذه الشعورات التلباتية تحصل أيضاً في غير الاحلام، أو فى ضروب من الغشي . فلنقرأ المشاهدة الآتية المحامي (رتشاردسيرل) التي بعث بها الى جمعية المباحث النفسية بلوندرة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٣

« كنت بعد ظهر يوم من الايام جالسا في مكتبي (بالتامبل) أنظر في مذكرة . ومكتبي هذا موضوع بين احدي النوافذ المطلة علي (التامبل) و بين المدفأة . فرأيتني فجأة انظر من خلال الزجاجة الاخيرة للنافذة، وكان في مستوى عيني، فبصرت برأس امرأة مقلوبا الى الخلف وعيناها مغمضتان ووجهها ابيض تام البياض شاحبا كأنها ميتة . فتحركت مكاني أريد أن أعود الي رشدي، ثم قمت ونظرت من النافذة فلم أجد الا الدور الامامية، فخيل لي اني قد هومت ثم نمت، فقمت أتمشى فى الغرفة لأدفع عني ذلك النوم الموهوم، ثم عدت الى عملي ولم أعد أفكر في هذه الحادثة

« رجعت الى داري في الساعة المقررة . وبينما نحن نتعشي تلك الليلة انا وامرأتي، قصت علي انها تغدت عند صاحبة لها تسكن (جلو نستر جاردن) وانها كانت مصاحبة لبنت صغيرة (هي احدي بنات أختها تسكن معنا) . فحدث فى أثناء الغداء او بعده مباشرة ان سقطت البنت وجرحت في وجهها وتفجر منه الدم . قالت امرأتي فلما

رأيت ذلك أصابني اغماء . فلما سمعت منها هذا تذكرت ما رأيته من النافذة . فسألتها عن الساعة التى حدث فيها هذا الامر؟ فقالت في الساعة الثانية وبضع دقائق . فوافق الوقت الذى رأيت فيه ما رأيت . وهنا يجب علي أن أقول ان هذه هي المرة الاولى التي أصاب امرأتي فيها اغماء . وقد قصصت هذا الامر في حين حدوثه على كثير من أصحابي» انتهي

ان ابصار حوادث رتشارد سيرل بدون عينيه اى بواسطة التلباتيا عن بعد عشرة او عشرين او خمسين او مئة او مئتي كيلو متر بل اكثر، اصبحت من الامور غير المشكوك فيها لدى الذين درسوا هذا الموضوع

فاليك مثالا نشر فى فبراير سنة ١٩٠١ في مجموعة الجمعية الانجليزية للمباحث النفسية مما رآه باحثو هذه الامور مردداً مئة مرة بعد ذلك التاريخ . والحادثة الاخيرة تتعلق بابصار دقيق جداً عن بعد ٢٣٠ كيلو متراً . والذي حدث له وهو المستر (دافيد فرازر) أستاذ المحاضرات في جامعة (سانت اندريه) هو الذى كتبها بقلمه بالعبارات التالية قال :

« حدث أمر هام منذ بضع سنين منعني من العود الى داري في لوندة في آخر الاسبوع. فلعدم رغبتي فيتمضية يوم الاحد بمنشستر قصدت يوم السبت بعد الظهر (ماتلوتش باث) لتمضية ذلك اليوم فيها بهدوء، ثم العود الى داري يوم الاثنين بقطار الصباح

« فلما وصلت الي الجهة التي يممتها وأويت الى فندق لاسرة قريب من المحطة، طلبت قليلا من الشاي، ودخلت الي البهو لأستدفيء لان يومي ذلك كان من شهر يناير، والبرد فى اقصي درجاته والثلج يسقط بكثرة، والترمومتر يشير الى درجات كثيرة تحت الصفر

« فرأيتني وحدى في تلك اللحظة بذلك الفندق. فتمكنت من الجلوس على كرسي كبير منتظراً الشاى أمام مدفأة حامية الوطيس، ولم يكن الظلام قد أرخي سدوله بحيث يصح ايقاد الغاز ، ولا النور بكاف لامكان القراءة، فأدرت ظهري الى النافذة ولم أفكر

فى شيء خاص. وبينما انا فى تلك الحالة من الهدوء والسكينة اذا بى قد اضعت معرفة المكان الذى انا فيه. وبدلا من أن ارى امامي حائط الحجرة واللوحات المعلقة عليها، اذ كشفت امامى وجهة بيتي في لوندرة وامرأتي واقفة امامه على عتبة الباب تكلم صانعاً ممسكا بيده مكنسة كبيرة . وظهر على وجه امرأتي انها متكدرة جداً، وأحسست انا للحال ان الرجل الذي يكلمها كان فى بؤس عظيم . لم اسمع حديثهما ولكن القى في روعى ان هذا الرجل يطلب منها المعونة . في هذه اللحظة قدم الي خادم الفندق الشاي، فزال هذا المنظر من امامي . فكان التأثير الذى احدثه هذا المنظر في نفسي من العظم، واقتناعي بحقيقته من القوة، بحيث اني بعد ان تناولت الشاى كتبت الى امرأتى كتابا اخبرها فيه بما حدث لى وارجوها ان تستزيد علما بأمر هذا الرجل وان تعينه على حاله بقدر ما تستطيع

« فاليك تفصيل ماحدث في لوندره . جاء غلام صغير فطرق باب داري (الذى على بعد ٢٣٠ كيلو متراً من المكان الذي كنت جالسا اذذاك فيه) فخاطب الخادمة متطوعا ان يرفع الثلج المركوم على الافريز وعتبة الدار في مقابل دريهمات . وبينما الغلام يتكلم اذا برجل اقبل في اطمار فقال للخادمة : ارجوك ان تخصيني انا بهذه الخدمة فان هذا الغلام قد ينفق الدريهمات التى يأخذها منك فى شراء حلوى، اما انا فمحتاج اليها لشراء خبز، فان في عنقي امرأة واربعة اطفال مرضي جميعا وليس لديهم ما يأكلونه ولا ما يستدفئون به . فرجته الخادمة ان ينتظر وذهبت فأخبرت امرأتى، فأقبلت تكلم الرجل المسكين . فكرر لها قوله بأنه كان مريضا وان اسرته في حالة بؤس شديد، ولكنه قبل ان يمتهن نفسه في التسول اراد ان يحاول ان يجد اى عمل كان

« فكان هذا المنظر هو الذى رأيته ساعة حدوثه، ويلوح لى انه انتقل الى بسبب تأثر عقل امرأتى بما سمعته من بؤس الرجل الفقير

« واليك آخر ماحدث ، فان امرأتي وعدت ذلك الرجل بأنها ستذهب الى داره في المساء وستنظر فيما يجب عمله لمساعدته، فلما ذهبت اليه وجدته صادقا . فأعطته ما

قدرت عليه من الدراهم والملابس والاغذية والوقود . ولست في حاجـة لأن اقول ان كتابي الذى وصل اليها صباح الاثنـين احدث لها دهشا عظيما . وبعـد ايام معدودة رأيت الرجـل بنفسي فوجدت انه هو بعينه الذى رأيتـه فيما رأيت . وقد وجد له عمـلا عند لبان وكان يأتي يوزع اللبن على سـكان الحي الذي انا فيه مدة سنتين »

دافيد فرازر هاريس

اليس في هذه المشاهدة الحقة دليلا مطلقا علي وجود خاصة للروح لاعلاقة لهـا بالعين المادية ولا شبكيتها ، ولا بالعصب البصري ولا بالمخ ؟ اليست الروح هي التي كانت تعمل وحدها في هذه المشاهدة ؟ وقد حدث فيها انتقال روحاني عن بعد لأن الرائي لم ير المنظر فقط ولكنه ادرك ايضا طبيعة الحادثة بين السائل وامرأته ؟

الاتصالات النفسية العقلية بين الاحياء ، قد تتكيف احيانا بشكل سماعي ، كما دللنا عليه فيما سبق . فيسمع الانسان صوتا او نداء ملحا ، وهذا الصوت وذلك النـداء يقابل رغبة او عزيمة او غرضا او امرا صادرا من بعيد يحمل السامع علي اطاعته . فاليك حادثة عظيمة الشأن جداً شهدها بنفسه الدكتور (نيقولا) والكونت (غونوميس) من جزيرة كورفو ، قال الدكتور المذكور :

في سنة (١٨٦٩) كنت من رؤساء الاطبـاء في الجيش اليوناني فألحقت بأمر وزير الحربية بحامية جزيرة (زانتا) . فبينما انا اقترب من الجزيرة لأشغل مركزي الجديد ، فكنت على نحو ساعتين من الشاطيء ، اذ سمعت صوتا باطنيا يقول لي بدون انقطاع باللغة الايطالية : « اذهب وقابل فولتيرا »

واخذت هذه العبارة تتكرر حتى حيرتني . واني وان كنت في حالة جيدة من الصحة في ذلك الوقت ، الا اني خشيت ان اكون مصابا بهذيان سمعي . ولم يكن عندي مايحملني على ان افكر في اسم المسيو (فولتيرا) الذي يسكن (زانتا) ، بل اني ما كنت اعرف هذا الاسم وان كنت رأيت صاحبه مرة منذ عشر سنين . فأخذت

اسد مسامعي وانشاغل بالكلام مع رفاقي فلم يجـد ذلك نفعاً، واستمر الصوت يطرق اذني على ماكان عليه

وصلنا أخيراً الى البر فيممت الفندق من فوري وأخـذت أفتح حقائبي ، ولكن ذلك الصوت لم يزايلني. وبعد قليل دخل على الخادم وقال ان أحدالناس بالباب ويريد أن يكلمني. فسألته من هو ؟ فأجابني اسمه المسيو (فولتيرا) . وما أتم الخادم هذه العبارة حتى دخل هذا الشخص وهو يبكي وفي غاية من اليأس، ورجاني أن أذهب معه لأرى ابنه الواقع في مرض شديد

« فذهبت معه واذا بابنه الشاب في حالة جنون مطبق وتهيج، عاري الجسم، في حجرة خالية، وقد يئس منه جميع أطباء (زانتا) من منذ خمس سنين. وكان منظره بشعاً، ويزيده بشاعة ماكان يعتريه من النوب المصحوبة بالصفير والجؤار والعواء وأصوات أخرى للحيوانات. وأحياناً كان يزحف على الارض كالثعبان، وأحياناً أخرى كان يجثو على ركبته في حالة ذهول . وفي اوقات اخرى كان يتكلم ويتشاجر مع كائنات. وكانت النوب الشديدة تنتهي بدور اغماء تام وطويل . وعند مافتحت عليه الباب هجم على بشراسة ، ولكني ثبت مكاني وأمسكت به من ذراعه ناظراً اليه بتحـديق . فلم تمض غير ثوان حتى قلت قوة عينيه، ثم أخذ يرتعد ووقع على الارض مغمضا عينيه . ولم تمر نصف ساعة حتى صار فى حالة انتقال نومي . فعالجته بهـذه الوسيلة مدة شهرين ونصف شهر رأيت فى خلالها أكثر من حادثة مفيـدة . وبعد ماتم له الشـفاء لم يقع فى انتكاس »

الدكتور نيقولا

واليك الكتاب الذي أرسله المسيو (فولتيرا) الى الكونت (غونوميس) في ٧ يونيو وفيه تأكيد تام لما سبق ذكره جاء فى آخره :

« قبل حضوركم الى زانتا لم تكن بيني وبينكم أدنى علاقة، ولواني أمضيت سنين كثيرة في جزيرة كورفو بمنصب عضو الجمعية التشريعية . ولم يكلم أحدنا الآخر قط، ولم أقل لكم كلمة واحدة عن حالة ابني، ولم أفكر فيكم ولم أطلب معونتكم ، حتى قصدت

ان اراكم عند وصولكم الى (زانتا) بوظيفة طبيب عسكرى، ورجوتكم تنجية ابني مما ألم به

« فنحن مدينين بحياته لكم، ثم للتنويم المغناطيسي. وأري من واجبي أن أقدم لكم شكري الخالص وان اوقع علي هذا :

محبكم المخلص الشاكر

ديمتريو فولتيرا — كونت كريسو بليفري

ويلى هذا توقيعات اضافية هي :

(لورا فولتيرا) امرأة المسيو فولتيرا و(ديونيزيو د. فولتيرا) الكونت كايسو بليفرى و (اناستازيو فولتيرا) الابن الذى كان مريضا . و (س. فسابولوس) شاهد و (لورنزو ميركاني) شاهد و (دمتريو) الكونت جيرينو شاهد

وكان الدكتور (بالم) *Balme* من نانسي بفرنسا يعالج الكونتس دو.ل. المصابة بالدسبيبسيا (وهو مرض معدى عصبى) . فكانت تأتي الى عيادته ولم تدخل قط الي بيته الواقع خارج المدينة. فبعد مضي ثلاثة ايام على احدى زياراتها اى في ١٩ مايو سنة ١٨٩٩، سمع الدكتور وهو داخل الى داره فى أثناء اجتيازه الدهليز هذه العبارة : « اني اشعر بألم شديد وليس عندى من يسعفنى بالعلاج » ثم سمع كأن جسما يسقط علي الارض . وكان الصوت صوت الكونتس دو.ل. فبحث الطبيب في الامر، فعلم ان احداً من البيت لم ير ولم يسمع هذه السيدة. فدخل الى حجرة عمله واوجد نفسه في حالة نوم مغناطيسي خفيف ونقل نفسه الي دار الكونتس فشاهد كل ما رآها تعمله واخذ به مذكرة

فلما جاءت الكونتس لعيادته اخبرته بجميع ماشعرت به، فرأى انه مطابق لما رآه بنفسه . ثم سألها قائلا :

«عن اي شيء كنت تبحثين حولك بعد ان دخلت الي حجرتك ؟ »

قالت : «كان يخيل الي ان انسانا ينظر الى»

***

فالسماع عن بعد لا يمكن تصديقه اذا لم نرد ان نعترف بوجود روح او نفس او انية نفسية (مهما كانت الكلمة المستعملة للدلالة عليها) تعمل خارجا عن الجسم وعن مرمي الحواس .....

وهذه الحوادث كلها من التلباتيا والانتقالات النفسية لا يمكن الشك فيها تبين ضروبا من الخصائص العلوية للنفس تخالف ما تعلمناه من البسيكولوجيا الفيزيولوجية الرسمية وهي : النظر والسمع عن بعد بواسطة الامواج النفسية

ليس لي ان اعود الى ما كتبته عن الانتقالات الفكرية . فان مسألة قراءة الافكار قد شوهدت مراراً في تجارب جديدة . واليك تجربة منها كتبها الدكتور (ج. دوميسيمي) عن وسيط له في حالة انتقال نومي قال :

« ان الكشف الذي كان يحدث لوسيطي كان يمتد الى قراءة افكار الحاضرين معي فقد رجوت مرة اثني عشر شخصا من الجمعية ان يقفوا امام الوسيط ورجوتهم ان يفكر كل منهم في نوع خاص من الازهار بدون ان يفضي واحد بما يفكر فيه لغيره . ثم التفت الي المنوم وامرته ان يسمى بصوت عال اسم الزهرة التى يفكر فيها كل من الحاضرين. فسماها كلها بدون ان يخطيء وبغير اقل تردد قارئا افكارهم كأنه كان يقرأ كتابا

(الدكتور ج . دوميسيمي)

هذه تجربة من مئة تجربة من هذا النوع . فالانتقال الفكري ثابت ثبوت انتقال الحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية الشمسية

فالابصار التلباتي يحصل بدون مساعدة الاعين ولا يمنعه طول المسافة ولا العوائق المادية . وليس الزمن بمؤثر فيه كالمسافة . فقد يرى الانسان حادثا حاضراً او ماضيا او مستقبلا على السواء . وهذا العمل النفسي يستخدم خاصة عقلية مستقلة عن الجسم

فاذا اعترض معترض على استدلالنا على وجود الروح من الشعور بالامور المستقبلة ، ومن هذه التأثيرات التلباتية ، بأن هذه الخصائص الطبيعية يمكن ان تكون من خواص

المخ لا من اصل عقلى مستقل عن الجسم، ولا يمكن ان تثبت وجود روح ذات شخصية متميزة في الانسان اكثر مما تثبته حاسة الشم القوية عند الكلاب او ميزة الحمام السياح.

اذا اعترض معترض بهذا اجبنا بأن التحليل الدقيق المشاهدات يؤدي كل عقل خالص من الاوهام الى ان يستدل منها استدلالا مخالفا لاستدلال المعترض. لان الامر فيها يتعلق بعمل فكرى لا بعمل جسمي. فنحن مغمورون هنا فى عالم روحاني غير منظور. فليميزوا هذه الشعورات الي مايسمونه الشخصية اللاشاعرة من الانسان *L'inconscient* او الشخصية التي دون الشعور *Le Subconscient* او التى مابعد الشعور العادى *Le Subliminal* الخ فالاسماء لا تهمنا فان الذى ندركه هنا هو وجود انية عقلية عاملة وهي الروح

فليست شبكية العين ولا العصب البصرى ولا مايتصل منه بالمخ هو الذي يعمل فى احداث هذه الامور، فان كل الاعمال التي يمكن تصور حدوثها من أية مادة مخية لا تستطيع ان تكون شيء في عقل الغير، ولا ادراك حادث يجرى في الجهـة المقابلة للتي نحن فيها من الكرة الارضية، ولا كشف امور لم تحدث بعد

اليك حادثة اخرى من النظر عن بعد جاءت فى غاية الاحكام رآها غلام عمره سبع سنين ارسلها مشاهدها الدكتور (جان) من اركان الحرب فى الحرب الاخيرة الي الاستاذ ريشيه (احد اعضـاء المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا بجامعة الطب الفرنسية) قال :

« منذ عشر سنين كنت اعالج فى قرية (كوجوليس) غلاما مريضا يناهز السبع سنين. فاستدعيت لعيادته فى صباح يوم من الايام دعوة مستعجلة. فقصت علي امه وهي مذعورة بأن ابنها اصابه دور لجائي من الهـذيان. وذلك انه استيقظ كعـادته ظاهراً عليه التحسن، ولكن ماوافت الساعة العاشرة حتي وقف في سريره مذعوراً من مشهد خيالى امامه. فكان يخيل اليه انه يري الماء في كل مـكان. ثم اخذ يستصرخ لتخليص ابيه، زاعما انه علي وشك الغرق. اما أبوه فكان غائبا في مدينة نيس حيث يقيم أخوه ليمضى معه بضعة ايام

فلما وصلت الي الفلام كان قد هدأ ، ولكنه مصر على القول بأنه رأي اباه وهو يغرق. وما لبثت أمه حتى ورد اليها تلغراف من أخي زوجها يستدعيها بسرعة وينبئها بأن زوجها غرق في نيس في الساعة العاشرة، حيث كان يريد تنجية أخيه من الغرق، وقد كان ألقى بنفسه في اليم تخلصاً من الالم . وكان آخر ما نطق به الاب قوله : «ياولدى المسكين»

يظن الظانون ان هذه الحوادث نادرة، أو غاية فى الندرة، ومشكوك فيها، وغير ثابتة، وهذا ضلال بعيد . فان أحاديثى مع الناس منذ نصف قرن اثبتت لى علي انه يوجد على الاقل واحد في كل عشرة علم سواء بنفسه، اوسماعا من احد اقاربه، اما حادثة تلباتية، اواخباراً بغيب، اوانذاراً بموت، اورؤية لشيء مستقبل، او اي حادث نفساني. ولكني لاأدرى لماذا يكتمون ذلك ويبالغون في اخفائه كأنه شيء لا يصح التصريح به . لاشك ان هذا أثر من آثار التربية الضالة أو الخشية الوهمية

ان التلباتيا (اى التأثر والتأثير عن بعد بواسطة الروح) ارسخ أساساواعم اصولا واكثر ثبوتا من اى دين كان في العالم . فان الحوادث التي تأسس عليها الدين المسيحي على اختلاف شيعه (الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية الخ)، او التي قامت عليها الديانة اليهودية والاسلامية والبوذية ، وسائر الاديان الاخري التي تتوزع البشرية ، قد شوهدت بأقل تدقيق وأدني عناية، وأضعف تدليلا، من المشاهدات النفسية التي ندرسها فى هذا الكتاب . وهذا ماحدا بالنفوس الحريصة علي القرب من الحقيقة أن تلجأ الي المباحث التجريبية التي نتابعها هنا كالجأت غيرها الى الاديان

الابصار بدون الاعين ،

اى بالروح خارجا عن الانتقالات التلباتية

(الكشف)

« الحوادث اذا جاءت مناقضة لنظرياتنا »
« المقررة تفيدنا أكثر مما اذا جاءت مؤيدة لها »

السر همفرى دافي

اذا كانت الحوادث التي لا يمكن الشك فيها، الدالة على تأثير الارادة بدون وساطة الكلام، ولا أية اشارة خارجية، وكذلك الانتقالات الفركية عن بعد، تبرهن ان فينا شخصية عقلية تفكر وتدبر وتنقل تأثيرها الي ما بعد مدى حواسنا العضوية، فان هنالك مشاهدات لا تقل عنها ثبوتا عن النظر بدون الاعين تؤتينا بشهادات أخري مستقلة عن الشهادات السابقة، ولكنها مؤيدة ومكملة لها

ان هذا الموضوع الخاص هو من الثروة والثبوت بحيث انى لما شرعت في دراسته منذ سنين، اضطررت أن أفرده بالتأليف ووضعت فيه سفراً لم يطبع بعد ، سأختار منه هنا بعض البراهين ذات الدلالة ، ليست من الانتقالات التلباتيــة التي درسناها آنفا، ولكن يمكن ان تضاف اليها . وفى هذا الموضوع طبقة غريبة من الحوادث الخاصة تعوز الدرس والتنقيب

لا مشاحة في ان هذه الحالة هى احدي الخصائص الروحية المجهولة، ودراستها أعود بالفوائد من غيرها . فقد شوهد ان افراداً اختصوا بها وهم في حالتهم العادية، خارجا عن حالتي الرؤي والانتقال النومي، سواء كان طبيعيا او صناعيا . ولكننا نشاهد هذه الظواهر في هذه الحالات من النوم خاصة

هذا النظر عن بعد سواء كان مباشرة او بقراءة فكر يجول في مخ الغير، يشهد بأنه يوجد فينا أصل كشاف غير مادى وله شخصية خاصة به . فالزعم بأن المادة الحية تفرز الفكر ، يعتبر من الآراء الغريبة في الجراءة . واذا أضيف الى هذا الزعم زعم آخر وهو

ان المخ يرسل بالفكرة تبحث عن مخاخ الغير تتصيد مافيها وتشرحه ، لهو أدخل في الغرابة مما مر . وهو من قبيل الخلط بين المعلول والعلة ، لان هنا أيضاً يظهر الفكر انه العلة لا المعلول ، فان عمله لذاتي واضح لاغبار عليه

واذا كانت توجد جمهرة من الكلمات تصلح لان تحمل رجلا من رجال العلم على ان يصرخ ويولول من الغضب فهي هذه العبارة : الابصار بدون الاعين ، بالجبهة او الاذن او المعدة او الانامل او الارجل او الركب ، اى بالبصيرة الباطنية ، من خلال الاجساد الكثيفة ، اوعن بعد مسافات كيلو مترية بعيدة . فياله من تأكيد لاشك فيه لحوادث مناقضة للعرف ؟

الجبهة والمعدة والايدى والارجل والركب ليست بأعضاء للابصار ، ولا الابصار الذي نذكره يحدث منها ولكن الروح هي المبصرة فى كل ذلك

فالبيولوجى الذي يعرف كنه الابداع الفائض على الجهاز البصرى من العين ، ويدرك كمال استعدادها لتلقى الصور ، لا يستطيع ان يقبل ان هذه الصور يمكن ان تدرك بدون تركيب آلى صالح لها كتركيب العين ، وهي منتهى الكمال للتطور العضوى فى خلال الآماد ، اي انها تطورت من تركيب ساذج لعين (التريلو بيت) الذى كان موجودا في العهود الجيولوجية الاولى ، الى تركيب العين البشرية

اما من جهتي انا فقد لبثت سنين وسنين ممتنعا عن تجربة هذه المسألة رغماً عن تأكيدات اصحابي من علماء النفس ، والتأكيدات التى صادفتها في مؤلفات المغطسين . فان العالم الفلكي هو آخر من يقبل ان يدرس مثل هذه المسألة . وكنت لا استطيع ان امتنع عن الفكر ، في هذه المناسبة ، فيما يعمله مشعوذة الموالد ، وفي جميع حيل مدعي قراءة الافكار التي نتلهي برؤيتها في الصالونات

ولكنى بعد البحث الذي عملته فى سنة ١٨٩٩ عن الظواهر النفسية ، اضطررت ان انشر في الفصل الثامن من كتابي المسمي (المجهول) ٤٩ حادثة جديرة بالتصديق عن النظر عن بعد مناما . ثم عزمت على دراسة هذه المسئلة ذات القيمة الخطيرة دراسة حرة وبدون فكرة سابقة عنها ، وكانت خاتمة بحثي ان اؤكد في هذا المؤلف (صفحة ٣٧٩)

صحة التصريح الآتي وهو : «يمكن الابصار بدون الاعين والسمع بدون الآذان، لا بامتداد سلطان حاستي البصر والسمع، لان المشاهدات تثبت العكس ، ولكن بحاسة باطنية نفسية عقلية »

. . . . . .

المشاهدات التي سنحاول تقديرها قدرها هنا تثبت صحة المقدمات التي نشرتها عنها منذ عشرين سنة، والاعتراضات التى اعترض بهـا علينا من الخطأ والانخـداع والتدليس والاخفاء والتزوير والشعوذة وكل مايمكن تصوره، تفني وتستحيل بخاراً وتدع الحقيقة وحدها تتلألأ في سناها كله

الموضوع الذى أؤيده هنا رئيسي من الوجهة الفلسفية، لان نتيجته ابطال الاصل الذى قرره ارسطو ولوك وكونديلاك وجميع زعماء المذهب الحواسي وهو: «كل مايكوّن ادراكنا يرد الينا من طريق الحواس» . وذلك انه اذا أمكن الابصار بدون الاعين فانما يكون ذلك بعمل خاصة نفسية باطنية ، اى بقوة مجهولة مستقلة عن حاسة الابصار العادية. فالادراك يقبل والحالة هذه معارف ليست آتية من الحواس

. . . . . .

أول مشاهدة حسية لفتت نظري منذ زمن بعيد على هذه المسألة البسيكولوجية الغريبة، هى الرواية المحققة التي نقلتهـا دائرة معارف (ديدرو ودالمبـير) في مادة (انتقال نومي)

وهذه الرواية يضمن صحتها شاهد ندهش من وجوده في هذا المقام وهو أسقف بوردو . واليك ماجاء في تلك الدائرة وهو :

« حـكي لي هذا الاسقف انه لما كان بالدير عرف كاهناً شابا كان مصـابا بالانتقال النومى

« فأحب ان يعرف طبيعة هذا المرض، فكان يتسلل الى حجرة ذلك الكاهن لما يعلم انه قد نام ويراقب مايحدث له . فرأى انه كان يقوم ويتناول ورقة ويكتب عليها خطبا . فكان اذا أتم كتابة صفحة قرأها بصوت عال من اولها الى آخرها (اذا كان

يمكن أن نعبر بلفظ قرأ عما كان يعمله بدون وساطة عينيه) فاذا لم يعجبه شيء فيها كان يرمجه (اي يشطبه) ويكتب تصحيحه فوقه بدقة عظيمة

« قال قرأت مرة مقدمة احدى هذه الخطب وهي خطبة عيد الفصح . فرأيت انها في درجة حسنة من الاتقان وخالية من الخطأ ، ووجدت بين التصحيحات واحد يوجب الدهش . فقد كان كتب في بعض جهاتها هذه العبارة: «هذا الطفل الالهي» فاستحسن بعد أن طالعها أن يبدل كلمة المعبود بكلمة الالهي فرمج هذه الكلمة الاخيرة ووضع فوقها بالدقة الكلمة الاخري . ولكنه رأى بعد ذلك ان اسم الاشارة وهو ce الذي كان يليق بكلمة إلهي (divin) اصبح لا يتفق مع كلمة المعبود (adorable) فأضاف عليه بكل حذق حرف (t) لتقرأ العبارة هكذا cet adorable enfant

« فأراد هذا الشاهد العياني لهذه المشاهدات ان يتأكد من ان الكاهن النائم لم لم يستخدم عينيه فيما يكتب فوضع ورقة غليظة (مقواة) تحت ذقنه بحيث لا تسمح له بأن يري الورقة التي يكتب فيها علي المكتبة ، فاستمر النائم يكتب بدون ان يصده ذلك الحائل» انتهي

وانا انقل هذه المشاهدة البعيدة العهد لاجل أن ألفت نظر قرائي الى المشاهدات التي لا تحصي بعد هذا العهد عن النظر عن بعد بدون الاستعانة بالعضو البصري بواسطة الاشخاص الذين هم في حالة الانتقال النومي، سواء كان طبيعيا أو صناعيا . فقد حدثت المشاهدة المتقدمة في سنة ١٧٧٨ وقرأتها أنا في سنة ١٨٥٦ في بلدة العالم (ديدرو) ذاتها

هذه الامثلة من ابصار المصابين بالانتقال النومي في الظلام، ليست من الندرة بحيث تكون مجهولة . فكثير من الناس يعرف عنها شيئا ، اما انا فقد صادفت في سنة ١٨١٦ في قصر كليفمون في مقاطعة المارن العليا، شابة في العشرين من عمرها كانت تقوم في الليل وهي لا تشعر ، وتتم في الظلام عملا كانت بدأته في النهار من الخياطة او الزركشة

اننا نستطيع تشبيه هذه الخاصة الابصارية بخاصة الهررة والفيران والبوم ولا تكون في هذه الحالات إبصاراً بغير الاعين ولكن كيف نغفل عن ان شبكية اعين هذه الحيوانات ذات تركيب خاص وبعضها لا يبصر بالنهار قط؟

ويمكننا أن نسأل أنفسنا أيضاً عما اذا كانت هذه الاعين تخترق الاجساد الكثيفة كالعين الفوتوغرافية لأشعة رونتجن مادام السطح المرسل للأشعة لا يرسل منها شيئا ؟

علي ان هذا لايخرج عن كونه افتراضاً فيه شيء من الجراة. وسنرى انه لا ينطبق على الملاحظات الآتية

فلنبق مؤقتاً في القرن الثامن عشر . فما أبطأ العلم في تقدمه !

في سنة (١٧٧٥) في عهد مسمر أجرى المركيز دوبويجور تجارب غريبة مدققة على الانتقال النومى الذي يتحصل عليه بالتنويم المغناطيسي. فاليك واحدة منها:
أنام الماركيز المذكور مرة شابا في الرابعة عشرة وهاك ماكتبه عنه:

« لما سألته عن مركز الالم الذي يشكوه ، أجابني بقوله انه لما كان يحمل احجاراً على معدته منذ سنة أجهد نفسه اجهاداً عظيما فنتج من ذلك ان تراكم فيها سائل هو الذى يسبب له الآلام التي يشكو منها

« فسألته : أتظن انك تشفى من هذا المرض قريبا ؟

« فأجابنى بعد ان قبض على يدي قائلا : نعم ياسيدى سأشفى بعد ظهر الغد في الساعة الرابعة والنصف . ثم أشار عليّ بعدم تنويمه الا مرتين ، مرة في اليوم التالي في الساعة العاشرة والنصف ، ومرة اخرى في اليوم الذي يليه

« وكان يشكو من ألم شديد برأسه . فلما سألته من أين يأتيه هذا الألم ؟ قال من المعدة

« فسألته هل توجد صلة بين المعدة والمخ ؟ فأجاب نعم

« فسألته ماهي تلك الصلة ؟ فقال هي قناة

« فسألته في أى الجهات تسير هذه القناة ؟ فأجاب مشيرا الى سير العصب السمباتوى اليساري العظيم

« فسألته بأى شيء ترى داءك ؟ فقال انه يراه بأطراف أصابعه

« فقلت له اذن يجب عليك ان تجس جسمك لتعرف داءك ؟ فقال نعم »

وفي اليوم التالى اعطي هذا الغلام دلالات عن الخواص المغناطيسية الممتازة للاصابع المختلفة من اليد

هذه المشاهدات استمرت من منذ مئة واربعة وثلاثين سنة . منها جانب عظيم لاطائل تحته وقد أسيئت مراقبتها فهي ملأى بالانخداعات والضلالات . ولكن بعضها له قيمة لا يمكن نقضها، وهي تثبت بأنه توجد وسائل المعرفة تخالف الوسائل العادية

ان قرائي يعرفون الامثلة التي نشرتها عن هذا النوع فى كتابى (المجهول) ومنها مشاهدات ذات صفة خاصة لاأتمالك نفسي من التذكير بها هنا بايجاز

فيرى القارىء في صفحة (٤٩٦) في الفصل الثالث والخمسين المشاهدة التشريحية التي لايمكن الشك فيها فى العمل الجراحي الذي اجراه الدكتور (كلوكيه) في ثدى مدام (بلانتان) التي أنيمت نوما مغناطيسيا فلم تحس بأقل ألم، وكانت في أثناء العمل تتكلم بهدوء مع الطبيب ، وكانت بنتها مدام (لاجانديه) قد أنيمت أيضا في تلك اللحظة، فرأت باطن جسم أمها ، وأثبت التشريح فى أدق التفاصيل صحة ابصارها بدون عينيها

« سألها الدكتور : أتظنين اننا نستطيع ان نحفظ حياة امك مدة طويلة ؟

« فقالت : لا، انها ستموت فى بكرة الغد بدون نزع ولا ألم

« فسألها الطبيب: ماهي الاجزاء المريضة منها ؟

« فقالت : لقد تقلصت رئتها اليمني وتدخلت في نفسها وهي الآن محاطة بغشاء اشبه بالصمغ، وعائمة في وسط ماء غزير . ولكنها تشكو علي الاخص من هذه الجهة، واشارت الي الزاوية السفلى من عظم الكتف، والرئة اليمنى لاتؤدى وظيفتها اصلا، فهي

ميتة . اما الرئة اليسري فسليمة، وبها وحدها بقيت امي حية، ويوجد قليل من الماء في غلاف القلب

فسألها الطبيب : فكيف ترين اعضاء البطن ؟

فأجابتها قائلة ان المعدة والامعاء سليمة ، والكبد ابيض فاقد لونه من جهة سطحه»

فماتت المريضة في اليوم التالي وشرحت الجثة ونومت مدام (لاجانديه) فكررت بصوت ثابت وبلا تردد ماسبق لها قوله للدكتورين كاوكيه وشابلان . فقادها هذا الاخير الي الحجرة المجاورة التى ستشرح فيها الجثة واقفل عليها الباب باحكام فأخذت تتبع سير المشرط في يد المشرح، (وهي لاتراه)، وكانت تقول للاشخاص الذين بقوا معها لمراقبتها : «لماذا يجعلون الفتح من وسط الصدر اذا كان الانسكاب في الجهة اليمني

فظهر ان كل ماقالته المنومة صحيح . وكتب الدكتور (دونسار) محضر التشريح بيده

قال ناقل هذه التجربة وهو (بريردو بواسمون) ان شهود هذه المشاهدة كلهم احياء ويشغلون الآن في العالم الطبي درجة عالية . وقد أول المأولون تجربتهم تأويلات شتي ، ولكن لم يشك احد في صحتها . ومع ذلك فقد رأيت (علماء) من اهل الوقار يستلقون على اقفيتهم ضحكا عند مايسمعون هذه الهذيانات في زعمهم

هذه مشاهدة لايمكن الشك فيها من نوع الابصار بدون الاعين . ويمكننا ان نضيف اليها حالة الخادمة التي أنيمت نوماً مغناطيسياً بينما نزل سيدها الى مخزن الخمر للاتيان بزجاجة منه ، فقد صاحت قائلة انه قد انزلقت رجله في السلم وسقط . فلما صعد وجد امرأته عارفة بما جرى له وبجميع الدقائق التى حدثت له في رحلته الى المخزن الارضي، فقد اخبرتها به المنومة في حين حصولها (انظر كتابنا المجهول صفحة ٤٩٩)

وكان احد الميرالايات الفرسان ينوم امرأته ، فحدث له توعك فاستدعى احد الضباط من فرقته لتمريضه، فلبث عنده ثمانية ايام او عشرة ايام . وبعد ماشفي بمدة

انام الميرالاي امرأته وكلفها ان تأتيه بخبر عن ذلك الضابط لانقطاع كتبه. فصاحت قائلة : « مسكين انه في . . . ويريد ان يقتل نفسه ، هاهو يتناول المسدس ، أسرع اليه » فاندفع الميرالاى وركب حصانه وقصده ، ولكنه ماوصل اليه حتي وجده قد نفذ عزيمته

وفي سنة ١٨٦٨ في مدينة استراسبورغ كان الدكتور (كوبرايه) يعمل عملا جراحيا لشابة ، فأخبرته بأن لديها كيسافى المبيض ، ووصفته وصفادقيقا ، وكان الدكتور من ابعد الناس تصديقا لامثال هذه الامور . ولكنه بعد ان فتح بطنها وجد أن الكيس علي ماوصفته تماما

وقد نقل (هنرى دولاج) في كتابه اسرار النوم المغناطيسي المشاهدة الآتية التي حصلت في دار الفيكونتس دوسامارس مع الوسيط الكشاف المشهور (اليكسي) الذي نومه (مارسيلليه) قال :

« حضر فيكتور هوجو (الشاعر الكبير) هذه الجلسة علي عادته من حب الاطلاع وكان معداً لفة من الورق مختومة كان في وسطها كلمة واحدة مطبوعة بأحرف كبيرة فأخذها المنوم وادارها في يده مراراً ثم اخذ يملي هذه الاحرف *P* و *O* و *L* و *I* اي *Poli* ثم قال اني لارى الحرف التالى لهذه الاحرف ولكني اري الاحرف التى تأتي بعده وهي *I* و *Q* و *N* و *E* ثماني احرف لا تسعة . . . و *T* فتكون كلها كلمة *Politique* . نعم هي هذه الكلمة بعينها والكلمة مطبوعة علي ورق اخضر رائق قطعها المسيو (هوجو) من كتاب اراه فى داره .

ثم سأل (مارسيلليه) فيكتور (هوجو) عن صحة ذلك . فبادر الشاعر باعلان شهادته في صحة كشف الوسيط . ومن ذلك الحين اصبح فيكتور هوجو من اشهر المدافعين عن وجود بصر ثان في الانسان »

ونقل المسيو (دولاج) في كتابه ذلك ماياتي ايضا :

« نشرت جريدة (البريس) فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٤٧ فصلا مطولا عن جلسة مغناطيسية قرأ فيها الوسيط (اليكسي) ليس صحفا عديدة في خلال كتب مقفلة فقط ،

ولكن رسائل مختومة، فأثبت بذلك ان السيال المغناطيسي باضاءته الوسيط بنور علوي يسمح لروحه باختراق أشد الاجسام كثافة بسهولة لا يدانيها كل ما يتخيله الخيال عن القوي السحرية

« وقد كان محضر هذه الجلسة موقعاً عليه باسم (الكسندر دوماس) وقد حصلت في داره بالريف في حضرة رجال شرفاء شهدوا جميعاً بصحتها في المحضر المذكور. ولقد كان دهشهم عظيما

« وأراد (دوماس) أن يعيد المشاهدات التي رآها بنفسه فأقنعناه بأن ينوم (اليكسي) ففعل . فروت لنا روح الوسيط تاريخ خاتم كان أهدى الي (دوماس) ، وذكر اسم اليوم الذي ملكه فيه الرجل الذي أعطاه اياه. ثم أخذت روحه تصف، وهو كالعصفورة التي لا يصدها شيء عن اختراق الهواء محمولة على جناح ارادة غريبة عنه ، مدينة تونس وضواحيها، ولم يكن يعرف عنها وهو في حالة اليقظة غير اسمها، وبالجملة فقد تغلب على المكان والزمان معاً . وقد ذكرت بضع جرائد اخرى. ولما لم تستطع هذه الصحف أن تتهم أمانة هؤلاء الذين شهدوا بأنهم رأوا هذه الخوارق بأعينهم، حاولوا أن يهزأوا بهم باعتبار انهم أمناء ، ولكنهم انخدعوا بسبب سذاجتهم . وصرحوا بأن (روبير هودان) يفعل بواسطة شعبذات متقنة جميع هذه العجائب كل ليلة في بهو السراي الملكية . ولكن مما يؤسف له ان هذا المشعوذ المشهور كان قد كتب قبل ذلك كتابا الي المركيز (دوميرفيل) أعترف له فيه بعجز صناعته عن توليد هذه الخوارق، وشهد بأن هذه الظواهر لم تحدث بأية وسيلة من وسائل الشعوذة المحكمة

« واليك نص كتابه ذلك :

« في جلسة عند (مارسيلليه) حصلت هذه المشاهدة الآتية :

« قد فضضت غلاف رزمة من ورق اللعب أتيت بها معي بعد ان وضعت علي ذلك الغلاف علامة خشية ان يبدل به سواه وخلطت الورق ، وكان علي ان افرقه ، فأعطيته منه، متخذاً جميع التحوطات التي يتخيلها رجل مثلي متمرن على دقائق صناعته،

ولكن تحوطاتي لم تجدِ فان (اليكسي) وقفني مشيراً الى ورقة وضعتها أمامه على الخوان قائلا: « عندك الملك . فقلت له ليس لك علم بذلك

«فقال ستري ذلك فالعب . وفي الواقع رميت الثمانية (الكارو) فقابل ذلك بالملك (الكارو) . فاستمر اللعب على صورة مدهشة، لانه كان يخبرني عن الورق الذي سألعب به مع اني كنت واضعاً اياه تحت الخوان ومخفياً اياه في كلتا يدى. وفي مقابل كل ورقة كنت اضعها كان يضع اخري بدون ان يعيدها وكانت تأتي مناسبة كل المناسبة للورقة التي لعبتها بنفسي

« فعدت من تلك الجلسة وانا فى اقصي درجات الدهش، ومقتنع بأن الاتفاق أو المهارة لا يمكنهما انتاج مثل هذه النتائج العجيبة . تقبل الخ الخ

باريس في ١٥ مايو سنة ١٨٤٧ (روبير هودان)

« فالمشعوذ المشهور انتقم بهذا الاعتراف للتنويم المغناطيسى من المهاجمات التي يستهدف لها دائما بتصريحه علنا بأن صناعته تعجز عن الاتيان بهذه الانواع من الخوارق، وأعلن اعتقاده بها اطاعة لذمته»

«المستشار القضائى (سيجبير) ذهب خفية ذات يوم الى (اليكسي) وسأله:

«أين كنت من ساعة الزوال الى الساعة الثانية ؟

«فقال له : كنت فى غرفة عملك ، وانى لأراها مشحونة بالاوراق والالفائف والصور والآلات الصغيرة . وأرى أيضاً علي مكتبك جرس جميل

« فقال له : لا ، لا يوجد جرس على مكتبي

« فأجابه اليكسى قائلا : انى لا أخطيء ، ان هنالك جرساً فاني أراه وهو علي يسار وعاء الورق على المكتبة

« فأسرع المسيو سيجبير الى داره فوجد جرساً علي مكتبته وضعته امرأته هنالك بعد الظهر »

ونقل المسيو (دولاج) ان الكونت (دوسانت اولر) السياسى المشهور بعد أن كان يعتبر النوم المغناطيسي من الهذيان غرم في سبيله غرامة شريفة . وذلك انه راهن

بأن يثبت انه يستحيل على (اليكسى) رغما عن ادعاءاته ان يقرأ ورقة مخبوءة داخل ظرف محكم الختم. وذهب اليه ومعه ظرف سميك مختوم ختما سياسيا محكما وقال له :

ماذا في هذا الظرف؟

فأجابه: فيه ورقة مطوية أربع طيات

فسأله : وماذا على الورقة؟

فأجابه: نصف سطر

فسأله : أتستطيع أن تقرأها ؟

فأجابه نعم ، ومتي فعلت فسترجع عما كتبته فيها

فقال له: لا أظن ذلك

فقال له: أنا متأكد منه

فقال السفير: اذا أفلحت في ذلك فاني أعدك بأني أصدق كل ماتقوله

فقال له : فصدق من هذه الساعة فقد كتبت فيها هذه العبارة (أنا لا أصدق)

وأشار (روسل ولاس) الطبيعي الانجليزي الكبير أيضا الى مشاهدات من الكشف شهدها الدكتور (جريجورى) ونشرها فى كتابه المسمى (رسائل على التنويم المغناطيسى) ،جاء منها ان أشخاصا حضروا الي جلساته لمشاهدة التجارب، وكانوا اشتروا من محل من المحلات بضع دوزينات من حكم مطبوعة وموضوعة داخل قشور الجوز . فوضعوا تلك القشور في كيس فكان المنوم يخرج منها واحدة ويقرأ مافيها وهي مودعة داخل قشرتها . فكانوا يكسرون القشرة ويجدون ماقاله عما فيها صحيحا. وامتحنوه على هذه الصورة بقراءة بضع دوزينات من هذه الحكم ، فلم يخطيء فى واحدة منها . وكان عدد كلمات احدى هذه الحكم ثماني وتسعين كلمة

فأضاف العلامة (ولاس) الى هذه التجارب قوله اننا مع وجود شهادات الدكتور (جريجورى) والدكتور (مايو) والدكتور (لى) والدكتور (هادوك) ومئات آخرون من رجال لايقلون عنهم قيمة علمية ولاطهارة ذمة، وكلهم يؤكدون حوادث مشابهة بعضها لبعض لانستطيع ان نفرض ان جميع هؤلاء الناس وقعوا في اشراك تدليس لم

يمكنهم فضحه ، وخاصة اذا كان أولئك الناس أطباء شكاكين أتوا لتشخيص الامراض، ومنهم أستاذ في صناعة الشعوذة وهو (روبرت هودان). فاما ان تكون كل مشاهدة من مشاهدات الكشف بالنظر التي رواها الشاهدون، (وهي تعد في الواقع بالالوف)، نتيجة التدليس ، واما ان نجزم بأنه قد أصبح لدينا البرهان الدامغ على ان لبعض الناس حاسة باطنة يجب علينا درسها . واذا كان النظر العالي في ندرة هذا النظر الخارق للعادة ، كان من الصعب التدليل علي صحة هذه الخاصة العجيبة ولكن أمر النظر العالي الذي نذكره قد أصبح واضحاً وضوحا حاسما لدي الذين جربوه ولم يسرفوا في هذا الرأي الطفلي وهو اننا نستطيع أن نميز « بلا دليل » بين ما هو ممكن وما هو مستحيل

« لقد أجريت هذه التجارب مئة مرة، وخاصة بين سنة ١٨٢٠ و١٨٦٠ ويكفي ان نطالع فيها مؤلفات الدكتور بيرتران *Bertrand* وبتيتان *Pételin* والجنرال نوازيه *Noizet* ودولافنتين والدكتور كومبه ومجربون أخر كثيرون في ذلك العهد لنقتنع بقيمة هذه الخاصية وحقيقتها المطلقة

«وقد أراد مجرب نشط من هؤلاء وهو الدكتور (فرابار) *Frapart* ان يقنع علما من اعلام العلم الرسمي وهو الدكتور (بويو) *Bouillaud* المدرس بجامعة الطب، والعدو الألد لهذا الموضوع، فأرسل اليه كتابا بلهجة الآمر المتحدي

فأجابه ذلك الرجل الكبير بمثل لهجته قائلا له ان له الحق في أن لا يصدق، وليس عليه أن يطيع أوامر الدكتور فرابار وهذا نص ما كتبه له:

« اما عن الموضوع المغناطيسي الجديد الذي تكلمني عنه، ويظهر لك انه يصلح لأن يحدث هذا الحدث الضخم، وهو اقناعي، فلا أرفض أن أحضر شهود مثل هذه الخوارق، ولكن ماذا كنت قائلا لواجبتك بعد شهودها بهذه العبارة الشهيرة التي قالها فيلسوف من نوعي : « أنا أصدق بهذا لأنك رأيته ، ولكني لو رأيته أنا نفسي لما صدقته » ؟

« ان التجربة التي تخبرني عنها لا يمكن أن تثبت أمراً مستحيلا في الطبيعة كالنظر

بدون وساطة الاعين ، وليس عندي الا ماقلته المجمع العلمي، وهو انه متي ذكرت هذه الخوارق وجب على المجمع العلمي ان يقف حيالها كوقفه حيال من يخبره بأنه وجد تربيع الدائرة » انتهي

يدرك القارىء ان عبارة (اذا كنت رأيت ذلك بعيني لما صدقت لانه مستحيل طبيعيا) لم توجه الي أذن صماء ، مع العلم بأن الدكتور فرابار مستقيم الطبع وشديد النضال . لذلك لم يأبه بالصبغة الرسمية للدكتور البروسفور بويو الذى رد عليه بقوله :

« اليك كلمتي الاخيرة : انا لاأصدق وان أصدق ان الانسان يري بدون وساطة عينيه، وليس الامر كما تقول انى انكره لانه خارق للعادة، بل لانه فوق الطبيعة. وازيد على ذلك لأنه ضد الطبيعة

« وانا اصدق بمشاهدات كثيرة خارقة للعادة، واذا كنت لاأصدق ماتقول فليس ذلك لانى لاافهمه ، بل لانه مستحيل فيزيولوجيا استحالة واضحة جلية »

فأجابه فرابار في سنة ١٨٣٨ كما يجيبه كل رجل سليم الفطرة فى أيامنا هذه فقال:

« ليس لأى عقل مهما كانت درجة اتساعه ان يضع حدوداً للممكن وغير الممكن. لان الممكن لاينتهي الي حد كالمكان والزمان. ونحن وان كنا قد حددناه فى نظرياتنا فهو يتعداها في كل لحظة ويسخر من ضيق عقلنا . وغير ذلك، ألم تعلمنا التجربة ان ما يظهر لنا مستحيلا اليوم قد يكون بديهة الغد . . هكذا كان الحال حيال اكتشاف امريكا وبارود المدافع، ودورة الدم، والكهرباء الجلوانية، والبوصلة، وآلة الطباعة، ومانعة الصواعق، والطيارات، والتلقيح، والعلاجات المقطرة الخ الخ . اما مايقوله لنا العقل فهو انه لايوجد خطأ محض الا في الامرين المتناقضين ولاحق محض الا فيما هو بدهي

« وعلى ذلك يمكن الانسان ان يقول انه من المستحيل ان يرى مثلثا بغير ثلاثة اضلاع، اوعصى لاطرفين لها، لان هذه الامور متناقضة، ولكنه لايستطيع ان يقول يستحيل ان رجلا يمكنه ان يقرأ من قفاه، وان آخر يسمع من فم معدته، وثالثا يرى عن بعد مائة فرسخ، ورابعا ينبيء عن الغيب، وخامسا لايشعر بالالم ، وسادسا يشخص داءم.

وادواء سواء، وسابعاً بايلهم بوصف العلاجات . لا ، لا يستطيع احد ان يقول، بدون ان يحط من كرامة العقل، بأن هذه الحوادث بدهية الاستحالة، لانه ليس لاحد الحق ولا القدرة بأن يقول لممكن : «انك لن تصل الي هذا المدى» .

« وفي الواقع، إن هذه الظواهر الخارقة للعادة جـداً ليست أكثر ادهاشاً ولا عجباً ولا استعصاء على التعليل من الظواهر التى نشاهدها كل يوم . أليس كل شيء فى الطبيعة غامض وعجيب ؟ ولكن يوجد عجائب تجري في الطرقات، وأخري قليلة الشيوع، فيخيل للانسان انه قد فهم الاولي لانه يراها على الدوام، وينكر الثانية لانه لا يراها الا نادراً . ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يعلل هذه ولا تلك فهو يشاهدها وكفى »

هذا التدليل من الدكتور فرابار الذى لم يفهم اذذاك، كان أرفع من العناية المذهبية للدكتور بوبو رغماً عن الرفعة الرسمية لهذا علي زميله المتواضع . والمجمع العلمي للطب الذي يمثل بوبو رأيه بقى مصراً على مجافاة الحقيقة

الاستاذ بوبو الذى كان عضواً بالمجمع الطبي، وبالمجمع العلمي أيضاً، وبجميع المجامع العلمية المشهورة، كان نموذجا خاصاً لهذه العقول الضيقة المحصورة فى أحرج المخاخ البشرية التي يمكن تصورها . فكان متديناً عن اقتناع ، وغير صالح لحرية البحث علي الاطلاق، فهو الذى حكيت قصته في كتابي «المجهول» بمناسبة اختراع الفونوغراف . ففى ١١ مارس سنة ١٨٧٨ حضرت جلسة المجمع العلمى في اليوم الذى قدم فيه الطبيعي دومرنسل فونواغراف ايديسون الى هذا المعهد العلمي . فلما لقن الفونوغراف ما لقن أخذ يعيده كما هو محفور على اسطوانته، عندذاك خف عضو من المجمع ذو سن ناضجة، وعقل راجح، وفكر مشبع بالاساطير الرسمية، وأبدى هياجا ضد جرأة المخترع، وانقض على ممثل اديسون وقبض على مخنقه وهو يصيح : «أيها الرجل الخبيث مثلنا لا ينخدع لمشعوذ يتكلم من بطنه » . فكان هذا العضو الموقر هو المسيو بوبو المذكور . وأغرب مما مر انه بعد مضي ستة أشهر أى في ٣٠ سبتمبر فى أثناء انعقاد المجمع، رأي من واجب الشرف أن يعلن انه بعد أن درس الفونوغراف درساً مدققاً، ظهر له انه كلام من البطن وان مما لا يقبله العقل أن يتأتي لمعدن حقير أن يقوم مقام الجهاز الصوتى

الانساني الكريم . فكان الفونوغراف فى نظره من الاضاليل السمجة ، فهؤلاء القوم الذين يصدق عليهم قول الشاعر بأنهم مشدودون خلف مركبة الترقي ، يؤخرون كل رقى ، ويعاكسون كل تقدم ، وينجحون فى اخفاء كل نور عن الدهماء الذين لا يعون شيئا

هذا الرجل الكبير كان طبيب (ارسين هوسيه) ويمكننا أن نقرأ في اعترافات هذا الكاتب المبدع بأن هذا الرجل كان سببا فى موت امرأته الجميلة وابنها ، وفي موت امرأته الثانية أيضا

هذا هو التعقل (العلمي) لبعض العلماء فنرجو أن يهب لقب عضو في المجمع العلمي شيئا من الذكاء لرجاله وأن يفتح عقولهم

ان ما قلناه عن الاستاذ (بويو) ينطبق علي زميليه في المجمع العلمي (شيفرول) و (بابينيه) فيما يتعلق بالمسئلة النفسية

فقد كتب صديقي المأسوف عليه الدكتور (ماركاريو) فى سنة ١٨٥٧ في كتابه (عن النوم والاحلام والانتقال النومى فى صفحة ١٩٥) يقول :

« ان النظر من خلال الاجسام الكثيفة وعلى مسافات غير محدودة ، وهو الامر الذى لم يقبله العلماء ، والمنافي لجميع النواميس الفيزيولوجية المعروفة ، والمستعصى على كل تعليل ، يظهر مع كل هذا انه حق لاغبار عليه » ثم نشر عنه الشهادات التالية فقال :

« ان الدكتور (بللينجر) اقتنع بصحته بعد تجارب كثيرة . فقد كتب مرات عديدة وهو فى داره ، ولا رقيب عليه ، بعيداً عن كل مطلع ، عبارة على ورقة ثم طواها طيتين ثم وضعها في ظرفين أو ثلاثة أظرف وختمها بعناية تامة ، فاستطاع المنوم أن يقرأها من خلال كل هذه الاوراق الكثيفة وأن يثبتها على ظهر الظرف

« هذه الظواهر بعينها كانت حققتها لجنة المجمع الطبي في سنة ١٨٣١ فقد جاء فى تقريرها مانصه :

« قدم المسيو (ريبس) العضو بالمجمع الطبي قائمة أخرجها من جيبه فقرأ المنوم

بعد جهد ظهر انه أتعبه هذه الكلمات بوضوح تام : (لافائر . من الصعب جداً معرفة الرجال) وكانت هذه الكلمات الاخيرة مطبوعة بأحرف غاية في الدقة . ثم وضعوا على عينيه المغمضتين ورقة جواز سفر (باسبورت) فعرفها وعينها باسم (جواز انسان) . ثم أبدلوا هذه الورقة برخصة حمل سلاح، وهي تكاد لاتفترق عن ورقة الباسبورت، وقدموها اليه من وجهها الابيض (وعيناه مغمضتان) . فقال المنوم انها ورقة فيها كتابة محصورة بين أربعة جداول . فلما أداروها، ترددهنيهة ، ثم قرأ هذه الكلمات بوضوح تام (بنص القانون) . وقرأ من جهة اليسار (حمل السلاح) . ثم قدم اليه رسالة مفتوحة، فقال انه لا يستطيع قراءتها لانه لا يعرف الانجليزية . وكان ذلك الكتاب مكتوبا حقيقة بتلك اللغة

« كل هذه التجارب أتعبت المنوم فترك ليستريح . وبما انه يحب اللعب اقترح عليه أن يلعب الورق ترويحا لنفسه من العناء . فلعب معه المسيو (رينال) المفتش السابق للجامعة، فخسر . فاجتهدوا بضع مرار ان يقهروه بحذف الورق وابداله فلم يفلحوا

« ونوم الدكتور (فواسار) المسيو (بول فيلاجران)، وهو طالب بالحقوق مصاب بشلل الجانب الايسر، فكان يقرأ مايطلب اليه قراءته وعيناه مغمضتان . ثم عرضت عليه، وجفناه مقفلان ومغطيان بواسطة المجربين على التعاقب، أنواعا من ورق اللعب، فعرفها كأنه يراها بعينيه

« ثم عرض عليه مجلد كان أتي به المسيو (هوسون)، وعيناه مقفلتان ومغطاتان بواسطة المسيو (سيجالا)، فقرأ عنوانه وهو (تاريخ فرنسا)، ولم يستطع ان يقرأ السطرين المتوسطين، ثم قرأ في الخامس اسم مؤلفه (انكاتيل) وكان مسبوقا بحرف الجر *Par* . ثم فتحت الصفحة ٨٩ من الكتاب، فقرأ من سطرها الاول هذه الكلمات ، (عدد ما كان يملكه) ، وترك الكلمة التي بعدها وهي الجيوش . ثم قرأ بعدها هذه العبارة « في الوقت الذي كان يظن فيه انه مشغول بملاذ المرافع » الخ

« هذه الحوادث المقررة بوضوح تام في التقرير الذي تحرر باسم لجنة المجمع

الطبي بواسطة المسيو هوسون تحمل شهادة العلم المنزهة عن الغرض . ولكن يمكن أن يقال هنا ان المنومين قد قرأوا هذه العبارات في افكار المجربين . قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض هذه التجارب الذى اجراها المجمع الطبي . ولكن هذا التعليل لا يمكن ان ينطبق على الحوادث التالية، لان المجربين لم يكونوا يعرفون العبارات التى أقرأوها المنومين

« كان احد اصدقائي، وهو الدكتور(ن)، حاضراً فى الايام الاخيرة فى سهرة حافلة بالكثيرين من رجال الفنون والآداب، ممن يعرف بعضهم بعضا جد المعرفة. وصديقي هذا ليس ممن يعملون على ترويج هذه التجارب . فكان بين الحاضرين اليكسي الوسيط المشهور. فنومه المسيو مارسيلليه واليك ماحدث : ذهب صديقي الدكتور(ن) الى الحجرة المجاورة واحضر منها كتابا لم تقص اطراف صحفه بعد، ورجا المنوم ان يقرأ سطراً معيناً من صفحة معينة، ولم يفتح الكتاب. فتردد المنوم اولا وظهرت عليه آثار الجهد، ثم طلب قلما وكتب السطر الذى امر بقراءته . فقصت اطراف تلك الورقة وبحثوا عن الصفحة والسطر المطلوب، فدهش جميع الحاضرين عند ماراوا ان التجربة قد نجحت نجاحا تاما . ولكن السطر كانت عبارته انجليزية فى الكتاب فنقله الوسيط الى الفرنسية . ومما حير المجربين ان هذا الوسيط عينه عجز عن قراءة كلمة باريس المكتوبة بخط عريض على ورقه مطوية اربع طيات

« لا يمكن هنا الاحتجاج بمسألة انتقال الافكار فان أحداً لم يفتح الكتاب الذي كان غير مقصوص فى ساعة التجربة » انتهي

هذا ماقاله الدكتور ماركارمن منذ نصف قرن. فالمسائل التي نتهم أحيانا بتأكيدها بجرأة كانت معروفة من زمان بعيد . فان كنت أوردت مشاهدات قديمة من سنة ١٨٥٠ و ١٨٤٠ و ١٨٣٠ بل ١٧٨٦ عن بوزيجور و ١٧٨٨ عن دائرة المعارف المجلد ٣١ فما ذلك الا لاثبات ان هذه الحوادث النفسية كانت مقررة منذ سنين كثيرة، بل منذ أجيال عديدة . فلنستمر على النقل فان المورد غزير

أما من جهتي انا فقد سمعت روايات عن تجارب أجريت في مسئلة الابصار بدون الاعين وشاهدتها بنفسي

ففي صيف سنة ١٨٦٥ أقمت مدة شهر الاجازات في مدينة سانت ادرس على سند رأس هيف في غرب الهافر بشارع الصيادين رقم ٥ ، وكان يقيم في الدار المقابلة لداري طبيب مشهور يحمل اسما عليه مسحة فلكية هو الدكتور كوميت (١). وكانت له امرأة أعطته أمثلة غريبة عن هذه الخاصة ، فقد أصيبت في بعض أدوار حياتها بمرض الانتقال النومي ، فكانت تقرأ وعيناها مغمضتان من خلال الاجسام الكثيفة ، وكانت تسمى أصغر الاشياء التي كانت تقدم اليها وهي محجوبة في قبضة اليد ، وتقرأ الافكار وترى مايجرى في الدور المجاورة من الامور في وقت حدوثها ، وتعين بالدقة الايام والساعات التي ستصيبها فيها النوبة المرضية وتصف العلاجات التي ستشفيها

فيمكن الاطلاع على تاريخ شفاء مدام كوميت بكشفها المغناطيسي وعلى رؤيتها لأعضائها الباطنية ، في كتاب الدكتور فرابار المسمي رسائل على التنويم المغناطيسي ، مما لايترك مجالا للشك فى صحة هذه المشاهدات . وفيه مشاهدات الدكتور كوميت تليها مشاهدات مشابهة لها حدثت أمام الدكتور الفونس تيست في امرأته نفسه أيضاً . كل هذه المباحث تاريخها سنة ١٨٤٠ وقد ذكر المؤلف انه يجب انتظار خمسين سنة أخرى حتي يعترف العلم الرسمى بصحتها . ولكنه أخطأ في ذلك . فانه بعد الخمسين السنة التي ذكرها أي في سنة ١٨٩٠ كانت أوهام الجهل القديم لاتزال متلبدة فى العقول . ولم يزل الامر على ماكان عليه الى اليوم

على ان الوقت يمر سريعا والانسانية بطيئة في تقدمها . وقد قلت فى اول صفحة من هذا الكتاب بأني قد بدأت هذا العمل منذ أكثر من نصف قرن . وما قرأوه من السطور السابقة وما تحمله من تاريخ سنة ١٨٦٥ أكبر دليل على ذلك

---

(١) معنى كوميت بالفرنسية النجم ذو الذنب *Comète* ولكن اسم الدكتور يكتب قريبا من ذلك أي هكذا *Comet*

من بين التجارب الكثيرة التى تساعدنا في حل المسألة التي نحن بصددها أذكر مشاهدة عجيبة أوردها الدكتور (جيبيه) وهو طبيب بمستشفيات باريز اوردها في كتابه (تحليل الاشياء) *Analyse des Choses* صفحة ١٣٧

حدثت هذه المشاهدة فى ابريل سنة ١٨٨٥ وقد اكثر من ذكرها امام شهود عينهم بأسمائهم . فقد حصل على قراءة من الوسيط بدون عينيه، وهو فى حالة النوم المغناطيسي واليك ماقاله :

« كانت الوسيطة شابة اسرائيلية في العشرين من عمرها . فلما نامت ووصلت الي حالة متوسطة من الخروج عن الجسد ليست بحالة ليتارجية، (الليتارجيا حالة تشبه الموت)، ولا بالانتقال النومى، ولا بالذهول المصحوب بالكلام، ولكن الحاله التي يسميها المغطسون الاخصائيون بالانتقال النومي الكشاف ، وضعت قطعتين من القطن على كل من عينيها وربطتهما بفوطة ثخينة او بقطعة من الفولار، وعقدتها وراء قفاها، وكانت هذه أول مرة حاولت فيها التجربة التي سأذكرها، فدهشت من تمام نجاحها. وأرى من واجبي أن أقول بأني الى ذلك الحين لم أكن من الدربة علي ماصرت اليه بعد ذلك عقب ابحاثي الطويلة ودراساتى العديدة المتواصلة علي هذه المسئلة

« فتناولت من مكتبتي الكتاب الذى وقع تحت يدى، وفتحت بدون قصد صفحة معينة . ثم أمسكت به فوق رأس الوسيطة وهو مغلف، بدون ان انظر اليه ، على بعد سنتيمترين من شعرها، وأمرتها بأن تقرأ السطر الاول من الصفحة التي علي يسارها . فأجابت بعد ان سكتت هنيهة قائلة « نعم انا اراه فانتظر » . ثم قالت « ان التشابه يؤدي الي الوحدة لانه اذا كانت » ثم سكتت ، وعادت فقالت: « انا لا استطيع ان اقرأ اكثر من هذا . كفى فان هذا يتعبنى » فخضعت لاشارتها ، وأدرت الكتاب فوجدته كتابا في الفلسفة، ورأيت انها قرأت منه السطر الاول الذي عينته الا كلمتين »

لنورد مشاهدات اخري ، ولنفتح مثلا الكتاب القيم للسر اوليفر لودج (مدير جامعة برمنجهام) المسمي بقاء الانسان بعد الموت في صفحة ١١ ولننقل عنه هذه المخاطبة الروحية العجيبة استنتون موزس وهي :

« المستر ستنتون موزس الاستاذ بجامعة كوليدج بلوندرة كان حاصلا على خاصة الكتابة تحت تأثير الارواح، وهو منفرد وحده كل صباح، (اى ان الروح كانت تستولي على يده قهراً عنه فتكتب ماتشاء وهو يخاطب من يكون بجانبه او يفكر في أمر هام). وكثير مما كتبته يده على هذه الحالة قد نشر واشتهر لدى الذين يدرسون هذه المسائل . ولكن الحادثة التالية مدهشة وتصلح ان تكون مثالا غريبا مؤثراً للقدرة على القراءة من بعد . والنص الذى سنورده هنا حصل عليه المستر ستنتون موزس بينما كان جالساً فى مكتبة الدكتور (سبير) في حالة ماكانت يده تكتب بغير ارادته وهو يحادث مخاطبيه غير المرئيين . واليك هذه الحادثة :

« سأل المستر ستنتون موزس الروح المزعوم قائلا :

« أتستطيع أن تقرأ ؟

« فأجابه : لايا صاحبي لاأستطيع ولكن (زكريا لوغرى) و (ريكتور) يستطيعان ذلك

« فسأله : أيوجد واحد منهما ههنا ؟

« فأجابه : سأحضر لك أحدهما

« حدثت فترة ثم كتبت يده بغير ارادته

« ريكتور هنا

« فسأله ستنتون موزس : اتستطيع ان تقرأ ؟

« فأجابه : (وقد تغير الخط)، نعم ولكن بصعوبة

« فقال له : تفضل علي بكتابة السطر الاخير من المجلد الاول لكتاب (الانييد) *Enéide*

« فأجابه انتظر

Omnibus errantem terris et fluctibus aestas

« فرأي ستنتون موزس ان النقل صحيح، ولكنه توهم انه قد يكون هو نفسه رآه من قبل وحفظه في ذاكرته على غير شعور منه . فوضع سؤالا آخر وهو :

« أتستطيع ان تذهب الى المكتبة، وتنظر في المجلد الذى هو قبل المجلد الاخير من الصف الثانى منها ، وان تقرأ الفقرة الاخيرة من صفحة ٩٤ ؟ قال ستنتون موزس ولم اكن اعلم ماهو ذلك الكتاب، بل كنت اجهل اسمه

« فبعد مضي برهة من الزمن كتبت يد ستنتون موزس بغير ارادته هذه الكلمات : (سأبرهن بحادثة تاريخية بأن البابوية بدعة تكونت يسيراً يسيراً وكبرت من لدن العصور الاولى المسيحية الصحيحة ، لامن العهد الرسولى بل من العهد المحزن الذي اتحدت فيه الكنيسة والحكومة في زمن قونسطنطين)

« قال ستنتون موزس فرأيت ان الكتاب المذكور مؤلف غريب اسمه *Antipapo priestian, on attemp to liberale and purify christianlly* الخ لمؤلفه (روجر) » انتهي

فاذا لم يكن هذا قراءة روح فماذا هو اذن ؟ ان من المستحيلات العقليـة انكار الحوادث المقررة بالتجربة

لنذكر فى هذه المناسبة تجربة السير وليم كركس، (من اكابر علماء الانجليز والعضو بالمجمع العلمي البريطاني)، فى قراءة العبارات التي كان يجهلها هو نفسه، ويجهلها الوسيط ايضا . كان الوسيط امرأة تصله بالارواح بواسطة قطعة من الخشب مثبت فيهـا قلم من الرصاص. فكان يتحرك هذا القلم تحت يديها على الورقة. قال الاستاذ كروكس المذكور :

« كنت اود لو أكتشف وسيلة لاثبات ان ماكانت تكتبه الوسيطة لم يكن من عمل لاشعورى صادر من مخها . فكانت قطعة الخشب على عادتها دائما تثبت بأنهـا وان كانت تتحرك تحت يد الوسيطة وذراعيها، الا ان العقل القائد لهـا كان عقل كائن غير منظور، يستخدم مخها كما يستخدم آلة موسيقية، ويحرك عضلاتها على هذه الصورة

« فقلت عند ذلك لهذا العقل غير المنظور : أترى كل مافي هذه الحجرة ؟

« فكتبت قطعة الخشب : نعم

« فقلت له : أتري هذه الجريدة وتستطيع قراءتها ؟ وعند قولي هـذا وضعت أصبعي على عدد من التيمس كان خلفي علي خوان ولكني لم انظر اليه

« فأجابت قطعة الخشب : نعم

« فقلت لها : اذا كان الامر كذلك فاكتبي الكلمة التي تحت اصبعي لاصدقك

« فبدأت قطعة الخشب تتحرك ببطء وكتبت بصعوبة عظيمـة هذه الـكلمة (*However*) فالتفت خلفي فرأيت ان الـكلمة التي كان يخفيها أصبعي هي هذه الـكلمة

« لما عملت هذه التجربة تجنبت عمداً ان انظر الى الجريدة، وكان يستحيل على تلك السيدة أن ترى منها كلمة مطبوعة واحدة ولو حاولت ذلك ، لأنها كانت جالسة امام خوان والتيمس خلفي علي خوان آخر وجسمي حائل بينهما »

***

أضيف الى هذه المشاهدات المتنوعة المشاهـدة الجديدة التي حضرها الطبيعي الامريكاني الكبير اديزون (مخترع الفونوغراف) الذي لايتأتي لاحد ان ينكر قيمته فى النقد التجريبي. فاليك تقريراً كتبه بنفسه (انظر مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية . مايو سنة ١٩١٦) قال :

« ان الرجل الذى سأتـكلم عنه ارسله اليّ احد اصدقائي الاقدمين، وكتب اليّ بدون تقديم مقدمة يقول : ان هذا الرجل المدعو (ريز) يأتي اعمالا غريبة ، فأردت ان تعرفه، فلعلك تتوصل الى تعليل الخاصة التى عنده

« فضربت له موعداً . فحضر لى في اليوم المعين في معملى . فدعوت بعض عمالى للتجربة معهم . فطلب ريز الي واحد منهم، وكان نورفيجياً، ان يدخـل الى الحجرة المجاورة وان يكتب على قطعة من الورق اسم البنت الصغيرة لأمه ومحـل ولادتهـا واشياء كثيرة اخري . ففعل النورفيجي ماأشار به عليه ، وطوي الورقة وحفظهـا فى قبضة يده . فأخبرنا ريز عمافيها كله، واضاف الي ذلك قوله: ان ذلك الشاب يحمل في جيبه قطعة من السكة (العملة) تساوي عشرة كورونات . فكان الامر كما قال

« فبعد ان اجري تجارب كثيرة كهذه مع العمال الآخرين، طلبت اليه أن يجرب معي انا . وعند ذلك دخلت الى عمارة أخري، (اي خارج معمله)، و كتبت هذه الكلمات « أتوجد مادة خير من هيدروكسيد النيكل لوضعها فى بطارية كهربائية مع المواد القلوية ؟ »

« وكنت في ذلك الحين اعمل في بطارية كهربائية قلوية، وكنت اخشي ان لا أكون من عملي على هدى . وبعد ان كتبت هذه العبارة، القيت على نفسي مسئلة وركزت فكري كله فى حلها، بقصد ان اضلل ريز اذا حاول ان يعرف ما كتبته بقراءة فكري . ثم عدت الي الحجرة التى تركته فيها

« فما دخلت عليه حتي بدرني بقوله: لا، لا يوجد خير من هيدروكسيد النيكل لبطارية فيها مواد قلوية . ومعنى هذا انه قرأ سؤالى كما وضعته

« فأنا لا أزعم اني استطيع ان اعلل هذه الخاصة . وانا مقتنع بأن حاجات المدنية ستولد اكتشافا عظيما بواسطة رجال لهم هذه الموهبة . فالعدد النزر من أهل الكشف فى الجيل الحاضر سينقلبون الى جم غفير فى الاجيال القريبة . والعقل الطبيعى سيكبر في المستقبل ويكمل بسرعة عمل العقل الطبيعى الراهن

« وبعد التجارب التى ذكرتها بسنتين دخل علي بواب معملي وأخبرنى بأن ريز حضر ليرانى، وهو موجود بالغرفة الخلفية . فتناولت قلمى وكتبت بأحرف غاية فى الدقة كلمة كينو، (وفي الاصل بأحرف ميكروسكوبية اى لا يكشفها الا الميكروسكوب) ثم طويت الورقة ووضعتها في جيبي ، وأمرت الخادم ان يدخل علىّ ريز

« فلما دخل قلت له : لقد خبأت ورقة في جيبي فما الذى كتبته فيها؟

« فأجابني بلا توقف : كلمة (كينو)

« بعد مدة من هذه التجارب التي أجريتها في معملي عمل الدكتور (جيمس هانا تومسون) الطبيب الاخصائي المشهور فى الامراض العقلية تجارب متناقضة . وذلك انه دخل مكتبه وكتب اسئلة على قطع صغيرة من الورق واخفاها . وبقى ريز يكلم من بالبهو حتى انتهي الدكتور تومسون من عمله. فابتدره الوسيط بقوله :

« يوجد في قعر الدرج الايسر من مكتبتك ورقة صغيرة مكتوب عليها كلمة *Opsonic* ، وتحت الكتاب الموضوع على مكتبتك ورقة اخرى عليها هذه الكلمة *Ambiceptor* ، ومكتوب في ورقة صغيرة ثالثة كلمة *Antigen*

« فكانت الدلالات التي اعطاها ريز بدون توقف غاية في الضبط . فدهش ترمسون مما رأى واعترف بصحة هذا الامر

« ومنذ بضع سنين شرعت في عمل سلسلة من تجارب حاولت بها ان انقل الافكار من شخص الى آخر بكل ماتخيلته من الوسائل ، فاجتهدت للنجاح في ذلك بواسطة اجهزة كهربائية نثبتها على رؤس المجربين . فدخل اربعة منا الى اربع غرف مختلفة ، ولكن تصل بعضهم ببعض أجهزة كهربائية صنعتها لهذه الغاية . ثم اجتمعنا وجلس كل منا في ركن من حجرة واحدة ، واخذنا نتقارب شيئاً فشيئاً على كراسينا متجهين نحو مركز الحجرة ، حتى تماست ركبنا ومع ذلك فلم نحصل على أية نتيجة

« ولكن ريز لم يكن في حاجة لاي جهاز ولا لاي شرط خاص لعمل ما كان يعمله » انتهى

هذا مايقوله اديزون وجميع المجربين الذين درسوا (ريز) شهدوا فيه مثل هذه الشهادة وخاصة المسيو (شرنك نوتزنج) الذى درس هذا الموضوع معه دراسة خاصة (شرنك نوتزنج هذا مدرس علم النفس بجامعة برلين)

لقد جمعت مئات من حوادث النظر بدون الاعين . ولا مشاحة ان من أهمها ما شاهده الاستاذ (غراسيه) المدرس بجامعة مونبلييه . فقد اخفى اربعة اسطر من خطه في ظرف صغير واقفله باحكام ، فقرأه عن بعد ثلاثمائة متر وسيط الدكتور (فيرول). كما ورد ذلك في مجلة التاريخ السنوي للمباحث النفسية عن سنة ١٨٩٧ صفحة ٣٢٣

وليس على هذه الحوادث شية من خيال او انخداع او تدليس ، فهي من الدقة والتمحص في مثل ماعليه مشاهدات الحوادث الجوية والفلكية . وهي بهذا الوصف تستحق ان تكتسب الصبغة العلمية

ان شخصيتنا الروحية وأنيتنا العقلية تستطيع ان ترى بدون وساطة الاعين الجسدية . وقد جمعت هذه المشاهدات في مدى سنين كثيرة . وبما اني افترض ان قرائي على مثل ما انا عليه من صعوبة التصديق، فأستحسن ان استمر على عرض بقية ابحاثي امام اعينهم ، وليس يصعب عليّ شيء غير تخير أحسن هذه المشاهدات المتنوعة التي لا يمكن نكرانها . فاليك واحدة كنت آسف ان لم اضفها الي ماسبق من امثالها باعتبار انها لا تقل عنها تدليلا على صحة مانحن بصدده، وهي منقولة مما نشره الدكتور (فانتون) من مدينة (كانيت) في مجلة (التاريخ السنوى للمباحث النفسية) اشهر ديسمبر سنة ١٩١٠، وهي تتعلق بشابة تحب الرقص حبا جما اصبحت بعد اصابتها بعدة حوادث هيسترية بحال يؤسف لها، حتي صارت تعبة العقل ومريضة في الدرجة القصوي . وكانت تسكن مرسيليا وزوجها في جنيف . فاليك ماكتب عنها :

« تسلم الدكتور (فانتون) الذى كان يعالجها في (اكتوبر سنة ١٨٨٥) تلغرافا من زوجها يخبره فيه بأنه قادم من جنيف في ليلته تلك بالقطار الذى يصل في الساعة السابعة ، وهو القطار الذي يمر بمدينة كولون في الساعة التاسعة، ويصل الي ليون في الساعة العاشرة، ويبلغ مارسيليا في نحو الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى .

« وفي الساعة السابعة مساء استدعي الدكتور الى بيت المريضة لاصابتها بنوبة شديدة . فلم يتعجل وتمشى على مهل، وكان مأكله عجة بحشائش دقيقة . وكان بيت المريضة على نحو ٣٥٠ متراً من بيته

قال الدكتور : « رأيت عند وصولي الي دار تلك السيدة أنها محاطة بثمانية أشخاص ، لا يزال ستة منهم علي قيد الحياة، وقد شهدوا كلهم بما وقع من الحوادث التي سأذكرها

« فقد اخبرتهم عني قائلة : « انه لم يتعجل الحضور . هاهو قد عزم عليه » ثم لما مضت مدة قالت : « هاهو بالباب ، انه يقرع الجرس » وما كادت تتم هذه العبارة حتي دق الجرس . فلما دخلت عليها قابلتني بقهقهة عالية وعاتبتني قائلة : « انك لم تسرع

بالحضور حين دعوتك.وقد أوعزت اليهم ان ينكروا وجودك بالدار في الوقت الذى كنت تتعشي فيه، وقد كنت تأكل عجة بحشائش دقيقة

« ثم قالت من العبث ان تحاول الاعتذار،فقد علمت ماذا كنت تعمل، فأعطني تلغراف ألفريد الذى تحمله معك فقد كان يستطيع أن يرسله اليّ انا » وبعـد مضى برهة من الزمن ذكرت المريضة بصوت عال مفهوم مؤدى التلغراف الذى كان في قعر جيبي ولم يعرفه من الحاضرين سواي . جرى كل هذا بدرجة من السرعة وكنت انا على حالة من الدهش،والحاضرين انفسهم على درجة من الاستغراب، بحيث اضطررت ان انتظر هنيهة لاعود الي رشدي قبل ان اخبر الحاضرين بأن كل ماقالته صحيح ، وأريهم التلغراف الذي تسلمته قبل حضوري بنصف ساعة

« فكيف علمت مدام ألفريد مؤدى هذا التلغراف ولم تتوقع عودة زوجهـا،ولم تخبر عن ساعة حضوره ، ولاعن الطريق الذى سيتبعه ؟ هذا ماجهدنا فى تعليـله ولم نفلح

« بعد هذا حدثت لهانوبة أخري من الضحك العالى الدال علي السرور وتخللت ضحكها هذه الكلمات : « انه نائم ، انه لم يستيقظ ، لا ، لا » ثم تزايد الضحك الى درجة الاختناق، وانتهي الى تمتمة سمعنا منها بوضوح هذه الكلمات : « انه نائم،وقد بقى في القطار فلا يمكنه ان يصل الينا» وكانت الساعة اذذاك تسعة

« وفى الصباح خرجت لاستقبال زوجها مع رجلين من أصحابنا فى ساعة حضور القطار . وقبل ان ابرح البيت اوصيت الجميع،وخاصة الذي يلازمون المريضة، بأن يحفظوا بغاية الدقة كل مايحدث في غيبتنا حتي اصغر الامور . وأجمعنا نحن ان نحفظ كل مايصدر منا من الاعمال والاقوال . فوصلنا الي المحطة بدون حدوث شيء ، فلم نجد الزوج بالقطار الآتي من ليون. فرجعنا الي بيت المريضة، وقبل ان نغادره ورد الينـا تلغراف مسحوب من (غرينوبل) يخبرنا الزوج فيه بأنه لا يصل الا بعد الظهر لانه لم يلحق القطار

« فتركت المريضة فى الساعة الحادية عشرة ، وبعد الظهر استقبلت الزوج قبل ان

يقابله أحد، وبدرته بالسؤال غير تارك له وقتا للتخمين . فأخبرني بأنه في الساعة التاسعة مر من مدينة (تولوز) ولم يستيقظ، فاتجه القطار به الى شابيري ولم يتنبه من نومه الا بها . فلما رأي انه بتغير وجهته لايمكنه ان يصل الى مرسيليا الا متأخراً سبع ساعات، أرسل تلغرافه الثاني . فكلفته أن يعيد ماقاله أمام كثير من الشهود الذين راقبوا امرأته في الليلة الماضية ، فرأينا بعد أن قصصنا عليه ماجرى بأن امرأته تتبعته في أثناء سفره، ونقلت الينا التفصيلات التي حكتها لنا ساعة حدوثها » انتهي

الدكتور (فانتون) الذى اورد لنا هذه المشاهدات لم يكن يعرف الموضوع الذي ندرسه اليوم وهو النظر عن بعد بدون الاعين، ولذلك دهش منه غاية الدهش. ولكننا نعلم اليوم بأن هذه الخاصة الروحية لايمكن نكرانها، وان الانسان يرى بروحه لابالعصب البصرى لشبكية عينه

فلننصت الآن الى ماكتبه الدكتور (اوستي) على بعض المشاهدات الحديثة التي محصها بنفسه قال :

« قد أعطت مدام كاميل المشتغلة بفن العرافة بمدينة (نانسي) فى فبراير سنة ١٩١٤ ، وهي في حالة نوم مغناطيسي دلالات سمحت بوجدان جثة المسيو (كاديو) المتغيب من منذ ٣٠ دسمبر بدون ان يوجد عنه أية علامة يمكن الاستناد عليها في الاستدلال عليه . فأحدث ذلك ضجة عظيمة في الصحافة . فأجمع رجال البوليس والقضاء على استهجان هذا الامر . فان اصحاب (العقول القوية)، والخبثاء، والذين مداركهم عالية فى نظرياتهم الثاقبة، لم يتأخروا لحظة عن اتهام الوسيطة بأنها مدلسة استأجرها الجناة لتضليل التحقيق

» وقد قابل الاستاذ (سيرنهيم) مخبر جريدة الماتان فصرح له بأن العرافة لا وجود لها، وقال له : « .... لم أستطع الحصول في مدى حياتي العلمية الطويلة على حادثة واحدة من النظر عن بعد أو من العرافة . وكل تربيتي العلمية تثور ضد القول بوجود مثل هذه الخوارق ، ولاأزال أنازع في صحتها حتي يقوم عليها دليل جدى .... »

ومع هذا كله فلا شيء أصح من وجود هذا الكشف المغناطيسي

وبعد مضي شهر، اي في ١٩ مارس سنة ١٩١٤ اختفت مدام (اندريه ريفو) بوابة قصر (بورسوات)، ففتش رجال البوليس الغابات والبحيرات المتولدة من نهر المارن الذى كان في حالة فيضان اذذاك . وقامت الجندرمة وخفراء مدينة ريمس المتنقلون بتفتيشات نشيطة، فلم يستفد القضاء من ذلك شيئا . فجري اخوان (ريفو) على أسلوب أسرة (كاديو) ولجأوا الى بضع وسطاء مغناطيسيين ، فاتفقوا على التصريح بأن البوابة قتلت ضربا والقيت في الماء . اما مدام كاميل التى كانت احدى العرافات الثلاثة فصرحت فى ٢٤ مارس بما يأتي كما ورد فى جريدة الجورنال :

« انكم تبحثون عن قريبة لكم ، اني أراها، فانها بعد أن قابلت رجلا يلبس بدلة عسكرية وتبادلا أوراقا، سارت بالليل سالكة طريقا خاليا ، ولما كانت على مقربة من جدول ماء، ولم يبق بينها وبين بيتها غير قليل، جاء رجل فضربها على الجهة الخلفية من رأسها بهراوة فسقطت المسكينة ميتة . فحملها قاتلها والقاها في اليم وها أنا أري جسدها الساعة . وهي ستوجد بعد أيام بعيداً عن هذه الجهة »

«وفى ١٢ ابريل التقط بعض الصيادين جثة مدام (ريفو) اذ وجدوها طافية علي الماء عند مدينة (جوانغون) فقرر الدكتور (بوثيت) الطبيب الشرعي بأن الموت جنائي. وقال بأن هذه البوابة ماتت ضربا بانكسار جمجمتها قبل ان تلقى فى الماء (انظر مجلة التاريخ السنوى للعلوم النفسية الصادرة في ابريل سنة ١٩١٤)

والمشاهدة الآتية اكثر في الدلالة مما سبقتها وهي منقولة عن مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية الصادرة فى ابريل سنة ١٩١٤) بتوقيع الدكتور (اوستى)

« فى ١٨ ابريل سنة ١٩١٤ وصل الدكتور اوستى كتاب جاء فيه ان المسيو (اتيين ليراسل) البالغ من العمر اثنين وثمانين سنة قد فقد فى مركز (الشير) الصغير وان جميع الجهود التى بذلت لوجدانه لم تؤد الى نتيجة. فقصد الدكتور (اوستي) مدام (موريل) العرافة والمقيمة في باريس، (وقد قابلتها انا بنفسي وكانت لى فرصة استفتائها)، وكان مع الدكتور المذكور قطعة من الفولار من اشياء الفقيد . فأخذت العرافة تتبع سير المسيو (ليراسل) في تنزهه خلال غابة، فوجدته ميتا وممدوداً علي الارض حيث

وقف معييا رازحا مصمما على أن يموت . حصل هذا في ٢ مارس وقد لبثت اسرته ١٥ يوماً هي ورجال القرية وثمانون رجلا عينهم عمدة البلد، يبحثون عنه في الغابة فلم يعثروا به. ولكن باتباع الباحثين الدلالة التفصيلية للعرافة، ودخولهم في المسارب التي وصفتها لهم، اهتدوا الى جثته في المكان الذي عينته . فكان الذي فعلته انها تعقبته بروحها، ورأت انه لما وصل الى هناك ضرب بعصاه الارض كعادته وتمدد بجانب شجرة ضخمة وغدير ماء، وكانت هذه ضجعته الاخيرة

« أما (مدام موريل) فلم تسمع قط عن هذا الرجل ولا عن بلدة (شير)

« وليس هنا أثر من التلباتيا، ولا من انتقال الافكار، لان الجميع كانوا يجهلون هذا الامر . اما الذى فيه فهو النظر بدون الاعين عن بعد، كما هو الحال في جميع الامثلة التي قدمناها فى هذا الفصل »

هذه حوادث شوهدت لايجوز الخلط بينها وبين الاعمال التافهة للعرافات اللاتي يدعين أبعد درجات الكشف، ولا للضاربات بالورق. فلا نكن متحيزين لشئ، ولنبحث في كل شيء . وقد تقررت مسئلة النظر بدون الاعين فيجب اعتبارها فرعا جديداً لشجرة العلم

***

ازاء جميع هذه المشاهدات لايتأتي لاى انسان بعد الآن ان ينكر مسئلة الرؤية بدون الاعين من خلال الاجسام الكثيفة، ومن خلال المكان والزمان

يضحكنا المنكرون عند مايؤكدون بأنه لايوجد فى كل هذا غير خداع وتضليل وأحابيل وهذيانات . فليتخيلوا أنهم ألموا بجميع نواميس الطبيعة ، وان الكون لم يعد فيه خاف عليهم ، وان النفس غير موجودة ، وانه ليس للانسان ولا للوجود روح ، وان كل شيء يمكن تعليله بالمادة وخواصها . فهم باحثون على جانب عظيم من البلاهة

فان الحوادث التي أتينا بها في هذا الفصل عن الابصار بدون الاعين، اي بالروح، هي من التحقيق في درجة المشاهدات الفلكية والمتيورلوجية (الخاصة بالحوادث الجوية)

والطبيعية والجيولوجية والانثربولوجية (الخاصة بطبائع الانسان) وغيرها مما يتألف منه اى علم بعيد المدى في التمحص

وهى كذلك من الصحة والثبوت بدرجة الحوادث النفسية والوساطية والاسبريتية البالغة أقصي حد في التحقيق ، والمسجلة بالفوتوغرافيا ، وان كانت هذه تقتضي دقة شديدة خاصة لمخالفتها لمعلوماتنا الحاضرة على الطبيعة ونواميس الثقل وعلى الفيزيولوجية البشرية، الخ

فما هي القوى المنتجة لهذه الخوارق؟ مما لامشاحة ولاجدال فيه ضرورة وجود شيء وراء الحجاب ، شيء عال خارج عن دائرة حياتنا العادية الحقيرة ، حياة اللحم والدم، حياة العضلات والاعصاب . ان وجودنا الجسدى المادى قد يتزعزع ويتحلل، ولكن دون ان يجر الي انحلال هذا العنصر النفساني المستقل . هذا من الممكنات الممكن قبولها علميا

ومن المدهش والغريب جداً ان هذه الحوادث التى نقلناها هنا شوهدت منذ زمان بعيد، بل منذ قرون، دون أن يهتم لها أحد ، حتى كانت سنة ١٩١٨ فاستند عليها القس (فاريا) وقرر صحة وجود الروح البشرية مستقلة عن الجسد فى كتابه المسمي (سبب النوم الكشاف) . ونحن اليوم نتظاهر بأننا نأتي باكتشافات جديدة بجمعنا اياها من هنا وهناك

وهذا يدل على ان الرجال الذين يحبون أن يتعلموا لايزالون اقلية ضئيلة جداً

بقي علينا أن نأتيك بخاصة الروح في معرفة المستقبل والعلم بالحوادث الآتية وهو باب يؤتينا بأدلة أشد مناعة وأقوي مراساً من كل الادلة السابقة

رؤية الحوادث المستقبلة

المستقبل الحاضر *

التشكك الكثير المزاعم ، الذي ينبذ الحوادث
دون أن يمتحنها ليرى نصيبها من الصحة، يعتبر أكثر
استحقاقا للذم من سرعة التصديق بدون تعقل
ا . دو هامبولدت

من بين الخصائص النفسية المجهولة التي تعوز البحث ، اذا كنا نهتم بايجاد بسيكولوجيا تجريبية مؤسسة على المشاهدات الحسية ، الخصيصة التي تسمح للانسان رؤية المستقبل وشهود ماليس بموجود الآن

و كما ان النفس ترى خلال المكان كذلك ترى خلال الزمان

لقد ألفت كتابا في هذا الموضوع لم يطبع للآن أسميته: (رؤية المستقبل) ، انباءات مضبوطة حققت بالمشاهدة، أحلام منبئة بأمور مستقبلة ، حوادث رؤيت قبل حدوثها بضبط تفصيلى مدقق ، الحيرة في التوفيق بين رؤية المستقبل والحرية الانسانية ، وبين القضاء السابق والاختيار .

وليس من غرضي أن أتبسط هنا فى درس هذا الموضوع الواسع ، ولكن بما اننا بصدد اثبات خصائص للروح، فيناسب هذا المقام أن نضيف الى المشاهدات السابقة لحوادث الابصار بدون الاعين، مشاهدات أخرى ليست أقل استحقاقا للتأمل وخاصة النوع الذي يسمى (المرئي من قبل) ، وهو على كثرة ماتنوزع في أمره لايحتمل الشك لدى الذين درسوا هذه المسئلة، وملكوا من الوقت ماسمح لهم بمقابلة كل ماشاهدوه بعضه ببعض بدقة وعناية

الحوادث المستقبلة يمكن رؤيتها قبل وقوعها بضبط عظيم بدون نزاع. ولسنا نعالج

هذه المسئلة هنا باعتبارات ميتافيزيكية (اي متعلقة بعلم ماوراء الطبيعة) ولكن بالاسلوب التجريبي والطريقة العملية

أول ماتنبه فكرى لهذه المسئلة، التي تعتبر غير معقولة، كان في ربيع سنة ١٨٧٠ وذلك بالقصة التي ستقرأها الآن، وهي خاصة بمشاهدة تمت على يد انسان متمتع بعقل منير وراجح، هي الاميرة (اماكارولاث)، التي تحب فرنسا حبا جما وتحضر في كل ربيع الى باريس، وتحب أن تحادثني في هذه المسائل الكبيرة . فلما حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا تأثرت بشدة ولم تعش هذه الشابة بعد هذه الكارثة الدولية الازمناً قصيراً . (انظر مقدمة نكبة سنة ١٩١٤) . وهذا الكتاب هو من أواخر الكتب التي وصلتني منها، وهو يحكي رؤية رأتها تنبيء عن المستقبل، وهي واضحة وضوحا تاما وقد نقلتها في كتابي (المجهول) وتاريخها يصعد الى عشر سنين قبل سنة ١٨٧٠ اليك نص كتابها بايجاز :

« نمت وأنا قلقة على صحة انسان أحبه ، فرأيتني قد انتقلت الى قصر كنت أجهله وأدخلت الى غرفة مثمنة الاضلاع مفروشة بالحرير الدمشقي الاحمر . ووجدت بها سريراً عليه انسان تقلقني حالته الصحية، وكانت أشعة المصباح المعلق في القبة تغمر وجهه الشاحب ، ولكنه كان على شحوبه باسما ومحاطا بشعر اسود كثير ، وكان في مقابلة رجليه صورة معلقة ارتسمت في حافظتي بقوة حتى اني صورتها بعد القيام من النوم . وهي المسيح متوجة بالورد بفعل ملك سماوى، ومعها أبيات (شيلر) فقرأتها

« فلما مرت سنتان على هذا المنام دعيت للنزهة في قصر بأقصى هنكاريا ، فوقفت باهتة عند ماأدخلت الى الحجرة التي خصصت لنا ، اذ وجدتها هي الحجرة المثمنة المفروشة بالحرير الدمشقي الاحمر، وأمامى السرير وصورة المسيح المتوج بالورد، ومعها ابيات (شيلر) . وهذه الصورة لم تنقل ولم تقلد، ويستحيل أن أكون رأيتها في غير المنام. وكذلك يقال عن الحجرة المثمنة الاضلاع »

(إما اميرة كارولاث)

من ذلك العهد البعيد سنة ١٨٧٠ كان كثيراً مايتحول انتباهي الى البحث في

هذا النوع من الحوادث التي عزمت علي دراستها بعناية خاصة . فالعمل الذى أقدمه اليوم للقراء يمثل مشاهدات منوعة قمت بها فى نحو نصف قرن، واني أقدمه بكل الثقة التى يوجبها هذا التحضير البطيء

ان تحقق الامور التى يراها الانسان واضحة جلية فى الاحلام الانبائية، أصبح مما لايمكن نكرانه مهما عجزنا عن تعليل ذلك في الدرجة الراهنة لمعارفنا البسيكولوجية. اليك مثالا علي ذلك فيما لا يمكن دحض ماحواه، كتبه قسيس ارشية (انجر) الشانوان (جارنييه) المدرس سابقا في المدرسة الكهنوتية الصغيرة التى رأي فيها هذا المنظر الذى لا يمكن الشك فيه قال:

« كنا في سنة ١٨٤٦ في السنة الثانية لمدرستي الكبيرة، فرأيت فى نومى ذات ليلة اني أسيح في عالم الارواح وكانت الطريق التي اسلكها بيضاء ممهدة ومحفوفة بأشجار الواحدة منها بعيدة عن الاخرى ، وكان يظهر انها نازلة من سفح جبل الى سهل من الارض يمتد الي مالا يستطيع أن يدركه البصر. وكانت الشمس تهبط الى الافق بين الساعة الرابعة والخامسة مساء باسطة ضوءها الهادىء علي الخلاء بألوان تصورها أيسر من وصفها

« فرأيتني وقفت دون أن أعلم لماذا ولا كيف؟ وقفت فى مكان يقطعه طريق آخر في زاوية قائمة في النقطة التي انا فيها. ولم يكن هناك شيء غير عادى يلفت نظر السائح او يستدعى انتباهه . ومع كل هذا فقد وجدتني واقفا هناك معتدلا كأنى تمثال، متأملا بارتياح عظيم في غير كبير شيء ، بل في منظر زراعي يري مثله كل يوم .

« وقد لاحظت ان ذلك الطريق يقطع الطريق الذي انا عليه ويدور حول الجبل حيث أقيم جدار ارتفاعه متر علي طول الطريق ليحفظه من تهايل الاتربة عليه

« وكان كل طول ذلك الطريق ثلاث اشجار غليظة ذات ظلال ظليلة

« وعلى بعد ثلاثين خطوة من الجهة التي كنت فيها رأيت بيتا ظريفا جدا مبيضا بالجير وحسن التعرض للشمس، وله فناء مسطح اجمل تسطيح . وكانت نافذته الوحيدة المطلة على الشارع مفتوحة . وكان خلفها امرأة جالسة حسنة الزي على بساطة، وكان يغلب على

ألوان حلاها اللون الاحمر، وعلي رأسها قبعة بيتية مصنوعة من القماش الخفيف المخرق، و كان شكلها مجهولا عندي . و كانت هذه السيدة تبلغ، فيما يلوح عليها، الثلاثين من عمرها

وكان بجانبها ابنة صغيرة تبلغ العاشرة أو الثانية عشرة، واقفة على قدميها، فتخيلت انها ابنتها لانها كانت تنظر الى أمها بانتباه وهي تعمل بعض الاعمال النسوية وتعلمه اياها . وكان شعرها مدلى وليس في رجليها حذاءان ولا بـد ة على شاكلة والدتها. وكان بجانبها ثلاثة أطفال يحبون علي الارض، منهم غلام قد يبلغ الاربع أو الخمس السنين، قائما على ركبتيه يرى اخويه الصغيرين شيئا في يده ليسرهما . وكان هـذان الطفلان مستلقيين على بطنيهما، والثلاثة مستغرقون في الاعجاب بذلك الشيء. فلما آنست المرأتان وجودي نظرتا الىَّ وأنا واقف بالطريق ولفتتا نظرى اليهما بذلك. ولكنهما لم يتحركا لانهما معتادتان رؤية المارة في ذلك الشارع

« وكان بجانبهما كلب على درجة من الضخم جاثم يحك جسمه من حين الي آخر ليطرد عنه البراغيث

- « ورأيت من الباب، وكان مفتوحا على مصراعيه، ثلاثة رجال حول خوان في أقصى المكان، اثنان على جانب، والثالث على الجانب الآخر، يلعبون ويشربون. وكان يلوح عليهم أنهم من العمال الذين يعملون في الجهة المجاورة

« وكان الي اليسار من الجهة الاخرى ثلاثة خراف ترعى الحشائش وتتناطح لهوا ولعبا، وبجانبها حصانان احدهما اشقر والآخر ابيض مربوطان الى الجدار

« ورأيت مهراً جميلا يذهب الى كل جهة مرحا، ثم اتجه للخوان الذي عليه اللاعبون يعبث فى شعورهم بجحفلتيه، فلطمه أحدهم لطمة شديدة مكافأة له على ما فعل

« ورأيت أيضا اربع او خمس دجاجات وديكا على شيء من جمال الشكل

« هذه هي المزرعة التي كنت أتأملها مسروراً مدة عشر دقائق، ثم زالت فجأة كأنها لم تكن من قبل، فخلتها غرقت فى نهر العدم الى الابد . واني لأراها في حافظتى اليوم كما أرى قبة الناقوس في قريتي

« في سنة (١٨٤٩) شرعت مع صديقين لى ان نسيح في ايطاليا . فاخترقنا قرية

من جبال (الابنان)، وركبنا عربة تجرها خمسة من الجياد، حتي انتهت بنا الى قمة الجبل ومكثنا هنالك خمس دقائق، ثم هبطنا بسرعة مفرطة حتي انتهينا الى موقف. وهنالك جال جسمى العرق، وأخذ قلبي يخفق، واخذت امسح عينى وادلك انفي، فعل الذى يهب من نومه فجأة. وقد ظننتني نائما ولست بنائم، واؤكد اني لست بمجنون ولا بمخدوع بخيال. فقد رأيت بعيني رأسي المزرعة الصغيرة التي رأيتها في منامي لم يتغير فيها شيء، وكان أول ماجال به خاطرى عند ماوقع بصرى عليها ان قلت في نفسي انى كنت رأيت هذه المزرعة ولا أذكر أين رأيتها، ولكن أنى لى رؤيتها ولم أحضر الي ايطاليا غير هذه الدفعة؟ فكيف اتفق ذلك؟ هذان هما الطريقان المتقاطعان، والجدار القصير، والاشجار والبيت الابيض، والنافذة المفتوحة، والام التي تشتغل والبنت التي تنظر اليها، والاطفال الثلاثة والكلب، والعمال الثلاثة يشربون ويلعبون، والمهر وما فعله بهم، وما كوفيء به منهم، والحصانان والخروف لم يتغير من ذلك شيء. فالناس هم بعينهم كما رأيتهم بكل دقة يعملون الاعمال التي كانوا يعملونها في رؤياي، وجالسون فى مجالسهم بعينها على ماكانوا عليه لم يتغير منه شيء الخ. كيف كان هذا على هذا النحو؟ لاأدرى ولا أزال من منذ خمسين سنة أسأل نفسي هذا السؤال. فقد رأيت ذلك في نومى أولا ثم رأيته في اليقظة بعينه بعد ثلاث سنين »

(القس غارنييه. ش)

وقد أورد العالم الايطالى (بوزانو) في مؤلفه القيم على حوادث الانباء بالمستقبل حادثة تعتبر كنموذج لرؤية الشيء قبل وقوعه. قال:

« لقد قص الشفالييه (جيوفاني دي فيجروا) وهو أستاذ فى المضاربة بالسيف ومن أقوى وأشهر من يوجد منهم في (باليرم) ماوقع له بنفسه فقال:

« تيقظت ليلة من ليالى اغسطس سنة ١٩١٠ تحت تأثير حلم واضح الى درجة حملتني على ايقاظ زوجتي وقصه عليها في جميع تفصيلاته الغريبة المضبوطة

« وجدتني في ارض زراعية على طريق يؤدي الى غيط محروث، وكان في وسطه

بناء خلوى له حوش به مخازن واسطبلات ورأيت على يمين الدار نوعا من كشك خشبي مصنوع من افرع الشجر ومن الخشب الجاف، ورأيت بجانبه مركبة نقل جوانبها مثنية وعليها عدة الحصان الذى يجرها

« وكان هناك فلاح لابس بنطلونا قاتم اللون، وعلى رأسه قبعة رخوة سوداء، اقترب مني ودعانى لاتباعه ففعلت . فقادني الى خلف ذلك البناء وأدخلني من باب ضيق ومنحط الى اسطبل صغير يبلغ مسطه اربعة او خمسة امتار مربعة مملوء وحلا ، وكان فى هذا الاسطبل سلم صغير من الحجر يدور فوق الباب . وكان هناك بغل أمام مذود متحرك ،وبالجزء الخلفى من جسمه كان يسد الممر الذى يمر منه الي السلم الذى كان في آخره حجرة صغيرة أرضيتهـا خشب ، ورأيت معلقا في السقف بطيخات شتوية وعناقيد من طماطم وبصل وذرة

« فى هذه الحجرة التي تعتبر حجرة خلفيـة كانت امرأتان وطفلة مجتمعـات . وكانت احدى المرأتين عجوزاً والاخرى شابة ، وهى فيما أظن أم الطفـلة . وقد ارتسمت تقاطيع وجوه هذه النسوة الثلاث في حافظتي بوضوح تام، ولمحت من الباب الموصـل الي الحجرة المجاورة سريراً لانسانيين غاية في الارتفـاع بحيث لم أر له شبيهاً قط

« هذا هو المنام فلنتركه جانبا

« فى شهر اكتوبر التالى اضطررت للشخوص الى نابل لحضور رواز أحد المخصمين فيه مواطننا (اميديو بروكاتو) . فسافرت انا ومساعدي على اوتوموبيل الي (مارنو). وما دخلتها قبل ذلك، بل وما كنت اعرف اسمها . فأول ما أثر عليّ، وأنا أجتاز الفـلاة، الطريق الواسع الابيض، فذكرت اني كنت رأيته من قبل ولكن متى ؟ وفي اي فرصية؟ ثم وقفنا على حدود مزرعة ، فرأيتنى اعرفها لاني رأيتها من قبل، فنزلنا من الاوتومبل ودخلنا المزرعة. فقلت لرفيق اليوزباشي (بروتو) انا اعرف هذا المكان، فليست هذه المرة الاولى التي اراه فيها ، وعليه فان في آخر هذا الطريق يوجد بيت، وهناك جهـة اليمين يوجد كشك مصنوع من الخشب . وفي الواقع فان كل ماذكرته كان موجوداً ،

وكذلك مركبة النقل ذات الجانبين المثنيين وعليها عدة الحيوان التي يجرها

« وبعد لحظة أتي فلاح لابس بنطلونا اسود، وعلى رأسه قبعة رخوة سوداء ، هو بعينه الذى رأيته في منامي ، أتى يدعونى الى خلف البيت . فبدلا من ان اتبعه مشيت امامه نحو الباب والاسطبل اللذين عرفتهما من قبل (فى النوم). ولما دخلت وجدت البغل مربوطا امام المذود. فنظرت الي الفلاح لأسأله عن الحيوان هل يؤذي ام لا لان جسمه كان يمنعني من صعود السلم الحجري ؟ فأكد لى الفلاح بأنه لا يوجد أي خطر من الاقتراب منه. كما حدث ذلك فى المنام تماما

« فلما صعدت درجات السلم، وجدت نفسي في مخزن الغلال. فرأيت فى سقفه البطيخات المعلقة وعناقيد الطماطم والبصل والذرة ، ورأيت فى الحجرة الصغيرة فى الزاوية اليمنى منها النساء الثلاث العجوز والشابة والطفلة، كما رأيتهن في المنام تماما . ولما دخلت الي الحجرة المجاورة لخلع ثيابى رأيت السرير الذي ادهشني بارتفاعه في المنام. فوضعت عليه جاكيتى وقبعتي

« وقد ذكرت منامي هذا للكثيرين من اصحابي في بهو الاسلحة ومجال البراز وغير ذلك من الامكنة ، وجميعهم مستعدون للشهادة بذلك . فاليوزباشي (بالامنجى) والافوكاتو (تومازفور كازي) والسنيور (اميديوبروكاتو) والكونت (دنتال دياز) والسنيور (روبرتو جانينا) من نابل جميعهم يشهدون بمعرفتي لتلك الاماكن والاشخاص الذين ورد ذكرهم فى حوادث هذا البراز

« هذا ما حدث، اما تعليله فمن وظيفة العلماء

(جيوفاني دي فيجروا)

قال العالم (بوزانو) عقب ايراده هذه الحادثة انها جديرة بالالتفات .لان صحتها لا يتطرق اليها الشك بوجه من الوجوه . فان راويها رجل يعرف قيمة الشرف ، وحكايته للمنام قبل تحققه ينفي الافتراض الذى مؤداه ان تأثره بما رآه وتوهمه انه رآه من قبل يرجع الى حال من احوال الوهم

عند ما كان هذا المؤلف تحت الطبع وصلني الكتاب التالى اجابة على محادثة شفهية أهمتنى كثيراً ، واتباعا للاصل الذى سرت عليه ، طلبت الي كاتبه أن يشفع روايتـه بالشهادات الدالة على سبق المنام للرؤية الحقيقية . فاليك هذا الكتاب

باريس في ٩ سبتمبر سنة ١٩١٩

« وفاء بما وعدتكم به ارسل اليكم بحكاية منامي مصحوبة بشهادتين ، وهو المنـام الذى أبديتم رغبتكم فى نشره . واني لسعيد بارسالى هذه المشاهدة المحققة اليكم وارجوكم قبول الخ الخ

(ا . سوريل)

« في سنة ١٩١١ رأيت في نومى اني بجهة ريفية جديدة في مملكة مجهولة لديّ . فشاهدت على ربوة صغيرة ذات انحناءات رخوة مغطاة بالكلأ الرطب بناء عظيما ذا مظهر مديفال، نصفه يصلح لبعض الاشراف ، ونصفه الآخر عزبة محصنة، تحيط به جدران مرتفعة كحزام غير منفصم ومعرضة لريح الجنوب . وكان في كل زاوية من زوايا هذه الجدران برج ضخم قليل الطول . وكان يجرى أمام الجهة الرئيسية من هذا البناء في المرج غدير، مياهه صافية ذات خرير

« ورأيت ان رجالا بل جنوداً يستقون الماء من هذا الغدير ، وآخرين يوقدون النار غير بعيدين ، وطوائف من البنادق مرتبة على طول تلك الجدر. وكان هؤلاء الرجال يرتدون ملابس غريبة على طراز واحد لونها ازرق شـاحب لم أكن أعرفه من قبـل. ويلبسون على رؤسهم قبعات ظهرت لي ذات اشكال غريبة

« ورأيتني أنا نفسى مرتديا بكسوة ضابط اعطي اوامر بالنزول فى تلك الجهة

« وبتأثير ظاهرة من الظواهر التي أحس بها ناس، كنت اقول في نفسى وانا أؤدى هذه الاعمال : ماهذا الموقع الذي نحن فيه ؟ لماذا انا هنا ، وفيم ألبس هـذه الكسوة ؟ »

« ثم استيقظت وقد ترك هذا المنام في ذهنى أثراً واضحاً مضبوطا . واهمني منه خلوه من الجزئيات المتنافرة او المضحكة التى تكثر فى نومنا ، وحصوله جامعاً بـين

التلاؤم والترتيب المنطقي في الخيال — لاني كنت اعتقد ان الا ظهوري يظهر ضابط في ذلك الجيش المجهول

« فقصصت هذا المنام في النهار على أقاربي وما تخلله من وجود الجنود الزرق . ثم اهملته ولم افكر فيه قط

« حدثت الحرب التي قلبت حالات كثيرة الى نقيضها فجعلت مني بعد سلسلة من التقلبات ضابطا برتبة ملازم المشاة . ففي سنة ١٩١٨ كان طابوري خلف الجبهة الحربية في (اوب)، في دور الراحة. وكنت انا اقود المجندين الجدد لصف سنة ١٩١٩

« فكان الطابور ماشياً منذ الفجر، والحرارة التي كانت تصوح الخضرة الناضرة لسوق الجويدار الكبيرة ،كانت تشق على جنودي الزرق المساكين، وكسف الغبار التي كانت تثيرها الوف الارجل المثقلة كانت لاتسمح لى ان اتعرف المكان الذى نحن فيه، فتلقيت أمراً بوقف الطابور تحت جدر القصر الذي كان على ماقاله البلوكامين على نحو مئتي متر جهة اليمين. وبعد ان اعطيت تعليمات الى رؤساء القطاعات،ذهبت لمقابلة قائد الطابور . وبعد بضع دقائق رأيت رجالى في منعطف الطريق المحوط بأشجار الحور التي تحجب عنا القصر

« ظهرت المزرعة بعد آخر شجرة من اشجار الحور، فتأثرت من رؤيته اذ رأيت ان المرج ذا السفح اللطيف، وهو موشي بالازهار التي ينشرها شهر يونيو في كل مكان، والجدران والابراج، مشابهة للتي رأيتها في نومي قبل سبع سنين ، ولا ينقصها الا الغدير الجميل ذو الخرير، والباب الاثري

« وبينما انا الاحظ هذا الفارق بين المنام والحقيقة جاءني صف ضابط وسألني الي اى مكان يذهب الجنود للاستقاء

« فأجبته ضاحكا يذهبون الى الغدير . فنظر الى مخاطبي دهشاً . فقلت له : نعم ان الغدير اذا لم يكن في هذا الجانب فهو بلا شك في الجانب الآخر من هذا البناء . تعال معي . »

« فلما قطعت محيط الزاوية الشمالية ، لمحت بغير دهش ذلك الغدير الظريف يجري علي الاحجار المخضرة الي نحو وسط الجدار والباب الكبير، كما رأيت ذلك في منامي تماماً، وهو بأعمدته المكونة من الآجر القديم

« هذه الصورة علي ماوصفتها هنا هي صورة منامي الذي رأيته في سنة ١٩١١. وما هو الا رؤية مؤثرة لما سيحدث في المستقبل ، حدثت لتريني ما سأشغله من وظيفة ضابط، وهذا كان مستحيلا تخيله في سنة ١٩١١»

(ا . سوريل)

شهادة مدام سوريل

اذكر ان زوجي حدثني عن هذا المنام الذي ادهشته تفاصيله في الحين الذي رآه فيه

١ سبتمبر سنة ١٩١٩ (هيلين سوريل)

شهادة والد المسيو سوريل

اصرح بأن ابني الفريد سوريل حدثني عن تفصيلات هذا المنام في الوقت الذي رآه فيه ، وبأن روايته عنه هنا غاية في الضبط

٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ (سوريل)

هذه الرؤيا الانبائية جاءت كفلق الصبح . فقد رأي المسيو سوريل في سنة ١٩١١ ، حادثة من حوادث الحرب التي وقعت بين سنة ١٩١٤—١٩١٨ التي اشترك فيها بوظيفة ضابط . وهي شبيه رؤيا المسيو (رنييه) الذي رأى في سنة ١٨٦٩ ، حادثة من حوادث حرب سنة ١٨٧٠ . فهنا وفي جميع الحوادث المماثلة لها، تعترضنا هذه المسئلة وهي : اذا كان يري الانسان قبل سنة من وقوعه او قبل سبع او ثلاث سنين، كما في رؤيا الاب كارنييه التي ذكرناها آنفاً، ماسيحدث للانسان في حينه، فمعني ذلك ان تلك الاشياء محتومة الوقوع، وان الاختيار الانساني غير موجود، وان المذهب الحق هو الجبرية المطلقة . ففي تاريخ معين من سنة ١٨٤٩ ، يجب ان تكون الايطالية جالسة في بيتها علي طريق رومية مع اولادها الثلاث، والعملة في اسفل الدار يشربون، والمهر يمرح الخ. وفي

تاريخ معين من سنة ١٨٧٠ يجب ان يكون المسيو (رنييه) جنديا يقاوم البروسيين والبافاريين، ويقذف بنفسه والخنجر في يده على الهاجم عليه . وفي تاريخ معين من سنة ١٩١٤، يجب ان يأمر المسيو سوريل جنوداً للبحث عن الماء امام البرج المجهول. وقل مثل هذا عن مئات من الحوادث المشابهة لهذه من رؤية المستقبل. فماذا يبقى بعد ذلك لاختيارنا ولحريتنا الشخصية ؟ ألا يوجد هنا تناقض مطلق ؟ فهل يمكن القول بحريتنا في اعمالنا، وبامكان رؤية الحوادث قبل وقوعها؟

سنناقش هذه المسئلة بتوسع في الفصل الآتي ، فلأكتف بأن أقول هنا انها علي اقصى مايمكن ان تكون من الصحة

الجبرية الدينية

والجبرية العلمية والاختيار

مسألة الزمان والمكان

ان ماكتبناه على الشيء الذى يرى قبل وقوعه، هومقدمة طبيعية لماسيأتي بيانه، فاننا الآن بصدد درس المشاهدات المؤكدة للمرائي الانبائية المقررة لمسألة معرفة المستقبل

لقد نشرت تحت هذا العنوان في (المجلة)، وهي مجلة المجلات سابقاً، وتسمى الآن المجلة العالمية، اول مارس واول ابريل سنة ١٩١٢، الادلة الرئيسية المثبتة لرؤية حوادث المستقبل والعلم بها قبل وقوعها في شروط خاصة . فتتبع هذا البحث منذ ذلك الحين بضعة كتاب، ونقلوا تلك الادلة بدون ان ينبهوا على مصدرها من كتاباتي وهذا

تفصيل قليل القيمة هنا) ، فالذى يهمنا علي وجه خاص هو ان نتحقق ان المستقبل قد يُرى ويُوصف ويعلن بتدقيق تفصيلي ، وانه ينتج من ذلك ان يكون في الانسان اصل روحانى متمتع بخصائص مستقلة عن خصائص المادة ، اي ان له روحا مخالفة لجثمانه

سنأتي هنا اولا علي الرؤيا الانبائية التي نشرتها في سنة ١٩١١ بمجلة التاريخ السنوى للعلوم النفسية ، ثم في سنة ١٩١٢ بالمجلة التي ذكرتها آنفا . فاليك هي :

حضر الىّ المسيو فريدريك باسى العضو المحترم في مجمع العلماء ، والذى ضحي حياته الطويلة بشرف في سبيل نشر السلام في العالم ، ومحق الفكرة الغبية عن ضرورة الحرب ، فى شهر يناير من سنة (١٩١١) ، بعد ان اخترق بقوة الخمسة الادوار من بيتي رغما عن التسعة والثمانين سنة ، وكانت هذه من اواخر زياراته لى ، وما حكاه لى يستحق التقديم حقيقة

قال لى : « انى لم أجده في كتابك (المجهول) ، ومع هذا فأنا متحقق من انه سيفيدك لمجيئه من كاتب مدقق شكاك ، ورجل لانزاع فى كماله ونزاهته ، وهو (اتيين دو جريلليه) . وهاأنا معطيك حكايته كما نقلتها من كتاب سياحته فى الروسيا . ففى مدة اقامته فى سان بطرسبورغ قصت عليه الكونتس توتشكوف مايأتى :

« قبل دخول الفرنسيين الي الروسيا بنحو ثلاثة أشهر كان معها زوجها الجنرال في املاكها بتولا . فحلمت بأنها وهي مقيمة بقصر من مدينة مجهولة دخل عليها والدها ممسكا بيد ابنه الوحيد وقال لها بكل دقة :

« لقد انتهي عهد سعادتك ! فقد سقط زوجك ، سقط في بورودينو »

« فاستيقظت في اضطراب عظيم ، ولكن لوجدانها زوجها بجانبها ادركت ان مارأته من اضغاث الاحلام ، وعادت فنامت ثانية

« فتجدد الحلم عينه ، وظلت مكتئبة بعد مااستيقظت مدة ، حتي انها لم تستطع ان تعاود النوم الا بعد مدة طويلة

« فحدث الحلم ثالث مرة، فشعرت عند ذاك بكرب عظيم، حتي انها أيقظت زوجها وقالت له اين بورودينو ؟ فلم يعلم عنها شيئا

« فلما اصبح الصباح، اخذ الاثنان يبحثان عن هذه المدينة فى الخريطة، يساعدهما والدهما فلم يهتدوا اليها . والحقيقة أن هذه المدينة كانت موجودة، ولكنها قليلة القيمة، ولم تشتهر الا بالموقعة الدامية التي شبت نارها بالقرب منها . ومع كل هـذا فان تأثر الكونتيسة من منامها كان عظيما، وقلقها مفرطا . وفي هذا الحين كان شبح الحرب بعيدا ولكنه لم يلبث أن اقترب

« فقبل أن يصل الفرنسيون الي موسكو، كان الجنرال توتشكوف (زوج الكونتيسة) قد عين على رأس الجيش الاحتياطي. وفى صباح يوم دخل ابو الكونتيسة وهو ممسك بذراع ابنها الصغير الى الدار التي كانت تسكنهـا، وكان حزينا كما رأته في منامها وقال لها :

« انه سقط، سقط فى بورودينو »

« فرأت الكونتيسة نفسها في الحجرة عينهـا، ومحاطة بجميع الاشياء التي رأتهـا في منامها

« فكان زوجها واحدا من الضحايا الكثـيرة في المعركة الدموية التى حـدثت بالقرب من نهير بورودينو، الذي اعطي اسمه لقرية صغيرة بجواره

(فريدريك باسي)

هذه الرؤيا الانبائية التي جاءت كفلق الصبح على شؤمها، لاشك في انهـا من الرؤى ذات المميزات الخاصة

فهل يمكنى ان يفترض انها تألفت في ذهن صاحبتها بعد حدوثها ؟ لا، لان رؤيتها اصابتها بتأثر لا يمكن نسيانه، ولأنهم بحثوا عن هذا الموقع في خريطة الروسيا قبل تحقق الرؤيا بثلاثة اشهر . فهي مستوفاة لجميع شرائط الصحة

ولكن أأقرر عقب هذا بأنه مادام موت الجنرال في بورودينو (وقعة السكووا) رؤي قبل حدوثه منذ ثلاثة اشهر، فهذا الموت وهذه المعركة كانا مما لا يمكن تخلفهما ؟

في هذه الحالة ماذا يكون شأن الاختيار الانساني ؟ فكان محكوما على نابليون اذن ان يشن الغارة على الروسيا، فلاتبعة عليه . وتكون التبعة الانسانية والاختيار من الاوهام والحالة هذه ؟

اما نحن فسنحلل الآن كل هذه النتائج المحيرة للالباب، وحقها ان تحار، فان الجبرية تظهر مناقضة لجميع الترقيات الانسانية . ولكن من الخطأ ان يخلط بين الجبرية الدينية والجبرية العلمية فنتوهم أنهما سواء

وقد كتبت لي شابة من نابل المادموازيل (فيرا كنزلر) في هذا الشأن في ابريل سنة ١٩١٧، كتاباً تعدفيه تذمراً من جراء عبارات قرأتها في كتاباتي خاصة بالمشاهدات التي لاتنقض عن رؤية الامور المستقبلة ، راجية اياي ان افسر لها كيف يمكن التوفيق بين هذه المشاهدات التي اضمن صحتها وبين الاختيار الانساني، وشعورنا بالحرية وبالتبعة الواقعة علينا من اعمالنا ؟ وقد ألحت في هذه المسئلة الحاحا قواها فيه ما هي فيه من التأثر العظيم من جراء تحقق نبأ سيء في اسرتها

فأجبتها بأن الجبرية الدينية والجبرية العلميـة مذهبان متخالفـان كل التخالف ، ويحسن عدم الخلط بينهما كما هو حاصل على وجه عام.

فالانسان بموجب المذهب الاول كائن منفعل بطروء الحوادث عليه، وهي احكام مبرمة لايمكن ردها ، ولكنه بموجب المذهب الثاني فاعل مختار،وهو نفسـه من العلل العاملة في الوجود . فالانسان اذا رأى المستقبل فلا يرى ما (يجب) ان يحدث، ولكن ما (سيحدث) . وبما ان الحوادث جارية لاتنقطع، فما نراه هو هـذه الحوادث ، ولا تسمي من اجل ذلك قضاء مبرماً . الفارق بين الامرين على غاية مايكون من الدقة. ولكني توقعت ان تكون روح هذه الآنسة التي لم تزد عن السابعة عشرة، والتي تحررت وطهرت من كل الآراء المقررة من قبل، وظهرت لي برسالتها من لطف الشعور على درجة عالية ، قد أدركت هذا الفارق الدقيق بالتأمل فيه التأمل الواجب له . ثم رجوتها ان تخبرني عن الامر الذي تحقق واوجب لها كل هذا التأثر العظيم؟ فأجابتني بما يأتي حرفيا :

نابل في ١٠ يونيو سنة ١٩١٧

الاستاذ الاكبر العزيز

« ماأشد ماشعرت به من الغبطة والسعادة بقراءة كتابكم المحبوب . وكان حسن وقعه عندي مضاعفاً أولا لأ نه منكم، وثانياً لالقائه بصيصاً من النور على الافكار التي تضطرب في مخي . وقد فكرت طويلا في كتابكم هذا وفهمت ماتفضلتم به علي من التفسير . وهو ان ماسيحدث من الحوادث يمكن رؤيته، ولكنه ليس بقضاء مبرم . وقد شعرت لذلك بارتياح لا حد له ، لأني كنت خشيت على نفسي الجنون من الفكر في اننا مسيرون وغير مخيرين ، لانملك شيئاحتي ولا أفكارنا

« أردتم أيها الاستاذ العزيز أن تعرفوا ماهي الحادثة التى قادتني الى الاعتقاد بالقضاء والقدر،فها أنا أكتبها لكم بأحسن مااستطيع

كنا منذ سبع سنين اى في ربيع سنة (١٩١٠) في علاقات أكيدة مع سيدةالمانية تدعي (هيلبين شميد) ، وهي وسيطة ذات قوة عجيبة ، وبما ان والدتي كانت تهتم كثيراً بالجلسات الروحية، رجتها يوماً أن تعقد معها جلسة للاتصال بالارواح

« لم أحضر أنا تلك الجلسة ، لانى كنت صغيرة لاأجاوز العشر السنين،وكنت وقت التحضير بالمدرسة ، ولكن والدتي وخادمتنا الهرمة كانتا دائما تذكران لى هذه الحادثة

« وكان مجرد وضع هيلبين شميد يدها بخفة على خوان يكفي في جعله يضطرب بشدة .وأنتم أيها الاستاذ تعرفون كيفية الاتصال بالارواح ان كان هنالك ارواح.فلما قرع الخوان، وكان من اخونة الاكل الضخمة التي يستحيل رفعها بالقوة العضلية، القرعات العادية، مؤذناً بأن روحا قد حضرت . سألت أمى تلك الروح عن اسمها بطريقة املاء الاحرف بالقرع.فأجابت ان اسمها (انتون) وكانت الوسيطة تجهل هذا الاسم كل الجهل . اما المتسمي بهذا الاسم فهو (انتون فبيدلر) النمساوى،الزوج الاول لخالتي، ثم تزوجت بعده (ادواف ريبسبيك) . من كل هؤلاء الناس كانت الوسيطة لاتعرف منهم واحداً، بل كانت تجهل وجودهم

« وبما ان (انتون فيبدلر) هذا كان أقرب الاقربين الي خالتي، فرأت والدتي ان تسأله عن مستقبل أختها فسألته :

« هل يحتفظ (رييسبيك) بثروته؟

« الجواب بوضوح : لا

« يفقدها بعد كم سنة ؟

« فقرع الخوان قرعتين، أى بعد سنتين

« فسألته أمي بعد ذلك قائلة : «وهل يعيش عمراً طويلا بعد اضاعة ثروته ؟

« الجواب واضح مضبوط : خمس سنين

« فأرادت والدتي أن تعرف علي أية حالة سيكون موته . فأجابها بأنه سيكون فجأة

« فسألتها : هل يموت من مرض أو حادث خطر أو انتحار أو غرق أو جناية ؟

« فأجابت الروح : نفياً . فصار من المستحيل معرفة الحالة التي سيموت بها . ولم يفكر أحد اذذاك في الحرب. وكان يجب ان يوضع هذا السؤال على غير هذا النحو . والشيء الوحيد الذي أمكن استخلاصه من روح (انتون فيبدلر) هو الجواب علي هذا السؤال : (كم سنة يكون عمر ابن رييسبيك عند مايموت هذا) فأجاب بوضوح تام : (سبع عشرة سنة) ثم انقطع الاتصال

« فأنا ياحضرة الاستاذ العزيز لاأسمح لنفسي بأى شرح ، بل أكتفى بأن أنقل اليكم ماحدث . ووالدتي لم تقص هذا الامر على أختها خشية ان تقوله لزوجها . وهي نفسها كانت لاتصدقه . ولكن كل ماأخبرت به الروح حدث بدقة مزعجة . ففي ربيع سنة ١٩١٢ ، أي بعد التنبؤ بسنتين أضاع (رييسبيك) ثروته في مضاربة جريئة بالبورصة ، وبعد قليل أخبرت والدتي أختها عن الشق الثاني من النبوءة . فقالت لها مايقوله كل انسان في مثل هذا المقام ، وهو ان هذه حماقات لايصح التعويل عليها

« ولكن هذا لم يمنع تحقق الشق الثاني من النبوءة . وكنت قبل تحققها كثيراً ما

أقول لوالدتي اذا كانت صحيحة فسيكون موت زوج خالتي في اول سنة ١٩١٧

« فحدث ياحضرة الاستاذ العزيز انه مات فى القتال في ١٢ فبراير سنة ١٩١٧ فجأة بقذيفة أصابته فى رأسه . وكانت سن ابن خالتى قد وصلت الى السابعة عشرة. والحالة التي مات عليها، ولم تستطع الروح ان تعينها بمرض أو حادث أو جناية الى غير ذلك من حالات الموت المعروفة ، كانت في الحرب .... الخ الخ

(فيرا كونزلر)

شهادة والدتها

أشهد بأن ماكتبته ابنتي صحيح فى جميع تفصيلاته

(ارملة ا . كونزلر)

مسالة القضاء والقدر

ان مسألة الحرية الانسانية تستحق التحليل فى هذا الموطن

اننا نقرأ دائما بسرور من يقدر الجمال حق قدره مؤلفات عالمنا الرياضى الكبير (لابلاس)، وهو من أكبر العقول اتساعاء وأنفذها شعاعاء ممن يحق لفرنسا أن تفخر بهم ، وهو مع هذا كله من أصفى كتابنا معيناء وأرواهم غيراً. اليك ماكتبه عن الاختيار في الانسان فى كتابه المسمي (محاولة فلسفية على الحسابات الترجيحية). امامى من هذا الكتاب الطبعة الثانية المطبوعة سنة ١٨١٤ قال :

« كل الحوادث، حتي التي يظن لحقارتها انها تفلت من سيطرة النواميس الكبري للطبيعة ، هي في الحقيقة تابعة لها تبعية ضرورية ، مثل تبعية انتقالات الشمس لها . والانسان لجهله بالعلاقات التي تربطها بالنظام العالمي برمته، ظنها تابعة للاسباب الغائية، او للاتفاق، حسب ماإذا حدثت وتعاقبت بنظام او بغير نظام ظاهر . ولكن هذه العلل الوهمية تقهقرت حدودها بزيادة معلوماتنا ، وزالت تماماً أمام الفلسفة الحقة التي لا ترى فيها الا انها مظهر من مظاهر الجهل الذي نحن عليه بالعلل الحقيقية

« ان للحوادث الراهنة ارتباطا بالحوادث التي سبقتها مؤسساً على الاصل البدهي

المعروف ، وهو ان شيئاً لا يستطيع أن يحدث بدون علة تحدثه . هذه البديهة المعروفة باسم اصل (العلة الكافية) تسري حتى على اعمالنا التافهة . فان الارادة التي تشعر بأنها أكثر من سواها حرية ، لا تستطيع ان تحدث تلك الاعمال بدون وجود سبب موجب لهـا ، لانه اذا كانت جميع الاحوال في امرين من الامور متماثلة تمام التماثل ، واندفعت الارادة الانسانية وراء أحدهما ، وامتنعت عن الآخر ، ظن الرائي ان اندفاعهـا هذا نتيجة بلا سبب مولد لها ، فيكون السبب كما يقول ليبنتز هو الاتفاق الذي يقول به الابيقوريون (أتباع أبيقور الفيلسوف اليوناني) . فلا شك ان الرأي المضاد وهم من أوهام العقل ، الذي لعجزه عن ادراك العلل الخفية لاختيار الارادة الانسانية في الاشياء التافهة ، يقنع نفسه بأنها عزمت على ماعزمت عليه من نفسها وبدون سبب

« فيجب علينا ان نواجه الحالة الراهنة للوجود باعتبار انها نتيجة حالاته السابقة ، وسبب للحالة التي سيكون عليها في المستقبل . فاذا كان هناك ادراك يلم في برهة من الزمن معينة بجميع القوى العاملة في الطبيعة ، ومكان كل كائن من الكائنات المكونة لها من مجموعها ، واذا كان هذا الادراك من السعة بحيث يستطيع ان يخضع جميع هذه المسائل للتحليل ، فانه يستطيع ان يجمع في نظرية واحدة بين حركات اكبر الاجسام الكونيـة ، وحركات اصغر الذرات المادية ، ولا يمكن ان يكون شيء مشكوكا فيه لديه من هذه الوجهة ، ويكون المستقبل كالماضي حاضراً أمام عينيه ، والعقل الانساني بالدرجات التكميلية التي استطاع ان يهبها العلوم الفلكية ، قد بدأ في هذه الخطوة من الفهم » انتهى

اننا سنتناقش في هذا التدليل الساعة وقد عزوا أصله الي (لابلاس) ، ولكن جميع المفكرين قد ذكروه قبله ولا شيء اكثر انطباقا على العلم من هذا

فالطبعة الاولي لكتاب (لابلاس) علي الحسابات الترجيحية هو مجموعة دروس القاها سنة ١٧٩٥ في مدرسة النورمال التي أسستها حكومة الثورة الفرنسية

و (عمانوئيل كانت) كتب سنة ١٧٨٧ في كتابه انتقاد العقل العملي مايأتي :

« اما وجهة الزمان وتتابعه المنتظم ، فاننا ان استطعنا ان ندخل الى روح انسان على الحالة التي يظهر انها عليها بأعمالها الباطنية والظاهرية ، وان نلم بجميع البواعث ، حتي

اصغرها شأناً ، واعتبرنا في الوقت ذاته جميع التأثيرات الخارجية ، استطعنا ان نعرف السيرة المستقبلة لهذا الانسان ، بمثل الدقة التي نحسب بها كسوف القمر او خسوف الشمس »

على ان (كانت) نفسه ليس بمكتشف هذا التدليل ، فاننا نصادفه لدى اقدم المؤلفين الرومانيين اى (سيسرون) مثلا . فانه في كتابه علي (التنبؤ) كلف أخاه (كانتوس) ان يذكر الاتفاق التام بين رؤية المستقبل ومذهب الجبر فقال :

« لاجل أن يتحقق الانسان من صحة الانباء بالغيب ، يجب ان يصعد في هذا البحث الي الله والى القدر والى الطبيعة . العقل يجبرنا أن نعترف بأن كل شيء محكوم بقضاء لامرد له . وأريد بالقضاء ماراه اليونانيون انه النظام ، او تسلسل الاسباب المترابطة المنتجة لنتائجها . هذه هي الحقيقة الابدية التي لاينبوع لها الا الابد نفسه . وبناء على هذا الاصل فانه لاشيء يحدث في المستقبل الا وفي الطبيعة علله المولدة له . فيكون القضاء تبعاً لهذا ، هو السبب الابدى لكل الاشياء ، السبب الذي يفسر الحوادث الماضية والحوادث الراهنة والحوادث المستقبلة . ومن هنا فانه بواسطة المراقبة يمكن معرفة ماهي نتائج كل سبب منها في أكثر الحالات . ولا شك في ان هذا التسلسل في الاسباب والنتائج هو الذي يكشفه الوحي والاحلام

وانضف الي هذا انه لترتب كل شيء بالقضاء ، اذا اتفق وجود انسان يصلح لادراك الروابط التي بين جميع الاسباب فانه لايخطيء قط . وفي الواقع انه يعرف الاسباب والحوادث ، فلا يضل في معرفة الامور المستقبلة » انتهى

هذا الدليل في نفسه ناصع لاشية فيه ، وأنا أكرر هنا بأن هذا يكاد يكون حقيقة من المسيو (دولابلاس) . فاما انه لاتوجد نتيجة بلا سبب ، فهذا واضح لايحتاج لبيان ، ولكن استنتاج الجبرية الدينية أو الجبرية العلمية منه ليست من الوضوح في درجة هذا التدليل الساذج الذى أتي به الذوق السليم

واني على الرغم من اعجابي العظيم بلابلاس بما تربيت فيه من المؤلفات ، أعترف بأنى لاأستطيع ان اشاطره نفيه المطلق للاختيار الانساني . وقرائي يعرفون ما كتبته عن هذا الموضوع المعضل في مذكراتي اذ قلت :

« الارادة الاكثر حرية لاتستطيع أن تعمل بغير سبب موجب » نعم ولكن من بين الاسباب العاملة فى الاختيار، شخصيتنا نفسها، وليس بسبب واه ومما يمكن اهماله

يقولون ان هذه الشخصية تعمل خاضعة للسبب الاقوي، وهي نفسها موجودة بأسباب سابقة. هذا أمر لانزاع فيه. ولكنها مع هذا كله موجودة ومتأثرة بأخلاقنا. ومما يجب أن يعتبر أيضاً أمر رئيسي لايقبل الدحض، هو اننا نشعر جد الشعور بأننا نختبر ونزن ونناقش أنفسنا عند ماتكون الحالة تقتضي ذلك، ونعزم بعد تقدير النتيجة التى نشعر بأنها ملقاة علينا

انه ليتفق أحيانًا وأنا أريد حصول ذلك، أن تكون كفتا الميزان متعادلتين فى أمر من الامور، وان احداهما ترجح بمجرد اضافة ثقل صغير اليها، ولكن هذا الثقل الصغير قد يكون هوانا او شهوتنا او ارادتنا او مصلحتنا في مضادة نتيجة متوقعة. وقد يكون فى الواقع حبنا للتمتع بحريتنا الشخصية. فالقول بأن هذا وهم من عقولنا، فلا يوجد شيء يسمح بتأكيد هذا الافتراض باعتبار انه حقيقة مقررة. فأصل (السبب الكافي) يعمل فينا عند ماناقش انفسنا في ضمائرنا

فكوننا نعزم علي الشيء مدفوعين بالسبب الاقوي، لايدل على اننا لانختار على مقتضى طبعنا. فارادتنا اشتركت مع هذا الطبع دون ان تكون اسيرته. وقد كتب ارسطو في رسالته عن السماء (٢ — ١٣):

« ان هذا يشبه حالة رجل في أشد درجات الجوع والظمأ، وموجود فى مكان على علي بعد واحد بين جهتين، في احداهما طعام وفي الاخري شراب. لانشك في انه يبقى مكانه لايتحرك »

وقال (دانتي) مثل هذا القول في كتابه الرابع عن الجنة. ويقال ان (بوريدان) هو الذى ذكر هذا التدليل قبل غيره ولكنه افترض بدل الانسان حمارا

لايشك احد فى ان الانسان والحمار لن يموتا جوعا. إلا ان النظام الآلي هو السائد وحده في الطبيعة

هل يوجد تناف مطلق بين الانباء بالمستقبل والاختيار؟ هذا مايؤكدونه على وجه عام وهو ماأكده الكتاب الاقدمون والمحدثون على السواء

من الواضح الجلي أنهم اعتقدوا ذلك لأنهم خلطوا بين العلم الالهي بما سيكون، وبين الضرورة ، وهذا ضلال مبين

في المحادثات التي جرت بين (غوث) و (ايكيرمان) في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ قرأنا مايأتي :

« مايدرينا ولو بذلنا كل جهودنا العقلية الي أي حد وصلنا الآن ؟

« لم يخلق الانسان ليحل مسألة وجود العالم، ولكن ليتحقق من عظم هذه المسألة، وليقف بعد ذلك على الحد الاقصى الذى أمكنه ادراكه

« فان خصائصه العقلية لاتصلح لقياس الحركات العالمية، والالمام بمجموع الاشياء الوجودية، مادام ليس لها غيروجهة نظر ضيقة. والعمل على نقيض ذلك عبث . والخلاف شديد جداً بين الادراك الانساني والادراك الالهى

« فاذا قررنا ان الانسان حر فيما يفعله ، كان ذلك قادحا في احاطة علم الله بكل شيء. ومن جهة أخرى اذا كان الله يعلم ماساعمله، فلن أكون حراً في أن أعمل خلاف مايعلم . وأنا لاأسوق هذه المحاورة العقلية الا لأضرب مثلا على قلة علمنا، ولنثبت انه لايحسن التعرض للاسرار الالهية »

» . . . . . . «

غوث لم يجسر علي الذهاب الى ابعد من هذا، فلنبحث في سبب ذلك

ان الحوادث والاحوال تقودنا على شاكلة أكل كثيراً مما يظنه الناس على وجه عام . ومن يحلل بانتباه أعماله الحيوية يعترف بذلك بدون عناء . وخاصة الاختيار التي فينا لاتؤدي عملها الا في دائرة ضيقة جداً على حد مايقوله المثل القديم : « الانسان يتحرك والله يقوده » ولكن هذا ليس صحيحاً من كل وجه ، فان الله أو القدر أو فاتوم ، *Fatum* ، كما كان يسميه اللاتينيون قد يترك لنا قليلا من الحرية . وهناك مثل

يناقض المتقدم ، ولكل حكمة نقيض ، يدل على ماانذهب اليه نحن وهو : «ساعد نفسك يساعدك الله »

نعم ان الانسان يتحرك والحوادث تقوده ، ولكنا مع ذلك صناع مقاديرنا الخاصة

وجملة القول ان الحقيقة ليست في مباحث مابعد الطبيعة التي تؤثر عن الفلاسفة المنقبين في تحتم القدر ، ولكنها في الشعور العام العملي الذي يمكن حصره في الحكمة العامة ذات الست الكلمات التي ذكرتها آنفا

تفسيري انا لهذه المسئلة يقتضى بحكم الاصل القائم عليه ان لا يبرح مجال المشاهدات المحققة ، بدون اللجأ الى اى افتراض كان. فاذا قيل لنا ان شعورنا بالاختيار وهم باطل ، كان هذا منهم محض افتراض. فها أنا جالس أمام مكتبي أسائل نفسي عما أفعله، فأقابل بين عمل وعمل ، وأناقش نفسي ثم أعزم على هذا أو ذاك. أراهم يصارحونني بأنني مخدوع للاحوال الخارجية عن ارادتي . ولكني أقول انه اذا لم يكن لى عقل تركت الحوادث تجرى كما تشاء ، وتكون الحرية مقصورة على اختيار مايظهر انه الاحسن . الا ان هذا لايمكن الاخذ به على اطلاقه بل هو نسبي . فاننا قلقون على الدوام فى أغراضنا. وقد تمر أيام لايجرى فيها شيء . هذا علم ناقص جداً ولكنه موافق لشعورنا الذي لانزاع فيه ، والذى لايجوز لنا أن نحذفه لنستعيض عنه بافتراض على انه واضح كالشمس فى رائعة النهار . قد يقال ان هذا أمر ظاهري . نعم هو ظاهرى كالشمس أو كأحد المناظر الخلوية أو كشجرة أو ككرسي كبير أو كدار ، وهى الاشياء التي نعرفها بالتأثيرات التي تقع منها علينا ، ولكن هذا المنظر يختلط علينا بالواقع

على ان هناك مشاهدة يومية مستمرة لايمكن المشاحة فيها وهي اننا كثيراً ما نكون على حالة سلبية وليس لدينا عزيمة محدودة على عمل شئ . فيعترض علينا بأننا عند مانجادل انفسنا ثم نعتزم عمل شيء بعد انضاج الروية ، فما ذلك الا انقياداً منا للسبب ، الاقوى بحيث ان حريتنا المزعومة يمكن تشبيهها بميزان يهوي احدى كفتيه بتأثير الثقل الذى يوضع فيها

ولكن مما لامشاحة فيه اننا نعزم على ما نراه افضل متى ناقشنا انفسنا بثبات ، ووازنا بين المنافع والمضار بين أمرين من الامور. وهذا هو المجال الذى يعمل فيه عقلنا. ولا توجد سفسطة تستطيع ان تقتلع منا هذه العقيدة. واننا لنشعر بأننا لو فعلنا على عكس ذلك، لكنا مخالفين للعقل ومتي حدث منا أحيانا اننا عملنا على خلاف ما حكمنا بصوابه، شعرنا بأننا أجبرنا على ذلك اجباراً نسبيا

قد يرد علينا معارض فيقول : لاشك في اننا متمتعون بقسط من حرية العمل ، فنستطيع ان نختار وان نعزم مقودين بالسبب الاقوي، فأين الاختيار المطلق في هذا؟ أليس كل منا مقوداً رغم أنفه بمزاجه وذوقه وآرائه وايثاراته؟ ومقودا أيضاً بالاحوال المحيطة به وبتتابع الحوادث عليه ؟ فكيف الخلاص من هذه السلاسل؟ اننا نبدأ أعمالا حقيرة وجليلة دون أن نعلم الغاية التى ستتأدى بنا اليها . فليبحث كل منا في أمور حياته وليرمبلغ حريته من الضعف

فالانسان متورط في زوبعة القدر يتحرك وهو يقوده الى حيث شاء . وهذا القدر هو الروح العام الذي لسنا نحن ازاءه غير أدوات حقيرة . ولكننا نحن أرواح أيضاً

(لايوجد اختيار مطلق ولكن يوجد اختيار نسبي)

مما لامشاحة فيه ان حريتنا أقل كثيرا مما يظهر للعقول السطحية . فان السر العالمي للوجود هو الذى يقودنا ، لاننا نعيش تحت تأثير الحالة الفلكية والحالة الجوية والحرارة والبرودة والمناخ والكهرباء والضوء والبيئة المحيطة بنا والوراثات وما تعلمناه ، ومزاجنا وصحتنا وقدرتنا وارادتنا الخ الخ، فحريتنا والحالة هذه تشبه حرية سائح على سفينة يزمع الانتقال من اوربا الى امريكا. فسياحته مقررة من قبل، ولكن حريته لا تتعدى مقدم السفينة، وهو يستطيع ان يذهب ويجيء على سطح الجارية على الماء ، ويتحدث ويقرأ ويدخن وينام ويلعب ،الخ، ولكنه لايستطيع ان يخرج من داره المتحركة . فما سنراه في حياتنا مرسوم من قبل مثل سير اعضاء الآلة ، وعلينا عمل مطلوب منا تأديته بشيء من الجهد الشخصي . وهذه الحرية المقيدة هي في الواقع محدودة جداً

ولكنها موجودة علي كل حال . أتخيل انك علي مائدة أحد أصدقائك ، وهو يهديك صنوفا من الطعام، وانت تستطيع ان تختار بين الشراب الابيض والشراب الاحمر، وبين ما يأتي من بورغونيا وما يرد من بوردو وكذلك تستطيع أن تميل الى شرب الجعة اوالماء القراح ، بعد معرفة استعدادك المعدى وبعد استخدام عقلك في هذا الاختيار

اذا راقبنا بعناية أصغر أعمالنا فى ساعة من الساعات، رأينا ان حريتنا محدودة للدرجة القصوى، وان ما نعتزم عمله في الصباح عندما نستيقظ، يصرفنا عنه الف حائل، ولكن مع ذلك تتحقق عزيمتنا الرئيسية علي قدر ما، ويؤثر اختيارنا تأثيرما

ففي أعمالنا الكبيرة والصغيرة علي السواء، أهمها تحدده الاحوال المحيطة بنا وارادتنا في وقت ما

يمكن للانسان أن يعتقد بامكان الانباء بالغيب دون ان يقدح ذلك فى أصلى الاختيار والتبعة الانسانية . فالوقت الحاضر لا يقف قط ، بل يستمر على الدوام باتصاله بالمستقبل . ولا بد دائما من حصول شيء، فهذا الحصول لا يصح أن يوصف بأنه كان حتما مقضيا، لان الارادة الانسانية لها نصيب في توليده باشتراكها مع تسلسل الحوادث ، ولان هذه الارادة متمتعة بحرية نسبية . فالذى تعزم عليه، يصبح أمراً واقعا ، ولكنها كانت تستطيع أن لا تعزم ، والمستقبل تبع للماضي ، فرؤيته لا تختلف أصوليا عن رؤية الماضي . وهذا الامر لا يمنع من الاعتقاد بأن الارادة الانسانية هي احدى أسباب حدوث الحوادث . وقد كان يمكن ان يحدث خلاف الحوادث التى حدثت، وهذه الحوادث المخالفة هي التي كانت ترى بخاصة رؤية المستقبل

ان ما يحدث من الحوادث هو نتيجة تسلسل العلل، وقد يكون من تلك العلل قوة انتقامية تأمر باطلاق الرصاص على خصومها ، او قطع اعناقهم بالآلة المستعملة لذلك كما شهدت باريز ذلك من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٨٧١ (وكما رأيت أمثال ذلك فى كل صقع من اصقاع كوكبنا الارضى الظريف) . وقد يكون من تلك الاسباب رجل محب للانسانية يتدخل فى ثورة ليقف افراطاتها ويعدل سيرها . فالحوادث التي تحدث لا تمنع من ان يوجد الطيب والخبيث ، والجاني والمجني عليه ، والعادل والظالم، والارعن

والمتروى ، والذكي والابله، والحربي والسلمي، والرائد، والمسخر له ، واللصوص، ومن وقعت عليهم عاديتهم

فرؤية ماسيحدث بتعاقب المسببات والاسباب بأية وسيلة من الوسائل ، يمكن ان يتفق مع القول بوجود جميع العلل المحدثة لها، ومن بينها الحرية الانسانية

المستقبل ليس بأغمض من الماضى . فاذا قلت مذ اليوم ان حركة القمر حول الارض، وحركة الارض حول الشمس، تقضي بوجود كرتنا الارضية وتابعها والشمس على خط مستقيم مع فرنسا، على طريق ظل القمر فى ١١ اغسطس سنة ١٨٩٩ في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا، وسيدعو ذلك الي خسوف كلي للشمس، يرى في شمال باريز مدة دقيقتين فقط . ان قلت هذا القول مذ اليوم فلا يجد أحد فى نفسه حرجا من هذا التنبؤ ، كما لايجد فيها شيئا لو أنبىء بواسطة الحساب الرجعى عن ان خسوفا كليا حصل للشمس في ٨ يوليو سنة ١٨٤٢ . ففى وقت حدوث خسوف سنة ١٨٤٢ الذى اشتهر بارصاد (اراغو) في مسقط رأسه، كان عمري اربعة اشهر واحدعشر يوما، وعند حدوث خسوف ١١ اغسطس سنة ١٩٩٩ سأكون مت منذ مدة طويلة ، ولكن هذا ليس له اقل قيمة ، فالمستقبل بالنسبة الي اليوم وبالنسبة اليك، والى جميع الاحياء المعاصرين ، سيكون الوقت الحاضر بالنسبة لآخرين ، ثم سينقلب فيصبح ماضيا

يمكن هنا أن يعترض معترض فيقول : ان تشبيه الحوادث الفلكية بالحوادث الانسانية ليس بصحيح . نظراً لانه لاتوجد أية حرية فى حركات الكواكب، وان التحتم فيها مطلق . ولكنا نجيبهم بأنه اذا كان الاختيار الانساني من الاسباب العاملة، فنتائجها تكون محتمة الحصول كتحتم حوادث الكواكب

أما كون ان كل مايحدث هو نتيجة ضرورية لاسباب عاملة فذلك مما لاشك فيه، ومن بين الجنايات المتناهية فى الفظاعة، حريق رومية ، واضطهاد نيرون للمسيحيين، وخرق الالمانيين لحياد البلجيك ، وقتلهم لاهالى البلاد ، وحرقهم للوفان ، وضرب كاتدرائية ريمس بالقنابل ، وفضائح المجازر البشرية في الحرب الاخيرة. ولكن كل عامل

يشترك مع الاسباب العاملة فى احداث الحوادث يكون عليه من التبعة بقدر حصته من التأثير والحوادث سلسلة آلية بما فيها

حكم الاسقف (كوشون) على جان دارك بالحرق بتهمة السحر، وتقديس أساقفة آخرين لها وفيهم الكيماوي (لافوازييه) والفلكي (بيلي) والشاعر (اندريه شينييه) والفيلسوف (كوندرسيه) وضحايا أقسى الثوريين وأشدهم تسكعاً في العماية، كل هذه الحوادث حدثت بتأثير الاسباب الموجبة ولكنها لم تكن محتمة الوقوع. فان سير الامور قد كان يمكن أن يتغير فيقع خلاف ماوقع. فمن القول بهذا الرأي الى القول بأن الانسان غير مسئول عما يفعل توجد هوة بعيدة الغور. فامبراطور المانيا الذى حل عقال الحرب في سنة ١٩١٤، وكان سبباً في موت اثني عشر مليونا من الكائنات البشرية، لا يصح ان يسوى (بسان فانسان دوبول) ولم يكن اولهما ولا ثانيهما مسيراً كالآلة، ولا أسيراً فى يد القضاء المبرم

ان حذف الحرية معناه حذف كل تبعة، وكل مزية خلقية. والتسوية بين الخبيث والطيب، هو أمر يناقض ماغرس فى طبيعتنا من العلم الفطري اليقين. وفي هذه الحالة يجب علينا أن نرفض أوضح وأجلى مالدينا من الافكار

كل منا امامه حظ مجهول، ولكن الحوادث تتوارد كلها رغماً عن اختيارنا الشخصي الذي يختلف قوة وضعفاً باختلاف الناس، وقد تتوارد بسبب هذا الاختيار نفسه. وفي الحياة الانسانية كلهم يعملون على درجات مختلفة فتحدث لها نتائج

والعالم يشتمل على مجانين وعقلاء، وقد يكون عدد المجانين أكبر من عدد العقلاء، اذ المؤكد ان العقل لاسلطان له وخاصة على سير الممالك

ومع وجود حظنا المجهول أمام كل منا، فكل واحد منا يعمل على حسب خصائصه وامكانه وتأثير المحيطين به ووراثته وعلمه وحكمه وعقله وقلبه، وهو متحقق بأنه متمتع بحرية نسبية وفي وسعه ان يعزم على اشياء. فنحن والحالة هذه صناع مقاديرنا ومسيروها

ومهما عملنا فان ساعة موتنا معينة من قبل. لماذا؟ لان جميع الحوادث تتعاقب

ومنها اهواؤنا وما نلقنه من بيئاتنا وضعفنا وطيشنا وضلالاتنا، ومنها ايضاً كل ما سيتحقق حولنا . ونحن نسلك في العادة علي حسب امكاننا وبما تدركه عقليتنـا . فلا يستطيع احدنا ان يحمل علي الكذب رجلا قويم الاخلاق، ولا ان يدفع الشحيح الي السخاء . فعمل كل منا مهما كان محصوراً في دائرة خصائصه، موجود كغيره من الموجودات. وقد توجد امور يتطلب البت منافيها اسابيع واشهراً نمضيها في الفكر والقياس. وعليه فالحوادث متعلق بعضها ببعض ، ورؤيتها قبل حدوثها لا يمنع هذا التعلق

يظهر لي ان المحلل النشط للحوادث النفسية (بوزانو) قد حد هذا التناقض الظاهري حداً ينطبق على حكم العقل اذ قال : لا اختيار ولا جبرية مدة الوجود الجسدي للروح الانسانية، ولكن حرية مقيدة

ربما امكنك ان تعترض علينا قائلا : اذا كان مايحدث ضروري الحدوث فمن العبث ان يعذب الانسان نفسه لينجح في أمر من الامور، اوان يجد ليخرج فائزاً من مسابقه، أو يذهب ليحضر طبيباً لمريض، وان يكافح في خصومة الخ .

ان هذا الاعتراض يثبت بالتحقيق ان لعملنا تأثيراً في سير الامور . فمها كنت جبريا فانك ستجري لاحضار طبيب ، وستدافع عن وطنك ضد المغير عليه ، وستستدعي رجال المطافيء لاطفاء حريق ، وستعمل على وقف النار التي بدأت تشب من جراء شرارة أصابت أوراقك في حجرة عملك الخ . ان لديك لعقلا وانك لتستخدمه . فاعتراضك لا يدل قط على ان ليس لديك ذلك العقل، ولا على انك آلة مسيرة

وأحسن دليل نملكه لاثبات حريتنا وخصيصتنا في الاختيار وفي العزم علي الشيء بعد التروي فيه، هو شعورنا الصميم المطلق بأننا نملك هذه الخصائص، وهو شعور لا تستطيع أي سفسطة أن تطمسه . انك لتشعر شعوراً صحيحاً بأنك تستطيع أن تشير أية اشارة تريدها . فقد يقولون لك ان هواك في رفع أصبعك مثلا سبقته سلسلة افكار متقدمة عليه ، ونحن نقول ان هواك هذا نفسه أمر واقع، وقد صدر من العقل الحاصل على حظه من الحرية

فالمستقبل تحدده الاحوال ومنها الحرية الانسانية، حتي احقاد حيوان ضرب ظالماً وحتى ألوف من مؤثرات خاصة لا يفكر فيها الانسان

فالشخصية الانسانية هي بعض الاسباب العاملة فى سير الحوادث الارضية. هذا هو حل المسألة التي وضعها سيسرون وسان اجوستان ولابلاس واضرابهم

هنا يوجد فارق غاية في الدقة ننبه اليه لاجل عدم الوقوع في الخلط بين الترابط المحتم للحوادث الانسانية، وبين مذهب الجبر. فما يحدث من الحوادث لا يكون بقضاء سابق ولو انه النتيجة الضرورية لاسباب. مثال ذلك رجل يضرب بجمع يده على ظهر مار متعجل في وسط مزدحم بالسابلة. كان يستطيع هذا الرجل أن لا يضرب، لأنه كان يتأتى أن لا يخرج من بيته في ذلك اليوم، وأن لا يسلك ذلك السبيل، وكان يمكن أن لا يكون الضارب له هنالك. فكانت الامور جرت في غير هذا المجري. هذا كل مافي المسألة. وخاصة كشف المستقبل ترى ماسيحدث من الحوادث بدون ان يكون هذا الكشف منافياً لخاصة الاختيار

ليس من التواضع أن يتكلم الانسان عن نفسه، ولكن هذه المسئلة يحسن تحكيم أنفسنا فيها. ولذلك أسمح لنفسي أن أضرب فيها مثلا أعرفه جد المعرفة: منذ سنين كثيرة كنت أجهد نفسي لانشر في العالم أجمع المعلومات الفلكية، وقد أصبت في ذلك بعض النجاح، وقد آتاني محبون عظام للعلم والتقدم بمساعدتهم لتأليف الجمعية الفلكية بفرنسا. فلا يوجد في العالم أحد يستطيع أن يمحو من ذاكرتي المكافحات المنوعة التي خضت غمراتها في هذا السبيل، وأن يقنعني بأنه لم يكن لى في هذا العمل أثر شخصي، بل كان لي أثر مّا فيه، وكل العاملين والمنظمين لهم مثل مالى فيما تم على أيديهم. فالارادة ليست كلمة فارغة. وكل انسان يستطيع أن يفكر على هذا النمط فيما يخصه. فنحن نعمل والمستقبل يتألف من أعمالنا المتعاقبة. فليس هذا بالقضاء والقدر بل هو نقيضه. فالقول بأن الانسان مجبر على ما يفعل، هو قول البلداء والمتواكلين الذين ينتظرون طروء الحوادث باعتبار أنها واقعة لامحالة، وعلى رغم أنوفهم. ولكنا على العكس نعمل ونعتقد اننا نؤثر فى سير الحوادث. فلسنا منفعلين ولكنا فاعلون. اننا نبني بأيدينا

صرح المستقبل . فلا يجوز والحالة هذه الخلط بين الجبرية العلمية والجبرية الدينية. فان هذه تمثل الجمود وتلك تمثل العمل

والجبرى الدينى هو الشرقى ، هو التركي (؟) ولكن الجبرى العلمي هو الاوربى . وبين المدنيتين هوة بعيدة القرار

ورؤية المستقبل هو رؤية ماسيحصل فهي رؤية. ونحن فى علم الفلك نحسب مدار مذنب من المذنبات مثلا ، مداره الطبيعي أو النظري أو شكله البيضاوى، بارابوليك أو الهيبربوليك في الفضاء . ولكن قد يحدث ان المذنب يمر بجوار كوكب عظيم تؤثر جاذبته عليه فيغير سيره، فلا يكون تقديرنا لاوضاعه المستقبلة صحيحاً الا اذا اعتبرنا هذا التأثير الذى سيعرض له

فـكل المؤثرات تؤثر في الحوادث اليومية، وأعمال الانسـان من المؤثرات التي لايجوز اهمالها كما لايجوز اهمال تأثير الكوكب في المذنب الذى ضربناه مثلا وان كانت حاصلة على شيء من الاستقلال

فليس من المستحيل والحالة هذه التوفيق بين شعورنا بالحرية ، وبين خاصة الانباء بالحوادث المستقبلة

فلنفترض مراقباً يقوم على قمة جبل يمتد فى أسفله سهل فسيح ، يري رجلا يتبع طريقاً يؤدى الى قرية. فيخمن ان هذا المسافر يقصد هذه القرية لقضاء مهمة من المهام. ففى أي شيء من هذا تتعارض رؤية مايعمله مع حريته الشخصية

ان اختيار العامل لايتعارض مع رؤية المراقب له . وكذلك الرؤية لحادثة مستقبلة لاتؤثر على هذه الحادثة . فاذا رأينا من قمة الجبل الذى ذكرناه قطاران يجريان بأقصى سرعة ، احدهما ضد الآخر من جراء خطأ فى تحويل القضبان ، علمنا من ذلك ان كارثة ستقع لامحالة لهذا السبب . ولكن رؤيتنا المستقبلة لتلك الحـادثة لم تكن من أسباب حدوثها فى شيء . فمسألة الرؤية اجنبية جدا عن مسألة حدوث الحادثة

فرؤية الحوادث متعاقبة فى المستقبل ، كرؤيتها قد تعاقبت في الماضى، لاتنافى الاسباب المحدثة لها التي اثرت فيها، ومن هذه الاسباب الارادة الانسانية

ألم يحدث لك أحيانا وأنت تقرأ رواية أن تتنبأ بتتمة الحكاية؟ أليست المهارة العظمى للكاتب هي في اعطاء الاشخاص الخياليين في روايته من مظاهر الحقيقة ما يجعل القارئ لروايته يهتم كل الاهتمام بها بحيث لا يطيق الصبر على جهل نهايتها

***

من مجموع هذه الاعتبارات يمكننا، فيما يظهر لنا، أن نستنتج نتيجة لازمة لها وهى ان مسألة النظر الذاتي للحوادث المستقبلة من الكبر والضبط ، بحيث ان افتراض حصولها بالاتفاق أصبح لا قيمة له على الاطلاق ويجب لفظه بلا هوادة . فان هذا النظر الذي يفوق الشعور العادي أصبح لا غبار عليه من الشك عند الذين درسوه دراسة كافية . نعم قد عجز العلم عن تفسيره في الوقت الراهن ، ولكنه لا يبطل الحرية الانسانية .

فرؤية الامور المستقبلة رغمًا عن مظهرها، ورغمًا عما يعتقده فيها الفلاسفة الذين لم يدرسوها دراسة كافية، ليست منافية للحرية الانسانية ولا للاختيار، مهما توسعوا فيه وأبتعدوا من حدوده . فالانسان يرى ما يحدث مع حذف الزمان الذى ليس له وجود في الواقع ، لانه نتيجة عرضية لحركات الكوكب الذى نعيش عليه . فبحذف الزمان لا نكون قد حذفنا الا مظهراً من المظاهر . وبهذا الاعتبار فالانسان يري ماسيحدث كما يستطيع أن يرى ماحدث . واذا كانت الارادة أو الهوي أو الاحوال قد أوجبت حدوث شيء آخر فالذى يرى هو ذلك الشيء . فرؤية المستقبل لا تؤثر في الحرية الانسانية كما لا تؤثر فيها معرفة الماضى

فالزمان في الفضاء المطلق ليس بموجود . فاذا كانت الارض تدور بضعف السرعة التي تدور بها الآن كانت الايام على نصف ماهي عليه الآن . فهذه المقاييس نسبية وليست أصلية، فلا نخلطن بين تعاقب الحوادث وهى ماينتج منها الزمان بالنسبة لتأثراتنا البشرية، وبين المطلق فى اطلاقه . وعلم الفلك قد فتح أعيننا لنظر هذا الفارق بين الامرين . فانظر الليلة مثلا الى الكواكب سيروس وفيجا والدبران تراها لا كما هي عليه في الواقع، ولكن على ماليست عليه ، أي على ماكانت عليه، الاولى قبل ثمان سنين،

والثانية قبل عشرين سنة ، والثالثة قبل اثنتين وثلاثين سنة . فحاضرنا نحن موجود وماضيهم في وقت واحد . وقد شهدنا حريقاً في السماء في ٢٢ فبراير سنة ١٩٠١ حدث في سنة ١٥٥١ . فالكواكب التي تراها في الوقت الحاضر لاتوجد في الواقع . والزمان الحاضر لجوبتير وساتورن ليس بالزمان الحاضر للارض

اعتاد علماء مابعد الطبيعة ان يشركوا بين الزمان والمكان اللذين تربطهما في الواقع روابط ، وأن يعزوا اليهما خصائص مشتركة ، وهذا خطأ ، فالمكان موجود في ذاته وهو مطلق وأبدي وغير محدود وان كان فارغا لان الفراغ في نفسه مكان محض . وأما الزمان فعلي عكسه لاوجود له في ذاته . فهو موجود بوجود حركات الكواكب وتعاقب الاشياء . فاذا كانت الارض ثابتة ، والكواكب غير ممتعة بأية حركة ، فلن يوجد زمن قط ولكن يوجد مكان . ففي المكان العام المطلق لا يوجد زمان مابين الدنياوات

وقد تحادثت منذ خمسين سنة أكثر من مرة عن هذه المسألة مع فلاسفتنا المعاصرين ، فوجدت أكثرهم يؤثرون تضحية الانباء بالمستقبل في سبيل الحرية الشخصية . ولم يتخيلوا انه يمكن ان يوجد اتفاق بين الاثنين . وأنا أؤمل أن أكون قد وفقت بينهما هنا . وعلى كل حال لايجوز ، بل لا يمكن انكار الحوادث المثبتة بالمشاهدة . فلنعد الى هذه الحوادث

لم تنشر الترجمة الفرنسية لكتابات الفيلسوف الالماني شوبنهور عن المغناطيس الحيواني والسحر الا في سنة ١٩١٢ . وقد كانت نشرت في المانيا سنة ١٨٣٦ وكذلك ترجمة ماكتبه عن الارواح وعن الرؤي المنبئة بالمستقبل مع ان أصلها نشر في برلين سنة ١٨٥١ . فاليك ماكتبه الفيلسوف في ذاك المؤلف :

« تنبيء الاحلام غالبا عن حوادث هامة وأحيانا عن أشياء تافهة لاتلفت لحقارتها نظر المفكر . وقد تحققت أنا نفسي من ذلك بتجربة لايمكن دحضها . وأريد اليوم نشر هذه التجربة لأنها توضح في وقت معاً الضرورة القاهرة لحدوث الحوادث على ماهي عليه حتى ماكان منها عرضيا جداً . كنت أكتب ذات صباح بعناية عظيمة

كتابا طويلا هاماً باللغة الانكليزية خاصاً ببعض الشئون . فلما انهيت الى الصفحة الثالثة منه ذهلت، فأخذت الدواة بدل وعاء الرمل وصببتها على الكتاب . فسال المداد من على المكتب الى الارض، فحضرت الخادمة باشارة الجرس الذي قرعته ومعها دلو من الماء، وأخذت تمسح خشب الارض لترفع عنه البقع . وقالت لي وهي تؤدي هذا العمل، قد رأيت الليلة في منامي اني أرفع من هذه الحجرة بقعاً من الحبر بحك أخشابها

« فقلت لها : « ان هذا غير صحيح »

« فأجابتني بقولها: « هذا صحيح وقد حدثت بهذا المنام الخادمة الاخرى التي تنام معي »

« فدخلت الخادمة الاخرى المذكورة اتفاقا، وكان سنها سبع عشرة سنة لتنادي الخادمة التي ترفع البقع . فتقدمت اليها وسألتها : « ماذا رأت صاحبتك في منامها الليلة » فأجابتني قائلة : « لاأدري » . فقلت لها ومع ذلك فهي تقول انها قد حدثتك عنه عند يقظتها. فقالت الشابة عند ذلك : « نعم، انها رأت انها ترفع من هذه الحجرة بقعة من الحبر علي خشب الارض »

« ان هذه القصة التي أضمن صحتها المطلقة، تجعل صحة المنامات التي من هذا القبيل لا تحتمل الشك . وليس بأقل قيمة من ثبوت صحتها كونها تتعلق بحدوث أمر يمكن أن يوصف بأنه غير ارادي، لانه حدث رغماً عن ارادتي، وهو نتيجة خطأ صغير ارتكبته يدي. ومع هذا فقد كان وقوع هذا الامر ضروريا ومحدداً تحديداً لا يمكن تخلفه، بحيث وجد علي صورة منام قبل حدوثه بساعات في وجدان انسان آخر . من هنا يتجلى بأوضح ما يمكن ان يكون صدق نظريتي وهي : كل ما يحدث من الحوادث لا بد من وقوعه ولا يمكن تخلفه » انتهي

انا ما كنت لاجعل هذا المنام في عداد براهيني الحسية، وكنت القيت به في باب الامور المشكوك فيها (لان شهادة الخدم تكون دائما مريبة، وكثير منهم يحبون أن يخدعوا ساداتهم)، لولا ان راويها شوبنهور نفسه، وانه ساقها دليلا على اعتقاده بوجود

الضرورة القاهرة . وقد أعلن انه مقتنع بصدق خادمتيه، وعنده ان صحة الرؤي المنبئة بالمستقبل لا تحتمل أى شك

ولكنه أخطأ فى تفسير هذه الحادثة المنامية . فانه لم يكن قط مجبراً علي قلب دواته، وقد رؤيت الحادثة قبل وقوعها لانها قد حدثت ليس الا

وقد اذكرتني حادثة خادمة الفيلسوف الالماني، حادثة لخادمة أخرى رويت في مجلة (ويبر سنليخ ويلت) *Uebersinnliche Welt* البرلينية التى صدرت في شهر اغسطس سنة ١٩١٤ وهى رؤية تشبه الرؤية المتقدمة وهى :

« المسيو بوخبرجر مستشار وزارة الحقانية كان في (اوبرميه) فرأى فى منامه حوالى الساعة الخامسة أنه يرى داره التى في (اولموتز) ، وان ثياب خادمته تحترق ويصب عليها الماء . ثم رأى هذه المسكينة وقد ابيض جلدها ثم استيقظ

« وبعد زمن قصير عاد المسيو بوخبرجر الى داره. فأخبرته امرأته ان الخادمة قد ماتت متأثرة من حروقها، وكان ذلك في اليوم الذي رأى فيه منامه المتقدم، ولكن في الساعة العاشرة صباحا وكانت تسخن ورنيشاً فالتهب وصب عليها الماء حتى طفئت النار ثم نقلت الي المستشفى وهنالك توفيت بعد أيام » انتهي

مما تجب ملاحظته ان هذا المنام حدث في الساعة الخامسة صباحا ووقعت الحادثة في الساعة العاشرة ، فهي تشبه حادثة شوبنهور من كل وجه

وهذه القصة موقع عليها بتوقيع المسيو بوخبرجر مستشار وزارة الحقانية في جراز روخر لبرج

الامر الرئيسي الذي يجب أن يدهشنا وأن يحصل في نظرنا على صفة الحقيقة الناصعة هو ثبوت هذا الامر المخالف للعرف، وهو ان المستقبل الذى لم يوجد بعد، والذي سيوجد بتسلسل طائفة من أسباب صغيرة متعاقبة يمكن ان يري كأنه قد وقع فعلا

الامر الذى يجب أن يحير ألبابنا ويحصل في نظرنا علي الثقة به هو هذا الامر المخالف للمعهود، من ان المستقبل الذي لما يوجد، والذى سيحدث من تسلسل أسباب

ثانوية متعاقبة يمكن مع هذا كله رؤيته كأنه قد وقع فعلا

والمستقبل لا يرى فقط في المنامات الانبائية، ولكن في بعض حالات نفسية ايضا صعبة التحديد . من أغرب الامثلة التي أعرفها عن رؤية الامور المستقبلة بالضبط، هي الحادثة التي أوردها العالم زميلي في المجمع العلمي للمباحث النفسية الدكتور (جوليه) الذي يعرف قرائي أعماله العلمية حق المعرفة . واليك هذه الحادثة كما هي منقولة عن مجلة (التاريخ السنوي للعلوم النفسية)، الصادرة في اكتوبر سنة ١٩١٠ قال:

« في ٢٧ يونيو من سنة ١٨٩٤، نحو الساعة التاسعة صباحا ، كان الدكتور (غاليه) لا يزال طالب طب في ليون ، وكان يدرس في حجرة مع زميل له هو الآن الدكتور (فاريه)، الطبيب في مدينة (انيسى)

« كان (غاليه) اذذاك مشغولا جداً بتحضير امتحان أظل وقته ، وهو الامتحان الاول للحصول علي شهادة الدكتوراه . وكان لا يفكر في شيء غيره وخاصة السياسة، فكان يكتفي بالقاء نظرة عجلي علي الجرائد ، ولم يتحدث عن وشك انتخاب رئيس للجمهورية في الايام السابقة على ذلك اليوم . وهو موعد انتخابه، الا عرضا وبغير اهتمام، وكان المقرر له ان يجتمع مؤتمر الانتخاب ساعة الزوال في فرساي

« فبينما هو مكب على درسه، اذ طرأت عليه فكرة اضطرارية، وأحس بأن عبارة غير منتظرة انطبعت في ذهنه بحيث لم يتمالك نفسه من كتابتها على كناشته (مذكرته) وتلك العبارة هي بنصها : (انتخب المسيو كازمير بريبه رئيساً للجمهورية بحصوله علي ٤٥١ صوتاً)

« حصل هذا ، ولا بأس من تكراري هذا القول ، قبل انعقاد المؤتمر . ومما تجب ملاحظته، وهو غريب، ان هذه العبارة التي انطبعت في ذهن الدكتور (غاليه) انطباعا واضحاً جداً ، تشير الى الزمن الحالي لا المستقبل

« دهش (غاليه) مما حدث له، فنادى زميله (فاريه) وناوله الورقة التي كتب عليها تلك العبارة

« فقرأها (فاريه) وهز كتفيه . وبما ان صاحبه كان مهتما جداً بهذه الحادثة، ويلح

عليه مصرحا بأنه يرى فيها نبوءة، رجاه بشيء من العنف أن يدعه يشتغل في هدوء

« بعد الغداء خرج (غاليه) ليحضر درساً في الجامعة، فصادف في طريقه طالبين آخرين أحدهما الدكتور (بوشيه)، هو الآن طبيب في (كروزي)، وثانيهما المسيو (دبورن)، هو الآن صيدلاني في (تونون)، فأخبرهما بأن (كازمير بريه) سينتخب رئيسا للجمهورية بحصوله على ٤٥١ صوتا. وألح في تأكيد ذلك لهما مراراً، رغماً عن ضحكهما منه، واستهزائهما بنبوءته

« وعند الخروج من الجامعة، تقابل الاصحاب الاربعة وذهبوا يتناولون بعض المرطبات على سطح قهوة مجاورة. وفي هذه اللحظة وصل باعة الجرائد يبيعون ملاحق منبئة بنتيجة الانتخاب لرئاسة الجمهورية، وهم يصيحون انتخب المسيو كازمير بريه رئيساً للجمهورية بـ ٤٥١ صوتا » انتهى

مما لاشك فيه اننا نصدق الدكتور (جوليه) متي قال، ولكنه أراد أن يضيف الي ماورواه أسانيد لاتقبل الجرح وهي شهادات الشهود وهم

(أولا) الدكتور (فاريه) الطبيب الداخلي لمستشفيات ليون سابقا

(ثانياً) شهادة المسيو (دبورن) الصيدلاني في تونون

(ثالثاً) شهادة الدكتور (بوشيه) الطبيب في كروزي

فليس في مكنة أحد والحالة كما ترى ان ينازع في صحة هذه الحادثة. ويجمل بنا أن ننبه على ان انتخاب المسيو كازمير بريه، الذي لم يحصل الا على أكثرية ٢٨ صوتاً، كانت غير متوقعة، وكان المنتظر انتخاب المسيو بريسون أو المسيو دبوي. فافتراض ان هذه النبوءة نتيجة الاتفاق (أي الصدفة)، يزيد كما هو ظاهر عن حدود التشكك المعقول

وقد أرسل لي العلامة مدير مجلة (التاريخ السنوي للعلوم النفسية) المسيو سيزار دوفيسم في سنة ١٩٠١ النبوءة الغريبة الآتية :

« في الايام الاولي من سنة ١٨٦٥ ذهب رجل اسمه فنسان ساسارولي ليعيش في قرية سارتيانو التي يسكنها ٦٠٠٠ نسمة

« وبما انه كان يوجد في تلك القرية جوقة موسيقية متقنة،مؤلفة من ٣٤ شخصاً، ومديرها المسيو جوزيف فرونتيني وكان مضطراً للفرار منها لاسباب سياسية،دعاه ليتولى ادارتها مكانه

« فقبل المسيو ساسارولى الطلب، وقُدم للجوقة في صالة الدرس في الطبقة الثالثة من دار للقس (دوم باشيريني) . وبعد تكرار الادوار الموسيقية بحضرة جميع أفراد الجوقة ،أعلن المسيو ساسارولى بأن الطبقة التي هم فيها ستتهدم مع سائر البناء ،من أول الحجر التي بالسطح الى الدور الاسفل . وأضاف الى ذلك بأنه يري انقاض الدار تغمر جميع الحاضرين وتسحقهم وهو من بينهم

« فما أتم كلامه حتى أخذ بعضهم ينظر الي بعض دهشين، وهم يتساءلون عما اذا كان المدير الجديد يمزح،او حدث له جنون . ولكن المسيو ساسارولى لم يعبأ بدهشهم وثبت علي مايدعيه، معيناً اليوم والساعة التى ستتحقق فيها النازلة

« حيال هذا التأكيد لم تشك الجماعة في خبل هذا المسكين،وانسحبوا وهم يتغامزون، وانتشر خبر هذه النبوءة في القرية ، وصارت مثيرة للضحك والسخرية

« فلما آنس المسيو فرونتيني ان ساسارولى صار أضحوكة لدى الجميع، وتحقق ان هذه الفكرة الثابتة لديه ربما أدته الي الجنون، أخذ يعيد اليه رشده بكل مايستطيع من جهد .فاتفق مع القس جوزف باشريني وعرض البناء من أول السطح الي الاساس على مهندسين خبراء ،فأجمع الجميع علي ان البناء خال من كل خلل . فتقوى المسيو فرونتيني بهذا الحكم ،وقصد المسيو ساسارولى وأراه اياه، ناصحاً له أن لا يصر على نبوءته الجنونية، ومتمنياً له أن يعيش بقدر مايعيش البناء المذكور

فكان اصرار صاحب النبوءة على مايقول، بعد صدور هذا الحكم، مؤيداً للناس مايظنونه من جنون المدير الجديد ، وابتدأوا يراقبونه خشية أن يدفعه جنونه لاتيان أمر ذي بال . وصار حديث الناس في القهوات والاسر دائراً حول هذه الحادثة التي أصبحت أضحوكة الجميع في القرية

« جاء اليوم العظيم المنتظر . ولما كان مساء ذلك اليوم معيناً لترديد الدروس

اجتمع الموسيقيون كعادتهم في الصالة، وأخذوا وهم ينتظرون الرئيس يهزأون به. فما علم المسيو ساسارولي أن حضر، ولم يرد أن يسمع كلمة واحدة عن عمله في هذا المساء، لانه كان مضطربا من قرب ساعة الحادثة، واجتهد في أن يحمل الحاضرين على اخلاء المكان. وكان وهم نازلون على السلم الموضوع تحت القبات العظيمـة التي تسبق غيرها، لايفتر عن أن يكرر لهم قوله: «ارجوكم أن تنزلوا بخفة فان ثقلنا جميعا يمكن ان يعجل وقوع الحادثة»

« يستطيع كل انسان أن يتخيل النكات والضحكات التي تنبعث من ٣٤ شخصا يعتقدون جميعهم انهم انما يتبعون رجلا به جنة، وانهم يأتون بعملهم هذا أمراً موجباً للسخرية. فلما تم خروجهم الى الشارع، لم تمض هنيهة حتي انهارت الدار على نفسها في الساعة المعينة. فليقدر كل انسان مبلغ ماتحدثه هذه الحادثة من التأثير العميق في القرية برمتها

« والتقرير الذي نلخص منه هذه الحادثة كتبه المسيو فرونتيني بنفسه، وكان ابوه، وهو رئيس المجلس البلدي للقرية، أول من خف لتهنئة المسيو ساسارولي في اليوم التالي لوقوعها. ومع هذا التقرير ثلاث شهادات (اولها) من جميع افراد الاسرة التي يسكن معها المسيو ساسارولي. و (الثانية) من حارس التياترو. و (الثالثة) من الاسرة المقيمة بالدار المجاورة للتياترو، وكلها تشهد بصحة هذه النبوءة» انتهي

كيف يقيم الانسان علي شكه امام هذه الحادثة المحققة على وجه مطلق؟ ألا ينطبق على المنكرين قول الكتاب المقدس: «لهم أعين ولكنهم لا يبصرون، ولهم آذان ولكنهم لايسمعون» فماذا يفيد الانكار، الانكار المستمر ومهما كانت الحال؟

من أشد الامثلة التى اعرفها تحييراً للعقل، واكثرها غرابة، واعظمها دلالة في باب الكشف المغناطيسي هو ماذكره الدكتور (الفونس تيست) في رسالتـه العملية علي المغناطيس العام. ليست هذه المشاهدة مما وقع امس، فان هذه الرسالة نشرت في سنة ١٨٤١ ولكن هذا لايقلل من قيمتها، لان الزمن لايؤثر في صحة الامور كما يقول (موابير) فاليك هذه المشاهدة الغريبة:

« كنت أنوم في يوم الجمعة ٨ مايو الماضي مدام (هورتنس م .) فكانت فى هذا اليوم على اشد ماتكون كشفا . ولم يكن معنا غير زوجها فظهرت مشغولة البال بمستقبلها الشخصي ، وقالت لنا ضمن ماقالته من الامور غير المنتظرة

« انى حبلي في خمسة عشر يوما ، ولكني لن اضع فى الوقت الطبيعي وهذا ما أشعر منه بكدر محرق . ففى يوم الثلاثاء القادم ١٢ الجارى ، سأخاف من شيء وأسقط على الارض ، وسيجر ذلك الى اجهاضي »

« وأنى لأعترف رغما من كل مارأيته سابقا ، بأن امراً واحداً من هذه النبوءة كان يحير عقلى

« فسألتها بمظهر من الاهتمام لم يمكنى اخفاءه قائلا : ماالذي سيخيفك ياسيدتي؟

«فأجابت لاأدري

« فسألتها : ولكن أين يحدث لك ذلك ، وفى اى مكان تقعين ؟

« فقالت : لااستطيع ان اعينه لأني لاادريه

« فسألتها : الا توجد وسيلة تتجنبين بها كل هذا ؟

« فقالت : لاوسيلة

« فقلت لها : حتي ولو لم نتركك وحدك ؟

« فقالت : هذا لن يكون له أدني تأثير في منع وقوعه

« فقلت لها : وهل تقعين في مرض شديد بسبب ذلك ؟

« فقالت : نعم مدة ثلاثة ايام

« فسألتها : أتعرفين على وجه التفصيل ماستحسين به ؟

« فأجابت قائلة : فى منتصف الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء وعلي أثر الخوف الذي سيعتريني ، سأشعر بضعف يستمر معي ثماني دقائق ، ثم تلم بي آلام شديدة جهة الكليتين تدوم بقية اليوم ، وتمتد الى الليل . وفي صباح الاربعاء سيبدأ النزيف ويتزايد بسرعة ويكون غزيراً جداً . ومع هذا فلا يجوز القلق عليّ من جراء ذلك ، لانه ان يميتني . وفي صبيحة الخميس ستتحسن صحتي كثيراً وسأستطيع مزايلة سريري نهـاري كله

تقريبا . ولكن في منتصف الساعة السادسة من المساء سيعاودني النزيف ويعقبه هذيان . وفى ليل الخميس الي نهار الجمعة ستكون صحتي جيدة، ولكن في مساء الجمعة سأضيع عقلى

« ثم سكتت مدام (هورتنس). ونحن وان لم نصدق كل ماقالته، أصابنا تأثر شديد، حتي اننا لم نستطع ان نعاود سؤالها . ولكن زوجها تأثر تأثراً كبيراً، فسألها بلهف لا يمكن وصفه عما اذا كانت ستبقى مجنونة مدة طويلة ؟

« فأجابته بهدوء تام قائلة : ثلاثة ايام

« ثم اضافت الى ذلك بهدوء مفعم بالظرف : « لاتقلق فانى لن ابقى مجنونة ولن اموت بل سأتالم فقط »

« ايقظنا مدام هورتنس ولم تذكر شيأ مما حدث لها، كما كانت العادة، فلما اختليت بزوجها أوصيته بأن يكتم، وخاصة امرأته، الحوادث التي قد تكون وهمية ولكنها تقلقها كثيراً اذا عرفتها . وفوق هذا فان كتمانها يكون في مصلحة العلم، فوعدني بأن يكتمها، واني خبير بأخلاقه الي حد استطيع معه ان اؤكد بأنه وفى بما وعد . اما انا فقد اخذت في مذكرتي كل هذه النبوءات . وفي اليوم التالى كاشفت بها الدكتور (اميديه لاتور)

« اقبل الثلاثاء الموعود، وكان كل مايشغلني ان اعرف الامر الذى ستذعر منه (مدام هورتنس) . فلما قدمت اليها وجدتها تتغذى مع زوجها، وظهرت لى على أتم ما يكون من اعتدال المزاج

« فقلت لها وانا داخل ياصديقيّ العزيزان سأكون لديكما الي المساء اذا لم يكن هذا يثقل عليكما

« فقالت مدام هورتنس : علي الرحب والسعة، ولكن على شرط ان لا تتكلم كثيرا عن التنويم المغناطيسى

« فقلت لها ياسيدتى ان اتكلم عنه قط اذ تفضلت فقبلت التنويم لاجلي عشر دقائق فقط

« فقبلت اقتراحي ، وبعد زمن من الغداء أنمتها

« فسألتها كيف تجدين نفسك ياسيدتي؟

« فأجابت : على احسن حال ياسيدي، ولكن لن يطول ذلك

« فسألتها وكيف ذلك ؟

« فرددت عبارتها الفظيعة التي قالتها يوم الجمعة وهي : فيما بين الساعة الثالثة والرابعة سيحدث لي ذعر من شيء ، فأقع ويجر ذلك الى ضرر عظيم

« فسألتها : ماالذي سيحدث لك ذلك الذعر ؟

« فقالت : لا أدرى

« فقلت لها : اجتهدى في معرفته

« فقالت : لا ادرى

« فسألتها : أين الشيء الذي سيذعرك ؟

« فقالت : لا ادرى

« فسألتها : ألا توجد وسيلة لتنجيتك من هذا القضاء الحتم ؟

« قالت : لاتوجد وسيلة

« فقلت : سأكون هذا المساء قادراً علي نقض قولك هذا

« قالت : ستكون هذا المساء يادكتور قلقا علي صحتي. سأكون مريضة جدا

« فلم اجد ماأجيبها به في تلك اللحظة ،ولا محيص لي من الانتظار،فأخذت انتظر

« ولما ايقظتها في دقائق قليلة،لم تذكر مما جري شيئا . وكان وجهها مكفهرا من الصور المزعجة التي رأتها وهي نائمة، وما لبث ان عاد اليه صفاؤه العادي .ثم اخذت فيما كانت فيه قبل ان تنام من الحديث والمزاح، بدون ان يكون في ذهنها شاغل يشغلها. واستمرت تتابع نكاتها الرقيقة التي كانت طبيعية لها ،وكانت هي تحسن ايرادها. اما انا فقد كنت في حالة عقلية لااستطيع ان اصفها،وكنت مستغرقا في ظنون وفروض كانت تزعزع ايماني احيانا ، وكنت اشك في كل شيء حتى في نفسي

« وكنا ، ونحن عاقدو النية علي عدم تركها ثانية واحدة ، نراقب اصغر حركاتها،

واقفلنا النوافذ اقفالا محكما، خشية من ان حادثا يطرأ في الشارع او في الدور المجاورة فيكون سببا في تحقيق النبوءة . وكنا اذا دق الجرس يقوم احدنا لاستقبال القادم في الحجرة المجاورة

« ولما اجتازت الساعة قليلا النصف بعد الثالثة قامت مدام هورتنس عن الكرسي الكبير الذي كنا اجلسناها فيه وهي معجبة بالرعايات التي رأت نفسها محاطة بها منا وقالت لنا :

« أتسمحون لي ياسيدي بأن أختلس نفسي دقيقة واحدة من عنايتكما التي لا أدرك سببها ؟

« فقلت لها بمظهر من القلق لم نستطع اخفاءه : اين تريدين ان تذهبي ياسيدتي ؟

« فقالت : ياللعجب ، ماذا أصابك ياسيدي ، اتظن في عزمي ان اقتل نفسي ؟

« فقلت : لا ياسيدتي ولكن . . .

« فقالت : ولكن ماذا ؟

« فقلت : ولكن ماذا ؟ وقد احسست من نفسي الميل لعدم الكتمان، ولكن لان صحتك تهمني

« فقالت وهي تضحك اذن فأنت أجدر أن تتركني أخرج . . .

« ففهمت، (يريد انه فهم أنها تريد المرحاض)

« رأيت ان الداعية قاهرة، ولا توجد وسيلة اللالحاح عليها ، ومع هذا فان صاحبي اراد ان يبلغ اقصي مايستطيعه فقال لامرأته:

« أتسمحين لي ان اصحبك الى هناك ؟

« فقالت ماهذا ؟ أبينكما مراهنة ؟

« فقلت لها: نعم ياسيدتي أنها مراهنة واني متحقق من اني سأكسبها وان كنت قد اقسمت انك تخسريني اياها

« فأخذت مدام (هورتنس) تنظر الى كل منا ، وهي حيرى، ثم قبلت ذراع زوجها وهو يمده اليها وخرجت وهي تضحك مقهقهة

« وكنت انا اضحك ايضا ولكني كنت احس بأن الساعة الموعودة قد آنت ، وكنت معتقداً ذلك الى حد ان تلك الفكرة كانت تتملكني ، ولم افكر فى ان اعود الي اللهو الذي كنا فيه ، وبقيت كأني بواب علي باب الحجرة المجاورة لا ادري ماذا اصنع .

« فما هي الا لحظة حتى سمعت صرخة حادة ، وصوت سقوط جسم على دهليز السلم ، فصعدت وانا اجرى فرأيت علي باب المرحاض صاحبي ممسكا بامرأته بين يديه ، وهي في حالة تشبه حالة النزع

« فتحققت انها هي التى صاحت ، وان الصوت الذى طرق أذني هو صوت سقطتها ، وكان الذى حدث هو انها ساعة تركها لذراع زوجها لتدخل الى المرحاض تراءت لها فأرة ، ولم يشاهد هنالك فيران منذ عشرين سنة ، فحدث لها ذعر بلغ من الحدة والفجاءة الي حد انه تسبب في سقوطها على ظهرها ، دون ان يتمكن احد من امساكها

« فتوالت بعد ذلك جميع الحوادث التي اخبرت عنها وهي منومة

« فأضاف الدكتور (تيست) الى ماسبق ذكره قوله فمن الذى يجرأ بعد وقوفه علي هذه الحادثة ان يضع حداً للممكنات ، اوان يعرف حقيقة الحياة البشرية ؟ » انتهي

لايستطيع انسان ان يشك فى صدق هذا المؤلف . ولقد أدهشته هذه المشاهدة الكشفية المحيرة للعقل ادهاشا لانتمالك انفسنا من ان نشاركه فيه . فانكار كل مايقال ، كما يفعله أكثر الناس ، هو بمثابة انكار التاريخ الانساني كله

أليس لى الحق فى أن أقول بأن هذه المشاهدة (يريد المشاهدة المتقدمة) ، اعجب جميع المشاهدات التي ندرسها الآن ، وهي من الصحة بمكان عظيم جداً . لا محل هنا للاعتراض المبتذل وهو الاتفاق (الصدفة) . وقد يستطع المعترضون ان يفترضوا ان المنومة قد أوجدت بتصورها المريض من طريق التلقين الذاتي كل ماأنبأت به ، وانها هي التي خلقت هذا المستقبل لنفسها بنفسها ، ولكن ماأوهي هذا الاعتراض ؟

على انه لايفسر الحادثة السابقة وهى انهيار التياترو على نفسه ، ولا يعلل المشاهدة الآتية أيضاً :

نعم لايجوز للانسان ان يقبل روايات الذين يخبرون عن انفسهم انهم رأوا حوادث غريبة قبل وقوعها الا بالحذر والاحتراس، ومع هذا فهنالك شهادات يستحيل التشكك فيها، وبهذا الاعتبار ذكر لي صديقي الكولونيل دوروشاس، مشاهدة تافهة في ذاتها ولكنها غريبة، حدثت لجراحنا الشهير البارون (لاريه) وهو الذي رواها له بنفسه. قال له انه رأى في نومه اربعة ارقام ستربح من اليانصيب ، فلما اصبح رجا امرأته ، وكان هو مضطرا للنزول لعيادة مرضاه ، ان تحصل بنفسها على هذه الارقام الاربعة، فقدر مبلغ ماأصابه من الكدر حين عاد الى بيته وعلم ان هذه الارقام كلها قد كسبت الجوائز ، وان امرأته نسيت ماوصاها به من شرائها

فافتراض الاتفاق هنا لا يمكن قبوله، اذ ان الاعب كان ضده ٢٥٥٥١٩٩ رقما خاسراً .

يمكن تعليل هذا الامر بالاتفاق، اذا كان الامر يتعلق برقم واحد، اما بأربعة أرقام فلا . والذي نعلمه الآن هو ان المستقبل يمكن ان يري

هذه المشاهدة مفيدة مثل سابقاتها، واني عرفت البارون (لاريه) رجلا دنيويا ممتازا بقدر امتيازه في العلم والاستقامة ، وشهادته تعد في درجة شهادة رجل شريف

وقد تسلم المستر (وليم ستيد) مدير مجلة المجلات الانجليزية الذى غرق مع الباخرة (تيتانيك) ، من الروح المسماة جوليا، نبأ غيبيا مدهشا للدرجة القصوى . فقد كتب في مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية) الصادرة في سنة ١٩٠٩ صفحة ١٢٠ يقول :

« منذ بضع سنين كانت موظفة عندى سيدة ذات قريحة عالية، ولكن طبعها كان ليس في درجة قريحتها، وصحتها دون القوية. وقد آل بها الامر أن أصبحت من صعوبة القياد بحيث فكرت في يناير أن أفصلها عن الخدمة، ولكن (جوليا) استولت على يدي وكتبت ما يأتي : (١) :

---

(١) المستر ستيد اشهر صحفي في العالم وكان نفسه وسيطا، فكانت تستولى بعض الارواح ومنها الروح المسماة جوليا على يده فتكتب ماتريده من الرسائل

« كن صبورا مع (ا.م.) فانها ستلحق بنا قبل ختام هذه السنة » (اى انها ستلحق بعالم الارواح)

« فدهشت من هذا النبأ لاني لم آنس عليها شيئا يجعلني اتوقع قرب انتقالها الى عالم الموتي . تسلمت هذه الرسالة ولم اخبر بها احدا، وبقيت مستخدما لتلك السيدة . وقد وقع هذا النبأ في ١٥ او ١٦ يناير، اذا لم تك ذاكرتي قد خانتني، وقد تكرر في فبراير ومارس وابريل ومايو ويونيه انبائي بهذه العبارة « تذكر ان (ا.م.) ستفارق الحياة قبل نهاية هذه السنة »

« وفي شهر يوليو ابتلعت تلك السيدة مسمارا على وجه الخطأ، فسكن في امعائها ووقعت بسبب ذلك في مرض خطير . وكان الطبيبان اللذان يعالجانها قد فقدا الامل في تخليصها من الموت . وفي هذه الاثناء كانت الروح (جوليا) مستولية على يدي فسألتها :

« أليس هذا بلا أدنى شك ما كنت أنبأتني عنه من انها ستموت ؟

« فأجابتني بجواب أوقعني في الدهش العظيم قائلة :

« لا ، انها ستشفى من هذا المرض، ولكنها على اي حال ستموت قبل انتهاء هذه السنة

« فحدث ان (ا.م) ابلت من مرضها فجأة، في وسط الدهش الكبير من طبيبيها، واستطاعت بعد زمن قليل ان تعود الى عملها . وفى اغسطس وسبتمبر واكتوبر ونوفمبر تكرر انبائي بقرب موتها بواسطة يدي . وفي شهر ديسمبر اصيبت بالانفلونزا

« فسألت جوليا : أفى هذه المرة ستلقى حتفها ؟

« فأجابتني قائلة : لا ، انها لن تأتي الى عالمنا على طريقة طبيعية، ولكن مهما كانت الحال فانها ستحل لدينا قبل نهاية السنة

« فذعرت، ولكني ادركت اني لا أستطيع أن أمنع وقوع الحادثة . تصرمت السنة ولكنها لم تمت . فكتبت جوليا بواسطة يدى : « لقد أخطأت في بضعة أيام، ولكن ما قلته لك صحيح »

« وفي نحو ١٠ يناير كتبت جوليا بيدي :

« ستري (ا.م.) غداً فودعها الوداع الاخير. وخذجميع الاهب الضرورية، فلن تراها بعد ذلك علي الارض

« فذهبت لالقاها، فاذا بها مصابة بالحي المصحوبة بسعال شديد . وكان ذووها على وشك نقلها الى المستشفى

« بعد يومين من هذا التاريخ وصلني تلغراف ينبئني بأن هذه المسكينـة القت بنفسها من نافذة بالطبقة الرابعة، وهي في حالة هذيان شديد ،وانهم رفعوها من على الارض ميتة . فلم تزد تاريخ موتها الا بضعة ايام بعدالاثني عشر شهراً عن الموعدالذى حدته النبوءة السابقة

« واني في استطاعتي ان اثبت صحة هذه القصة بالاوراق الاصلية التي كنت اتلقى فيها الرسائل الروحية، وبشهادة سكرتيري الاثنين الموقعين عليها » انتهى

يظهر من هذه القصة حقيقة ان الروح علمت مقدماً موت تلك السيدة، وانها تحققت من انه سيكون نتيجة حادث . ألهذا السبب يجب علينا ان نعزو هـذه النبوءة لروح مجردة ؟ ليس لدينا علي ذلك من دليل . واني قد عرفت المستر ستيد معرفة تكفي لتقديري لخصائصه النفسية النادرة، وان كان لم ينتفع بها لتنجية نفسه من الغرق

لاشك في ان هـذه النبوءة من اعظم النبوءات شأناً . فما هي جوليا هذه التي اشتهرت لدي الباحثين في الارواح من كتابات ستيد ؟ أهي روح مجردة، أم الشخصية الباطنية للمستر ستيد نفسه ، ام هي خاصة عقلية له ؟ اننا نجهل ذلك كله. ولكن على أية حال ليست هي المادة الحية التي تقرأ المستقبل على هذه الصورة

يمكن كل منا ان يقرأ في ترجمة حياة البارون (لازوار هلاينباخ) التي كتبها بيده نبوءة منامية عن موت . وهاهي كما نقلتها مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية) لسنة ١٨٦٧ صفحة ١٢٤ :

« كان في نيتي ان اطلب مساعدة مدير قسم الكيمياء المعهد الجيولوجي بفينا، وهو المسيو (هوور) مستشار المناجم عن بعض المباحث التي عملتها على التبلور، وكنت

قد كلمته في ذلك وكان المعمل قريبا من بيتي ، والمسيو (هوور) معروف فى العالم العلمي، ويمكن ان اقول فى اوربا بأسرها، بأنه أخصائى فى هذا الموضوع. وكنت أرجيء دائما زيارتي الموعودة ، ثم عزمت على زيارته صبيحة يوم . فرأيت في نومي تلك الليلة رجلا شاحب اللون ضعيفا ، يسنده من تحت ذراعيه رجلان. فلم أعبأ بهذه الرؤيا وذهبت الى المعمل الجيولوجى. ولكن بما ان المعمل كان في الطرف الآخر من المعهد ، على غير ما كان عليه في السنين الماضية ، ضللت عن بابه ، ولما وجدت ذلك الباب مغلقا رأيت حين نظرت من نافذة صورة رؤياي على أتم ماتكون من دقة . رأيت (هوور) يسنده رجلان لانه تسمم بسيانور البوتاسيوم وكان الرجلان ينقلانه الي الدهليز على مارأيته عليه تماما »

ان صديقى النشط المأسوف عليه جداً الدكتور (موتان) الذى عمل فى بيتي فى سنة ١٨٩٩ تجارب عظيمة على التنويم المغناطيسى، مما سأتكلم عنه في مناسبة أخرى، اشتغل في سنة ١٩٠٢ بالمباحث التحليلية على الاسبرتزم نستطيع ان ننوه منها بهذه النبوءة وهي :

« فى الجلسة التي عقدت في ١٩ اغسطس، وحفظ المحضر الذي عمله عنها على عادته الحسنة ، ظهرت له روح استولت علي الخوان وادعت انها سيدة تدعي هيرمانس ف . ماتت حديثا . وكان الدكتور يعرف هذه السيدة وزوجها منذ زمان طويل . فدهش من تصريحها التالى وهو :

« ان زوجي سيتزوج ثانية في شهر سبتمبر المقبل، وسيحضر الى باريز قبل زواجه ، ولكنه لن يجد وقتا لزيارتك

فقلت لها : ان ماتقولينه مستحيل، فاني أعرف (ف.) وأعرف الحب الذي يحفظه لامرأته، ويتعذر على ان اصدق انه يتزوج بعد موتها بأربعة أشهر

« فأجابته قائلة : ان ماأقوله لك صحيح ، وسترى تحقيقه بعد بضعة أيام

« فقلت لها : اذن هو مسوق بداعي المصلحة لا الحب

« فقالت : ليست الداعية هي المصلحة ، ولكنك تعلم جيداً ان لوسيان (هو

اقب ف.) لايستطيع ان يمكث وحيداً

« فسألتها : أيتزوج امرأة من سنه ؟

« فقالت : لا ، ولكن شابة عمرها ثلاث وعشرون سنة ، وبعد زواجه بزمن قليل سيترك الاقاليم ويأتى اسكنى باريز

« فقلت لها : كيف يتأتى له ذلك مع المركز الذى يشغله فى الجنوب . ان هذا لايمكن قبوله

« فقالت : ان احوالا سيئة، وخاصةخسارةماليةعظيمة، ستضطره للمجيء الي باريز ليحصل مركزاً جديداً

« فقلت لها : سنرى اذا كانت نبوءتك تتحقق ام لا ، فاني أشك فيها كثيراً ، ولكن هي ان ذلك يكون اتشعرين من اجله بسوء ؟

« فأجابت اشعر بعكس ماتقول ، فان لوسيان لايستطيع ان يعيش وحيدا

« بعد هذه الكلمات بقى الخوان ساكنا . وبعد بضع دقائق سألت الروح عما اذا كان التخاطب قد انتهي ؟ فكان الجواب : نعم

« مدام ف . لم تظهر لنا قبل هذه المرة قط . وكانت هذه المرة هي الوحيدةالتى ظهرت لنا فيها

« في ذلك الوقت لم يكن احد يتخيل وقوع هذه النبوءة ، ولا ان يعتبرها من الاتصالات الجدية بالارواح . وأنا وجميع أعضاء أسرتى كنا نعرف الميتة، وكنا لا نستطيع تصديق ماأنبأت به . والمجربون الذين كانوا معنا في هذه الجلسة لم يسمعوا عن ف . شيئا

« وبعد أيام قليلة اى في ٢٧ اغسطس أتاني كتاب من صديقى ف . يخبرني فيه بزواجه في شهر سبتمبر بالمادموازيل . . . . معطيًا اياى بعض المعلومات عن قرينته المستقبلة ، معلومات كانت مطابقة كل المطابقة لما اخبرتنا عنه الروح في ١٩ اغسطس

« وفي شهر مارس سنة ١٩٠٤ حضر المسيو ف . لزيارتنا واخبرنا انه حضر

ليسكن باريز . فأخبرته عن اتصالنا بروح امرأته الاولى هيرمانس. فدهش من ذلك الى حد انه اراد ، وان لم يكن في شك من أقوالنا ، ان يري محضر هذه الجلسة. فوجد ان كل ماقالته امرأته الاولى صحيح لاشية فيه، كشخوصه الى باريز قبل زواجه الثاني وكتغير مركزه

« وأكد لنا صحة هذه المشاهدات التي لم نتأخر عن اعتبارها برهانا على بقاء الشخصية الانسانية بعد الموت ، ودليلا محسوساً على ان الروح التى اتصلت بنا هى روح مدام هيرمانس ف . ذاتها »

وقد ذكر الدكتور (موتان) هذه المشاهدة ، وقال انها أهم المشاهدات التي أقنعته بصحة الاسبرتزم

فهل هذه المشاهدة لها القيمة المطلقة التى يصفها بها ؟

لقد ثبت ان أفكارنا تستطيع أن تؤثر ، سواء على علم منا أو على غير علم ، فتملى الامالى بواسطة الأخونة . والدكتور (موتان) وأسرته يعرفون مدام (هيرمانس ف.)، وفكرة ان زوجها الذى صار أرمل يحتمل أن يتزوج ثانية ليست فوق الحوادث العادية. ومن جهة اخرى فان فكرة الارمل يحتمل أن تكون ذات تأثير في هذه التجربة، لأنه كان عازماً على التزوج ، وانه أخبر بذلك أصحابه بعد هذه الجلسة بثمانية أيام . ومسألة تركه للاقاليم، وسكناه باريس، ألا يحتمل أن تكون في ذلك الوقت شاغلة لعقله أيضاً؟ فيظهر لى ان صحة شخصية الميتة لم تتحقق مطلقاً في هذه التجربة ، وان هذه الظاهرة يمكن أن تتأتي من أسباب نفسية أخري . على أنها مع كل هذا تظهر لى مرجحة. وليس هنا محل مناقشة هذه المسألة الهامة ، واني لم أورد هذه المشاهدة الا على سبيل المثال عن الانباء الصحيح بحادثة مستقبلة

وأضيف الى هذا أيضاً ، انه فى هذه الحالة السابقة كما فى غيرها مما يشبهها، يحتمل ان تكون زوجة صديقة الدكتور (موتان)، قد شعرت في حياتها بامكان حدوث هذا الزواج الثاني. وربما كانت قد أقرته ، ويكون هذا الاحتمال في مصلحة صحة شخصيتها. واننا سنعود الى هذا الموضوع فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بحثنا في ظهور

أرواح الموتى

أضيف الى ماص انباء بالغيب نجي أسرة برمتها، وكان مصدره صوتاً باطنياً. نقتبس ذلك عن بوزانو، وعن مجلة جمعية المباحث النفسية الانجليزية (المجلد١ص٢٨٣)، وقد أفضى به الكابتن (ماك جوان) الى الاستاذ (باريت) فقال :

« في يناير سنة ١٨٧٧ بينما كنت في بروكلين مع ولديّ الصغيرين، إبان الاجازة المدرسية، وعدتهما بأن آخذهما ذات ليلة الى التياترو وقد اخترت ثلاثة محال واستأجرتها وفاء بوعدي

« ففي صبيحة اليوم المعين شعرت بأن صوتاً باطنياً يردد لي هذه العبارة بالحاح : (لا تذهب الى التياترو بل أعد ولديك الى المدرسة) ورغماً عما بذلته من الجهود لالهاء نفسي عن هذا الصوت، لم أستطع منعه واستمر يردد لي هذه العبارة بعينها بصوت الآمر وبأشد ما كان، حتى اني لم أتمالك نفسي عند الظهيرة من اخبار اصحابي وولديّ بأني عدلت عن الذهاب الى التياترو. فألحى عليّ أصحابي باللوم، مظهرين لي بأن حرمان الولدين من ملهى غير عادي عندهم ينتظرانه بنافذ الصبر، بعد وعدهم به وعداً صريحاً، يعتبر من القسوة بمكان . فلم يسعني الا تغيير عزمي

« ومع هذا فلم ينقطع هذا الصوت ساعات بعد الظهر كلها، ولم يزل يردد الامر بعدم الذهاب بالحاح شديد التأثير، حتى اني لم يسعني في المساء قبل موعد التياترو بساعة الا أن أعلن ولديّ نهائياً بأننا ذاهبون الى نيويورك بدل الذهاب الى التياترو. فسافرنا

« فحدث انه شب حريق في هذا التياترو في تلك الليلة أتي عليه كله، وهلك فيه ٣٠٥ من المتفرجين في وسط اللهب . فما الذى أجبرني أن أعدل عن الذهاب الى التياترو رغم ما كنت عزمت عليه، بعد ان دفعت أجرة الثلاثة المقاعد فيه، واعداد كل شيء لتمضية ليلة في سرور وارتياح؟»

وأضاف الكبتن (ماك جوان) الى هذا قوله للاستاذ (باريت) بأن ذلك الصوت الباطني كان يرن بوضوح كأنه آت من انسان حقيقي يكلمه من باطن جسمه، وانه

قاومه من اول ساعات الافطار الي ان سافر بولديه الى نيويورك

كل هذه الحوادث من الصحة وقوة الدلالة بحيث ان بعضها يفسر البعض الآخر فتتألف منها مجموعة لا يمكن لأية قوة في العالم أن تذيبها

ومن أجل الحوادث في هذا الباب المشاهدة المحققة التي أوردها المجرب المدقق الاستاذ (ليبولت) فى كتابه العلاج بالتلقين *Thérapeutique suggestive*

روى دكتور نتسي العالم (يريد ليبيولت المذكور) انه في ٧ يناير سنة ١٨٦٦ فى الساعة الرابعة بعد الظهر حضر اليه احد زبائنه المسيو دو (ش.) يستشيره في حالة عصبية مفهومة جداً وهى :

« انه بينما كان يتفسح في احد شوارع باريس فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٩، رأي مكتوبا علي أحد الابواب (مدام لنورمان العرافة من النظر الى الكف) فدفعه حب الاطلاع للدخول اليها

« فلما بحثت يده قالت له : انك ستفقد أباك بعد سنة، يوما بيوم، وعما قليل ستؤخذ الى الجندية، (كان عمره اذذاك تسع عشرة سنة) ولكنك لن تمكث فيها طويلا وانك ستتزوج صغيراً وسترزق بطفلين، وتموت فى السادسة والعشرين من عمرك »

« لم يعتبر المسيو دو (ش .) هذه النبوءة من الامور الجدية، ورواها لاصحابه وبعض ذويه . ولكن بعد أن تحقق موت أبيه بعد سنة كاملة، أي فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٠، عقب مرض قصير، بطلت حدة شكوكه قليلا . ولما صار جنديا لم يمكث الا سبعة أشهر تحت السلاح، ولما تزوج بعد ذلك بقليل وصار أبا لطفلين وعلي وشك بلوغ السادسة والعشرين من عمره، أصابه خوف شديد، وتخيل انه لم يبق له في الحياة غير أيام معدودة . في تلك الآونة ذهب لاستشارة الدكتور (ليبولت) *Liebault* وسأله عما اذا كان من الممكن تحويل هذا القضاء عنه . وقد كان يرى ان تحقق النبوءات الاربعة الاولي يدل على تحقق الخامسة لامحالة

« فى ذلك اليوم والايام التالية حاولت أن أضع المسيو دو (ش .) فى نوم عميق لتبديد تلك الفكرة السوداء المنقوشة في ذهنه، وهي انه سيموت في ٤ فبراير، وهو يوم

عيد ميلاده ، ولوان العرافة لم تعين له يوما للوفاة ، فلم استطع ان اوجد له حتى اخف درجات النوم ، من شدة تأثره من هذه الفكرة . ولكن بما انه كان من الضروري ازالة هذه الفكرة من ذهنه، لانه قد رؤيت نبوءات تتحقق بمحض تأثير التلقين الذاتي، اقترحت عليه أن أسأل أحدوسطائي الذين عودتهم النوم، وهو رجل هرم يلقب بالنبي، لانه أنبأ عن يوم شفائه من روماتزم لازمه اربع سنين، وعن يوم شفاء ابنته ايضا

« فقبل المسيو دو (ش.) اقتراحي بارتياح، ولم يتأخر عن الحضور عندي في الوقت الذي عينته له . فلما جعلته في اتصال مع ذلك المنوم كان اول مانطق به : « في أي وقت أموت؟» فأدرك المنوم مبلغ ارتباك هذا الشاب ، ثم أجابه بعد أن دعاه للانتظار قائلا : « ستموت . . ستموت . . بعد احدي واربعين سنة » فكان تأثير هذه الكلمات من اغرب مارأيت ، فان الشاب تحولت حاله على الفور، وعاد اليه سروره وانبساطه وامله . وبعد ان مر يوم ٤ فبراير ، وهو اليوم الذى كان يخشاه كثيراً اعتقد انه نجا تماما

« اما انا فلم افكر بعد ذلك في شيء من هذا ، حتى كان اول اكتوبر فوصلني كتاب مؤداه ان زبوبي المسكين قد توفي في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، وهو في سنته السابعة والعشرين اى بعد ان عاش ستا وعشرين سنة ، كما أنبأت به مدام (انورمان) »

هذه رواية الدكتور (ليبيولت) المشهورة أعماله . فحلل وشرح هذه السلسلة من الحوادث المتتابعة، متذرعا بكل مالديك من الشك، وماتتصوره منه، وبأقصي شدة الدقة الجراحية ، واذا رأيت بعد ذلك ان ليس شيء خارقا للمادة في انبائها لهذا الشاب بأنه سيدخل في الجندية، وانه سيتزوج بعد ذلك، بقيت لدينا أربع نبوءات وهي : ١ ـ موت ابيه بعد سنة يوما بيوم. ٢ ـ خروجه من الجندية قبل الزمن العادي. ٣ ـ ميلاد الطفلين. ٤ ـ موته هو نفسه في السادسة والعشرين من عمره

خاتمة

اكتفى هنا بهذه الامثلة، فان هذا الجزء يجب ان ينفد عند هذا الحد، معتذراً الى قرائى من اكثاري هذه الامثلة، ومعتقداً بأنهم أصبحوا مقتنعين بها كل الاقتناع

الخلاصة هي ان المستقبل يمكن ان يرى

فى الحالة الراهنة لمعارفنا الانسانية، من العبث البحث عن تفسير كيف تحصل هذه الرؤية فى ذهننا، وكيف تتولد الشعورات التي تتعلق بها

يمكن الظن بأن عقلنا الباطن، او شخصيتنا النفسية، في ممارستها لخصائصها المتعلقة بعلم ما فوق الطبيعة، كما يحدث فى بعض اشكال الكشف او معرفة الغيب، تتحرر من قيود المكان والزمان، اى من القوانين التي تسود عالمنا المادى . وعلى هذه الشاكلة تظهر لها الاشياء المستقبلة كأنها في مستوي الاشياء الحاضرة والماضية . فهي تستمد سلطانها من نواميس لا نزال نجهلها . وأية مشاهدة مهما كانت غير قابلة للتعليل، يمكن قبولها اذا كان هذا الكائن او التركيب النفسانى هو الشخصية الكلية الدائمة للذات الانسانية، الشخصية التى تستمد غذاءها المعنوى من المنابع الكثيرة الباطنية المختلفة . ولا يكون من الجرأة ان نفترض بأنه في هذه الشؤون الفكرية، قد تفيض علي العقل الباطنى آثار من العالم المحجوب عنا، في بعض الاحوال التي تطرأ علي الانسان بسبب النوم الطبيعي أو النوم المغناطيسي، أو بسبب الاستعداد الشخصي، وتوحي اليه معارف عن الحوادث الماضية والحالية والمستقبلة . فان الروح مغمورة في حالة الحياة الارضية وحالة الموت، فى جو اثيرى من عالم محجوب عنا

والبحث الدقيق في هذه المسائل، والمنطق الصارم فى نقدها، يؤدياننا الى استنتاج استحالة عزو الخاصة العقلية من النظر بدون الاعين، ومعرفة الحوادث المستقبلة، والالمام بما يحصل بعيداً عنا، او ما سيحدث فى الزمان الآتي، الى المادة، او الى الذرات العصبية، أو الى الاتحادات الكيماوية او الميكانيكية، من اى نوع كانت ، وهى كما ترى امور خارجة عن التركيب الجثماني ومن رتبة عقلية محضة . هذه المشاهدات تثبت وجود

الروح ممتعة بخصائص ذاتية مستقلة عن الحواس الطبيعية

والروح في مدة الحياة الارضية ، جعلت مصاحبة لمخ مناسب لوظائفه المطلوبة منه

فاذا كانت الروح ليست من مفرزات المخ ، واذا كانت مستقلة عن المجموع العصبي المخي الشوكي ، واذا كانت موجودة وجوداً مستقلا ، فلا يوجد سبب لان تنحل بانحلاله

ان بعض الظواهر ، مثل قراءة الوسطاء نصوصاً مجهولة ، تشهد بوجود روح ممتعة بخصائص خاصة . هذه الروح يمكن ان تكون روحنا ، ولم يثبت بأن هنالك أرواحا أجنبية تتدخل بين أرواح المجربين ، ومع هذا فافتراض تدخل روح اجنبية يجب ان يحتفظ به . لانه اذا ثبت ان الروح تبقى بعد الموت ، فلامندوحة من انها تكون موجودة في جهة ما ، واذا كانت روحنا تستطيع ان تستكشف شيئاً محجوباً عنها في مدة حياتنا ، فكيف يعقل انها تفقد هذا السلطان بعد الموت ؟

وكما اننا نعزو الي روحنا التأثير في احداث هذه الظواهر ، يجب علينا ان نقبل امكان تأثيرها بعد الموت ، ومقابلة الافتراضين احدهما بالآخر لمعرفة أيهما أسهل في التعليل به

والقول بأن هذه القراءات والنبوءات والاعمال النفسية والاتصالات الروحية تتحقق بدون شعورمنا ، يقتضي اشكالا اكبر من افتراض تدخل ارواح اجنبية فى احداثها

ويظهر ان هذين العنصرين لهما تأثير فى احداث هذه الظواهر ، وأريد بهما خصائصنا النفسية وتأثير الارواح الاجنبية . فلا يصح لنا ان نجمد على أمر من هذين الامرين

فنحن نعيش فى وسط المساتير ، وهذه المساتير توجب علينا التعطش لمعرفتها

فعدم قبولنا من الظواهر غير التي يمكن تعليلها بمعارفنا الحالية ضلال بعيد جداً ، فان عدم القدرة على تفسير مشاهدة لايقدح في صحتها ، ويجب على العلماء ان يجعلوا نصب اعينهم ملاحظات (اراغو) بمناسبة تاريخ الاحجار السماوية وهي :

« كان الصينيون يعتقدون ان سقوط الاحجار السماوية له ارتباط بالحوادث الارضية ، ولذلك جعلوا لها جداول تفسيرية . ولا أدرى ماذا كان يحق لنا أن نضحك من هذه الخرافة ؟ فهل كان علماء اوروبا أعقل منهم عند مارفضوا سقوط هذه الاحجار مع وضوحه ، محتجين بأن سقوط هذه الاحجار من الجو مستحيل ؟ ألم تعلن جمعية العلماء في سنة ١٧٦٩ بأن الحجر الذى أخذه ساعة سقوطه بقرب (لوسيه) ، جماعة من الناس تتبعوا سقوطه بأعينهم حتى مس الارض ، لم يسقط من السماء ؟ وأخيراً ألم تعتبر الجرائد المحضر الذى عمله مجلس بلدي (جوليـاك) ، في ١٤ يوليو سنة ١٧٧٠ ، عن سقوط مقدار عظيم من الاحجار في الحقول وعلى الدور وفى شوارع القرية ، من الاقاصيص المضحكة الموجبة للرحمة ، لا من العلماء وحدهم ولكن من جميع العقلاء ؟

« فالطبيعيون الذين لا يريدون ان يقبلوا غير الحوادث التي يتراءي لهم تعليل لها ، أضر على تقدم العلوم من أولئك الذين يوصمون بأنهم يصدقون كل ما يلقى اليهم » انتهي

وأنا كم كررت قولى انه من الضلال المبين الظن بأن كل حادثة لا يمكن تفسيرها لا يجوز قبولها ؟ ففهم أية حادثة أو عدم فهمها لا يقدح فى صحة وجودها . هذا ما قاله سيسرون من قبل

ان الحادثة مهما كانت لا تفهم تعتبر حادثة . ولكن التعليل الذى لا يفهم لا يعتبر تعليلا . فالخصائص العقلية التي رأيناها عالة فينا تثبت انه يوجد في الانسان عنصر نفسي متميز عن تركيبه الطبيعي ، يري من خلال الزمان كما يري من خلال المكان ، نافذ في العالم المحجوب عنا ، ولديه المستقبل والماضى حاضران على السواء

نحن ندرس هنا علم الروح الذي لا يمكن نكرانه بوجه من الوجوه ، فلأجل أن نحل غامضة الموت ، ونبرهن على بقاء الروح بعد انحلال الجسد ، يجب علينا أولا أن نقتنع بأن الروح لها وجود خاص ، وجود يبرهن عليه بخصائصها الخاصة التي طبيعتها فوق طبيعة الجسد ، ولا يمكن تشبيهها بخصائص المخ المادي ، ولا بالانعكاسات الكيماوية ، او

الميكانيكية ، تلك الخصائص مثل تأثير الارادة بدون الاستعانة بالالفاظ ، والتلقين الذاتي المحدث لنتائج طبيعية ، والشعور بالحوادث المستقبلة ، والتأثير والتأثر عن بعد ، والانتقالات الفكرية ، والقراءة في كتاب مقفل ، ورؤية بلدة بعيدة أو منظر أو حادثة مستقبلة بمحض الروح ، فان هذه الامور الخارجة عن نطاق تركيبنا الفزيولوجي ، والتي لاارتباط بينها وبين شعوراتنا العضوية، تثبت ان الروح جوهر مستقل موجود في ذاته . واني أرجو أن يكون قد قام على ذلك الدليل القاطع في هذا الكتاب

والمشاهدات النفسية تدل على ان الكون ليس قاصراً على الاشياء التي تدركها حواسنا الخمسة أو الستة المشتقة من وراثتنا الحيوانية ، بل انه توجد عوالم أخري غيرها في هذا الكون

ونحن بعد أن برهنا علي وجود شخصيتنا الروحية ، سنبدأ على هذا الاسلوب التجريبي عينه بدرس الحوادث المصاحبة للموت ، وظهور من هم في حالة النزع في أمكنة بعيدة ، وظهور أرواح الاحياء والموتي ، وتركيب الكائن النفساني ، والدور المسكونة بأرواح الموتى ، والاتصال بالمتوفين ، وأدلة بقاء الجوهر النفساني بعد الموت والجسم الاثيرى . فان كل الذى يتعلق بالحياة نفسها

وقد وصلنا الي درس مايتعلق بالموت، وما يبقى بعد الساعة الاخيرة للوجود الجسداني . فان هذا التأليف (ضد التحليل) الروحاني الجديد يتركب من ثلاثة أقسام متتابعة منطقياً وهي : ماقبل الموت ، وما حول الموت ، وما بعد الموت

(١) فما قبل الموت موضوعه اقامة الدليل على وجود الروح (وهو كل ماسبق)

(٢) وما حول الموت موضوعه حوادث ظهور الذين في حالة النزع ، والصورة الثانية للانسان الواحد، وحوادث الامور الباطنية

(٣) وما بعد الموت حوادث ظهور الموتي ، وحالة الروح بعد الموت

فالجزآن الثاني والثالث من هذا المؤلف قد تم تأليفهما كهذا الجزء وسينشران على التتابع

وغرضنا الوحيد من هذا العمل، ومطمحنا منه، هو ان تحمل هذه المجموعة على قدر الامكان، في الحالة الراهنة للعلم الصحيح، روح الطمأنينة التي تتعطش اليها النفوس بحق، وهي في طريقها لادراك الحقيقة

وهذا الجزء الاول من عمل كثير التركيب، يثبت وجود الروح الانسانية مستقلة عن التركيب الجثماني . هذه، كما يظهر لي، مسألة قد تقررت نهائياً، وهي من القيمة بالمحل الاعلى بالنسبة لكل مذهب فلسفي

(المترجم) انتهينا والحمد لله وحده من ترجمة الجزء الاول من كتاب العلامة الاكبر كاميل فلامريون، وسنبدأ بترجمة الجزء الثاني، ونوالي الترجمة حتى تتم هذه الاجزاء الثلاثة التي تعتبر في اوروبا بحق من الاحداث الفلسفيـــة الكبرى التي لن يقف تأثيرها عند حد











